تشارلز ديكنز

2020
4.1.2020

مذكرات بكوك

رواية

الجزء الثاني

آفاق للنشر و التوزيع
AFAQ BOOKS

ترجمة: عباس حافظ

تشارلز ديكنز

مُذّكــرات بكـوك

روايــة

ترجمة

عباس حافظ

الجزء الثاني

آفاق للنشر والتوزيع

- **Author : Charles Dickens**
- **Title: The Pickwick Club**
- **Translated by: Abbas Hafez**
- **Afaq's first edition: 2018**
- **Cover Design by: Amr El Kafrawy**
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Editor: Tarek Hashim

- **المؤلف: تشارلز ديكنز**
- **العنوان: مذكرات بكوك**
- **ترجمة: عباس حافظ**
- **طبعة آفاق الأولى 2018**
- **تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي**
- **مستشار النشر: سوسن بشير**
- **المحرر العام: طارق هاشم**

رقم الإيداع:

٢٠١٧ / ٥٣٠٩

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977-765 - 093 - 9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ديكنز، تشارلز.
تشارلز ديكنز : مذكرات بكوك - ترجمة: عباس حافظ
ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018
720 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 5309 / 2017
الترقيم الدولي 9 - 093 - 765 - 977 - 978
1 - الأدباء (روايات)
2 - ديكنز، تشارلز

الفصل الثلاثون

كيف تم التعارف بين البكوكيين وبين شابين ينتميان إلى إحدى المهن الحرة وتوثق رباط المعرفة بينهما، وكيف سلكوا في رياضة الانزلاق على الجليد، وكيف انتهت زيارتهما الأولى

وقال المستر بكوك لخادمه ذي الحظوة لديه، حين دخل عليه حجرة نومه بالماء الدفيء في صباح يوم عيد الميلاد: «إيه يا سام؟ ألا يزال الجو صقيعًا؟».

وأجاب سام قائلًا: «إن الماء في الحوض المعد لغسل اليدين مغطى فاستحال لكتلة من الجليد يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «إنه لجو قاس يا سام».

وأجاب المستر ويلر: «بديع لمن يحسنون التوقي منه بسميك الثياب، كما قال دب القطب لنفسه وهو يتدرب على الانزلاق».

وقال المستر بكوك، وهو يفك خيط طاقية النوم: «سأنزل بعد ربع ساعة يا سام».

وأجاب سام: «حسن جدًّا يا سيدي. إن في الطبقة الدنيا من البيت منشاريّ عظام».

وقال المستر بكوك، وهو يستوي جالسًا في فراشه: «منشاري ماذا؟».

وأجاب سام: «منشاريّ عظام».

وسأله المستر بكوك وهو غير واثق هل تراه يعني حيوانًا حيًّا أو شيئًا يؤكل: «وما هو منشار العظام؟».

وقال المستر ويلر: «ماذا أسمع؟ ألا تعرف منشار العظام يا سيدي؟ لقد كنت أظن أن كل إنسان يعرف أن منشار العظام هو الجرّاح».

وابتسم المستر بكوك وقال: «إنه الجرّاح؟».

وقال سام: «إنه هو، وإن كان الشابان اللذان يجلسان في الطابق الأول ليسا منشارين منتظمين مستكملين؛ لأنهما لا يزالان تحت التمرين».

وقال المستر بكوك: «أو بعبارة أخرى أنهما طالبا طب. أظن أن هذا هو ما تقصد».

فأومأ المستر ويلر إيماءة الإيجاب.

ومضى المستر بكوك يقول، وهو يلقي بطاقيته بقوة فوق ملاءة الفراش: «إن هذا ليسرني، فإن طلبة الطب قوم ظرفاء للغاية، ولهم أحكام وآراء في الأمور ناضجة، بفضل الملاحظة وطول الأناة والتفكير، كما أن لهم أذواقًا صقلتها القراءة، وهذبتها الدراسة.. إني لفي غاية السرور».

وقال سام: «إنهما يدخنان لفافات كبيرة بجانب موقدة المطبخ».

وقال المستر بكوك، وهو يفرك يديه: «آه إنهما ليفيضان رقة وحيوية، وهو ما أحب أن أشهده بعيني».

وانطلق سام يقول دون أن يلاحظ مقاطعة سيده: «وقد جلس أحدهما واضعًا ساقيه فوق المائدة، وراح يشرب البراندي صرفًا، بينما تناول الآخر المشغول بالمحار برميلًا من القواقع البحرية الحية بين ركبتيه وجعل يفتحها بسرعة البخار، أو بالسرعة ذاتها التي يأكلها بها، ويقذف بالمحارات على الغلام السمين الذي يغط في النوم في ركن المطبخ».

وقال المستر بكوك: «هذا شذوذ العبقرية يا سام، لك أن تنصرف».

وانصرف سام كما أُمِر، وبعد ربع ساعة نزل المستر بكوك لتناول طعام الفطور.

وصاح المستر واردل قائلًا: «ها هو ذا أخيرًا! يا مستر بكوك، أعرفك بالمستر بنجمن ألن، شقيق مس ألن، ونحن ندعوه «بن»، ولك أن تدعوه كذلك إذا شئت، أما هذا السيد فهو صديقه الحميم المستر...».

وعاجله المستر بنجمن ألن قائلًا: «المستر بب سوير».

وضحك المستر بب سوير والمستر بنجمن ألن في نفس واحد.

وانحنى المستر بكوك لبب سوير، وانحنى بب سوير للمستر بكوك، وانصرف بب وصديقه الحميم بعد ذلك إلى الهجوم على الأطعمة المصفوفة أمامهما في حماسة بالغة، وتواتى للمستر بكوك إلقاء نظرة

عاجلة عليهما معًا.

وكان المستر بنجمن ألن شابًّا عبلًا ضخمًا مفتولًا ذا شعر أسود قصير إلى حدٍّ ما، ووجه أبيض طويل نوعًا، وقد تجمل بمنظار، ومنديل رقبة ناصع اللون، وقد بدت من تحت ردائه الأسود المسبغ المزرر إلى ذقنه ساقاه الشبيهتان بلون الفلفل الخليط بالملح، والمنتهيتان بحذاء منطفئ البريق يعوزه الصقل واللمعان.

وكانت سترته قصيرة الردنين، ولكنهما على قصرهما لا يكشفان عن أثر لكُمٍّ قميص، وكان وجهه من الحجم بحيث لا يضيق عن توافر طوق للقميص ولكنه لم يتجمَّل بأقل شيء يمكن أن يشبه هذه الزائدة، وإن بدت بزته في الجملة عفنة الرائحة من طول العهد، ودبيب البلى، ويعبق منه شذى التبغ من فرط تدخينه.

وأما المستر بب سوير فقد كان مرتديًا سترة خشنة، زرقاء اللون، لا هي بالمعطف، ولا بالرداء المسبغ، ولكنها تشترك في طبيعتيهما، وصفاتهما معًا، كما تلوح عليه «الرشاقة» المرسلة بغير عناية، ولا احتفال بالهندام، وتبدو على مشيته التهادي من الخيلاء، وهو نزوع يغلب على الفتيان الذين يدخنون في الشوارع نهارًا، ويصرخون ويصيحون فيها ليلًا، وينادون غلمان «المشارب» بأسمائهم الأولى، بغير كلفة، ويأتون أفعالًا وحركات مماثلة من التبذل والمجانة، وكان يرتدي سراويل مخططة، وصدارًا رحيبًا ذا شقين، وإذا خرج إلى الطريق حمل عصا غليظة ذات رأس كبير، ويلبس قفازًا، ويبدو في الجملة مخلوقًا يشبه بوجه عام روبنسون كروزو فاجرًا.

كذلك كان هذان الشابان اللذان قُدِّمَ المستر بكوك إليهما للتعارف، عندما اتخذ مجلسه إلى مائدة الفطور في صبيحة يوم عيد الميلاد.

وقال المستر بكوك: «صباح رائع أيها السادة».

وأومأ المستر بب سوير إيماءة خفيفة بالموافقة، وطلب إلى المستر بنجمن ألن، أن يقرب منه وعاء الخردل.

وانبرى المستر بكوك يسألهما: «هل جئتما في هذا الصباح من مكان بعيد أيها السيدان؟».

وأجاب المستر ألن بإيجاز: «من فندق الأسد الأزرق في ماجلتون».

وقال المستر بكوك: «كان أولى لكما أن تكونا معنا الليلة البارحة».

وأجاب بب سوير قائلًا: «كان يصح، ولكن البراندي كان من فرط الجودة بحيث لا ينبغي أن نتركه في عجلة، ألم يكن كذلك يا بن؟».

وقال المستر بنجمن ألن: «بلا شك، واللفافات الكبيرة لم تكن رديئة، وشرائح الخنزير أيضًا، أليس كذلك يا بب؟».

وأجاب بب: «لم تكن رديئة دون شك».

وعاد الصديقان الحميمان يهجمان على الفطور أشد فتكًا من قبلُ، كأن ذكرى عشاء الليلة الماضية قد أضفت على طعام الصبح شهية جديدة.

وقال المستر ألن لصاحبه مشجعًا: «امض في الأكل يا بب».

وأجاب هذا قائلًا: «هأنذا».

وفي الحق، كان كذلك وانثنى يقول، وهو يرسل عينيه حول المائدة: «لا شيء أفتح للشهية من التشريح».

وشعر المستر بكوك من هذا القول برعدة خفيفة.

وقال المستر ألن: «والشيء بالشيء يذكر يا بب، هل انتهيت من تلك الساق؟».

قال: «كدت.. إنها ساق مفتولة العضلات لا يكون مثلها لطفل».

وراح يلتهم نصف دجاجة وهو منطلق في حديثه.

وسأله المستر ألن بغير اكتراث: «أهي حقًّا كذلك؟».

قال وفمه بالطعام ممتلئ: «جدًّا».

وعاد المستر ألن يقول لصاحبه: «لقد كتبت اسمي طالبًا ذراعًا ترسل إلينا في مسكننا، ونحن جميعًا باحثون عن موضوع ندرسه، أو مادة نتناولها بالبحث، حتى كادت قائمة الأسماء تمتلئ، ولكننا لا نستطيع أن نهتدي إلى أحد يريد رأسًا. أود لو أنك أخذت هذا الموضوع لنفسك».

وأجاب بب سوير قائلًا: «كلا، لا أملك الإنفاق على الكماليات الكثيرة النفقة».

وقال ألن: «هراء».

وعاد بب سوير يقول: «لا أملك فعلًا، لا بأس عندي من أخذ المخ، أما الرأس كله، فليس في إمكاني أن أكفل نفقاته».

وقال المستر بكوك: «صه، صه، أيها السيدان، إني أسمع وقع أقدام السيدات وهن يقتربن منا».

وبينما كان المستر بكوك يقول ذلك، عادت السيدات في حراسة السادة سنودجراس وونكل وطبمن من نزهة باكرة.

وقالت أرابلا بلهجة أقرب إلى الدهشة منها إلى السرور برؤية أخيها: «أأنت هنا يا بن؟».

وأجاب بنجمن: «لقد جئت لأعود بك غدًا إلى البيت».

وارتد وجه ونكل شاحبًا.

وقال المستر بنجمن ألن لأخته في لهجة قريبة من العتاب: «ألا ترين بب سوير يا أرابلا؟».

فمدت أرابلا برقة بالغة يدها، إلى بب سوير إقرارًا بوجوده، ولم يلبث قلب المستر ونكل أن أحس رعشة الكراهية، حين رأى بب سوير يضغط اليد المبسوطة إليه ضغطة ظاهرة.

وقالت أرابلا وقد احمر وجهها حياء: «يا عزيزي بن، هل عرفوك بالمستر ونكل؟».

وأجابها شقيقها بلهجة الجد: «لم يعرفوني به، ولكني سأكون في غاية السعادة إذا تعارفنا يا أرابلا».

وهنا انحنى المستر ألن للمستر ونكل، بينما راح المستر ونكل والمستر بب سوير ينظران نظرة ريبة متبادلة من طرفي عينيهما.

وكان من شأن مقدم هذين الزائرين الجديدين، وما أحدثه من رد فعل للمستر ونكل والشابة ذات الفراء المركب فوق حذائها، أن يكونا بلا ريب عائقًا غير سار يحول دون مرح القوم وابتهاجهم لولا لطف المستر بكوك وإيناسه، ولولا مجانة رب الدار ودعابته، وإقبالهما بكليتهما على المجون لإمتاع القوم وإدخال السرور على نفوسهم، وما لبث المستر ونكل أن سكن رويدًا إلى تحيات المستر بنجمن ألن وتلطفاته، بل إنه راح يشترك في حديث ودي مع المستر بب سوير، وكان هذا من أثر البراندي ومتعة الفطور، ولذة الحديث، قد أوغل في المرح، وتناهى في المجانة، ومضى بفرح شديد يقص حكاية لطيفة تتصل بعملية إزالة خراج من رأس أحد الناس، وجعل يصوره للجمع بمحارة وكسرة من رغيف، وسرَّ الجمع من ذلك سرورًا كبيرًا.

وخرج القوم جميعًا بعد ذلك ليذهبوا إلى الكنيسة؛ حيث لم يلبث المستر بنجمن ألن أن استولى عليه النعاس وانثنى المستر بب سوير يجرد نفسه من التفكير في أمور الدنيا ومشاغلها، من طريق نقش اسمه بمطواة على المقعد الذي اتخذه في صحن الكنيسة بأحرف ضخمة لا تقل عن أربع بوصات طولًا.

وانبرى المستر واردل يقول، عقب غداء دسم واحتساء قدر وفير من الجعة القوية والبراندي المصنوع من الكرز: «والآن ما قولكم في قضاء ساعة فوق الجليد؟ إن أمامنا فسحة طيبة من الوقت».

وقال المستر بنجمن ألن: «فكرة بديعة».

وصاح المستر بب سوير: «من الطراز الأول».

وقال المستر واردل: «إنك تحسن الانزلاق بالطبع يا ونكل؟».

وأجاب المستر ونكل مضطربًا: «أي.. نعم.. أي نعم، ولكني تركت التمرين من وقت طويل».

وقالت أرابلا: «بالله يا مستر ونكل انزلق! إنني أحب كثيرًا أن أراك تنزلق».

وقالت شابة أخرى: «إنه لمشهد جميل جدًّا».

وقالت ثالثة: «إنه لبديع»، وقالت رابعة: «إنه لأشبه بسبح البجع».

وقال المستر ونكل، وقد احمر وجهه: «يسعدني الانزلاق بلا شك، ولكن ليس عندي قبقاب».

ولكن هذا الاعتراض أزيل في الحال؛ فقد كان ترانذل يملك قبقابًا إضافيًّا، وقال الغلام البدين: إن لديهم في المخزن ستة أو نحوها من القباقيب، فلم يَسَعِ المستر ونكل إلا أن يبدي أشد السرور، وإن بدا عليه أشد الارتباك.

وانطلق الشيخ واردل يهم، وهو في الطليعة، إلى صفحة رحيبة من الجليد، وشرع الغلام البدين والمستر ويلر يجرفان الثلج الذي تساقط عليهما الليلة الماضية، وأقبل المستر بب سوير على لبس قبقابه ببراعة بدت لعين المستر ونكل عجيبة كل العجب، بينما انثنى بب يرسم دوائر بساقه اليسرى وينقش أرقامًا تشبه الثمانية على صفحة الجليد، دون أن يقف لحظة ليتمالك أنفاسه، ويؤدي عدة ألعاب وحركات أخرى بديعة

طريفة، لقيت ارتياحًا متناهيًا من المستر بكوك والمستر طبمن والسيدات، وهو ارتياح بلغ ذروة الحماسة، حين راح الشيخ واردل، وبنجمن ألن، بمعاونة بب، يؤديان معه بعض الألعاب الغريبة، والتشكيلات المبتكرة، التي يسمونها اللف والدوران.

وكان المستر ونكل طيلة ذلك الوقت، وقد ارتد وجهه ويداه مزرقة من البرد، يحاول جاهدًا إدخال مثقب في مشطي رجليه، ولبس القبقاب مقلوبًا، وجعل الأربطة في حالة تعقد واشتباك شديدين، وذلك بمساعدة المستر سنودجراس، وهو أجهل بالقباقيب من الهندي نفسه، وأخيرًا، وبعد معاونة المستر ويلر، تيسر للقبقاب السيئ الحظ أن يثبت في مكانه ويتم ربطه وعندئذٍ رفع المستر ونكل من موضعه ليقف بالمزلاق على قدميه.

وقال سام مشجعًا: «والآن هيا يا سيدي انطلق لتريهم براعتك».

وصاح المستر ونكل وهو يرتعش بشدة، ويمسك بذراعي سام إمساكة الغريق: «قف يا سام. قف! إنه لمنزلق خطر يا سام».

وأجاب المستر ويلر: «هذا شيء مألوف على الجليد يا سيدي، تماسك يا سيدي واثبت».

وكانت هذه الملاحظة الأخيرة التي أبداها المستر ويلر تشير إلى حركة بدت في تلك اللحظة من المستر ونكل، توحي برغبة جنونية في رفع قدميه في الفضاء وضرب رأسه فوق الجليد.

وقال المستر ونكل وهو يترنح ولا يكاد يستوي على ساقيه: «هذه

قباقيب سمجة. أليست كذلك يا سام؟».

وأجاب سام قائلًا: «أخشى يا سيدي أن يكون السمج هو السيد الذي يقف عليها».

وهنا صاح المستر بكوك، وهو لا يدري أن هناك حرجًا: «والآن يا ونكل، هيا، إن السيدات جميعًا في لهفة بالغة وصبر نافد».

وقال المستر ونكل بابتسامة مروعة: «نعم، نعم، أنا قادم».

وانثنى سام يقول، وهو يحاول أن يتخلص من إمساكته به: «إنه سيبدأ اللحظة. والآن، هيا يا سيدي، انطلق».

وقال المستر ونكل في جزع، وهو يتشبث بالمستر ويلر ويحتضنه احتضانة المتوسل المشتاق: «قف لحظة يا سام. لقد تذكرت أن لدي في البيت سترتين لست بحاجة إليهما. فلتكونا لك يا سام».

وأجاب المستر ويلر: «شكرًا لك يا سيدي».

وقال المستر ونكل في عجلة: «لا داعي لرفع يدك إلى قبعتك يا سام، حتى لا تنتزعها مني، لقد كنت أريد في هذا الصباح أن أنفحك بخمسة شلنات بمناسبة العيد، ولكني سأقدمها إليك في الأصيل يا سام».

وأجاب المستر ويلر: «إنك كريم جدًّا يا سيدي».

قال: «أمسك بي أولًا يا سام، أرجوك، أي نعم، هكذا، وسأعتاد الوقوف قريبًا، لا تسرع هكذا يا سام، رفقًا، رفقًا».

وانحنى المستر ونكل إلى الأمام، تاركًا جسمه في نصف قوس،

بينما مضى المستر ويلر يعاونه على الانزلاق بشكل غريب، أبعد ما يكون عن سبح البجع. وإذا المستر بكوك، وهو خالي الذهن تمامًا، يصيح من العدوة المقابلة: «يا سام؟».

وأجاب هذا قائلًا: «نعم يا سيدي».

قال: «تعال هنا، إني بحاجة إليك».

وقال سام للمستر ونكل: «اتركني يا سيدي، ألا تسمع السيد يناديني؟ اتركني من فضلك».

وانثنى المستر ويلر بجذبة شديدة يتخلص من هذا البكوكي المعذب، فكانت تلك الجذبة بمثابة دافع شديد للمستر ونكل المسكين، فانطلق هذا السيد السيئ الحظ، بدقة لا تكفلها البراعة بأي شكل من أشكالها، ولا المرانة في أية صورة من صورها، إلى وسط الحلقة، في اللحظة ذاتها التي كان المستر بب سوير فيها يؤدي حركة جميلة بارعة لا مثيل لها، فاصطدم به صدمة عنيفة فسقطا معًا سقطة شديدة ذات صوت مدوٍّ، جعلت المستر بكوك يعدو صوب الموضع، وإذا بب سوير ينهض على قدميه، ولكن ونكل كان أحكم وأعقل من أن يحاول شيئًا كهذا وهو في القبقاب، فلبث جالسًا فوق الثلج يحاول جاهدًا أن يبتسم، وإن ارتسم الألم البالغ على معارف وجهه، وسائر معالم صفحته.

وسأله المستر بنجمن ألن في قلق شديد: «هل أصابك أذى؟».

وأجاب المستر ونكل، وهو يدعك ظهره دعكًا شديدًا: «ليس بأذى كثير».

وقال المستر بنجمن بلهفة بالغة: «أود لو سمحت لي بفصدك».

وأجاب المستر ونكل بعجلة: «لا، شكرًا لك».

وقال ألن: «أظن حقًّا أن في ذلك خيرًا لك».

وأجابه ونكل: «شكرًا لك، أفضل ألا أفصد».

وسأل بب سوير المستر بكوك قائلًا: «ما رأيك أنت يا مستر بكوك؟».

وكان المستر بكوك هائجًا محنقًا، فأشار إلى المستر ويلر وهو يقول بصوت غاضب: «انزع القبقاب من رجليه».

واحتج المستر ونكل قائلًا: «كلا. ولكني لم أكد أبدأ الانزلاق..».

وكرر المستر بكوك الأمر بلهجة التوكيد: «قلت لك انزع المزلاق من قدميه».

ولم يكن ثمة مفر من إطاعة هذا الأمر، فترك المستر ونكل لسام الامتثال له، وهو صامت لا ينبس.

وعاد المستر بكوك يقول: «والآن ارفعه».

وأعانه سام على النهوض.

وابتعد المستر بكوك بضع خطوات من أعين النظارة، وأشار إلى صديقه بأن يقترب منه، وألقى عليه نظرة فاحصة، وقال مخافتًا بصوته، وإن كان قوله واضحًا قويًّا، تلك الألفاظ العجيبة: «أنت مخادع يا سيدي».

وأجفل المستر ونكل وقال: «أنا ماذا؟».

قال: «مخادع يا سيدي، وإن شئت قولًا أصرح، فأنت مدع يا سيدي».

فلما قال مستر بكوك هذا استدار ببطء وعاد إلى أصدقائه.

وبينما كان المستر بكوك يصارح صديقه بهذا الشعور الذي وصفناه، كان المستر ويلر والغلام البدين يشتركان في الانزلاق، ويؤديان معًا حركات بارعة وألعابًا باهرة، ولا سيما سام ويلر، فقد انطلق في انزلاقات جميلة بارعة كان يطلق يومئذ عليها قولهم «دق باب الإسكاف»، وهي حركة تقتضي الانزلاق على أديم الجليد بقدم واحدة، ثم دقه من حين إلى حين بالقدم الأخرى، كما يدقه ساعي البريد، وهي انزلاقة طويلة متقنة، لم يسع المستر بكوك إلا أن يحسده عليها، وهو يرتعش بردًا من طول وقفته وجمود حركته.

وانثنى يقول للشيخ واردل، حين رآه متقطع الأنفاس لاهثًا من تلك الحركات المستمرة التي أحالت ساقيه إلى شيء أشبه «بفرجار»، ومن رسم مسائل معقدة على الجليد: «إن هذه الألعاب تبدو رياضة مدفئة، أليست كذلك؟».

وأجاب واردل: «إنها لكذلك حقًّا. هل تنزلق؟».

قال: «كنت أفعل ذلك في الشوارع على أغطية البالوعات وأنا صبي صغير».

قال واردل: «جربه الآن».

وصاحت السيدات جميعًا قائلات: «هلا جربت الانزلاق يا مستر بكوك».

قال مستر بكوك: «يسعدني أن أفعل أي شيء لإرضائكن. ولكني لم أفعل هذا أو نحوه منذ ثلاثين عامًا».

وقال واردل وهو يخلع قبقاب الانزلاق من قدميه، منطلقًا بذلك التهور المعهود منه في كل عمل يأتيه: «هراء.. هيا بنا.. سأسايرك في الانزلاق. هلم بنا». ومضى الشيخ اللطيف المرح على مزلاقه مندفعًا بسرعة لم يلبث أن أطبق بها على المستر ويلر والغلام البدين، وبزهما في البراعة وفاقهما إلى حد بعيد.

وتمهل المستر بكوك، وفكر مليًّا، ثم نزع القفازين من يديه ووضعهما في القبعة، وراح يجري جريتين أو ثلاثًا قصيرات، ثم تردد طويلًا، ولكنه عاد أخيرًا يجري مرة أخرى، ثم يبطئ محتشمًا متزنًا على «مزلاقه»، فارجًا قدميه كثيرًا، في وسط حماسة النظارة، وصرخات ارتياحهم وصيحات السرور المنبعة من أفواههم.

وقال سام: «خل القدر تغلي يا سيدي»[1]. وانبعث واردل يعدو، ومن ورائه المستر بكوك، ثم سام، ومن خلفه جاء ونكل، ثم المستر بب سوير، فالغلام البدين، فالمستر سنودجراس، وهم متتابعون متلاحقون بلهفة حارة، كأن مصائرهم في الحياة مرتهنة بتلك الرحلة العجلى على الجليد.

---

(١) أي استمر، لا تطفئ حرارة اللعب.

وكان أشد شيء إمتاعًا للعين رؤية المستر بكوك وهو يؤدي حركاته، ويقاسم اللاعبين ألعابهم، ومراقبة مدى القلق الشديد الذي كان ينظر به إلى اللاعب القادم في أثره، وهو يلاحقه فيعرضه لخطر وطئه بقدمه، ومشاهدته وهو يبذل تدريجًا جهده الأليم الذي أبداه في بداية الأمر، ثم ينعطف في رفق حول الحلقة، موليًا وجهه شطر البقعة التي بدأ منها، وتأمله وهو يبتسم تلك الابتسامة المرحة التي كانت تغمر محياه، كلما أتم اللف، وتلك اللهفة التي كان يدور بها كلما أتمها، ثم يعدو في أثر المتقدم عنه، وغطاء ساقيه وهو يهتز اهتزازة بديعة خلال الثلج، وعيناه تشعان ببريق البِشر والفرح من وراء منظاره، وكلما سقط- وهو ما كان يحدث غالبًا بعد كل ثلاث دورات- كان منظره أعجب ما يكون مشهدًا، وهو يتناول قبعته وقفازه ومنديله بسرور طافح على محياه، ويعاود اتخاذ مكانه من الحلقة بحماسة ولهفة لا ينال شيء منهما إطلاقًا.

وكان الانزلاق على أشده، وأسرع مداه، والضحك في أوج شدته، حين بلغ الأسماع صوت قعقعة حادة، وتلاه اندفاع سريع نحو الحافة، وصيحة مدوية من أفواه النساء، وصرخة من المستر طبمن، وتبين عندئذ أن كتلة ضخمة من الجليد توارت عن الأبصار، وأن الماء راح يحدث فقاقيع فوقها، وقبعة المستر بكوك وقفازه ومنديله طافية على أديمها، فلم يستطع أحد أن يشهد منه غير هذه الأشياء طافية.

وارتسم الذعر على الوجوه كلها، وشحبت وجوه الرجال، وأغمي على النساء، وتماسك المستر سنودجراس والمستر ونكل باليدين، وراحا ينظران إلى تلك بقعة التي هوى عندها زعيمهما بلهفة ورعب

بالغين، بينما مضى المستر طبمن في سبيل البدار إلى المعونة، وإبلاغ الأمر إلى مسامع الذين يحتمل أن يكونوا قريبين من الموضع لتصوير مدى الكارثة التي وقعت في تلك اللحظة، يعدو بأشد سرعة ممكنة صارخًا: «حريق!» بكل قوته.

وفي تلك اللحظة كان الشيخ واردل وسام ويلر يدنوان من الثغرة التي انفتحت في الثلوج بخطى محاذرة بينما كان المستر بنجمن ألن يعقد مع المستر بب سوير مؤتمرًا عاجلًا بشأن إجراء «حجامة» للقوم كلهم، على سبيل التمرين قليلًا على المهنة وعملياتها، في تلك اللحظة ذاتها ظهر وجه، ورأس، وكتف من تحت الماء، فكشفت عن معالم سحنة المستر بكوك ومنظاره.

وصاح المستر سنودجراس قائلًا: «اثبت فوق الجليد لحظة، لحظة واحدة».

وصرخ المستر ونكل وهو في أشد التأثر: «أتضرع إليك أن تثبت لحظة واحدة إكرامًا لي».

ولكن لم تكن ثمة حاجة إلى التوسل، وأكبر ظننا أنه إذا كان المستر بكوك قد رفض أن يثبت ويتماسك لحظة واحدة من أجل خاطر إنسان سواه؛ فقد كان أولى به وأدعى أن يتماسك ويثبت، من أجل نفسه هو ونجاته.

وقال واردل: «هل تحس القاع وأنت في مكانك هذا يا صاح؟».

وأجاب المستر بكوك وهو ينثر الماء عن رأسه ووجهه، ويحاول

استرداد أنفاسه: «نعم بلا شك، فقد سقطت على ظهري، ولم أستطع في بداية الأمر أن أنهض على قدمي».

وكان الطين الذي يلطخ الجزء الذي ظل فوق الماء من سترته دليلًا على صدق قوله، ومما زاد في طمأنينة القوم أيضًا تذكر الغلام البدين فجأة أن الماء لا يتجاوز عمقه في أي موضع خمسة أقدام، وحينئذٍ بذلت جهود تدل على البسالة لانتشاله، وأخيرًا بعد قدر كبير من النضال والصراع والجهاد العنيف، تيسر إخراج المستر بكوك من هذا الموضع الخطر، وعاد يقف على اليبس.

وصاحت إميلي قائلة: «أخشى عليه من فتكة البرد».

وقالت أرابلا: «واهًا له، دعني ألفك بهذه اللفاعة يا مستر بكوك».

وقال واردل: «هذا خير ما تفعلينه، فإذا تلفعت يا صاح به، فانطلق إلى البيت بأسرع ما تستطيع ساقاك أن تحملاك، واقفز إلى السرير في الحال».

وعرضت عليه في تلك اللحظة عدة لفاعات، وتم اختيار ثلاث أو أربع من أكثفها وبرًا فلفّ المستر بكوك فيها، وانطلق في حراسة المستر ويلر، وقد بدا شكله فريدًا، في صورة شيخ يقطر البلل منه، حاسر الرأس، لاصق الذراعين بجنبيه، طافرًا فوق أديم الأرض، على غير هدى منه، وبسرعة يبلغ معدلها ستة أميال في الساعة.

ولكن المستر بكوك لم يحفل بالمظاهر وهو في هذه الحال الشاذة، فظل على احتثاث المستر ويلر له مسرعًا في مسيره، حتى وصل إلى باب

«الضيعة»، وكان المستر طبمن قد وصل إليها قبله بخمس دقائق، وأثار الرعب في نفس السيدة العجوز، حتى جعل قلبها يخفق خفقانًا شديدًا، إذ حملها على الاقتناع الثابت بأن الحريق قد شب في مدخنة المطبخ، وهي كارثة كانت تتمثل دائمًا لخاطرها، في أوضح صورة، كلما أبدى أحد ممن حولها أقل هياج أو أدنى اضطراب.

ولم يتمهل المستر بكوك لحظة ولم يهدأ له بال حتى رقد في سريره، وأحس الدفء تحت الأغطية؛ فقد انطلق سام ويلر يوقد في الحجرة نارًا ذات لهب، ويحضر له الغداء، ثم قارورة من البنتش بعده، وأقيم سمر ممتع؛ احتفالًا بنجاته، ولم يقبل الشيخ واردل منه النهوض من فراشه، فجعلوا من السرير مقعد الرياسة، وتولى المستر بكوك رعاية الحفل منه، وطُلبت قارورة أخرى فثالثة، وعندما استيقظ المستر بكوك في صباح اليوم التالي لم يكن ثمة أثر فيه لوعكة برد، أو أعراض نقرس، وهو كما قال المستر بب سوير بحق دليل على أنه ليس هناك علاج أنجع في هذه الحالات ولا دواء أصلح من البنتش الساخن، وأنه إذا جاز يومًا ألا ينجع هذا الدواء، أو يمنع الإصابة بالداء، فلا يرجع الأمر إلا إلى وقوع المريض في ذلك الخطأ السوقي وهو عدم تناول كمية كافية منه.

وانفرط عقد الجمع المرح في غداة اليوم التالي، وانفضاض الجماعات أمر بديع في أيام الدراسة، ولكنه في الحياة أليم، وإن الموت والبحث عن المصلحة الخاصة، وصروف الحظ وتقلباته، لا تزال في كل يوم مفرقة للجماعات السعيدة، مشتتة الأحباب، ذاهبة بهم شرقًا ومغربًا، مفرقة بين الفتيان والفتيات فراقًا لا أوبة منه، ولسنا نريد بهذا أن

نقول: إن هذه هي الحال، في هذه المناسبات بالذات، وإنما كل ما نريد أن يفهم القارئ لا يتجاوز القول: إن أفراد هذا الجمع قد انصرف كل منهم إلى موطنه، وإن المستر بكوك وصحبه عادوا يشغلون مقاعدهم فوق سطح المركبة الشاخصة من «ماجلتون» وإن أرابلا انصرفت إلى المكان الذي كانت تقصده- أنى يكون هذا المكان- ولسنا نخشى أن نقول إن المستر ونكل يعرف أين هو، وقد ذهبت في رعاية أخيها بنجمن وصديقه الولي الحميم المستر بب سوير.

ولكن هذا السيد والمستر بنجمن ألن، انتحيا قبل الرحيل بالمستر بكوك ناحية، بشكل غريب، وراح المستر بب سوير يدفع بسبابته بين ضلعين من أضلاع المستر بكوك، مبديًا بهذه الحركة مبلغ مجانته ونزوعه إلى المزاح، ومدى علمه في الوقت نفسه بالتشريح ومعرفة دقائق الجسم البشري ومختلف أجزائه، ومضى يسأله: «قل لي يا صاح أين تقيم؟».

وأجاب المستر بكوك بأنه في الوقت الحاضر يقيم في فندق جورج والرخم.

وقال بب سوير: «أحب أن تجيء لتراني».

وأجاب المستر بكوك: «لا شيء أحب إلى نفسي من ذلك».

وأخرج المستر بب سوير بطاقته، وقال: «هذا عنوان مقري. شارع لانت، قصبة لندن، بقرب مستشفى جاي، لأنه قريب من محل عملي كما ترى، ولا يبعد كثيرًا بعد أن تجتاز كنيسة القديس جورج، وتنعطف

من شارع هاي ستريت يمنة».

وقال المستر بكوك: «سأعرف كيف أهتدي إليه».

وقال بب سوير: «تعال يوم الخميس بعد أسبوعين واصطحب الرفاق معك، فإني معتزم دعوة فريق من زملائي المنتمين إلى مهنة الطب في تلك الليلة».

وأبدى المستر بكوك سروره للقائهم، وبعد أن حدثه المستر بب سوير بأن الاجتماع سوف يكون ممتعًا وأن صديقه «بن» سيحضره، تصافحا، ثم افترقا.

وفي هذا المقام نشعر بأن رُبَّ سائل سيسألنا: هل كان المستر ونكل خلال هذا الحديث القصير يهمس لأرابلا ألن؟ وما الذي كان يهمس به لها؟ وهل كان المستر سنودجراس أيضًا يحادث على انفراد إميلي واردل؟ وما الذي قال هو لها؟ وجوابنا أنه مهما يكن الحديث الذي دار بينهما وبين الفتاتين، فإنهما لم يقولا عنه شيئًا للمستر بكوك ولا للمستر طبمن، طيلة الرحلة إلى المدينة، وهي مسافة ثمانية وعشرين ميلًا، بل راحا يتنهدان ويزفران بين الفينة والفينة، ويرفضان تناول شيء من الجعة أو البراندي ولبثا واجمَيْن مكتئبَيْن، فإن استطاعت سيداتي القارئات القويات الملاحظة استخلاص شيء من هذه الوقائع فليفعلن غير مأمورات.

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

كله حول القانون وبعض أساطين رجاله

تقوم في مختلف أَزِقَّةِ دار القضاء، وعديد زواياه، حجرات مظلمة قذرة، متناثرة يدخلها ويخرج منها، في كل صباح، خلال أيام العطلة القضائية، وزلفًا من الليل، في موسم العمل، فيض لا ينقطع من كتبة المحامين، وهم في عجلة ظاهرة، متأبطون ملفات من الأوراق، أو داسُّون شيئًا منها في جيوبهم، حتى لتبدو منها أطراف لها وذيول.

ويختلف معاشر كتبة المحامين مراتبَ، ويتباينون درجاتٍ؛ فمنهم الكاتب الذي اجتاز الامتحان، ودفع القسط[1]، وقد يصبح محاميًا على مر الأيام، وله «حائك» ثياب يدفع إليه قائمة الحساب، ويتلقى دعوات إلى المآدب، ويعرف أسرة من الأسر التي تقيم في شارع جوار، وأخرى في ميدان تافستوك، ويبارح المدينة كل إجازة طويلة، فيزور أباه الذي يقتني عددًا كبيرًا من الجياد أو هو باختصار الأرستقراطي بين معاشر كتبة المحامين.

(١) قسط معين من المال ينقده للمحامي الذي يتمرن لديه.

ومنهم الكاتب بمرتَّب، سواء كان عمله داخل المكتب أو خارجه، وهو الذي ينفق الشطر الأكبر من الثلاثين شلنًا التي يتقاضاها في الأسبوع على ملذاته الخاصة وزينته الشخصية، ويختلف بنصف الأجور إلى مسرح أدلفي ثلاث مرات على الأقل في كل أسبوع، ثم يقضي بقية الليل بعد ذلك في القصف والشراب في الحانات والأقبية، وقصارى القول فيه إنه صورة قذرة هزلية للطراز الذي انتهى من ستة شهور.

وهناك أيضًا الكاتب النَّسَّاخ الذي بلغ منتصف العمر، وله أسرة كبيرة، ولا يبدو في ثوب رثٍّ، وأكثر ما يلوح سكران منزوفًا من الشراب.

ويلي هؤلاء صبيان الكتبة الحديثو العهد بارتداء السترة المسبغة، والذين يشعرون بالسخرية من الأولاد الذين لا يزالون يتعلمون في المدارس، ويعودون ليلًا إلى بيوتهم للاستمتاع بأكل اللحم وشرب النبيذ، ويظنون أن لا شيء في العالم غير لذة «الحياة» وأن هناك من الأنواع والصنوف ما لا يتسع المجال لتلخيصه وشرحه، ولكنهم جميعًا، على كثرة ضروبهم ومراتبهم، يشاهدون في ساعات العمل ومواقيته، رائحين غادين في عجلة بين تلك الأماكن التي أسلفنا ذكرها.

وهذه الزوايا المنعزلة هي المكاتب التي تتخذ فيها الإجراءات القضائية ومنها تصدر إعلانات الحضور، وتوقَّع فيها الأحكام، وتُقَيَّدُ فيها التعهدات، وما إليها من عديد الإجراءات والتصرفات التي يراد تنفيذها لتعذيب رعايا صاحب الجلالة المخلصين وتوفير المتعة والأجور للمشتغلين بالقانون، وهي حجرات في الأغلب الأعم ذوات سقوف خفيضة، وغرف رطبة عفنة؛ حيث تنبعث من ملفات القضايا

والأوراق التي ظلت تتصبب عرقًا في خفية طيلة القرن الماضي روائح مستطابة تختلط في النهار بشذى العفونة الجافة، وتمتزج ليلًا بريح العباءات المشربة بالرطوبة، والمظلات العباقة بالعفن، ومن أخشن شموع الدهن.

وقد حدث حوالي السابعة والنصف من المساء، بعد عشرة أيام أو قرابة أسبوعين من عودة المستر بكوك وأصحابه إلى لندن، أن خرج رجل من أحد تلك المكاتب مهرولًا في سترة سمراء ذات أزرار نحاسية، وقد حرص على أن يلوي شعره الطويل حول حافة قبعته الملساء، وقد لصقت سراويله البالية الملطخة فوق حذائه القصير، حتى لتكاد ركبتاه تهددان بين لحظة وأخرى بالخروج من مخبئهما، وراح يخرج من جيب سترته وثيقة طويلة ضيقة العرض، كان الموظف المختص قد ختمها بخاتم أسود غير مقروء، ثم أخرج بعد ذلك أربع ورقات من الحجم ذاته، كل ورقة منها تحوي نسخة مطبوعة من الوثيقة عينها وفراغًا لكتابة الأسماء فيها، وبعد أن ملأ ذلك الفراغ في الصور الأربع، دسها هي والوثيقة الأصلية في جيبه وانطلق مهرولًا في سبيله.

ولم يكن ذلك الرجل صاحب السترة البنية اللون والذي يحمل تلك الأوراق النكراء في جيبه سوى صاحبنا القديم المستر جاكسن الذي يشتغل في مكتب المحامين ددسن وفج في محكمة فريمن بكورنهل، ولكنه بدلًا من أن يقفل راجعًا إلى المكتب الذي جاء منه، انحرف متجهًا صوب صن كورت وأخذ سمته رأسًا إلى فندق «جورج والرخم» وسأل هل في داخل المكان رجل يدعى المستر بكوك.

وقالت المرأة الموكلة بمكان الشراب: «ادع يا تم خادم المستر بكوك».

وقال المستر جاكسن: «لا تتعب نفسك، إنني قادم في مهمة، فإذا أريتني غرفته صعدت بنفسي إليها».

وقال غلام الفندق: «وما الاسم يا سيدي؟».

وأجاب الكاتب: «جاكسن».

وصعد الغلام ليعلن قدوم المستر جاكسن، ولكن هذا أغنى عنه مئونة الدخول، بالمشي في أثره ودخول الحجرة قبل أن يتمكن الخادم من النطق بحرف واحد، وكان مستر بكوك قد دعا أصدقاءه الثلاثة للعشاء، وكانوا كلهم جلوسًا حول المدفأة يحتسون النبيذ حين دخل عليهم مستر جاكسن بالصورة التي وصفناها من قبل، وقال وهو ينحني بالتحية للمستر بكوك: «كيف الحال يا سيدي؟».

وانحنى المستر بكوك ردًّا على التحية، وبدا عليه شيء من الدهشة؛ لأن سحنة المستر جاكسن لم تكن عالقة بخاطره.

وقال المستر جاكسن بلهجة الشرح والبيان: «إنني قادم يا سيدي من قبل ددسن وفج».

وانتبه المستر بكوك على سماع هذين الاسمين من سكينته فقال: «إنني أحيلك على وكيلي يا سيدي المستر بركر في فندق جريز.. يا غلام أر الطريق لهذا السيد».

وقال المستر جاكسن، وهو يضع قبعته بتؤدة فوق أديم الحجرة..

ويخرج من جيبه الوثيقة: «أستميحك معذرة يا مستر بكوك، ولكن الخدمة الشخصية، سواء من جانب كاتب أو وكيل، في هذه الأحوال يا مستر بكوك، ليس ثمة شيء أحكم من الحيطة يا سيدي في جميع الإجراءات والشكليات القانونية».

وألقى المستر جاكسن نظرة على الوثيقة، واعتمد على المائدة بكفه، وأجال عينه فيما حوله بابتسامة جذابة مغرية مقنعة، وانثنى يقول: «والآن لا داعي لأن نتبادل أي كلام في مسألة صغيرة كهذه. من منكم أيها السادة يدعى سنودجراس؟».

وعلى أثر هذا السؤال، أبدى المستر سنودجراس حركة ظاهرة جلية، لم تعد بعدها حاجة إلى جواب.

وانطلق المستر جاكسن يقول، وهو أشد رقة من قبل: «لقد كنت أظن ذلك، إن لديَّ شيئًا يسيرًا قد يزعجك يا سيدي».

وصاح المستر سنودجراس مبهوتًا: «أنا؟».

وأجاب جاكسن، وهو يختار إحدى الورقات ويخرج شلنًا من جيب صداره: «إنه لا يعدو إعلانك بالحضور في قضية باردل وبكوك، بناء على طلب المدعية بجلسة ينتظر أن تعقد عقب انتهاء العطلة، وينتظر أن تكون في الرابع عشر من شهر فبراير، وقد طلبنا أن تكون قضية خاصة أمام المحلفين، ودورها هو العاشر، وهذه هي الصورة الخاصة بك يا مستر سنودجراس».

ووضع المستر جاكسن الإعلان أمام عيني المستر سنودجراس، ثم

ألقى الصورة هي والشلن في راحة كفه.

وظل المستر طبمن يشهد هذه العملية في صمت ودهشة، وإذا المستر جاكسن يدور نحوه فجأة قائلًا: «لا أظنني مخطئًا في قولي إن اسمك طبمن، وهل تراني قد أخطأت؟».

فنظر المستر طبمن إلى المستر بكوك، ولكنه لم ير تشجيعًا في عينيه الواسعتين المتفتحتين على إنكار اسمه، فلم يسعه إلا أن يجيب قائلًا: «نعم أنا أدعى طبمن يا سيدي».

وقال المستر جاكسن: «وأن هذا السيد الآخر هو المستر ونكل؟».

وأجاب المستر ونكل متلعثمًا بالإيجاب، وبادر المستر جاكسن فسلم السيدين صورتين من الإعلان، وأعطى كلًّا منهما شلنًا، وانثنى يقول: «والآن أخشى أن تظنوا أني شخص متعب، ولكني أطلب شخصًا آخر غيركم، إذا لم يكن في ذلك متعبة لكم. إن أمامي اسم صمويل ويلر هنا في الأوراق يا مستر بكوك».

وقال هذا للغلام: «ادع خادمي إلى هنا».

وانصرف الغلام وهو في دهشة بالغة، وأشار المستر بكوك للمستر جاكسن بالجلوس.

وصادم صمت أليم، لم يلبث أن بدده المدعي عليه البريء بقوله: «أظن يا سيدي أن في نية مخدوميك محاولة إدانتي استنادًا إلى أقوال أصحابي وشهادتهم؟».

وراح المستر جاكسن يضرب الجانب الأيسر من أنفه بسبابته عدة

مرات، موحيًا بهذه الحركة أنه لم يأت ليكشف أسرار القضايا، ويقول بمكر ودعابة: «لا أعرف، لا أستطيع أن أقول».

وعاد المستر بكوك يقول: «ولأي سبب آخر يا سيدي يعلن أصحابي على هذا النحو، إن لم يكن لهذا السبب بالذات؟».

وأجاب جاكسن قائلًا، وهو يهز في بطء رأسه: «فكرة حسنة جدًّا يا مستر بكوك، ولكنها لا تكفي، ولا ضرر من محاولتها، ولكن لا شيء عندي يمكن أن تعرفه مني».

وعاد المستر جاكسن يبتسم للقوم، ويرفع إبهام يده اليسرى إلى طرف أنفه، ويدير طاحونة بن وهمية بيمناه، مؤديًا بعض الإشارات البارعة على سبيل التمثيل «الصامت» الذي كان شائعًا في تلك الأيام، ولكنه لسوء الحظ يكاد اليوم يصبح أثرًا بعد عين، وكانت تلك الحركة التي أتى بها المستر جاكسن تدعى عند الناس عادة «طحن البن»[١].

وعاد المستر جاكسن يقول في ختام حديثه: «كلا، كلا، يا مستر بكوك، إن رجال المستر بركر سوف يحزرون حتمًا ما هو الغرض الذي نرمي إليه من هذه الإعلانات، لإحضار الشهود، فإن لم يستطيعوا، فلا معدى لهم عن الانتظار حتى يحل موعد نظر القضية فيعرفوا الهدف».

(١) لعلها إشارة سخرية تشبه ما عندنا حين نتحدث عن «طحن البن»، وهو تحريك قبضة اليمنى فوق راحة اليسرى، والمعنى هنا أنه لا مفر من التسليم بالعقوبة.

وألقى المستر بكوك نظرة اشمئزاز متناهٍ على الزائر الثقيل، وأكبر الظن أنه كان يهم بأن يصب جام غضبه فوق رأسي ددسن وفج ويسلقهما بلسان حاد، لولا أن قطع عليه القول دخول سام في تلك اللحظة بالذات.

وقال المستر جاكسن مستوضحًا: «أهذا هو سام ويلر؟».

وأجاب سام بكل هدوء: «كلمة صدق لم تقل مثلها من سنين طوال».

وقال جاكسن: «هذا إعلان حضور لك يا مستر ويلر».

وأجاب سام: «وما معنى هذا باللغة الإنجليزية؟».

وقال جاكسن رافضًا شرح المعنى: «ها هي ذي الصورة الأصلية».

وقال سام: «أين هي؟».

وأجاب جاكسن وهو يهز الوثيقة: «هذه».

وقال سام: «آه، أهذه هي الأصل، إنني في غاية السرور لرؤية الأصل؛ لأنه شيء يسر حقيقة ويريح البال كثيرًا جدًّا».

وقال جاكسن: «وها هو ذا الشلن، من دسسن وفج».

وقال سام: «إنه لكرم غير مألوف أن يأتي ددسن وفج وهما لا يعرفان عني شيئًا، فيقدما إليَّ هدية. إنني لأشعر بأن هذه تحية بالغة يا سيدي، وشيء يشرفهما كثيرًا؛ لأنه يدل على أنهما يعرفان كيف يقدران المواهب حق قدرها، أينما وجداها، وهو أيضًا عمل يؤثر في شعور الإنسان وإحساسه».

وانثنى يمسح جفن عينه اليمنى بكم ثوبه، كما يفعل الممثلون وهم

يمثلون موقفًا يثير العواطف.

وبدت على المستر جاكسن الحيرة من حركات سام وتصرفاته، ولكنه رأى أنه قد أدى مهمته، وهي تسليم «الإعلانات»، وانتهى من تنفيذ ما جاء من أجله، فلا حاجة إلى مزيد من القول، فتظاهر بأنه يضع القفاز المفرد الذي اعتاد أن يحمله بإحدى يديه، لمجرد التظاهر ليس أكثر، وعاد أدراجه إلى المكتب لإبلاغ مخدوميه تفصيل ما جرى.

ولم يذُق المستر بكوك النوم إلا غرارًا في تلك الليلة؛ فقد تلقَّت ذاكرته ما أعاد إليها موضوع قضية مسز باردل، وتناول طعام الفطور مبكرًا في صبيحة اليوم التالي، وطلب إلى سام أن يصحبه وانطلق يريد ميدان فندق جريز.

وجال ببصره حين وصل إلى نهاية شارع تشيبسايد ونادى قائلًا: «يا سام».

وأسرع الخادم إليه فحاذاه وقال: «نعم يا سيدي».

قال: «من أين نعطف؟».

قال: «إلى شارع نيوجيت».

ولكن المستر بكوك لم يعطف مباشرة، وإنما راح ينظر إلى وجه سام شارد البصر لحظة، ثم يطلق زفرة عميقة من صدره.

وقال سام: «ما الخبر يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «هذه القضية يا سام ينتظر أن يحل موعدها في الرابع عشر من الشهر القادم».

وأجاب سام: «مصادفة عجيبة يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «ولِمَ تقول عجيبة؟».

وأجاب سام: «لأن هذا اليوم يوافق عيد «فالنتين» يا سيدي، فهو يوم لائق للمحاكمة في قضية تتصل بخيانة العهد[1] والتنصل من الوعد بالزواج.

ولكن الابتسامة التي بدت على فم المستر ويلر وهو يقول هذه العبارة لم تثر شيئًا من المرح في وجه المستر بكوك، بل استدار الرجل حوله فجأة وانطلق في طريقه صامتًا.

وما إن سارا غير بعيد، ولا يزال المستر بكوك سائرًا بخطى سريعة كما كان من قبلُ، وهو ساهم غارق في لُجَّةٍ من التفكير، ومن خلفه يمشي سام وعلى وجهه أبلغ أمارات التحدي وقلة المبالاة بكل شيء، حتى أسرع الأخير في خطوه، كما كان أبدًا دأبه كلما أراد أن يفضي إلى سيده بشيء خاص يعرفه، وقال حين لحق به وهو يشير إلى بيت مرَّا به: «هذا دكان لحم خنازير. بديع يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «يبدو لي أنه كذلك».

وعاد سام يقول: «هذا مصنع لحوم باردة ذائع الصيت».

وقال المستر بكوك: «أهو حقًّا؟».

وأجاب سام في شيء من الغيظ: «هو كذلك فعلًا أو هذا هو ما

(١) الرابع عشر من فبراير هو عيد القديس «فالتين»، وهو اليوم الذي قطع فيه رأسه، والذي يقال إن الطيور فيه تتسافد ويختار فيه الرجل حبيبته.

أعتقد. يا للعجب يا سيدي، سلامة نظرك، إن هذا هو الدكان الذي اختفى منه صاحبه منذ أربع سنوات، وكان اختفاؤه سرًّا غامضًا».

وتلفت المستر بكوك في عجلة قائلًا: «هل تعني يا سام أنه قتل خنقًا؟».

وأجاب المستر ويلر قائلًا: «كلا. ليس هذا ما أعنيه يا سيدي، ليت الأمر كان كذلك، ولكنه في الواقع أسوأ من ذلك وأدهى. لقد كان الرجل صاحب هذا الحانوت يا سيدي ومخترع الآلة البخارية التي تقطع اللحم شرائحَ ودوائرَ والتي تستطيع أن تبتلع البلاط لو وضعته بقربها فتطحنه شرائح وقطعًا صغيرة بكل سهولة ويسر كأنها تطحن وِلدانًا صغارًا في المهد، وكان الرجل معتزًّا بها كما هو طبيعي، وكان يقف في المخزن السفلي ينظر إليها وهي دائرة بأقصى سرعتها حتى ليستولي الفرح عليه، ويكاد منه يذرف الدمع، وكان من حق الرجل أن يكون سعيدًا جدًّا يا سيدي وهو يرقب بعينيه سير تلك الآلة، وبجانبه وَلَدان جميلان له، لولا زوجته؛ فقد كانت امرأة شكسة سليطة اللسان لا تكف عن تأنيبه، والطنين في أذنيه، حتى لم يعد يطيق عليها صبرًا، فقال لها في ذات يوم: «اسمعي يا عزيزتي، إذا أبيت إلا المضي في هذا النوع من المزاح، فسوف أذهب إلى أمريكا، وينتهي الأمر». فأجابته قائلة: «إنك لرجل بليد متعطل، وإني لأود لأمريكا أن تفرح وتغتبط بهذه الصفقة». ولبثت على هذه الصورة نصف ساعة تسبه وتشتمه، ثم انطلقت إلى الغرفة الصغيرة القائمة خلف الحانوت، وظلت تصرخ وتتشنج قائلة: إنه سيزهق روحها بهذا السلوك الذي يسلكه معها، حتى أغمي عليها

وظلَّت النوبة مستولية عليها ثلاث ساعات سويًّا، وكانت نوبة من تلك النوبات التي لا تنقطع خلالها عن الصياح والركل بالقدمين، وفي صباح اليوم التالي اختفى الزوج وتبين أنه لم يأخذ درهمًا واحدًا من الصندوق، بل لم يرتدِ أيضًا معطفه، مما يثبت أنه لم يذهب إلى أمريكا، وانقضى اليوم التالي ولم يعُد، وحل الأسبوع التالي، وهو لا يزال غائبًا، وكتبت السيدة إعلانًا تقول فيه: إنه إذا عاد فسوف تغتفر له كل شيء. وهو كرم منها وسماحة؛ لأنه في الواقع لم يأتِ شيئًا حتى يقتضي الغفران منها، وبُحث عنه في القنوات طيلة شهرين كاملين، وكلما وُجِدَتْ جثة حُمِلَتْ رأسًا إلى حانوت اللحوم، ولكن ظهر في كل مرة أن الجثة لم تكن جثته، ولهذا ذهبت الظنون إلى القول بأنه قد هرب، وظلت المرأة تتولى بنفسها العمل في الحانوت، ففي ذات مساء، وكان اليوم سبتًا أقبل شيخ ناحل على المتجر وانثنى يقول في حدة وغضب: «هل أنت ربة هذا الحانوت؟» قالت: نعم، قال: «لقد أتيت يا سيدتي لكي أقول إنني أنا وأفراد بيتي لا نريد أن نختنق بلا ذنب جنيناه، بل أكثر من هذا يا سيدتي لي أن ألاحظ أنك لا تستخدمين الأجزاء الممتازة من اللحم في صنع الشرائح، وإنك لهذا السبب تجدين أن اللحم يكاد يكون في مثل رخص ثمن الأزرار»، وقالت السيدة: «الأزرار يا سيدي؟» وأجاب الشيخ، وهو ينشر قطعة مطوية من الورق ويخرج منها عشرين أو ثلاثين من أنصاف الأزرار وهو يقول: «أزرار، نعم أزرار يا سيدتي، لإعطاء اللحم طعمًا جميلًا يا سيدتي، أزرار السراويل يا سيدتي». فكادت المرأة يغمى عليها، وهي تقول: «هذه أزرار زوجي!» وقال الشيخ وقد ارتد شاحبًا:

ماذا تقولين؟ وأجابت الأرملة قائلة: «لقد فهمت كل ما جرى. إن زوجي في نوبة جنون عارض انطلق يحول نفسه إلى شرائح من اللحم». وعقب المستر ويلر على القصة وهو يطيل النظر إلى وجه المستر بكوك الذي شاع فيه الاستنكار والذعر، بقوله: «هذا هو حقًّا ما فعله يا سيدي، أو أن الآلة اجتذبته إليها، وسواء كان هذا أو ذاك، فقد اندفع ذلك الشيخ الذي كان يحب الشرائح حبًّا جمًّا طول حياته، من جوف الحانوت إلى الطريق وهو في هياج شديد، ولم يسمع أحد بعد ذلك شيئًا عنه».

وأوصلتْ روايةُ هذه الحادثة المؤثرة المتصلة بالحياة الخاصة السيدَ والخادمَ إلى مكتب المستر بركر المحامي، وكان لوتن ممسكًا بالباب وقد فتحه نصف فتحة وراح يتحدث إلى رجل رث الثياب بائس في حذاء بلا أصابع، وقفاز بلا أنامل، وقد بدت عليه من الفاقة والبأساء آثارٌ ومعالمُ، بل لاح اليأس كذلك على مظهره، وسحنته المصفرَّة المكفهرة الواجمة، وكان يشعر بفاقته؛ لأنه وقف منزويًا في الجانب المظلم من السلم، حين وصل المستر بكوك.

وقال الرجل الغريب وهو يرسل زفرة: «هذا حظ سيئ جدًّا».

وقال لوتن وهو يكتب اسمه على عمود الباب بقلمه، ثم يمحوه بالريشة المثبتة في مؤخره: «جدًّا. هلا تركت رسالة إليه؟».

وسأل الغريب: «ومتى تظن أنه سيعود؟».

وأجاب لوتن قائلًا، وهو يغمز بعينه للمستر بكوك، حين رأى الرجل الغريب مطأطئ الرأس ناظرًا إلى الأرض: «إن موعد عودته غير معروف

على اليقين».

وقال الغريب وهو يلقي نظرة إلى المكتب بلهفة: «ألا تظن أن هناك فائدة من انتظاري رجوعه؟».

وأجاب لوتن، وهو يتحرك قليلًا صوب وسط المدخل: «كلا، إنني واثق أن لا فائدة؛ لأن من المؤكد أنه لن يعود في هذا الأسبوع، ومن يدري هل تراه سيغيب الأسبوع القادم أيضًا؛ لأن بركر إذا غادر العاصمة لا يتعجل أبدًا العودة إليها».

وقال المستر بكوك: «أتقول إذا غادر العاصمة؟ يا لسوء الحظ».

وقال لوتن: «لا تنصرف يا مستر بكوك، فإن لديّ خطابًا إليك».

وبدا التردد على الرجل الغريب فعاد ينظر إلى الأرض وراح الكاتب يغمز للمستر بكوك غمزة مكر كأنما يوحي بأن هناك فصلًا لطيفًا أو نكتة رائقة، ستبدو له، وإن كان المستر بكوك لا يدري ما هو ذلك الفصل اللطيف ولا ما هي تلك النكتة الرائقة!

وقال لوتن: «تفضل ادخل يا مستر بكوك. ألا تترك رسالة يا مستر وطي أو تنوي أن تعود مرة أخرى؟».

وقال الرجل: «هلا سألته أن يتفضل فيترك لي خبرًا عما فعل في قضيتي، ناشدتك الله يا مستر لوتن لا تهمل هذا الرجاء».

وأجاب الكاتب: «لا، لا، لن أنسى، تفضل ادخل يا مستر بكوك. طاب صباحك يا مستر وطي، إنه ليوم جميل يستحب المشي فيه، أليس كذلك؟».

وحين رأى الغريب لا يزال متلكئًا، أشار إلى سام بأن يتبع سيده، وأغلق الباب في وجهه.

وقال لوتن وهو يلقي القلم من يده، في حركة امرئ أصيب بإهانة أو أذى: «لم يشهد العالم مفلسًا ملحًا مملًّا كهذا منذ بدء الخليقة. إن قضيته أمام المحكمة منذ أربع سنوات، وهو لا يكف عن التردد علينا مرتين في كل أسبوع، تقدم من هنا يا مستر بكوك، إن بركر هنا وأنا عارف أنه سيقابلك». ومضى يقول باستياء: «البرد شديد وأنا واقف بالباب مضيع وقتي مع هؤلاء السوقة الثقلاء!»، وبعد أن حرك بشدة جذوات نار كبيرة إلى حد غريب، بمحراك صغير إلى حد غريب مثلها، مضى يسير أمام المستر بكوك إلى غرفة المحامي الخاصة ويعلن قدومه.

وبادر المستر بركر القزم إلى النهوض بخفة من مقعده قائلًا: «آه يا سيدي العزيز! ماذا لديك من الأنباء عن قضيتك؟ هل من جديد عن أصدقائنا في محكمة فريمن؟ إني أعرف أنهم لم يكونوا نيامًا كل هذا الوقت، إنهم قوم مجدون لا تفتر لهم همة فعلًا».

وما كاد الرجل القزم ينتهي من هذا القول حتى تناول قدرًا طيبًا من عطوسه؛ اعترافًا منه بهمة الأستاذين ددسن وفج ونشاطهما المتَّقد.

وقال المستر بكوك: «إنهما لوغدان كبيران».

وأجاب المستر بركر: «وي، وي، هذه مسألة تختلف فيها الآراء كما تعلم، فمن الخير ألا نتناقش أو نختلف في العبارات، والألفاظ؛ لأنه لا ينتظر منك بالطبع أن تنظر إلى هذه الأمور بعين رجل من أرباب المهنة.

لقد فعلنا كل ما ينبغي أن نفعل، وقد اتفقت أيضًا مع المحامي اسنبن».

وقال المستر بكوك: «أهو رجل طيب؟».

وأجاب بركر: «أتسألني هل هو رجل طيب؟ سبحان الله يا سيدي العزيز، إن المحامي اسنبن في ذروة المهنة، ولديه من القضايا ثلاثة أمثال ما لدى أي إنسان أمام المحاكم، وهو يوكل في جميع أنواع القضايا، وأقول لك شيئًا لا أحب أن تذكره في الخارج، وهو أننا قد اعتدنا نحن أرباب المهنة أن نقول إن المحامي اسنبن يقود المحكمة من خطامها».

وتناول الرجل القزم قدرًا آخر من السعوط وهو يفضي بهذا السر، ويهز رأسه هزة غريبة للمستر بكوك.

وقال المستر بكوك: «لقد دعوا أصدقائي الثلاثة إلى الحضور شهودًا في القضية».

وأجاب بركر: «آه، بالطبع، إنهم شهود على جانب كبير من الأهمية؛ لأنهم رأوك في موقف دقيق».

وقال المستر بكوك: «ولكنها أغمي عليها من تلقاء ذاتها، وارتمت في أحضاني».

وأجاب بركر: «محتمل جدًّا يا سيدي العزيز، محتمل جدًّا، وطبيعي جدًّا، ولا شيء أكثر من ذلك احتمالًا ولا طبيعة. ولكن من الذي يثبت ذلك؟».

وقال المستر بكوك متهربًا من هذه النقطة؛ لأن سؤال المستر بركر أزعجه: «وقد أعلنوا خادمي أيضًا شاهدًا».

وقال بركر: «أتعني سام؟».

وأجاب المستر بكوك: «أي نعم».

ومضى المحامي يقول: «بالطبع يا سيدي العزيز، بالطبع».

وابتسم الكاتب واستنشق العطوس بلذة تجمع بين الولوع به، ومتعة الرسوم.

«لقد كنت أعرف أنهم سيفعلون ذلك، وكان في إمكاني أن أنبئك أنت به منذ شهر مضى، وأنت تعلم يا سيدي العزيز أنك إذا أردت أن تتولى بنفسك شؤونك بعد أن عهدت بها إلى وكيلك، فلا مندوحة لك عن تحمل النتائج».

وهنا نصب المستر بركر قامته باعتزاز واعتداد، ونفض ذرات ضالة من السعوط عن طرف قميصه.

وقال المستر بكوك بعد أن لزم الصمت دقيقة أو دقيقتين: «وماذا يريدون منه أن يثبت؟».

وأجاب بركر: «إنك أوفدته إلى بيت المدعية لتعرض عليها بعض الترضية، على ما أظن، وإن كان هذا لا يهم كثيرًا، ولكني لا أظن أن كثيرًا من المحامين يستطيعون أن يستخلصوا شيئًا كثيرًا من خادمك لفطانته».

وقال المستر بكوك مبتسمًا لفكرة دعوة سام إلى الحضور شاهدًا، رغم ما كان فيه من غضب: «لا أظنهم قادرين، ولكن أي طريق ترانا سنسلك؟».

وأجاب المستر بركر: «إن أمامنا طريقًا واحدًا يا سيدي العزيز،

وهو أن نستجوب الشهود، فاعتمد على بلاغة اسنبن من هذه الناحية، إنه سيذر الرماد في عين القاضي، ونحن سنرمي أنفسنا على المحلفين».

وقال المستر بكوك: «ولكن افرض أن حكم عليَّ؟».

فابتسم المستر بركر، وتناول قدرًا كبيرًا من السعوط، وحرك النار، وهز كتفيه، وظل صامتًا ذلك الصمت البليغ المغني عن الكلام.

وقال المستر بكوك بعد أن راقب هذا الرد البرقي بعبوس شديد: «هل تعني أنه من المحتم عليَّ في هذه الحالة أن أدفع التعويض المطلوب؟».

وراح المستر بركر يحرك النار مرة أخرى بلا ضرورة، وأجاب قائلًا: «أخشى أن يكون الأمر كذلك».

وقال المستر بكوك بلهجة توكيد قاطع: «فلتعلم إذن أنني عزمت عزمة لن أنثني عنها، وهي ألا أدفع تعويضًا ما، لن أدفع يا بركر، ولن يجد جنيه واحد ولا بنس واحد طريقه إلى جيب ددسن وفج، هذه هي عزيمتي التي لا رجوع عنها ولا تبديل لها».

وراح المستر بكوك يضرب المنضدة التي أمامه بجمع كفه توكيدًا لهذا العزم الوطيد.

وقال بركر: «حسن جدًّا يا سيدي العزيز، حسن جدًّا، وأنت أعرف بمصلحتك بالطبع من أي أحد سواك».

وقال المستر بكوك في عجلة: «بالطبع، أين يقيم المحامي اسنبن؟».

وأجاب بركر: «في ميدان لنكولن إن القديم».

وقال المستر بكوك: «أحب أن أراه».

وأجاب بركر في دهشة بالغة: «ترى المحامي اسنبن؟ يا سيدي العزيز. ويحي. هذا مستحيل يا سيدي العزيز، ترى المحامي اسنبن! بارك الله فيك يا سيدي العزيز، إن شيئًا كهذا لم يسمع يومًا بمثله دون دفع أجر عن الاستشارة، وبلا تحديد موعد سابق لها، هذا لا يمكن يا سيدي العزيز، لا يمكن!».

ولكن المستر بكوك قد أجمع النية على ألَّا يجعل ذلك ممكنًا فحسب، بل واجبًا محتومًا أيضًا، وكانت النتيجة أن وكيله لم يلبث بعد عشر دقائق من التوكيد له باستحالة المقابلة أن صحبه إلى مكتب المحامي اسنبن نفسه.

وكانت حجرة المكتب حجرة جرداء من البسط، لا بأس بمساحتها، ذات منضد كبير بقرب الموقدة فَقَد كساؤه من عهد بعيد كل حق في أنه كان في الأصل أخضر اللون؛ لأنه استحال شيئًا فشيئًا إلى لون رمادي من كثرة التراب وطول العمر، إلا من آثار عليه مُحِيَ الأخضر منها محوًا بلطخات المداد، ومن فوق المنضد أكداس كثيرة من الأوراق مربوطة بأشرطة حمر، وقد جلس من خلفها كاتب يدنو من حدود الكهولة وتوحي نعومة مظهره والسلسلة الذهبية الضخمة المتدلية من جيبه بمدى رواج مكتب المحامي اسنبن ووفرة أرباحه.

وقال المستر بركر وهو يعرض حُق سعوطه بكل أدب ممكن: «هل المحامي في حجرته يا مستر مالارد؟».

فكان الجواب: «نعم، ولكنه مشغول جدًّا، اسمع مني، إنه لم يعط رأيًا إلى الآن في أي قضية من هذه القضايا، مع أن رسوم الاستشارة العاجلة قد دفعت عنها جميعًا».

وقال بركر: «هذا عمل فيما يظهر».

وأجاب كاتب المحامي وهو يخرج حُق سعوطه ويعرضه على المستر بركر بكل لطف وأدب: «نعم، وأبدع شيء في هذا الأمر أنه ليس في الدنيا أحد سواي يعرف كيف يقرأ خط المحامي، وهذا يقتضي الانتظار ريثما يعطي الرأي، وأتولى بنفسي نسخه، ها، ها، ها!».

وقال بركر: «ولمصلحة مَنْ غير المحامي كل هذا الانتظار، ومن الذي سيقتضي مالًا أكثر من الزبائن؟ ها، ها، ها!».

وعاد الكاتب يضحك من هذا السؤال أيضًا، ولكن ضحكاته لم تكن صخابة، بل صامتة هادئة لم يستلطف المستر بكوك سماعها وهي تتحشرج في صدر الكاتب، أو تنحبس في جوفه؛ ذلك أنه حين ينزف إنسان نزيفًا باطنيًّا، يقتصر الخطر من النزيف عليه وحده، ولكنه إذا ضحك ضحكة «باطنية» أو «من الداخل»، فإن ذلك لا يبشر الآخرين بخير، ولا يبعث على الطمأنينة.

وقال بركر: «أراك لم تضع لي ذلك البيان الصغير الذي طلبت إليك إعداده عن الرسوم التي أنا مدين بها لكم؟».

وأجاب الكاتب: «كلا، لم أفعل إلى الآن».

وقال بركر: «أرجوك أن تعده، وترسله إليَّ لأبعث إليك بصك على

المصرف، ولكني أحسبك في شغل شاغل بتسلم المال النقد، والقبض العاجل الفوري عن التفكير في المدينين بهذه الرسوم، آه؟ ها، ها، ها!».

والظاهر أن هذه الغمزة كانت إشارة شديدة الأثر في نفس الكاتب، حتى لقد عاد إلى ضحكه الهادئ الباطني من جديد.

ولكن بركر مضى يقول وقد استرد وقاره فجأة، وجذب الكاتب العظيم الذي يشتغل في مكتب المحامي العظيم من طرف ثوبه، إلى ركن في الحجرة: «ولكن يا مستر مالارد، يا صديقي العزيز، يجب أن تقنع المحامي بمقابلتي أنا وعميلي هذا».

وأجاب الكاتب: «هذا شيء آخر ليس سيئًا. تقابل المحامي! هذا أمر غير معقول!» ولكن على الرغم من استبعاده أو استحالته، ترك الكاتب نفسه يجتذب برفق إلى مكان بعيد عن سمع المستر بكوك، وبعد تبادل الهمس، والمخافتة لحظة قصيرة انطلق برفق في دهليز مظلم صغير ودخل ذلك الحرم القضائيَّ المقدس، ولم يلبث أن عاد منه على أطراف قدميه وأبلغ المستر بركر والمستر بكوك أنه قد وُفِّقَ في إقناع المحامي بمقابلتهما في الحال، مخالفًا بذلك كل القواعد المقررة والتقاليد المرعية.

وكان وجه المحامي اسنبن يشبه الفانوس، ويبدو الشحوب على قسماته، وهو في قرابة الخامسة والأربعين، أو كما يقال في القصص والروايات: يحتمل أن يكون في الخمسين. وله تلك العين البليدة المعتمة التي تُشاهَد غالبًا في رؤوس الذين انهمكوا عدة سنين في

جهد الدراسة، وكانت تلك العين وحدها كافية بغير حاجة إلى منظار إضافيٍّ يتدلّى من شريط أسود عريض حول عنقه، للإيحاء إلى نفس الغريب عنه بأنه قصير النظر، وكان شعره قليلًا ضعيفًا؛ لأنه أولًا لم يفض في يوم ما لتنظيمه وتهذيبه، ولأنه ثانيًا يلبس «الجمة» المستعارة التي يلبسها المحامون فوق رؤوسهم، فقد لبث يضعها خمسًا وعشرين سنة فوق هامته، وكانت في تلك اللحظة معلقة بجانب مكتبه، وتوحي آثار المسحوق الذي يوضع على الشعر، في طوق سترته، واللفافة البيضاء غير المتقنة الغسل ولا محكمة الربط حول رقبته، بأنه لم يجد فراغًا من وقته منذ انصرف من المحكمة لإحداث أي تغيير في لباسه، كما يؤخذ من الإهمال البادي على بقية ثيابه الأخرى أنه لو كان قد وجد فسحة لتغييرها لما ظهرت بزته أحسن من ذلك ولا ألطف شكلًا، وقد انتثرت على مكتبه كتب القانون، وأكوام الورق والخطابات المفضوضة الغلف، بلا أدنى محاولة في سبيل تنظيمها أو تنسيقها، كما بدا أثاث الحجرة قديمًا وأرجل المقاعد مكسورة أو مهزوزة، وأبواب مكتبه متعفنة المفاصل، والغبار يتطاير من البساط في سحب صغيرة، عند كل خطوة قدم فوقه، والأستار صفراء من القدم والاتساخ، ويدل كل شيء في الغرفة بوضوح ظاهر أن المستر اسنبن المحامي أشد انشغالًا بعمله من أن يلقي بالًا إلى وسائل راحته وأسباب رفاهيته.

وكان المحامي اسنبن يكتب حين دخل العميلان عليه، فانحنى وهو ذاهل عندما تقدم المحامي لتعريفه بالمستر بكوك، ثم أشار إليهما

بالجلوس، ووضع القلم من يده في الدواة بعناية بالغة، وربت بكفه على ساقه اليسرى، وانتظر سماع قولهما.

وأنشأ بركر يقول: «إن المستر بكوك هو المدعى عليه في قضية باردل يا أستاذ اسنبن».

وقال الأستاذ: «وهل وكلت في هذه القضية؟».

وأجاب بركر: «نعم يا سيدي».

فأومأ برأسه، وانتظر سماع شيء آخر.

ومضى بركر يقول: «لقد كان المستر بكوك في لهفة على مقابلتك يا أستاذ اسنبن؛ لكي يشرح لك قبل أن تدخل في القضية أنه لا سبب ولا شبه سبب لإقامة هذه الدعوى عليه، وإنه إذا لم يخرج نظيف اليدين مقتنعًا كل الاقتناع من ناحية ضميره وذمته بأنه محق في معارضته طلبات المدعية، فلن يحضر المحاكمة أبدًا، وأعتقد أنني قد شرحت له رأيك تمامًا. ألم أفعل يا سيدي العزيز؟». قال ذلك وهو يلتفت إلى المستر بكوك.

وقال المستر بكوك: «هذا صحيح».

ونشر الأستاذ اسنبن منظاره وكان مطويًّا، ورفعه إلى عينيه، وبعد أن نظر إلى المستر بكوك بضع ثوان نظرات فاحصة، انثنى إلى المستر بركر فقال وهو يبتسم قليلًا: «هل لدى المستر بكوك أسباب وحجج قوية؟».

فهز بركر كتفيه.

- «وهل في نيتك دعوة شهود؟».

- «كلا».

ولم تلبث الابتسامة البادية على وجه الأستاذ اسنبن أن لاحت أكثر وضوحًا وجلاءً،

ومضى يهز ساقه بحركة متزايدة، ثم ألقى ظهره إلى مسند مقعده الرحيب، وسعل سعلة المتشكك.

ولم تغِب هذه الحركات النامَّة عن رأي الأستاذ في الموضوع، عن نظر المستر بكوك، على الرغم من خفة تلك الحركات وضآلتها، فمد يده إلى المنظار الذي كان يتأمل من خلفه تلك الحركات التي بدت من المحامي، أو سمح لنفسه بإظهارها، فأثبته فوق أنفه، وقال بلهجة قوية غير مبال مطلقًا بغمزات المستر بركر وعبساته ونذره: «لست أشك في أن رغبتي في مقابلتك لغرض كهذا يا سيدي ستبدو لعين سيد مثلك طال عهده بتناول هذه المسائل ونحوها، ظرفًا خارقًا للمألوف كثيرًا».

وحاول الأستاذ أن ينظر بجد إلى النار، ولكن الابتسامة عاودت سحنته.

واستتلى المستر بكوك قائلًا: «إن السادات الذين يشتغلون بمهنتكم يا سيدي ليرون أسوأ نواحي الطبيعة البشرية، وإن كل ما فيها من منازعات، وشرور وسوء نيات، لتنهض أمام أبصاركم وتتكشف عن حقائقها لأعينكم. وإنكم لتعرفون من تجاريبكم مع المحلفين- ولست أقصد الانتقاص من أقدارهم أو أقداركم- مبلغ النتائج التي قد تترتب على مدى التأثير فيهم، وقد تعزون إلى الغيرِ الرغبةَ، من أجل محاولة

التضليل أو كسب مصلحة شخصية، في استخدام الأسلحة ذاتها التي تعرفون من طول عهدكم باستخدامها، والدأب على الاستعانة بها، مبلغ قيمتها وقدرها حق المعرفة، وأنتم إنما تلجأون إليها من أجل نقاء ذممكم، وشرف غايتكم وقصدكم، ومحمود رغبتكم في بذل أقصى الجهود لمصلحة موكلكم. وإني لأعتقد صادقًا أن هذا هو الباعث الذي يدعو الناس عامَّة إلى الظن الحقير بأنكم بوصفكم طائفة قوم ظنَّانون، لا تطمئنُّون إلى أحد، ومغالون في الحيطة، ولست أجهل يا سيدي ضرر هذا الرأي الذي أصارحكم به، في هذه الظروف، ولكني لا أكتمكم أنني ما جئت إلى هنا إلا لأني أودُّ مخلصًا أن تفهموا أنني- كما قال صديقي المستر بركر في هذه اللحظة- بريء من هذه الفرية التي اتُّهِمْتُ بها، ولئن كنت مدركًا حق الإدراك قيمة معونتكم التي لا تقدَّر يا سيدي، فلا أجد مندوحة من أن أضيف أنني إذا لم تعتقدوا أنني بريء اعتقادًا صحيحًا صادقًا، أوثر أن أحرم من عون مواهبكم، وفضل نبوغكم، على الانتفاع بها».

وقبل أن ينتهي المستر بكوك من هذه الخطبة التي نجد لزامًا علينا أن نقول: إنها كانت مملَّة له ثقيلة، كان الأستاذ اسنبن قد عاد من وقت طويل إلى الشرود وذهول الخاطر. على أنه لم يلبث بعد بضع دقائق أمسك فيها مرة أخرى قلمه أن عاد إلى الشعور بوجود عميليه، فرفع بصره عن الورق وقال في شيء من الحدة: «من المحامي الذي معي في هذه القضية؟».

وأجاب بركر: «المستر فنكي يا أستاذ اسنبن».

وقال الأستاذ: «فنكي! فنكي! لم أسمع بهذا الاسم مطلقًا قبل الآن، لا بد من أن يكون شابًّا صغيرًا؟».

وأجاب بركر: «نعم شاب صغير جدًّا، ولم نفاتحه في الأمر إلا من يومين. دعني أتذكر، إنه لم يمض في الترافع أمام القضاء أكثر من ثمانية أعوام».

وقال الأستاذ بتلك اللهجة الراثية المشفقة التي اعتاد الناس أن يتكلموا بها عن طفل صغير لا حول له ولا قوة: «آه لم أكن أظن ذلك.. يا مستر مالارد أرسل في طلب المستر... المستر...».

فعاجله بركر قائلًا: «فنكي، في هولبورن كورت بفندق جريز- وقد أصبح هولبورن كورت اليوم يدعى الميدان الجنوبي- وليقل الرسول إليه إنني أحب أن يأتي لحظة إلى هنا».

وانصرف المستر مالارد لتنفيذ المهمة، وعاد الأستاذ اسنبن إلى الذهول حتى قدم المستر فنكي.

وكان هذا رجلًا كامل النماء، وإن كان محاميًا صغيرًا، وهو يلوح عصبيًّا، متلعثمًا في منطقه إلى حدٍّ مؤلم، ولم يكن تلعثمه هذا عيبًا طبيعيًّا فيه، ولكن الظاهر أن مرده إلى التهيُّب من أثر الشعور بقلة المال، أو النفوذ، أو الاتصالات، أو الجرأة، وكان في رعب بالغ من الأستاذ اسنبن، ومؤدَّبًا غاية الأدب في حضرته.

وقال الأستاذ اسنبن بتنازل من علياته وأوج موضعه: «لم أسعد قبل الآن برؤيتك يا مستر فنكي».

فانحنى المستر فنكي، وكان قد أتيح له هو السرور برؤية الأستاذ اسنبن، والشعور بالحسد له أيضًا، بكل ما في صدر الرجل الفقير من الحسد، ثمانية أعوام وربع عام.

وقال الأستاذ اسنبن: «لقد علمت أنك معي في هذه القضية».

ولو كان المستر فنكي رجلًا غنيًّا، لبعث في الحال إلى كاتبه لكي يذكره هل الأمر كذلك، ولو كان حكيمًا لرفع سبابته إلى جبهته، وحاول أن يتذكر هل تراه من زحمة الأعمال عليه قد ارتبط بالمرافعة في هذه القضية أو لم يرتبط، ولكنه لم يكن بالغني ولا بالحكيم في هذا المعنى على كل حال، فاحمرَّ وجهه وانحنى لسائله.

وقال الأستاذ اسنبن: «وهل قرأت أوراق القضية يا مستر فنكي؟».

وهنا أيضًا كان ينبغي للمستر فنكي أن يقر بأنه قد نسي كل ما يتصل بهذه القضية، أما وقد قرأ كل ما عرض عليه من الأوراق في خلال سير الدعوى، ولم يفكر في شيء عداها، لا في يقظته ولا في نومه، خلال الشهرين اللذين تولاها فيهما تحت يد الأستاذ اسنبن؛ فقد زاد احمرار وجهه، وانحنى مرة ثانية.

وقال الأستاذ اسنبن وهو يشير بقلمه إلى الناحية التي كان المستر بكوك واقفًا فيها: «ها هو ذا المستر بكوك».

وانحنى المستر فنكي للمستر بكوك بذلك الاحترام الذي يثيره حتمًا أول زبون، ثم عاد يميل رأسه صوب مرشده.

وقال الأستاذ: «لا بأس من أن تأخذ معك المستر بكوك، و...

و...و... وتسمع منه ما يجب أن يقوله، وطبعًا سنجتمع للمشاورة».

وبهذه العبارة أراد الأستاذ اسنبن أن يلمح بأنهم قد استنفدوا جزءًا كبيرًا من وقته، وقد بدا أكثر شرودًا من قبل، ورفع منظاره إلى عينيه لحظة وانحنى انحناءة خفيفة لمن حوله، وراح ينشغل كل الانشغال بالقضية التي أمامه، والتي تفرعت عن دعوى طويلة لا تنتهي، بسبب تصرف شخص تُوُفيٍّ منذ قرن مضى أو نحوه، وكان قد سدَّ طريقًا يؤدِّي من مكان لم يأتِ إنسان منه في يوم من الأيام إلى مكان آخر لم يذهب إنسان إليه يومًا ما.

ولم يقبل المستر فنكي أن يجتاز الباب حتى يجتازه المستر بكوك ووكيله قبله، فانقضت فترة من الوقت ريثما وصلوا إلى الميدان، وراحوا يمشون ذهابًا وجيئة فيه، وراحوا يتحدَّثون حديثًا طويلًا كانت نتيجته أنه من العسير للغاية القطع بنوع الحكم المنتظر في القضية، وأنه لا يستطيع امرؤ أن يعرف نهاية أية قضية معرفة اليقين، وأنه كان من حسن الحظ للغاية أنهم وُفِّقُوا إلى منع الخصوم من توكيل الأستاذ اسنبن عنهم، إلى غير ذلك من موضوعات تناولت التشكُّك في نتيجة القضية والعزاء عنها كما هو مألوف في هذه الأحوال.

وأيقظ المستر بكوك خادمه المستر ويلر من نوم لذيذ استغرق ساعة كاملة، وودع لوتن وعادا إلى المدينة.

* * *

الفصل الثاني والثلاثون

وصف مادبة أعزب أقامها المستر بب سوير في مسكنه بالضاحية، وصفًا أوفى من أي مندوب قضائي في إحدى الصحف السيارة

يسود شارع «لانت ستريت» في الضاحية هدوء شامل يسكب على النفس كآبة رقيقة، ويضفي على الخاطر سكينة محزنة، ولا يخلو الشارع أبدًا من عدة منازل للإيجار، وهو شارع جانبي أيضًا، والكآبة الضافية على أفقه مهدئة، ولا يعد البيت القائم في هذا الشارع في مصاف البيوت التي من «الطراز الأول»، فالمعنى الدقيق الذي يفهم من هذا التعبير، وإن كان موضعًا مرغوبًا فيه إلى أبعد حد. فإن شاء أحد أن يجرِّد نفسه من شؤون هذه الدنيا، ويظل بمنأى عن المغريات، واحتمال قيام دافع يحمله على أن يطل من النافذة، فليسكن في ذلك الشارع بالذات.

وفي هذا المنعزل السعيد تقوم بضعة حوانيت للكوائين، وأخرى لمجلدي الكتب المتجولين، ودكان أو دكانان للوكلاء المختصين

بمحكمة التفاليس، وعدة منازل صغيرة يقطنها المشتغلون في أرصفة الميناء والأحواض، وحفنة من حائكات المعاطف التي ترتديها النساء، وفئة قليلة من الخياطين بالقطعة، بينما توجه جمهرة سكانه نشاطها إلى تأجير الغرف المفروشة أو تتوفر على جندرة الملابس، وهي صنعة تكسب أصحابها الصحة والقوة والبأس، وأبرز المعالم في حياة هذا الشارع الهادئ المصاريعُ الخضر، والإعلانات عن مساكن للإيجار، واللافتات النحاسية لأسماء السكان المعلقة على الأبواب، ومقابض الأجراس، وأغلب مظاهر النشاط البشري فيه تتجلى في الغلام الذي يغسل الأواني، والشاب الذي يبيع الفطير، والرجل الذي يعرض البطاطس المسلوق، وسكان الحي المولعين بالهجرة الذين يختفون عادة قبل انتهاء مدة الإيجار، وهي في الغالب تُدفع كل ثلاثة شهور، ويكون اختفاؤهم في الجملة ليلًا، حتى لَقَلَّمَا تجبى العوائد والضرائب المطلوبة لحضرة صاحب الجلالة من هذا الحي السعيد، ولا يزال دفع الإيجار مشكوكًا فيه، وكثيرًا ما يقطع الماء عن سكانه.

وكان المستر بب سوير جالسًا بجانب النار في مسكنه في الطابق الأول، مساء اليوم الذي دعا فيه المستر بكوك، بينما جلس المستر بنجمن ألن في الجانب الآخر منها، وكانت الاستعدادات لاستقبال الأضياف تلوح مستكملة؛ فقد كومت المظلات التي في الردهة في ركن صغير خارج باب الغرفة الخلفية، وأزيلت قبعة خادمة ربَّة البيت ولفاعتها من فوق اللم ولم يبق غير نعلين خشبيين (قبقابين) على ممسحة الأرجل الموضوعة فوق عتبة الباب الخارجي، وفي المطبخ شمعة طويلة الذبالة

تضيء على بسطة شباك السلم، وكان المستر بب سوير قد ذهب بنفسه فاشترى الأشربة الكحولية من بعض المخازن وأقبية الخمور في شارع «هاي ستريت» وعاد إلى البيت قبل وصول حاملها، حتى يمنع احتمال تسليمها إلى بيت آخر خطأ. وكان «البنتش» جاهزًا في قدر حمراء اللون في غرفة النوم، واستعيرت منضدة صغيرة ذات غطاء أخضر من حجرة الجلوس للعب الورق عليها، وصفت فوق «صينية» كل الأقداح والأكواب التي يحويها البيت، والتي استعير بعضها كذلك من الحانة المجاورة لهذه المناسبة، ووضعت الصينية على البسطة خارج البيت.

ورغم كل هذا التدبير الداعي إلى الارتياح البالغ، كان وجه المستر بب سوير وهو جالس بجوار الموقدة، مكفهرًّا ترهقه قترة، كما بدت على وجه المستر بنجمن ألن أمارات العطف على صاحبه، وهو جالس يُطيلُ النظر إلى الجذوات المتقدة فيها، ومضى يقول بلهجة محزنة، بعد صمت طويل: «إنه لمن سوء الحظ حقًّا أن يخطر ببالها أن تنقلب غضبى ثائرة في هذه المناسبة بالذات، لقد كان أولى بها على الأقل ان تنتظر إلى الغد».

وأجاب المستر بب سوير بحدة: «إنه لحقد وغل منها، حقد وغل، إنها تقول إني إذا كنت قد استطعت أن أقيم مأدبة، فقد كان أولى بي أن أدفع لها المبلغ الصغير المستحق لها».

وقال المستر بن ألن: «ومنذ كم من الوقت لم يدفع هذا الحساب اليسير؟».

وعلى ذكر الحساب نقول: إن قائمة الحساب أعجب آلة محركة استطاعت عبقرية البشر ابتكارها، حتى لتظل سائرة جارية طول العمر مهما مدَّ في الأجل، وتراخى الزمن به، دون أن تقف يومًا من تلقاء ذاتها.

وأجاب المستر بب سوير: «منذ ربع سنة وشهر أو نحوه».

وسعل بن ألن سعلة من لا حيلة له، وألقى نظرة فاحصة بين القضيبين العلويين من قضبان الموقدة.

وقال أخيرًا: «إن الأمر ليكون بالغ الإساءة لو خطر لها أن تأتي مطالبة بالأجرة، وهؤلاء الناس هنا، أليس كذلك؟».

وأجاب بب سوير: «إذن لكان ذلك رهيبًا أشد الرهبة».

وسمعَا دقًّا خفيفًا بباب الحجرة، ونظر المستر بب سوير نظرة بليغة التعبير إلى صديقه، وطلب إلى الطارق أن يدخل، فإذا القادم فتاة قذرة رثَّة في جورب أسود من القطن، قد يظن أنها ابنة كنَّاس متقاعد في فاقة بالغة.

وقالت الفتاة وهي تطل برأسها من الباب: «يا مستر سوير، اسمع من فضلك، إن مسز رادل تريد أن تتكلم معك».

وقبل أن يتمكَّن المستر بب سوير من الرد، اختفت الفتاة فجأة، بهزة ظاهرة، كأن أحدًا قد جذبها جذبة عنيفة من خلفها، وما كادت الفتاة تنصرف على هذه الصورة الغريبة، حتى دق الباب مرة أخرى، دقة ظاهرة حادة، كأنما تقول: «هأنذي! إنني آتية».

ونظر المستر بب سوير إلى صديقه نظرة خوف شديد، وصاح مرة

أخرى: «ادخل».

ولم يكن هذا الإذن ضروريًّا مطلقًا؛ فقد اندفعت امرأة صغيرة البدن مفترسة إلى الغرفة، قبل أن ينطق بب سوير بهذه الكلمات، وهي ترعش من الغضب، ويصفرُّ وجهها من الحنق.

وقالت المرأة الثائرة، وهي تحاول التظاهر بأتم الهدوء: «اسمع يا مستر سوير، إذا تكرمت بسداد هذا الحساب اليسير، كنت لك شاكرة؛ لأن عليَّ أن أدفع أجرة البيت بعد ظهر اليوم، والمالك منتظر في الطبقة الدنيا»، وفركت المرأة القصيرة يديها وألقت نظرة مستطيلة من فوق رأس المستر بب سوير على الجدار القائم خلفه.

وقال المستر بب سوير بكل احترام: «إنني آسف أشد الأسف إذ أكون سببًا في إزعاجك يا مسز رادل ولكن...».

وقالت المرأة القصيرة، وهي تطلق ضحكة صافرة: «ليست المسألة مسألة إزعاج أو تعب، إنني لم أطلبها إلحافًا قبل اليوم على الأقل، ولكنها ستذهب إلى المالك مباشرة، فكان يحسن بك أن تحافظ على الموعد منذ وعدتني الدفع يا مستر بب سوير بعد الظهر، وكل سيد سكن من قبلك هنا، كان حريصًا على كلمته يا سيدي كشيمة كل إنسان يدعو نفسه رجلًا مهذبًا».

وطوحت مسز رادل برأسها، وعضت شفتيها، وعركت يديها أشد من قبل، ونظرت إلى الجدار نظرة أطول وأثبت من سالفتها، وكان من الواضح- كما قال المستر بب سوير بعد هذه، وبأسلوب الشرقيين في

التشبيه والاستعارة: «إن المرأة أخذ بخارها يتصاعد!».

ومضى المستر بب سوير يقول بكل ذلة يمكن تصورها: «إنني آسف أشد الأسف يا مسز رادل، ولكن الواقع أنني عدت بخُفَّي حنين من المدينة اليوم. يا للمدينة من مكان غريب! إن عددًا مدهشًا من الناس يعودون منها خائبي الرجاء في كل وقت».

وقالت مسز رادل وهي مثبِّتة قدميها فوق صورة قرنبيطة زرقاء مرسومة على بساط في الغرفة: «ولكن يا مستر سوير ما شأني أنا وهذا؟».

وقال المستر بب سوير مغضيًا عن هذا السؤال: «لست أشك يا مسز رادل في أننا سنستطيع قبل منتصف الأسبوع القادم أن نسوي هذه المسألة بيننا، ثم نسير بعدئذ على نظام أحسن من النظام الذي نسير عليه الآن».

وكان هذا هو كل ما تبغيه؛ فقد صعدت إلى غرفة المستر بب سوير التَّعِس وهي عازمة على تمثيل الانفعال، والتظاهر بالغضب أكثر من أي شيء آخر، حتى ليغلب علي الظن أن أداء الأجر كان أدعى إلى تخييب رجائها، أكثر من العجز عنه، وكانت على استعداد تامٍّ لرياضة خاطرها قليلًا بهذا النوع من الانفعال، بعد أن تبادلت بضع شتائم وزوجها المستر رادل في المطبخ توطئة لهذا الفصل الذي جاءت لتمثيله.

قالت وقد أخذت ترفع صوتها حتى يسمعه الجيران: «هل تظن يا مستر سوير أنني سأظل يومًا بعد آخر تاركة إنسانًا يشغل مسكني ولا يفكر في أداء الأجر ولا حتى ثمن الزبد الطازج والسكر اللذين يُقَدَّمَان إليه في الفطور، ولا ثمن اللبن الذي يُشتَرى من عند باب البيت؟ وهل

تظن أن امرأة دءوبًا أقامت في هذا الشارع عشرين سنة، عشرًا منها في مسكن آخر فيه، وتسعًا وثلاثة أرباع في هذا البيت بالذات، لا عمل لها غير الكدِّ الشديد من أجل حفنة من الكسالى المتعطلين الذين لا ينقطعون عن التدخين والشراب والضحك، وكان أجدر بهم أن يجدوا لأنفسهم عملًا يساعدهم على أداء ما عليهم من حساب؟ وهل تظن...؟».

وقال المستر بنجمن ألن مقاطعًا على سبيل تهدئة خاطرها: «يا سيدتي الكريمة...».

وعاجلته مسز رادل، وقد قطعت فجأة تيار كلامها السريع الجارف، ووجهت الخطاب إلى هذا الشخص الثالث قائلة بتؤدة بالغة وجد ظاهر: «من فضلك احتفظ بملاحظاتك لنفسك يا سيدي؛ لأنني لا أرى لك أي حق في توجيه كلامك إليَّ، ولا أعتقد أنني أجرت هذه الغرف لك يا سيدي».

وقال المستر بنجمن ألن: «طبعًا، لم تؤجريها لي».

وأجابت مسز رادل بأدب فائق: «حسن جدًّا يا سيدي، ويكفيك أن تقتصر على بتر أذرع المساكين وسيقانهم في المستشفيات، لا تتعد شأنك يا سيدي، وإلا فإن هنا من يستطيع أن يرغمك على ذلك إرغامًا».

وقال المستر بنجمن ألن محتجًّا متذمرًا: «ولكنك امرأة غير معقولة إلى حد بالغ».

وقالت مسز رادل وهي تتصبب عرقًا باردًا من الغضب: «هل تتكرم أيها الشاب بأن تدعوني كذلك مرة أخرى؟».

وأجاب المستر بنجمن ألن وهو قلق مرتبك إلى حد ما: «إنني لم أقصد معنى سيئًا من هذه الكلمة يا سيدتي».

وعادت مسز رادل تقول بصوت أجهر من قبل وأشد تحكمًا: «أرجوك أيها الشاب، من هي التي تسميها امرأة؟ هل وجهت هذه الملاحظة إليَّ يا سيدي؟».

وقال المستر بنجمن ألن: «رحمتك يا رب».

ولكنها قاطعته قائلة بشدة متناهية، وهي تفتح الباب على مصراعيه: «هل وجهت هذا الكلام إليَّ، إنني أسألك هذا يا سيدي؟».

وأجاب المستر بنجمن ألن: «نعم، بالطبع».

وقالت مسز رادل وهي تتراجع شيئًا فشيئًا إلى الباب وترفع صوتها إلى أعلى حدوده، لكي يسمعه المستر رادل زوجها الجالس في المطبخ: «نعم، بالطبع وجهته إليَّ. نعم، وجهته إليَّ بالطبع، حتى أصبح كل إنسان يعرف أنه من الجائز أن يشتمني وهو آمن مطمئن في بيتي، بينما يجلس زوجي في الدور الأول نائمًا غير آبه ولا مكترث، كأنني كلبة في الشارع. لقد كان أولى به أن يستحي ويخجل من نفسه- وهنا انتحبت وأجهشت بالبكاء- إذ يترك زوجته تعامل بهذا الشكل من حفنة من الشباب قطاعي أجسام البشر وباتري الأذرع والسيقان، وهم سبة في هذا المسكن- وعادت هنا إلى النحيب- ويدعها معرضة لجميع صور الإهانات والسباب، إنه لنذل، جبان، رعديد، يخشى الصعود إلى هنا ومواجهة هؤلاء القساة. إنه خائف من الحضور.. خائف!».

وتمهلت مسز رادل لتصغي وتتبين هل أثار تكرار هذا الاستفزاز: «نصفها الأفضل» أو لم يثر، وحين وجدت أنه لم ينجح في إثارته، أخذت تهبط الدرج مرسلة انتحابات لا عداد لها، وفي تلك اللحظة دق الباب دقتين شديدتين، فانفجرت في نوبة تشنجية من النحيب مقترنة بأنين أليم استطال حتى تكرر الدق ست مرات، فإذا هي في نوبة أخرى لا تستطيع مغالبتها تلقي بكل المظلات على الأرض وتتوارى في الغرفة الخلفية مغلقة الباب في أثرها بعنف شديد.

وقال المستر بكوك حين فتح الباب: «هل يقيم المستر سوير هنا؟».

وأجابت الفتاة: «نعم في الدور الأول، ستجد الباب أمامك مباشرة حين تصعد السلم».

وما كادت الخادم تنتهي من إعطاء هذه المعلومات- وهي خادم نشأت في وسط السكان الأصليين في ساوثوارك- حتى توارت وهي تحمل الشمعة في يدها، هابطة سلم المطبخ، مقتنعة كل الاقتناع بأنها قد أدَّت كل ما هو مطلوب منها في هذه الظروف. وكان المستر سنودجراس آخر من دخل، فأغلق الباب المؤدِّي إلى الشارع بعد عدة جهود ومحاولات عقيمة، بجذب السلسلة الحديدية، وراح الأصدقاء يصعدون السلم متعثِّرين، حيث استقبلهم المستر بب سوير؛ فقد كان خائفًا من النزول؛ لئلا تمسك به صاحبة البيت.

وقال الطالب المرتبك: «كيف الحال؟ إني لمسرور بلقائكم. التفت إلى الأقداح» وكان هذا التحذير موجهًا إلى المستر بكوك؛ لأنه راح يضع قبعته فوق الصينية.

وقال المستر بكوك: «رباه! أرجو المعذرة».

وأجاب المستر بب سوير: «العفو، العفو، إن المكان ضيق كما ترى، ولا مفر من التسامح حين يأتي امرؤ لزيارة شاب أعزب. تفضل بالدخول. أحسبك قد رأيت هذا السيد من قبل؟».

وصافح المستر بكوك المستر بن ألن، وفعل أصحابه كذلك، وما كادوا يتخذون مجالسهم، حتى سمعوا دقًّا متكررًا بالباب.

وقال المستر بب سوير: «أرجو أن يكون الطارق جاك هبكنز، صه، نعم هو، اصعد يا جاك، اصعد».

وسمع وقع أقدام ثقال فوق مدارج السلم وبدا جاك هبكنز للأعين وهو يرتدي صدارًا أسودَ من المخمل ذا أزرار من الرعد والبرق وقميصًا أزرق مخططًا ذا طوق أبيض مستعار.

وقال المستر بنجمن ألن: «لقد تأخرت يا جاك».

وأجاب هبكنز: «لقد حجزني العمل في مستشفى برثولميو».

- «هل من جديد؟».

- «كلا، لا جديد بالذات، مجرد حادثة طبية في عنبر الحوادث».

وسأل المستر بكوك قائلًا: «وما هي هذه الحادثة يا سيدي؟».

قال: «حادثة لا تعدو سقوط رجل من شباك سلم ذي ثماني درجات، ولكنها حادثة متوسطة للغاية، حادثة متوسطة جدًّا، لا بأس بها».

وقال المستر بكوك: «هل تقصد أن المريض في طريقه العاجل إلى الشفاء؟».

وأجاب هبكنز بغير اكتراث: «كلا، بل أعتقد أنه لن يتماثل إليه، إذ لا بد من إجراء عملية بديعة له غدًا. وستكون العملية مشهدًا رائعًا إذا تولاها سلاشر».

وعاد المستر بكوك يسأل قائلًا: «وهل تعد المستر سلاشر جراحًا بارعًا؟».

وأجاب هبكنز: «أحسن الجراحين الأحياء، لقد انتزع ساق غلام من المفصل في الأسبوع الماضي، فلم تمض دقيقتان على العملية حتى كان الغلام يأكل خمس تفاحات ورغيفًا من الخبز الخليط. وقال الغلام إنه لن يظل راقدًا في موضعه ليُلهى به على هذه الصورة، وإنه سيقول لأمه إذا لم يبدأوا».

وقال المستر بكوك وهو مبهوت: «يا عجبًا!».

وقال جاك هبكنز: «وهل هذا شيء يهم؟ هل هو كذلك يا بب؟».

وأجاب بب سوير: «كلا. أبدًا».

ومضى هبكنز يقول، وهو ينظر إلى الانتباه الشديد البادي على وجه المستر بكوك نظرة لا تكاد تبين: «والشيء بالشيء يذكر يا بب، لقد جاءتنا حادثة غريبة في الليلة الماضية، فقد جيء بطفل ابتلع عقدًا».

وقاطعه المستر بكوك قائلًا: «ابتلع ماذا؟ أي شيء يا سيدي؟».

وأجاب جاك هبكنز: «ابتلع عقدًا، ولكنه لم يبتلعه مرة واحدة كما

لا يخفى؛ لأن ذلك كثير جدًّا، لا تستطيع أنت أن تبتلعه، لو أن الطفل استطاع، يا مستر بكوك، ها، ها».

وكان المستر هبكنز يلوح مسرورًا كل السرور بنكتته هذه، وقد استرسل يقول: «كلا، ولكن الذي حدث هو أن أبويه فقيران يسكنان في فناء، وأن أخته الكبيرة اشترت عقدًا، عقدًا عاديًّا، من الخرز الأسود الكبير المصنوع من الخشب، وكان الطفل مولعًا باللعب فاسترق العقد، وأخفاه، ولعب به، وقطع خيطه، وابتلع خرزة من خرزاته، وهو يحسب ذلك لهوًا بديعًا، وتسلية جميلة، فذهب من غداته فابتلع خرزة أخرى».

وقال المستر بكوك: «يا ألله! ما أبشع هذا، معذرة، أرجوك يا سيدي أن تستمر».

ومضى هبكنز يقول: «وفي اليوم التالي ابتلع الطفل خرزتين، وبعد ذلك بيوم تناول ثلاثًا، وهكذا دواليك، فلم ينقض أسبوع حتى أتى على خرزات العقد كلها، وهي خمس وعشرون خرزة، فما كان من أخته وهي صبية دءوب قلَّما تنعم بشيء من الكماليات، أو تجد بعض المتع والترف، إلا أن راحت تبكي وتتشنج لضياع عقدها، وتبحث عنه في كل مكان، ولكنها طبعًا لم تجده، وبينما كانت الأسرة بعد أيام جالسة إلى الغداء، وقد أعدت كتفًا من لحم الضأن من تحته البطاطس، ولم يكن الطفل جائعًا فراح يلعب في أرجاء الحجرة؛ إذ سمعت فجأة صوتًا أشبه بصرخة قرد، فقال الأب: لا تفعل هذا يا بني. وأجاب الطفل: لم أفعل شيئًا. وقال الأب: لا تفعل ذلك مرة أخرى. وبعد صمت قصير عاد ذلك الصوت ثانية أشد من قبل، وصاح الأب بالطفل قائلًا: إذا لم تُطِعْ ما

أقول يا بني فستجد نفسك في فراشك في أقل من همسة خنزير. وهز الطفل ليحمله على إطاعة أمره، فإذا صوت ينبعث أشبه بالكركبة لم يسمع أحد مثله، وصاح الأب قائلًا: يا للعجب! إن هذا الصوت منبعث من جوف الولد، ولا بد من أنه قد أصيب بذبحة الزور في موضع غير موضعها من جسمه. وقال الطفل وقد بدأ يبكي: كلا يا أبتِ، إنه العقد، لقد بلعته يا أبي، وبادر الأب فاحتمله وجرى به إلى المستشفى، وظلت الخرزات التي في جوفه تجلجل طيلة الطريق من أثر الاهتزاز، وراح الناس يُصَعِّدُونَ أنظارهم إلى الفضاء، وينظرون من تحتهم إلى الأقبية ليروا من أين ينبعث هذا الصوت الغريب على أسماعهم».

واستتلى جاك هبكنز يقول: «وهو الآن في المستشفى، يحدث كلما مشى في أرجائه صوتًا عجيبًا، اقتضى لفه في معطف أحد الحراس مخافة أن يوقظ المرضى!».

وقال المستر بكوك وهو يضرب المائدة بقبضته مؤكدًا قوله: «هذه أغرب حادثة سمعت بها في حياتي».

وقال جاك هبكنز: «إنها لا شيء، أليس كذلك يا بب؟».

وأجاب المستر بب سوير: «بلا شك».

وعاد هبكنز يقول: «أؤكد لك يا سيدي أن هناك أشياء غريبة جدًّا تقع في مهنتنا».

وأجاب المستر بكوك: «هذا ما يجعلني أتصور ذلك».

ودق الباب مرة أخرى.

وكان القادم شابًّا كبير الرأس، ذا ضفيرة سوداء مستعارة، يصحب فتى تتساقط «الهبرية»[1] من شعر رأسه، وهو يضع غطاء مستطيلًا حول عنقه. وكان القادم التالي سيدًا في قميص مرصع بأزار وردية تشبه «المراسي» وتبعه على الأثر فتى شاحب الوجه يعلق ساعته بسلسلة مفضضة، وكان قدوم ضيق آخر أنيق في قميص نظيف وحذاء من القماش، فسحبت المائدة الصغيرة ذات الغطاء الأخضر إلى الخارج، وأحضرت الدفعة الأولى من البنتش في قدر بيضاء، وانقضت الساعات الثلاث التاليات في لعبة من ألعاب الميسر تدعى لعبة «واحد وعشرين» كل اثنتي عشرة «فيشة» فيها بستة بنسات، ولم ينقطع اللعب خلالها إلا مرة واحدة، عندما قام نزاع يسير بين الشاب ذي الهبرية المتساقطة من شعره، وبين السيد ذي الأزرار الوردية، أبدى فيه ذلك الشاب رغبة شديدة في جذب السيد صاحب الأزرار من أنفه، الأزرار التي يعدها بشائر الأمل، ورد عليها هذا الأخير بإظهار رفضه القاطع لقبول أي سخرية بلا موجب، لا من الشاب السريع الانفعال، الذي يتساقط «القشر» من شعر رأسه، ولا من أي مخلوق آخر كائنًا من كان.

وعندما أعلن أن لعبة «الواحد والعشرين» قد انتهت، وتمت تسوية حساب المكسب والخسارة من «الفيشات» والبنسات الستة، وانتهى الموقف برضى الجميع وارتياحهم، دق المستر بب سوير الجرس لإحضار العشاء، وحشر الأضياف أنفسهم في الأركان والزوايا ريثما يتم إعداده.

---

(١) القشر الذي يتساقط من شعر الرأس.

ولم يكن إعداد الطعام سهلًا إلى الحد الذي قد يتصوره بعض الناس؛ فقد كان لا بد أولًا من إيقاظ الفتاة، وكان النعاس قد استولى عليها فألقت بوجهها فوق منضدة المطبخ، وقد استغرق إيقاظها بعض الوقت، وحين ردت على الجرس ضاع ربع ساعة آخر في محاولات عقيمة لتنبيهها من ذهولها، وإفاقتها ولو قليلًا لكي تفهم المراد، وكان الرجل الذي كلف بتقديم الأصداف البحرية الحية قد جاء بها مغلقة؛ لأن أحدًا لم يطلب إليه فتحها ومن المشقة البالغة معالجة فتحها بسكين أو شوكة ذات إصبعين، ولذلك لم تتناول الجماعة الشيء الكثير منها، ولم يكن لحم العجول قد قطع أيضًا، ولحم الخنزير الذي اشتري كذلك من دكان الألماني بائع اللحوم الباردة القائم على ناصية الشارع قد ترك في حال مماثلة لم يعالجه أحد، ولكن كان ثمة قدر وفير من «الجعة» في آنية من القصدير، وكفى الجبن الجميع؛ لأن كلًّا منهم قنع منه بقطعة صغيرة لشدة مذاقه، وجملة القول إن العشاء كان لا بأس به كما يكون العشاء عادة في هذه الأحوال ونحوها.

وبعد أن فرغ القوم منه أحضرت قدر أخرى من «البنتش» فوضعت فوق الخوان، وإلى جانبها صندوق من لفافات التبغ الكبيرة، وزجاجتان من الكحول.

وانقضت فترة سكون رهيبة، أدى إليها حادث مألوف كل الإيلاف في هذا النوع من المساكن، وإن كان مع ذلك حادثًا يثير أشد الارتباك، وهو أن الفتاة كانت تغسل الأقداح، وكان منها أربعة في البيت، ولسنا هنا في معرض الانتقاص من مسكن مسز رادل؛ فلم يكن في المساكن المُعَدَّة

للإيجار مسكن لا يعاني عجزًا في الأقداح أو أزمة في الأكواب! وكانت أقداحها من النوع الرفيع المفرطح، بينما كانت الأقداح المستعارة من الحانة القريبة رقيقة الجدران رحيبة الجوف منتفخة الشكل، يقوم كل قدح منها فوق ساق ضخمة عرجاء غير ثابتة كأنها تشكو النقرس، وكان هذا وحده كافيًا لإفهام الأضياف حقيقة الحال، ولكن الخادم التي تتولى كل عمل في البيت حالت بينهم وبين احتمال هذا التصور، أو تسرب فكرة كهذه إلى أخلادهم؛ فقد انثنت تأخذ كل قدح من أمام كل ضيف منهم قبل أن يفرغ ما فيه من الجعة، وهي تقول بصوت مسموع رغم غمزات المستر بب سوير ومقاطعاته: إنها ستحمله إلى الطبقة الدنيا من المسكن لغسله في الحال.

ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن؛ فقد كان الرجل الأنيق الذي ينتعل حذاء من القماش قد حاول عبثًا أن يلقي «بنكتة» طيلة الوقت الذي استغرقته المأدبة، ولكنه وجد عندئذ الفرصة سانحة له فانتهزها، فلم تكد الأقداح تُرفع وتختفي من المائدة حتى شرع يروي حكاية طويلة تدور حول رجل ذي مكانة كبيرة نسي اسمه، ردَّ ردًّا بديعًا على ذي شخصية أخرى عظيمة مشهورة لم يستطع أيضًا أن يتذكر اسمه، ومضى يطنب إلى حد ما في الدقائق والجزئيات بسبيل عدة مواقف وظروف بعيدة الصلة بالحكاية التي يرويها، وعندئذٍ عجز كل العجز عن تذكر الحكاية ذاتها، وإن اعتاد أن يقصها خلال السنوات العشر الأخيرة ويظفر بدويٍّ من التصفيق والهتاف عند انتهائه منها.

وقال الرجل الأنيق ذو الحذاء المصنوع من القماش: «رباه، إن هذا

لشيء عُجاب».

وانثنى المستر بب سوير وهو ينظر بلهفة إلى الباب متصورًا أنه سمع صوت الأكواب تقرع: «إنني آسف لأنك قد نسيتها، آسف جدًّا».

وأجاب الرجل الأنيق: «وأنا كذلك؛ لأني أعرف أنها كانت تسليكم كل التسلية، ولكن لا بأس، أظن أني سأستطيع أن أتذكرها في خلال نصف ساعة أو نحوه».

وما إن بلغ الرجل الأنيق هذا المدى من قوله حتى أعيدت الأقداح، وقال المستر بب سوير الذي كان مستغرقًا طيلة الوقت في التفكير: إنه يود كثيرًا أن يسمع هذه الحكاية إلى نهايتها؛ لأنها أحسن حكاية سمعها في حياته بغير استثناء.

ولكن صوت الأقداح أعاد بب سوير إلى شيء من الهدوء والاتزان اللذين فقدهما من أثر حديثه مع صاحبة البيت، فلم يلبث وجهه أن تهلل وبدا يلوح مرحًا منتشيًا.

وأنشأ يقول برقة بالغة، وهو في الوقت ذاته يوزع الأكواب التي أعادتها الخادم ووضعتها في وسط المائدة: «والآن يا بتسي، علينا بالماء الدافئ، هيا أيتها الفتاة النشيطة، أسرعي».

وأجابت بتسي قائلة: «لا سبيل إلى ماء دفيء».

وصاح المستر بب سوير مبهوتًا: «وكيف ذلك؟ ألا سبيل إلى ماء دفيء؟».

وقالت الفتاة بهزة من رأسها، أبلغ نفيًا من أي تعبير يتواتى لأية لغة

من لغات الناس: «كلا، فقد قالت مسز رادل إنك لا تُعطى منه شيئًا».

ورأى رب الدار الدهشة المرتسمة على وجوه أضيافه فألهمته شجاعة جديدة، فقال بعبوس شديد: «أحضري الماء الدافئ في الحال، هيا، في الحال».

وأجابت الفتاة قائلة: «كلا، لا أقدر، فقد أطفأت مسز رادل النار التي كانت موقدة في المطبخ قبل أن تأوي إلى فراشها، وأقفلت على الوعاء».

وقال المستر بكوك، وقد فطن إلى انفعال بب سوير المرتسم على سحنته: «لا بأس، لا بأس، أرجوك ألا تنزعج من هذا الأمر التافه. الماء البارد يغني كل الغناء».

وقال المستر بنجمن ألن: «إن فيه الغناء الذي لا نرجو خيرًا منه».

وقال بب سوير وهو يبتسم ابتسامة قاتمة مكفهرة: «إن صاحبة البيت تنتابها أحيانًا نوبات خفيفة من الجنون، وأراني مضطرًا أن أعطيها إنذارًا».

وقال بن ألن: «كلا، لا تفعل».

وقال بب سوير بلهجة الإصرار والبطولة: «أخشى أن أكون مضطرًا، سأؤدي لها حسابها وأنذرها صباح غد».

يا للمسكين! لكم تمنَّى مخلصًا أنه على ما يقول قدير.

وكانت محاولات المستر بب سوير الأليمة في سبيل التماسك والثبات تحت وطأة هذه الصدمة الأخيرة قد أحدثت أثرًا غير مشجِّع في نفوس الأضياف، فراح أكثرهم يجتهدون في تنشيطها بإظهار حماسة

فائقة في الإقبال على شرب البراندي بالماء البارد، وكانت الآثار الأولى الظاهرة لهذا الإقبال تجدد الخصومة بين الشاب الذي تتساقط الهبرية من شعره وبين الشاب الذي يرتدي القميص، ومضى المتخاصمان يبديان احتقارهما المتبادَل فترة من الوقت في عدة أنواع من التجهمات والزرايات، حتى رأى الشاب الأول أنه لا مفرّ من الوصول إلى تفاهم ووئام ظاهر، فجرى الحديث التالي:

قال الشاب: «اسمع يا سوير».

وأجاب المستر بب سوير: «نعم يا ندي».

وقال المستر ندي: «يؤسفني جد الأسف يا سوير أن أكون سببًا في إحداث أية مضايقة على مائدة صديق، ومن باب أولى على مائدتك أنت يا سوير، ولكن لا مندوحة لي عن انتهاز هذه الفرصة لأقول للمستر جنتر إنه ليس سيدًا مهذبًا».

وقال المستر جنتر: «ويؤسفني أنا كذلك كل الأسف أن أثير أي إزعاج في الشارع الذي تسكنه، ولكني أخشى أن أكون مضطرًا إلى إزعاج الجيران بإلقاء الشخص الذي تكلم اللحظة من النافذة».

وقال المستر ندي: «ماذا تقصد بهذا يا سيدي؟».

وأجاب المستر جنتر: «أقصد ما أقوله يا سيدي».

وقال المستر ندي: «أحب أن أراك تفعل ذلك يا سيدي».

وأجاب المستر جنتر: «ستشعر بأنني فاعله قبل أن يمضي نصف دقيقة يا سيدي».

وقال المستر ندي: «أرجو أن تتكرم عليَّ ببطاقتك يا سيدي».

وأجاب المستر جنتر: «لن أفعل شيئًا من هذا القبيل يا سيدي».

وقال المستر ندي: «ولِمَ لا تفعله يا سيدي؟».

وأجاب المستر جنتر: «لأنك ستلصقها فوق طنف مدفأتك وتوهم زائريك كذبًا أن سيدًا مهذبًا جاء لزيارتك يا سيدي».

وقال المستر ندي: «سيدي، سأوفد إليك في الصباح صديقًا من أصدقائي».

وأجاب المستر جنتر: «سيدي، إنني شاكر لك هذا التحذير كل الشكر، وسأترك لخادمي تعليمات صريحة بأن يضع الملاعق في صوانها ويغلقه بالمفتاح والقفل».

ولما بلغ التشاتم هذا الحد تدخل الضيوف واحتجوا مستنكرين عليهما هذا التصرف غير اللائق بهما، فطلب المستر ندي أن يقول: إن والده لا يقل مركزًا ولا احترامًا عن والد المستر جنتر. وأجاب هذا أن والده هو الآخر محترم كل الاحترام كوالد المستر ندي، وأن ابن والده ليس دون المستر ندي شأنًا ولا قدرًا في أي يوم من الأيام! وكان هذا القول يبدو مقدمة لعودة النزاع من جديد، فعاد القوم إلى التدخل، وتلا تدخلهم كلام كثير وصياح شديد، ترك المستر ندي خلالهما شعوره يتغلب عليه شيئًا فشيئًا، ويعترف بأنه يشعر دائمًا بعلاقة ودية خاصة نحو المستر جنتر، وأجاب هذا بقوله: إنه- على العموم- يؤثر المستر ندي على أخيه. فلم يكد الأخير يسمع هذا الاعتراف حتى نهض بشهامة

وعظمة من مقعده ومد يده إلى المستر جنتر، فشدها هذا بحماسة ظاهرة، وقال الجميع: إن المسألة كلها جرت بصورة مشرفة لهما كل التشريف.

وعندئذ انثنى جاك هبكنز يقول: «والآن لا أرى بأسًا من أن أغني أغنية تعيدنا إلى سابق نشاطنا»، وانطلق من أثر التصفيق الصاخب الذي قوبل به اقتراحه يغني في الحال أغنية «الملك بارك الله له» رافعًا بها صوته إلى قمته، ومندفعًا في نغمة تتألف من أغنيتي «خليج فسقونية» و«يود لو كان ضفدعة»، وهي أغنية قوتها وروحها في مذهبها الذي راح الجميع يشتركون في ترديده، فذهب كل منهم يغنيه بالنغمة التي يعرفها أكثر من غيرها، فكان التأثير عجيبًا كل العجب.

وفي نهاية إنشاد الجمع البيت الأول من الأغنية رفع المستر بكوك يده كمن يصغي إلى صوت منبعث من الخارج، وأنشأ يقول حين ساد الصمت: «صه! أرجوكم، أحسبني سمعت أحدًا ينادي من الطابق العلوي».

وإذا القوم ينصتون مرهفي الأسماع، ولوحظ الشحوب على وجه بب سوير.

وقال المستر بكوك: «أظن أنني أسمع الصوت الآن، تكرموا بفتح الباب».

وما كاد الباب ينفتح حتى زال كل شك في الأمر، فقد سمعوا صوتًا من البسطة يصيح: «يا مستر سوير! يا مستر سوير!».

وقال بب سوير وهو يتلفت حوله في جزع بالغ: «هذه صاحبة

البيت، نعم يا مسز رادل».

وأجاب الصوت قائلًا بصفير شديد ومنطق سريع: «ماذا تعني بهذا يا مستر سوير، ألا يكفي النصب علينا في أجرة الشقة، والمال الذي نعيره لك من جيوبنا أيضًا، حتى نهان ويساء إلينا من أصحابك الذين يدعون أنهم رجال، ويملأون البيت ضجيجًا يكفي لإحضار رجال المطافئ إلى هنا في الثانية صباحًا! أخرج هؤلاء المناكيد في الحال».

وقال صوت المستر رادل الذي بدا كأنما قد انبعث من تحت غطاء الفرش: «أولى بكم أن تستحيوا من أنفسكم».

وقالت مسز رادل: «يستحيون من أنفسهم! لماذا لا تنزل إليهم وتلقي بكل واحد منهم من السلم، لو كنت رجلًا لفعلت؟».

وأجاب المستر رادل: «لقد كنت أفعل لو أنني كنت اثني عشر رجلًا يا عزيزتي، ولكنهم متفوقون عليَّ في كثرة العدد، يا عزيزتي».

وأجابته مسز رادل باحتقار متناهٍ: «ويحك أيها الجبان! وأنت يا مستر سوير أتريد أن تطرد هؤلاء الأوغاد أم لا؟».

وقال المسكين بب: «إنهم منصرفون يا مسز رادل، إنهم منصرفون». وانثنى إلى أصحابه فقال: «أخشى أن أقول إنه يحسن بكم الانصراف، لقد كان رأيي أنكم أحدثتم فعلًا ضجة أكثر مما ينبغي».

وقال الرجل الأنيق: «هذا شيء يؤسف له كثيرًا، أن يحدث ونحن نوشك أن نمضي في سمر بديع»، وكان قد بدأ يتذكر الحكاية التي نسيها.

وقال وهو يتلفت حوله: «هذا شيء لا يطاق، شيء لا يطاق، أليس كذلك؟».

وأجاب جاك هبكنز: «ولا يحتمل، لنغن البيت التالي يا بب، هيا بنا».

ولكن بب سوير عاجله قائلًا: «كلا، كلا، يا جاك، إنها أغنية بديعة بلا شك، ولكني أرى أنه يحسن ألا نغني البيت التالي، إن أهل البيت قوم غلاظ جدًّا».

وقال هبكنز: «هل تريد أن أصعد السلم إليهم، وأكبس لك صاحب البيت، أو أظل أدق الجرس، أو أذهب إلى السلم فأجعر جعيرًا؟ مرني يا بب أصدع بما تأمر».

وقال المستر بب سوير التعس: «إني لمدين لك كثيرًا بصداقتك وطيبتك يا هبكنز، ولكني أظن أن الخطة المثلى لتجنب أي نزاع آخر أن ينفض اجتماعنا في الحال».

وارتفع صوت مسز رادل الصافر قائلًا: «والآن يا مستر سوير! أليس هؤلاء البهائم منصرفين؟».

وقال بب: «إنهم يبحثون عن قبعاتهم وهم منصرفون في الحال».

وقالت مسز رادل، وهي تقذف بطاقية نومها من فوق الدرابزين في اللحظة ذاتها التي كان المستر بكوك وفي أثره المستر طبمن يخرجان فيها من غرفة الجلوس: «منصرفون! ولأي داع جاءوا!».

وقال المستر بكوك محتجًّا وهو يرفع بصره: «يا سيدتي العزيزة».

وأجابته مسز رادل في عجلة وهي تسترد طاقيتها: «اغرب من هنا أيها الشقي العجوز، إنك في سن جده أيها الوغد، وإنك لشرهم جميعًا».

ووجد المستر بكوك أن لا فائدة من الدفاع عن نفسه، وإظهار براءته، فهرول مسرعًا إلى الشارع يتبعه المستر طبمن على الأثر والمستر ونكل والمستر سنودجراس وصحبهم المستر بن ألن، إلى جسر لندن، وكان الكحول والاضطراب قد استوليا عليه وأثَّرَا في نفسه تأثيرًا محزنًا، وانثنى في الطريق يُسِرُّ إلى المستر ونكل- وهو خير من يكاشف بالسر- أنه معتزم أن يقطع رقبة أي إنسان يتطلع إلى حب أخته أرابلا، غير المستر بب سوير، وما كاد يبدي عزمه على تأدية هذا الواجب الأليم الذي لا مندوحة لأخ عن تأديته، بكل العزم الواجب، حتى أجهش بالبكاء، وأرخى قبعته على عينيه، وانطلق عائدًا أدراجه، فدق دقتين بباب مكتب السوق في القصبة، وأغفى إغفاءة قصيرة على كل درجة من درجات السلم، حتى مطلع الفجر، معتقدًا أنه يقيم في ذلك المسكن وأنه قد نسي المفتاح.

ولما انصرف الضيوف جميعًا؛ تنفيذًا لإلحاح مسز رادل، وجد المستر بب سوير المنحوس نفسه وحده، فمضى يفكر فيما عسى أن يأتي به الغد، وفي المسرات التي شهدها المساء.

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

وفيه يشرح المستر ويلر الكبير بعض الانتقادات على الإنشاء الأدبي، ويشترك مع ابنه صمويل في شيء من التشفي والثأر من السيد المحترم ذي الأنف الأحمر

كان صباح اليوم الثالث عشر من شهر فبراير الذي يعرف قُرَّاءُ هذه القصة المروية عن مصادرها الصحيحة، كما نعرف نحن أنه اليوم السابق لموعد النظر في قضية مسز باردل، كان هذا الصباح كثير العمل للمستر صمويل ويلر؛ فقد انشغل فيه بالرواح إلى مكتب المستر بركر من فندق «جورج والرخم» والغدو منه، بين التاسعة صباحًا والثانية بعد الظهر بما في ذلك هاتين الساعتين، لا لشيء يقتضي عمله، ولا لإجراء يراد اتخاذه، فقد تمت الاستشارات، وتقررت خطة العمل، ولكن المستر بكوك كان في أشد حالات القلق والاضطراب، فمضى يرسل رقاعًا صغيرة غير منقطعة إلى محاميه لا تحوي سوى سؤال واحد، وهو: «عزيزي بركر.. هل كل شيء على ما يرام؟». وكانت ردود المستر بركر عليها لا تزيد على قوله: «عزيزي بكوك، كل شيء حسن ما أمكن».

والواقع كما أسلفنا أنه لم يكن ثمة شيء حسن أو سيئ، ولا أي إجراء يصح أن يتخذ، ريثما تنعقد المحكمة في صباح اليوم التالي.

ولكن الذين يذهبون طائعين إلى القضاء أو يُساقون إلى ساحته كرهًا، يعانون- ولهم العذر- بعض الاضطراب والقلق فترة من الوقت، فلا عجب إذا كان سام قد راعى هذا الضعف في الطبيعة البشرية، فامتثل لكل أوامر سيده وإشاراته، بذلك الهدوء التام الذي لا يزعجه شيء، وتلك السكينة الوادعة التي لا تعرف التأبِّي والكنود، وهي إحدى مزايا خليقته المحببة العجيبة.

ومضى سام يعزِّي نفسه بغداء شهي، قليل، وكان منتظرًا في محل الشراب حتى تُقَدَّم إليه كأس من الشراب الدفئ التي طلب إليه المستر بكوك أن يتعاطاها ليُذهب عنه متاعب الصباح ورسالاته، وإذا هو يبصر غلامًا يبلغ طول قامته نحو ثلاثة أقدام ويضع على رأسه قبعة كثيرة الشعر ويرتدي ثوبًا سابغًا من القطن الغزير الوبر، يوحي بأنه يتطلع إلى الارتقاء على الأيام إلى صنعة سائس خيل، وهو يدخل ردهة الفندق، ويرفع بصره أولًا نحو السُّلَّم، ثم يجيله في الردهة، ثم يرنو إلى مكان الشراب كمن يبحث عن إنسان قد حمل رسالة إليه، وإذا الساقية المكلَّفة بالخدمة في مكان الشراب يذهب بها الظن إلى أن المهمة التي جاء الغلام من أجلها قد تكون ذات صلة بملاعق الشاي أو الطعام في الفندق، فراحت تخاطبه قائلة: «ماذا تريد أيها الشاب؟».

وقال الغلام بصوت جهير كأعلى الأنغام في الموسيقى: «هل هنا شخص يدعى سام؟».

واستدار سام ويلر قائلًا: «وما الاسم الآخر؟».

وأجاب الغلام ذو القلنسوة الكثيرة الشعر في عجلة: «ومن أين لي أن أعرف؟».

وقال المستر ويلر: «إنك لغلام حاد فطن، ولكني لو كنت في مركزك لما أظهرت هذه الحدة كثيرًا، حتى لا ينزعها أحد منك. ماذا تقصد من المجيء إلى فندق، والسؤال عن سام بهذا الأدب الجم الذي لا يكون إلا من رجل هندي؟».

وأجاب الغلام: «لأن سيدًا متقدمًا في السن طلب إليَّ ذلك».

وقال سام باحتقار بالغ: «أي سيد كبير في السن؟».

وأجاب الغلام: «إنه سائق المركبة الحافلة التي تسافر إلى أبسويتش، ويستخدم غرفتنا، فقد قال لي صباح أمس: اذهب إلى فندق جورج والرخم، بعد ظهر اليوم واسأل عن سام».

وقال المستر ويلر، وهو يلتفت إلى الساقية شارحًا مفسرًا: «هذا والدي يا عزيزتي، وأعتقد أنه لا يعرف اسمي الآخر، والآن أيها الفرخ ماذا وراءك؟».

وقال الغلام: «لقد طلب إليَّ أن أبلغك أنه يريد أن تذهب في الساعة السادسة لمقابلته في فندقنا «الخنزير البري الأزرق» بسوق لدنهول، فهل أبلغه أنك آت؟».

وأجاب سام: «لك أن تقول له ذلك يا سيدي».

وانصرف الغلام بعد أن تلقى هذا التفويض، وهو يملأ الشارع

أصدية لصفير متكرر متردد يقلد به في إتقان تام صوت راعي الغنم بنغمات شجية قوية، وصوت ممتلئ.

واستأذن المستر ويلر في الغياب من المستر بكوك، وكان هذا في حال من القلق وانشغال البال، فلم يسؤه أن يبقى وحده، وانطلق قبل الموعد المضروب بوقت طويل، ووجد أمامه فسحة فيه فذهب يمشي الهوينا حتى بلغ دار المحافظة؛ حيث وقف يتأمل- وقد بدا على وجه الهدوء التام، بسمات الفلاسفة- جموع السفلة وسائقي المركبات الذين يتجمعون عادة حول تلك الدار المشهورة، ويروعون النساء العجائز من سكان ذلك الحي. ولما قضى في ذلك الموضع نصف ساعة أو نحوه متجولًا متسكعًا، استدار ليأخذ الطريق إلى سوق لدنهول متسللًا من شوارع خلفية وأفنية، وفيما كان ذلك؛ إذ وقف ليشاهد كل ما يأخذ عينه، فلا عجب إذا هو وقف حيال واجهة حانوت صغير لبيع الأدوات الكتابية والورق، ولكن العجب الذي يحتاج إلى تفسير أنه ما كادت عيناه تستقران على صور معروضة للبيع في ذلك المتجر حتى أخذته رِعدة فجائية، وضرب ساقه اليمنى بعنف شديد وصاح بحماسة: «لولا هذا لنسيت كل شيء، وتأخرت أكثر مما ينبغي».

وكانت الصورة التي استقرت عليها عيناه وهو يقول هذه الكلمات صورة بالألوان تمثل قلبين بشريين يمسكهما معًا سهم نافذ، وهما يطهوان الطعام أمام نار بهيجة مفرحة، بينما يقترب منهما رجل وامرأة من أكلة اللحوم البشرية في زي حديث؛ فقد كان السيد مرتديًا ثوبًا أزرقَ وسراويلَ بيضاءَ والمرأة في ثوب أحمر، ومظلة من اللون ذاته، وكانا ينظران إلى

الطعام بأعين جائعة، وهما قادمان من منعطف مفروش بالحصباء يؤدي إلى ذلك الموضع، وقد بدا في الصورة فتى خشن جريء ليس عليه غير جناحين خفَّاقين، يشرف على طهو الطعام، ولاحت صورة قبة الكنيسة القائمة في ميدان لانجام في لندن من بعيد، والصورة في جملتها رسالة حب كما تقول لافتة صغيرة في واجهة المتجر، وتعلن عن وفرة أنواع كثيرة منها فيه، ويقرر التاجر أنه على استعداد لبيعها لمواطنيه عامة بسعر مخفض لا يتجاوز شلنًا وستة بنسات لكل واحدة.

وقال سام لنفسه: «لقد كنت سأنسى ذلك بلا شك، كنت سأنساه!» واندفع في الحال إلى المتجر وطلب ورقًا من أحسن أنواع الورق الذي تُكتب الخطابات عليه ويزدان بحواشيه المذهبة، وقلمًا صُلب السن مضمون ألا ينثر المداد على الصفحة، ولما فرغ من اقتناء الورق والقلم انطلق رأسًا صوب سوق لدنهول منفرج الخطى بعد ذلك التسكع الذي كان منه، وأجال البصر حوله فرأى لافتة صور عليها الرسام شيئًا بعيد الشبه بفيل أزرق شديد الزرقة ذي أنف أقنى، بدلًا من الخرطوم، فذهب به الظن إلى أن هذا هو الخنزير البري الأزرق ذاته وكان الظن صادقًا، فدخل الفندق وسأل عن أبيه.

وأجابت الفتاة التي تشرف على المحل: «لا ينتظر أن يأتي قبل ثلاثة أرباع الساعة أو أكثر».

وقال سام: «حسن جدًّا يا عزيزتي. هلا تكرمت يا آنسة عليَّ بما يساوي تسعة بنسات من البراندي والماء الدفيء، ودواة؟».

وحمل الشراب والدواة إلى الغرفة الصغيرة المعدة للجلوس، وراحت الفتاة بعناية ظاهرة تسوي الجذوات التي في الموقد لتمنعها من التأجج، وحملت معها «المحراك» حتى لا يبقى ثمة احتمال لتحريكها قبل استئذان الخنزير البري الأزرق، والحصول على موافقته.

وجلس سام ويلر في مقصورة بقرب الموقدة وأخرج الخطاب المذهب الحواشي والقلم الصُّلب السن ونظر مليًّا إليه حتى يستوثق من أنه خالٍ من أية شعرة أو نحوها، ونفض المائدة نفضًا، حتى لا يبقى فتات من الخبز تحت الخطاب، وشمر عن ساعديه وأسند مرفقيه، واستعد للكتابة.

ولا يخفى أن الذين لم يألفوا التوفُّر فعّلا على علم الكتابة، وحرفة القلم، لا يجدون تحرير خطاب مهمة سهلة يسيرة عليهم.

والمشاهد عامة أن الكاتب يجد أن لا مندوحة له في هذه الحال عن إسناد رأسه إلى ذراعه اليسرى حتى يضع عينيه أقرب ما تكونان من مستوى الورق، وإلقاء النظر جانبيًّا إلى الحروف التي يبنيها بالقلم ويؤلِّف بلسانه حروفًا تصويرية تقابلها، وهي جميعًا حركات تساعد بلا نزاع على الإنشاء أكبر المساعدة، ولكنها تؤخِّر الكاتب كثيرًا وتأخذ إلى حدٍّ ما من وقته، فلا عجب إذا قضى سام وهو لا يدري ساعة ونصف ساعة يكتب كلمات قليلة العدد، ويمحو حروفًا جاءت خطأ منه بخنصره، ويستعيض عنها حروفًا أخرى اقتضت منه العودة غالبًا إليها؛ ليجعلها ظاهرة للعين من خلال البقع القديمة، وإنه لكذلك مستغرق في تحرير الخطاب؛ إذ وجد الباب قد فتح، وإذا أبوه يدخل عليه.

وقال الوالد: «أهلا سامي!».

وأجاب الابن وقد وضع القلم من يمينه: «أهلًا بك أيها الأزرق البروسي[1]، ما هي آخر نشرة طبية عن صحة امرأة أبينا؟».

وأجاب المستر ويلر الكبير وهو يفك لفاعته: «قضت مسز ويلر ليلة طيبة جدًّا، ولكنها بدت على غير العادة في هذا الصباح هائجة حادة المزاج.. التوقيع طبق الأصل- السيد س. ويلر الكبير» هذه هي النشرة الأخيرة التي صدرت يا سامي».

وسأل سام قائلًا: «ألم تتحسن إلى الآن؟».

وأجاب المستر ويلر وهو يهز رأسه: «بالعكس، لقد اشتدت الأعراض كلها وتفاقمت. ولكن ما هذا الذي تفعله؟ أتتابع العلم في ظروف شاقة؟».

وقال سام في شيء من الارتباك: «لقد انتهيت الآن، لقد كنت أكتب».

وأجاب المستر ويلر: «يظهر أن الأمر كذلك، ولكن أرجو ألا يكون ما تكتبه مرسلًا إلى إحدى الشابات يا سامي».

وقال سام: «لا فائدة من الإنكار، إنها رسالة غرامية».

وصاح المستر ويلر، وقد بدا مروعًا من هذه الكلمة: «ماذا تقول؟».

وأجاب سام: «رسالة غرام».

(١) مادة كيماوية زرقاء اللون تستعمل في الصباغة.

وقال المستر ويلر بلهجة العتاب: «صمويل، صمويل، ما كنت أعتقد أنك تفعل شيئًا كهذا، بعد الإنذار الذي تلقيته من أبيك ونزعاته السيئة التي جلبت عليه الشر والضر، وبعد كل الذي قلته في هذه المسألة بالذات، وبعد كل ما رأيته وقاسيته من امرأة أبيك، وكنت أعتقد أنه درس أخلاقي لا يمكن أن ينساه أحد إلى يوم مماته، ما كنت أعتقد يا سامي أنك ستفعل ذلك!».

وكانت هذه الأفكار شديدة الأثر في نفس الشيخ الطيب فرفع كأس سام إلى شفتيه وشرب كل ما فيها.

وقال سام: «وما القصة الآن؟».

وأجاب المستر ويلر: «لا بأس يا سامي، إنها ستكون محنة أليمة في هذه السن، ولكني لا أزال شديد البأس، وهذا بعض العزاء، كما قال الديك الرومي العجوز حين سمع المزارع يقول إنه يخشى أن يكون مضطرًا إلى ذبحه لبيعه في سوق لندن».

وقال سام: «وما وجه المحنة التي تتكلم عنها؟».

وأجاب والده: «أن أراك تتزوج يا سامي، وأن أشهدك ضحية الأوهام، تظن في سذاجتك أن الزواج شيء بديع، إنها ستكون تجربة فظيعة لشعور الوالد الذي يجلس أمامك يا سامي».

وقال سام: «هراء، من قال إنني قادم على الزواج. لا تشغل بالك وتتكدر هذا الكدر كله من هذه المسألة. إنني عارف أنك خير من يحكم في هذه المسائل ونحوها. اطلب قصبتك، وأنا سأقرأ الخطاب عليك.

اسمع يا سيدي».

وليس في إمكاننا القول هل كان ارتقاب الاستمتاع بالقصبة أو التعزي بالاعتقاد أنه قد كتب في خطة الأقدار أن الزواج متوارَث في الأسرة فلا حيلة في رده، هو الذي هدأ من ثائرة المستر ويلر وخفَّف من حزنه، ولكنا نميل إلى القول بأن النتيجة تحققت باقتران هذين السببين معًا؛ لأنه مضى يردد السبب الثاني بصوت خافت، ويكثر في الوقت ذاته من دق الجرس، ليطلب الأول، وهو «القصبة». ثم راح يخلع عنه رداءه، ويشعل القصبة، ويتخذ مجلسه قبالة النار المشبوبة موليًا إليها ظهره حتى يحس أوارها كاملًا، ويعتمد بمرفقه على سجافه المصطلى، ويدير وجهه إلى سام، وقد خفف تأثير التبغ كثيرًا من انقباض سحنته، وطلب إليه أن يبدأ القراءة.

وغمس سام القلم في المداد استعدادًا لأي تصحيح، وبدأ بلهجة مسرحية يقرأ: «أيتها المخلوقة الجميلة».

وصاح المستر ويلر وهو يدق الجرس: «قف.. كأس مزدوجة من الصنف الذي لا يتغير أبدًا، يا عزيزتي».

وأجابت الفتاة التي ظهرت بسرعة بالغة وتوارت، فعادت، ثم اختفت: «سمعًا وطاعة يا سيدي».

وقال سام: «يظهر أنهم عارفون هنا بأحوالك».

وأجاب الوالد: «أي نعم. لقد كنت هنا من زمان بعيد! استمر يا سامي».

وعاد سام يكرر الديباجة: «أيتها المخلوقة الجميلة».

ولكن الوالد قاطعه قائلًا: «ليس هذا بالشعر يا سام، أهو كذلك؟».

وأجاب سام قائلًا: «كلا، كلا».

وقال المستر ويلر: «يسرني أن أسمع ذلك. إن الشعر شيء غير طبيعي، ولم أر في حياتي أحدًا يتكلم بالشعر إلا الشماس، في يوم الإحسان، الذي يتلو عيد الميلاد، أو الإعلانات عن ورنيش وارن أو زيت رولاند أو بعض أولئك الأراذل، فأنصح لك يا بني أن لا تنساق إلى الكلام بالشعر. ابدأ من الأول يا سامي».

وواصل المستر ويلر الاستمتاع بقصبته بادي الجد، متحفزًا للنقد، وعاد سام يقرأ ما يلي: «أيتها المخلوقة الجميلة إنني لأشعر بأنني ملعون..».

وأخرج المستر ويلر القصبة من فمه وقال: «هذا كلام لا يناسب».

ولكن سام مضى يقول، وهو يمسك الورقة أمام النور: «لا، ليست الكلمة ملعون، فإن هنا بقعة حبر سقطت على الكلمة فطمستها، إنها لا بد من أن تكون «خجلان»، والصحيح إذن هو: إني لأشعر بأنني خجلان».

وقال المستر ويلر: «حسن جدًّا، استمر».

واستتلى سام، وهو يهرأ رأسه بالقلم محاولًا عبثًا أن يتذكر الكلمة التالية: «وإنني من جميع الجهات محا....».

وقال الوالد: «لماذا لا تنظر إليها؟».

وأجاب سام: «هذا ما أنا مجتهد فيه، ولكن هنا بقعة حبر أخرى. ولا أرى من حروف الكلمة غير الحاء والصاد والراء».

وقال المستر ويلر مقترحًا: «ألا يجوز أن تكون محاطًا».

وأجاب سام: «لا، ليست هذه هي الكلمة إنها محاصر هي حقيقة».

وقال المستر ويلر بكل جد: هذه ليست الكلمة المناسبة، إنها ليست لفظة جيدة كقولك محاط يا سامي».

وقال سام: «ألا تظنها؟».

وأجاب الوالد: «لا، ليست مثلها بحال».

وسأل سام والده: «ولكن ألا ترى أن كلمة محاصر أكثر معنى؟».

وقال المستر ويلر بعد تفكير قصير: «يمكن أن تكون ألطف وأرق، استمر يا سامي».

«أشعر بأنني خجلان ومن جميع الجهات محاصر في الكتابة إليك لأنك فتاة لطيفة، ولا شيء غير لطيفة».

وقال المستر ويلر الكبير، وهو يزيل القصبة من فمه ليبدي رأيه: «هذا شعور جميل جدًّا».

وأجاب سام وقد تأثر كثيرًا بهذا الثناء: «نعم أعتقد أن هذا الكلام جميل فعلًا».

وقال المستر ويلر: «إن ما أستلطفه من هذا الأسلوب في الكتابة هو أنك لا تدخل فيه أوصافًا ولا أسماء، كقولهم فينوس ولا شيئًا من

هذا القبيل، ما الفائدة من تسمية بنت أو فتاة جميلة بأنها فينوس أو ملاك يا سامي؟».

وأجاب سام: «آه، صحيح ما الفائدة؟».

ومضى الوالد يقول: «لماذا لا يقال لها الجريفون[١] أو يا ذات القرن، أو باختصار يا متحف الحيوانات الخرافية؟».

وأجاب سام: «فعلًا».

وقال الوالد: «استمر يا سامي».

واستجاب سامر للأمر ومضى يقرأ، وظل أبوه يدخن، وقد بدت عليه سمات الحكمة المقترنة بالارتياح والرضى، وهي في ذاتها وترفع الروح المعنوية وتعزز قواها: «وقد كنت قبل أن أراك أحسب النساء جميعًا متشابهات».

وقال المستر ويلر على سبيل الاعتراض: «وإنهن فعلًا كذلك».

وواصل سام القراءة: «ولكني أشعر الآن بأني كنت فيما أحسبه خفيف العقل حتمًا وغرًّا لا يتصوره أحد؛ لأنه ليس فيهن واحدة مثلك وإن كنت أحبك أكثر من أي شيء آخر».

وهنا رفع سام بصره عن الكتاب وقال: «لقد كنت أظن أن هذه النقطة يجب أن تكون أقوى من هذا».

وأومأ المستر ويلر إيماءة الموافقة، وواصل سام القراءة: «ولهذا أنتهز مناسبة اليوم يا عزيزتي ماري، كما فعل السيد التعبان المرتبك،

(١) حيوان خرافي له جسم السبع ورأس النسر وأجنحته.

حين خرج في يوم أحد، فأقول لك إن جمالك في المرة الأولى والأخيرة التي رأيتك فيها، استولى على فؤادي بأسرع وأجمل ألوانٍ من أي جمال تلتقطه آلة تصوير كالتي يحتمل أن تكوني قد سمعت بها يا عزيزتي ماري، وإن كانت هذه الآلة تنتهي من أخذ الصورة وتضعها في الإطار وعليها لوح الزجاج، ومعها خطاف لتعليقها فوق الجدار، في دقيقتين وربع دقيقة».

وقال المستر ويلر متشككًا: «أخشى أن يكون هذا الكلام يقترب من حدود الشعر يا سامي».

وأجاب سام وهو يقرأ بسرعة بالغة تجنبًا للمناقشة في هذه النقطة: «كلا، لا تخف. فأرجو منك يا عزيزتي ماري أن تقبليني متيمًا بك، وتتدبري ما قلته، والسلام ختام، هذا هو ما في الخطاب».

وقال المستر ويلر: «ألا تظن يا سامي أن هذا الختام جاء مفاجئًا ومبتورًا؟».

وقال سام: «لا شيء من هذا، إنها ستتمنى لو كان في الخطاب كلام آخر. وهذا هو الفن العظيم، فن كتابة الرسائل».

وأجاب المستر ويلر: «إن فيما تقوله شيئًا من الصواب، وكنت أتمنى لو أن امرأة أبيك تراعي في كلامها هذا المبدأ اللطيف. ألا تنوي أن تمضي الخطاب؟».

وقال سام: «هذه هي الصعوبة؛ لأني لا أعرف بماذا أمضيه؟».

وقال أكبر من يحمل هذا الاسم من الأحياء: «امض ويلر».

وقال سام: «هذا لا يليق؛ لأن العادة ألا يمضي أحد رسالة غرام في هذه المناسبة المعروفة باسمه الحقيقي».

وقال المستر ويلر: «أقول لك امضه بكوك، فهو اسم حسن جدًّا، وسهل في الهجاء أيضًا».

وقال سام: «هذه أحسن فكرة، وفي إمكاني أن أختم ببيت من الشعر، فما رأيك؟».

وأجاب المستر ويلر: «أنا لا أحب الشعر يا سام، ولم أر في حياتي سائقًا محترمًا يكتبه، اللهم إلا واحدًا، اقتبس أبياتًا منه في الليلة السابقة لتنفيذ حكم الشنق فيه. ولكنه لم يكن سوى سائق من كامبرويل، وحتى هذا لا يعد قاعدة».

ولكن هذا الاعتراض لم يستطع أن يحمل سام على الامتناع عن الفكرة الشعرية التي خطرت له، فراح يمضي الخطاب بالتوقيع التالي: «الولهان المرتبك، بكوك».

وطوى الكتاب، بشكل معقد كل التعقيد، وأنشأ يكتب العنوان في خط منحدر في زاوية من الغلاف هكذا: «إلى ماري الوصيفة في دار المستر نبكن عمدة أبسويتش بولاية سافوك» ودس الخطاب في جيبه بعد تغليفه استعدادًا لإلقائه في صندوق البريد.

وبعد أن انتهت هذه العملية الخطيرة بدأ المستر ويلر الكبير يفتح باب الكلام في المسألة التي دعا ابنه من أجلها.

قال: «المسألة الأولى تتصل «بمعلمك» يا سامي، إنه سيحاكم غدًا،

أليس كذلك؟».

وأجاب سام: «إن الجلسة ستعقد فعلًا».

ومضى المستر ويلر: «وأظن أنه سيحتاج إلى استدعاء شهود نفي لإثبات حسن سلوكه وأخلاقه، أو ربما لكي يثبتوا أنه لم يكن في محل الواقعة عند حدوثها، وقد فكرت في هذه المسألة كثيرًا، فليطمئن يا سامي وليهدأ باله، فإن لدي أصدقاء يستطيعون أن يؤدوا أية واحدة منهما، ولكن نصيحتي هي ألا ضرورة لشهود أخلاق، والتمسك بالطريقة الثانية، فليس هناك شيء يعادلها يا سامي في القوة والتأثير».

وبدا على المستر ويلر التفكير العميق، وهو يلقي بهذا الرأي القانوني، وراح يدفن أنفه في الكأس ويغمز بطرف عينه من فوق حافتها لولده المندهش منه.

وقال سام: «وماذا تقصد بهذا؟ ألا تظن أنه سيحاكم أمام الأولد بيلي[1]».

وأجاب المستر ويلر: «لا دخل لهذا يا سامي في هذا الرأي الذي عرضته الآن، فمهما تكن المحكمة التي سيحاكم أمامها، فإن هذا الإثبات الذي شرحته لك، وهو عدم وجوده وقتئذ في مكان الواقعة، هو الوسيلة الوحيدة لإخراجه من هذه القضية. فقد استطعنا في قضية توم فيلد سبارك الذي كان متهمًا بجناية قتل إخراجه منها بإثبات غيابه، مع أن كل كبار المحامين أجمعوا على أنه لن ينقذه شيء. وأنا من رأيي

---

(١) محكمة الجنايات المركزية بلندن.

يا سامي أنه إذا لم يتقدم معلمك بهذا الدليل، فسوف ينتهي إلى ما يقوله الإيطاليون وهو أنه سيكبس كبسة لا خروج له منها. هذا هو كل ما في الموضوع».

وكان المستر ويلر مقتنعًا اقتناعًا جازمًا لا حول عنه، بأن «الأولد بيلي» هي المحكمة العليا في البلاد، وأن إجراءاتها بمختلف أنواعها وأشكالها هي التي تنظم إجراءات سائر المحاكم الأخرى مهما يختلف اختصاصها، فلا عجب إذا هو لم يَعْبَأْ مطلقًا بحجج ابنه وتوكيداته أن التذرع بعدم وجود سيدِه في مكان الحادث غير مقبول ولا جائز، وأصر على الاحتجاج بأن المستر بكوك وقع «ضحية»، ولا نجاة له منها إلا بهذا الدليل، ورأى سام ألا فائدة من مطال الجدل في هذه المسألة، فغير الموضوع وسأل عن المسألة الثانية التي طلب الوالد المحترم إليه الحضور للاستئناس فيها برأيه.

وأجاب المستر ويلر: «أما المسألة الثانية فهي شيء يتعلق بالسياسة المنزلية يا سامي. فإن ذلك المدعو ستينجز..».

وسأل سام قائلًا: «أتقصد الرجل ذا الأنف الأحمر؟».

وأجاب الوالد: «هو بعينه. إن هذا الرجل ذا الأنف الأحمر يا سامي مستمر على زيارة امرأة أبيك بعطف وموالاة لم أر مثلهما في حياتي، فهو صديق للأسرة إلى حد لا يستريح له خاطر كلما غاب عنا، حتى يعرض له شيء فيتذكرنا به».

وقاطعه سام بقوله: «لو كنت في مكانك لناولته شيئًا يكفي لإحراق

ذاكرته بالنفط لعشر سنين قادمة أو نحوها».

وقال المستر ويلر: «قف لحظة. لقد هممت بأن أقول إنه اعتاد الآن أن يحضر معه زجاجة مفرطحة تسع فنتًا ونصف فنت[1] أو نحوها فيملأها «بالروم» المقطر من عصير الأناناس قبل انصرافه».

وقال سام: «وأحسبه يفرغها قبل أن يعود مرة أخرى؟».

وأجاب المستر ويلر: «ولا يبقي على قطرة واحدة منها، فلا يدع شيئًا غير الغطاء والرائحة. تأكد ذلك يا سامي، هذا شيء مضمون. والآن يا بني إن هؤلاء الناس سيعقدون الليلة الاجتماع الشهري لشعبة بريك لين التابعة لاتحاد جمعيات منع المسكرات في ابنزر، وكانت امرأة أبيك تنوي حضوره ولكنها تشكو أوجاع النقرس فلا تستطيع، وأنا يا سامي عندي بطاقتا الدعوة اللتان أرسلتا إليها».

وكان المستر ويلر يكاشف ابنه بهذا السر وهو في سرور بالغ، ولا يكف عن الغمز خلال حديثه وبعده، حتى بدأ سام يظن أنه لا بد قد أصيب بتشنُّج في جفن عينه اليسرى.

وقال سام: «وماذا بعد؟».

وأجاب الوالد وهو يتلفت في حذر شديد: «وماذا بعد؟ سنذهب أنا وأنت في الموعد المضروب، وأما نائب الراعي يا سامي فلن يذهب، لن يذهب نائب الراعي».

---

(١) الفنت Pint مكيال إنجليزي للسوائل يعادل ١/٨ جالون.

وانتابته عندئذ نوبة ضحك، انتهت شيئًا فشيئًا إلى شبه اختناق قلما يحتمله رجل كبير في السن، أو سلم من شره».

وصاح سام قائلًا وهو يضرب الشيخ على ظهره ليزيل منه هذا الاختناق بقوة التدليك والاحتكاك: «والله لم أشهد في حياتي كلها عفريتًا عجوزًا بهذا الشكل. ما الذي يضحكك أيها البدين؟».

وقال المستر ويلر مخافتًا، وهو يتلفت حوله في مزيد من الحذر والاحتياط: «صه، يا سامي، إن لي صديقين يشتغلان على طريق أوكسفورد، ولا يترددان في الإقدام على أي عمل كان، وقد عرفا نائب الراعي وظلا يقطرانه يا سامي ويقتفيان أثره، وحين يحضر اجتماع الشعبة في ملتقى ابنزر، لأنه حتمًا سيذهب، وسيتبعانه حتى الباب، بل سيدفعانه إلى الداخل إذا احتاج الأمر، وسيكون عندئذ قد عب من الروم والماء مثل ما اعتاد أن يعب في حانة المركيز جرانبي في دور كنج، وهو قول لا يغض من مقدار شربه على كل حال».

وعاد المستر ويلر إلى نوبة الضحك الشديد، واستولت عليه حالة الاختناق الجزئي بسببها، ولم يكن ثَمَّةَ شيء أكثر إرضاءً لمشاعر سام من هذا المشروع الذي يرمي إلى فضح ذلك الرجل ذي الأنف الأحمر وكشف حقيقته وجملة عيوبه ومساوئه، وكان الوقت قد حان لحضور الاجتماع؛ فاتَّخذ الأب وابنه طريقهما في الحال إلى حي بريك لين، ولم ينسَ سام في الطريق أن يُلقي خطابه في صندوق البريد.

وكان اجتماع شعبة بريك لين التابعة لاتحاد منع المسكرات يقام

مرة كل شهر في قاعة رحيبة الجوانب تقع في نهاية سلم مريح، وموضع لطيف تهب عليه الأنسام، وكان رئيس الشعبة هو المستر أنتوني هم المستوي القامة في مشيته، وهو رجل كان يشتغل من قبل في المطافئ، ثم أصبح ناظر مدرسة، وبين الفينة والفينة واعظًا متنقلًا، وكان أمينها المستر جوناس مج، وهو صاحب متجر للشمع متحمس للفكرة خلي من المآرب الذاتية، اعتاد أن يبيع الشاي للأعضاء.

وكانت السيدات في هذا الاجتماع بالذات قد شربن من فوق الدكك ومَضَيْن يتناولن الشاي فترة من الوقت إلى أن رأين أنه قد حان لهن أن يمتنعن عنه، فجيء عندئذٍ بصندوق خشبي كبير لجمع التبرعات فيه فوُضع في مكان ظاهر فوق الغطاء الأخضر الذي يكسو المنضدة المقامة فوق المنصة، والتي وقف خلفها الأمين وجعل يبتسم ابتسامة المتفضل لكل مبلغ يُضاف إلى ما حوى جوف الصندوق من نقود نحاسية كثيرة.

وكانت السيدات في هذا الاجتماع بالذات قد شرِبن من الشاي قدرًا يدعو إلى أشد الفزع، حتى لقد هال مشهدهن على هذا النحو المستر ويلر الكبير الذي لم يبالِ قط بكل وكزات سام له بمرفقه وجعل يتلفت حوله في كل ناحية بدهشة ظاهرة لا تخفى على أحد، وراح يهمس قائلًا: «اسمع يا سامي، إذا لم يحتج بعض هؤلاء الذين هنا صباح غد إلى ملين فما أنا أبوك. هذه هي الحقيقة. ألا ترى هذه العجوز الجالسة بجانبي، إنها أغرقت نفسها في موجة من الشاي».

وغمغم سام قائلًا: «اسكت، ألا يمكن أن تسكت؟».

وعاد المستر ويلر بعد لحظة أخرى يخافت بصوته قائلًا في هياج بالغ: «اسمع كلامي يا بني. إذا استمر هذا الأمين خمس دقائق أخرى، فسينفجر من كثرة الخبز الحميص والماء اللذين يسكبهما في جوفه».

وأجاب سام: «لينفجر إذا شاء، هذا ليس من شأنك».

وعاد المستر ويلر يقول بصوته المخافت ذاته: «إذا استمرت الحال على هذا المنوال فسأشعر أنه من واجبي بوصفي إنسانًا أن أنهض وأتكلم، إن في الصف التالي بعد صفين اثنين شابة شربت تسعة فناجين ونصف فنجان إلى الآن، حتى أخذت تتورم ويرتفع كرشها أمام عيني اللتين في رأسي».

ولا شك في أن المستر ويلر كان سيعمد في الحال إلى تنفيذ هذه النية التي بعثها في نفسه حبه للخير، لو لم تقُم لحسن الحظ ضجة بسبب حركة رفع الفناجين والأقداح؛ إيذانًا بانتهاء القوم من تناول الشاي، وما كادت الأوعية والصحاف تُزال حتى نقلت المنضدة ذات الكساء الأخضر إلى وسط القاعة، وابتدأ الاجتماع بقيام رجل قصير القامة أصلع في سراويل قصيرة خلقة، وانطلق فجأة يصعد السلم، حتى ليكاد يتعرض من سرعته لخطر كسر ساقيه القصيرتين المحتجبتين في جوف تلك السراويل وأنشأ يقول: «أيتها السيدات، أيها السادة. إنني أدعو أخانا الرجل الممتاز المستر أنتوني هم إلى اتخاذ مقعد الرياسة».

فلم يكن من السيدات إلا أن لوَّحن في الفضاء بمجموعة مختارة من مناديل الجيب؛ ارتياحًا لهذا الاقتراح، وانثنى ذلك الرجل القصير

المتهور يجر المستر هم جرًّا إلى كرسي الرياسة؛ فقد أخذه من كتفيه ودفع به إلى مقعد من خشب المجنة، كان يومًا ما جزءًا من ذلك الأثاث، وتَجدَّد التلويح بالمناديل، فلم يسع المستر هم- وهو رجل هادئ أبيض الوجه، لا ينقطع عن التصبُّب عرقًا- إلا أن ينحني انحناءة وادعة، استثارت إعجاب السيدات الشديد، واتخذ مجلس الصدارة، وعندئذٍ طلب الرجل القصير الإخلاد إلى السكون، ونهض المستر هم فقال إنه بعد استئذان الإخوان والأخوات أعضاء شعبة بريك لين المجتمعين، سيقرأ أمين الاجتماع عليهم التقرير الذي وضعته لجنة الشعبة، وقد قوبل هذا الاقتراح أيضًا بتلويح المناديل.

وبعد أن عطس السكرتير عطسة شديدة أخَّاذة، وعقب السعال الذي لا يفتأ ينتاب كل اجتماع قبيل حدوث شيء ذي بالٍ، بدأ أمين الجلسة يتلو التقرير التالي:

«تقرير لجنة شعبة بريك لين التابعة لاتحاد منع المسكرات في ملتقى ابنزر»

واصلت لجنتكم جهودها المشكورة خلال الشهر الماضي، ويسرها أشدَّ السرورِ أن ترفع إليكم تقريرًا عن الأعضاء الجدد الذين امتنعوا عن المسكرات.

١ - هـ. ووكر حائك وله زوجة وولدان- لقد اعترف هذا الحائك حين تحسنت ظروفه، بأنه كان من مدمني شرب الجعة بنوعيها القوية والخفيفة، ويقول إنه ليس متأكدًا هل كان يذوق مرتين في الأسبوع «أنف الكلب» خلال العشرين السنة الماضية، وقد تحرت لجنتكم عن

هذا الشراب، فعلمت أنه صنف من الأشربة مركب من النبيذ الدفيء والسكر المبلول والجن وجوزة الطيب (أنين- صوت يقول: «هو كذلك فعلًا» من جانب سيدة متقدمة في السن). وهو الآن خال من العمل، لا يملك درهمًا، ويظن أنه لا بد من أن يكون مرد ذلك إلى النبيذ (هتاف) أو فقدان حركة يده اليمنى، وإن لم يكن متأكدًا أيهما أصح، ولكنه يرجح أنه لو كان قد قضى الحياة كلها يشرب الماء القراح لما استطاع زميل له في العمل أن يدخل إبرة صدئة في جسمه، ولما أحدث له هذه الإصابة (هتاف شديد). وهو الآن لا يجد ما يشربه غير الماء البارد، ولا يحس يومًا عطشًا» (تصفيق حاد).

٢ - بتشي مارتن- أرملة ولها ولد واحد وعين واحدة- تقضي نهارها في غسل الثياب والخدمة اليومية في البيوت. ولم يكن لها في يوم من الأيام غير هذه العين الواحدة، ولكنها تعرف أن أمها كانت تشرب الجعة السوداء المعبأة في الزجاجات، ولا تعجب إذا كان مصابها بالعور مرجعه إلى هذا السبب (هتاف بالغ)، وتعتقد أنه لم يكن من المتعذر أن تكون لها الآن عينان اثنتان لو أنها كانت ممتنعة عن تعاطي الكحول (تصفيق مدوٍّ) وكانت في كل مكان تذهب إليه تتناول عادة ثمانية عشر بنسًا في اليوم وفنتًا من الجعة وزجاجة من الخمر الشديدة الكحول. ولكنها منذ أصبحت عضوًا في شعبة بريك لين جعلت تطالب دائمًا بثلاثة شلنات وستة بنسات بدلًا من أجرها القديم (وقد قوبل إعلان هذا النبأ البالغ الأهمية بحماسة تصم الآذان).

٣ - هنري بلر- وهو رجل ظل عدة سنين مشرفًا على تقديم الأنخاب

في عدة مآدب للجمعيات والشركات المتحدة، وكان خلال هذه الفترة يكثر من تعاطي النبيذ الأجنبي، ولعله كان أحيانًا يحمل زجاجة أو زجاجتين منه وهو عائد إلى بيته، وليس هو على يقين تام، وإن كان متأكدًا من أنه إذا فعل كان يشرب كل ما فيهما، ويشعر بهبوط نفسي شديد واكتئاب، وحمى بالغة، ويحس في أعماقه بعطش مستمر، ويظن أن هذا الظمأ راجع بلا شك إلى النبيذ الذي كان يعاقره (هتاف) وهو الآن خال من العمل ولا يتناول إطلاقًا قطرة من النبيذ الأجنبي بحال من الأحوال (تصفيق شديد).

٤ - تومس بيرتون- متعهد توريد لحوم القطط للعمدة والأعيان وعدة أعضاء في مجلس العموم (وقد قوبل إعلان اسم هذا السيد بحماسة تلهث منها الأنفاس) وله ساق خشبية، ويقول إن تركيبها باهظ النفقات، وهو يمشي فوق الحجارة، وقد اعتاد أن يتخذ سيقانًا خشبية، مستعملة، ويشرب كأسًا من الجن الساخن الممزوج بالماء بانتظام كل ليلة، وأحيانًا كأسين (تنهدات من أعماق الصدور). ولكنه تبين أن السيقان الخشبية المستعملة تتشقق بسرعة وتتعفن، ويعتقد اعتقادًا جازمًا أن ذلك يرجع إلى تعاطي «الجن» الممزوج بالماء (هتاف مستطيل) وهو الآن يشتري سيقانًا خشبية جديدة ولا يشرب غير الماء القراح والشاي الخفيف، ويعتقد أن السيقان الجديدة تعيش ضعفي ما تعيشه الأخرى، ويرد ذلك إلى سبب واحد، وهو امتناعه عن المسكرات (هتافات مدوِّية).

وما كادت تنتهي تلاوة التقرير حتى اقترح أنتوني هم على المجتمعين إنشاد أغنية مناسبة وقال إن الأخ «موردلن» قد تكرم في سبيل إطراب

الأعضاء بأغنية تتفق مع العقل والخلق باقتباس الكلمات الجميلة التي جاءت في صلب أغنية «من الذي لم يسمع بالسقاء الشاب البديع؟» وتلحينها على نغمة «أولد هندرث»[1] وهو يتقدم إليهم بالرجاء أن يشاركوه في غنائها (هتاف شديد) وقال إنه ينتهز هذه الفرصة لإبداء رأيه الجازم في أن المرحوم المستر دبدن رأى التكفير عن مساوئه والأغلاط التي ارتكبها في ماضي حياته، فكتب هذه الأغنية ليدلل على مزايا الامتناع عن المسكرات. فهي في الواقع أغنية تقع في هذا الباب (هتافات مدوية) وأن أناقة ثياب هذا الشاب وحسن سمته، ونفسيته التي يحسد عليها والتي أعانته على حد تعبير الشاعر «على الانطلاق بزورقه في اليم غير عابئ بشيء» كل أولئك مجتمعة تدل دلالة قاطعة على أنه كان بلا شك طيلة العمر من شاربي الماء القراح (هتاف شديد) بالله أي ابتهاج بريء ابتهاجه، وأي مرح فاضح مرحه! وماذا كان جزاء هذا الشاب؟ فليعلم جميع الشبان الحاضرين ما قاله الشاعر «لقد تزاحمت العذارى على زورقه فرحات متهللا» (هتافات عالية اشتركت فيها السيدات) ألا ما أروع هذا المثل، تصوروا أيتها السيدات والسادة كيف احتشدت العذارى واجتمعن حول هذا السقاء الشاب، يحثثنه على المضي في تيار الواجب والامتناع عن المسكرات، ولكن هل كانت أولئك العذارى اللاتي ازدحمن حوله للترفيه عنه، ومواساته، ومناصرته، من أهل الطبقة الدنيا وحدها في هذه الحياة؟ كلا، بل لقد كان على الزورق والمجاذيف حوله غيد المدينة وعذاراها الراقيات (هتاف مدوٍّ) وقام الجنس اللطيف

---

(١) ترنيمة دينية خشوعية لا زالت ترنم في الكنائس إلى اليوم.
Old Hundredth.

قومة «رجل واحد» أستميحكم المعذرة، قوة «أنثى» واحدة، فناصرن ذلك السقاء الشاب وتوافين إليه، منصرفات من الاشمئزاز عن شاربي الكحول (هتاف). إن جميع الإخوان في شعبة بريك لين من السقائين (هتاف وضحك) هذه القاع هي زورقهم، وهؤلاء الحاضرات هن عذاراه، وهو «أي المستر أنتوني هم» المجذف الأول، وإن كان لا يستحق هذا الفخار (هتاف متواصل).

وهمس المستر ويلر لابنه قائلًا: «ماذا يقصد بقوله الجنس اللطيف يا سامي؟».

وأجاب سام همسًا: «النساء».

وقال المستر ويلر: «لم يبعد كثيرًا عن الحقيقة يا سام. فلا بد من أن تكون النساء جنسًا لطيفًا، جنسًا خفيفًا كل الخفة، ما دمن ينسقن وراء هذا المخلوق وينخدعن بكلامه».

ولكن هذا السيد الغاضب لم يستطع المُضِيَّ في ملاحظاته؛ فقد أعلن المستر أنتوني هم أن الترتيل سيبدأ، وشرع ينطلق بالترتيلة، كل سطرين معًا؛ حتى يتيسر للسامعين الذين لم تسبق لهم معرفة الأسطورة أو الإلمام بها، أن يدركوا كل كلمة من كلماتها، وبينما كانت الأغنية تُغَنَّى، اختفى الرجل ذو السراويل القصار لحظة ثم عاد على أثر انتهائها وهمس للمستر أنتوني هم، وقد بدا على وجهه أشد الاهتمام.

وانثنى المستر هم يقول وهو يرفع يده رفعة المستنكر المستهجن، وهي حركة يريد بها أن يُسكت السيدات العجائز البدينات اللاتي تخلفن سطرًا أو سطرين في الترنيم: «أيها الأصدقاء إن الأخ ستيجنز المندوب

عن فرع دوركنج التابع لجمعيتنا، قد حضر وهو منتظر في أسفل هذا المكان».

وهنا ارتفعت المناديل مرة أخرى بقوة أشد من قبل؛ فقد كان المستر ستيجنز محبوبًا إلى حَدٍّ بعيد بين نساء دائرة بريك لين.

وأدار المستر «هم» عينيه حوله وقال بابتسامة عريضة: «أظن أن لا بأس من حضوره. أيها الأخ تادجر، دعه يحضر ويحيينا».

فما كان من الرجل القصير في السراويل القصار الذي يُدعى الأخ تادجر إلا أن مضى يهبط الدرج مسرعًا، ولم تلبث أن سُمعت مواقع أقدامه وهو يصعد مع المستر ستيجنز المحترم.

وهمس المستر ويلر، وقد امتقع وجهه من الضحك المكتوم يقول: «إنه آت يا سامي».

وأجاب سام بقوله: «لا تكلمني مطلقًا؛ لأنني لا أطيق الكلام، إنه قد اقترب من الباب وقد سمعته وهو يصدم برأسه رقائق الخشب والجص».

وما كاد سام ويلر ينتهي من هذا القول حتى فتح الباب، وظهر الأخ تادجر يتبعه على الأثر المستر ستيجنز المحترم، وما إن بدا للأبصار حتى اشتد التصفيق والضرب بالأقدام، والتلويح بالمناديل. ولم يقابل الأخ ستيجنز كل هذه المظاهر من الفرح والاغتباط التي عبر عنها الأعضاء على هذا النحو، بشيء من العرفان غير الحملقة ببصره الشارد، والابتسام الموجَّه إلى أقصى طرف ذبالة الشمعة الموضوعة فوق المنضدة، محركًا جسمه يمنة ويسرة في ترنح شديد، وتمايل ظاهر.

وهمس المستر أنتوني هم له قائلًا: «أمريض أنت أيها الأخ ستيجنز؟».

وأجاب المستر ستيجنز بلهجة اقترنت فيها الحدة الشديدة بغلظة المنطق المتناهية: «إنني بخير يا سيدي، إنني بخير تام يا سيدي».

وقال المستر أنتوني هم وهو يتراجع بضع خطوات: «الحمد لله، الحمد لله».

وعاد المستر ستيجنز يقول: «أعتقد أنه ليس أحد هنا قد اجترأ على أن يقول إنني لست بخير يا سيدي».

وأجاب المستر هم قائلًا: «بلا شك يا سيدي».

وقال المستر ستيجنز: «إنني أنصحه ألا يفعل يا سيدي، أنصحه ألا يفعل».

وكان الحاضرون عندئذ قد التزموا الصمت التام، وانتظروا في قلق مواصلة العمل.

وقال المستر هم وهو يبتسم ابتسامة الدعوة: «ألا تتفضل أيها الأخ بإلقاء خطاب في هذا الاجتماع؟».

وأجاب المستر ستيجنز: «كلا يا سيدي، كلا يا سيدي، لن أفعل».

وتبادل الحاضرون النظر رافعي الأجفان، وسرت همهمة دهشة في الصفوف.

وعاد المستر ستيجنز يقول وهو يفك أزرار سترته، ويتكلم بصوت

مرتفع جهير: «إن رأيي يا سيدي، إن رأيي يا سيدي أن هذا الجمع كله سكارى يا سيدي».

والتفت إلى الرجل القصير في السراويل القصيرة مثله، فقال وقد زادت حدته فجأة: «أيها الأخ تادجر. إنك أنت سكران يا سيدي!».

وبهذه العبارة والرغبة الصادقة في الدفاع عن صحو الاجتماع وخلوه من السكارى، وإبعاد الأشخاص الطالحين منه جميعًا،ضرب الأخ تادجر على قمة أنفه في تسديد محكم لا خطأ فيه، فلم يكد ذو السراويل القصيرة يتلقى الضربة حتى اختفى في مثل وميض البرق هابطًا مدارج السلم ورأسه إلى أسفل وساقاه في الفضاء.

وهنا أطلقت النساء صيحات مدوية وصرخات فزع ورعب، واندفعن في جماعات صغيرة أمام إخوانهن الأثيرين لديهن، ورحن يطوقنهم بأذرعهن؛ لوقايتهن من الخطر، وكاد هذا العطف يقضي على المستر هم، الذي يستمتع بمحبة متناهية لديهن؛ لأنه أوشك أن يختنق من ازدحام المخلصات إليه اللاتي تعلَّقن بنحره، وتشبثن به، وأهلن عليه الملاطفات، وأطفئت أكثر الأنوار في عجلة، فلم يبق غير الجلبة تتردد منها الأصداء، والفوضى التي ضربت أطنابها في أرجاء المكان.

وقال المستر ويلر وهو يخلع معطفه بتؤدة بالغة: «والآن يا سامي، اخرج اللحظة وأحضر شرطيًّا».

وسأل سام: «وماذا تنوي أن تفعل ريثما أحضره؟».

وقال الشيخ: «لا تقلق عليَّ أبدًا يا سامي، سأشغل نفسي بتصفية

شيء من الحساب مع ستيجنز هذا».

ولم يكد يقول ذلك، حتى اندفع الوالد الهمام، قبل أن يتمكن سام من التدخل لمنعه، نحو ركن قصيّ من القاعة، وراح يضرب المستر ستيجنز المحترم ضربًا بارعًا باليدين.

وقال سام: «هيا بنا!».

وصاح المستر ويلر: «تقدم». وبغير دعوة أخرى انثنى يضرب المستر ستيجنز المحترم ضربة تمهيدية على أم ناصيته، وأخذ يرقص حوله بخفة أشبه بالفللينة، كان منظرها من رجل في مثل سنه عجيبًا كل العجب.

ووجد سام أن لا نفع مطلقًا من الاحتجاج على الوالد، فشد قبعته بقوة على عينيه، وحمل معطف أبيه على ذراعه، وأمسك بالشيخ من خاصرته، وجره بالقوة إلى السُّلَّمِ حتى خرج به إلى الشارع، ولم يترك قبضته تتراخى عن وسطه، ولا آذن له في الوقوف، إلى أن وصلا إلى ناصية الشارع، وهما يسمعان صيحات الغوغاء، الذين ازدحموا لمشاهدة المستر ستيجنز المحترم وهو يُجَرْجَرُ إلى المبيت في الحجز حتى الصباح، كما تترامى إلى آذانهما الجلبة التي أحدثها تشتت أعضاء شعبة بريك لين التابعة لاتحاد منع المسكرات وتفرقهم في كل ناحية.

* * *

الفصل الرابع والثلاثون

بيان وافٍ أمين لما جرى في المحاكمة المشهودة للنظر في دعوة «باردل» على بكوك

وقال المستر سنودجراس على سبيل تجاذب الحديث في صبيحة اليوم الرابع عشر من شهر فبراير، وهو ذلك اليوم المشهود: «إني لفي عجب من كبير المحلفين! ماذا تراه تناول من الفطور اليوم؟».

وأجاب بركر: «آه، أرجو أن يكون فطورًا طيبًا».

وسأل المستر بكوك: «وما الحكمة في هذا؟».

وأجاب بركر: «هذه مسألة على جانب كبير من الأهمية يا سيدي العزيز، فإن المحلف الطيب الراضي الجيد الفطور يمكن الاطمئنان كثيرًا إليه، أما المحلفون المتسخطون الجياع يا سيدي العزيز، فهم دائمًا أبدًا مع المدعي وفي جانبه».

وقال المستر بكوك، وقد ارتد وجهه شاحبًا: «يا للعجب! ولماذا يفعلون هذا؟».

وأجاب الرجل القصير ببرود: «لست أدري، ولكن لعل مرجعه إلى رغبتهم في توفير الوقت، فإذا اقترب موعد العشاء، أخرج كبيرهم ساعته، عند اختلائهم للمداولة، وقال: «يا ألله أيها السادة! الساعة الخامسة إلا عشر دقائق، وأنا أتعشى في الخامسة أيها السادة. وعندئذٍ يجيبه الجميع: ونحن كذلك. اللهم إلا اثنان منهم كان أولى بهما أن يتناولا غداءهما في الثالثة، ولكنهما وقد فات الموعد أصبحا أكثر ميلًا إلى البقاء، وعندئذٍ يبتسم كبير المحلفين ويُدخل الساعة في جيبه ويقول: والآن أيها السادة ماذا نقول؟ هل المدعي أو المدعى عليه يا سادة؟ أقول أو على الأصح أظن، ولكن لا تدعوا هذا يؤثر في رأيكم، أظن أن الحكم للمدعي، وعندئذٍ ينبرى اثنان أو ثلاثة منهم فيقولون: حتمًا إن هذا هو رأيهم أيضًا- وهو رأيهم طبعًا- وعندئذ ينتهون إلى الأخذ به إجماعًا، وبلا عناء».

ونظر الرجل القصير إلى ساعته فقال: «الساعة التاسعة والدقيقة العاشرة، وقد حان أن ننطلق يا سيدي العزيز، فإن المحكمة التي ستنظر في دعوى النكث بالعهد تمتلئ عادة في أمثال هذه القضايا، فيحسن أن تدق الجرس وتطلب مركبة يا سيدي العزيز، وإلا تأخرنا».

وبادر المستر بكوك إلى دق الجرس، وجاءت المركبة، وحشر البكوكيون الأربعة والمستر بركر أنفسهم في جوفها، ومضت بهم إلى «الجلد هول» وتبعهم في مركبة أخرى سام ويلر والمستر لوتن والحقيبة الزرقاء.

ولما وصل القوم إلى القاعة الخارجية في دار المحكمة قال

المستر بركر لكاتبه: «أجلس أصحاب المستر بكوك يا لوتن في المكان المخصص للطلبة، ويحسن أن يجلس المستر بكوك بجانبي، من هنا يا سيدي العزيز، من هنا».

وأخذ المستر بكوك من كُمِّ ثوبه فمشى به إلى المقعد الخفيض القائم تحت مناضد المحامين المترافعين مباشرة، وهو المكان المُعَدُّ لجلوس الوكلاء، حتى يتيسر لهم منه الهمس في أذن المحامي المترافِع في القضية بأية تعليمات قد يقتضيها الموقف في أثناء نظرها، وهم في هذا الموضع محجوبون عن أعين أغلب النظارة؛ لأنهم في مجلسهم هذا لا يتخذون موضعًا لا يرتفع عن مستوى مقاعد المحامين المترافعين، ولا عن مكان النظارة؛ لأن مقاعد هؤلاء مرتفعة عن أديم قاعة الجلسة، وإن كانت ظهورهم طبعًا متجهة إلى هذين الفريقين، ووجوههم شطر القاضي.

وقال المستر بكوك وهو يشير إلى شيء كالمنبر وله سياج من نحاس عن يساره: «أظن أن هذا هو مكان الشهود؟».

وأجاب المستر بركر، وهو يخرج قدرًا من الأوراق من الحقيبة الزرقاء التي كان المستر لوتن قد جاء بها في تلك اللحظة فوضعها عند قدميه: «هذا هو مكان الشهود يا سيدي العزيز».

وقال المستر بكوك، وهو يشير إلى صفين منعزلين من المقاعد عن يمينه: «وهذا مجلس المحلفين. أليس كذلك؟».

وأجاب بركر وهو يدق بلطف غطاء علبة سعوطه: «هو بالذات

يا سيدي العزيز».

ونهض المستر بكوك وهو في حال من الاضطراب البالغ فألقى نظرة على القاعة، وكان خلق كثير من النظارة قد توافدوا إلى الصفوف المُعَدَّةِ لهم وتناثروا في جوانبها، كما حضر جمع كبير من المحامين المترافعين في ضفائرهم المستعارة فاحتلوا أماكنهم، وهم يمثلون ذلك التباين البديع المتناهي في الأنوف والشوارب، الذي اشتهر به القضاة ومعاشر المحامين في إنجلترا، وذاع بحق وجدارة ذكره، وكان الذين لديهم مذكرات بدفاعهم يحملونها بشكل ظاهر واضح ما أمكن، وراحوا بين لحظة وأخرى يهرشون بها أنوفهم؛ لكي يؤثروا بهذه الحركة في نفوس النظارة ويلفتوا إليهم أعينهم. وأما الآخرون الذين ليس في أيديهم مذكرات أو أوراق يظهرونها فقد تأبطوا مجلدات كبيرة ذات عناوين حمراء على ظهورها، وغلاف يشبه في لونه وجه الفطير الناقص النضج، وقد اصطلح على تسميته «عجل القانون». بينما جعل الذين لا يحملون مذكرات، ولا يتأبطون كتبًا، يدسون أيديهم في جيوبهم ويتخذون كل ما أسعفهم من سمات الحكمة والوقار. وهناك آخرون أيضًا يتنقلون في القاعة وهم في أشد الجد والحركة والنشاط، قانعين بإثارة الإعجاب والدهشة من حركاتهم تلك في نفوس الغرباء الذين لا عهد لهم بحضور الجلسات والاختلاف إلى ساحة القضاء.

وقد عجِب المستر بكوك أشد العجب أن رأى هؤلاء القوم جميعًا مقسمين فئات وجماعات وهم يتحدثون ويتباحثون في أنباء اليوم في صورة أخلى ما تكون من الشعور، كأن لا قضايا موشكة أن تُنظَر، ولا

محاكمات تؤذن بابتداء.

ودخل المستر فنكي، فحيا بانحناءة من رأسه واتخذ مجلسه خلف الصف المخصص للمحامين المترافعين، ولفتت هذه التحية نظر المستر بكوك، ولم يكد يرد عليها، حتى ظهر المستر اسنبن يتبعه المستر مالارد الذي حجب الأستاذ خلف حقيبة ضخمة أرجوانية اللون جاء بها فوضعها فوق النضد وانسحب بعد مصافحة بركر بيده. وعندئذٍ دخل اثنان أو ثلاثة آخرون من الأساتذة كان من بينهم رجل بدين أحمر الوجه أومأ إيماءة ودية للأستاذ اسنبن وقال: إن الصباح جميل.

وهمس المستر بكوك قائلًا: «من هذا الرجل الأحمر الوجه الذي قال إن الصباح جميل وأومأ إلى محامينا؟».

وأجاب بركر: هذا هو الأستاذ بزفز خصمنا في الدعوى، وكبير المحامين في الجانب الآخر منها، وذلك السيد الجالس من خلفه هو المستر اسكمبن زميله الذي يليه في الأقدمية.

وهَمَّ المستر بكوك أن يسأل كيف جرؤ الأستاذ بزفز محامي المدعية، وكيف سولت له نفسه، أن يقول للأستاذ اسنبن محامي الخصم إن الصباح جميل. فقد شعر بكراهية شديدة ونفور بالغ من هذه الجرأة التي بدت من ذلك الرجل البارد الدم، ولكنه أمسك عن سؤاله حين رأى المحامين جميعًا قد وقفوا، وسمع الحُجَّاب في القاعة يأمرون الناس بالسكوت، فتلفَّت حوله فوجد أن السبب يرجع إلى دخول القاضي.

وكان القاضي «استيرليه» الذي حضر الجلسة لغياب كبير القضاة

لوعكة ألمت به، رجلًا قصيرًا مفرط القصر، وبدينًا مفرط البدانة، حتى ليبدو كله وجهًا وصدارًا ولا شيء سواهما، قد جاء يتدحرج في مشيته فوق ساقين قصيرتين معوجتين، وبعد أن تمايل واهتز وهو ينظر بوقار إلى مقاعد المحامين، وفعل هؤلاء مثله فنظروا بجلال إليه، راح يضع ساقيه القصيرتين تحت المنضدة، ويلقي قبعته الصغيرة المثلثة الأركان فوقها، فلما فعل ذلك كله، لم يبق أمام عينيك شيء تشهده منه سوى عينيه الدقيقتين الغريبتين، ووجهه العريض الوردي ونحو نصف ضفيرة ضخمة مضحكة المنظر إلى حد بعيد.

وما إن اتخذ القاضي مجلسه، حتى طلب الحاجب إلى النظارة التزام السكوت بلهجة الآمر الناهي، وراح حاجب آخر في الردهة يردِّد النداء بحدة وغضب، وصاح في أثرهما ثلاثة أو أربعة حجاب آخرين الصيحةَ ذاتها، في صوت احتجاج وحَنَقٍ ظاهرين، وعندئذٍ أخذ رجل في ثوب أسود جالس في موضع منخفض عن مقعد القاضي ينادي المحلَّفين بأسمائهم، ويبين بعد ضجة شديدة أن الحاضرين منهم لا يتجاوزون عشرة من المحلفين الممتازين، وعندئذٍ طلب الأستاذ بزفز استكمال العدد، وأخذ السيد ذو الثوب الأسود في إتمام النصاب القانوني منهم بإضافة اثنين من المحلفين العاديين وعرف كيف يصطاد بائع خضر وصيدليًّا.

وقال السيد ذو الثوب الأسود: «سأناديكما بالاسم أيها السيدان حتى تؤديا اليمين. ريتشارد أبويتش».

وأجاب الخضري: «حاضر».

- «توماس جروفن».

وأجاب الصيدلي: «حاضر».

- «ضعا يديكما على الكتاب أيها السيدان، وأقسما أنكما ستراعيان الدقة والحق في .....».

وبادر الصيدلي وكان رجلًا مديد العود نحيفًا أصفر الوجه: «أستميح المحكمة المعذرة وأرجو إعفائي من الحضور».

وسأله القاضي استيرليه: «وما السبب؟».

وأجاب الصيدلي: «السبب يا سيدي القاضي أنني ليس معي مساعد».

وقال القاضي استيرليه: «لا حيلة لي في ذلك يا سيدي، يجب أن تستأجر مساعدًا».

وأجاب الصيدلي: «لا طاقة لي بذلك يا سيدي القاضي».

واحمر وجه القاضي استيرليه من الغضب؛ لأن الحدة تغلب على طباعه، والنفور من الاعتراض عليه ديدنه، وقال: «يجب أن تطيقه حتمًا يا سيدي».

وأجاب الصيدلي: «أعرف أنه يجب أن أفعل ذلك، لو أنني كنت أكسب بقدر ما أستحق، ولكن الأمر ليس كذلك».

وقال القاضي على الفور بغير أخذ ورد: «حلفه اليمين».

ولكن ما كاد الكاتب يبلغ من قوله: أشهد أنني سأراعي الدقة والحق

في محاكمة... حتى بادر الصيدلي إلى المقاطعة مرة أخرى، فسأل القاضي قائلًا: «هل يراد تحليفي اليمين يا سيدي؟».

وقال القاضي الغضوب القصير: «بلا شك يا سيدي».

وأجاب الصيدلي بلهجة الاستسلام: «حسن جدًّا يا سيدي القاضي، ستقع جناية قتل قبل أن تنتهي هذه المحاكمة، هذا هو كل ما في الأمر. فهلم حلفني يا سيدي إذا شئت».

وحلف الصيدلي قبل أن يجد القاضي كلامًا يقوله.

وانثنى الرجل يقول، وهو يتخذ مجلسه بكل تؤدة: «لقد كان كل ما أردته أن أوجه نظر سيادتكم إلى أنني لم أترك في الصيدلية التي أملكها أحدًا سوى غلام صغير يؤدي لي قضاء الحاجات في خارجها، ولست أنكر أنه غلام لطيف يا سيدي القاضي، ولكنه لا يعرف شيئًا عن العقاقير، وأعلن أن الفكرة المستولية على ذهنه أن أملاح إبسوم معناها حمض الأوكساليك وأن شراب السنامكة[1] معناه صبغة الأفيون.. هذا هو كل ما في الأمر يا سيدي القاضي».

وما إن قال الصيدلي المديد القامة ذلك حتى هدأ وسكن واتخذ وجهه سمات الرضى والارتياح كأنما استعد لمواجهة أسوأ الأمور.

وكان المستر بكوك ينظر إلى الصيدلي باستنكار بالغ واستبشاع متناهٍ، حين بدت ضجة خفيفة في هيئة المحكمة، ولم تمضِ لحظة أخرى حتى سيقت مسز باردل وهي مستندة إلى صاحبتها مسز «كلبنز»،

(١) حامض يستخرج من الحميض، وهو نوع من النبات، والسنامكة هي السلامكة المعروفة.

فجلست متهالكة في الطرف الآخر من المقعد الذي جلس المستر بكوك عند طرفه الأول. وجاء المستر ددسن بمظلة متناهية في الحجم فسلمها إلى الكاتب، وأقبل المستر فج بنعل خشبي ففعل مثل ما فعله زميله، وقد اتخذ كل منهما لهذه المناسبة سمات العطف الشديد والكآبة البالغة، ثم ظهرت مسز ساندرز تقود السيد باردل الصغير، فلم تكد أمه تشهده مقبلًا حتى أجفلت، ولكنها استجمعت فجأة جلدها فقبلته في شكل جنوني ظاهر، ثم انتابتها حالة من «البلاهة» والذهول التشنجي، فسألت من حولها أين؟ وكان جواب مسز كلبنز ومسز ساندرز أن أشاحتا بوجهيهما وانخرطتا في البكاء، بينما مضى الأستاذان ددسن وفج يتوسلان إلى المدعية أن تثوب إلى نفسها، وطفق الأستاذ بزفز يفرك عينيه بشدة بمنديل أبيض كبير، ويلقي نظرة استعطاف إلى المحلفين، بينما بدا التأثر واضحًا على وجه القاضي، وحاول كثير من النظارة أن يسعلوا لضبط مشاعرهم وإخفاء أحاسيسهم.

وهمس بركر للمستر بكوك: «حركة بارعة جدًّا هذه. إن ددسن وفج هذين بارعان حقًّا. هذه مؤثرات وأساليب فائقة يا سيدي العزيز، فائقة».

وفيما كان بركر يتكلم على هذا النحو، بدأت مسز باردل تسترد جأشها شيئًا فشيئًا، بينما راحت مسز كلبنز تنظر مليًّا إلى أزرار سترة «المعلم» باردل الصغير والعروات التي تدخل فيها، ثم تجلسه على أديم قاعة المحكمة أمام أمه، وهو موضع ظاهر يتيسر له منه أن يثير رثاء القاضي والمحلفين معًا، ويوقظ كوامن العطف في نفوسهم. وقد أحدث ذلك اعتراضًا شديدًا وبكاءً طويلًا من جانب هذا السيد الصغير

ذاته؛ إذ شعر في أعماق نفسه بخوف بالغ من أن يكون إجلاسه على مرأى من عين القاضي مقدمة لإصدار الأمر بإخراجه لشنقه في الحال أو إبعاده من البلاد إلى ما وراء البحار ليقضي بقية حياته على الأقل منفيًّا طريدًا.

وصاح الرجل ذو الثوب الأسود مناديًا: «باردل وبكوك». فقد كانت القضية الأولى في قائمة القضايا التي ستنظرها المحكمة.

وقال الأستاذ بزفز: «أنا حاضر عن المدعية يا سيدي القاضي».

وقال هذا: «ومن الذي معك أيها الأخ بزفز؟».

وهنا انحنى المستر اسكمبن مؤمِّنًا أنه هو.

وقال الأستاذ اسنبن: «وأنا حاضر عن الدفاع يا سيدي القاضي».

وسألت المحكمة: «وهل أحد معك أيها الأخ اسنبن؟».

وأجاب الأستاذ اسنبن: «نعم المستر فنكي يا سيدي القاضي».

وقال القاضي: «الأستاذ بزفز والمستر اسكمبن حاضران عن المدعية، والأستاذ اسنبن والمستر منكي[1] حاضران عن المدعى عليه».

وكان يكتب الأسماء في «دفتره» ويقرؤها وهو ماض في تدوينها.

وقال المستر فنكي: «أستميح سيادتكم المعذرة، إن اسمي فنكي».

وأجاب القاضي: «آه، حسن جدًّا، لم أتشرف قبل الآن بسماع اسم

(١) تعني «منكي» بالإنجليزية، «قرد» وقد اختلط الاسم الحقيقي على القاضي، فاضطر صاحبه إلى تصحيحه.

السيد الكريم»، وهنا انحنى المستر «فنكي» وابتسم، وانحنى القاضي وأومض ثغره، وحاول المستر فنكي وقد علا الحياء وجهه حتى بلغت حمرته بياض عينيه، أن يتراءى كأنه لا يدري أن جميع الأنظار ترنو إليه، وهو شيء لم ينجح امرؤ من قبل في إحداثه، ولن ينجح يومًا على أغلب الظن وأبعد مدى الرجحان.

وقال القاضي: «لنبدأ الآن».

وعاد الحجاب يطلبون إلى النظارة السكوت، وبدأ المستر «اسكمبن» يفتح باب القضية، وظهر أن لا شيء كبير فيها حين فتح بابها؛ لأنه احتفظ لنفسه بكل التفاصيل والدقائق التي يعرفها، ثم جلس بعد ثلاث دقائق من ابتدائه الكلام، تاركًا المحلفين في جهل تام بالموضوع كما كانوا من قبل.

وعندئذٍ نهض الأستاذ بزفز بكل الجلال والوقار اللذين تقتضيهما طبيعة الإجراءات وجسامتها، وبعد أن همس لددسن، وتحدث بإيجاز إلى فج رفع رداءه فوق كتفيه وعدل من نظام ضفيرته، وبدأ يوجه الخطاب إلى المحلفين.

واستهل مرافعته بقوله: إنه لم يسبق له في جميع الأدوار التي مرَّت عليه في ممارسة مهنته، ومنذ بدأ دراسة القانون والاشتغال به، أن تناول قضيةً ما بهذا الشعور العميق الذي يشعر الساعة به ولا بفدح التبعة التي ينوء بحملها، تلك التبعة التي ما كان مستطيعًا أن يتحملها، لولا ذلك الحافز الذي دفعه إلى أخذها على عاتقه، وبعثه على احتمال وطأتها،

وهو الاقتناع الشديد، الذي يبلغ حد اليقين القاطع، بأن دواعي الحق، ومقتضيات العدالة، أو بعبارة أخرى، أن قضية موكلته التي وقع عليها ضرر بالغ، وظلم بيِّنٌ، ستتملك حتمًا نفوس هؤلاء الاثني عشر سيدًا الذين يشهدهم الساعة حياله في ذلك المكان البادي لعينيه، وهم سادة رفيعو الأذهان، إخوان فطنة وذكاء.

وعلى هذا النحو يبدأ المحامي المترافع عادة مرافعته؛ لأنه يجعل المحلفين في أتم الرضى عنه، ويبعثهم على الاعتقاد بأنه المحامي الذكي الفطن البارع، فلا عجب إذا بدا التأثير فيهم واضحًا، وبدأ عدة منهم يدوِّنون ملاحظات ضخمة بأشد اللهفة وأكبر الاهتمام.

ومضى الأستاذ بزفز يقول، وهو يعلم حق العلم أن السادة المحلفين لم يسمعوا شيئًا على الإطلاق من زميله الذي يشير إليه: «وقد سمعتم أيها السادة من زميلي المحترم الواسع العلم، أننا أمام قضية نكث بوعد يتصل بالزواج، وأن التعويض المطلوب عنه ألف وخمسمائة جنيه. ولكنكم لم تسمعوا من زميلي المحترم الواسع العلم؛ لأن ذلك لم يكن داخلًا في نطاق اختصاصه، شيئًا عن وقائع القضية وظروفها، وسأتولى بنفسي أيها السادة إيراد تفاصيلها وملابساتها، وستثبتها لكم السيدة التي لا لوم عليها ولا تثريب والتي أضعها في هذا المكان أمامكم».

وهنا أراد الأستاذ بزفز أن يؤكد كلمة «هذا المكان» بقوة، فضرب المنضدة بشدة تردد لها دوي بالغ، ونظر إلى ددسن وفج فأومأ هذان له إيماءة إعجاب به، وتحد ظاهر لهيئة الدفاع.

وواصل الأستاذ بزفز مرافعته قائلًا بصوت رفيق حزين مؤثر: «إن موكلتي أيها السادة أرملة، إي والله أيها السادة أرملة، فإن زوجها المأسوف عليه المستر باردل بعد أن استمتع عدة سنين بتقدير مليكه، وثقة جلالته، بوصفه أحد الحراس على الإيرادات الملكية، تسلل في رفق لا يكاد أحد يحسه من هذا العالم ليلتمس في غيره تلك السكينة، وذلك السلام اللذين لا سبيل أمام موظف في الجمارك للظفر بهما في هذه الحياة».

وعند هذا الوصف المؤثِّر لوفاة المستر باردل الذي كانت منيَّته على إثر ضربة أصابت رأسه من قدر كبيرة من قدور الشراب في أحد مخازن حانة عامة، اضطرب صوت المحامي الكبير، وانطلق في مرافعته يقول بانفعال ظاهر: «وكان قبل مماته بفترة من الزمن قد ترك شبهه منطبعًا على غلام صغير، فلم يكن من مسز باردل إلا أن انزوت من العالم بذلك الغلام الصغير، وهو كل ما ورثته عن ذلك الموظف الذي كان في خدمة الجمارك، ورضيت بالعزلة والعيش في هدوء بشارع «جروزويل» حيث علقت على شرفة غرفتها الأمامية إعلانًا مكتوبًا عليه «غرف مفروشة لسكن رجل أعزب، الاستعلامات من صاحبة المسكن».

وهنا تمهل الأستاذ بزفز ريثما يتسنى لعدة محلفين تدوين هذه الوقائع.

وانبرى محلف يقول: «في أي تاريخ هذا ياسيدي؟ ألا تعرف التاريخ؟».

وأجاب الأستاذ بزفز: «لا تاريخ أيها السادة، ولكن قد طلب إليَّ أن أقول إن هذا الإعلان علق على الشرفة في مثل هذا الوقت من ثلاث سنين بالدقة، وإني أرجو استرعاء أنظار حضرات المحلفين إلى الصيغة التي وضع فيها الإعلان: «غرف مفروشة لسكن رجل أعزب». فإن آراء مسز باردل فيما يتعلق بالجنس الآخر أيها السادة مستمدة من طول التفكير في سجايا زوجها الراحل وخلاله التي لا تقدر، فلم يكن يساورها خوف، ولا تخالجها ريبة، ولا تخامرها شبهة، بل كل ما في نفسها طمأنينة وثقة وأمانة، وكانت تقول إن المستر باردل كان رجلًا شريفًا، رجلًا لا ينكث عهدًا، لا يعرف الخداع، ولا يحاول المين، وكان المستر باردل نفسه في يوم ما أعزب، وإلى رجل أعزب أتطلع لحمايتي ومساعدتي ورفاهيتي وسلوتي، فإن في وجود مثله شيئًا يذكرني أبدًا بما كان عليه المستر باردل من مكارم الأخلاق، حين ظفر بمحبتي لأول عهدي في الشباب بلقياه، فلن يسكن عندي إذن غير سيد أعزب. وبهذا الدافع الجميل المؤثر، وهو من بين أسمى الدوافع في طبيعتنا البشرية التي لم تبلغ الكمال أيها السادة، راحت تلك الأرملة الوحيدة المهجورة تجفف دموعها، وتفرش الطبقة الأولى من مسكنها، وتتناول غلامها البريء فتضمه إلى صدرها الرءوم، وتعلق الإعلان على شرفة حجرة الاستقبال في مسكنها. فهل ظل ذلك الإعلان طويلًا في موضعه؟ كلا أيها السادة؛ فقد كان الثعبان بالمرصاد، والشَّرَك قد نُصِبَ، واللغم قد أعد، والمهندس الذي بَثَّ اللغم قد تهيأ واستعد، فلم ينقضِ على الإعلان غير ثلاثة أيام، ثلاثة أيام فقط أيها السادة، حتى ظهر مخلوق مستوٍ على ساقين اثنتين، وله كل

شبه الإنسان ومعالمه الخارجية ومظاهره، لا الوحش، وأخذ يدق باب مسز باردل، ويسأل عن الغرف الخالية، ويستأجرها، وفي غداة اليوم التالي يأتي فيسكنها ويحتلها. وهذا الرجل هو بكوك، بكوك المدعى عليه».

وسكت الأستاذ بزفز لحظة ليسترد أنفاسه، وكان قد مضى في مرافعته بذلاقة جعلت وجهه يرتد أحمر متناهيًا في الحمرة، وقد أيقظ سكوته القاضي استارلي فأسرع في كتابة شيء بقلم لا مداد فيه مطلقًا وبدا واجمًا على غير العادة عميق التفكير؛ ليحمل المحلفين على الاعتقاد بأنه أعمق ما يكون تفكيرًا حين يغمض عينيه.

واستتلى الأستاذ بزفز يقول: «ولست أريد أن أطيل القول عن هذا الرجل بكوك؛ لأن الموضوع لا يحوي كثيرًا مما يغري بالكلام، ولست أيها السادة بالرجل الذي يرتضي التفكير في القسوة الصارخة وجمود الإحساس، والتجرد من الشعور، والإجرام المنظم. ولستم أنتم أيها السادة بالذين يرتضون لأنفسهم هذا التفكير».

وهنا انتابت المستر بكوك الذي كان إلى هذه اللحظة يتلوى من الألم في صمت، انتفاضة شديدة كأنما قد خطرت له عندئذٍ فكرة الاعتداء على الأستاذ بزفز في ساحة القضاء، ورهبته وجلاله، ولكن إشارة ناصحة من بركر أمسكته، فراح يُصغي إلى المرافعة، وهو كظيم، على النقيض من الإعجاب البادي على وجهَيْ مسز كلبنز ومسز ساندرز.

ومضى الأستاذ بزفز يقول وهو يخترق بنظره المستر بكوك ويوجه

القول إليه: «أقول الإجرام المنظم أيها السادة، وعندما أقول الإجرام المنظم، دعوني أقل للمتهم بكوك إذا كان حاضرًا الجلسة، كما علمت أنه كذلك، إنه كان أخلق به وأجدر وأرفع ذوقًا، أن يتخلف عن الحضور. اسمحوا لي أيها السادة أن أقول له: إن أية إشارات يعمد إليها أمامكم لإظهار الاستياء مما أقول أو استنكار ما يسمع، لن تُحدث أي أثر في نفوسكم، وإنكم ستعرفون كيف تقدرونها قدرها، وتزنونها بميزانها. وَأْذنوا لي أن أقول له أيضًا، كما سيقول لكم سيدي القاضي أيها السادة: إن المحامي المترافع الذي يؤدي واجبه نحو موكِّله، لا ينبغي أن يوجَّه إليه أي إرهاب، أو مضايقة، أو مقاطعة؛ لأن أية محاولة لإحداها أو أخراها ستكون عاقبتها وبالًا على من يحاولها، سواء كان مدعيًا أو مدعى عليه، وسواء كان يدعى بكوك أو نوكس أو استوكس أو استايلز أو براون أو طمسن».

وكان المراد من هذا الخروج قليلًا عن الموضوع المنظور أمام المحكمة بالطبع هو توجيه الأنظار كلها إلى المستر بكوك، وما كاد الأستاذ بزفز يثوب إلى حدٍّ ما من هذه الحمية الأخلاقية، التي اندفع فيها، حتى مضى يقول: «وسأبين لكم أيها السادة أن المستر بكوك ظل عامين اثنين يسكن في منزل مسز باردل بغير انقطاع أو غياب إلى حين، كما سأبين لكم أن مسز باردل لبثت طيلة هذه المدة تسعى في خدمته، وتعمل على راحته، وتطهو له الطعام، وتُعنى بثيابه الداخلية إذا ما أرسلت إلى الغسالة في خارج الدار، وترتق ملابسه وتهويها وتعدها للارتداء حين تعود الملابس إلى البيت، وبالجملة تستمتع بكل ثقته ورضاه واطمئنانه،

وسأبين لكم أنه جعل في عدة مناسبات ينفح غلامها الصغير أنصاف البنسات وفي بعضها ستة بنسات أيضًا، وسأثبت لكم من أقوال شاهد لن يتيسر لزميلي المحترم تجريحها أو مناقضتها أنه في مناسبة معينة ربَّت على رأس ذلك الغلام الصغير، وسأل هل كسب أخيرًا شيئًا من «الألي تورس» أو «الكومنيز» وهما كما علمت نوعان معينان من «البلي» يغلو صبيان هذه المدينة في تقديرهما وإيثارهما على سائر الأنواع، وأنه فاه بهذه العبارة التي لا تخلو من دلالة حين أخذ يتحدث إليه: هل تحب أن يكون لك أب آخر؟ وسأثبت لكم أيها السادة أن بكوك منذ عام مضى أو قرابته بدأ فجأة يغيب عن البيت فترات طويلة كأنما ينتوي الانفصال عن موكلتي شيئًا فشيئًا والتخلص تدريجيًّا منها، ولكني سأبين لكم أيضًا أن نيته لم تكن في ذلك الحين قوية، ولا مشاعره الطيبة قد تم له الغلبة عليها، إذا افترضنا أنه كانت له مشاعر طيبة، أو أن مفاتن موكلتي وحميد خصالها ومزاياها قد تغلبت على نياته المنافية للرجولة. سأبين لكم ذلك كله بالدليل، ودليلي أنه في يوم ما عقب عودته من الريف عرض عليها الزواج عرضًا صريحًا واضحًا، وإن كان قبل ذلك قد احتاط للأمر خاصة فعمل على ألا يكون ثمة أحد معهما حتى يشهد هذا الارتباط المقدس، وفي وسعي أن أثبت لكم من شهادة ثلاثة أصدقاء له وهم شهود سيتكلمون أمامكم وهم أشد ما يكونون كرهًا للشهادة أيها السادة أنهم رأوه في صبيحة ذلك اليوم ممسكًا بالمدعية بين ذراعيه ومحاولًا تهدئة جأشها بالملاطفة وعبارات المعزية».

وكان لهذه العبارة التي وردت في مرافعة المحامي الكبير أثر

ظاهر في نفوس السامعين، بينما مضى وكيل المدعية يُخرج قصاصتين صغيرتين من الورق وهو يقول: «والآن لن أزيد أيها السادة غير كلمة واحدة، لقد تبودلت رسالتان بين الجانبين، رسالتان ثبت أنهما بخط المدعى عليه، وهما في الواقع أبلغ من عديد الكتب والمجلدات دلالة، وأوضح مغزى، وهما فضلًا عن ذلك تنمان عن خلق الرجل وخبيئة نفسه، وليست هاتان الرسالتان بكتابين صريحين، بليغين، مستفيضي الحماسة وصدق الشعور، لا يحويان غير لغة الحب والعلاقة الغرامية، بل هما خطابان غامضان، ماكران، مستبهمان، ولكنهما لحسن الحظ أكثر دلالة مما لو كانا مصوغين في أوضح أسلوب، وأزهى عبارة، وأرق شاعرية، خطابان ينبغي النظر فيهما بعين الحذر والريبة، خطابان يبدو منهما أن بكوك أراد في ذلك الحين أن يضلل ويخدع بهما أي طرف ثالث يحتمل أن يقعا في يديه، اسمحوا لي أن أقرأ أولهما: «تحريرًا في جرويز، الساعة الثانية عشرة، عزيزتي مسز ب. شرائح وصلصة بالطماطم. المخلص بكوك» فما معنى هذا أيها السادة؟ شرائح وصلصة بالطماطم. المخلص بكوك! شرائح يا إله السموات، وصلصة بالطماطم، أكذا يعبث أيها السادة بسعادة امرأة حساسة واثقة مطمئنة بهذه الحيل التافهة السطحية وأمثالها؟ أما الخطاب الآخر فلا تاريخ له مطلقًا، وهذا في حد ذاته أمر يبعث على الريبة، فهو يقول فيه: «عزيزتي مسز ب، لن أعود إلى البيت قبل الغد. المركبة بطيئة»، ثم تلا ذلك عبارة تسترعي النظر وهي قوله: «لا تزعجي نفسك بشأن وعاء التسخين»، وعاء التسخين! يا سبحان الله! منذا الذي يزعج نفسه أيها السادة بهذا الوعاء؟ ومتى يقلق بال

إنسان- رجلًا كان أو امرأة- وتنزعج نفسه من أجل وعاء تسخين؟ وهو في ذاته أداة لا ضير منها، بل نافعة مفيدة؟ وأضيف أيها السادة على هذين الوصفين أنها أداة مريحة، من أدوات البيت، وما سر هذا التوسل الجدي إلى مسز باردل ألا تنزعج بشأن وعاء التسخين، ما لم تكن- وهي الحقيقة التي لا شك فيها- مجرد ستار لنار مخبوءة، ولفظة استعيض بها عن كلمة إعزاز صريحة، أو وعد، وعبارة من طراز العبارات التي تكررت أمثالها في هذا الأسلوب من المكاتبات، وابتدعها بكوك مكرًا وخديعة، حين كان يفكر في الهجر والتخلي والفرار، وهو أسلوب لست في مقام شرحه وتفسيره! وماذا عسى أن يكون المعنى المراد من قوله: المركبة بطيئة؟ لست أدري حقًّا، ولكن لعله إشارة إلى بكوك نفسه؛ لأنه كان بلا نزاع مركبة بطيئة في الإجرام والإثم، في كل تصرفاته، ولكن سرعتها ستزداد فجأة الآن ازديادًا بالغًا، ولن تلبث عجلاتها أيها السادة أن تجد شحمها على أيديكم، وسيرى أن هذا الأمر سيكلفه كثيرًا، ويقتضيه ثمنًا باهظًا».

وتمهل الأستاذ بزفز عند هذا الموضع؛ ليرى هل ابتسم المحلفون لنكتته؟ ولكنه تبين أن أحدًا منهم لم يلحظها غير بائع الخضر، وأكبر الظن أن فطنته لها كانت ترجع إلى أنه كان قد شحَّم مركبة نقل له في ذلك الصباح بالذات، فرأى المحامي الكبير أنه من الخير أن يعود قليلًا إلى الكلام الجدي، قبل أن يختم مرافعته، ولهذا مضى يقول: ولكن حسبنا هذا أيها السادة؛ فإنه من العسير أن يبتسم المرء والقلب موجع، ومن العبث الالتجاء إلى المزاح، وعواطفنا قد أُثِيرَتْ من الأعماق! إن

آمال موكلتي وأمانيها في الحياة قد دُمِّرَتْ، وليس من المجاز ولا من باب التشبيه والاستعارة أن نقول: إن مسكنها أُخْلِيَ فعلًا، ولست أنكر أن الإعلان لم يعد قائمًا في مكانه، ولكن ليس هناك ساكن آخر قد جاء لاستئجاره، ويمر عزاب صالحون للسكن بالمنزل ثم يعودون فيمرون، ولكن ليس هناك دعوة تحفزهم إلى الاستعلام من الداخل أو الخارج، بل لقد ساد المسكن وجوم وصمت، وحتى الغلام قد خفت صوته، ولم يعد يحفل بمراتعه وملاعبه، ما دام يرى أمه في بكاء دائم ونحيب مستطيل، وقد أهمل لعب «البلي» في الحارة كذلك، ونسي أيضًا الصيحة المألوفة لديه «مغلوب» أو متساويان. ولكن بكوك أيها السادة... بكوك القاسي الغليظ الكبد مدمر هذه الواحة الوادعة في صحراء شارع جروزويل، بكوك الذي هدم بئرها، وأحرق خضرها، بكوك الذي يأتي أمامكم اليوم بصلصة الطماطم وأوعية التسخين، بغير قلب، ولا كبد، بكوك هذا لا يزال يرفع رأسه بغير خجل ولا حياء، وينظر بغير حسرة ولا زفرة إلى الخراب الذي أحدثه. أيها السادة، إن التعويض، التعويض الجسيم، هو العقاب الوحيد الذي يتيسر لكم توقيعه عليه، والجزاء الذي يتسنى لكم أن تمنحوه لموكلتي، ومن أجل هذا التعويض تناشد هيئة المحلفين المستنيرين الكبار النفوس، الرفيعي الإحساس، الأنقياء الذمم، المبرئين من الغرض، العاطفين المفكرين الذين يمثلون مواطنيها المتحضرين».

وبهذا المقطع الجميل، وحسن الختام، جلس الأستاذ بزفز، وعلى أثره استيقظ القاضي استارلي.

ولم تنقض دقيقة واحدة حتى عاد الأستاذ بزفز فنهض متجدد

القوى، فقال: «أرجو مناداة اليزابث كلبنز».

ونادى أقرب الحجاب منه صائحًا: «الزبث طبنز»، وصاح حاجب آخر على قيد خطوات منه مناديًا: «الزبث جبكنز»، وذهب ثالث لاهث الأنفاس إلى الشارع فنادى بأعلى جرسه: «الزبث مفنز» حتى بح صوته[1].

وفي الوقت ذاته تقدمت مسز كلبنز، محاطة بمسز باردل، ومسز ساندرز، والمستر ددسن، والمستر فج؛ لكي يعاونوها على الصعود إلى مكان الشهود. ولم تكد تستقر بسلام على الدرجة العليا من السلم، حتى وقفت مسز باردل على أولى درجاته، تحمل بإحدى يديها المنديل والقبقاب، وبالأخرى زجاجة تتسع لربع فنت من أملاح النوشادر؛ استعدادًا للطوارئ، أما مسز ساندرز التي جعلت تنظر مليًّا إلى وجه القاضي، فقد وقفت على مقربة، ومعها المظلة الضخمة، تاركة إبهامها اليمنى على الزر، وسمات الجد بادية على سحنتها، كأنما هي على أتم الأهبة لضغطه عند أول إشارة.

وقال الأستاذ بزفز: «يا مسز كلبنز! أرجوك أن تهدئي روعك يا سيدتي»، وبالطبع لم تكد مسز كلبنز تُطَالَب بتهدئة روعها، حتى أجهشت بالبكاء، وأبدت أعراضًا مزعجة توحي بأنها موشكة على الإغماء، أو كما قالت فيما بعد، أن شعورها كان أكثر مما تحتمله.

وقال الأستاذ بزفز بعد بضعة أسئلة لا أهمية لها: «هل تتذكرين يا مسز كلبنز، وأنت لا تبعدين من خلف مسكن مسز باردل أكثر من

(١) اختلف الحُجَّاب في النطق باسمها على هذا النحو المضحك، وهذا أمر كثير الحدوث.

درجتين من السلم، أنها في صبح يوم من أيام شهر يوليو الماضي كانت تكنس وتنفض غرف بكوك؟».

وأجابت مسز كلبنز: «أتذكر يا سيدي القاضي وسادتي المحلفون».

وعاد المحامي يسألها: «أعتقد أن غرفة جلوس المستر بكوك في واجهة الدور الأول، أليس كذلك؟».

وأجابت مسز كلبنز: «هو كذلك يا سيدي».

وقال القاضي الصغير: «وماذا كنت تفعلين في الغرفة الخلفية يا سيدتي؟».

وأجابت مسز كلبنز باضطراب متزايد: «يا سيدي القاضي، وسادتي المحلفون، إنني لن أخدعكم».

وقال القاضي الصغير: «خير لك ألا تفعلي يا سيدتي».

ومضت مسز كلبنز قائلة: «لقد كنت في تلك الغرفة، دون أن تعرف مسز باردل، فقد خرجت بسلة صغيرة أيها السادة لشراء ثلاثة أرطال من الكلاوي، لقاء بنسين ونصف بنس، وإذا أنا أرى باب مسز باردل الخارجي مردودًا»[١].

وهنا صاح القاضي القصير القامة: «ماذا؟».

وقال الأستاذ اسنبن: «تقصد مفتوحًا قليلًا يا سيدي القاضي».

وقال القاضي بنظرة ماكرة: «لقد قالت مردودًا».

(١) تعني «مفتوحًا» ولكنها نطقت بها محرفة فصارت تعني «مواربًا» وفهم القاضي أنها تعني مردودًا.

وأجاب الأستاذ اسنبن: «المعنى واحد يا سيدي القاضي».

ولكن القاضي بدا متشككًا، وقال إنه سيأخذ «مذكرة بها».

ومضت مسز كلبنز قائلة: «فدخلت عليها أيها السادة لمجرد تحيتها في الصباح، وصعدت بشكل واضح مسموع إلى الغرفة الخلفية وكانت في الغرفة الأمامية أصوات جلبة أيها السادة و....».

وعاجلها الأستاذ بزفز قائلًا: «وأعتقد أنك أصغيت إليها يا مسز كلبنز؟».

وأجابت مسز كلبنز بترفع وجلال: «أستميحك يا سيدي المعذرة إذا قلت إنني أستنكر هذا العمل، فقد كانت الأصوات يا سيدي مرتفعة، ففرضت نفسها على أذني فرضًا».

وعاد المحامي يسألها: «ليكن يا مسز كلبنز، أنت لم تصغي إليها ولكنك سمعتها. فهل كان من بينها صوت بكوك؟».

قالت: «نعم يا سيدي».

وبعد أن مضت تقول بصريح القول: إن المستر بكوك كان يوجه الكلام إلى مسز باردل، عادت شيئًا فشيئًا- ردًّا على الأسئلة المتوالية عليها- تكرر الحديث الذي سبق لقرائنا علمه.

وبدت الريبة على وجوه المحلفين وابتسم الأستاذ بزفز وعاد إلى مجلسه، وكان الغضب واضحًا على وجوههم حين أعلن الأستاذ اسنبن أنه لن يستجوب الشاهدة؛ لأن المستر بكوك يريد أن يسمع منها صراحة أن أقوالها في مادتها ومعناها صحيحة.

وما إن زال عن مسز كلبنز حياؤها وخجلها حتى ظنت أن الفرصة مواتية للدخول في بيان قصير عن شؤونها المنزلية فشرعت في الحال تقول للمحكمة: إنها أم ثمانية أطفال يستطيعون النطق في ذلك الحين، وإنها ترجو مطمئنة أن تقدم إلى المستر كلبنز طفلًا تاسعًا بعد ستة أشهر من هذا اليوم، وعند هذه النقطة المشوِّقة قاطعها القاضي القصير بغضب شديد، وكانت النتيجة أن السيدة الفاضلة ومسز ساندرز أُخرِجَتَا بلطف من قاعة الجلسة في حراسة المستر جاكسن، بلا نقاش آخر ولا كلام.

وقال المستر اسكمبن: «نثنايل ونكل».

وأجاب صوت خافت: «حاضر!» ودخل المستر ونكل المكان المخصص للشهود، وبعد أن حلف اليمين، انحنى للقاضي انحناءة احترام شديد.

وقال له القاضي بحدة ردًّا على تحيته: «لا تنظر إليَّ يا سيدي، وانظر إلى هيئة المحلفين».

وامتثل المستر ونكل للأمر، ونظر إلى الموضع الذي يرجح أشد الرجحان أنه المكان المقصود؛ لأنه لم يكن من المعقول أن يبصر شيئًا وهو في تلك الحال الشديدة من الاضطراب الذهني.

وعندئذٍ تولى المستر اسكمبن توجيه الأسئلة إليه، وكان هذا المحامي في الثانية أو الثالثة والأربعين، وينتظر أن يكون له مستقبل باهر على الأيام، فلا عجب إذا كانت كل رغبته متجهة إلى إرباك شاهد معروف عنه الميل لمصلحة الخصم قدر استطاعته.

قال: «والآن يا سيدي تكرم بتعريف سيدي القاضي وحضرات المحلفين باسمك».

وراح المستر اسكمبن، يميل رأسه إلى ناحية ليصغي مرهف الأذن إلى الرد، بينما وجه نظره إلى المحلفين، كأنما يوحي إليهم أنه يتوقع من نزعة الشاهد وجنوحه الطبيعي إلى قول الزور، أن يجترئ على ذكر اسم ليس له.

وأجاب الشاهد: «ونكل».

وسأله القاضي بغضب: «وما اسمك الأول يا سيدي؟».

- «نثنايل يا سيدي».

- «دانيال. وهل هناك اسم آخر؟».

- «نثنايل يا سيدي، أقصد نثنايل يا سيدي القاضي».

- «نثنايل دانيال أو دانيال نثنايل؟».

- «كلا يا سيدي القاضي. نثنايل فقط، لا دانيال إطلاقًا».

وسأله القاضي: «لماذا إذن قلت لي إن اسمك دانيال يا سيدي؟».

وأجاب المستر ونكل: «لم أقل ذلك يا سيدي القاضي».

وقال القاضي بعبسة شديدة: «بل قلت يا سيدي، وإلا كيف كتبت دانيال في الورق الذي أمامي، إذا لم تكن قلت ذلك يا سيدي؟».

وكانت هذه الحجة بالطبع حجة لا يستطاع دحضها.

وتدخل المستر اسكمبن، وهو يلقي نظرة أخرى إلى المحلفين: «إن

ذاكرة المستر ونكل يا سيدي القاضي ضعيفة، وسنجد الوسيلة لإنعاشها وإيقاظها بلا شك قبل أن نفرغ منه».

وقال القاضي وهو ينظر إلى الشاهد نظرة شر ووعيد: «يحسن بك يا سيدي أن تأخذ حذرك».

وانحنى المستر ونكل المسكين، وحاول التظاهر بالسكينة والهدوء، ولكن هذه المحاولة، وهو في تلك الحال من الاضطراب، جعلته يبدو أقرب ما يكون إلى نشال مرتبك.

وعاد المستر اسكمبن يقول: «والآن يا مستر ونكل، التفت إليَّ من فضلك ودعني أنبهك لمصلحتك إلى نصيحة السيد القاضي لك بأن تأخذ حذرك، إنني أعتقد أنك صديق حميم للمستر بكوك المدعى عليه، ألست كذلك؟».

وأجاب المستر ونكل: «لقد عرفت المستر بكوك، على قدر ما أذكر الساعة، منذ نحو...».

- «أرجوك يا مستر ونكل ألا تتهرب من السؤال، إنني أسألك أأنت صديق حميم للمستر بكوك أم لا؟».

- «لقد كنت أهمّ اللحظة بأن أقول...».

- «أتريد أن تجيب عن سؤالي يا سيدي أم لا تريد؟».

وهنا تدخل القاضي، وهو يطل على الشاهد من فوق الأوراق التي يدون فيها ملاحظاته، فقال: «سوف تعاقب يا سيدي إذا لم ترد على السؤال».

وقال المستر اسكمبن في أثره: «هيا يا سيدي، نعم أو لا من فضلك».

وأجاب المستر ونكل: «نعم، أنا صديق حميم له».

- «نعم أنت كذلك، ولماذا لم تقل ذلك في الحال يا سيدي، ولعلك تعرف المدعية أيضًا، إيه يا مستر ونكل؟».

- «لا أعرفها، ولكني رأيتها».

- «آه. لا تعرفها ولكنك رأيتها؟ والآن تكرم بأن تشرح للسادة المحلفين ما الذي تقصده بهذا القول يا مستر ونكل».

- «أقصد أنني لست وثيق الصلة بها، ولكني رأيتها عندما ذهبت لزيارة المستر بكوك في شارع جزول».

- «وكم مرة رأيتها يا سيدي؟».

- «كم مرة؟!».

- «نعم يا مستر ونكل، كم مرة؟ إنني مستعد أن أكرر السؤال عليك عدة مرات إذا شئت يا سيدي».

وانثنى المحامي المدره، وهو عابس عبسة طويلة قاسية، يضع يديه على حقويه، ويبتسم ابتسامة مريبة للمحلفين.

وعند هذا السؤال وجهت النظرات الحادة والعبارات المتعجرفة المألوفة في مثل هذه الظروف.

وبدأ المستر ونكل يقول: إنه من العسير عليه أن يقول كم من المرات رأى مسز باردل، وعندئذ سئل هل رآها عشرين مرة، فأجاب:

«أكثر من ذلك بلا شك» ثم قيل له هل رآها مائة مرة، وهل في استطاعته أن يحلف أنه رآها أكثر من خمسين مرة، وهل يذكر أنه رآها على الأقل ولو خمسًا وسبعين مرة وهكذا دواليك، فكانت النتيجة التي وصلوا إليها أخيرًا وارتضوها منه، هي أنه يحسن به أن يأخذ حذره وينتبه إلى خطورة موقفه، وكان الشاهد عندئذ قد بلغ من أثر هذه الأسئلة المتوالية عليه أقصى حدود الاضطراب العصبي المقصود، وتتابع استجوابه على النحو التالي:

- «هل تذكر يا مستر ونكل أنك في صباح يوم من أيام شهر يوليو الماضي زرت المدعي عليه بكوك في غرفة بمسكن المدعية بشارع جزول؟».

- «نعم أذكر».

- «وهل كنت مصطحبًا في هذه الزيارة صديقًا يدعى طبمن وآخر يدعى سنودجراس؟».

- «نعم».

- «وهل هما هنا؟».

- «نعم هنا».

قال هذا المستر ونكل وهو ينظر باهتمام بالغ نحو الموضع الذي يقف فيه صديقاه.

وقال المستر اسكمبن، بنظرة أخرى ذات دلالة إلى المحلفين: «أرجوك يا مستر ونكل أن تلتفت إليَّ أنا، ودعك من النظر إلى صديقيك،

فهما مطالبان بأن يؤديا شهادتهما دون مشاورة سابقة معك، إذا لم تكن المشاورة قد حدثت بالفعل» ونظر نظرة أخرى إلى المحلفين «والآن يا سيدي قل للسادة المحلفين ماذا رأيت عند دخولك غرفة المدعى عليه في صباح ذلك اليوم، هيا يا سيدي، قل ذلك، فلا بد لنا من أن نعرف عاجلًا أو آجلًا».

وأجاب المستر ونكل في تردد طبيعي: «رأيت المستر بكوك المدعى عليه متناولًا المدعية بين ذراعيه ويداه ممسكتان بخصرها، وكان يبدو على المدعية أنها في حالة إغماء».

- «وهل سمعت المدعى عليه يقول شيئًا؟».

- «سمعته يدعو مسز باردل: المخلوقة العاقلة، ويطلب إليها أن تهدئ روعها؛ لأن الموقف سيبدو حرجًا إذا دخل أحد عليهما، أو كلمات في هذا المعنى».

- «والآن يا مستر ونكل، بقي لي سؤال واحد أوجهه إليك، وأرجو أن تتذكر نصيحة حضرة القاضي لك، هل أنت مستعد أن تحلف أن بكوك المدعى عليه لم يقل عندئذ: يا عزيزتي مسز باردل، إنك لمخلوقة عاقلة، فلتهدئي روعك في هذا الموقف؛ لأنك يجب أن تروضي نفسك عليه، أو ما في هذا المعنى؟».

وبهت المستر ونكل لهذا التخريج العجيب لبضع كلمات سمعها: «لم أفهم هذا بلا شك؛ لأنني كنت على السلم، فلم أستطيع أن أسمع بوضوح. ولكن الذي يتمثل في خاطري..».

وهنا قاطعه المستر اسكمبن قائلًا: «إن السادة المحلفين لا يريدون شيئًا مما يتمثل في خاطرك يا مستر ونكل، وأخشى ألا يكون له فائدة كبيرة عند سادة مثلهم أمناء صرحاء عدول. لقد قلت إنك كنت على السلم فلم تسمع بوضوح، ولكن هل تحلف أن بكوك لم يستخدم هذا التعبير الذي ذكرته لك. هل أفهم ذلك منك؟».

وأجاب المستر ونكل: «كلا، لا أحلف».

وهنا عاد المستر اسكمبن إلى مجلسه، وعلى وجهه سمات الانتصار.

ولم تكن قضية المستر بكوك قد وصلت عند هذا الحد إلى مرحلة سعيدة، ودور موفق، حتى لم يعد ثَمَّةَ مجال إلى إلقاء شيء جديد من الريبة عليها، ولكن كان في الإمكان تسليط أضواء أخرى تزيل إذا تيسر ما أحاط من الشبهات بها، فلا غرو إذا نهض المستر فنكي لاستجواب المستر ونكل لعله ظافر من ردوده بشيء يجدي عليها، وسنرى في الحال هل استطاع ذلك أو لم يستطع؟

فقد بدأ أسئلته بقوله: «أعتقد يا مستر ونكل أن المستر بكوك ليس شابًّا، أهو كذلك؟».

وأجاب المستر ونكل: «آه، كلا، إنه في سن والدي».

- «لقد قلت لزميلي المحترم إنك عرفت المستر بكوك من زمن طويل، فهل لديك من الأسباب ما يجعلك تحسب أو تعتقد أنه كان موشكًا أن يتزوج؟».

وأجاب المستر ونكل بلهفة حارة كان من شأنها أن ترغم مستر فنكي على أن يخرجه من موقف الشاهد بكل سرعة ممكنة: «كلا. بلا شك».

ومن رأي المحامين أن أردأ الشهود في القضايا نوعان، وهما الشاهد الراغب في الإقلال من الكلام، والشاهد الشديد الرغبة في الإكثار منه، ولكن من سوء الحظ أن المستر ونكل جمع بين النوعين.

ومضى المستر فنكي يقول بلهجة متناهية في الرفق واللين: «بل سأذهب إلى أبعد من هذا يا مستر ونكل، فأسأل هل رأيت يومًا من تصرف المستر بكوك وسلوكه إزاء الجنس الآخر ما يحملك على الاعتقاد بأنه كان يفكر في الحياة الزوجية في السنين الأخيرة بأي حال من الأحوال؟».

وأجاب المستر ونكل: «كلا، بلا شك».

- «وهل كان سلوكه أبدًا، كلما عرض له أمر النساء، سلوك رجل بلغ دورًا متقدمًا من أدوار العمر، فأصبح قانعًا بعمله، راضيًا بمناعمه، وأمسى يعاملهن كما يعامل الأب بناته؟».

وأجاب المستر ونكل من كل قلبه: «ليس في هذا أدنى شك.. أي نعم.. إن الأمر كذلك بلا ريب».

وقال المستر فنكي، وهو يستعد للجلوس، حين رأى الأستاذ اسنبن يغمز له بطرف عينه: «وهل عرفت يومًا من الأيام شيئًا في سلوكه تجاه مسز باردل أو أية امرأة سواها يثير أدنى شبهة؟».

وأجاب المستر ونكل: «كلا.. إلا في مناسبة تافهة لست أشك في

أن من السهل تفسيرها».

ولو كان المستر فنكي قد جلس حين غمز له الأستاذ اسنبن أو لو كان الأستاذ بزفز قد عمد إلى إيقاف هذا الاستجواب المخالف للقانون من البداية، وإن كان أحكم وأحرص من أن يفعل ذلك، وهو يشهد قلق المستر ونكل ولهفته واضطرابه، ويعلم أن ذلك على الأرجح قد يؤدي إلى معرفة أشياء في مصلحة موكلته، لو أن ذلك أو نحوه قد حدث، لما أمكن أن يستخلص هذا القول من المستر ونكل لسوء الحظ، فلا عجب إذا رأينا المستر فنكي لم يكد يسمع هذه الكلمات تخرج من شفتي المستر ونكل، حتى عاد إلى مجلسه، وبادر الأستاذ اسنبن إلى إبلاغه أنه حر في ترك مكانه، وهو ما كان المستر ونكل على أتم استعداد لتنفيذه، وإذا الأستاذ بزفز يمنعه من الانصراف، قائلًا: «قف يا مستر ونكل لا تنصرف! هل يتكرم سيدي القاضي فيسأله ما هي تلك المناسبة الي تدل على سلوك مريب إزاء النساء من جانب هذا السيد الذي يبلغ في السن مقام أبيه؟».

والتفت القاضي إلى المستر ونكل المسكين المعذب فقال: «هل سمعت ما قاله المحامي الكبير يا سيدي؟ صف لنا الحادث الذي تشير إليه».

وأجاب المستر ونكل وهو يرتعد من القلق والاضطراب: «إنني يا سيدي القاضي أوثر ألا أفعل».

وقال القاضي: «ربما كان ذلك، ولكنك ملزم».

وفي وسط السكون العميق الذي ساد المحكمة بدأ المستر ونكل يقص وهو متلعثم مضطرب ذلك الحادث التافه الذي يثير الشبهة حول المستر بكوك وهو أنه وُجِدَ في مخدع سيدة في منتصف الليل، وانتهى من شرحه إلى القول إنه يعتقد أنه أدى إلى فسخ مشروع زواج تلك السيدة، وأنه يعلم أن الأمر أسفر عن استياق الجميع إلى دار المستر جورج نبكن القاضي في دائرة إبسويتش.

وقال الأستاذ اسنبن: «لك أن تنصرف يا سيدي».

وانصرف المستر ونكل فعلًا، وانطلق مسرعًا محمومًا إلى فندق «جورج والرخم» حيث عثر عليه بعد بضع ساعات خادم الفندق وهو يئن ويزجر بشكل مؤلم، ويدفن رأسه بين وسائد الأريكة.

ودعي كل من تراسي طبمن وأغسطس سنودجراس إلى تأدية الشهادة، واحدًا بعد الآخر، فوافقا على أقوال صديقهما التعس، وكاد كل منهما يبلغ حدود اليأس والاضطراب من كثرة مطاردته بالأسئلة وتعقُّبه والإلحاح عليه.

ونوديت بعدهما سوزانة ساندرز واستجوبها الأستاذ بزفز، ووجَّه الأستاذ اسنبن أسئلة إليها، فكانت جملة أقوالها إنها كانت دائمًا تقول وتعتقد أن المستر بكوك سيتزوج مسز باردل، وتعرف أن خطبتها له كانت محور الأحاديث التي تدور في الحي، وعلى أفواه الجيران منذ حادث إغمائها في شهر يولية، وأنها سمعت ذلك من مسز مضبري التي تشتغل بكي أو صقل الثياب، ومن مسز بنكن التي تشتغل بتنشيتها، وإن

لم ترهما في المحكمة، وقد سمعت أيضًا المستر بكوك يسأل الغلام: هل يجب أن يكون له أب آخر؟ وأنها لم تعرف أن مسز باردل كانت في ذلك الحين خليلة للخبَّاز، ولكنها تعرف أن الخباز كان يومئذٍ أعزب، وأنه الآن متزوج، وأنها لا تستطيع أن تحلف أن مسز باردل لم تكن تحب ذلك الخباز كثيرًا، ولكنها تعتقد أن الخباز لم يكن يحب مسز باردل إلى هذا الحد، وإلا لما تزوج بامرأة سواها، وأنها تعتقد أن مسز باردل أغمي عليها في صباح يوم معين في شهر يولية؛ لأن المستر بكوك طلب إليها أن تحدد يوم الزواج، وأنها- أي الشاهدة- أغمي عليها حين طلب إليها المستر ساندرز تحديد يوم القران، وأنها تعتقد أن كل امرأة تعد نفسها سيدة تفعل ذلك في هذا الظرف بالذات. وقالت إنها سمعت المستر بكوك يسأل الغلام عن البلي، ولكنها مستعدة أن تحلف اليمين على أنها لا تدري عن أنواع هذه الحجارة شيئًا.

سؤال من المحكمة: هل كانت تتلقى في الفترة التي كانت خلالها تصاحب المستر ساندرز رسالات غرامية كالسيدات الأخريات؟ وكان جوابها أن المستر ساندرز كان كثيرًا ما يدعوها في رسالاته «بطة»، ولكنه لم يكن يدعوها مطلقًا «شرائح» ولا «صلصلة بالطماطم» فقد كان مولعًا «بالبط»، ولعله لو كان مولعًا بالشرائح والصلصة لدعاها كذلك رمزًا لمودته وحبه.

وهنا نهض الأستاذ بزفز مبديًا من الخطر والاهتمام أكثر مما أبداه من قبل، لو أن ذلك كان ممكنًا، وصاح قائلًا: «فليدع صمويل ويلر».

ولم تكن ثمة حاجة ظاهرة إلى دعوة صمويل ويلر؛ فقد تقدم إلى

مكان الشهود بخطوات منفرجة، وسرعة واضحة، في اللحظة ذاتها التي نودي فيها اسمه، فوضع قبعته على الأرض، وذراعيه على السياج، واستعرض مقاعد المحامين من علٍ، وألقى نظرة شاملة على منصة القضاء، وهو في ابتهاج جلي واسترواح ظاهر.

وسأله القاضي: «ما اسمك يا سيدي؟».

وأجاب هذا السيد: «سام ويلر يا سيدي القاضي».

وسأل القاضي: «هل تتهجاها بالفاء[1] أو بالواو؟».

وأجاب سام: «هذا متروك لذوق المتهجي وخياله، يا سيدي القاضي؛ لأنني لم أتهج اسمي أكثر من مرة أو مرتين في حياتي، فكنت أتهجاه بالفاء».

وهنا ارتفع صوت من مقاعد النظارة يقول: «أحسنت يا صمويل. أحسنت كل الإحسان، اكتبها عندك يا حضرة القاضي بالفاء».

فرفع القاضي الصغير الجسم بصره وقال: «ما هذا؟ من الذي يجترئ على مخاطبة المحكمة؟ يا حاجب!».

- «نعم يا مولاي».

- «أحضر هذا الشخص إلى هنا في الحال».

- «سمعًا يا مولاي».

(١) في الأصل الإنجليزي بحرف الـ «v» وهو الهجاء الذي ينطق به «ويلر» اسمه «Veller».

ولكن لم يجد الحاجب ذلك الشخص، فلم يحضره، وكان الناس قد نهضوا من مجالسهم؛ ليتطلعوا بأبصارهم إلى هذا المخلوق، وبعد أن قامت الضجة، وحدث هرج ومرج، عادوا إلى المقاعد، والتفت القاضي القصير إلى الشاهد وقال بعد أن هدأت ثائرته: «هل تعرف من يكون ذلك الشخص يا سيدي؟».

وأجاب سام: «يبدو لي أنه والدي يا سيدي القاضي».

وقال القاضي: «هل تراه هنا الآن؟».

وأجاب سام، وهو ينظر إلى المصباح المعلق في سقف المحكمة: «كلا يا سيدي القاضي».

وقال القاضي: «لو استطعت أن تشير إليه لما ترددت في عقابه».

وانحنى سام انحناءة شكر وعرفان، والتفت بوجهه وهو يطفح بِشرًا وتتهلل أساريره، نحو الأستاذ بزفز.

وقال هذا: «والآن يا مستر ويلر».

وأجاب سام: «والآن يا سيدي».

قال: «أعتقد أنك في خدمة المستر بكوك المدعى عليه في هذه القضية، فتكلم من فضلك يا مستر ويلر».

وأجاب سام: «أنا ناوٍ أن أتكلم يا سيدي. أي نعم. أنا في خدمة هذا السيد، وهي خدمة حسنة جدًّا».

وقال الأستاذ بزفز متفكهًا: «أظن ذلك راجعًا لقلة العمل ووفرة الأجر».

وأجاب سام: «الأجر حسن وزيادة، كما قال الجندي حين حكموا عليه بثلاثمائة وخمسين جلدة».

واعترض القاضي قائلًا: «لا ينبغي لك أن تقول لنا ماذا قال الجندي أو أي إنسان سواه، هذا خروج عن موضوع الشهادة».

وأجاب سام: «حسن جدًّا يا سيدي القاضي».

وقال الأستاذ بزفز: «هل تتذكر حادثًا معينًا وقع في صباح اليوم الذي أدخلك فيه المدعى عليه في خدمته يا مستر ويلر؟».

وأجاب سام: «نعم أتذكر يا سيدي».

- «تكرم بإبلاغ هيئة المحلفين ما هو؟».

وقال سام: «لقد تلقيت كسوة جديدة من الثياب في صباح ذلك اليوم أيها السادة المحلفون، وكان هذا ظرفًا خاصًّا وحادثًا غير مألوف لديَّ في تلك الأيام».

وقوبلت هذه الإجابة بضحك عام، ونظر القاضي القصير القامة نظرة غضب من فوق منصته فقال: «خير لك أن تحتاط لنفسك يا سيدي، وتأخذ حذرك».

وأجاب سام: «هكذا قال لي المستر بكوك في ذلك اليوم بالذات يا سيدي القاضي، وقد احتطت كل الاحتياط، وأخذت حذري جدًّا، من الحلة الجديدة.. نعم كنت محتاطًا كل الاحتياط يا سيدي القاضي».

ولبث القاضي ينظر إلى سام عابسًا دقيقتين كاملتين، ولكن وجه سام ظل في أتم الهدوء والسكينة فلم يَقُلِ القاضي شيئًا، وأشار إلى

الأستاذ بزفز أن يستمر.

وقال الأستاذ بزفز، وهو شابك ذراعيه بقوة، ملتفت نصف التفاته نحو المحلفين، كأنما يؤكد لهم في صمته أنه سوف يطبق على الشاهد ويحاصره: «هل تقصد يا مستر ويلر أن تقول لي إنك لم تر شيئًا من إغماء المدعية وهي في أحضان المدعى عليه، كما وصف الشهود الذين سمعت أقوالهم؟».

وأجاب سام: «نعم، بلا شك لم أشهد شيئًا؛ لأنني كنت في الدهليز، فلم أدخل حتى نودي عليَّ. ولم تكن السيدة العجوز هناك».

وقال الأستاذ بزفز وهو يغمس قلمًا كبيرًا في الدواة التي أمامه بقصد تخويف سام بأنه سيدون رده: «التفت يا مستر ويلر إلى السؤال.. لقد كنت في الدهليز، ومع ذلك لم تشهد شيئًا مما كان يحدث. هل لك عينان يا مستر ويلر؟».

وأجاب سام قائلًا: «نعم لي عينان، وهذا هو الواقع، ولو كانتا زوجين من المجاهر المكبرة مليون مرة، لكان من الجائز أن أتمكن من رؤية ما يجري من خلال درجات سلم، وباب خشبي، ولكن بما أنهما عينان لا أكثر، فإن بصري محدود كما ترى».

وعلى أثر هذا الرد الذي ألقاه سام بلا أدنى عارض لاضطراب، وبأتم البساطة والهدوء، استولى الضحك على النظارة، وابتسم القاضي، وبدا الارتباك الشديد على وجه الأستاذ بزفز، وبعد مشاورة قصيرة بينه وبين ددسن وفج عاد يلتفت إلى سام ويسأله وهو يحاول بألم إخفاء غيظه: «والآن يا مستر ويلر، سأسألك عن شيء آخر إذا تكرمت».

وقال سام بكل وداعة وخفة روح: «تفضل!».

- «هل تتذكر أنك ذهبت إلى منزل مسز باردل ذات ليلة في شهر نوفمبر الماضي؟».

- «آه! نعم أذكر ذلك جيدًا».

وقال الأستاذ بزفز مستعيدًا قواه: «آه، تذكر ذلك إذن يا مستر ويلر، لقد ظننت أننا سنظفر بشيء في النهاية».

وأجاب سام: «لقد كان هذا هو ظني أنا أيضًا يا سيدي».

وعاد النظارة يضحكون من هذا الرد كذلك.

وقال الأستاذ بزفز، وهو ينظر إلى المحلفين نظرة العارف: «وأظنك قد ذهبت إليها لتتحدث قليلًا عن هذه المحاكمة. آه، يا مستر ويلر».

وأجاب سام: «لقد ذهبت لأدفع لها الأجرة. ولكننا فعلًا تحدثنا عن المحاكمة».

وهنا تهلل وجه الأستاذ بزفز مؤملًا أن يقع على اكتشاف خطير: «آه، لقد تحدثتما عن المحاكمة، فما الذي دار من الحديث عنها، هل تكرمت بشرح ذلك يا مستر ويلر؟».

وأجاب سام: «بكل سرور ياسيدي، فبعد بضع ملاحظات لا أهمية لها من جانب المرأتين الفاضلتين اللتين سئلتا هنا اليوم، أخذتا تبديان إعجابهما الشديد بالمسلك المشرف الذي بدا من المستر ددسن والمستر فج، وهما هذان السيدان الجالسان بقربك الآن».

وكان هذ القول بالطبع مثارًا لاهتمام النظارة واتجاه أبصارهم إلى

ددسن وفج، فلا غرو إذا هما لاحا عظيمين شامخين ما أمكن.

وقال الأستاذ بزفز: «إنهما وكيلا المدعية، حسن جدًّا، لقد تحدثت السيدتان عن سلوكهما المشرف وأثنتا عليهما ثناء كبيرًا، أليس كذلك؟».

وأجاب سام: «هو كذلك، فقد قالتا ما أكرمهما وأنبلهما أن قبلا هذه القضية مجازفة ومغامرة، فلم يطالبا مطلقًا بأتعاب، إلا إذا أخذاها وأخرجاها من جيب المستر بكوك».

وعاد النظارة يضحكون لهذا الرد الذي لم يكن منتظرًا مطلقًا، وارتد وجها ددسن وفج محمرين أشد الاحمرار، ومالا على الأستاذ بزفز وهمسا في عجلة شيئًا في أذنيه.

وقال الأستاذ بزفز بصوت مرتفع وهو متظاهر بالهدوء: «أنت على حق. لا فائدة إطلاقًا يا سيدي القاضي من محاولة الحصول على أقوال من بلاهة هذا الشاهد وحماقته التي لا سبيل إلى اختراقها والتغلغل في صميمها، ولهذا لا أريد أن أتعب المحكمة بإلقاء أية أسئلة أخرى عليه، انزل يا سيدي».

وقال سام وهو يتناول قبعته، ويتلفت حوله بكل هدوء: «ألا أحد يحب أن يسألني عن شيء؟».

وقال الأستاذ اسنبن ضاحكًا: «لست أنا يا مستر ويلر.. أشكرك».

وقال الأستاذ بزفز، وهو يلوح له بيده مغيظًا قلقًا: «انزل يا سيدي».

ونزل سام، بعد أن أصاب قضية المستر ددسن وفج بأبلغ أذًى

استطاع بكل سهولة أن يصيبها به، دون أن يقول في حق المستر بكوك أكثر ممَّا يمكن أن يقوله، وهو عين الهدف الذي كان قد وضعه نصب عينيه من البداية إلى النهاية.

وقال الأستاذ اسنبن: «لست أرى يا سيدي القاضي بأسًا من القول، في سبيل الإغناء عن المحكمة سماع أقوال شهود آخرين، إن المستر بكوك رجل متقاعد اعتزل العمل، وسيد مستقل يعيش مما يملكه».

وقال الأستاذ بزفز: وهو يقدم الرسالتين لكي يقرأهما الدفاع: «حسن جدًّا، هذه هي قضيتي شرحتها لكم يا سيدي القاضي».

وعندئذٍ نهض الأستاذ اسنبن فوجَّه القول إلى المحلفين؛ دفاعًا عن موكله، وكانت مرافعته طويلة ولهجته مقترنة بالتوكيد البالغ، راح خلالها يُثني أطيب الثناء على سلوك المستر بكوك وأخلاقه، ولكن لما كان قراؤنا أقدر كثيرًا على تكوين رأي صحيح عن مواهب هذا الرجل ومدى فضله وجدارته، ممَّا في وسع الأستاذ اسنبن أن يَصِلَ إليه، فإنَّا لا نجد حاجة تدعونا إلى ترديد مرافعته والإطالة في إيراد ملاحظاته؛ فقد حاول أن يبين أن الرسالتين اللتين تناولهما محامي المدعية لا صلة لهما بشيء إطلاقًا غير الطعام الذي كان المستر بكوك يبتغيه أو الاستعداد لعودته إلى غرفته من رحلة له في الريف، وحسبنا أن نضيف في عبارة عامة أن الأستاذ اسنبن بذل أقصى الجهد في سبيل الدفاع عن موقف المستر بكوك وأنه لم يكن في الإمكان- كما يقول المثل القديم- أحسن مما كان.

وبدأ القاضي استارلي يلخص نقط القضية على النحو المعروف، وطبقًا للأوضاع المقررة، فكان يقرأ من الملاحظات التي دوَّنَها في الورق الذي أمامه على أسماع المحلفين كلَّ ما أمكنه أن يقرأ في هذه الفترة القصيرة، ومضى يعلق على أقوال الشهود تعليقات سريعة وهو منطلق في تلخيصه، قائلًا: إنه إذا كانت مسز باردل على حق، فمن الجلي تمامًا أن المستر بكوك هو المخطئ، وإذا كانوا يرون أن شهادة مسز كلبنز جديرة بالتعويل عليها، فليأخذوا بها، وإذا لم يروا ذلك فلا شيء يحملهم على الأخذ بها، وإذا كانوا مقتنعين بأن هناك نكثًا بوعد الزواج قد ارتُكِبَ، فليكن قرارهم في مصلحة المدعية مع الحكم بالتعويضات التي يرونها، وأما إذا تبين لهم على العكس أنه لم يكن ثَمَّةَ وَعْدٌ به، فليكن القرار في مصلحة المدعى عليه، بلا تعويض مطلقًا.

واختلى المحلفون عندئذٍ في حجرتهم الخاصة للمداولة، وعاد القاضي إلى غرفته كذلك؛ ليسترد قواه بشريحة من الضأن وكأس من خمر الكرز.

وانقضى ربع ساعة في قلق بالغ، وعاد المحلفون إلى مكانهم، ودُعِيَ القاضي من غرفته، ورفع المستر بكوك منظاره فوضعه فوق عينيه، وراح يرمق كبيرهم وهو بادي الاضطراب، خافق القلب.

وقال السيد ذو الثوب الأسود: «أيها السادة، هل أنتم مجمعون على القرار؟».

وأجاب كبير المحلفين: «نعم».

وعاد يسأل قائلًا: «وهل القرار يا سيدي في مصلحة المدعية، أو في مصلحة المدعى عليه؟».

- «في مصلحة المدعية».

- «والتعويضات أيها السادة؟».

- «سبعمائة وخمسون جنيهًا».

وهنا نزع المستر بكوك منظاره فمسح زجاجه بكل عناية وطواه ووضعه في علبته، ودس العلبة في جيبه، وبعد أن أدخل القفاز في كفيه بكل تؤدة وراح يرمق كبير المحلفين بنظره، انطلق ذاهلًا في أثر المستر بركر والحقيبة الزرقاء، منصرفًا من المحكمة.

ووقفا في غرفة جانبية ريثما يدفع رسوم المحكمة، وانضم إليه أصدقاؤه، وهنا التقى أيضًا بالمستر ددسن والمستر فج، وهما يفركان أيديهما وتبدو عليهما أمارات السرور الظاهر، وعلامات الارتياح.

وقال المستر بكوك: «والآن أيها السيدان؟».

وقال ددسن عنه وعن شريكه: «والآن يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «هل تتصوران أنكما ستظفران بأتعابكما؟ أليس كذلك أيها السيدان؟».

وأجاب فج أنهما يعتقدان أن ذلك هو المرجح، وابتسم ددسن وقال إنهما سيحاولان.

وقال المستر بكوك بحدة: «فلتحاولا، ولتحاولا، ولتحاولا، يا سيد

ددسن وأنت يا سيد فج ما تشاءان، ولكنكما لن تظفرا بدرهم واحد من أتعاب أو تعويض مني، ولو أنفقت بقية العمر في سجن المدينين».

وضحك ددسن قائلًا: «سيكون لك رأي أحسن من هذا قبل حلول الدورة التالية يا مستر بكوك».

وابتسم فج قائلًا: «ها، ها، لن تلبث أن ترى ماذا سيتم يا مستر بكوك».

وترك المستر بكوك من فرط الغيظ نفسه يساق صامتًا مرتجًا عليه في أثر وكيله وأصحابه إلى الباب، حيث ساعداه على الصعود إلى مركبة قديمة كان سام ويلر المتنبه الصاحي لكل شيء قد أحضرها لهذا الغرض.

ورفع سام سلم المركبة، وهمَّ بالوثوب إلى مكانه بجانب السائق، وإذا هو يشعر بيد تلمس في رفق كتفه، فاستدار لكي يرى من اللامس فوجد والده حياله، وقد غمرت وجهه أمارات الحزن والأسف، وهو يهز رأسه بأسى ويقول بلهجة المنذر: «لقد كنت عارفًا نتيجة ما سيحدث هنا. آه، يا سامي! يا سامي! لماذا لم يؤخذ بنصيحتي، وهي إثبات غيابه؟».

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

وفيه يرى المستر بكوك أنه من الخير أن يقصد إلى «باث»- مدينة المياه المعدنية- فينفذ هذا الرأي

وأنشأ المستر بركر يقول، وقد وقف في غرفة المستر بكوك صبيحة اليوم التالي للمحاكمة: «ولكنك بلا شك يا سيدي العزيز لا تقصد حقًّا، ولا جدًّا، بغض النظر عن أي انفعال أو غيظ، ألا تدفع تلك الأتعاب والتعويضات».

وقال المستر بكوك بإصرار: «ولا نصف بنس منها، ولا نصف بنس إطلاقًا».

وقال المستر ويلر، وهو يرفع الصحاف والآنية عقب انتهاء الفطور: «احترامًا للمبدأ، كما قال الدائن عندما رفض بتاتًا تجديد الكمبيالة».

وقال المستر بكوك: «تفضل يا سام بالنزول».

وأجاب سام: «بكل تأكيد يا سيدي».

وانصرف امتثالًا لإشارة مستر بكوك اللطيفة.

ومضى المستر بكوك يقول بلهجة جد بالغ: «كلا يا مستر بركر، لقد حاول أصحابي هنا أن يثنوني عن هذا العزم، ولكن بلا جدوى، وسأنفق وقتي وجهدي، كدأبي وعهدي، حتى يتيسر لخصومي استصدار أمر أداء من القاضي، وإذا سولت لهم خستهم تنفيذه، وقبض عليَّ، فسوف أسلم نفسي بكل سرور وارتياح. فمتى يتيسر ذلك لهم؟».

وأجاب بركر: «في إمكانهم استصدار الأمر يا سيدي العزيز بأداء قيمة التعويض والأتعاب في الجلسة القادمة، أي بعد شهرين من هذا التاريخ يا سيدي العزيز».

وقال المستر بكوك: «جميل جدًّا، ولست أريد أيها العزيز أن أسمع حتى هذا الموعد شيئًا آخر في هذا الشأن».

والتفت إلى أصحابه فابتسم في وجوههم ابتسامة لطيفة، ولمعت في عينيه خطفة ضياء لم يستطع المنظار إخفاءها وقال: «والآن، لم يعد أمامنا غير مسألة واحدة، وهي إلى أين تكون رحلتنا التالية بعدئذ؟».

وكان المستر طبمن والمستر سنودجراس من فرط تأثرهما ببطولة صديقهما لا يقويان على الجواب، ولم يكن المستر ونكل قد أفاق تمامًا من ذكرى الشهادة التي أدلى بها في المحكمة، حتى يستطيع إبداء رأي في هذا الموضوع، ولهذا لم يجد المستر بكوك فائدة من التمهل والانتظار، فمضى يقول: «إذا أنتم تركتم لي إذن أن أقترح الموضع الذي نقصده، قلت لنسافر إلى باث، فلست أظن أحدًا منا قد رآها قبل الآن».

والواقع أن أحدًا منهم لم يرها، وتلقى المستر بركر هذا الاقتراح

بحماسة؛ فقد رجح لديه كل الرجحان أن ينزع المستر بكوك عقب تبديل الهواء إلى حين، والاستمتاع بشيء يسير من البهجة والمتع، إلى الأخذ بفكرة أحكم من هذا في مسألة مصيره، وأخف رحمة من قبول الحبس في سجن المدينين؛ ولهذا أجمع الصحاب على التنفيذ، وأوفد سام في الحال إلى حانة هوايت هورس سلر لحجز خمسة مقاعد في المركبة العامة التي ستسافر في صباح اليوم التالي لتمام السابعة والنصف.

ووجد سام أنه لم يبقَ هناك غير مقعدين في داخل المركبة، وثلاثة فقط يتيسر حجزها في خارجها فاحتجزها جميعًا، وبعد أن تبادل بضع تحيات مع الكاتب الموكَّل بشباك التذاكر على قدر من الشراب يتعاطيانه معًا لقاء نصف كراون، حسبه الكاتب ما بقي بعد ثمن التذاكر، وانطلق سام راجعًا إلى فندق «جورج والرخم»، حيث انشغل إلى أوان النوم في كبس الثياب والأمتعة الأخرى؛ لكي تشغل أصغر فراغ ممكن، واستخدام عبقريته ومهارته وخبرته في الآلات؛ لابتكار جملة من الوسائل البارعة في ضغط أغطية الصناديق التي كانت خالية من الأقفال والمفصلات.

وكان اليوم التالي لا يناسب السفر إطلاقًا؛ فقد طلع الصباح نديًّا رطبًا يتساقط المطر فيه رذاذًا، وكانت الخيل المُعَدَّة للخروج في هذه الرحلة، قد جاءت تخترق شوارع المدينة، وهي ترسل من خياشيمها دخانًا يحجب الركاب الجالسين خارج المركبة عن الأبصار، كما بدا باعة الصحف مبللين تعبق منهم رائحة عفنة من شدة الرطوبة، وكانت قطرات المطر تتساقط من قبعات بائعي البرتقال، عندما يُدخلون رؤوسهم من نوافذ المركبة، ويخففون الروائح المختنقة في جوفها،

واليهود الذين يعرضون على الناس المطاوي ذوات الخمسين نصلًا، قد طووها يائسين من الظفر بالمشترين، والباعة الذين يطوفون بمحافظ الجيوب دسوها في جيوبهم، وكذلك ركدت سوق سلاسل الساعات وشوك الخبز الحميص، أو بيعت رخيصة، أما علب الأقلام والإسفنج فلم يعد أحد يطلبها في السوق.

وترك المستر بكوك وأصحابه سام ليستنقذ الأمتعة من براثن سبعة حمالين أو ثمانية ارتموا بوحشية عليها، في اللحظة التي وقفت المركبة فيها، وتبين لهم أنهم جاءوا مبكِّرين عن الموعد نحو عشرين دقيقة، فذهبوا يحتمون من المطر في قاعة المسافرين، وهي آخر ملجأ للناس إذا وجدوا أنفسهم في غمة أو حائرين.

وكانت قاعة المسافرين في هوايت هورس سلر بالطبع غير مريحة، وإلا لما كانت مستراحًا للمسافرين، فهي القاعة القائمة على يدك اليمنى، التي يخيل إليك أن موقدة من مواقد المطابخ قد مشت إليها، على أمل أن تكون مستدفأ مريحًا لطلاب الدفء، مصطحبة محراكًا متمردًا، وملقطًا عصيًّا، ومجرافًا على كره، وهي مقسمة حواجز ومقاصير، للمسافرين وحدهم، وقد زُوِّدَتْ بساعة جدار، ومرآة، وخادم نشيط، وهذا الشيء الأخير من متاعها ورياشها محتجز في «وجار» صغير لغسل الأقداح في ركن من القاعة.

وكانت إحدى تلك المقاصير في ذلك الصباح بالذات مشغولة، يجلس فيها رجل عابس النظرات، يناهز الخامسة والأربعين، أصلع الجبين، لا منبت في مقدم رأسه لشيء من الشعر، حتى ليبدو «لماعًا»

صقيلًا، وإن كثر الشعر الأسود على فوديه ومؤخر ناصيته، وغزر شارباه الفاحمان، وقد زرر سترته السمراء إلى الذقن، وكانت قبعته المخصصة للسفر والمصنوعة من جلد كلب البحر، ومعطفه وقباؤه، موضوعة فوق المقعد بجانبه.

وتطلع ببصره من فوق طعام الفطور أمامه إلى المستر بكوك عند دخوله، في نظرة عنيفة قاسية، توحي الكبرياء ورفعة القدر، وبعد أن تفحصه مليًّا هو وأصحابه ما طاب له أن يتفحصهم، انثنى يغمغم ببعض الأنغام بشكل يؤخذ منه أنه قد حسب أن بعض الناس يريد التفوق عليه، ولكن ذلك لن يجدي، فلن يستطيع أحد أن يخدعه.

ونادى السيد ذو الشاربين الغزيرين: «يا غلام».

وأجاب رجل قذر السحنة، يحمل فوطة قذرة مثله، وهو يخرج من الوجار الذي أسلفنا ذكره: «سيدي!».

- «قدر آخر من الخبز المحمر».

- «حاضر يا سيدي».

وقال السيد بوحشية: «لا تنس أنه بالزبد».

وأجاب الخادم: «حالًا يا سيدي».

وعاد الرجل ذو الشاربين الغزيرين، يدندن كما فعل من قبل، وتقدَّم إلى النار، ريثما يؤتى إليه بالخبز، وتناول أذيال سترته تحت ذراعيه، ونظر إلى حذائه، ومضى يطيل التفكير.

وقال المستر بكوك مخاطبًا في رفق صديقه المستر ونكل: «ترى

أين ستقف هذه المركبة عند وصولها إلى باث؟».

وقال الرجل الغريب: «هم! آه! ماذا تقول؟».

وأجاب المستر بكوك، وهو على استعداد في كل لحظة للدخول في حديث مع أي إنسان: «لقد كنت أقول لصديقي هذا عند أي بيت تقف المركبة العامة عند وصولها إلى باث.. لعل في وسعك أن تخبرني بهذا».

وقال الغريب: «أذاهب إلى باث؟».

وأجاب المستر بكوك: «نعم، يا سيدي».

- «وهؤلاء السادة الآخرون؟».

- «إنهم ذاهبون إليها كذلك».

وهنا قال الغريب: «لا في داخل المركبة. اللعنة عليَّ في كل كتاب إذا كنتم مسافرين في داخلها؟».

وقال المستر بكوك: «لسنا كلنا».

وأجاب الغريب بلهجة التوكيد القاطع: «كلا، لستم كلكم، فقد حجزت فيها تذكرتين، فإذا حاولوا حشر ستة أشخاص في مكان ضيق لا يتسع إلا لأربعة، استأجرت مركبة خاصة ورفعت قضية عليهم، لقد دفعت لهم الأجرة، فلن يجوز هذا على مثلي، وقد قلت لصراف التذاكر عندما حجزتهما إن هذا لن يجوز؛ لأني أعرف أن أمورًا كهذه قد حدثت قبل الآن، بل تحدث في كل يوم، ولكني أنا لست بالرجل الذي يُخدع، ولن أُخدع في يوم من الأيام، وأخبر الناس بي وأكثرهم معرفة يعرفون

ذلك عني أكثر من سواهم، يخدعني أنا!».

وعاد الرجل المتوحش يدق الجرس بعنف شديد ويقول للغلام: إنه لخير له أن يأتي بالخبز في خمس ثوانٍ، وإلا فسيعرف السبب.

وقال المستر بكوك: «اسمح لي يا سيدي الكريم أن ألاحظ أن هذا لا يدعوك مطلقًا لهذا الانفعال الذي تبديه. إنني لم أحجز غير تذكرتين في الداخل».

وقال الرجل المتوحش: «يسرني أن أسمع ذلك، وأسحب ما قلت، وأقدم اعتذاري. ها هي ذي بطاقتي، فأعطني بطاقتك لأتعرف بك».

وأجاب المستر بكوك: «بكل سرور يا سيدي، سنكون رفقاء في السفر، وأرجو أن يطيب لنا جميعًا هذا الاجتماع الذي تواتى لنا».

وقال السيد المتوحش: «أرجو ذلك، بل أعرف أننا سنغتبط به، إن وجهكم يروقني، وتسرني ملامحكم. أيها السادة، عليَّ بأياديكم وأسمائكم. أعرفوني».

وتلت هذا الحديث اللطيف بالطبع تسليمات متبادلة وتحيات ودية، وانثنى السيد المتوحش في الحال ينبئ الصحاب بعين العبارات القصار المتقطعة القافزة التي أسلفناها عليك أنه يُدعى داولر، وأنه ذاهب إلى باث؛ طلبًا للنزهة والمتعة، وأنه كان من قبلُ في خدمة الجيش، ولكنه الآن يشتغل بالأعمال، وأنه سيد حر التصرف، وأنه ينفق على نفسه من الأرباح التي يجمعها من التجارة، وأن الشخص الذي حجز له المقعد الآخر ليس سوى مسز داولر قرينته الفاضلة.

ومضى المستر داولر يقول: «إنها امرأة ظريفة، وإني بها لفخور بحق».

وقال المستر بكوك وهو يبتسم: «أرجو أن تكون لي متعة الحكم بنفسي».

وأجاب داولر: «ستكون لك، وستعرفك، وستقدرك، لقد كانت خطبتي لها في ظروف غريبة، فلقد ظفرت بها بسبب يمين طائشة، وإليك النبأ: رأيتها، أحببتها، خطبتها، رفضتني، قلت: «أتحبين غيري؟» قالت: «لا تحرجني وتخجلني» قلت: «أأعرفه؟». قالت: «تعرفه». قلت: «حسن جدًّا، إذا بقي هنا فسأسلخ جلده».

وقال المستر بكوك رغم إرادته: «رحمتك يا رب!».

وسأل المستر ونكل وهو شاحب الوجه: «وهل سلخت جلده حقًّا يا سيدي؟».

وأجاب السيد المتوحش: «بعثت إليه بكتاب، قلت إنه لشيء أليم، وكان ذلك فعلًا».

وقاطعه المستر ونكل قائلًا: «بلا ريب».

ومضى السيد المتوحش يقول: «قلت إنني أقسمت بشرفي وأنا سيد مهذب أن أسلخه، وكنت محرجًا أخشى أن يضيع شرفي، لا سبيل أمامي غير تنفيذ وعيدي، وإنني بوصفي ضابطًا في خدمة صاحب الجلالة مضطر إلى سلخه. وكنت آسفًا لهذا الاضطرار، ولكن لا مفر منه. وكان ممن يقتنعون، فقد وجد أن قواعد الخدمة في الجيش ملزمة فلجأ إلى الهرب، فتزوجتها. ها هي ذي المركبة، ها هو ذا رأسها».

وما كاد المستر داولر يُتم هذا القول، حتى أشار إلى مركبة قد وقفت عندئذٍ بالباب، وأطل من نافذتها المفتوحة وجه مليح، في قبعة زرقاء زاهية الزرقة، وهو يرسل نظره باحثًا بين القوم الوقوف فوق الإفريز، وأكبر الظن عن الرجل المتهور نفسه، وبادر المستر داولر إلى دفع حسابه، وأسرع بقبعته، ومعطفه، وقبائه، وانطلق المستر بكوك وصحبه في أثره ليحتلوا أماكنهم.

وجلس المستر طبمن والمستر سنودجراس في الجزء الخلفي من المركبة، واحتل المستر ونكل مكانه في داخلها، واستعد المستر بكوك للدخول في أثره، وإذا سام ويلر يتقدم نحو سيده، ويهمس له في أذنه، راجيًا أن يأذن له في الكلام معه، وكان مظهره محيرًا غامضًا أشد الغموض.

وقال المستر بكوك: «إيه يا سام؟ ما الخبر الآن؟».

وأجاب سام: «شرك نصب لنا يا سيدي».

وسأله المستر بكوك قائلًا: «ماذا؟».

وأجاب سام: «إنني أخشى كثيرًا يا سيدي، أن صاحب المركبة يلعب علينا لعبة جريئة يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «وكيف ذلك يا سام؟ أليست أسماؤنا مكتوبة في قائمة المسافرين؟».

وأجاب سام: «إن الأسماء ليست مكتوبة فيها فقط، ولكن نسخة منها ملصوقة أيضًا بباب المركبة».

أشار سام إلى الباب، حيث جرت العادة أن يُكتب اسم صاحب المركبة في ناحية منه، فإذا ذلك الاسم السحري بكوك مكتوب فيها بأحرف كبيرة مذهبة.

وصاح المستر بكوك، وهو مأخوذ بهذه المصادفة: «يا عجبًا! ما أغرب ذلك وأعجب!».

وقال سام: «ولكن ليس هذا هو كل ما في المسألة». وعاد يسترعي نظر سيده إلى باب المركبة، ومضى يقول: «إنهم لم يكتفوا بكتابة بكوك فقط، بل وضعوا أمامه كلمة موزس[1]، وهو ما أسميه زيادة الطين بلة، كما قالت الببغاء، حين لم يكتفوا بنقلها من بلادها، بل علموها أيضًا كيف تنطق بالإنجليزية».

وقال المستر بكوك: «هذا شيء غريب فعلًا يا سام، ولكننا سنفقد أماكننا إذا نحن وقفنا هنا نتكلم».

وصاح سام مبهوتًا من هذا البرود الذي راح المستر بكوك يدخل به جوف المركبة: «ما هذا؟ ألا شيء يمكن أن يعمل في هذه المسألة يا سيدي؟».

وقال المستر بكوك: «يعمل! ماذا يصح أن يعمل؟».

وأجاب سام ويلر الذي كان ينتظر أن يطلب إليه سيده على الأقل أن يطلب حارس المركبة والسائق إلى الملاكمة في الحال: «ألا يجب تأديب أد على هذه الجرأة يا سيدي؟».

---

(١) «موزس» تعني «موسى»، وقد اختلطت الأسماء فظن سام أن الأمر مدبر وأراد اتخاذ إجراء فيه.

وأجاب المستر بكوك بجد: «كلا، بلا شك إطلاقًا. هيا اقفز إلى مقعدك في الحال».

وتمتم سام لنفسه، وهو يتولى عن سيده: «أخشى كثيرًا أن تحولًا قد طرأ على أحوال المعلم، وإلا لما قابل هذه المسألة بكل هذا الهدوء. أرجو ألا تكون هذه المحاكمة قد هدمت قواه، إن هذه حالة سيئة، سيئة جدًّا».

ومضى المستر ويلر يهز رأسه بأسف بالغ، ومما يجدر بنا ذكره لوصف مبلغ أسفه على هذا الأمر أنه لم يَفُهْ بكلمة واحدة، حتى وصلت المركبة إلى باب العوائد في كنسنجتن، وهي فترة طويلة جدًّا بالنسبة إلى رجل كثير الكلام مثله، أطول من أن يطيق فيها السكوت، فلا بأس من أن نعد هذه الحقيقة حادثًا لا سابق له!

ولم يحدث خلال الرحلة شيء يستحق الذكر؛ فقد مضى المستر داولر يروي نوادرَ عدةً، تُصَوِّرُ براعته الشخصية وجرأته، ويستشهد على صحتها بمسز داولر، فكانت زوجته تُذَيِّلُهَا بحكايات أخرى تروي بها واقعة ذات بال كان داولر قد نسيها أو لعله من التواضع أغفلها، وكلها تدل على أنه أغرب وأعجب ممَّا صور نفسه، وكان المستر بكوك والمستر ونكل يصغيان بإعجاب بالغ، وأحيانًا يتحدثان إلى مسز داولر، التي بدت محببة إلى النفوس جذابة تستهوي الأفئدة، وبفضل أقاصيص المستر داولر، ومجانة المستر بكوك، وحسن إصغاء المستر ونكل، استطاع الركب داخل المركبة أن يجعلوا الرحلة طول الطريق طيبة ممتعة.

وفعل الركب في الخارج كما يفعل المسافرون أبدًا فيه؛ فقد بَدَوْا مرحين، كثيري الكلام، في بداية الرحلة، ثم انقلبوا مكتئبين مهمومين في منتصف الطريق، ثم عادوا أيقاظًا فَرِحين مشرقي الوجوه قُبَيْلَ انتهائها، وكان من بينهم فتى في قباء من المطاط الهندي، ظل طيلة النهار يدخن اللفائف الكبيرة المستطيلة، وآخر جعل يمزح على معطف كبير، ويشعل عدة لفائف، ولا يكاد يأخذ من كل واحدة منها نفسين اثنين، حتى يبدو غير مستقر، فيلقي بها بعيدًا كلما ظن أن لا أحد منتبه إليه. وثالث طفق يتحدث عن الماشية؛ ليظن سامعوه أنه بها الخبير العليم. وكان من بينهم كذلك شيخ في المؤخرة خبير بالزراعة، وجمعٌ متوالٍ من الناس في سراويلَ رسمية سوداء، وأردية بيض، ظل حارس المركبة طيلة الطريق يدعوهم إلى الركوب تكرُّمًا منه، وهم يعرفون كل حصان، وسائس، على الطريق، وعن جانبيه، وكان على المركبة «غداء» كان سيروح رخيصًا، لا تتجاوز أكلة الفرد نصف كراون لو أن عدد الآكلين كان كبيرًا.

وفي تمام الساعة السابعة من المساء انتهت الرحلة، وأوى المستر بكوك وأصحابه، والمستر داولر وزوجته إلى الغرف الخاصة التي أُعِدَّتْ لهم في فندق هوايت هارت المقابل لحمامات المياه المعدنية الكبرى في باث، حيث يحسب المرء أن غلمانه من ثيابهم هم خدم وستمنستر لولا أنهم يزيلون هذا الظن الخادع بأدبهم وحسن سلوكهم.

وما كادت الأواني تُرفع عن مائدة الفطور في صباح اليوم التالي، حتى جاء غلام يحمل بطاقة المستر داولر، ورجاء منه أن يسمح له

بتقديم صديق له. وجاء المستر داولر على أثر الخادم الذي يحمل بطاقته يسوق إلى المستر بكوك وأصحابه صديقه الذي يرجو تقديمه إليهم.

وكان هذا الصديق شابًّا ظريفًا لا يتجاوز الخمسين كثيرًا، مرتديًا سترة زرقاء زاهية ذات أزرار برَّاقة، وفي سراويل سود، وحذاء لامع شديد اللمعان، دقيق إلى أبعد حدود الدقة، ومن رقبته يتدلى منظار ذهبي، في شريط قصير عريض، وقد أمسك بيسراه في خفةٍ علبة سعوط من الذهب، وتبرق في أنامله عدة خواتم ذهبية، ويتلألأ في قميصه دبوس من الماس المرصع بالذهب، وله ساعة من ذهب أيضًا، وسلسلة منه كذلك، وأختام كبيرة من الذهب مثلها، وهو يحمل عصا لدنة في لون الأبنوس، ذات مقبض كبير من الذهب، ويبدو قميصه أنصع ما يكون بياضًا، وأبدع ما يكون شكلًا، وأكثر ما يكون نشاء، وضفيرة شعره متناهية البريق، مفرطة في السواد، متجاوزة الحد في التجعُّد، وكان سعوطه من سعوط الأمراء، وعطره من رائحة بوكيه دي روا(١)، وقد لازمت تقاسيم وجهه ابتسامة لا تفتر عنه، وبدت أسنانه من الكمال والتمام بحيث يصعب من بعيدٍ التفريق بين الحقيقية منها والصناعية.

وقال المستر داولر: «يا مستر بكوك، هذا صديقي السيد أنجلو سايرس بنتم، من حملة وسام الصليب الحربي، يا مستر بنتم أقدم إليك المستر بكوك، تعارفا».

وقال الصديق: «مرحبًا بك يا سيدي في باث. هذا تشريف لها حقًّا. مرحبًا يا سيدي في باث! لقد طال العهد كثيرًا يا مستر بكوك منذ شربت

(١) رائحة عطرية من أذكى الروائح في تلك الأيام، ومعناها: «باقة الملك».

من مياهها. يُخيَّل إليَّ من طوله أنه جيل من الزمان، يا مستر بكوك، شيء رائع!».

وبهذه العبارات تناول أنجلو سايرس بنتم حامل وسام الصليب الحربي يد المستر بكوك، وأبقاها في يده، وهز كتفيه، ولبث ينحني انحناءات متوالية، كأنما لا يقوى فعلًا على احتمال ترك المستر بكوك يسترد يده.

وأجاب هذا قائلًا: «إنه لعهد طويل حقًّا منذ شربت من هذه المياه؛ لأنني على قدر ما أعرف لم آت إلى هنا من قبل».

وهنا صاح رئيس التشريفات وهو يترك اليد التي كان محتفظًا بها تراخى دهشة واستغرابًا: «لم تأت قبل الآن إلى باث يا مستر بكوك! ولا مرة واحدة؟ ما هذا الكلام يا مستر بكوك؟ إنك لتضحك، لا بأس، لا بأس، جميل، جميل، ها، ها، ها، رائع!».

وأجاب المستر بكوك: «يخجلني أن أقول إنني جاد تمامًا فيما قلته؛ لأنني في الواقع لم آت إلى هنا قبل الآن».

وقال رئيس المراسم وهو يبدو مغتبطًا كل الاغتباط: «آه، فاهم، نعم، نعم، جميل، جميل، أجمل، وأجمل، أنت السيد الذي سمعنا عنه، نعم، نحن نعرفك يا مستر بكوك، نحن نعرفك».

وقال المستر بكوك لنفسه: «لا بد أن يكون مرجع ذلك إلى أخبار المحاكمة في تلك الصحف الملعونة. لقد علموا بكل شيء عني».

واستتلى بنتم يقول: «أنت السيد الذي يقيم في كلابم جرين، والذي

فقد قوة أطرافه من أثر التعرض بغير احتياط ولا حكمة للبرد بعد شرب النبيذ، حتى لم يعد قادرًا على الحركة من حدة الألم، وجعلت المياه تأتيه معبأة في الزجاجات من الحمامات الملكية، بدرجة حرارة تبلغ مائة وثلاث درجات، وترسل إليه في المركبات إلى غرفة نومه في المدينة حيث استحم، وعطس، وفي اليوم ذاته تم له الشفاء، رائع.. جدًّا».

وشكر المستر بكوك للرجل المجاملة التي انطوى هذا الظن عليها، ولكنه راح بتواضعه ينفي ما قيل عنه، وانتهز فرصة صمت حامل وسام الصليب الحربي لحظة، فقدم إليه أصحابه المستر طبمن، والمستر ونكل، والمستر سنودجراس، فاستولى على حامل الوسام لهذا التعريف الفرح، وغمره منه الشرف.

وقال المستر داولر: «إن المستر بكوك وأصحابه يا بنتم غرباء هنا، ولا بد لهم من كتابة أسمائهم، فأين الدفتر؟».

وأجاب حامل الوسام: «سيكون دفتر قيد أسماء كبار الزائرين في مبنى الحمامات في الساعة الثانية من صباح اليوم، فهلا مضيت بأصدقائنا إلى ذلك المبنى الفاخر وساعدتني في الحصول على توقيعاتهم».

وأجاب داولر: «سأفعل. لقد أطلنا الزيارة، وحان لنا أن ننصرف، وسأعود إلى هنا بعد ساعة.. تعال بنا».

وقال حامل الوسام وهو يتناول يد المستر بكوك مرة أخرى، عند نهوضه للانصراف: «هذه ليلة راقصة.. إن الليالي الراقصة في باث هي لحظات مختلسة من الفردوس، تزيدها فتونًا، وسحرًا، الموسيقى،

والجمال، والرشاقة، والأناقة، واللياقة، وفوق كل ذلك جميعًا، خلوها من أرباب الحرف والمهن؛ لأنهم لا يلائمون الفردوس مطلقًا، ولهم ليلة خاصة يجتمعون فيها بكل صنوفهم في قاعة الجلد هول مرة كل أسبوعين، وهو أمر أقل ما يقال فيه إنه رائع. إلى الملتقى، إلى الملتقى». وظل وهو ينزل السلم يقول إنه في غاية السرور، والانشراح، والتأثر، والازدهار، حتى مشى إلى مركبة فاخرة كانت منتظرة بالباب فدرجت به.

وفي الموعد المعين ذهب المستر بكوك وأصدقاؤه، في حراسة المستر داولر، إلى قاعة الاجتماعات فقَيَّدُوا أسماءهم في الدفتر، فكان ذلك مثلًا من التنازل والتفضُّل قابله أنجلو بنتم بتأثرٍ أبلغَ من قبلُ، وكان حضور الحفلة التي ستُقام في المساء بتذاكر، ولكنها لم تكن أُعِدَّتْ، فتعهد المستر بكوك رغم اعتراضات أنجلو بنتم واحتجاجاته، أن يوفد سام ليتسلمها في الساعة الرابعة من الأصيل من دار حامل الوسام في شارع ميدان الملكة.

وخرج الصحاب لجولة قصيرة في أرجاء المدينة، ووصلوا بعد الجولة إلى رأي واحد، وهو أنَّ شارع بارك ستريت أشبه شيء بالشارع العمودي الذي يراه المرء في المنام، ولا يستطيع مطلقًا في الحلم أن يتسلَّقه، وعادوا أدراجهم إلى الفندق فأرسلوا سام في المهمة التي تعهَّد سيده أن يرسله إليها.

ووضع سام قبعته على رأسه بشكل رشيق كل الرشاقة، وبديع كل الإبداع، ودسَّ يديه في جيبي صداره، ومشى مشية التؤدة والخيلاء

إلى ميدان الملكة صافرًا بفمه عدة أنغام وألحان شائعة في تلك الأيام، ويعزف بها على تلك الآلة الموسيقية البديعة، وهي الفم، أو المزمار، وحين وصل إلى رقم البيت الذي وجه إليه في ذلك الشارع، انثنى عن الصفير، ودق الباب دقة تنم عن البهجة والانشراح، فاستجاب لها في الحال حاجب طلا رأسه بالمساحيق، وارتدى حلة فاخرة، وهو سمهري القوام.

وسأل سام ويلر دون أن يرتبك من هذا الرواء المتوهج الذي طلع فجأة على عينيه في شخص هذا الحاجب المتجمل المشتمل بتلك الحلة الباهرة: «أهذا مسكن المستر بانتام، أيها الشيخ؟».

وأجاب الحاجب المتكبر المزدهي بثوبه القشيب: «ولماذا تسأل أيها الفتى؟».

وقال سام: «لأنه إذا كان هو، فما عليك إلا أن تذهب إليه بهذه البطاقة، وتقول له إن المستر ويلر منتظر من فضلك»، وما كاد يقول ذلك حتى تقدم ببرود إلى الردهة وجلس.

وأغلق الحاجب ذو الرأس المجمَّل بالمساحيق الباب في أثره بعنف شديد، مزمجرًا بكل عظمة وكبرياء، ولكن سام لم يتأثر مطلقًا بذلك العنف، ولم يأبَهْ بتلك العظمة، وطفق يتأمل مشجبًا من خشب المجنة لتعليق المظلات بنظرة الناقد الخبير، والموافق الذي يعرف حق المعرفة كيف يقدر الأشياء.

والظاهر أن الاستقبال الذي استقبل به رب البيت البطاقة أحدث أثره الحسن في نفس الحاجب من جهة سام ويلر؛ لأنه حين عاد من

تسليمها ابتسم له ابتسامة مودة وقال: إن الرد سيأتي في الحال.

وقال سام: «جميل جدًّا. قل للسيد الكبير ألا يجهد نفسه حتى يتصبب عرقًا، لا عجلة يا رب القوام السمهري، فقد تناولت غدائي والحمد لله».

وقال الحاجب: «إنك تتعشى مبكرًا يا سيدي».

وأجاب سام: «لأنني أجد نفسي مقبلة على العشاء كلما بكرت في الغداء».

وسأل الحاجب: «هل قضيت وقتًا طويلًا في باث يا سيدي؛ لأني لم أحظ بسماع شيء عنك قبل الآن؟».

وأجاب سام: «إنني لم أحدث ضجة مدهشة هنا إلى الآن؛ لأنني أنا والسادات الكبار الآخرين لم نصل إليها إلا في الليلة الماضية».

وقال الحاجب ذو الرأس المطلي بالمساحيق: «مدينة لطيفة يا سيدي».

وأجاب سام: «يظهر أنها كذلك».

وعاد الحاجب ذو الرأس المطلي بالمساحيق يقول: «والمجتمع فيها لطيف يا سيدي، والخدم ظرفاء جدًّا».

وأجاب سام: «أعتقد أنهم كذلك. أناس لطاف لا تظاهر عندهم، ولا يقولون لأحد شيئًا».

وقال الحاجب ذو الرأس المطلي بالمساحيق، وقد عد ملاحظة سام

تحية طيبة ومجاملة كريمة: «فعلًا يا سيدي، إن الأمر كذلك حقيقة.. هل لك في شيء من هذا يا سيدي؟» وانثنى يخرج علبة سعوط صغيرة رسم على غطائها رأس ثعلب.

وأجاب سام: «نعم، ولكني أعطس منه دائمًا».

وقال الحاجب المديد القامة: «لك حق، إنه صعب يا سيدي، يصح أن يؤخذ بالتدريج يا سيدي. إن القهوة أحسن عادة، وقد اعتدت تناولها يا سيدي من عهد بعيد، إنها شديدة الشبه بالسعوط».

وهنا دق الجرس بعنف، فاضطر الحاجب كارهًا إلى إعادة رأس الثعلب إلى جيبه وأسرع في خشوع إلى مكتب المستر بنتم، وعلى ذكر الكتب، أقول من ذا الذي لم يَرَ يومًا رجلًا لا يقرأ في حياته ولا يكتب، ولكنه مع ذلك يملك حجرة خلفية صغيرة في داره يسميها مكتبًا؟!

وعاد الحاجب إلى سام فقال: «ها هو ذا الرد يا سيدي. أخشى أن تجده كبيرًا غير مريح».

وتناول سام كتابًا ينطوي على شيء صغير قائلًا: «العفو. لا تعب ولا شيء من هذا، إنه ليس أكثر مما يستطيع الإنسان المجهد أن يطيقه».

وقال الحاجب ذو الرأس المطلي بالمساحيق، وهو يفرك يديه ويتبع سام إلى عتبة الباب: «أرجو أن نلتقي مرة أخرى يا سيدي».

وأجاب سام: «إنك لكريم يا سيدي، والآن لا تجهد نفسك فوق طاقتك، إنك لإنسان ظريف، تذكر أن المجتمع محتاج إليك، فلا تؤذ نفسك بكثرة العمل، بل في سبيل خير الناس، التزم الهدوء ما أمكن،

وفكر أي خسارة سيعانيها المجتمع من فقدك!».

وبهذه الكلمات المؤثرة انصرف سام ويلر، تاركًا ذلك الحاجب يقول، وهو يرسل البصر في أثره، ويلوح على وجهه أنه حائر في أمره: «هذا شاب غريب جدًّا».

ولم يقل سام شيئًا، بل غمز بطرف عينه، وهز رأسه، وابتسم، ثم غمز مرة أخرى، وانطلق بمرح وعلى وجهه من الأمارات ما يدل بوضوح على أنه مسرور كل السرور من شيء ما.

وقبل الثانية من مساء اليوم ذاته بعشرين دقيقة تمامًا، خرج السيد أنجلو سايرس بنتم رئيس التشريفات، من مركبة عند وصولها إلى باب قاعة الاجتماعات، وعلى رأسه الضفيرة ذاتها، وفي فمه الأسنان عينها، وفي قميصه الدبوس نفسه، وفي يده العصا المعهودة، وكل ما بدا على مظهره من التغيرات أنه جاء مرتديًا سترة أزهى زرقة، وبطانة من الحرير الأبيض، وأربطة سوداء، وجوربًا حريريًّا أسود، وحذاء رقص، وصدارًا ناصع البياض، وكان يبدو- إذا جاز لنا أن نقول- أكثر تعطُّرًا، وأفوح عبقًا.

ووقف رئيس التشريفات، وهو في تلك البَزَّةِ؛ ليؤدي الواجبات الخطيرة التي تتصل بمنصبه الخطير كل الخطورة؛ ليستقبل الجمع في الحجرات.

وكانت باث مزدحمة بالوافدين، فلا عجب إذا تدفق الناس، واستفاضت أقداح الشاي لقاء ستة بنسات، على تلك القاعات، زرافاتٍ

وأفواجًا، وكانت الأصوات، ومواقع الأقدام- في قاعة الرقص، وقاعة الميسر المستطيلة الشكل، وقاعة اللعب الأخرى المثمنة الأضلاع- مدهشة مذهلة للأذهان، وللثياب فيها حفيف، وللريش خفق، وللأضواء وهج، ولكرائم الجواهر سناء يخطف بالأبصار، وكانت ثمة أنغام الموسيقى مترددة الأصداء، لا موسيقى رقصات الكوادريل؛ لأنها لم تكن قد بدأت بعد، ولكن موسيقى الأنغام الناعمة، والألحان التوقيعية الخفيفة، بينما كانت ترتفع بين لحظة وأخرى ضحكة مرحة زائقة، وإن كانت حلوة في الأسماع، من صوت أنثى، سواء في باث أو سواها، وكانت الأعين البراقة التي يلتمع في نظراتها بريق الانتظار، وخطف السرور، ترنو في كل ناحية، وتشع من كل جانب، فحيثما ألقيت البصر رأيت قدودًا مرهفة تتسلل في رفق وجمال من خلال الزحام، فلا تكاد تتوارى عن عينيك، حتى تطالعك أخرى في مثلها رقة وسحرًا.

وفي قاعة الشاي، وحول نضد اللعب، ترى أسرابًا حائماتٍ من الغيد الكبار في السن، وشيوخًا من العجزة ذوي العاهات، يتحدثون في سفاسف الأمور، وفضائح اليوم، بلذة بالغة، وحماسة ظاهرة تنم بجلاء عن شدة السرور الذي يجدونه من تلك الأحاديث، وقد اختلطت بهذه الجماعات ثلاث أمهات أو أربع، خاطبات لبناتهن، يلحن منهمكات في الحديث الذي يسهمن فيه، وإن مضين بين لحظة وأخرى يلقين نظرات جانبية إلى بناتهن، وقد تذكر أولاء نصيحة أمهاتهن لهن بوجوب الاستمتاع بشبابهن ما استطعن، فبدأن مقدمات فنون الغزل، بوضع اللفاعات في غير الأماكن المخصصة لها، ولبس القفازات،

وصَفِّ الفناجين، وما إليها، وهي أشياء تلوح في ظاهرها تافهة، ولكنها قد تتطور بشكل مدهش إلى مواقفَ طيبةٍ ببراعة الخبراء.

وعلى الأرائك القريبة من الأبواب، وفي الأركان القصية، شهد جماعات من الفتيان الحمقى والسخفاء، يبدون أنواعًا منوعة من النزق والحماقات؛ ليدخلوا السرور على نفوس الحساسين القريبين منهم بالطيش والغرور، ويحسون أنهم موضع الإعجاب العام، وهو منزع حكيم رحيم، لا يدعو الرجل العاقل إلى الاشتجار بسببه، أو الدخول في نزاع عليه.

وأخيرًا، على بعض المقاعد الخلفية ترى نساء عوانسَ، تجاوزن سن الزواج، وجئن فاتخذن مجالسهن لمتعة المساء، فلا يرقصن؛ لأنهن لا يجدن مُراقصين، ولا يلعبن الورق حتى لا يظن أنهن عانسات لا يرغبن في الزواج، ولا ينثنين عن العزوبة، فبقين لهذا كله في مركز موائم يتيسر لهن فيه التنديد بأي أحد أو السخرية من أي إنسان، دون أن تنعكس السخرية عليهن، وجملة القول إنهن القادرات على اغتياب أي إنسان؛ لأن كل إنسان هناك، لقد كان هذا التهانُف مشهدًا من ألوان البهجة البراقة، أو معرضًا من نفس الثياب، وأبدع الأزياء، وسط المرايا الجميلة، والأرضية المكسوة بالطباشير، والثريا والشموع وفي كل ناحية من هذا المشهد، ومن موضع إلى آخر، في رقة صامتة، وانحناءة ظاهرة، لهذا الجمع الجامع، مومئًا لهذا إيماءة الألفة، ومبتسمًا لذاك ابتسامة الرضى واللطف، بدا السيد أنجلو سايرس بنتم رئيس التشريفات، في زيه الأنيق وبزته المتقنة.

وقال المستر داولر بصوت مرتفع، موجهًا المستر بكوك، حين تقدم على رأس جمعه الصغير، وشابكًا ذراعه بذراع مسز داولر: اجلسوا في قاعة الشاي، وتناولوا منه بقدر ستة بنسات: «إنهم يضعون الماء الساخن ويسمونه «شايًا» اشربوه!» وإلى قاعة الشاي اتجه المستر بكوك، فما إن لمحه المستر بنتم، حتى راح يشق طريقه في غمار الزحام ويرحب به في سرور شديد قائلًا: «شرفتنا كل التشريف يا سيدي العزيز. إن باث لسعيدة، يا مسز داولر إنك لزينة المكان. وأهنئك بهذا الريش الجميل. رائع».

وقال داولر بلهجة المستريب: «هل أحد هنا؟».

وأجاب بنتم: «هل أحد هنا؟ إن هنا الصفوة المختارة والعلية كلها. ألا ترى يا مستر بكوك تلك الغادة التي تبدو في تلك العمامة الشفافة الناعمة؟».

وقال المستر بكوك ببساطة: «أتعني السيدة العجوز البدينة؟».

وأجاب بنتم: «صه يا سيدي العزيز، لا أحد في باث بدين ولا عجوز، وهذه هي السيدة اسنفنف العريقة المحتد».

وقال المستر بكوك: «أهي حقًّا؟».

وأجاب رئيس التشريفات: «أؤكد لك أنها هي لا سواها، صه! اقترب قليلًا يا مستر بكوك. ألا ترى ذلك الشاب في الثوب الفاخر القادم نحونا؟».

وسأله المستر بكوك: «أتعني ذا الشعر الطويل والجبهة الصغيرة؟».

وأجاب بنتم: «هو ذاته، إنه أغنى شاب في باث هذه اللحظة، إنه اللورد الشاب مطنهد».

وقال المستر بكوك: «لا تقل هذا الكلام، أحقًّا هو؟».

وأجاب رئيس التشريفات: «نعم، وستسمع بعد لحظة صوته يا مستر بكوك، إنه سيكلمني، أما السيد الآخر الذي معه في الصدار الأحمر وذو الشارب الأسود، فهو السيد المحترم المستر كرشتن صديقه الحميم. كيف أنت يا سيدي اللورد؟».

وقال اللورد- وهو يلثغ: «حر شديد يا بنتم».

وأجاب حامل وسام الصليب الحربي: «الجو حار جدًّا يا سيدي اللورد».

وقال السيد المحترم كرشتن: «عليه اللعنة».

والتفت السيد المحترم إلى المستر بنتم بعد لحظة سكوت كان اللورد مطنهد الشاب يحاول فيها أن يرمق المستر بكوك بنظرة طويلة مربكة: «هل رأيت مركبة البريد الخاص باللورد يا بنتم؟».

وكان المستر بكوك في تلك اللحظة يفكر في أي الموضوعات يحسن اللورد الكلام ويجيد الحديث.

وأجاب حامل الوسام: «لا والله. مركبة للبريد، ما أبدع الفكرة! شيء رائع!».

وقال اللورد: «يا إله السموات! لقد كنت أظن أن كل إنسان قد رأى مركبة البريد الجديدة، إنها لأكثر ما رأيت أناقة، وأنها لأبدع وأجمل

شيء جرى على عجلات، ذات طلاء أحمر مخلوط بلون الزبد».

وقال السيد المحترم كرشتن: «وبها صندوق أحمر للبريد وكلها كاملة تمامًا».

وتبعه اللورد قائلًا: «ولها مقعد صغير في المقدمة ذو سياج حديدي للسائق، وقد سقتها بنفسي إلى برستول صباح أمس الأول، وأنا مرتد سترة حمراء، ومعي خادمان يركبان في مركبة أخرى على مبعدة ربع ميل مني، وقد خرج الناس من أكواخهم وشاهدوا مدى براعتي، حتى لقد ظنوا أنني ساعي البريد، شيء مفتخر، مفتخر!»[1].

وضحك اللورد لهذه الحكاية التي حكاها من صميم قلبه، كما ضحك لها السامعون طبعًا، وعندئذٍ وضع اللورد ذراعه تحت ذراع المستر كرشتن الخانع وانصرفا.

وقال رئيس التشريفات عقب انصرافهما: «اللورد الشاب لطيف جدًّا».

وقال المستر بكوك بفتور: «أظنه كذلك».

ولما بدأ الرقص، وبعد أن تعارف الحاضرون التعارُفَ الذي لا بد منه، وأُعِدَّتِ المعدات الأولية الضرورية، عاد السيد أنجلو بنتم إلى المستر بكوك فمشى به إلى قاعة اللعب، وفي تلك اللحظة بالذات التي دخلا القاعة فيها، كانت السيدة «اسنفنف» وسيدتين أخريين تلوحان

(١) جعل المؤلف هذا اللورد ألثغ مكثرًا من استعمال الراء يحيلها ملثغة «واوًا» ومضى بجعل الحديث كله هكذا، وهو ما لا سبيل إليه هنا.

قديمتين في لعب «الوست»، عريقتين في القمار، حائمات حول مائدة لا يشغلها أحد، فما كادت أعينهن تستقر على وجه المستر بكوك القادم في حراسة أنجلو بنتم، حتى تبادلن النظرات، فقد رأين أنه الشخص المطلوب بعينه لملاعبته.

وقالت السيدة اسنفنف مداعبة: «يا عزيزي بنتم، ابحث لنا عن شخص ظريف لنستكمل به هذه المنضدة، ها هو ذا إنسان لطيف».

وكان المستر بكوك بالمصادفة ينظر في تلك اللحظة إلى ناحية أخرى، فأومأت السيدة برأسها صوبه وعبست عبسة ذات تعبير بليغ.

وقال حامل الوسام عملًا بهذه الإشارة: «إن صديقي المستر بكوك يا مولاتي سيكون أسعد إنسان، بلا شك، رائع! يا مستر بكوك، هذه هي السيدة اسنفنف، ومسز كرنكل وجزبي ومس بولو».

وانحنى المستر بكوك لكل سيدة منهن، ووجد الفرار مستحيلًا، فامتثل ووزَّع اللعب، فكان المستر بكوك ومس بولو في ناحية، والسيدة اسنفنف ومسز كرنل وجزبي، في الأخرى.

وفيما كانت الورقة الرابحة يلوح بها في بداية الدور الثاني، دخلت القاعة سيدتان في مقتبل العمر مهرولتين، فاتخذت كل منهما موقفها عن أحد جانبي مسز كرنل وجزبي.

وقالت هذه السيدة ملتفتة إلى إحدى الشابتين: «والآن، يا جين ما الخبر؟».

وهمست جين وهي أملح الفتاتين وأصغرهما سنًّا، قائلة: «لقد

جئت لأسأل يا أماه هل أرقص مع المستر كرولي الأصغر؟».

وأجابتها أمها مغضبة: «يا للعجب يا جين! كيف يمكن أن تفكري في هذه الأشياء، ألم تسمعي مرارًا أن أباه لا يملك أكثر من ثمانمائة في السنة وأن هذا الإيراد سيموت بموته، إني منك لخجلى، كلا لا تراقصيه بأي حال من الأحوال».

وهمست الفتاة الأخرى، وكانت أكبر كثيرًا من أختها، ولكنها تبدو تافهة، متصنعة: «اسمعي يا أماه، لقد عرفوني باللورد مطنهد، فقلت إنني أظن أنني لست مخطوبة يا أماه».

وأجابت مسز كرنكل وجزبي قائلة وهي تلاعب خد ابنتها بمروحتها: «أنت بديعة يا حبيبتي يعتمد عليك في كل حين. إنه غني عريض الثراء يا عزيزتي. بارك الله فيك».

قالت هذه الكلمات ثم قبّلت ابنتها الكبرى قبلة حب شديد، وعبست عبسة وعيد في وجه الأخرى، وأكبت على أوراقها تتطلع فيها وترتبها.

ولم يكن المستر بكوك المسكين قد لاعب قبل الآن ثلاث مقامرات عريقات في الميسر مثل أولئك؛ فقد كن من الجرأة والحدة بحيث أشفق منهن وخاف خوفًا شديدًا، وإذا هو لعب لعبة مخطئة، أو ألقى بورقة سيئة، حدجته شريكته مس بولو بنظرة قاسية، وإذا هو تمهل ليفكر أي الأوراق التي في يديه أصلح للإلقاء بها، استندت السيدة اسنفنف إلى ظهر مقعدها، وابتسمت ابتسامة اختلط فيها القلق بالرثاء، في وجه مسز كرنل وجزبي فقابلتها هذه بهزة من كتفيها، وسعلة من سعالها، كأنما تريد

أن تقول لها إنها لفي عجب لا تدري متى يلعب، وجعلت مس بولو في نهاية كل دور تتساءل في عبسة كئيبة، وزفرة عتب، لماذا لم يعمد المستر بكوك إلى استرداد «الديناري»، أو إلقاء «الإسباني» أو «البستوني» أو حجز «القلب» إلى النهاية، أو متابعة اللعب إلى «كسب الشرف»[1]، أو لماذا لم يلق بالآس، أو يلعب «بالملك»، وما إلى ذلك ونحوه، فكان المستر بكوك في الرد على هذه التهم الخطيرة كلها، يرتبك ويعجز عن التشفع لنفسه، أو تبرير خطئه؛ لأنه من ارتباكه قد نسي كل شيء عن الميسر ولعبه. وجاء الناس، وأطلوا على اللعب أيضًا، فكان هذا سببًا آخر لارتباكه واضطراب أعصابه.

وكان الكلام الكثير الدائر بقرب المنضدة، بين أنجلو بنتم والآنستين متنترز اللتين جعلتا تُبديان لطفًا بالغًا لرئيس التشريفات على أمل أن يقدم إليهما شابًّا تائهًا من حين إلى آخر، لمحاولة اقتناصه؛ لأنهما عانسان لم يوفقا في ميادين الزواج، وكان هذا الكلام الكثير- فوق كل شيء- سببًا قويًّا في ربكة المستر بكوك وشرود باله، بل لقد اقترنت هذه الأسباب كلها بالضوضاء وأصوات الرائحين والغادين، ومقاطعاتهم، فجعلته لا يحسن اللعب، وتركت «الورق» يأتي معاكسًا له، وحين انفض اللعب بعد الحادية عشرة بعشر دقائق، نهضت مس بولو من مجلسها منفعلة انفعالًا شديدًا وانصرفت رأسًا إلى بيتها، وهي في فيض من الدموع والعبرات محمولة في محفة[2].

(١) كلها رميات وألعاب معروفة عند لاعبي الميسر.

(٢) كرسي خاص يجلس فيه Sedan chair العظماء ويحمله الخدم على الأكتاف.

وتوافى إليه أصحابه مجمعين على القول إنهم قضوا ليلة نادرة قلَّما استمتعوا من قبلُ بمثلها، فاصطحبهم إلى الفندق، ومضى يرفِّه عن نفسه بشراب ساخن، ثم أوى إلى فراشه، فما كاد يلقي رأسه فوق الوسادة، حتى ذهب في سبات عميق.

* * *

الفصل السادس والثلاثون

وسنرى أن أبرز معالمه صورة صادقة لأسطورة الأمير «بلادود» وحادث غير مألوف يقع للمستر ونكل

وكان المستر بكوك يفكر في إطالة المقام في باث شهرين على الأقل، ولهذا رأى من الخير أن يتخذ مسكنًا خاصًّا له ولأصحابه طيلة هذه الفترة، ولم تلبث أن سنحت له فرصة طيبة للظفر لقاء أجر معتدل بالجزء الأعلى من منزل في حي «الهلال الملكي» أرحب مما كانوا يطلبون، فعرض المستر داولر وزوجته أن يستأجرا منهم غرفة نوم، وحجرة جلوس فقبلوا الاقتراح في الحال، ولم تنقض ثلاثة أيام حتى استقروا جميعًا في مسكنهم الجديد، وبدأ المستر بكوك يشرب المياه المعدنية، عاكفًا عليها أشد العكوف، فقد أخذ يتناولها بنظام معين، فيتناول ربع فنتا[1] قبل الفطور، ثم يذهب صاعدًا الجبل، ثم يعود فيتناول ربعًا آخر بعد الفطور، ثم ينزل من الجبل، وهو عقب كل شربة جديدة يعلن في أشد عبارات

(١) ١/٨ جالون **Pint**.

الجد والتوكيد أنه يشعر بتحسن بالغ، فكان أصحابه يبتهجون بسماع ذلك منه كل الابتهاج، وإن لم يعلموا من قبل شيئًا عن مرضه، أو رأوا عليه أثر أي اعتلال.

وكانت القاعة الكبرى في مبنى الحمامات بهوًا فسيحًا، مزدانًا بأعمدة «كورنثية»[1] ومكان مخصص للموسيقى، وفيها ساعة جدار من النوع المعروف «بالتومبيون»، وتمثال «لناش»[2] ونقوش ذهبية يتعين على جميع «الشاربين»[3] الالتفات إليها؛ لأنها تتوسل إليهم أن يتبرعوا لعمل خيري يستحق البر والإحسان، وفي القاعة مكان شراب رحيب عليه آنية من المرمر يخرج الماء منه منبجسًا لطلابه، وقد صفت من فوقه أكواب صُفر يتناولونها فيها، وإنه لمشهد يرتاح إليه الخاطر كل الارتياح، أن ترى المثابرة والجد اللذين يبتلعون الماء بهما، وهناك حمامات على مقربة، حيث يستحم منهم فريق، وفرقة موسيقى تعزف الأنغام بعد الاستحمام، مهنِّئة إياهم بنعمة الحمام والشفاء، وثم حمام آخر تُساق إليه القواعد من النساء والعجائز والشيوخ ذوو العاهات في أنواع وأشكال مدهشة من المقاعد والمحفَّات ذات العجلات، حتى ليتعرض كل إنسان جريء أوتي قدمين سليمتين مستكملتي الأصابع لخطر فقدانها والخروج من المكان بغيرها، وثم حمام ثالث، يذهب إليه الذين اعتادوا الهدوء؛ لأنه أقل جلبة من الحمامين السابقين، ويكثر في هذا الموضع التمشي والفسحة والرياضة، بالعكازات أو بدونها، أو

(١) أي من طراز البناء عند الإغريق، وقد اشتهرت كورنثا القديمة بهذه الأعمدة.
(٢) من الأدباء الإنجليز المعاصرين لشكسبير.
(٣) شاربي المياه المعدنية.

على العصي ومن غيرها، كما يكثر فيه الحديث، والفكاهة والمرح.

ويجتمع في كل صباح الشاربون بانتظام- ومن بينهم المستر بكوك- في تلك القاعة، فيتناولون قسطهم المألوف من الماء- ربع الفنت كما علمت- ويتمشون المشية الرياضية المعتادة، وفي مشية الأصيل يتلاقى هناك اللورد مطنهد، والسيد المحترم المستر كرشتن والسيدة اسنفنف، ومسز كرنل وجزبي، وكل العلية والأكابر، وجميع الشرب في الصباح، في حشد حاشد، وينطلقون بعد ذلك مشاة، أو في المركبات أو مسوقين فوق مقاعد الحمامات، فيتلاقون مرة أخرى، ثم ينصرف السادات إلى قاعات المطالعة، ويلتقون بمختلف أنماط الناس وأصنافهم، وبعدئذٍ ينقلبون إلى بيوتهم، فإن كان في الليل تمثيل فقد يتلاقون في دار التمثيل، وإن كان فيه اجتماع اختلفوا إلى القاعات، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، اجتمعوا غداة اليوم التالي، وهو نظام رتيب لطيف بهيج، وإن لم يخلُ من بعض التشابُه، وصبغة من التماثل المتكرر.

وكان المستر بكوك جالسًا وحده، عقب نهار قضاه على هذا النحو، فيكتب يومياته في مفكرته، وكان أصحابه قد آووا إلى مضاجعهم، وإذا هو ينتبه على دق رفيق بباب غرفته.

وجاءت مسز «كرادوك» ربة البيت تطل منه قائلة: «أرجو المعذرة يا سيدي، ولكن هل طلبت شيئًا آخر يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «لا شيء آخر يا سيدتي».

وقالت مسز كرادوك إن ابنتي الصغيرة قد ذهبت إلى فراشها

يا سيدي، وقد تكرَّم المستر داولر فقال: «إنه سيظل ساهرًا حتى تعود مسز داولر؛ لأن الحفلة لا ينتظر أن تنتهي إلا في موهن من الليل، ولهذا فكرت في سؤالك هل تريد شيئًا، قبل أن آوي إلى الفراش».

وأجاب المستر بكوك: «لا بأس يا سيدتي، اذهبي إليه».

وقالت مسز كرادوك: «طاب ليلك يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك: «طاب ليلك يا سيدتي».

وأغلقت مسز كرادوك الباب، وواصل المستر بكوك تدوين يومياته.

ولم ينقضِ نصف ساعة حتى فرغ منها، فجفف الصفحة الأخيرة في عناية بالنشاف، وطوى الكراسة، ومسح قلمه بذيل سترته من الداخل، وفتح الدرج الذي توضع الدواة فيه؛ ليردها في تأنٍّ إليه، وإنه لكذلك إذ أخذت عينَه ورقتان مكتوبتان، بحروف دقيقة، في جوف ذلك الدرج، وهما مطويتان طية تجعل العنوان ظاهرًا لرائيه، وهو مكتوب بأحرف كبيرة، وبدا له منه أن المكتوب ليس بوثيقة خاصة، بل تتعلق بمدينة باث الحمامات، وليست طويلة، فلم يسعه إلا أن نشرها من مطواها، وأضاء شمعة مخدعه حتى ترسل ضياءً ساطعًا قبل أن يفرغ من قراءة هاتين الصفحتين، وقرب مقعده من النار وراح يقرأ ما يلي:

أسطورة الأمير بلادود الحقيقية

منذ نحو مائتي عام أو أقل، ظهر على حمام من الحمامات العامة، في هذه المدينة، نقش لتخليد ذكرى مؤسسها العظيم، الأمير بلادود الذائع الصيت، ولكن هذا النقش قد محي الآن وطمست معالمه.

وكانت ثمة أسطورة قديمة تُروى قبل ذلك العهد بعدة مئات من السنين، ويتناقلُها الخلف عن السلف، جيلًا بعد جيل، وقد ورد فيها أن ذلك الأمير المجيد كان مصابًا بالبرص، حين عاد من تلقِّي ذخائر العلم، وجني حصاد المعارف، في أثينا، فرأى أن يتحاشى المقام في قصر الملك أبيه، فعكف في معزل على العيش مع الفلاحين وتربية الخنازير.

وكان من بين قطيعها- كما تقول الأسطورة- حلوف يبدو على سحنته الجد والوقار، فلم يلبث الأمير أن سكن إليه، وهو مثله الرزين الحكيم، وكان ذلك الحلوف المفكر المتزن، أسمى من أبناء جلدته، وأرهب منها شهيقًا وزحرًا، وأحدَّ منها في العض أسنانًا وأنيابًا وكشرًا، فلا عجب إذا راح الأمير الشاب يزفر من أعماق صدره كلما ألقى نظرة إلى وجه ذلك الحلوف الجليل المهيب؛ لأنه كان يذكره بجلالة والده، فلا تلبث عيناه أن تغرورقا بالعَبَرات.

وكان ذلك الحلوف الحكيم مولعًا بالاستحمام في وحل ندي غزير، لا في الصيف كما تفعل الخنازير العادية الآن للابتراد، وكما فعلت في تلك القرون الماضية، وهو دليل على أن ضياء الحضارة قد بدأ يطلع فجره، وإن كان لا يزال ضعيفًا، بل في أيام الشتاء القارس وزمهريره، حتى لقد راحت فروته تبدو أبدًا ملساء وملامحه صافية، فصحت نية الأمير على تجربة مزايا ذلك الماء الذي كان صديقه يعمد إلى الاستحمام فيه، واختبار مدى ما فيه من تنقية وتطهير، وفعلًا جربه، فإذا هو يرى من تحت ذلك الوحل، عين ماء ساخن في باث ينبجس له، ويتدفق عليه، فاغتسل فيه وزال البرص عنه، فبادر إلى قصر الملك، فأدى لأبيه أكبر

الاحترام، وأصدق التحيَّات، ثم عاد مسرعًا إلى ذلك المكان، فأسس هذه المدينة وحماماتها المشهورة.

ومضى يبحث عن ذلك الحلوف بكل لهفة المودة القديمة التي توثقت بينهما، ولكن وا أسفاه! لقد كانت في تلك المياه منيَّته؛ فقد راح بطيشه وقلة بصيرته يستحم حمامًا شديد الحرارة إلى حد كبير، فلم يصبر عليها، ولم يطقها، وذهب ذلك الفيلسوف الطبيعي من الوجود، وجاء من بعده «بليني»، وهو أيضًا قد ذهب ضحية ظمئه للعلم، وعطشه للمعرفة.

تلك هي الأسطورة، فاسمع القصة الحقيقية..

كان في بريطانيا من قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، ملك عظيم، سارت بذكره الركبان، وكان يُدعى لد هوديبراس مهيبًا عند الناس، ترتج الأرض إذا مشى فوق أديمها؛ لضخامته، وكان شعبه يستظل بنور وجهه، لشدة بريقه وحمرته، وفي الحق لقد كان ملء ثوبه، وبكل شبر فيه، ملكًا، على كثرة ما فيه من أشبار؛ لأنه وإن لم يكن مفرطًا في الطول، كان مفرطًا في العرض، والأشبار التي نقصت من طوله، استعاضها بوفرة محيطه، ولو جاز لنا أن نقارن بينه وبين أحد من الملوك المحدَثين، لقلنا: إن شبهه يصح أن يكون الملك «كول» المبجل.

وكان لذلك الملك زوجة، جاءته منذ ثمانية عشر عامًا، بولد سمي بلادود، وأرسل إلى مدرسة ابتدائية لتلقي مبادئ العلوم، في أراضي أبيه، حتى إذا بلغ العاشرة، أرُسل في رعاية رسول أمين إلى أثينا لاستكمال

دراسته، ولم تكن المدرسة تتقاضى أجرًا إضافيًّا لقاء بقاء الطالب خلال الإجازة السنوية، ولا هو مطلوب منه تقديم إنذار قبل انتقاله منها، فلبث في المدينة ثمانية أعوام، وأوفد الملك عقب انتهائها كبير أمنائه إليه لدفع الحساب والعودة به إلى أرض الوطن، ولكن لم يكد كبير الأمناء يفعل، حتى استقبل بالصياح وأحيل من فوره إلى المعاش.

ولما رأى الملك ابنه الأمير ووجده قد أصبح فتًى جميلًا، لم يلبث أن حسَّن لديه البدار إلى تزويجه حتى ينجب ذرية تخلد مجده الباذخ، عبر الأجيال، كابرًا عن كابر، فبعث لهذا الغرض وفدًا خاصًّا مؤلَّفًا من كبار الأشراف الذين ليس لهم عمل معين يؤدونه، ويريدون مناصب تدرُّ الأموال عليهم، إلى ملك من جيرانه القريبين، يطلب يد ابنته الحسناء لابنه، وقال في الوقت ذاته: إنه يَوَدُّ أن يظل على أتم الوفاق والوئام، مع أخيه وصديقه، ولكن إذا لم يتسنَّ الاتفاق على تدبير هذا الزواج، فسوف يضطر كارهًا إلى غزو مملكته، وفقء عينيه، وكان الملك الآخر دونه قوة وبأسًا، فرد قائلًا: إنه شاكر لأخيه وصديقه كل الشكر كرمه وعظيم فضله، وأن ابنته على استعداد تام للزواج حين يود الأمير بلادود أن يأتي ليأخذها.

وما إن وصل هذا الرد إلى بريطانيا حتى استولى الفرح على الأمة كلها، فلم يعد يُسمع في مختلف أرجائها غير جلبة العيد، وأصوات القصف، وضوضاء الأفراح، اللهم إلا صوت المال الذي يدفعه الشعب إلى الجُباة الذين يجمعونه؛ ليملأوا به خزائن الملك، حتى ينفق في مطالب هذا الحدث السعيد.

وكان الملك في الاحتفال بهذه المناسبة قد استوى على عرشه، وجمع الأشراف والنصحاء والأمراء من حوله، ولم يلبث من فرط الفرح، وحماسة الشعور، أن نهض من فوق أريكته، فأمر كبير القضاة في مملكته أن يدعو السقاة إلى السعي بأعتق الخمور، ويأمر بحضور شعراء البلاط وهو فضل عظيم نسب من جهل المؤرخين القدامى إلى الملك «كول»، في تلك الأبيات المشهورة التي صور فيها جلالته «طالبًا مزماره، وإناء خمره وعزفته الثلاثة»، وهو ظلم ظاهر لذكرى الملك «لد»، وإشادة كاذبة بفضل الملك كول بين الملوك الصِّيد النابهين.

ولكن في بهرة ذلك المهرجان، ووسط هذه الأفراح البهيجة الحسان، كان شخص واحد بين الحاضرين، لم يذُق طعم الشراب، حين أديرت به الأكواب، تسطع فيها الصهباء ويشرق الحباب، ولم يرقص، حين تعالى عزف العازفين، ولم يكن ذلك الذي عزف عن الشراب، ولم ينهض للرقص أحد سوى الأمير «بلادود» ذاته، الذي كان الشعب بأسره، في تلك اللحظة، في سبيل تكريم قرانه، والاحتفال بزواجه، يجهد بالهتاف حناجره، كما يستنفد كل ما في جيوبه من مال! والواقع أن الأمير كان قد نسي حق وزير الشؤون الخارجية الذي لا نزاع فيه، في حب من يشاء بالنيابة عنه، فانثنى هو خلافًا لكل سابقة في السياسة والدبلوماسية يقع في الحب كما يشاء، ويقيم علاقة خفية بينه وبين حسناء، بنت نبيل في أثينا.

وهنا يتجلى لنا مثل رائع على عديد مزايا الحضارة وأفضال العصر الحديث، فلو أن الأمير كان يعيش في أحد هذه العصور المحدثة، لجاز

له في الحال أن يقترن بمن اختارها له والده، وانطلق يعمل بجد على التخلص من هذا العبء الثقيل على كاهله، وكان في وسعه أن يحطم فؤادها بالدأب على إهانتها وإهمالها، أو إذا حملتها «نفسية» جنسها، وشعورها بما وقع عليها من مظالم على الاصطبار لقسوته، ومقاومة سوء معاملته؛ كان من الجائز أن يستعين بأية وسيلة على خطف حياتها؛ ليتخلص منها، ولكن شيئًا من هذا لم يتراءَ للأمير بلادود، فلم يجد بدًّا من التماس خلوة خاصة بأبيه، وفي الخلوة كاشفه بخافية أمره.

ومن حق الملوك من أقدم الأزمنة أن يسيطروا على كل شيء، إلا عواطفهم، فلا غرو إذا انثنى الملك لد حين سمع مقالة الأمير، وعلم بقصته، أن استشاط غيظًا، وطوح بتاجه إلى السقف ثم تلقاه باليدين؛ فقد كان الملوك في تلك الأيام يحفظون تيجانهم فوق هاماتهم، لا في البرج، وراح يضرب الأرض بقدميه، ويدق بكفه جبينه، ويعجب كيف سولت لابنه الذي من لحمه ودمه نفسه أن يتمرد عليه، وفي النهاية دعا حراسه إليه، فأمرهم باستياق الأمير في الحال إلى السجن في برج شاهق، وهي خطة كان ملوك ذلك الزمان عامة ينتهجونها إزاء أبنائهم حين يتبين لهم أن ميولهم الزوجية لا تتفق ورغبتهم الخاصة، وتتنافى ومشيئتهم واختيارهم.

ولما مضى على الأمير بلادود في البرج الشاهق الذي ألقي في غيابته، أكبر شطر من العام، لا ترى فيه عيناه غير جدار من الحجر، ولا يخالج خاطره سوى طول المقام في المحبس، بدأ بطبيعة الحال يفكر في وسيلة للهرب، وظل أشهرًا يعد العدة للفرار من سجنه، حتى تهيأت

له السبيل، دون أن ينسى تغييب سكين مائدته في قلب سجانه مخافة أن يظن أن المسكين- فقد كان رب عشيرة- كان عليمًا بأمر فراره، فيتعرض لعقاب الملك الغاضب المحنق ويستهدف لنقمته.

وهاج الملك وثار حين انتهى إلى سمعه نبأ فرار ابنه، فلم يدر على أي رأس يصب جام غضبه حتى خطر بباله لحسن الحظ كبير أمنائه الذي أعاد ابنه إلى وطنه، فقطع معاشه ورأسه معًا.

أما الأمير فقد أحسن التنكر وأتقنه، وهام على وجهه في أراضي أبيه، تواسيه محنه وخطوبه تفكيره في الحسناء الأثينية؛ فقد كانت الفتاة المليحة وهي لا تدري سبب بلائه وعلة مصابه، ووقف بذات يوم بقرية ليريح، فرأى جلبة رقص مقامة على العشب النضير، وشهد وجوهًا مرحة تروح وتغدو على عينيه، فتشجع وسأل إنسانًا كان واقفًا عن كثب منه، عن سبب هذا المهرجان.

فكان جواب الرجل: «ألا تعرف السبب أيها الغريب، ولا تعلم نبأ المنشور الذي أعلنه ملكنا العظيم؟».

وأجاب الأمير قائلًا: «المنشور! كلا، أي منشور؟».

ولا عجب في هذا التساؤل، فقد كان الأمير يتنقل في الطرق الصغيرة المهجورة التي قلما تطرقها الأقدام، فلم يعرف شيئًا عما يجري في المدائن والبلدان.

وقال القروي: «إن الغادة الأجنبية التي كان الأمير يرغب في الاقتران بها قد تزوجت بشريف من أشراف بلادها، وقد أصدر الملك هذا المنشور معلنًا النبأ فيه، وداعيًا خلاله إلى إقامة مهرجان عام؛ لأن الأمير

بلادود، سيعود بطبيعة الحال، ويقترن بالغادة التي اختارها له أبوه، والتي يقال إنها في مثل جمال الشمس في رابعة النهار، فلنشرب في صحتك يا سيدي، حفظ الله الملك!».

ولكن الأمير انطلق في سبيله ولم يعقب، موغلًا في أكثف الأدغال الألفاف في جوف غابة شاسعة، وظل هائمًا على وجهه ليل نهار، تحت الشمس المحرِقة، وظلال القمر البارد الشاحب، وخلال حر الهجير، وهواء الليل الرطب البارد، وفي مطلع ضياء النهار، وحمرة شفق المساء، غير حافل بالزمن، ولا عابئ بالأشياء، ولا مقصد له سوى بلوغ أثينا، ولكنه كان قد أوغل في جوبه، وأمعن في تجواله، حتى أَلَمَّ على الموضع الذي تقع فيه باث.

ولم تكن ثمة مدينة، ولا أثر لسكان، ولا علامة على بشَر، وإنما كانت هنالك الأرض الطيبة ذاتها، والرُّبَى المترامية، والوديان الفساح، والمضيق الجميل يتسلل من بعيد، ويرى من مكان ناء، يحجب بعضه غمام الصبح، ويخفيه بياضه، يزيل خشونة الأرض، ويخفف من وعورة جبالها، فلا يغمرها إلا الدعة، ولا يضفو عليها إلا النعومة والجمال، وتأثر الأمير بحسن هذا المشهد وبهائه، فتهالك على العشب النضير، ومضى يغرق قدميه المتورمتين من طول المسير في فيض دموعه.

وقال الأمير وهو مشتبك اليدين، متطلع بعينيه في أسى إلى السماء: «رباه، هلا جعلت ختام مطافي في هذا الموضع، وهلا جعلت هذه الدموع الشاكرة التي أبكي بها على أمل ضائع، وحب ممتهن، تفيض إلى الأبد، في سلام!».

واستجيب دعاؤه، وكان ذلك في عصور الكفر حين كانت الأرباب تأخذ الناس أحيانًا بكلامهم، في سرعة تبدو في بعض الأوقات غريبة مستغلقة على الأذهان، وانشقت الأرض من تحت قدمي الأمير فهبط في الأخدود، وأطبق عليه لساعته، ولم يترك إلا عبراته السخينة تنبثق من جوف الأرض، ولا تزال تنبجس من ذلك الحين.

وممَّا يلاحَظُ إلى يومنا هذا أن فريقًا كبيرًا من السيدات والسادة المتقدمين في الأعمار الذين خابت آمالهم في الظَّفَر بالشركاء، ومثلهم أو نحوهم من الشباب المتلهفين على الفوز بهم، يتوافدون كل عام إلى باث؛ لينهلوا من مياهها، ويستمدون القوة والراحة من شربها، وهو ما يزيد كثيرًا في فضل الأمير بلادود ودموعه، ويؤيد بقوة صحة هذه الأسطورة.

وقد تثاءب المستر بكوك عدة مرات، حين بلغ نهاية هذا المخطوط الصغير، فطواه بعناية ورده إلى مكانه من الدرج المخصص للدواة، وانثنى والتعب البالغ بادٍ على وجهه يضيء شمعة نومه، ويصعد السلم إلى فراشه.

ووقف بباب المستر داولر كعادته ودقه ليقول له: طاب ليلك.

وقال المستر داولر: «آه، أذاهب إلى النوم؟ ليتني مثلك، ليلة كئيبة، إن الرياح شديدة، أليست كذلك؟».

وأجاب المستر بكوك: «جدًّا، طاب ليلك».

- «طاب ليلك».

وأوى المستر بكوك إلى الفراش، وعاد المستر داولر إلى مجلسه قبالة النار؛ إنجازًا لوعد تسرَّع فيه، وهو أن يظل ساهرًا حتى تعود زوجته.

وقلَّما يوجد في الحياة على تعدُّد متاعبها وهمومها، شيء أسأم للنفس من السهر في انتظار أحد من الناس، وخاصة إذا كان هذا الإنسان المنتظر سهران في إحدى الحفلات؛ لأنك لا تستطيع عندئذٍ أن تمنع خاطرك من تخيُّل سرعة انقضاء الوقت في تقدير المدعوين، وشدة بطئه وتراخيه في نظرك أنت وتصورك، وكلما أطلت التفكير في هذا الأمر، أخذ أملك من سرعة عودتهم يفتُر ويضعف، وتبدو لك دقات الساعات المعلقة فوق الجدران عالية شديدة الطنين، وأنت جالس وحدك، حتى ليخيل إليك أنك في جوف شبكة من نسج العناكب، فتحس أولًا شيئًا يخزك في ركبتك اليمنى، ثم تحس هذا الوخز ذاته في اليسرى، ولا تكاد تغير مجلسك، أو وضعك، حتى يعاودك في ذراعيك، فإذا ما تململت ومددت أوصالك في مختلف الأشكال والأوضاع، شعرت بذلك الوخز يعود فجأة فيظهر في أنفك، فتفركه فركًا، كأنما تريد أن تمحوَه محوًا، وهو أمر لو استطعته لفعلته، وكذلك العينان، لا تلبثان أن تنقلبا مصدرًا للتعب، فتتراءى لك ذبالة الشمعة أطول من حقيقتها في اللحظة التي ترفع فيها ذبالة الأخرى، وهكذا تجعل هذه المضايقات الصغيرة وأمثالها السهر طويلًا في انتظار أحد- بعد أن أوى الناس إلى مراقدهم- شيئًا لا يمت إلى الرضا والراحة بسبب.

وكذلك كان شعور المستر داولر وتفكيره، وهو جالس قبالة النار، وأحس غضبًا صادقًا من أولئك السُّمَّار القساة القلوب الذين أطالوا

المُكث في الحفل وتركوه على هذا النحو يقظان متضجِّرًا، ولم يُعِدْهُ إلى هدوء خاطره التفكير في أنه هو الذي أبى في بداية المساء إلا أن يتصور أنه مصاب بالصداع فتخلف لذلك في البيت، وأخيرًا بعد كثرة تهويم وإغفاء وانتباه فجائيٍّ منه، على الاصطدام بسياج الموقدة، والتطويح برأسه إلى الخلف؛ مخافة أن يكوى بالنار على وجهه، بدا له أن يتمدَّد فوق الفراش في الغرفة الخلفية ليفكر، لا لينام بالطبع.

وقال المستر داولر لنفسه، وهو يتهالك على الفراش: «إن نومي ثقيل، فلأبق يقظان، وأظن أنني سأسمع الدق من هنا، نعم، هذا صحيح، هأنذا أسمع الحارس، إنه اللحظة يتمشى، والصوت مع ذلك يضعف، إنه الآن أضعف قليلًا، هو اللحظة ينعطف عند الناصية، آه!».

وما كاد المستر داولر يصل إلى هذا الحد حتى انعطف هو عند الناصية التي طال لديها تردده، فهبط في سبات عميق.

وما إن دقت الساعة مؤذِنَةً الثالثة حتى اندفع في ذلك الشارع مع الريح هودج تجلس مسز داولر في جوفه، ويتعاون على حمله حمَّال قصير بدين وآخر طويل نحيل، وقد تعبا كثيرًا في توازن جسديهما ومد صُلبيهما، فضلًا عن الهودج ذاته واستقامة حركته، ولكن في تلك الأرض العالية، وفي شارع الكرسنت بالذات، ذهبت الريح تلف وتدور، كأنما تهم بأن تقتلع أحجار إفريزه، وهي غاضبة ثائرة، فلا عجب إذا شعر الحمَّالان بسرور شديد حين أنزلا الهودج فاستقر فوق الأرض، وانثنيا يدقان باب الشارع دقًّا شديدًا مزدوجًا.

وانتظرا قليلًا فلم يستجب أحد.

وقال الحمَّال قصير القامة مدفئًا يديه على لهيب الشعلة التي يحملها غلام في المقدمة: «يظهر أن الخدم الساعة بين ذراعي بوربس».

وقال الآخر الطويل: «ليته يضمهما ضمة شديدة فيوقظهما».

وصاحت بهما مسز داولر من الهودج: «دقا الباب ثانية، من فضلكما، واجعلا الدق مثنى وثلاثًا».

وكان الحمَّال القصير يوَد أن ينتهي من هذا العمل بكل سرعة ممكنة، فوقف على العتبة، ودق الباب أربع دقات مزدوجة أو خمس، كل واحدة منها تعدل ثماني طرقات أو عشرًا، بينما مشى الحمَّال الطويل إلى الطريق وتطلَّع إلى النوافذ لعله يرى نورًا من خلالها.

ولكن لم يأتِ أحد، وظل السكون سائدًا، والظلام غامرًا.

وقالت مسز داولر: «يا إلهي! يجب أن تدقا مرة أخرى من فضلكما».

وقال القصير: «ليس للباب جرس. أله جرس يا سيدتي؟».

وقال حامل الشعلة: «أي نعم، وقد لبثت إلى اللحظة أدقه، دون فائدة».

وقالت مسز داولر: «إنه ليس إلا زرًّا، فإن الأسلاك مقطوعة».

وزمجر الحمَّال الطويل قائلًا: «ليت رؤوس الخدم تقطع كذلك».

وقالت مسز داولر بمنتهى الأدب: «لا يسعني إلا إتعابكما».

وعمد القصير إلى دق الباب عدة دقات أخر، ولكن دون جدوى مطلقًا، وجاء الطويل وهو نافد الصبر فتولى عن زميله طرق الباب

ثانية، كل دقة منه تشمل طرقتين شديدتين قاصفتين، كدق ساعي البريد مذهوب اللُّب.

وأخيرًا بدأ المستر ونكل يحلم أنه في أحد الأندية وأن الأعضاء في هرج ومرج، مما اضطر الرئيس إلى دق المنصة عدة مرات لحفظ النظام، ولكنه عاد ينتقل إلى حلم آخر غير واضح المعالم، فرأى في المنام أنه في قاعة مزاد علني، وليس فيها مزايدون، وأن «الدلَّال» هو الذي مضى يشتري كل شيء فيه.

ولكن المستر ونكل في النهاية بدأ يظن أنه من المحتمل أن أحدًا من الناس يدق باب الشارع، ولكنه ظل هادئًا في فراشه؛ لكي يستوثق تمامًا، ولبث عشر دقائق أو نحوها مصغيًا، وبعد أن عد اثنتين أو ثلاثًا وثلاثين دقة، اقتنع كل الاقتناع، ونسب إلى نفسه فضلًا كبيرًا في أنه المتنبه اليقظان!

وتوالت الدقات شدادًا آخذة بعضها برقاب بعض!

وعندئذٍ وثب المستر ونكل من فراشه، في عجب شديد، لا يدري ماذا جرى، ولا يعرف ما الخطب، وبادر إلى جوربه، ونعله فلبسهما، وطوى حواشي جلبابه من حوله، وأشعل شمعة من اللهيب المنبعث من الموقدة، وهبط السلم مهرولًا.

وقال الحمَّال القصير: «ها هو ذا واحد ينزل السلم أخيرًا يا سيدتي».

وزمجر الحمَّال الطويل قائلًا: «أتمنى لو أني من خلفه بمثقب».

وصاح المستر ونكل وهو يفك السلسلة: «من الطارق؟».

وأجاب الحمَّال الطويل بتأفف شديد، معتقدًا أن القادم أحد الخدم: «لا تقف لتلقي أسئلة يا ذا الرأس المصنوع من الحديد الزهر، ولكن افتح الباب».

وأضاف الآخر قائلًا: «هيا، افتح عينيك يا ذا الأجفان المصنوعة من الخشب».

وكان النوم لا يزال يغالب المستر ونكل، فامتثل للأمر اعتباطًا، وفتح الباب قليلًا وأَطَلَّ منه، فكان أول شيء أخذ عينيه لهيب الشعلة وضياؤها الأحمر، فاستولى عليه الخوف فجأة من أن يكون قد شبَّ حريق في البيت، فبادر إلى فتح الباب على مصراعيه، ورفع الشمعة فوق رأسه، وأطلق بصره في لهفة ليرى ما الخطب، وهو غير واثق أن ما رآه هو هودج أو آلة مطافئ! وفي تلك اللحظة هبَّت الريح هبة عنيفة فانطفأ النور، ووجد المستر ونكل نفسه مضطرًّا إلى الوقوف في مكانه فوق العتبة لا يملك من الأمر شيئًا، واندفع الباب من شدة الريح، فأحدث صوتًا قاصفًا من خلفه.

وقال الحمَّال القصير: «عملتها أيها الفتى الصغير، أهكذا عملتها؟».

ولمح المستر ونكل عندئذٍ وجه سيدة في شرفة الهودج، فأسرع ليستدير إلى الباب، وأخذ يعالج الأكرة بكل قواه، ويصيح بالحمَّال وهو مروع الخاطر أن يأخذ الهودج ويعود به من حيث أتى.

ومضى يصرخ قائلًا: «انصرف به، انصرف به، إن هناك إنسانًا يخرج

اللحظة من بيت آخر، خذني في الهودج، خبئني، افعل شيئًا في سبيل إنقاذي».

وكان يرعش من البرد، وكلما رفع يده ليمسك بالأكرة، هبت الريح على جلبابه، فتناولته بشكل مؤلم يستطير اللب منه، فذهب يصيح قائلًا: «إن الناس قادمون من ناحية الشارع في هذه اللحظة، ومعهم سيدات، فغطني بشيء، أو قف أمامي لتحجبني!».

ولكنَّ الحمَّالين كانا من شدة إغراقهما في الضحك لا يقويان على تقديم أقل معونة إليه، بينما كانت السيدات بين لحظة وأخرى مقتربات منه شيئًا فشيئًا.

وهنا دق المستر ونكل الباب الدقة الأخيرة يائسًا، ولم يكن بينه وبين السيدات القادمات غير بضعة أبواب، فألقى بالشمعة بعيدًا، وكان قد لبث كل ذلك الوقت ممسكًا بها فوق رأسه، واندفع نحو الهودج حيث كانت مسز داولر جالسة، فدخل فيه.

وفي تلك اللحظة كانت مسز كرادوك قد سمعت دق الباب، وجلبة تلك الأصوات، فلم تنتظر إلا ريثما تضع شيئًا على رأسها أفضل مظهرًا من طاقية نومها ثم جرت إلى قاعة الجلوس التي فوق الباب لتستوثق من أمر الطارق وشخصيته، ففتحت النافذة، في اللحظة ذاتها التي كان المستر ونكل فيها مندفعًا نحو الهودج، فما إن لمحت هذا المشهد البادي لعينيها تحت الشرفة، حتى أطلقت صرخة مدوية مزعجة، وهي تتوسل إلى المستر داولر أن ينهض في الحال من نومه؛ لأن زوجته هاربة

مع سيد سواه.

فلم يكد المستر داولر يسمع هذا القول حتى قفز من الفراش كالكرة المصنوعة من المطاط، واندفع إلى الغرفة الأمامية، ووصل إلى إحدى نوافذها، في اللحظة عينها التي وصل فيها المستر بكوك إلى نافذة أخرى، فكان أول من وقع بصرهما عليه المستر ونكل وهو يندفع إلى جوف الهودج.

وصرخ المستر داولر في حنق شديد: «أيها الحارس، أوقفه، أمسك به، شدد القبض عليه، احبسه، حتى أنزل. سأقطع رقبته، أعطوني سكينًا، أجزر رقبته من الأذن إلى الأذن، يا مستر كرادوك إني لفاعل». وانتزع نفسه من يد ربة البيت الصارخة المولولة، وتخلص من يد المستر بكوك، وتناول الزوج الغاضب الهائج سكينًا صغيرًا من أدوات الموائد واندفع إلى الشارع.

ولكن المستر ونكل لم ينتظره، فلم يكد يسمع ذلك الوعيد الرهيب من صرخات المستر داولر حتى قفز من الهودج بالسرعة ذاتها التي وثب بها إلى جوفه وألقى بنعله في الطريق، وأطلق للريح ساقيه، وعدا في الشارع لا يلوي على شيء، بينما مضى داولر والحارس في أثره، ولكنه ظل متقدِّمًا عنهما، وكان قد لف حول الناصية، ثم حاد، فوجد الباب مفتوحًا، فدخل البيت مسرعًا، وأغلق الباب بعنف في وجه داولر، وصعد إلى غرفة نومه، فأغلق الباب بالقفل، وأقام متاريس خلفه، من حوض الغسيل، وصوان الثياب والمنضدة، كما جمع بضعة أشياء ضرورية؛ استعدادًا للفرار من أول خيوط النهار.

وصعد داولر السلم ووقف خارج الباب، يقسم من خلال ثقوبه أنه لقاطع رقبة المستر ونكل في اليوم التالي، وبعد هرج وجلبة وأصوات مختلطة في قاعة الجلوس، كان صوت المستر بكوك مسموعًا خلالها وهو يحاول تهدئة الموقف وإعادة السكينة، تفرق القوم منصرفين إلى مخادعهم، وعاد السكون يسود البيت كما كان.

ورب سائل سيقول: «وأين كان المستر ويلر كل هذا الوقت؟» وجوابًا عن هذا السؤال نقول: إننا سنبين ذلك في الفصل القادم.

* * *

الفصل السابع والثلاثون

بيان أمين عن غياب المستر ويلر، ووصف حفلة مسائية دُعِي ويلر إليها فلبى الدعوة، وكيف عهد إليه المستر بكوك أيضًا بمهمة خاصة دقيقة وخطيرة

وقالت مسز كرادوك في صباح هذا اليوم الحافل بالأحداث: «يا مستر ويلر، هنا خطاب لك».

وقال سام: «شيء غريب جدًّا، أخشى أن يكون في الأمر شيء؛ لأنني لا أتذكر أن في دائرة معارفي أحدًا يقدر على كتابة خطاب».

وقالت مسز كرادوك: «ربما حدث شيء غير مألوف».

وأجاب سام وهو يهز رأسه متشككًا: «لا بد من أن يكون شيئًا غير مألوف فعلًا، حمل صديقًا من أصدقائي على أن يكتب لي خطابًا، ولا يمكن أن يكون أقل من تشنج طبيعي، كما قال الشاب حين استولت عليه نوبة من النوبات» ونظر إلى العنوان ومضى يقول: «ولا يمكن أن يكون من المعلم[1]؛ لأنه يكتبه بحروف الطباعة عادة كما أعرف، فقد تعلم

(١) يعني والده.

الكتابة من الإعلانات الضخمة التي تعلق بجانب شباك التذاكر.. حقًّا إنه لشيء عجيب، لا أدري من أين جاء هذا الخطاب».

وراح سام يفعل ما يفعله خلق كثير من الناس حين يشكُّون فيمن عسى أن يكون الكاتب، وهو أن ينظروا إلى الختم، ثم إلى وجه الخطاب وظهره وجانبيه، وإلى الكلام المكتوب في رأسه، وأخيرًا يظنون أن لا بأس أيضًا من النظر إلى داخله، محاولين أن يكتشفوا منه شيئًا.

وقال سام وهو ينشر الخطاب: «إنه مكتوب على ورق مذهب الحواشي،ومختوم بخاتم برونزي ذي رأس كمفتاح باب، والآن فلنقرأ ما فيه».

وراح المستر ويلر يقرأ ببطء، وقد بدا الجد واضحًا على وجهه:

«تقدم نخبة مختارة من الحجاب في مدينة باث تحياتها إلى المستر ويلر وترجو منه أن يتكرم في هذا المساء بحضور حفلة مسائية تقيمها، وسيكون الطعام فيها مؤلَّفًا من فخذ ضأنٍ مسلوقة وحولها لوازمها المعتادة، وستبدأ الحفلة في تمام الساعة التاسعة والنصف بالضبط».

وكان مع الخطاب رقعة أخرى جاء فيها ما يلي:

«يرجو المستر جون سموكر الذي حظي بلقاء المستر ويلر في دار صديق الطرفين المستر بنتم منذ بضعة أيام أن يتقبَّل المستر ويلر الدعوة المرسلة مع هذا الخطاب. وإذا تكرم المستر ويلر بزيارة المستر سموكر في الساعة التاسعة، فسوف يسر المستر سموكر مرافقته إلى الحفلة وتقديمه إلى أصحابه».

التوقيع «جون سموكر»

وكان العنوان المكتوب على الغلاف باسم «السيد ويلر- طرف المستر بكوك» وبين قوسين في الزاوية اليسرى من الغلاف كتبت هاتان الكلمتان «جرس هوائي»، «تنبيهًا لرافع الخطاب».

وقال سام: «شيء عجيب، ما سمعت به في حياتي، فخذ ضأن مسلوقة تدعى قبل اليوم حفلة مسائية، فما بالك إذا كانت محمرة!».

ولكنه لم ينتظر حتى يبحث في هذه النقطة، بل ذهب من توه إلى المستر بكوك فالتمس منه الإذن في الغياب ذلك المساء، ولم يتردد سيده في الإذن له. وأخذ سام الإذن، ومفتاح الباب الخارجي، وانطلق قبل الموعد المضروب بقليل، فأخذ يمشي الهوينا متجهًا صوب ميدان الملكة، فلم يكد يبلغه حتى سرته رؤية المستر جون اسموكر مسندًا رأسه المجمل بالمساحيق إلى عمود المصباح على قيد خطوات منه، وهو يدخن لفافة كبيرة من مبسم خشب مصنوع من الكهرمان.

وابتدره المستر جون اسموكر، رافعًا قبعته بلطف بالغ بإحدى يديه، بينما ذهب يلوح بالأخرى متنزلًا من عليائه: «كيف أنت يا سيدي؟».

وأجاب سام: «في دور النقاهة، إلى حد معقول، وكيف حالك أنت يا عزيزي؟».

وقال المستر جون اسموكر: «بين بين».

وقال سام: «آه، لقد كنت مجهدًا في العمل هذا ما كنت أخشاه. إن الكد في العمل كما تعلم لا يفيد ولا يغني، لا يصح أن تستسلم لهذه الروح التي لا هوادة فيها، والتي تمكنت منك».

وأجاب المستر جون اسموكر: «ليس هذا هو السبب، بل الغالب هو الخمر الرديئة، أخشى أن أكون قد أسرفت فيها أخيرًا».

وقال سام: «آه، قل لي هذا، إن هذا مرض سيئ جدًّا».

وقال المستر جون اسموكر «ولكنه الإغراء يا مستر ويلر كما تعلم».

وقال سام: «صحيح. فعلًا».

وتنهد المستر جون اسموكر وقال: «الانغماس في دوامة المجتمع كما تعرف».

وأجاب سام: «فظيع حقيقة!».

وقال المستر جون اسموكر: «ولكن هذه هي الحياة دائمًا، فإذا قدر لك الاختلاط بالحياة العامة، والمجتمع، فلا تنتظر طبعًا أنك لن تتعرض للمغريات التي نجا منها الآخرون يا مستر ويلر».

وقال سام: «هكذا كان عمي يقول، كلما اختلط بالحياة العامة، وكان الرجل على حق؛ لأنه ظل يشرب حتى مات في أقل من ثلاثة أشهر».

وبدا الغضب الشديد على المستر جون اسموكر من هذه المقارنة بينه وبين المرحوم، ولكنه حين رأى وجه سام في أتم الهدوء لا تختلج فيه خالجة، سكن غضبه، وعاد يتهلل ويبتسم.

وقال وهو ينظر في ساعة نحاسية تقيم في قاع جيب عميق مخصص لها، وقد رفعها من مكمنها هذا بخيط أسود يتدلى مفتاح نحاسي من طرفه الآخر: «أظن أنه يحسن بنا أن نمشي».

وأجاب سام: «يحسن، وإلا غيروا «الأمسية» فيفسد الأمر».

وأنشأ رفيقه يسأله وهما متجهان صوب هاي ستريت: «هل شربت المياه يا مستر ويلر؟».

وأجاب سام: «مرة واحدة».

- «وما رأيك فيها يا سيدي؟».

وأجاب سام: «رأيي أنها رديئة جدًّا».

وقال المستر جون اسموكر: «آه، لعلك لم يعجبك مذاق «الكليبيت» الذي فيها؟».

وأجاب سام: «لا أعرف كثيرًا عن هذا الصنف الذي تقوله، ولكني شعرت بطعم حار جدًّا كأنه حديد محمي».

وقال المستر جون اسموكر باحتقار لهذا الجهل البادي من كلام رفيقه: «هذا هو الكليبيت».

وأجاب سام: «إن كان هذا هو فعلًا، فإن هذا اللفظ قاصر دون التعبير الصحيح عنه، ولكن جائز. فإنني لا أعرف شيئًا كثيرًا في علم الكيمياء، ولهذا لا أستطيع الحكم». وهنا بدأ سام ويلر يصفر بفمه، فريع المستر جون اسموكر وبهت مما رأى.

وقال وهو متأذٍ أشد الأذى من هذا الصوت الخالي من الرقة واللطف إلى أبعد حد: «لا تؤاخذني يا مستر ويلر. إذا أنا طلبت إليك أن تأخذ ذراعي».

وأجاب سام: «شكرًا لك على هذا الكرم، ولكني لا أقبل أن أحرمك منها، إن عادتي أن أضع يدي الاثنتين في جيوبي، إذا كان هذا لا بأس منه عندك». وراح سام يضعهما فعلًا في جيبيه، ويزداد صفيرًا بفمه.

وقال صديقه الجديد، وكأنما قد بدأ يرتاح لانتهاء الطريق، وهما يعطفان على شارع جانبي: «من هنا، لن نلبث أن نكون هناك».

وأجاب سام، دون أن يتأثر إطلاقًا بما سمعه عن قرب الوصول إلى حفلة النخبة المختارة من الحجاب: «أحقًا اقتربنا؟».

وقال المستر جون اسموكر: «نعم. لا تنزعج يا مستر ويلر».

وأجاب سام: «كلا».

ومضى المستر جون اسموكر يقول: «سترى حللًا جميلة يا مستر ويلر، وربما تصورت أن بعض السادات يلوحون في أول الأمر متكبرين، ولكنهم سيعودون بعد ذلك فيأنسون إليك».

وأجاب سام: «هذا عطف كبير منهم».

وواصل المستر جون اسموكر حديثه بلهجة تنم عن الرعاية السامية: «ولا يخفى أنك غريب عنهم، وربما رأيتهم خشنين قساة عليك في بداية الأمر لهذا السبب».

وسأل سام قائلًا: «وهل ستكون هذه القسوة شديدة أو ماذا؟».

وأجاب المستر جون اسموكر وهو يخرج رأس الثعلب ويتناول قدرًا من السعوط، كما يفعل السادات المهذبون: «كلا، كلا، نعم بيننا بعض الفكهين ممن يجيدون التنكيت، ولكن كل كلامهم مزاح كما

تعلم، فلا يصح أن تهتم بكلامهم، أو تتأثر بمزاحهم».

وأجاب سام: «سوف أجتهد في احتمال المباراة مع هذه المواهب».

وقال المستر جون اسموكر وهو يرد رأس الثعلب إلى موضعه، ويرفع رأسه هو: «هذا كلام طيب. وسأقف بجانبك».

وكانا قد وصلا عندئذٍ إلى دكان خضري صغير فدخل المستر جون اسموكر الحانوت، وتبعه سام، وما كاد يمشي وراءه، حتى دخل في سلسلة من أعرض الابتسامات، وأصخب القهقهات، وأبدى من الأعراض المماثلة ونحوها ما يوحي بأنه في حالة مرح نفسي يحسد عليه.

واجتازا دكان الخضر ووضعا قبعتيهما على السلم في الدهليز الصغير القائم خلفه، فدخلا قاعة صغيرة، وهنا بدت لعين المستر ويلر فجأة روعة المشهد بكل مظاهرها؛ فقد رأى خوانين لصق أحدهما بالآخر في وسط القاعة، وغُطِّيَا بثلاثة أغطية أو أربعة مختلفة الأعمار وتواريخ الغسيل، وقد نُسِّقَتْ تنسيقًا يجعلها أشبه كثيرًا بغطاء واحد بقدر ما تسمح الظروف، ووضعت فوقها سكاكين وشوك لستة أشخاص أو ثمانية، وكانت مقابض بعض السكاكين خضرًا، وبعضها الآخر حمرًا، وقليل منها صفرًا، ولكن الشوك كلها كانت سود المقابض، فكان اختلاط الألوان على هذا النحو ظاهرًا أشد الظهور، وكانت الصحاف المطلوبة لهذا العدد ذاته من المدعوين تدفأ خلف الموقدة، في حين جلس هؤلاء أنفسهم يستدفئون أمامها، وبدا كبيرهم، وأخطرهم شأنًا، رجلًا يميل إلى

البدانة في سترة أرجوانية زاهية ذات أذيال طوال وسراويلَ حمراء قانية، وقبعة مرفوعة الحاشية، وهو واقف مولٍّ ظهره إلى الموقدة، والظاهر أنه جاء منذ لحظة قصيرة؛ لأنه كان لا يزال يضع القبعة فوق رأسه، وكان يحمل في يده عصا طويلة كالعصي التي اعتاد أرباب مهنته رفعها في وضع منحدر فوق رفوف المركبات.

وقال السيد ذو القبعة المقلوبة الحاشية: «اسموكر. يا بني، أمدد يدك».

وتقدم المستر اسموكر، فشبك خنصر يده اليمنى في الجزء ذاته من يمين الرجل، وقال إنه مسرور غاية السرور لرؤيته بخير وعافية.

وقال الرجل: «إنهم يقولون لي إنني أبدو في هذه الأيام متفتحًا كالزهر، وهذا شيء عجيب؛ لأنني منذ أسبوعين لا أنقطع عن المشي خلف عجوزنا الدردبيس نحو ساعتين في اليوم، وإذا كان مجرد تصور شكلها وهي لا تكف عن النظر إلى ثوبها القديم «اللوندي» اللون من خلفها لا يكفي لأن يجعل الإنسان، منقبض النفس حزينًا إلى الأبد، فليقطعوا مرتبي الذي أتقاضاه مرة كل ثلاثة شهور».

وضحك أفراد النخبة المختارة لهذا القول من أعماق صدورهم، وهمس سيد منهم في صدار أصفر في أذن جار له في سترة خضراء قائلًا: «يظهر أن صاحبنا طكل منشرح الصدر الليلة».

وعاد المستر طكل يقول: «وبهذه المناسبة يا ولدي اسموكر، أنت...» وراح يهمس بباقي الجملة في أذن المستر جون اسموكر.

وقال هذا: «يا سلام.. إي وربي، لقد نسيت أن أقدم إليكم أيها السادة صديقي المستر ويلر».

وقال المستر طكل بإيماءة من رأسه، كأنه يعرفه ولا يحتاج معه إلى شيء من الكلفة.

«آسف لأني حجبت النار عنك يا ويلر، أرجو ألا تكون شاعرًا ببرد».

وأجاب سام: «كلا يا سيد «بليزيس»[1] إن كل شخص يشعر بالبرد، وأنت واقف أمامه لا بد من أن يكون في أشد درجات «القشعريرة» لأنهم لو وضعوك خلف مدفأة في قاعة انتظار بمحل عمومي، لوفرت عليهم قدرًا كبيرًا من الخشب والفحم».

وكان هذا الرد يبدو إشارة خاصة إلى الحلة الحمراء التي يرتديها المستر طكل، ولهذا وقف بضع ثوانٍ متعاظمًا، ثم أخذ يبتعد عن النار شيئًا فشيئًا، وبابتسامة متكلفة انثنى يقول إنها نكتة ليست رديئة.

وأجاب سام: «أشكر لك كل الشكر حسن تقديرك يا سيدي، وسنتقدم بالتدريج، وسأجتهد في أن أقول أحسن منها بعد هذا».

وهنا انقطع سياق الحديث بوصول سيد في حلة برتقالية اللون، يصحبه آخر من الجماعة المختارة في ثوب أرجواني، وجورب مفرط في الطول، ولم يكد الحاضرون يرحبون بالقادمين الجدد، حتى سأل المستر طكل الجماعة هل يأمر بإحضار العشاء، فوافق الأعضاء بإجماع الآراء.

---

(١) سماه سام «بليزيس» أي الوهج واللهب لثيابه الحمراء، وبنى على هذه التسمية كل تلك الدعابة الجميلة.

وجاء عندئذ الخضري وامرأته فوضعا على المائدة فخذًا مسلوقة من الضأن، ساخنة، بالمرق، واللفت والبطاطس. واتخذ المستر طكل مجلس الرياسة، بينما جلس في الطرف الآخر السيد ذو الحلة البرتقالية اللون، وانثنى الخضري يلبس قفازًا من الجلد القابل للغسيل لكي يقدم الصحاف به، ووقف خلف مقعد المستر طكل.

وقال المستر طكل بلهجة الأمر: «هاريس!».

وأجاب الخضري: «نعم، يا سيدي».

- «هل لبست قفازك؟».

- «نعم، يا سيدي».

- «ارفع الغطاء إذن».

فصدح الخضري بما أُمِرَ، في ذلة ظاهرة، وراح يقدم إلى المستر طكل بخشوع سكين التقطيع، ولكنه تثاءب عرضًا وفغر فاه.

وقال المستر طكل بحدة شديدة: «ماذا تقصد بهذا يا سيدي؟».

وأجاب الخضري مطأطئ الرأس: «معذرة يا سيدي، لم أقصد ذلك يا سيدي. ولكني كنت سهران إلى ساعة متأخرة في الليلة الماضية يا سيدي».

وقال المستر طكل بلهجة قوية: «أتريد أن أقول لك عن رأيي فيك يا هاريس؟ أنت بهيم سوقي جدًّا».

وقال هاريس: «أرجو أيها السادة ألا تكونوا قساة عليَّ صارمين

يا سادة. إنني شاكر لكم كل الشكر هذه الرعاية التي تخصونني بها، وتوصياتكم خيرًا بي كلما طلب أحد خدمة إضافية. وأرجو أيها السادة أن يكون عملي موضع ارتياح لديكم».

وقال المستر طكل: «كلا يا سيدي، إنك أبعد من ذلك كثيرًا».

وقال في أثره السيد ذو الحلة البرتقالية: «إننا نعدك شخصًا دنيئًا مهملًا لا يقظة لديه».

وأردف ذو الحلة الخضراء: «ولصًّا سافلًا».

وتبعه ذو الحلة الأرجوانية قائلًا: «ومخلوقًا لا صلاح له».

وجعل الخضري المسكين ينحني بكل ذلة وانكسار عقب كل نعت من هذه النعوت الجميلة التي تخلع عليه بروح الطغيان في أصغر أشكاله ومظاهره.

وجعل الخضري المسكين ينحني بكل ذلة وانكسار عقب كل نعت من هذه النعوت الجميلة التي تخلع عليه بروح الطغيان في أصغر أشكاله ومظاهره.

وبعد أن انتهى كل واحد من قول شيء يظهر به سمو مكانه، ورفعة شأنه، شرع المستر طكل في تقطيع الفخذ وتوزيع أجزائها على الآكلين.

ولم يكد هذا العمل الخطير في ذلك المساء يبدأ، حتى فتح الباب بسرعة، وبدا سيد آخر في حلة زرقاء زاهية الزرقة وأزرار رصاصية.

وابتدره المستر طكل بقوله: «هذه مخالفة للقواعد، لقد جئت متأخرًا.. متأخرًا فوق ما يجب».

وقال السيد ذو الحلة الزرقاء: «كلا، كلا، لم يكن في تأخيري والله حيلة. إنني أرفع الأمر إلى الجماعة. لقد عاقتني مسألة غرام، موعد في دار التمثيل».

وقال السيد المرتدي حلة برتقالية: «آه! أهذا هو السبب حقًّا؟».

وأجاب السيد ذو الثوب الأزرق: «إي والله. شرفًا هذا ما حصل. فقد كنت قد وعدت أن أحضر السيدة الصغيرة لدينا في الساعة العاشرة والنصف، وهي بنت لطيفة جدًّا، فلم يطاوعني قلبي على إخلاف موعدي لها، ولا تؤاخذوني يا سادة، ولا إساءة، ولكن طلب الغانيات يا سيدي لا يمكن رفضه».

وقال طكل، حين أخذ القادم الجديد مجلسه بجوار سام: «لقد بدأت أشك في أن هناك شيئًا من هذا القبيل، فقد لاحظت مرة أو مرتين أنها تميل كثيرًا على كتفك وهي تدخل المركبة أو تنزل منها».

وقال ذو الحلة الزرقاء: «في الحقيقة لا يصح أن تشك يا طكل، هذا ظلم، وأمر لا يليق، ولعلي قلت لصديق أو صديقين إنها مخلوقة نقية طاهرة جدًّا، رفضت خطبة أو خطبتين بغير سبب ظاهر، ولكن لا، لا يا طكل لا يصح لك أن تقول هذا، وأمام الغرباء أيضًا! هذا لا يليق. الذوق يا صديقي العزيز، الذوق، هذه مسائل دقيقة». ومضى الرجل ينظم قميصه وطوق سترته، ويومئ ويعبس كأن لديه كلامًا آخر يمكنه أن يقوله إذا شاء، ولكن الشرف يلزمه السكوت.

وكان ذلك الرجل ذو الحلة الزرقاء الخفيف الشعر، القوي الرقبة،

الحر السهل اللين العريكة، الذي تبدو عليه أمارات الخيلاء والصراحة قد اجتذب من بداية الأمر نظر المستر ويلر واهتمامه الخاص، ولكنه حين ظهر على هذه الصورة، ازداد سام شعورًا بوجوب توثيق الصلات به، فدخل في الحديث للتو واللحظة، بكل روح الاستقلال المستأصلة فيه.

وقال سام: «في صحتك يا سيدي، إنني أحب كلامك كثيرًا، وأعتقد أنه كلام جميل كل الجمال».

وابتسم الرجل كأنها تحية أَلِف كثيرًا سماعها، وإن راح ينظر إلى سام موافقًا مستريحًا، وقال: إنه يرجو أن يزداد به معرفة؛ لأنه بلا ملق ولا رياء مطلقًا تبدو عليه مخايل الرجل اللطيف، والإنسان الذي صادف هوى في نفسه.

وقال سام: «أنت كريم جدًّا يا سيدي، وما أحسن حظك وأسعد نجمك!».

وقال الرجل ذو الحلة الزرقاء: «ماذا تقصد؟».

وأجاب سام: «هذه السيدة الصغيرة التي تتكلم عنها. إنها تعرف كل ما في الأمر. آه. إني أعرف ذلك!». ومضى المستر ويلر يغمض إحدى عينيه ويهز رأسه من ناحية إلى أخرى، بشكل يرضي غرور الرجل ذي الحلة الزرقاء وخيلاءه كل الإرضاء.

وقال الرجل: «أخشى أن تكون إنسانًا ماكرًا يا مستر ويلر».

وأجاب سام: «كلا، كلا، أنا تارك كل المسألة لك؛ لأنها توائمك

أنت أكثر مما توائمني، كما قال الرجل الواقف خلف جدار البستان للآخر الواقف أمامه حين رأى الثور الهائج قادمًا يعدو في الزقاق».

وقال السيد ذو الحلة الزرقاء: «جميل، جميل، يا مستر ويلر، أعتقد أنها لاحظت أحوالي وتصرفاتي يا مستر ويلر».

وأجاب سام: «وأعتقد أنا أن ذلك لا يمكن أن يخفى عليها».

وقال الرجل ذو الحلة الزرقاء المحظوظ لدى سيدته الصغيرة، وهو يخرج خلة أسنان من جيب صداره: «هل لك شيء صغير من هذا القبيل في متناول يدك يا سيدي؟».

وقال سام: «ليس الأمر كذلك تمامًا، فليس في المكان الذي أخدم فيه بنات، وإلا لكنت بالطبع عملت على كسب محبة واحدة منهن، ولكني لا أعتقد أنني يمكن أن أرضى بأقل من مركيزة، وقد لا أجد بأسًا من قبول امرأة شابة غنية صاحبة ملك، ولكن ليست بذات لقب، إذا هي أحبتني حبًّا عنيفًا. ولكني لن أقبل ما هو دون ذلك».

وقال السيد الأزرق الثوب: «طبعًا لا يا مستر ويلر؛ لأن الإنسان لا يريد المتاعب، كما تعرف، وكما نحن عارفون يا مستر ويلر، فنحن الذين درنا في هذه الدنيا وعرفناها، أن الذي يلبس حلة جميلة يجب أن يشق طريقه إلى قلوب النساء عاجلًا أو آجلًا، والواقع أن هذا هو الشيء الوحيد، وأنا أقول لك هذا بيني وبينك، الذي يجعل الخدمة في البيوت مقبولة».

وقال سام: «هو كذلك، طبعًا».

وعندما بلغ هذا الحوار الخاص هذا الحد، صُفَّتِ الأقداح حول المائدة، وراح كل سيد يأمر بالشراب الذي يفضله على سواه، قبل أن تغلق الحانة أبوابها، فأما السيد صاحب الحلة الزرقاء، والآخر ذو الحلة البرتقالية، وهما الزعيمان البارزان في الحفل؛ فقد طلبا «رُومًا» باردًا بالماء، ولكن الآخرين طلبوا «جِنًّا» وماء خليطًا بالسكر، وهو فيما يبدو الشراب الأثير لديهم. ونادى سام الخضري قائلًا له إنه مجرم موغل في الإجرام وطلب قدحًا كبيرًا من «البنتش»، وهما أمران رفعا شأنه كثيرًا في نظر النخبة المختارة.

وقال السيد ذو الحلة الزرقاء بلهجة متناهية في الأناقة: «هيا. لنشرب نخب السيدات».

وقال سام: «مرحى، مرحى، بل قل في صحة الآنسات الصغيرات».

وهنا ارتفع صوت ينادي: «النظام» وانثنى المستر جون اسموكر، وهو السيد الذي قدم المستر ويلر إلى الهيئة وعرفها به، يرجو منه أن يفهم أن الكلمة التي فاه بها منذ لحظة ليست كلمة «برلمانية» يليق أن تقال في هذا المجلس.

وسأله سام قائلًا: «أي كلمة هذه يا سيدي؟».

وأجاب المستر جون اسموكر بعبسة مزعجة: «كلمة آنسات يا سيدي. إننا هنا لا نعترف بهذه الألقاب وأمثالها».

وقال سام: «جميل جدًّا. سأصحح التعبير إذن، وأدعوهن المخلوقات العزيزات إذا سمح لي بليزيس بهذا الوصف».

وبدا كأن بعض الشك قد جال في خاطر السيد ذي الحلة الخضراء في هل يصح قانونًا أن يخاطب الرئيس بهذا الاسم «بليزيس» أم لا يصح، ولكنه تبين أن القوم أميل إلى التمسك بحقوقهم منه، فلم يثر هذه المسألة في الاجتماع، وأما الرجل ذو القبعة المقلوبة الحاشية، فقد لهث وحدج سام بنظرة طويلة، ولكن الظاهر أنه رأى أنه يحسن ألا يقول شيئًا حتى لا يسمع ما هو شر منه.

وبعد سكون قصير انبرى سيد يرتدي سترة مزركشة تصل إلى كعبيه، وصدارًا من النوع ذاته جعل نصف ساقيه دافئتين، وهو يحرك الجن والماء في كأسه بحركة قوية، فنهض فجأة مستويًا على قدميه، بجهد شديد، فقال: إنه يريد أن يلقي بضع كلمات أمام الجمع، وأجاب الرجل ذو القبعة المقلوبة الحاشية بقوله: إنه لا يخامره شك في أن الجمع يسعده أن يسمع أية كلمات يود السيد ذو السترة الطويلة أن يلقيها أمامهم.

وقال السيد الطويل الرداء: «أيها السادة. إني لأشعر بحرج شديد حين أتقدم إليكم بالكلام، وأنا الذي كتب عليه سوء الحظ أن يكون حوذيًّا، والذي تفضلتم فقبلتموه عضوًا فخريًّا في حفلاتكم المسائية اللطيفة. ولكني أيها السادة أشعر بأنني مضطر، أو إذا سمحتم لي قلت إنني محشور في ركن ضيق، إلى إبلاغكم عن ظرف سيئ وصلت أخباره إلى علمي، ووقع في «دائرة» مشاهداتي وأفكاري اليومية. أيها السادة، إن صديقنا المستر وفرز- وهنا نظر كل فرد منهم إلى السيد ذي الحلة البرتقالية- قد استقال من وظيفته».

ووقع هذا النبأ على السامعين موقعَ الدهشة العامة، حتى انثنى كل منهم ينظر إلى وجه جاره ثم يتحول بعينه إلى الحوذي الخطيب.

واسترسل الحوذي فقال: «وقد تدهشون كثيرًا أيها السادة، ولست أريد أن أبين أسباب هذه الخسارة التي لا تعوض للمهنة، ولكن أرجو المستر وفرز أن يبدي هذه الأسباب بنفسه، لموافقة أصحابه المعجبين واتخاذه أسوة حسنة».

وقوبل هذا الاقتراح بموافقة مدوية، وانبرى المستر وفرز يشرح تلك الأسباب؛ فقال إنه كان بلا ريب يوَد أن يبقى في تلك الوظيفة التي استقال أخيرًا منها؛ فإن الحلة طيبة، والخدمة حسنة المرتب، وسيدات الأسرة لطاف كل اللطف، ولا يسعه إلا أن يقول إن واجبات الوظيفة لم تكن شديدة الوطأة؛ فإن كل ما كان مطلوبًا منه هو أن يطل من شرفة البهو أكثر ممَّا يمكن، مشتركًا في ذلك مع سيد آخر، قدم استقالته أيضًا، وكان يَوَدُّ لو أغنى عن الجمع ألم سماع التفاصيل المؤلمة والدقائق الثقيلة على النفس التي يوشك أن يدخل فيها، ولكن ما دام قد طلب إليه شرحها، فلا حيلة له غير أن يعلن بجرأة ووضوح أنه استقال؛ لأنهم طلبوا إليه أن يأكل لحمًا باردًا.

ولا يستطيع أحد أن يتصور مبلغ الاشمئزاز الذي أثاره هذا التصريح في صدور السامعين، فقد ارتفعت الأصوات صائحة: «يا للعار!» ممتزجة بأصوات استنكار واستهجان، ولبث هذا الصخب ربع ساعة قبل أن يسود السكون الاجتماع.

وهنا أضاف المستر وفرز يقول: إنه يخشى أن يقال: إن بعض الغضب الذي استولى عليه يرجع إلى نفوره الخاص، ونزوعه الشخصي، ولكنه يتذكر جيدًا أنه رضي في ذات مرة أن يأكل زبدًا مختلطًا بالملح، وأنه أيضًا في مرة أخرى أصاب فيها أحد أفراد الأسرة مرض فجائي، تغاضى عن كرامته، فحمل وعاء الفحم إلى الطابق الثاني من البيت، وأنه على ثقة بأنه بهذا الاعتراف الصريح بأغلاطه لا يصغر من قدره عند أصدقائه، ولا يحط من كرامته في أعينهم، وأنه يرجو أن تكون السرعة التي أبى بها قبول العدوان الصارخ أخيرًا على كرامته، وهو الحادث الذي سبقت الإشارة إليه، حافزًا إلى رد اعتباره، وعودته إلى مكانه، من حسن ظنهم، أن كان يومًا قد ظفر بحسن الظن منهم.

واستقبل هذا الخطاب الذي ألقاه المستر وفرز بصيحات الإعجاب، وشرب القوم نخب هذا «الشهيد» الكريم بأشد الحماسة، ورد الشهيد عليها بالشكر وشرب نخب ضيفهم المستر ويلر، وهو السيد الذي لم يتشرف بمعرفته الوثيقة، ولكن حسبه أنه صديق المستر جون اسموكر؛ فإن ذلك يكفي لتزكيته عند أي مجتمع من السادات كائنًا من كان، في كل مكان، وأنه كان يَوَدُّ لهذا السبب أن يطلب الشرب في صحة المستر ويلر بكل سرور وتكريمه لو أن أصدقاءه يشربون النبيذ، ولكن بما أنهم يتناولون الأشربة الكحولية، على سبيل التنويع، وقد يضطر الأمر إلى إفراغ الكأس في كل نخب، فهو يقترح أن يكون هذا التكريم مضمرًا غير ظاهر.

وما إن انتهى الخطيب من خطبته هذه حتى تناول كل سيد منهم

رشفة من الكأس في صحة سام، فلم يكن منه إلا أن تهور فشرب كأسين مليئتين من «البنتش»، تكريمًا لنفسه، وانبرى يرد على ذلك التكريم بخطاب طريف.

قال، وهو يغترف من البنتش بلا أدنى ارتباك، أو أقل تردد: «إنني شاكر لكم كثيرًا أيها الإخوان، هذه التحية التي غمرتني من جانبكم، وهي تحية يزيد من قدرها زيادة أنوء بها؛ لأنها جاءت من هيئتكم الموقرة. فقد سمعت الكثير عنكم في مجموعكم، ولكني أقول: إنني لم أكن أتصور أنكم ظرفاء إلى هذا الحد غير المألوف الذي لمسته هنا منكم، وكل رجائي أن تحرصوا على أنفسكم، وألا تنزلوا عن شيء من كرامتكم، وهو مشهد فاتن بديع يبدو لعين الإنسان كلما خرج للمشي والرياضة، وكم سعدت به مذ كنت صبيًّا يقرب طولي يومئذٍ من نصف العصا ذات المقبض النحاسي التي يحملها صديقي المحترم بليزيس الحاضر هنا، أما شهيد الظلم الذي يلبس الحلة الصفراء في لون الكبريت، فكل ما في وسعي أن أقوله عنه هو أنني أرجو أن يجد الوظيفة الطيبة التي يستحقها، وعندئذ لن يضايقه أكل اللحم البارد مرة أخرى».

وجلس سام وهو يبتسم مسرورًا، وقوبلت خطبته بهتاف مدوٍّ، وانفض الاجتماع.

وقال سام ويلر لصديقه المستر جون اسموكر: «ما هذا؟ هل تقصد أن تقول إنك ذاهب يا أخي؟».

وأجاب المستر اسموكر: «أنا مضطر فعلًا. لقد وعدت بنتم».

وقال سام: «آه! جميل جدًّا. هذا شيء آخر. وربما يستقيل هو الآخر إذا أنت أخلفت وعدك. وأنت أيضًا منصرف يا بليزيس؟».

وقال ذو القبعة المقلوبة الحاشية: «نعم، منصرف».

وعاد سام يقول: «كيف هذا؟ أتنصرف وتترك ثلاثة أرباع زجاجة البنتش خلفك. كلام هراء. عد إلى الجلوس».

ولم يكن المستر طكل ليستطيع الامتناع عن إجابة هذه الدعوة، فوضع القبعة والعصا جانبًا بعد أن كان قد تناولهما، وقال: إنه سيشرب كأسًا واحدة من أجل الزمالة الطيبة.

وكان طريق السيد ذي الحلة الزرقاء إلى البيت هو عين الطريق الذي سيسلكه المستر طكل، فألحَّ عليه في البقاء فرضي بالجلوس، وقبل أن يفرغ نصف البنتش أو يكاد، طلب سام بعض الأصداف البحرية من حانوت الخضري، وكان تأثير الشراب والمحار مفرحًا للغاية، جعل المستر طكل ذا القبعة المقلوبة والعصا، يرقص الصدفات فوق المائدة رقصة الضفدعة، بينما انثنى السيد ذو الحلة الزرقاء يتبع حركات الرقص على آلة موسيقية ابتدعها، باستخدام مشط شعر وورق يستعمل لتجعيده، وفي النهاية، حين فرغ «البنتش» كله وكاد الليل ينتهي كذلك، انطلقوا جميعًا ليترافقوا حتى بيوتهم، وما كاد المستر طكل يخرج في الهواء الطلق حتى استولت عليه رغبة فجائية في النوم على الإفريز، ورأى سام أنه لا يليق به أن يعارضه في تلك الرغبة فتركه يفعل ما يشاء، وإذا كانت القبعة ستتلف إذا تركها فوق الأرض، فقد رأى سام مراعاة لها أن يجعلها

«مسطوحة» على رأس السيد ذي الحلة الزرقاء، ووضع العصا الكبيرة في يده، وظل يدفعه حتى أوصله إلى باب بيته، ودق له الجرس بنفسه، ثم انصرف في رفق إلى بيته.

وهبط المستر بكوك مدارج السلم وهو مشتمل بثيابه، في صباح اليوم التالي، مبكرًا كثيرًا على غير عادته، ودق الجرس.

ومضى ينادي: «سام!»، وحين ظهر المستر ويلر استجابة لهذا النداء، أهاب به قائلًا: «أغلق الباب».

وفعل سام كما أُمِر.

وأنشأ المستر بكوك يقول: «لقد وقع في الليلة الماضية يا سام حادث يؤسف له، جعل المستر ونكل يتوقع عنفًا من المستر داولر».

وأجاب سام: «هكذا سمعت من السيدة العجوز التي في الطابق الأسفل يا سيدي».

ومضى المستر بكوك يقول، وعلائم الارتباك الشديد بادية على وجهه: «ويحزنني يا سام أن أقول إن المستر ونكل خشي هذا العنف فخرج ولم يعد».

قال سام: «خرج ولم يعد!».

وأجاب المستر بكوك: «نعم، غادر البيت في بكرة الصبح، دون أن يتصل بي مطلقًا قبل خروجه، ولست أدري أين ذهب؟».

وأجاب سام باحتقار: «لقد كان أولى به أن يبقى ويناضل يا سيدي؛ لأن التغلب على هذا المدعو داولر لا يتطلب جهدًا كبيرًا».

وقال المستر بكوك: «اسمع يا سام، قد أكون أنا كذلك في شك من شجاعته الكبيرة وقوة عزيمته، ولكن مهما يكن من الأمر، فقد ذهب المستر ونكل ولم يعد، ولا بد من العثور عليه يا سام ورده إليَّ».

وقال سام: «وافرض أنه لم يشأ أن يعود يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «فليرغم على العودة إرغامًا».

وسأل سام وهو يبتسم: «ومن الذي يرغمه يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «أنت».

وقال سام: «حسن جدًّا يا سيدي».

وعلى أثر هذه الكلمات غادر المستر ويلر الغرفة وسمعت عقب ذلك مباشرة حركته وهو يغلق الباب الخارجي في أثره، ولم تنقضِ ساعتان حتى عاد هادئًا كل الهدوء كأنه قد أُرْسِلَ لتأدية مهمة عادية للغاية، وأبلغ المستر بكوك أن شخصًا تطابق أوصافه من كل وجه أوصاف المستر ونكل قد ذهب إلى برستل صباح اليوم مستقلًّا المركبة العامة التي تقوم عادة من فندق «رويال».

وتناول المستر بكوك يد خادمه وقال: «إنك يا سام لإنسان بديع لا تقدر بثمن، فلتقتف أثره إذن».

وأجاب المستر ويلر: «بلا ريب يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «واكتب إليَّ في الحال عندما تهتدي إليه. فإذا حاول الهرب منك، فاصرعه أو احبسه، فإني مخولك كل السلطة».

وأجاب سام: «سأعتني كل العناية يا سيدي».

ومضى المستر بكوك يقول: «وأبلغه أنني في أشد الثورة، والاستياء، والغضب، من هذا المسلك الشاذ الذي رأى أن يسلكه».

وأجاب سام: «سأفعل يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «وقل له إنه إذا لم يعد إلى هذا البيت معك، فسيعود معي أنا؛ لأنني سأذهب بنفسي فأعيده إليه».

وأجاب سام: «سأذكر ذلك له يا سيدي».

وقال المستر بكوك، وهو يتفرس بجد في وجهه: «هل تظن أنك واجده يا سام؟».

وأجاب سام في ثقة بالغة: «سأجده مهما يكن موضعه».

وقال المستر بكوك: «حسن جدًّا، وكلما أسرعت كان ذلك خيرًا وأجدى.

وبهذه التعليمات راح المستر بكوك يضع قدرًا من المال في يدي خادمه الأمين، وأمره أن يسافر إلى برستل في الحال لمطاردة الهارب.

ووضع سام بعض الحاجيات في حقيبة مصنوعة من قطعة بساط وتهيَّأ للذهاب، ولكنه وقف عند نهاية الدهليز ثم عاد أدراجه في رفق وأطل برأسه من الباب، وهمس قائلًا: «سيدي».

وأجاب المستر بكوك: «ماذا يا سام؟».

قال: «إنني فاهم التعليمات تمامًا، أليس كذلك يا سيدي؟».

وقال المستر بكوك: «أرجو ذلك».

وعاد سام ليسأل: «لقد تفاهمنا على مسألة ضربه وصرعه. أليس كذلك يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «تمامًا، كل التفاهم. افعل ما تراه ضروريًّا، وهذه أوامري».

وأطرق سام إطراقة اليقين، وسحب رأسه من فتحة الباب، وانطلق في سبيل تنفيذ مهمته بقلب مفعم سرورًا وابتهاجًا.

* * *

الفصل الثامن والثلاثون

كيف أراد المستر ونكل أن يستجير من الرمضاء، فوقع برفق وراحة في النار..

وبعد أن قضى ذلك السيد السيئ الحظ الذي كان سببًا في تلك الجلبة غير المألوفة التي أزعجت سكان شارع «الهلال الملكي»، على ذلك النحو الذي وصفناه، ليلة نكدة مليئة بالاضطراب والقلق، غادر البيت الذي كان أصحابه لا يزالون نيامًا تحت سقفه، وانطلق على غير هدى، لا يدري إلى أين؟ ولن يتيسر مطلقًا تقدير المشاعر الكريمة التي دفعت المستر ونكل إلى اتخاذ هذه الخطوة حق تقديرها، ولا الإشادة بها أصدق الإشادة؛ فقد فكر في نجواه قائلًا: «إذا حاول هذا الرجل الذي يدعى داولر، ولست أشك في أنه سيحاول، تنفيذ وعيده، وهو العدوان على شخصي، فسأجدني مضطرًّا إلى مناجزته. ولكن لهذا الرجل زوجة، وهذه الزوجة متعلقة به، ومعتمدة في الحياة عليه. يا إلهي! ماذا تكون النتيجة، إذا أنا قتلته في جِنة غضبي وسورة حنقي؟ بل لعمري

ماذا سيكون شعوري بعد ذلك؟». وكان لهذا التفكير الأليم أثر بالغ في مشاعر هذا الشاب الرحيم، حتى لقد ارتعدت فرائصه، وبدت أمارات مزعجة تدل على مدى تأثره، ودفع به هذا التفكير إلى تناول حقيبته المصنوعة من قطعة بساط، وانطلق مسترق الخطى يهبط مدارج السلم، وخرج إلى الطريق وأغلق ذلك الباب اللعين بكل رفق ممكن، وسار متجهًا صوب فندق رويال فوجد مركبة على أهُبة المسير إلى برستل، واعتقد أن برستل تصلح كأي موضع سواها يمكن أن يلجأ إليه، فصعد إلى المركبة، ووصل إلى وجهته في الوقت الذي استطاع فيه الحصانان فعلًا الوصول فيه إليها، وكانا يقطعان الرحلة ذهوبًا وجيئة مرتين في اليوم أو أكثر.

واستأجر مكانًا له في فندق بش «الدغل»، ورأى أن يرجئ الكتابة إلى المستر بكوك ريثما يكون غضب المستر داولر قد خف شيئًا ما، وسكنت ثائرته قليلًا في أغلب الظن، وخرج يمشي في مناكب المدينة، لمشاهدة بعض أرجائها، فبدا له أنها أقذر هونًا ما من أي موضع زاره من قبل، وبعد أن تفقد الأحواض فيها والميناء وحركة السفن، وشاهد كنيستها الكبرى، سأل عن الطريق إلى كلفتن، فلما عرفه، ولّى وجهه شطره، ولم تكن شوارع برستل أنظف الشوارع على وجه الأرض، ولا أكثرها عرضًا، فلا غرو إذا هي لم تكن أوفرها استقامة، أو أقلها انعراجًا وتفرعًا وتشابكًا، فلم يلبث المستر ونكل أن أحسَّ ارتباكًا شديدًا إزاء كثرة منعطفاتها، وتعدد منعرجاتها، واختلاف دروبها وأزِقَّتِها المتناوحة، فوقف يدير عينه فيما حوله لعله واجد حانوتًا نظيفًا يصح أن يلتمس لديه

النصيحة ويتعرف منه مشرع الطريق.

واستقرت عينه على مبنى حديث الطلاء يبدو كأنه قد تحوَّل منذ عهد قريب إلى شيء بين حانوت ومسكن خاص، ورأى مصباحًا أحمر بارزًا فوق كوة الباب الخارجي،فكان ذلك إعلانًا كافيًا أن المكان مقر رجل مشتغل بالطب، وإن لم تكن كلمة «طبيب وجراح» منقوشة بأحرف مذهبة على لافتة فوق نافذة، لما كان في سالف الدهر يدعى قبل تحويل ذلك المبنى غرفة استقبال أمامية، واعتقد المستر ونكل أن هذا المكان صالح لكي يسترشد به، ويظفر منه بالمعلومات التي يطلبها، فدخل الحانوت الصغير حيث تقوم الأدراج، وتصطف الزجاجات والقوارير التي لصقت بها البطاقات الدالة على أسمائها ومركباتها، ولكنه لم يجد أحدًا فيه، فانثنى يمسك بقطعة من أنصاف الكراون ويدق بها المنصة، حتى يجتذب نظر أحد قد يكون في الغرفة الخلفية؛ إذ اعتقد أنها حرم المكان وعقره ومحرابه، حين رأى كلمة «عيادة» مكتوبة على الباب، بأحرف بيض في هذه المرة، على سبيل التنويع مخافة التكرار والإملال.

وعلى أول دقة، انقطع فجأة صوت كان يبدو إلى تلك اللحظة مسموعًا، وكأنه صوت شخصين في مباراة يتناجزان بحدائد الموقدة، وعلى الطرقة الثانية، خرج إلى الحانوت فتى تلوح عليه سمات الدأب، وقد وضع منظارًا أخضر اللون على عينيه، وتسلل برفق وراء المنصة وسأل الزائر ما حاجته.

وأنشأ المستر ونكل يقول: «آسف لإزعاجك يا سيدي، ولكن هلا تكرمت بإرشادي إلى...».

ولم يستكمل القول، فقد انثنى ذلك الفتى يقهقه قهقهة مدوية، ويقذف بالكتاب الكبير في الفضاء ثم يتلقاه ببراعة وهو هابط منه، يوشك أن يحطم جميع الزجاجات المصفوفة على النضد، فلا يذر منها شيئًا، وصاح يقول: «يا لها من مفاجأة!».

وفي الحق لقد كانت كذلك؛ لأن المستر ونكل شعر بدهشة بالغة من هذا التصرف الغريب الذي بدا من ذلك السيد الطبيب، حتى لقد تراجع مرغمًا إلى الباب وهو في انزعاج شديد من هذا الاستقبال العجيب الذي اسْتُقبل به.

وقال الفتى الطبيب: «يا عجب! ألا تعرفني؟».

وأجاب المستر ونكل مغمغمًا أنه لم يتشرف بهذه المعرفة من قبل.

وقال الفتى: «إذن لا تزال أمامي آمال طيبة في المستقبل، ولو ساعدني الحظ فمن يدري لعلي معالج نصف عجائز هذه المدينة، اخرج من هنا.. اخرج أيها الشقي العفن الأثيم!» وكان هذا السباب موجهًا إلى الكتاب الكبير، وإذا الفتى يتبعه بركلة بخفة ظاهرة، حتى طرحه في الطرف الآخر من الحانوت وانثنى ينزع من عينيه منظاره الأخضر، ويضحك تلك الضحكة المعهودة من صاحبنا بب سوير طالب الطب السابق في مستشفى جاي بالضاحية، والمقيم بمسكنه الخاص في شارع لانت.

وقال المستر بب سوير، وهو يهز يد المستر ونكل بحرارة ومودة صادقة: هل تريد أن تقول إنك لم تأت إليَّ قصدًا، وتهبط عليَّ وأنت عالم أني هنا؟».

وضغط المستر ونكل يد بب سوير وهو يقول: «أقسم لك أنني لم أكن أعرف».

وقال بب سوير وهو يلفت نظر صديقه إلى الباب الخارجي الذي كتبت عليه بالطلاء الأبيض ذاته هذه العبارة: بب سوير- نكمورف سابقًا: «أعجب لك كيف لم تر الاسم؟».

وأجاب المستر ونكل: «لم يسترع نظري إطلاقًا».

وقال بب سوير: «والله لو كنت أعرف أنك أنت الذي كنت تدق لبادرت إلى الخروج وأسرعت إلى أخذك بين ذراعي، ولكن أقسم لك بحياتي أنني ظننتك محصل الضرائب».

وقال المستر ونكل: «ما هذا الكلام؟».

وأجاب بب سوير: «فعلًا، وكنت أهم بأن أقول إنني لست هنا، ولكن إذا تركت لي رسالة، فتأكد أنها ستصل إليَّ؛ لأن الرجل لا يعرفني، كما لا يعرفني محصل النور، ولا محصل البلدية، وأظن أن محصل الكنيسة هو الذي يظن أنه يعرفني، أو يشبه عليَّ، وأعرف أن محصل المياه يعرفني لأنني خلعت له ضرسًا عقب قدومي إلى هنا، ولكن تعال، ادخل!».

وانثنى بب سوير بهذه الثرثرة يدفع المستر ونكل إلى الحجرة الخلفية؛ حيث لمح شخصًا يلهو بثقب نقرات صغيرة مستديرة في المدخنة بمحراك محمى في النار، وإذا ذلك الشخص هو المستر بنجمن ألن.

وصاح المستر ونكل: «جميل، هذه فرصة لم أكن أتوقعها، ما ألطف هذا الموضع الذي تحتله هنا!».

وأجاب بب سوير: «لطيف جدًّا، لطيف جدًّا، فقد اجتزت الامتحان عقب تلك الحفلة الشيقة بوقت قصير، وأعانني الأصدقاء على كل ما اقتضته هذه المهنة من مستلزمات، فارتديت حلة سوداء واقتنيت منظارًا أخضر، وجئت إلى هنا لأتراءى جدًّا ما أمكن».

وقال المستر ونكل بلهجة العريف الخبير: «وهي مهنة هينة لطيفة بلا شك».

وأجاب بب سوير: «جدًّا، حتى ليبلغ من هونها أن تستطيع بعد بضع سنين أن تضع كل أرباحها في كأس نبيذ وتغطيها بورقة من أوراق التوت».

وقال المستر ونكل: «لا يمكن أن تكون جادًّا فيما تقول، والبضاعة ذاتها...».

وعاجله بب سوير قائلًا: «صورية، يا غلامي العزيز، فإن نصف الأدراج خاوٍ، والنصف الآخر لا ينفتح».

وقال المستر ونكل: «هذا كلام لا يعقل».

وأجاب بب سوير: «حقيقي، بالشرف». وتقدم خطوة في الحانوت، وأراد أن يبين لصاحبه صدق قوله، فوقف يشد الأكر الصغيرة المذهبة التي في الأدراج المزيفة عدة شدات قوية فلا ينفتح، وانثنى يقول: «لا يكاد شيء في الحانوت يبدو حقيقيًّا غير الدود العلق، ولكنه أيضًا قديم مستعمل».

وصاح المستر وكل، وهو في دهشة بالغة: «ما كنت أتصور شيئًا كهذا، من كان يظن؟».

وأجاب بب سوير: «أرجو ألا يظن أحد، وإلا فما جدوى المظاهر إذن؟ ولكن قل لي ماذا تشرب؟ هل تشرب مما نشرب؟ حسن يا عزيزي بن، أدخل يدك في الصوان وأخرج لنا المشروب الهضام».

وابتسم المستر بنجمن ألن مبديًا استعداده وأخرج من الصوان القريب من مرفقه زجاجة سوداء تحوي براندي مملوءة إلى النصف.

وقال بب سوير: «أنت بالطبع لا تتناول عليه ماء».

وأجاب المستر ونكل: «شكرًا لك. فإن الوقت مبكر، ولكن لا بأس من تخفيفه بالماء إذا لم يكن لديك مانع».

وقال بب سوير مطوحًا بكأس في فمه بلذة شديدة وهو يقول: «ليس لديَّ أقل مانع إذا أنت وفقت بينه وبين ذوقك. يا بن، علينا بالجرة».

وأخرج المستر بنجمن ألن من المخبأ ذاته قدرًا صغيرة من النحاس، قال بب سوير إنه يعتز بها وخاصة لأنها تبدو عليها مظهر العمل، وكانت تحوي قدرًا من الماء، وأخرج المستر بب سوير من عتبة نافذة أشبه بالدرج، كتبت عليها «ماء الصودا» بضع قطع صغيرة من الفحم، وترك الماء في القدر الصغيرة يغلي على مهل، ومزج المستر ونكل الشراب بشيء منه، وأخذ الثلاثة يتجاذبون أطراف الحديث، وإذا غلام يدخل الحانوت فيقطع عليهم سبيله، وكان الغلام في حلة داكنة، وقبعة ذات شريط ذهبي، وهو يتأبط سلة صغيرة مغطاة، فما إن رآه بب سوير حتى

هلل قائلًا: «تعال هنا يا توم أيها المتشرد!».

وتقدم الغلام ممتثلًا.

وقال المستر بب سوير: «لقد وقفت بجميع أعمدة المصابيح في برستل كلها أيها المكسال البليد المهمل».

وأجاب الغلام: «كلا، لم أقف».

وقال المستر بب سوير مهددًا متوعدًا: «لخير لك ألا تفعل، منذا الذي تظنه يرضى يومًا عن استخدام رجل صاحب مهنة إذا كان الناس يرون غلامه يلعب البلي في الأزقة، أو يقفز كالضفدع؟ ألا تشعر بأي اهتمام بصنعتك أيها الخسيس؟ قل لي هل أوصلت كل الأدوية؟».

قال: «نعم يا سيدي».

- «المسحوق للأطفال في البيت الكبير الذي تسكنه الأسرة الجديدة. والحبوب التي تؤخذ أربع مرات في اليوم في دار الشيخ الحاد الطبع الذي يشكو من النقرس في ساقه؟».

- «نعم يا سيدي».

- «إذن أغلق الباب، والتفت إلى الحانوت».

وقال المستر ونكل، عقب انصراف الغلام: «قل لي، إن الأمور ليست من السوء كما تريدني أن أعتقد، فها هي ذي بعض أدوية ترسل إلى الزبائن».

وألقى المستر بب سوير نظرة على المحل ليستوثق من أنه ليس ثمة

غريب يسترق السمع، ثم أقبل على المستر ونكل، فقال وهو يغض من صوته: «إنه يتركها جميعًا في بيوت غير المرسلة إليها».

وبدا الارتباك على وجه المستر ونكل، وضحك بب سوير وصاحبه، وقال الأول: «ألم تفهم؟ إنه يذهب إلى منزل ما، فيدق الجرس، فيأتي الخادم، فيدس في يده علبة دواء في صمت وينصرف، ويحمل الخادم الدواء إلى قاعة الطعام فيفتحه رب البيت ويقرأ البطاقة التي عليها «تؤخذ جرعة منه قبل النوم» مع الحبوب نفسها، والغسيل كالمعتاد، والمسحوق من محل سوير- نكمورف سابقًا. وإلى جانب ذلك عبارة إضافية «تذاكر الأطباء تحضر بكل عناية» وما إلى ذلك ونحوه. وينثني رب البيت فيُرِيَ زوجته الدواء، وتقرأ هي العنوان، ثم يعيدونه إلى الخدم ويقرأون العنوان، وفي اليوم التالي يعود الغلام فيقول: «إنه متأسف جدًّا، والغلطة غلطته وهي نتيجة لكثر العمل في المحل، وكثرة الأدوية التي يطلب إليه تسليمها للزبائن والمستر سوير- نكمورف سابقًا- يهدي تحياته. وهكذا يزداد الناس على الأيام معرفة بالاسم، وهذه هي طريقة العمل يا بني في مهنة الطب. إنها أحسن من أي طريقة أخرى من طرق الإعلان في العالم، وقد عرفنا كيف نوزع بهذا الشكل زجاجة لا تجاوز سعتها أربع أوقيات على نصف بيوت برستل، ولا يزال أمامها مجال واسع».

وقال المستر ونكل: «يا عجبًا! لقد فهمت، هذه خطة بارعة».

وأجاب بب سوير بابتهاج شديد: «لقد خطرت لنا أنا وبن عدة طرق من هذا النوع، فمثلًا اتفقنا مع الرجل المكلَّف بإضاءة المصابيح في

الشوارع على أن نؤدي له ثمانية عشر بنسًا له في كل أسبوع نظير دق جرس الليل لدينا مدة عشر دقائق كلما جاء يطوف حول هذا الموضع، واعتاد غلامنا أن يعدو نحو الكنيسة قبل ابتداء المزامير، حين لا يبقى أمام الناس من شيء يفعلونه غير التلُّفت حولهم، فينادي باسمي، والرعب والفزع مرتسمان على وجهه، حين يسمع الجميع يقولون: يا ألله! إن أحدهم أغمي فجأة عليه، وعندئذ يطلبون: سوير- نكمورف سابقًا. ألا ما أكثر العمل لدى هذا الشاب!».

ولما فرغ المستر بب سوير وصاحبه المستر بن ألن من شرح بعض الأسرار المتعلقة بالمهنة، ارتميا على مسندي كرسيهما واستغرقا في ضحك صاخب، ولما استمتعا بهذه المجانة ملء صدريهما، تحوَّل الحديث إلى موضوعات كان المستر ونكل أكثر اهتمامًا بها من ذلك كله.

ونذكر أننا قد أشرنا في موضع سابق إلى عادة استولت على المستر بنجمن ألن عقب تعاطي البراندي وهي الاستسلام للعواطف. ولا غرابة في ذلك، كما نستطيع نحن أن نثبت، بعد أن شاهدنا فريقًا من الناس مرضى على هذه الصورة ذاتها، ولعل المستر بنجمن ألن في هذه الفترة عينها من حياته أصبح أشد نزوعًا إلى سرعة التأثر من الشراب ممَّا لمسه من قبل أو اعتراه في يوم من الأيام، وكان سبب هذه العلة هو باختصار أنه منذ قرابة ثلاثة أسابيع وهو يقيم مع المستر بب سوير، ولم يكن الامتناع عن الشراب معروفًا عن بب، كما لم يكن معروفًا عن المستر بنجمن ألن أنه من أصحاب الرؤوس القوية، فكانت النتيجة أنه ظل طيلة مقامه عند

صاحبه متراوحًا بين الثمل والسكر القليل.

وانتهز المستر بن ألن فرصة قيام المستر بب سوير إلى المنضدة لتصريف شيء من الدود العلق القديم، فأنشأ يقول للمستر ونكل: «يا صديقي العزيز، إني تعس جدًّا».

وأجاب المستر ونكل قائلًا إنه يحزنه في الحق أن يسمع ذلك منه، ويريد أن يعرف هل في إمكانه أن يفعل شيئًا لتخفيف أحزانه.

وقال بن: «لا شيء يا بني العزيز، لا شيء. إنك تذكر أربلا يا ونكل، أختي أربلا، الفتاة الصغيرة ذات العينين السوداوين، التي رأيتها حين كنا في دار واردل، لست أعرف هل اتفق لك أن رأيتها أم لا. إنها فتاة صغيرة ظريفة يا ونكل، لعل ملامحي تذكرك بملامحها لشدة الشبه بيننا».

ولم يكن المستر ونكل بحاجة إلى شيء يذكره بأربلا الفاتنة، ولم يحتج لحسن الحظ إلى مذكر؛ لأن قسمات وجه أخيها بنجمن ألن لم تكن أبدًا وبلا نزاع مجدِّدًا قويًّا لذاكرته، ولكنه أجاب بكل هدوء استطاع أن يتخذ سماته بأنه يتذكر تلك الفاتنة حق التذكر ويرجو مخلصًا أن تكون موفورة الصحة.

وكان رد المستر بن ألن الوحيد: «إن صديقنا بب إنسان لطيف».

وقال المستر ونكل: «جدًّا»، وإن لم يستطب كثيرًا اقتران الاسمين إلى هذا الحد.

ووضع المستر بن ألن الكأس أمامه، وقال بلهجة التوكيد: «لقد انتويت أن يكون كل منهما لصاحبه، فقد خلق له، وأرسل إلى هذه الدنيا

من أجله، وولد لاستكماله، يا ونكل. إن في هذه المسألة قدرًا مقدورًا يا سيدي العزيز، وليس الفارق في السن بينهما غير خمس سنين، ويوم ميلاد كل منهما في شهر أغسطس».

وكان المستر ونكل في لهفة شديدة لسماع ما سيأتي بعد ذلك، لم يُبْدِ عجبًا كثيرًا من هذا الاتفاق الغريب على ما فيه من عجب، وانثنى المستر بن ألن بعد دمعة، أو دمعتين، يقول: إن أربلا، رغم كل إكباره واحترامه وإجلاله لصديقه، قد أبدت بغير سبب ولا مبرر أشد النفور منه.

ومضى المستر بن ألن قائلًا بارتباك: «وأظن أن هناك علاقة سابقة».

وقال المستر ونكل باضطراب بالغ: «هل لديك أية فكرة عمن عسى أن يكون موضع هذه العلاقة؟».

وهنا تناول المستر ألن بن محراك النار ولوح في الفضاء به كما يشهر الجندي السلاح في الحرب فوق رأسه، وأهوى به في ضربة عنيفة على جمجمة وهمية، وختم الحديث بقوله في لهجة بالغة في التعبير: إنه يود أن يعرف من يكون، وإن هذا هو كل ما لديه.

وعاد المستر بن ألن يقول: «سأريه مدى رأيي فيه»، وانثنى يشهر المحراك في الفضاء مرة أخرى أشد عنفًا وهياجًا من الأولى.

وكان ذلك كله بالطبع مهدئًا قوي الأثر لشعور المستر ونكل، فلبث صامتًا بضع دقائق، ولكنه استجمع أخيرًا عزيمته وجرأته فسأل: «هل مس ألن تقيم الآن في كنت؟».

وأجاب المستر بن ألن وهو يلقي المحراك جانبًا وينظر نظرات مكر: «كلا، كلا؛ لأنني لم أعتقد أن بيت واردل هو المكان الصالح تمامًا لإقامة فتاة عنيدة مثلها، ولما كنت الوصي عليها وحاميها الطبيعي، بعد وفاة أبوينا، رأيت أن أحضرها معي إلى هذه البقعة من البلاد؛ لتقضي بضعة أشهر عند عمة عجوز لها تقيم في بيت هادئ لطيف يغمره السكون، وأعتقد أن هذا هو خير علاج لها يا بني، فإذا لم ينجح العلاج، فسوف أسافر إلى الخارج؛ لأرى هل هذا الدواء الآخر سيصلح من شأنها أو لا».

وقال المستر ونكل متلعثمًا: «آه! هل تقيم العمة العجوز إذن في برستل؟».

وأجاب بن ألن، وهو يهز سبابته من فوق كتفه اليمنى: «كلا، كلا، ليست في برستل. إنها في تلك الناحية هناك، ولكن صه، فها هو ذا بب، لا تقل كلمة واحدة يا صديقي العزيز، ولا كلمة واحدة».

وقد أثار هذا الحديث، على قصره، أشد الاضطراب والقلق في نفس المستر ونكل، وأحس وجيعة في أعماق قلبه من سماعه نبأ «العلاقة السابقة» التي تحدث المستر بن ألن عنها. أتراه هو المقصود بها؟ وهل يجوز أن تكون أربلا الحسناء قد ذهبت من أجله تنظر بعين السخرية والنفور إلى بب سوير أو أن له مزاحمًا ناجحًا؟ ولم يلبث أن صحت منه النية على لقائها، مهما كلفه لقاؤها من ثمن، ولكن حائلًا لا سبيل إلى التغلب عليه تراءى لخاطره، وهو ما كان يعنيه المستر بن ألن بقوله: «في تلك الناحية، وهناك» فهل الموضع على مبعدة ثلاثة أميال

أو ثلاثين ميلًا أو ثلاثمائة، إنه لم يستطع أن يحرز من ذلك القول شيئًا.

ولكن الفرصة لم تواته للتفكير في حُبِّهِ عندئذٍ؛ لأن عودة بب سوير كانت البشير العاجل بوصول فطيرة محشوَّة باللحم من عند الخباز، وإلحاح ذلك السيد عليه في البقاء للاشتراك في تناولها. وجاءت خادمة عارضة تشتغل في البيت بغسل الثياب وتنظيف المسكن، فوضعت الغطاء فوق المائدة وسكينًا ثالثًا وشوكة أخرى استعارتهما من أم الغلام ذي الحلة الرمادية؛ لأن تدابير المستر سوير المنزلية كانت حتى الآن في نطاق محدود، وجلسوا لتناول الطعام، وسُعِيَ عليهم بالجعة، في أوعيها «المحلية» كما قال المستر سوير، وهي آنية من القصدير.

وبعد الطعام أمر المستر بب سوير بإحضار أكبر مهراس- هاون- في المحل، وشرع في مزج شراب خليط فيه من الروم والبنتش، وجعل يحركه ويمزج مواده الأولية بمدق الهاون في براعة الصيدلي الخبير، وكان المستر سوير أعزب، فلم يكن لديه سوى قدح كبير لا ثاني له في البيت كله، فخصبه المستر ونكل تحية للضيف، بينما قنع المستر بن ألن بقُمع وضَع سدادة له في طوفه الضيق، وخص بب سوير نفسه بأحد تلك الأوعية الزجاجية الواسعة الحافة نقشت عليه تلك الحروف الخفية التي اعتاد الكيميائيون أن يكيلوا بها العقاقير والأدوية السائلة التي تحويها وصفات الأطباء. ولما انتهت هذه التمهيدات، أقبلوا على البنتش يذوقونه، وحكموا له بالجودة وطيب المذاق، وكان قد تم الاتفاق على أن يكون بب سوير وبن ألن طليقي الإرادة، في تناول كأسين لقاء كأس واحدة يتناولها المستر ونكل، وبدأوا الشراب على هذه القسمة العادلة،

برضى بالغ، ورفقة حسنة.

ولم يحدث غناء؛ لأن المستر بب سوير قال: إنه لا يتفق ومقتضيات المهنة، ولكنهم استعاضوا عن هذا الحرمان بكثرة الكلام والضحك اللذين يستطاع سماعهما، بل يرجح سماعهما في نهاية الشارع، وكان هذا الحديث قد خفف كثيرًا من وطأة الوقت على غلام المستر بب سوير، وأصلح من باله وخاطره، فمضى بدلًا من أن يخصص المساء لعمله المألوف وهو كتابة اسمه على النضد ثم محوه بعد كتابته، يطل من خلال الباب الزجاجي، ويصغي وينظر في آنٍ واحد.

ولم يلبث مرح المستر بب سوير أن اشتد فاستحال إلى صخب شديد، وهبط المستر بن ألن وشيكًا في وادي العواطف، وكاد البنتش يختفي جملة، حين جاء الغلام مسرعًا يقول: إن شابة قد حضرت في تلك اللحظة وقالت: إن سوير- نكمورف سابقًا- مطلوب في الحال عند قوم يسكنون على قيد شارعين اثنين من الدار، فاضطر الجمع إلى الانفضاض، وفهم المستر بب سوير فحوى هذه الرسالة، وبعد أن كررت له عشرين مرة أو نحوها، ربط قطعة قماش مبللة حول رأسه؛ ليفيق من الشراب، وكاد يفيق شيئًا ما بالفعل، ووضع منظاره الأخضر على عينيه وانطلق.

أما المستر ونكل فقد قاوم كل إلحاح عليه في البقاء ريثما يعود المستر بب سوير، ووجد أن لا سبيل أمامه إلى اجتذاب المستر بن ألن إلى حديث مُجْدٍ في الموضوع الحبيب إلى فؤاده أو أي حديث سواه،

فاستأذن في الانصراف، وعاد إلى غرفته في فندق «بش».

وكان القلق الذي استحوذ على خاطره، والأفكار المتزاحمة عليه والتي أثارتها أربلا وأيقظتها في أعماق نفسه، قد حالا بين النصيب الذي تناوله من البنتش وبين إحداث التأثير الذي كان بلا شك محدثه في ظروف أخرى، وبعد أن تناول كأسًا من البراندي والصودا في محل الشراب بالفندق، عاد إلى غرفة القهوة، مهموم النفس غير منتعش الخاطر، من أثر الحوادث التي جرت في ذلك المساء.

ولم يكن في الغرفة سوى سيد يغلب طول القوام عليه، وهو في معطف كبير، وقد جلس قبالة الموقدة موليًا ظهره إليه، وكان المساء أميل إلى البرودة بالنسبة إلى ذلك الموسم من السنة، فعمد ذلك السيد إلى التنحي بمقعده قليلًا؛ ليكفل للقادم الجديد رؤية النار. فماذا عسى أن يكون شعور المستر ونكل، حين فعل السيد ذلك فكشف لعينيه عن وجه «داولر» الحانق عليه المهدد بسفك دمه؟

وكان الدافع الأول الذي انبعث في نفس المستر ونكل هو جذب أقرب مقبض جرس من موضعه، ولكن تبين لسوء الحظ أنه خلف مقعد المستر داولر مباشرة، وكان المستر ونكل قد تقدم خطوة واحدة صوبه، ولكنه ارتدَّ عن التقدم، ورأى داولر ذلك منه فبادر إلى التراجع، وانثنى يقول وهو أكثر حلمًا مما كان يتوقعه المستر ونكل من رجل في مثل شراسته ووحشيته: «المستر ونكل! سيدي هدئ روعك، ولا تضربني؛ لأنني لن أحتمل ضربة أبدًا!».

وقال المستر ونكل متلعثمًا: «أتقول ضربة يا سيدي؟».

وأجاب المستر داولر: «نعم، ضربة يا سيدي. هدئ ثائرتك، واجلس واستمع لقولي».

وأجاب المستر ونكل وهو يرتعد من فرعه إلى قدمه: «قبل أن أرضى بالجلوس بجانبك أو قبالتك، في غياب أحد من الخدم، يجب أن أطمئن إلى مزيد ولو قليل من التفاهم، لقد هددتني يا سيدي في الليلة الماضية، ووجهت إليَّ وعيدًا مروعًا».

وهنا اشتد شحوب المستر ونكل فعلًا ووقف عن الكلام.

وقال المستر داولر وقد ارتد وجهه شاحبًا كوجه المستر ونكل أو قريبًا منه: «صحيح، كانت الظروف مريبة. لقد شُرحت لي واستبانت. إنني أحترم شهامتك وأقدر سمو إحساسك. وأومن ببراءة ذمتك ونقاء ضميرك، هذه يدي، تناولها!».

وقال المستر ونكل، وهو متردد لا يدري أيمد يده إليه أم يقبضها عنه، ويكاد يخشى أن يكون وراء تقديم الرجل يده إليه مأرب يراد به الاستمكان منه: «إنني في الحقيقة يا سيدي، إنني...».

وقاطعه المستر داولر قائلًا: «إنني فاهم ما تعني. إنك شاعر بأنك قد ظُلِمْتَ، طبيعي جدًّا، وكذلك أنا، لقد أخطأت في حقك، أستسمحك لنكن صديقين، اصفح عني». وبهذه الكلمات انثنى المستر داولر يضع يده بالإكراه في يد المستر ونكل، ويهزها بشدة متناهية ويعترف له بأنه إنسان شهم، نبيل النفس كل النبل، وإنه قد ازداد تقديرًا له عما كان من قبل.

وأنشأ يقول: «والآن، اجلس، واقصص على سمعي الخبر من أوله إلى آخره. كيف اهتديت إلى مكاني؟ ومتى تبعتني؟ كن صريحًا. قل لي».

وأجاب المستر ونكل، وهو في ارتباك شديد من هذه المقابلة الغريبة التي لم يكن يتوقعها مطلقًا: «لقد كان ذلك عَرَضًا ومجرد مصادفة».

وقال داولر: «يسرني ذلك. لقد استيقظت في هذا الصباح، وكنت قد نسيت وعيدي، فضحكت من الحادث، وأعلنت أن شعوري ودي، وأنني لا أضمر شرًّا».

وسأل المستر ونكل: «لمن أعلنت ذلك؟».

وأجاب داولر: «لمسز داولر، فقالت: ولكنك أقسمت، قلت: نعم. قالت: كنت متهورًا. قلت: نعم، سأعتذر، أين هو؟».

وقال المستر ونكل: «من؟».

وأجاب داولر: «أنت، نزلت السلم، لم أهتد إليك، كان بكوك يبدو متجهمًا، تناولت يده فهززتها، قلت أرجو أن لا يحدث عنف، لقد تبينت كل شيء، لقد شعرت بأنك أهنت، لعلك بحثت عن شاهد، ربما طلبت مسدسات، روح عالية، إنني معجب بك».

وسعل المستر ونكل، وبدأ يدرك حقيقة الموقف، فاتخذ سمات الجد وخطر الشأن.

واستطرد داولر: «لقد تركت لك رقعة، قلت فيها إنني آسف، والواقع إنني كذلك، وأن عملًا عاجلًا اقتضاني القدوم إلى هنا، ولكنك لم تقتنع،

فتبعتني، طالبًا اعتذارًا شفويًا مني، وأنت على حق، انتهت القصة الآن، وانتهى العمل العاجل الذي ذكرته لك، وسأعود غدًا، فتعال معي».

وكان وجه المستر ونكل خلال هذا البيان الذي أدلى به داولر على سبيل الشرح والتفسير قد بدأ يلوح أكثر وقارًا من ذي قبل؛ فقد عرف منه سر تلك البداية الغامضة التي بدت له من أول الحديث، وتبيَّن أن المستر داولر لم يكن أقل منه إحجامًا عن المبارزة، وأدرك باختصار أن كل هذا الضجيج الذي أوتيه هذا الشخص المرهوب إنما يخفي من ورائه إنسانًا من أشد الناس جبنًا في العالم؛ فقد علل غيابه على أساس مخاوفه هو وجبنه، فاتخذ الإجراء ذاته الذي لجأ إليه، ورأى من الحكمة أن يختفي، حتى يهدأ الهياج وتسكن الثائرة.

وما كادت حقائق الموقف تطالع خاطر المستر ونكل على هذا النحو حتى اتَّخَذَ سمات الرهبة والخطر وقال: إنه قد اقتنع كل الاقتناع. ولكنه استدرك قائلًا بلهجة لم تدع أمام المستر داولر سبيلًا غير الاعتقاد بأنه لو لم يفعل ما فعله لوقع حتمًا حادث من أخطر الأحداث وأشدها نكرًا، حتى لقد بدا على المستر داولر التأثُّر الصادق برفعة نفس المستر ونكل وشهامته والإيمان العميق بتواضعه وسماحته، فافترق المحاربان ليأوي كل منهما إلى النوم، بعد تبادل كثير من مظاهر الصداقة الأبدية وعباراتها.

وعند الساعة الثانية عشرة والنصف أو قرابتها، أو بعد عشرين دقيقة أو نحوها استمتع فيها المستر ونكل بأول نوم هنيٍّ تواتى له عقب ذلك الحادث، استيقظ فجأة على طرق شديد بباب غرفته، وتوالى الطرق

بعنف متزايد، فلم يلبث أن استوى جالسًا في فراشه ليسأل من الطارق وما الخطب؟!

وسمع عندئذ صوت الفتاة الموكلة بغرف الفندق وهي تقول: «من فضلك يا سيدي، هنا شاب يقول إنه يريد مقابلتك في الحال».

وصاح المستر ونكل قائلًا: «شاب؟».

وإذا صوت آخر يجيبه من خلال ثقب المفتاح: «لا خطأ في ذلك يا سيدي، وإذا لم يؤذن لهذا الشاب المهم بالدخول في الحال، فمن الجائز جدًّا أن ساقيه ستدخلان قبل وجهه».

وانثنى ذلك الشاب يركل بقدمه الجزء الأسفل من ألواح الباب، كأنما يريد أن يتبع القول العمل.

وصاح المستر ونكل، وهو يثب من فراشه: «أهذا أنت يا سام؟».

وأجاب ذلك الصوت بلهجة منطقية: «يستحيل على الإنسان أن يعرف سيدًا ما، ويتأكد أنه هو بعينه، ما لم ينظر إليه يا سيدي».

ولم يشك المستر ونكل أكثر مما ينبغي في أن الطارق هو ذلك الفتى بعينه، ففتح الباب، ولم يكد يفعل حتى دخل المستر صمويل ويلر بسرعة بالغة وراح بكل عناية وحرص يغلقه من الداخل ويضع بكل تؤدة المفتاح في جيب صداره، وبعد أن أجال عينه في المستر ونكل من فرعه إلى قدمه، انثنى يقول: «إنك لسيد شاب مضحك جدًّا يا سيدي».

وقال المستر ونكل بغضب: «ماذا تقصد بهذا السلوك يا سام؟ اخرج من هنا حالًا يا سيدي، ماذا تقصد يا سيدي؟».

وأجاب سام: «تسألني ماذا أقصد؟ حسبك هذا، هذا شيء زائد على الحد، كما قالت السيدة لبائع الفطير احتجاجًا حين باع لها فطيرًا باللحم، فلم تجد في جوفه شيئًا غير الشحم. تسألني ماذا أقصد؟ سؤال لا بأس به. سؤال لطيف فعلًا».

وقال المستر ونكل: «افتح الباب كما كان، واخرج من هذه الغرفة حالًا يا سيدي».

وأجاب سام بلهجة قوية، وهو يجلس بكل جد ورزانة: «سأخرج من هذه الغرفة يا سيدي في اللحظة ذاتها التي ستخرج فيها معي، وإذا لم يكن بد من حملك على ظهري حملًا، فسأخرج منها في أقل مما يستغرقه خروجك أنت منها وحدك، ولكن اسمح لي أن أعبر عن أملي في أن لا تضطرني إلى استخدام القوة، ومجاوزة الحد، وهي كلمة أقتبسها من ذلك النبيل الذي قال لذلك القوقع العنيد الذي لم يشأ أن يخرج من المحارة بدبوس، بدأ يخشى أن يضطر إلى كسره على باب غرفة الاستقبال».

وما إن انتهى سام من هذه الخطبة التي بدت طويلة على خلاف المألوف منه، حتى وضع يديه فوق ركبتيه، ونظر طويلًا إلى وجه المستر ونكل بشكل يوحي بأنه لا ينوي مطلقًا أن يدع أحدًا يستخف به.

ومضى المستر ويلر يقول بلهجة التأنيب والملامة: «لقد عهدتك يا سيدي شابًّا وديعًا محبوبًا، فلا أظن أنك ترضى أن تجر معلمنا– وهو الرجل العظيم القدر– إلى مشاكل ومتاعب من كل نوع، في الوقت الذي

يحرص فيه على التمسك بالمبدأ في كل شيء، إنك يا سيدي ألعن من ددسن، وأما فج، فإني أعده ملاكًا بالنسبة لك».

ومضى المستر ويلر يقرن هذا الرأي الأخير بضربة مؤكدة على كل ركبة من ركبتيه، وشبك ذراعيه فوق صدره، وينظر نظرة نفور شديد، ويلقي بظهره على مسند كرسيه، كأنما يترقب دفاع المجرم عن نفسه.

وقال المستر ونكل وهو يمد إليه يده، وتصطك أسنانه من البرد؛ لأنه ظل واقفًا طيلة الوقت الذي استغرقته محاضرة المستر ويلر، في جلباب النوم: «اسمع أيها الإنسان القويم الخلق، إنني مقدر إخلاصك لصديقي الفاضل، وإني لآسف كل الأسف على أنني قد زدته متاعب على متاعبه.. هذا ما أردت أن أقوله لك يا سام. فهل فهمته؟».

وقال سام بعبوس، وإن كان في الوقت ذاته قد تناول اليد الممتدة إليه فهزها هزة الاحترام: «هذا كلام طيب، ولك حق أن تتأسف فعلًا، وأنا مسرور كل السرور لاهتدائي إليك هنا؛ لأنني لا أتحمل أحدًا يغضبه، إذا أمكن، هذا هو كل ما في المسألة».

وقال المستر ونكل: «بلا شك يا سام. الآن اذهب إلى الفراش وسنوالي الكلام في هذا الأمر حين يطلع النهار».

وقال سام: «متأسف جدًّا! لا أستطيع أن أذهب إلى الفراش».

وردد المستر ونكل كلماته: «لا تستطيع أن تذهب إلى الفراش!».

وقال سام وهو يهز رأسه: «نعم. لا يمكن».

وأجاب المستر ونكل وهو في دهشة شديدة: «لا أظنك تقصد أن

تقول إنك راجع الليلة يا سام؟».

وقال سام: «لست راجعًا إلا إذا كنت أنت تشدد في الرجوع، ولكن لا يمكنني أن أغادر هذه الغرفة. إن أوامر المعلم صريحة قاطعة».

وأجاب المستر ونكل: «هذا كلام لا معنى له يا سام؛ لأنني مضطر إلى البقاء هنا يومين أو ثلاثة أيام، وإلى جانب هذا يا سام يجب أن تقيم هنا معي لمساعدتي على الظفر بمقابلة شابة، وهي مس ألن يا سام، وأنت تتذكرها؛ لأنه من المحتوم أن أراها، وسأراها، قبل أن أغادر برستل».

ولكن سام جعل يهز رأسه ردًّا على كل فقرة من هذا الكلام بإصرار شديد، وبادر إلى الجواب بقوة فقال: «هذا لا يمكن».

وبعد جدل طويل، وشرح كثير، من جانب المستر ونكل، وعقب مكاشفته بكل ما جرى بينه وبين داولر عند مقابلته، بدأ سام يتردد، وأخيرًا تم التراضي على شروط كان أهمها أن يأوي سام إلى الفراش ويترك للمستر ونكل غرفته لا ينازعه ملكيتها بشرط أن يسمح له بإقفالها بالمفتاح من الخارج على أن يأخذ المفتاح معه، بجانب شرط دائم، وهو أن يبادر في الحال إلى فتح الباب إذا شب في الفندق حريق، أو طرأ طارئ ينذر بخطر.

وكان من بين الشروط المتفق عليها كذلك أن يرسل كتابًا إلى المستر بكوك في الصباح الباكر، على يد داولر؛ رجاء الموافقة على بقاء سام والمستر ونكل في برستل؛ تنفيذًا للغرض الذي سلف ذكره، وإرسال الرد بالموافقة على بقائهما، برجوع البريد، أو بطلب عودتهما

إلى باث بمجرد وصوله إليهما.

والشرط الأخير أن يكون مفهومًا لدى الطرفين أن المستر ونكل قد تعهد ألا يلجأ إلى الهرب من هذه الساعة إلى مطلع النهار، بالقفز من النافذة أو سلم الحريق، أو بأي وسيلة من وسائل التسلل والغدر بالعهد[1].

وبعد أن صادق الطرفان على هذه الشروط انصرف سام وأغلق الباب من الخارج.

ولم يكد يهبط السلم حتى وقف وأخرج المفتاح من جيبه.

ومضى يقول وهو يتولى بظهره ليعود من حيث أتى: «لقد نسيت كل ما يتعلق بمسألة التجائي إلى الضرب واللكم. فقد قال المعلم بصراحة إنه لا بد منهما. إني لغبي فعلًا». ولكنه ما لبث أن تهلل وعاد يقول: «لا بأس. هذا شيء يمكن عمله بسهولة غدًا على أية حال».

وبدا كأن هذه الفكرة قد ارتضته كثيرًا فرد المفتاح إلى جيبه، ونزل بقية السلم، بغير تردد آخر أو تصور مخاوف جديدة، ولم يلبث كبقية سكان الفندق ونزلائه أن هبط في سبات عميق.

* * *

(١) انظر كيف جعلها دكنز مسألة قانونية، كأنها عقد اتفاق له نصوص وبنود، وأضفى عليها روح فكاهة ممتعة.

الفصل التاسع والثلاثون

كيف عهد إلى المستر صمويل ويلر برسالة غرامية فمضى ينفذها، ومدى النجاح الذي تواتى له في هذا السبيل

وظل سام طيلة اليوم التالي بالمرصاد للمستر ونكل لا يدعه لحظة يفارق عينيه، معتزمًا كل الاعتزام ألا يتركه يفلت منه، حتى يتلقى تعليماتٍ صريحةً من المصدر الرئيس، ورغم استياء المستر ونكل من هذه الرقابة الشديدة التي لمسها من سام ويقظته التامة لحركاته وسكناته، آثر أن يحتملها على أن يعمد إلى الاعتراض الشديد عليها، فيستهدف لخطر حمله عنوة، وأخذه بالقوة، كما لمح المستر ويلر أكثر من مرة وردَّد القول أن هذا هو المسلك الذي يملي عليه الشعور بالواجب الالتجاء إليه، وليس ثمة كبير شك في أن سام كان سيعمد بسرعة إلى إزالة شكوكه، بحمل المستر ونكل عنوة إلى باث، وشد وثاقه، لو لم يتنبأ المستر بكوك بهذا الأمر فيحتط له، حين تلقى الكتاب المرسل إليه

على يد داولر، واهتم في الحال به، وقصارى القول أنه ما حلت الساعة الثامنة من المساء حتى كان المستر بكوك نفسه يخطو نحو قاعة القهوة في فندق «بش» ويقول لسام وهو يبتسم إنه قد أحسن صنعًا، وإنه لم تبق حاجة إلى القيام بعمل الحراسة بعد الآن، فكان ذلك مدعاة طمأنينة لنفسه وسرور شديد.

وأنشأ المستر بكوك يقول مخاطبًا المستر ونكل بينما كان سام يعاونه على خلع معطفه ولفاعة السفر: «لقد رأيت من الخير أن أحضر بنفسي لكي أستوثق قبل أن أوافق سام على تنفيذ مهمته، هل أنت جاد حقًّا فيما يتعلق بتلك الفتاة؟».

وأجاب المستر ونكل بكل قوة: «نعم جاد من كل قلبي».

وقال المستر بكوك وعيناه تبرقان: «تذكر أننا التقينا بها في دار صديقنا الفاضل العظيم الكريم يا ونكل، وإن العبث بعواطف هذه الشابة، والاستخفاف بمشاعرها، هما مقابلة الصنيع الجميل بالسوء، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان، إنني لا أقبل هذا العبث وذلك الاستخفاف ولن أسمح به».

وأجاب المستر ونكل بحماسة: «ليس في نفسي نية كهذه إطلاقًا، لقد فكرت في الأمر مليًّا، وأيقنت أن سعادتي مرتبطة بها».

وهنا قاطعه المستر ويلر بابتسامة لطيفة قائلًا: «إن هذا هو ما نصفه بقولنا حزم الشيء في ربطة صغيرة يا سيدي».

وبدا على وجه المستر ونكل شيء من العبوس لهذه المقاطعة،

والتفت المستر بكوك إلى خادمه غاضبًا وطلب إليه ألا يمزح في أمر يتصل بعاطفة من أسمى العواطف في الطبيعة البشرية، فكان جواب سام قوله إنه ما كان ليمزح، لو عرف أنها كذلك، ولكن هذه العواطف البشرية كثيرة إلى حد لا يكاد يعرف معه حين يسمع عنها أنها أسمى وأرفع من الأخرى.

ومضى المستر ونكل عندئذٍ يقص ما كان بينه وبين المستر بن ألن فيما يتصل بأرابلا، وقال: إن كل غرضه هو أن يظفر بلقائها ليكاشفها صراحة بحبه، وإنه يعتقد بناء على تلميحات معينة وتمتمات من بن ألن أنها في هذه الساعة تقيم في موضعٍ ما قريب من التلال، وأن هذا هو كل ما عنده من المعلومات والهواجس في هذا الشأن.

وصحَّت النية على أن يبدأ المستر ويلر من صباح اليوم التالي رحلة اكتشاف رغم هذه المعلومات القليلة التي سيهتدي بها، كما تم الاتفاق على أن يتولى المستر بكوك والمستر ونكل- وكان هذا أقل ثقة من صاحبه بقوتهما- الطواف بأرجاء المدينة والنزول عرَضًا على المستر بب سوير في أثناء النهار على أمل أن يشهدا أو يسمعا شيئًا عن الموضع الذي تقيم الفتاة فيه.

وانطلق سام ويلر في صباح اليوم التالي معتزمًا البحث والتحري، لا يروعه مطلقًا هذا المطلب المثبط للعزيمة كل التثبيط الذي خرج من أجله ومضى يذرع الشوارع، صاعدًا شارعًا، وهابطًا شارعًا آخر، فوق روابي كلفتون دون سواها، دون أن يلتقي بشيء أو أحد قد يلقي أقل بصيص من الضوء على الأمر الذي عهد به إليه، فكم من أحاديث أجراها مع

ساسة الخيل وهم آخذوها إلى الطريق «لتهويتها»، ومع المربيات وهن يصحبن الأطفال إلى الرياضة في الأزقة والدروب، ولكنه لم يستطع أن يستخلص من تلك الأحاديث كلها شيئًا يصح أن يشير أقل إشارة إلى ما هو بسبيل البحث عنه والاستعانة بالحيلة والبراعة على تحري الحقيقة فيه، فالبنات كثيرات في كثير من البيوت، وأغلبهن- في ظن الخدم والخادمات- على صلات وثيقة ببعض الفتيان أو على استعداد للاتصال بهم إذا سنحت الفرص لهن، ولكن لم تكن منهن واحدة هي بالذات مس أرابلا ألن، فلبث سام في جهل تام، وبقي آخر المطاف كما كان حين ابتدأ.

وهبَّت عليه في الطريق ريح عاصفة فجعل يغالبها متسائلًا: هل من ضرورة تدعو المرء أن يظل ممسكًا بقبعته بكلتا يديه في ذلك الموضع، حتى أتى على بقعة ظليلة تراءت له عندها عدة مغانٍ صغيرة متناثرة تبدو عليها السكينة والعزلة والهدوء، وبصر خارج باب إسطبل في نهاية زقاق خلفي مستطيل لا منفذ له بسائس قد خلع عنه ثوبه وراح يتسكع في الزقاق متبطلًا، كأنما يريد أن يقنع نفسه بأنه يفعل شيئًا بفأس أو عجلة ذات دولاب واحد، وهنا يصح أن نقول إنه ما من سائس شوهد يومًا بقرب الإسطبل في ساعات فراغه، إلا كان إلى حد ما فريسة لهذا التوهم الفذ الغريب.

وخطر لسام أنه لا بأس من التحدث إلى هذا السائس، كأي أحد سواه، ولا سيما أنه قد تعب من كثرة المشي، ووجد حجرًا ضخمًا قائمًا قبالة العجلة، فتقدم في الزقاق، وجلس فوق ذلك الحجر، وافتتح

الحديث مع السائس بتلك السهولة والسماحة اللتين عرفتا عنه.

وأنشأ يقول: «صباح الخير يا صاح».

وأجاب السائس وهو يلقي نظرة غاضبة إليه: «تقصد مساء الخير».

وقال سام: «إنك محق كل الحق يا صديقي، إنني أقصد فعلًا المساء. كيف أنت؟».

وأجاب السائس الحاد الطبع: «لا أجد نفسي أحسن حالًا لرؤيتك».

وقال سام: «ذلك أمر جد غريب؛ لأنك تلوح مبتهجًا على غير المألوف، وتبدو مشرقًا حتى لتسر القلب رؤيتك».

وازداد السائس الحاد الطبع حدة لهذا القول، ولكن ليس إلى الحد الكافي لإحداث أي أثر في نفس سام، فراح هذا في الحال يسأل بلهفة شديدة: «هل يدعى مولاه ووكر؟».

وقال السائس: «كلا، ليس هذا اسمه».

وقال سام: «ولا براون أيضًا؟».

- «ولا براون كذلك».

- «ولا ولسن؟».

- «كلا، ولا هذا أيضًا».

وقال سام: «أنا مخطئ إذن، ولم يتشرف بمعرفتي، وكنت أظن أنه تشرف بها».

ورآه يدفع العجلة أمامه ويستعد لإغلاق الباب، فمضى يقول له: «لا

تعجل هكذا دون أن تحييني، وتقدم الراحة الشخصية على عناء الكلفة يا بني. أنا سأسامحك».

وقال السائس الشرس وهو يغلق نصف الباب: «سأفصل رأسك عن جسمك نظير نصف كراون».

وأجاب سام: «لا يمكن أن تضمن ذلك بهذا الشرط؛ لأنه يساوي أجر طعامك وشرابك مدى الحياة على أقل تقدير، ثم يبقى مع ذلك رخيصًا زهيد الثمن، بلغ سلامي لأهل البيت، وقل لهم ألا ينتظروا قدومي للغداء ولا ضرورة لإبقاء شيء منه لي؛ لأنه سيبرد قبل حضوري».

واشتد غضب السائس من هذا الجواب وزمجر وتمتم مبديًا الرغبة في تدمير شخص ما أو قتله، ولكنه اختفى دون تنفيذها، مغلقًا الباب في حنق وراءه، غير ملق بالًا إلى رجاء سام وتوسُّله إليه أن يترك له خصلة من شعره قبل انصرافه.

ولبث سام مقتعدًا ذلك الحجر الضخم، يفكر فيما يحسن أن يفعله، ويبحث في خطة ترمي إلى دق جميع الأبواب الواقعة في نطاق خمسة أميال من برستل، بمعدل مائة وخمسين بيتًا في اليوم، ويحاول بهذه الوسيلة الاهتداء إلى مكان مس أرابلا وإذا الظروف تلقي فجأة بما كان محتملًا أن يظل جالسًا في موضعه هذا عامًا كاملًا ولا يهتدي إلى مثله.

فقد رأى في الزقاق الذي كان جالسًا فيه ثلاثة أبواب أو أربعة لحدائق تتصل بعدة منازل كانت كلها متباعدة، بعضها من بعض، وإن لم تكن تفصلها غير تلك الحدائق، وكانت الحدائق من الطول والعرض

والرحابة وحسن تخطيط الأشجار في منافسها بحيث لم تكن المنازل متباعدة فحسب، بل كان معظم أجزائها يكاد يحتجب عن العين، وكان سام جالسًا يطيل النظر إلى كومة من التراب خارج الباب التالي الذي اختفى السائس منه، يقلب في خاطره الصعاب التي تواجهه في سبيل تحقيق مهمته وإذا الباب يفتح، فتخرج منه خادمة إلى الزقاق لتنفيض بعض البسط المفروشة بجوار السرر.

وكان سام غارقًا في لجة من الأفكار، وكان يغلب على الظن ألا يتجاوز اهتمامه بتلك الخادمة مجرد رفع رأسه وقوله لها: إنها مليحة أنيقة جميلة القوام، لو لم يستثر في نفسه روح الشهامة والنجدة منظرها، وهي بلا عون يمد لها يد المساعدة، على تنفيض تلك البسط الثقيلة التي تنوء بها قواها بمفردها، وكان المستر ويلر سيدًا أخا شهامة عظيمة على طريقته الخاصة، فلم يكد يشهد هذا المنظر حتى نهض مسرعًا من فوق الحجر الضخم وتقدم نحوها وانثنى يقول وهو يدنو منها باحترام شديد: «يا عزيزتي ستفسدين هذا الجمال البديع كل الإفساد إذا أنت نفضت هذه البسط وحدك، دعيني أساعدك».

وكانت الفتاة تتظاهر على استحياء أنها لا تدري أن رجلًا بجوارها، فلما سمعت هذا القول تلفتت في اللحظة التي كان سام يتكلم فيها؛ لكي ترفض- كما قالت فيما بعد- عرضًا تقدم به إليها رجل غريب لا تعرفه بتاتًا، ولم تتكلم بل ارتدَّت متراجعة وأطلقت صرخة تكاد تكون مكبوتة، ولم يكن سام أقل منها ارتباكًا وذهولًا؛ لأنه رأى في وجه تلك الخادم المقسم المليح عيني الحبيبة الحسناء التي كانت في خدمة المستر نبكن.

وقال سام: «عزيزتي ماري!».

وقالت ماري: «المستر ويلر، لقد أخفتني».

ولكن سام لم يجب بالكلام عن هذه الصيحة الشاكية، ولسنا نستطيع نحن أن نعين تمامًا أي جواب عمد إليه، وإنما كل ما نعرفه أن ماري راحت بعد فترة قصيرة تقول: «رباه! حسبك يا مستر ويلر!» وأن قبعته كانت قد سقطت من فوق رأسه قبل ذلك ببضع لحظات، وهما أمران يجعلانا نميل إلى استنتاج شيء واحد، وهو أن الجانبين تبادلا قبلة أو أكثر.

وقالت ماري حين اتصل الحديث الذي عرض له هذا الذي قطعه عليهما: «كيف أتيت إلى هنا؟».

وأجاب المستر ويلر، وقد ترك لأول مرة عاطفته تتغلب على نزوعه إلى الصدق: «لقد أتيت طبعًا للبحث عنك يا عزيزتي».

وقالت ماري: «وكيف عرفت أنني هنا، ومن الذي قال لك إنني تركت الخدمة في أبسويتش إلى بيت آخر عند قوم جدد، وأنهم انتقلوا بعد ذلك إلى هنا، من عسى أن يكون قد أنبأك بذلك كله يا مستر ويلر؟».

وقال سام بنظرة ماكرة: «هذا هو بيت القصيد بلا ريب. من تراه قال لي؟».

وقالت ماري: «ألم يقل لك المستر مزل؟».

وأجاب سام بهزة جدية من رأسه: «كلا، لم يكن هو الذي قال لي».

وقالت ماري: «لا بد إذن أن تكون الطاهية».

وقال سام: «لا بد بطبيعة الحال».

وصاحت ماري قائلة: «ما سمعت بمثل هذا من قبل. إنه لشيء عجيب».

وقال سام: «ولا أنا. ولكن يا عزيزتي ماري». وهنا ازداد تلطفًا واسترسل يقول: «ولكن يا عزيزتي ماري إن لدي في هذه اللحظة مسألة أخرى عاجلة جدًّا، إن أحد أصدقاء المعلم وهو المستر ونكل، أتذكرينه؟».

وقالت ماري: «أهو الذي يرتدي السترة الخضراء، آه. نعم، إنني متذكرته».

وقال سام: «إنه في حال شنيعة من الحب، برح به الوجد واستولى عليه الهيام».

وقالت ماري: «يا إلهي!».

ومضى سام يقول: «نعم. ولكن هذا لا يعد أمرًا ذا بال إذا أمكننا أن نهتدي إلى الشابة التي يحبها». وهنا راح يشرح بأمانة قصة محنة المستر ونكل، مع عدة شطحات عن الموضوع للتغزل في جمال ماري والتشبيب بحسنها، وذكر الآلام التي لا توصف، وألوان العذاب والتباريح التي قاساها منذ آخر عهده بلقائها.

وقالت ماري: «أما أنا فلم أُقاسِ منها شيئًا مطلقًا».

وأجاب سام: «طبعًا، ولم يقاس مثلها أحد من قبلي، ولن يقاسيها أحد من بعدي، وهأنت ذي ترينني هائمًا على وجهي كاليهودي التائه،

وهو رجل «رياضي» لعلك سمعت به يا عزيزتي ماري، كان دائمًا أبدًا في مباراة مع الزمن، ولم يكن يذهب مطلقًا إلى النوم- هأنذا أهيم على وجهي باحثًا عن مس أربلا ألن».

وقالت ماري بدهشة بالغة: «مس من؟».

وأجاب سام: «مس أربلا ألن».

وقالت ماري وهي تشير إلى باب الحديقة الذي كان ذلك السائس الغضوب قد أغلقه وراءه منذ لحظة: «يا إله السموات! إنها تقيم في هذا البيت ذاته، وقد مضى عليها فيه ستة أسابيع، وقد سمعت القصة كلها من الوصيفة التي تخدم في الطبقة العليا منه، وهي أيضًا وصيفة الفتاة، وأنا واقفة أطل من خلال قضبان النافذة التي في غرفة الغسيل، قبل أن يستيقظ أفراد الأسرة من نومهم في صباح أحد الأيام».

وقال سام: «أتقولين إنها في البيت الملاصق لكم؟».

وأجابت ماري: «بالذات».

وكان تأثر سام بما سمعه قويًا غالبًا بحيث اضطر إلى الاستناد إلى مخبرته الحسناء والتشبث بها خيفة السقوط، ولم يستطع أن يجمع شتات قواه ليعود إلى الموضوع إلا بعد أن تبادلا عدة أحاديث مزدوجة عن الحب، وكلامًا يسيرًا في الغرام.

وأخيرًا عاد سام يقول: «والله إذا لم يكن هذا يفوق صراع الديكة، فلن يفوقه شيء سواه، كما قال المحافظ حين اقترح رئيس وزراء الدولة أن يشرب في صحة زوجته بعد الغداء. تقولين إنها تسكن في البيت

الملاصق لبيتكم بالذات! إنني أحمل إليها رسالة قضيت طول النهار أحاول نقلها إليها».

وقالت ماري: «آه! ولكنك لا تستطيع أن تنقلها إليها الآن؛ لأنها لا تنزل إلى الحديقة لتتمشى في رحابها إلا في المساء، ولكنها لا تقضي في هذه الرياضة إلا وقتًا قصيرًا جدًّا. وهي لا تخرج من البيت مطلقًا إلا إذا صحبتها السيدة العجوز».

ولبث سام لحظة يفكر في الأمر، حتى انتهى به التفكير إلى رسم الخطة التالية، وهي أن يعود في الغسق، وهو الوقت الذي تنزل فيه أربلا عادة للمشي في الحديقة، وتأخذه ماري إلى حديقة البيت الذي تخدم فيه، ثم يحاول أن يتسلق الجدار بأية وسيلة، مختبئًا تحت الأغصان المتدلية من شجرة كمثرى كبيرة، وهي كفيلة بحجبه عن الأبصار، فينقل الرسالة ويدبر- إذا أمكن- لقاء بين الفتاة وبين المستر ونكل في الوقت عينه من مساء اليوم التالي، وبعد أن وضع هذه الخطة بسرعة بالغة في خاطره مضى يعاون ماري في تلك المهمة المؤجلة من وقت طويل؛ وهي تنفيض الأبسطة.

ولم تكن عملية تنفيض قطع صغيرة من البسط بريئة إلى الحد الذي يبدو عليها، وإن لم يكن ثمة بأس من هزها على الأقل ونفضها، ولكن طيها عملية ليست بريئة إطلاقًا، وما دام النفض مستمرًا، وطول البساط فارقًا بينهما؛ فإن العملية تجمع بين البراءة والتسلية ما شاءا أن يكون لهما منها، أما حين يبدأ الطي، وتأخذ المسافة بينهما تقل شيئًا فشيئًا من نصف طول الأبسطة إلى الربع، ثم إلى الثمن، ثم إلى جزء من ستة

عشر، فجزء من اثنين وثلاثين، إذا كان البساط طويلًا، فهنا الخطر، ولسنا نعرف بالدقة كم كان عدد البسط التي طويت على هذا النحو، ولكن في وسعنا أن نقول: إنه على قدر عدد القطع التي اقتضت الطي واللف، كان عدد القبلات التي ظفر بها سام من الخادمة الحسناء.

وقصد المستر ويلر إلى أقرب حانة من الموضع فأنعش نفسه بقدر يسير من الشراب، إلى قبيل الغسق، ثم عاد إلى الزقاق المسدود، وسمحت له ماري بالدخول إلى الحديقة، وبعد أن تلقى منها عدة نصائح فيا يتصل بسلامة أوصاله، ووجوب الحرص على رقبته، صعد شجرة الكمثرى، وانتظر حتى تبدو أرابلا لعينيه.

ولبث في مكانه ينتظر طويلًا دون أن يحدث الحدث المرتقب المتلهف عليه، حتى بدأ يظن أنه سوف لا يحدث مطلقًا، وإذا مواقع أقدام خفاف تطرق سمعه وهي تدب فوق الحصباء، ولم يلبث أن رأى أرابلا تمشي ساهمة مفكرة في منافس الحديقة، وما كادت تقترب من تحت الشجرة، حتى أخذ على سبيل إشعارها في لطف ورفق بمحضره، يحدث أصواتًا شيطانية مختلفة تشبه الأصوات التي تنبعث طبيعية على الأرجح من شخص يبلغ حدود الكهولة، ويشكو من التهاب الحنجرة، والذبحة، والسعال الديكي في وقت واحد، منذ بواكير طفولته!

وألقت الفتاة نظرة عجلى نحو المكان الذي انبعثت منه تلك الأصوات المروعة، ولم يخف اضطرابها السابق بتاتًا حين لمحت رجلًا بين الأغصان، وكانت بلا أدنى شك مولية الأدبار، مزعجة البيت كله، لولا أن أفقدها الخوف لحسن الحظ قوة الحركة، وجعلها تتهالك على

مقعد في الحديقة كان من حسن المصادفة قريبًا منها.

وقال سام لنفسه وهو في ارتباك شديد: «سيغمى عليها، يا عجبًا لهؤلاء الفتيات يغمى عليهن في اللحظة التي لا ينبغي لهن فيها الاستسلام للإغماء، اسمعي أيتها الشابة، يا مس سنوبونز[1] يا مسز ونكل. لا إغماء بحقك».

ولا يهمنا أن نعرف هل كان سحر اسم المستر ونكل، أو الهواء الطلق المنعش، أو تذكر نبرات صوت المستر ويلر، هو الذي أنعش أرابلا وجعلها تثوب إلى نفسها، فقد رفعت رأسها، وقالت مخافتة: «من هذا؟ وماذا تريد؟».

وقال سام وهو ينتقل من فوق الشجرة إلى الجدار، وينزوي عنده وينكمش إلى أصغر حجم مستطاع: «صه، أنا يا آنسة لا أحد سواي».

وقالت أرابلا بجد: «خادم المستر بكوك».

وأجاب سام: «هو بالذات يا آنسة، إن المستر ونكل أصبح يعيش في حزن دائم وبأس مقيم».

وقالت أرابلا وهي تقترب من الجدار: «آه».

وقال سام: «آه فعلًا، لقد اعتقدنا في الليلة الماضية أن لا بد من شد وثاقه لأنه قضى النهار كله يهذي يخرف، ويقول إنه إذا لم يتمكن من رؤيتك قبل انقضاء ليل الغد، فسوف يأتي عملًا سيئًا، إن لم يلق بنفسه في اليم ويمت غريقًا».

---

(١) يناديها بذلك الاسم الذي أطلق فيما مر بك على طالبي الطب بب سوير وبنجمن ألن، فهي شقيقة الأخير، ومعنى الاسم «الذي ينشر العظام» يعني الجراح.

وقالت أرابلا وهي شابكة يديها: «آه، كلا، كلا، يا مستر ويلر».

وأجاب سام: «هذا هو قوله يا آنسة، وهو رجل إذا قال فعل، واعتقادي أنا أنه سيفعل يا آنسة، وقد سمع كل شيء عنك من سوبونز الذي يضع «العوينات» على عينيه».

وقالت أرابلا، وقد عاودتها بعض ذكريات ما كان سام يقول عن أخيها: «هل سمعه من أخي؟».

وأجاب سام: «لا أعرف بالضبط أيهما أخوك يا آنسة، هل هو أكثرهما قذارة؟».

وقالت أرابلا: «نعم، نعم، يا مستر ويلر، استمر أسرع من فضلك».

وقال سام: «ليكن يا آنسة، لقد سمع كل شيء عنك منه، ومن رأي المعلم أنك إذا لم تبادري إلى لقائه فإن السوبونز الذي كنا اللحظة نتكلم عليه سيصاب بقدر إضافي كبير من الرصاص في رأسه يتلف أنسجته إذا وضعوه في الكحول بعد ذلك[1]».

وصاحت أرابلا مروعة: «أواه! وما الذي أستطيع أن أفعله لأمنع هذه المشاجرات المروعة؟».

وأجاب سام: «إن الاشتباه في وجود علاقة سابقة هو سبب هذا كله، فالأفضل أن تقابليه يا آنسة».

وقالت أرابلا: «ولكن كيف؟ وأين؟ وأنا لا أجرؤ على ترك البيت وحدي، وأخي شديد القسوة أحمق متناهي الحماقة، وأعرف أن كلامي

(١) أي سيشتد غضبه فيثور ويشرب الكحول، ثم يقدم على عمل جنوني.

على هذا النحو معك يبدو غريبًا يا مستر ويلر، ولكني في الواقع تعسة جدًّا جدًّا». وهنا بكت أرابلا المسكينة بدمع سخين حتى رثي لها سام وقال وهو في أشد حالات الانفعال: «قد يكون حديثك معي عن هذه المسائل يا آنسة غريبًا كل الغرابة، ولكن كل ما في إمكاني أن أقوله هو إنني لست مستعدًا فقط، بل راغبًا أيضًا، في عمل أي شيء يصلح الأمور ويذهب بالأحزان، وإذا كان إلقاء أحد من السوبونز الاثنين من النافذة وافيًا بالغرض، فأنا الرجل الكفيل به».

وانثنى سام يشمر عن معصميه، حتى تعرض لخطر السقوط من فوق الجدار؛ لكي يبين استعداده للعمل في الحال!

ورغم ما في هذه التصريحات التي تنم عن شعور طيب من ثناء على أرابلا فإنها رفضت بشدة الاستعانة بها (وكان سام يعتقد أن هذا الرفض لا يمكن تعليله بأي سبب أو حجة ما) ولبثت لحظة متشددة في الامتناع عن السماح للمستر ونكل بالخلوة التي ألحَّ سام في طلبها، واستعان بكل ما أوتي من تأثير في الظَّفَر بها، ولكنها أخيرًا، عندما أوشك الحديث أن ينقطع بقدوم شخص ثالث غير مرغوب فيه، أسرعت في إفهامه- مبدية شكرها وامتنانها في عبارات كثيرة- أنه قد لا يبعد أن تنزل إلى الحديقة مساء الغد بعد ساعة من الوقت الذي نزلت في هذا المساء فيه، وفهم سام هذا حق الفهم، وأنعمت أرابلا عليه بابتسامة من أعذب ابتساماتها، وانصرفت متولية عنه في رشاقة تاركته في غمرة من الإعجاب بمفاتنها الجسدية والعقلية على السواء.

وهبط سام من فوق الجدار بسلام، ولم ينسَ أن يخصص بضع

لحظات لنصيبه الخاص من العمل الداخل في هذا الباب، وانطلق مسرعًا إلى فندق بش؛ حيث كان طول غيابه قد أثار كثيرًا من التكهنات وشيئًا قليلًا من القلق.

وقال المستر بكوك بعد أن أصغى بانتباه إلى قصة سام: «يتحتم علينا أن نكون حريصين، لا من أجلنا نحن، بل من أجل هذه الفتاة الصغيرة، ولا بد لنا من الحذر والاحتياط».

وقال المستر ونكل بلهجة توكيد ظاهرة: «أتقول نحن؟».

وبدت على المستر بكوك مظاهر الغضب من اللهجة التي نطق بها ونكل بهذه الملاحظة، ولكن غضبه هذا لم يلبث أن زال وعاد للرجل ما اختص به من مظاهر الطيبة والسماحة وهو يجيب: «نحن يا سيدي؟ لأنني سأذهب معك».

وقال المستر ونكل: «أنت؟».

وأجاب المستر بكوك بلهجة معتدلة: «أي نعم أنا، إن الفتاة بقبولها الاجتماع بك قد خطت خطوة طبيعية، ولكنها مع ذلك قد تكون خطوة غير حكيمة مطلقًا، ولكني إذا أنا كنت حاضرًا هذا اللقاء، وأنا صديق الطرفين، وفي مقام والدكما من ناحية السن، فلن تجرؤ ألسنة السوء أن تلوك سيرتها فيما بعد».

وبرقت عينا المستر بكوك سرورًا صادقًا ببعد نظره، وهو يتكلم على هذا النحو، وتأثر المستر ونكل بهذا الخُلُق الكريم، والرعاية البالغة، لسمعة حبيبة صديقه، فتناول يده باحترام شديد يقرب من العبادة والإجلال.

وقال: «ستذهب معي».

وأجاب المستر بكوك: «سأذهبن، يا سام أعدَّ لي معطفي ولفاعتي، ودبر لنا مركبة تقف بالباب مساء الغد مبكرة عن الموعد؛ حتى ليتسع لنا الوقت».

ورفع سام يده إلى قبعته، تلبية للأمر، وانصرف ليعد العدة المطلوبة لهذه الرحلة.

وجاءت المركبة في الموعد المطلوب تمامًا، وبعد أن فرغ المستر ويلر من معاونة المستر بكوك والمستر ونكل على الدخول إلى المركبة، اتخذ مجلسه بجانب السائق، وترجلوا كما سبق الاتفاق على مسافة ربع ميل من مكان اللقاء، وطلبوا إلى السائق أن ينتظر عودتهم، وانطلقوا يقطعون الشقة الباقية من الطريق على الأقدام.

وعند هذه الرحلة انثنى المستر بكوك- وهو يكثر من الابتسام وغير الابتسام من مختلف مظاهر الرضى والاغتباط- يُخرج من أحد جيوب معطفه مصباحًا قاتم اللون، كان قد أعده لهذه المناسبة، ومضى يشرح مزاياه الآلية للمستر ونكل وهو في الطريق، فلم تكن دهشة المشاة القليلين الذين التقوا بهم فيه قليلة لهذا المشهد العجيب.

وقال المستر بكوك- وهو يلتفت إلى الخلف مسرورًا رائق المزاج- لخادمه الذي كان يمشي في المؤخرة: «لقد كان من الخير لي أن أتزود بشيء كهذا في رحلتي الماضية إلى بعض الحدائق ليلًا يا سام. ما رأيك؟».

وأجاب المستر ويلر: «هذه أشياء جميلة إذا عرف الإنسان كيف

يحسن استخدامها يا سيدي. ولكن حين تريد ألا تراك عين أحد، تصبح أكثر فائدة بعد أن تنطفئ الشمعة منها إذا كانت لا تزال مضيئة».

ودهش المستر بكوك لملاحظات سام، فرد المصباح إلى جيبه، وانطلقوا في طريقهم صامتين.

وقال سام: «من هنا يا سيدي، دعني أتقدمكما لأريكما الطريق، هذا هو الزقاق يا سيدي».

ودخلوا الزقاق، وكان الظلام قد غمره، فأخرج المستر بكوك المصباح مرة، أو مرتين، وهم يتحسسون مواطئ أقدامهم، وإذا المستر بكوك يرسل من مصباحه ضياءً برَّاقًا مستطيلًا أمام أبصارهم، يبلغ قُطر دائرته قدمًا واحدة أو نحوها، وكان منظره جميلًا، ولكن تأثيره يحيل الأشياء المحيطة بهم أقتم مما كانت.

وأتوا أخيرًا على الحجر الضخم، فاقترح سام على سيده وعلى المستر ونكل أن يقتعداه، بينما يذهب هو ليستطلع ويتحقق هل ماري في الانتظار.

ولم تنقضِ على غيابه خمس دقائق أو عشر حتى عاد يقول: إن الباب مفتوح، وإن السكون غامر، فتبعاه مسترقي الخطى، وما لبثا أن وجدا نفسيهما في البستان، وجعل كل منهم يقول: «هس!» عدة مرات وهو لا يدري ماذا يراد منه أن يفعل في الخطوة التالية.

وقال المستر ونكل وهو في اضطراب شديد: «هل نزلت مس ألن إلى الحديقة يا ماري أم لا؟».

وأجابت الخادم الحسناء: «لست أدري يا سيدي، إن أحسن طريقة هي أن يعاونك المستر ويلر على التسلق إلى الشجرة برفعك إلى أعلى، وأن يتفضل المستر بكوك بالحراسة لينبهكما إذا رأى أحدًا قادمًا من الزقاق، بينما أتولى أنا المراقبة عند الطرف الآخر من الحديقة. يا إله السماء! ما هذا؟».

وصاح سام محنقًا: «هذا هو المصباح المبارك الذي سيأخذ أجلنا كلنا، احذر ما أنت فاعل يا سيدي، إنك مرسل ضياء شديدًا إلى نافذة الغرفة الخلفية».

وقال المستر بكوك وهو يلتفت في عجلة: «ويحي! لم أكن أقصد أن أفعل ذلك».

وعاد سام يقول محتجًّا: «وها هو الضوء مسلط على البيت المجاور يا سيدي».

وقال المستر بكوك وهو يتلفت حوله مرة أخرى: «ويحي!».

وقال سام: «وهو الآن في الإسطبل، وسيظن القوم أن حريقًا قد شب فيه، أغلقه يا سيدي، ألا يمكن أن تغلقه؟».

وقال المستر بكوك مرتبكًا أشد الارتباك من هذا الأثر الذي أحدثه من غير سوء قصد: «هذا أغرب مصباح رأيته في حياتي، ولم أشهد في عمري مصباحًا قويًّا كهذا».

وقال سام حين رأى المستر بكوك بعد عدة محاولات فاشلة، قد نجح في إغلاق الحاجز: «وسيكون قويًّا أكثر من اللازم لنا إذا ظللت

تفتحه وتغلقه على هذه الصورة يا سيدي. والآن أسمع مواقع أقدام الفتاة، هيا يا مستر ونكل، اصعد!».

وقال المستر بكوك: «قف، قف، يجب أن أكلمها أنا أولًا، أَعِنِّي يا سام على الصعود».

وقال سام وهو يسند رأسه إلى الجدار ويجعل من ظهره مطية لسيده: «برفق يا سيدي، قف فوق آنية الزهر هذه، والآن، هلم اصعد».

وقال المستر بكوك: «أخشى أن أؤلمك يا سام».

وأجاب المستر سام: «لا بأس يا سيدي، أعره يدًا يا مستر ونكل، الثبات، الثبات يا سيدي، هذه هي اللحظة الحاسمة».

وبعد أن نطق سام بهذا القول حاول المستر بكوك بجهد جهيد لا يكاد ينتظر من سيد في مثل عمره ووزنه أن يرتفع فوق ظهر سام، وظل هذا يرفع جسمه برفق، والمستر بكوك يتشبث بقمة الجدار، بينما راح المستر ونكل يمسك بساقيه بقوة حتى تمكنوا بهذه الوسيلة من جعل منظاره فوق مستوى الجدار.

وأطل المستر بكوك من فوقه فلمح أربلا في الجانب الآخر منه، فقال: «يا عزيزتي لا تخافي، هأنذا، لا أحد سواي».

وقالت أرابلا: «أرجوك أن تذهب، قل لهما أن يذهبا، إنني في هلع شديد. ويلي! ويلي! يا مستر بكوك لا تقف في مكانك، إنك ستسقط وتودي بحياتك، إنني على يقين أنك قاتل نفسك».

وقال المستر بكوك مواسيًا ومهدئًا روعها: «أرجوك ألا تنزعجي

يا عزيزتي، لا مدعاة مطلقًا للخوف، أؤكد لك ألا داعي للخوف»، ونظر إلى أسفل وقال: «اثبت يا سام».

وأجاب سام: «سأفعل يا سيدي، ولكن لا تطل الوقوف هكذا أكثر مما يجب؛ لأنك من الوزن الثقيل».

وأجابت أرابلا وهي تكفكف دموعها بمنديلها: «إنني في غرضي يا عزيزتي أن تعرفي أنني ما كنت لأسمح لصديقي الشاب بلقائك سرًّا على هذه الصورة لو أن الموقف الذي تجدين نفسك فيه قد هيأ له سبيلًا غير هذه السبيل، وقد يكون مرضيًا لخاطرك أن تعرفي أنني جئت إلى هنا حتى لا يؤدي شذوذ هذه الوسيلة وخروجها عن المألوف إلى أي حرج لك أيتها العزيزة، هذا هو كل ما في الأمر يا عزيزتي».

وأجابت أرابلا وهي تكفكف دموعها بمنديلها: «إنني في الحق يا مستر بكوك لشاكرة لك كثيرًا عطفك ورعايتك».

ولو أن رأس المستر بكوك لم يختفِ بسرعة بالغة، من أثر زلة قدمه على كتف سام، لقالت أكثر من ذلك على الأرجح؛ فإن هذه الزلة هوت به فجأة إلى الأرض، ولكنه وقف على قدميه بعد لحظة واحدة، وأمر المستر ونكل بالبدار والانتهاء من هذا اللقاء الذي أراده، بينما جرى هو إلى الزقاق للحراسة والمراقبة بشجاعة الشباب وحماسته، ولم يلبث المستر ونكل بوحي الموقف، وإلهام الساعة، أن اعتلى الجدار في لحظة واحدة، فلم يتمهل إلا ريثما يطلب إلى سام أن يعنى بأمر سيده.

وأجاب سام: «سألقي بالي إليه، اتركه لي».

وقال المستر ونكل: «أين هو؟ وماذا يفعل يا سام؟».

وأجاب سام وهو ينظر إليه من باب الحديقة: «بارك الله له في ساقيه العجوزين، إنه يراقب في الزقاق بذلك المصباح المعتم كأنه جاي فوكس[1]، ما رأيت والله مخلوقًا بديعًا مثله في أيامي، إني لأعتقد أن روحه لا بد من أن تكون قد ولدت بعد جسمه بخمس وعشرين سنة على الأقل[2]».

ولم يمكث المستر ونكل ليسمع هذا المديح في حق صديقه، بل هبط الحديقة من فوق الجدار، وارتمى عند قدمي أربلا، وانثنى يؤكد صدق عاطفته ببلاغة جديرة بالمستر بكوك نفسه.

وبينما كانت هذه الحوادث تجري في الهواء الطلق، كان رجل تجاوز حدود الكهولة، من ذوي العلم والمعرفة، جالسًا في مكتبته، في بيت يبعد عن هذا الموضع مسافة بيتين أو ثلاثة بيوت، يكتب بحثًا فلسفيًا، وهو بين لحظة وأخرى يرطب صلصاله[3] وجهده بكأس من النبيذ من زجاجة محترمة الشكل موضوعة بجانبه، وكان من ألم الإنشاء ينظر حينًا إلى البساط، وحينًا آخر يتطلع إلى السقف، وتارة نحو الجدار، ولما لم يسعفه البساط، ولا السقف، ولا الجدار بشيء من الإلهام، مضى يطل من النافذة.

---

(١) اسم رجل حكم عليه بالموت إحراقًا لوضعه مفرقعات في البرلمان الإنجليزي بقصد نسف مجلسي اللوردات والعموم، وذلك في حكم الملك جيمس الأول، وما زالت بعض المدن الإنجليزية تحتفل بتلك الذكرى بإطلاق الصواريخ، فأصبح اسمه يطلق على قوة الشكيمة والفتوة.

(٢) يقصد أنه خفيف الروح له خفة الشباب.

(٣) أي جسمه، إشارة إلى أن الإنسان خلق من طين.

وفي إحدى هذه الفترات التي لم يهبط فيها الوحي عليه، كان مرسلًا نظراته في شرود إلى الظلمة الكثيفة في الخارج، ولشد ما كانت دهشته؛ إذ رأى نورًا باهرًا ينتشر في الفضاء، على مسافة قصيرة من الأرض، ثم لا يكاد ينبعث، حتى يتوارى مختفيًّا، ثم إذ هو يظهر مرة أخرى، وتكررت هذه الظاهرة على عينيه عدة مرات، فوضع القلم جانبًا، وبدأ يفكر فيما يصح أن تكون الأسباب الطبيعية لهذه الظواهر الغريبة.

لم تكن تلك الظاهرة بلا شك شهبًا؛ لأنها كانت منخفضة كثيرًا، ولا هي حباحب؛ لأنها عالية أكثر مما ينبغي، ولا هي يراعة ولا غاز المستنقعات ولا ذباب مضيء ولا ألعاب نارية... فماذا يمكن إذن أن تكون؟ إنها بلا شك ظواهر طبيعية خارقة للمألوف عجيبة لم يهتدِ إليها فيما مضى أحد من الفلاسفة، بل هي بلا ريب شيء ظل الدهر كله مجهولًا حتى يأتي هو فيكشفه للناس ويهتدي إليه، فليدون هذا الكشف في الحال لخير الأجيال القادمة وليخلد به اسمه في التاريخ.

وامتلأ خاطره حماسةً لهذه الفكرة فتناول القلم مرة أخرى، وراح يدوِّن عدة ملاحظات عن هذه الظواهر الفذة المنقطعة النظير، بالتاريخ، واليوم والساعة والدقيقة، والثانية أيضًا، التي ظهرت فيها لعينيه؛ لكي تكون هذه المعلومات أساسًا لبحث ضخم، ودراسة واسعة، وعلم عميق، يدهش علماء الأرصاد جميعًا في مختلف بقاع العالم المتحضر.

وأسند ظهره إلى مقعده الرحيب، واستغرق في تخيُّل المستقبل العظيم الذي ينتظره، وإذا ذلك النور الغريب يعود أقوى من قبل، ويبدو متراقصًا في الزقاق، رائحًا غاديًا فيه، متحركًا في فلك عجيب كالمذنبات ذاتها.

وكان هذا العالم أعزب، لا زوجة له حتى يناديها ويثير دهشتها، فلم يسعه إلا أن يدق الجرس لخادمه.

قال: «اسمع يا برفل، إن ثمة شيئًا خارقًا للمألوف يبدو في الفضاء الليلة، فهل رأيت ذلك الشيء الذي يلوح أمامك؟»، وأشار العالم وهو قائم عند النافذة إلى النور حين عاد إلى الظهور.

وأجاب الخادم: «أي نعم يا سيدي».

- «وما رأيك فيه يا برفل؟».

- «ما رأيي فيه يا سيدي؟».

- «نعم، لقد نشأت في هذا الريف، فما قولك في علة هذه الأنوار التي تبدو الآن؟».

واستبق ذلك العالم وهو يبتسم، خادمه إلى الجواب: «بأنه بالطبع لا يرجعها إلى سبب ما».

وفكر الخادم لحظة، وأخيرًا قال: «أظن أنهم لصوص».

وقال العالم: «أنت مغفل، عد إلى مكانك».

وأجاب برفل: «شكرًا يا سيدي» وانصرف.

ولكن ذلك العالم ظل قلقًا لا يهدأ؛ فقد خشي أن يضيع على الدنيا ذلك البحث المبتكر الذي اعتزم أن يضعه، إذا لم يقض على فكرة المستر برفل السخيفة وهي في المهد، فبادر إلى قبعته فوضعها فوق رأسه، وأسرع إلى الحديقة منتويًا أن يحقق في الأمر ويتقصاه من جميع نواحيه.

وكان المستر بكوك قبيل انطلاق ذلك العالم في الحديقة، قد أسرع يقطع الزقاق لينبه رفيقيه إلى قدوم إنسان من ناحيته وإن كان في ذلك مخطئًا، وجعل بين لحظة وأخرى يفتح باب المصباح، لكي لا يرتطم في الحفرة، وما كادت هذه الإشارة تبلغ سمع المستر ونكل حتى عاد يتسلق الجدار، وانطلقت أرابلا منكفئة إلى البيت، وأغلق باب الحديقة، وانثنى هؤلاء المغامرون الثلاثة يقطعون الزقاق مسرعين، وإذا هم يجفلون على مشهد هذا العالم البحاثة وهو يفتح باب حديقته.

وهمس سام، وكان بالطبع في المقدمة: «الثبات، أضئ لنا يا سيدي ثانية واحدة».

ففعل المستر بكوك ما طلب إليه أن يفعل، وعلى الضياء الخاطف أبصر سام رأس رجل يطل بحذر بالغ، على قيد نصف ياردة منه، فأهوى على ذلك الرأس بطرقة رفيقة من قبضة يده، وجعله يحدث صوتًا أجوف وهو يصطدم بالباب.

وما كاد المستر ويلر ينتهي من هذه الفعلة العظيمة بمباغتة بارعة، ومهارة ظاهرة، حتى أسرع نحو المستر بكوك فاحتمله فوق ظهره، وانطلق في أثر المستر ونكل، يقطع الزقاق، بخطوات مدهشة للغاية إذا راعينا الحمل الفادح الذي كان يحمله!

ولما بلغوا ناصية الزقاق قال سام: «هل استعدت طمأنينتك الآن يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «تمامًا، تمامًا، الآن».

وقال سام وهو ينزل سيده إلى الأرض: «إذن هيا بنا يا سيدي، وامش في وسطنا، فليس أمامنا إلا نصف ميل نجريه جريًا. تخيل يا سيدي أنك في مباراة جري على الكأس. هلم بنا».

وتشجع المستر بكوك بهذه العبارات فاستخدم ساقيه قدر جهده، وهنا يصح لنا أن نقرر ونحن مطمئنون أنه لم يسبق أن انطلقت ساقان في غطاء أسود تعدوان قاطعتين الأرض بمثل تلك الصورة التي انطلقت بها ساقا المستر بكوك في ذلك اليوم المشهود.

وكانت المركبة منتظرة، والخيل منتعشة، والطرق معبدة، والسائق راغبًا راضيًا، فوصل الجميع إلى فندق «بش» بسلام، قبل أن يسترد المستر بكوك أنفاسه.

وقال سام له وهو يعاونه على الخروج من المركبة: «ادخل في الحال يا سيدي، ولا تقف لحظة واحدة في الشارع، بعد هذا التعب». وانثنى إلى المستر ونكل وهو ينزل من المركبة فرفع يده إلى قبعته، وقال: «عفوًا يا سيدي، أرجو ألا تكون هناك علاقة سابقة؟».

وبادر المستر ونكل فتناول يد صديقه المخلص وهمس له في أذنه: «كل شيء على ما يرام يا سام، كل شيء على ما يرام»، فلم يكن من المستر ويلر إلا أن ضرب أذنه ثلاث ضربات واضحة؛ ليوحي بأنه قد فهم المراد، وابتسم، وغمز بطرف عينه، ورفع سلم المركبة، وقد بدت على وجهه أمارات السرور البالغ والارتياح التام.

أما صاحبنا العالم العلَّامة فقد انكمش في بحثه الرائع للتدليل

على أن تلك الأنوار العجيبة ترجع إلى تأثير الكهرباء، وأثبت صواب هذا الرأي بقوله: إن شعلة نار تراقصت أمام عينيه حين أطل برأسه من الباب، وأنه تلقى عندئذٍ صدمة تركته مشدوهًا مغشيًّا عليه ربع ساعة من الزمان، فكان ذلك البحث المستفيض مدعاة اغتباط عند الهيئات العلمية جميعًا، وباعث ارتياح تجاوز الحدود، وعد ذلك العالم بعد ذلك، وفي الأجيال الخالفة، قطبًا من أقطاب العلم، ونجمًا باهر الضياء.

* * *

الفصل الأربعون

كيف رأى المستر بكوك مشهدًا جديدًا لا يخلو من طرافة، بين مشاهد الرواية الكبرى التي تمثل على مسرح الحياة

وانقضت البقية الباقية من الفترة التي حددها المستر بكوك للمقام في باث دون وقوع حادث يستحق الذكر، وبدأت الدورة القضائية واستؤنفت الجلسات في ترنتي، ولم ينقض الأسبوع الأول على ابتدائها حتى عاد المستر بكوك وأصحابه إلى لندن، فقصد الأول، ومعه سام بالطبع، إلى مسكنه القديم رأسًا، في فندق «جورج والرخم».

وفي صباح اليوم الثالث من وصولهما، حين أخذت ساعات الجدران كلها في المدينة تدق تسعًا، على حدة، ونحو تسعمائة وتسع وتسعين في مكان ما تدق مجتمعة، كان سام يتمشى في فناء الفندق، وإذا مركبة غريبة ذات طلاء حديث العهد تتقدم نحوه، ويثب منها بخفة بالغة، سيد غريب، يبدو كأنه قد خُلق للمركبة، وخُلقت المركبة له، بعد أن ألقى باللجم إلى رجل بدين كان يجلس بجانبه.

ولم تكن المركبة «كارتة»[1]، ولا هي «ستانهوب»[2] وما هي بما جرى العرف على تسميته «بدوكار»[3]، ولا بمركبة مأجورة، ولا عجلة تحمل راكبين اثنين ليس أكثر[4]، ولا هي بكابريوليه[5]، ولكنها مع ذلك كله، تحوي وجهًا من الشبه بكل واحدة من أولئك كلها، وقد طليت بلون أصفر فاقع، بينما دهنت عجلاتها وعريشها بطلاء أسود. وقد جلس سائقها على الطريقة الرياضية الصحيحة، فوق وسائد عالية ترتفع قرابة قدمين فوق السياج، وكان الحصان المشدود إلى المركبة كُمَيْتًا حسن المنظر، وإن بدا عليه شيء من الزهو والحرن والشموس، جعله متناسبًا مع المركبة، ملائمًا لصاحبه.

أما صاحبه ذاته فرجل يناهز الأربعين، أسود الشعر ذو عارضين ممشطين بعناية، وفي بزَّةٍ فاخرة، كثير الحلي، حتى لتبدو في حجمها نحو ثلاثة أمثال ما يتحلى به الرجال عادة، ويتوِّج ذلك كله معطف كبير غزير الوبر، وما كاد يترجل حتى دس يسراه في أحد جيبي هذا المعطف الكبير، وبيُمْناه أخرج من الجيب الآخر منديلًا زاهيًا برَّاقًا من الحرير، وراح ينفض به ذرة أو ذرتين من الغبار علقتا بحذائه، ثم طبقه في كفه ومشى متخطرًا متهاديًا يخترق الفناء.

---

(١) مركبة ذات عجلتين يجرها جواد واحد gig.

(٢) مركبة مكشوفة خفيفة ذات عجلتين أو أحيانًا ذات أربع عجلات وقد نسبت إلى المخترع، اللورد ستانهوب. وقد آثرنا أن نبقي هذه الأسماء الأجنبية كما هي للتمييز بينها.

(٣) dog-cart.

(٤) chaise-cart.

(٥) cabriolet.

ولم تفُت عين سام عند نزول هذا السيد من المركبة، منظر رجل رث الثياب في معطف رمادي تجرد من عدة أزرار، كان قبل ذلك يتسكع في الجانب المقابل من الطريق، ولكنه لم يكد يرى السيد ينزل من مركبته، حتى اقترب فوقف عن كثب. وخامر نفس سام شيء من مجرد الارتياب في غرض هذا السيد من مجيئه، فاستبقه إلى الفندق، ولف لفة سريعة، ووقف في وسط فتحة الباب.

وقال الرجل ذو الرداء الوبري، بلهجة الآمر، وهو في الوقت ذاته يحاول أن يشق طريقه شقًّا: «والآن يا هذا!».

وأجاب سام وهو يرد الدفعة التي تلقاها مضاعفة: «والآن يا سيدي. ما الخبر؟».

وقال صاحب المعطف الخشن، وهو يرفع الصوت، وقد شحب وجهه: «لا هذر يا رجل، إنه لا يجدي معي، تعال يا سماوتش».

وزمجر الرجل الآخر ذو المعطف الرمادي، وكان قد تسلل شيئًا فشيئًا إلى الفناء، خلال هذا الحوار القصير: «نعم يا سيدي. ماذا حدث هنا؟».

وقال الكبير وهو يدفع سام في صدره مرة أخرى: «لا شيء غير بعض القحة من هذا الفتى».

وعاد سماوتش يزمجر، وهو يلكز سام لكزة أخرى أشد من تلك وأقسى: «كفى يا هذا هذرًا».

وكان لهذه اللكزة الأخيرة الأثر الذي كان المستر سماوتش الخبير

المجرب ينتظر منها أن تحدثه، فبينما كان سام في لهفته على رد هذه التحية يدفع جسم الرجل صوب عامود الباب، انسل الآخر إلى الفندق، فقصد إلى مكان الشراب، حيث تبعه سام في الحال بعد أن تبادل مع المستر سماوتش بضع شتائم وسباب مختارة.

وقال ذلك الكبير للفتاة الموكلة بتقديم الشراب، بلهجة خليطة بين سبهللة أهل خليج بتني ورقة أهل ساوث ويلز[١]: «طاب صباحك يا عزيزتي، أين غرفة المستر بكوك يا عزيزتي؟».

وقالت الفتاة لأحد الغلمان دون أن تتنزل من عليائها لتلقي نظرة أخرى إلى هذا المتأنق، ردًا على سؤاله: «اصعد معه وأره الطريق».

ومشى الغلام فصعد المدارج كما طلب إليه، وسار الرجل ذو الرداء الخشن في أثره، وسام وراءهما، وهو طيلة صعود السلم، يأتي بحركات وإشارات تدل على منتهى الاحتقار والتحدي والاستخفاف، مما أدخل على نفوس الخدم والمشاهدين سرورًا لا يوصف. أما المستر سماوتش فقد اعتراه سعال بح صوته منه، فبقي في البهو، ولبث يتنخم ويرسل بلغمًا كثيرًا في الردهة.

وكان المستر بكوك نائمًا مستغرقًا في النوم، حين دخل هذا الزائر المبكر الحجرة، وفي أذياله سام، فأيقظته الجلبة التي أحدثاها، وصاح قائلًا من خلف أستار فراشه: «ماء للحلاقة يا سام».

وقال الزائر وهو يسحب أحد الأستار من رأس السرير: «احلق بسرعة

---

(١) أي بين لهجة نزلاء السجن الذين يقيمون في مستعمرة خليج بتني في أستراليا، وبين لطف نزلاء مستعمرة ويلز الجنوبية الجديدة، والمراد التلطف المتكلف من شخص غير مطبوع عليه.

يا مستر بكوك؛ فإن عندي حكمًا واجب التنفيذ ضدك، في قضية باردل، ها هو ذا الحكم، من محكمة العرائض العامة، وهذه هي بطاقتي، وأظن أنك ستأتي إلى داري». وراح يربت كتف المستر بكوك ربتة رفيقة ويلقي بطاقته فوق الطنف ويخرج سواكًا[1] مذهبًا من جيب صداره.

وقال نائب المأمور بتنفيذ الأحكام المدنية، فقد كان ذلك الرجل موفدًا من قبله: «إن اسمي نامبي، زقاق بل، شارع كولمن».

وأخرج المستر بكوك منظاره من تحت الوسادة ليقرأ البطاقة.

وهنا تدخل سام ويلر، وكان قبل ذلك يجيل عينيه في وجه المستر نامبي وبشرته اللامعة: «هل أنت من طائفة الصاحبيين[2]؟».

وأجاب الرجل في غضب: «سأريك من أنا قبل أن أنتهي منك، سأعلمك الأدب يا هذا في يوم من الأيام».

وقال سام: «شكرًا، وسأفعل ذلك بك. ارفع قبعتك من فوق رأسك».

وانثنى بهذه الكلمات يقذف بأعجب البراعة قبعة المستر نامبي إلى الجانب الآخر من الغرفة بعنف شديد كاد يجعل صاحبها يبتلع السواك الذهبي، كأن ذلك جزء من الصفقة التي جاء من أجلها.

وقال الرجل المرتبك وهو فاغر فاه ليسترد أنفاسه: «كن شاهدًا يا مستر بكوك، لقد تعدى عليَّ خادمك، في غرفتك، في أثناء تأدية وظيفتي.

(١) خلة لتسليك الأسنان.

(٢) طائفة دينية تدعى «الكويكرز» أو الأصحاب، أسسها جورج فوكس (١٦٤٨ - ١٦٥٠) وهي تنادي بالتقشف والبساطة في الملبس والكلام ولا تؤمن بالألقاب، ولعل سام هنا أراد أن يصف الضابط بأنه غير مكترث بالمجاملة.

إنني خائف أن يلحق بي أذى، إنني أشهدك على هذا».

وقال سام: «لا تشهد شيئًا يا سيدي، أغمض عينيك كل الإغماض، سألقي به من النافذة، ولكني لا أتوقع أن يسقط من موقع مرتفع، بسبب الستر التي في الخارج».

وقال المستر بكوك بغضب حين رأى خادمه يبدي أمارات كثيرة توحي بنية الاعتداء: «يا سام، إذا نطقت بكلمة واحدة أو أبديت أقل تدخل أو احتكاك بهذا الشخص، فصلتك في الحال».

وقال سام: «ولكن يا سيدي».

وصاح المستر بكوك: «أمسك عليك لسانك، وارفع هذه القبعة من فوق الأرض».

ولكن سام رفض بتاتًا أن يفعل ذلك، وبعد أن تلقى تأنيبًا شديدًا من سيده، رضي الرجل؛ لأنه كان في عجلة، أن يلتقطها بنفسه، وهو يوجه إلى سام مختلف التهديدات، ولكن سام تلقاها بكل هدوء، مكتفيًا بقوله: إنه إذا تكرم المستر نامبي فأعاد القبعة إلى مكانها فوق رأسه فسيطيرها عنه إلى الطرف الآخر من الأسبوع القادم. ومن الجائز أن يكون المستر نامبي قد رأى أن هذه العملية قد تجر إلى إشكال آخر، فرفض الاستماع إلى هذا الإغراء، وبادر إلى دعوة سماوتش، فأبلغه أن التنفيذ قد تم، وما عليه إلا أن ينتظر السجين حتى ينتهي من ارتداء ثيابه، وخرج يمشي مشية الخيلاء، واستقل المركبة منصرفًا، والتفت سماوتش إلى المستر بكوك فطلب إليه بحدة أن يسرع ما أمكن؛ لأن لديه أعمالًا كثيرة، ثم سحب

كرسيًّا بقرب الباب فجلس فوقه حتى ينتهي المستر بكوك من ارتداء ملابسه. وذهب سام ليحضر مركبة، فلما أقبلت، انصرف الثلاثة فيها إلى شارع كولمان. وكانت المسافة لحسن الحظ قصيرة؛ لأن المستر سماوتش لم يؤتِ حظًّا وافرًا من براعة الحديث، وزاد رفقته ثقلًا في مكان ضيق محدود كالمركبة، ذلك الضعف الجثماني الذي أسلفنا في موضع آخر إليه وهو البلغم والسعال.

ووقفت المركبة بعد أن عطفت على شارع ضيق مظلم بباب بناء تبدو القضبان الحديدية على جميع نوافذه، وقد كتب على أعمدة بابه اسم نامبي ولقبه «نائب المأمورين بتنفيذ الأحكام في لندن». جاء ليفتح الباب الداخلي رجل قد يذهب بك الظن حين تراه إلى أنه قد يكون هو والمستر سماوتش توأمين، وأنه هو المهمل منهما، وكان يحمل مفتاحًا ضخمًا لهذا الغرض، وأخذ المستر بكوك إلى قاعة القهوة، وهي قاعة أمامية، كان الرمل الجديد وريح التبغ الفاسدة الخانقة أبرز معالمها. وانحنى المستر بكوك للأشخاص الثلاثة الذين كانوا جلوسًا فيها عند دخوله، وأوفد سام إلى بركر وانزوى هو في ركن مظلم، وانثنى ينظر بشيء من الدهشة والفضول إلى رفقائه الجُدد.

وكان أحدهم لا يعدو أن يكون فتًى في التاسعة عشرة أو العشرين. ولم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة من الصباح، ولكنه كان يتعاطى مزيجًا من «الچن» والماء، ويدخن لفافة كبيرة طويلة، ويبدو من حمرة وجهه أنه قد أدمن الشراب والتدخين في العام الماضي أو العامين الأخيرين من حياته. وكان يجلس قبالته شاب من السوقة في نحو

الثلاثين من العمر، شاحب الوجه، خشن الصوت، يلوح عليه أنه قد أوتي المعرفة بأحوال الدنيا، والتحرر الطليق من آداب السلوك فيها، وهي النزعة التي تنمو في نفوس المختلفين إلى الحانات، وعلى نضد البلياردو في الأماكن العامة، وكان يحرك النار بطرف حذائه الأيمن، بينما بدا الثالث رجلًا متوسط العمر، في ثوب أسود عتيق، وهو يلوح مصفرًّا ناحلًا بادي الإعياء، وقد مضى يذرع القاعة ذهابًا وجيئة بغير انقطاع، إلا لكي ينظر بقلق شديد من النافذة كمن يرتقب أحدًا من الناس، ثم يعاود المسير رواحًا وغدوًّا في تلك القاعة.

وقال الرجل الذي كان يحرك النار وهو يغمز بعينه إلى صديقه الفتى اليافع: «يحسن بك يا مستر أيرسليه أن تستعير الموسى مني في هذا الصباح».

وأجاب الفتى في عجلة: «كلا، أشكرك؛ لأني لن أحتاج إليها، إنني أنتظر أن أخرج بعد ساعة أو نحوها» وعاد يمشي إلى النافذة فيطل منها، ثم يعود خائب الأمل، فيزفر من أعماق صدره، ثم ينصرف من القاعة، فلا يكاد يتوارى حتى يرسل الآخران في أثره ضحكات عالية.

وأنشأ الرجل الذي كان قد عرض الموسى عليه، وكان يدعى برايس: «لم أر شكلًا كهذا في حياتي، أبدًا». ومضى يؤكد قوله هذا بالقسم والإيمان، ثم يعاود الضحك، فلم يسع الآخر غير الاشتراك فيه، وكان يظن أن رفيقه هذا من أجرأ الناس وأشدهم إقدامًا.

والتفت المستر برايس نحو المستر بكوك فقال: «لا أظنك تعتقد

أن هذا الفتى قد مضى عليه حتى أمس أسبوع كامل في هذا المكان، لم يحلق ذقنه ولا مرة واحدة إلى الآن؛ لأنه على يقين تام من أنه سيخرج بعد نصف ساعة، وأنه يحسن تأجيل الحلاقة حتى يعود إلى بيته».

وقال المستر بكوك: «يا له من مسكين، هل تعتقد أن أمله في الخروج مما هو فيه من المتاعب كبير إلى هذا الحد؟».

وأجاب برايس: «أتقول الأمل؟ إنه ليس له منه ولا شبحه أو ظله، بل إني لأراهن بهذا على أمله في رؤية الشارع ولا بعد عشر سنين من هذا اليوم».

قال المستر برايس هذا، وهو يقرقع بأصابعه باحتقار، ويدق الجرس.

وقال للخادم الذي بدا- من ثوبه ومظهره العام- شيئًا بين راع مفلس، وتاجر ماشية معدم ذهب ماله: «أعطني قطعة من الورق يا كروكي وكأسًا من البراندي بالماء، هل سمعت؟ إنني أريد أن أكتب إلى أبي ولا بد لي من منعش، وإلا عجزت عن التأثير في نفس الشيخ، ولم يسعفني التعبير القوي البليغ». ولا تحسبنا بحاجة إلى القول إن الشاب لم يلبث عند سماع هذه العبارات الفكهة أن كاد يختنق من الضحك.

ومضى المستر برايس يقول: «هذا هو عين الجد، لا يأس مع الحياة، كل شيء في هذه الدنيا لهو ولعب، أليس كذلك؟».

وقال الفتى: «كلام عظيم!».

وعاد برايس يقول: «إن فيك لروحًا يا فتى، لقد جربت شيئًا من

شؤون هذه الحياة».

وأجاب الفتى: «أعتقد أن الأمر كذلك»، فقد رأى الحياة من خلال ألواح الزجاج المغبرة القذرة في أبواب الحانات.

وشعر المستر بكوك بشيء غير قليل من الاشمئزاز من هذا الحوار، ومن لهجة المخلوقين اللذين أداراه بينهما، وطريقتهما وشكلهما، وهمَّ بأن يسأل هل في الإمكان أن يظفر بغرفة جلوس خاصة، لولا أن دخل عندئذ غريبان آخران أو ثلاثة غرباء حسني السمت، فما إن رآهم الفتى الذي يدخن اللفافة الكبيرة حتى ألقى بها في النار، وهمس في أذن المستر برايس أنهم جاؤوا لتسوية مسألته، وانتحى بهم نضدًا في الطرف الأقصى من القاعة.

ولكن الظاهر أن الأمور لم تكن موشكة على تسوية بالسرعة التي كان يتوقعها الشاب؛ لأن الحديث استطال، ولم يكن في إمكان المستر بكوك أن يتجنب سماع فقرات منه وعبارات حادة عن الإسراف في الملذات، وتكرر التغاضي والغفران. وتلتها في النهاية تلميحات واضحة من جانب أكبرهم سنًّا لسجن هوايت كروس ستريت، فلم يلبث الشاب عند سماع هذا الاسم أن مال برأسه على النضد، وجعل يعوي عواءً محزنًا مؤلمًا، رغم التشدق السابق بمعرفة الدنيا، والخبرة بشؤون الحياة.

وشعر المستر بكوك بارتياح شديد لمشهد هذا التغير الفجائي الذي هوى بشجاعة الفتى وجرأته، وذلك الهبوط المباغت في لهجته، فدق الجرس، وطلب غرفة خاصة، فأدخلوه في حجرة ذات بساط ونضد، ومقاعد وصوان

ومتكأ، وقد ازدانت بمرآة، وعدة صور قديمة، وقد تيسر له عند جلوسه فيها الاستماع إلى عزف مسز نامبي على البيان في الغرفة التي فوق غرفته مباشرة، وبينما كان طعام الفطور يهيأ له، إذ دخل عليه المستر بركر.

وقال ذلك الرجل القصير القامة: «آها، يا سيدي العزيز. لقد وقعت أخيرًا لا بأس، إنني لست على هذا الأمر آسفًا؛ لأنك الآن ستدرك سخف هذا التصرف، وقد دونت عندي جملة الأتعاب والمصاريف والتعويض المحكوم بها في هذه القضية، فيحسن بنا أن نبادر إلى تسويتها ولا نضيع الوقت، وأكبر ظني أن نامبي الآن في البيت، فما قولك يا سيدي العزيز؟ هل أكتب بجملة المبلغ المطلوب صكًّا أم تكتبه أنت؟». ومضى الرجل القصير يفرك يديه بابتهاج مصطنع، ولكنه ما كاد يلقي نظرة على وجه المستر بكوك، حتى اضطر إلى توجيه نظرة حزينة يائسة إلى سام ويلر.

وقال المستر بكوك: «لا أريد يا بركر أن أسمع بعد اليوم كلامًا آخر في هذا الأمر إذا تكرمت، ولا فائدة من البقاء هنا، ولهذا يجب أن أذهب إلى السجن الليلة».

وقال بركر: «لا تستطيع أن تذهب إلى هوايت كروس ستريت، هذا لا يمكن مطلقًا، إن في كل عنبر من عنابره ستين سريرًا، والسجن يظل مغلقًا ست عشرة ساعة في الأربع والعشرين».

وقال المستر بكوك: «إني لأفضل الذهاب إلى سجن آخر إذا أمكن، فإن لم يتيسر، فلأحتمل قدر الجهد».

وقال بركر: «تستطيع أن تذهب إلى سجن فليت يا سيدي العزيز، إذا

أبيت إلا الذهاب إلى محبس ما».

وأجاب المستر بكوك: «ليكن، سأذهب إليه بمجرد فراغي من الفطور».

وقال الوكيل الصغير الطيب القلب: «قف، قف، يا سيدي العزيز، لا موجب مطلقًا لهذه العجلة الشديدة في الذهاب إلى مكان يود أكثر الناس الخروج منه متلهفين. يجب أولًا أن نحصل على أمر بتسليم المسجون، ولا يتسنى وجود قاض في مكتبه قبل الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم، فلا بد لك من الانتظار إلى هذا الموعد».

وأجاب المستر بكوك بصبر لا يتزعزع: «حسن جدًّا، فلنتناول الغداء هنا إذن في الساعة الثانية، فدبر يا سام لنا الغداء، وقل لهم إنه ينبغي المحافظة على الموعد».

وكذلك لبث المستر بكوك متمسكًا بقراره، رغم احتجاجات المستر بركر، وجدله، وجاء الغداء، وفرغ منه، في الموعد المعين، وجاءت مركبة أخرى فاستقلها إلى دار القضاء المدني في تشانسري لين، بعد انتظار المستر نامبي ساعة أو نحوها، فقد كانت لديه مأدبة غداء خاصة، فلم يستطع أحد إزعاجه قبل الانتهاء منها بسبب من الأسباب.

وكان في المحكمة قاضيان، أحدهما لتولي دائرة الملك، والآخر لنظر القضايا العامة، وقد بدا أن أمام هذين القاضيين أعمالًا كثيرة، إذا صح الاستدلال عليها بعدد كتبة المحامين الذين يدخلون سراعًا، ويخرجون بِرزم من الأوراق والملفات.

ولما وصلوا إلى الباب القصير المقام عند مدخل المحكمة، اضطر بركر إلى الوقوف بضع لحظات للكلام مع السائق بشأن الأجرة والباقي له من النقود، بينما انتحى المستر بكوك ناحية، حتى لا يعوق سيل الداخلين والخارجين، وراح يجيل البصر فيما حوله في شيء من الفضول.

وكان أشد الناس استرعاءً لاهتمامه ثلاثة أشخاص أو أربعة في بزة قديمة، وإن لبثت مقبولة الشكل، جعلوا يرفعون أكفهم إلى قبعاتهم لعديد المحامين الذين يمرون عليهم، ويبدو أن لهم عملًا في أروقة المحكمة، وإن لم يستطع المستر بكوك أن يتبينه أو يحرز ماذا عسى أن يكون، فقد بدوا غريبي الشكل، غير مألوفي الصور، أحدهم ناحل البدن، أعرج قليلًا، في ثوب أسود ناحل اللون، وملفعة بيضاء حول رقبته، والآخر بدين لحيم، في الزي عينه، وإن تلفع بقماش يضرب لونه إلى الحمرة، والثالث قصير يبدو عليه الإلحاح على الشراب، وتكثر البثور في وجهه. وكان هؤلاء الأشخاص يتمشون في فناء المحكمة، واضعي أيديهم خلف ظهورهم، ويهمسون بين لحظة وأخرى، واللهفة بادية على وجوههم، في أذان بعض الذين يحملون رزمًا من الأوراق، وهم بها مسرعون وتذكر المستر بكوك أنه كثيرًا ما شاهدهم جلوسًا تحت مدخل المحكمة، عندما كان يمر بها من قبل، واشتد به الفضول، وود لو يعرف إلى أي فرع من فروع المهنة يحتمل أن ينتسب أولئك المتسكعون الشعث الغبر. وهم بأن يوجه هذا السؤال إلى نامبي الذي ظل سائرًا خلفه، يمص خاتمًا كبيرًا من الذهب في خنصره، لولا أن

وصل بركر مسرعًا في خطوه، قائلًا: إن الوقت قد أزف، وتقدم يشق الطريق، وفيما كان المستر بكوك يسير في أثره، إذ دنا منه الرجل الأعرج ورفع يده بأدب إلى قبعته، وقدم إليه بطاقة مكتوبة، فلم يشأ المستر بكوك أن يجرح إحساسه برفضها، فتقبلها بلطف منه وأودعها جيب صداره.

والتفت بركر وراءه قبل دخول أحد المكاتب ليستوثق منه أن رفقاءه يسيرون في أثره، وقال: «والآن سندخل هنا يا سيدي العزيز. آه، ماذا تريد؟».

وكان السؤال الأخير موجهًا إلى الأعرج، فقد اندس بينهم دون أن يشعر المستر بكوك به، فعاد الرجل يلمس قبعته بيده بكل أدب يصح أن تتصوره وأشار إلى المستر بكوك.

وقال بركر وهو يبتسم: «كلا، كلا، لسنا بحاجة إليك يا صديقي العزيز، لا ضرورة لك».

وأجاب الأعرج: «عفوًا يا سيدي، إن هذا السيد أخذ البطاقة مني، ورجائي الانتفاع بي يا سيدي، ودع السيد نفسه يحكم في هذه المسألة، ألم تومئ إليَّ يا سيدي؟».

وقال بركر: «كلام فارغ، هل أومأت يا بكوك إلى أحد؟ هذه غلطة، غلطة».

وأجاب المستر بكوك، وهو يخرج البطاقة من جيب صداره: «إن السيد هو الذي قدم إليَّ بطاقته، فتقبلتها منه لأني رأيته يرغب في ذلك. والواقع أنني كنت أشعر بشيء من الرغبة في النظر إليها عندما أتفرغ

إليها، إنني...».

فقهقه المحامي القصير ضاحكًا، ورد البطاقة إلى الأعرج قائلًا إن السيد أخذها خطأ، وراح يهمس للمستر بكوك، حين تولى الرجل غاضبًا، إنه ليس سوى ضامن.

وصاح المستر بكوك: «ماذا تقول؟».

وأجاب بركر: «قلت لك إنه ضامن».

قال: «ضامن!».

وأجاب المحامي وهو ينعش نفسه بشيء من السعوط: «أي نعم يا سيدي، إن هنا نحو ستة منهم يضمنونك في أي مبلغ كان، ولا يتقاضون منك أكثر من نصف كراون. عمل عجيب أليس كذلك؟»[1].

وقال المستر بكوك وهو مبهوت مما سمعه: «يا عجبًا! هل تريد أن أفهم من قولك إن هؤلاء يكسبون أرزاقهم من الوقوف هنا؛ ليشهدوا الزور على أنفسهم أمام قضاة هذه البلاد، لقاء نصف كراون عن كل جريمة يرتكبونها؟».

وأجاب السيد القصير: «لست أعرف ما الداعي لوصف هذا الأمر بالتزوير يا سيدي العزيز، إنها كلمة قاسية يا سيدي العزيز، قاسية جدًّا، إن الأمر لا يعدو إجراء قانونيًّا يا سيدي العزيز، لا أكثر» وهز المحامي كتفيه، وابتسم، وتناول قدرًا آخر من السعوط، وتقدم إلى غرفة كاتب الجلسة.

---

(١) يشبه هذا العمل ما يقوم به «شيخ الحارة» للإفراج عن الأولاد، بعد أن يضمنهم.

وكانت الغرفة تبدو قذرة الشكل، خفيضة السقف، قديمة الجدران، ضعيفة الضوء، حتى اقتضى الأمر إيقاد شموع فوق المناضد، في رائعة النهار، وفي طرفها الأقصى باب يؤدي إلى غرفة القاضي الخاصة، وقد ازدحم حولها جمع كثير من المحامين والوكلاء والكتبة، يُدعَون إلى الدخول بحسب ترتيبهم في الجدول، وكلما فتح الباب لخروج أحد، اندفع التالي له مزاحمًا يريد الدخول، وفضلًا عن كثرة الحوار المستمر بين الذين وقفوا ينتظرون أدوارهم للمثول أمام القاضي، تقوم المشادات والمشاجرات بين أغلب الذين خرجوا من غرفته، فلا تلبث أن ترتفع الجلبة، وتختلط الأصوات، وناهيك بضوضاء كهذه في مكان ضيق محدود النطاق.

ولم تكن أحاديث أولئك الناس، الأصوات الوحيدة التي تسك المسامع، فقد وقف هنالك في منصبة صغيرة خلف حاجز خشبي، في طرف آخر من الغرفة، كاتب وضع منظارًا على عينيه، لأخذ الإقرارات، حتى تجتمع أكداس منها، فيتولى كاتب آخر حملها إلى القاضي لتوقيعها منه، كما يكثر كتبة المحامين الذين يطلب إليهم حلف اليمين، ومن المتعذر من الناحية الأدبية تحليفهم جماعة، فلا غرو إذا كان ازدحامهم وتدافعهم للوصول إلى الكاتب الذي يتسلم الإقرارات منهم، أشبه بزحمة الناس على باب دار التمثيل في الليلة التي يشرفها جلالة الملك بالحضور، بينما كان موظف آخر لا يفتأ بين لحظة وأخرى يجهد رئتيه في المناداة بأسماء الذين انتهى تحليفهم اليمين، لرد الإقرارات إليهم بعد أن تم توقيع القاضي عليها، مما يثير

عادةً بضع مشادات ومعارك أخرى، فكان اجتماع ذلك الهرج والمرج كله في آن واحد مثار تدافع وتزاحم وجلبة يشتهي المولع بالحركة، أو النزاع إلى الهياج، أن يشهدها، ولا تزال ثمة طبقة أخرى من الناس إلى جانب من ذكرنا، ونعني بهم أولئك الذين وقفوا ينتظرون الحضور بناء على طلب مخدوميهم، وأصحاب العمل الذين هم في خدمتهم، وهي مسألة يترك فيها الخيار لمحامي الخصوم في حضورها أو الامتناع عن حضورها، والذين يتعين عليهم من وقت إلى آخر المناداة بأسماء وكلاء الخصوم؛ ليتحققوا من أنهم لم يحضروا دون علمهم. مثال ذلك أنه كان بجانب المقعد الذي جلس فيه المستر بكوك صبي من صبية المكاتب في الرابعة عشر من العمر، وقف مستندًا إلى الجدار، وقد أوتي صوتًا جهيرًا، وبجواره آخر من الكتبة العموميين ذو صوت خفيض.

وأقبل كاتب برزمة من الأوراق مهرولًا، وراح يتفرس فيمن حوله، وإذا صاحب الصوت الخفيض يصيح بوركن واسنب، والقادم الجديد يرفع عقيرته صائحًا: «استمبي وديكن».

ولكن لم يجب أحد، ولم يكد الرجل الذي دخل عندئذ يلوح لأولئك الثلاثة حتى هللوا له، وراح هو بدوره يصيح باسم مكتب محامٍ آخر، بينما رفع آخر صوته مناديًا باسم ثالث، وهكذا دواليك.

وكان الرجل الذي يضع المنظار على عينيه، مكبًّا طيلة الوقت على العمل، ويحلف الكتبة اليمين، دون مراعاة للنقط والفواصل بين

أجزائها؛ حتى ليجري التحليف على النحو التالي:

«خذ الكتاب بيمينك هذا اسمك وخطك، احلف أن ما جاء في هذا الإقرار الذي قدمته صحيح، وليعنك الله هات شلنًا، يجب أن يكون معك فكة ليس عندي شيء منها».

وقال المستر بكوك: «إيه يا سام، أظنهم يعدون الصورة التنفيذية لأمر المثول أمام القاضي، الذي اصطلحوا على تسميته هابيس كوربس[١]».

وأجاب سام: «نعم، وإني لأرجو أن ينتهوا من هذا الهافهز كاركاس، فإنه لثقيل على النفس كثيرًا وقوفنا هنا منتظرين، لو كنت أنا في مكانهم لانتهيت من أكثر من ستة من هذه الهافهزات كاركاسات، في هذه المدة التي استغرقها واحد منها فقط لا غير».

ولم يقل لنا سام أي جهاز ثقيل صعب بطيء العمل بدا هذا الإجراء في خياله وتصوراته، فقد تقدم بركر في تلك اللحظة إلى المستر بكوك وانصرف به.

وتم تحرير الأوامر المعتادة، ولم يلبث شخص المستر بكوك أن عهد بحراسته إلى الشرطي ليسوق به إلى سجن فليت؛ ليحجز فيه إلى أن يتم الوفاء بالتعويض والأتعاب المحكوم بها عليه في قضية باردل ضد بكوك فيطلق عندئذ سراحه.

---

(١) habeas corpus عبارة لاتينية معروفة في القانون، معناها «خذ جسمي أو اعتقل شخصي» ونطقها سام بالإنجليزية خطأ have-his-carease، ولا بد من تحرير أمر به قبل تسليم شخص للسجن، وقد صدر به قانون قديم إلى عهد الملك شارلز الثاني عام ١٦٧٩ وينص هذا القانون على ألا يسجن شخص بغير إذن من القاضي.

وقال المستر بكوك ضاحكًا: «وسيستغرق ذلك وقتًا طويلًا، يا سام ادع لنا مركبة أخرى، وأنت يا صديقي العزيز بركر وداعًا».

وأجاب بركر: «سأذهب معك وأطمئن عليكِ هناك».

وقال المستر بكوك: «إني لأفضل في الواقع ألا يصحبني أحد غير سام تابعي، وحين أستقر سأكتب إليك وأنبئك بما جرى وأنتظرك سريعًا، أما الآن فإلى اللقاء».

ودخل المستر بكوك المركبة، وكانت قد وصلت في تلك اللحظة، وتبعه الشرطي، واتخذ سام مجلسه بجانب السائق، ودرجت المركبة بهم.

ووقف بركر ليلبس قفازه وهو يقول: «يا له من رجل شاذ خارق للمألوف!».

وقال المستر لاوتن، وكان واقفًا عن كثب منه: «أي مفلس عجيب تراه سينقلب يا سيدي، لسوف يتعب المأمورين في السجن ويناكفهم، بل سوف يتحداهم إذا تحدثوا عن إدانته يا سيدي».

ولم يبد على المحامي الارتياح كثيرًا لتقدير كاتبه بهذا التعبير المهني لأخلاق المستر بكوك، فقد انصرف دون أن يتنزل من عليائه إلى الرد عليه.

ودرجت المركبة في شارع فليت كما تدرج المركبات المأجورة عادة، وقال السائق إن الخيل «تبدو أحسن سيرًا» إذا وجدت شيئًا

أمامها (ومعنى هذا أنها كانت بلا شك تسير بسرعة خارقة للعادة إذا لم تجده) ولهذا لبثت سائرة خلف عجلة نقل، كلما وقفت العجلة وقفت، وكلما انطلقت انطلقت في أثرها، وكان المستر بكوك يجلس قبالة الشرطي الموكل بحراسته، وجلس هذا واضعًا قبعته بين ركبتيه، وهو يرسل صفيرًا منغمًا، وينظر من النافذة.

ويقول المثل: إن الزمن يحدث العجائب، فلا عجب إذا كان نفس الشيخ بكوك، وقوته في مد يد المعونة لتلك المركبة العتيقة، قد أعانها على قطع أكثر من نصف ميل من الأرض. ووقفت أخيرًا بهم، أمام باب سجن فليت، فنزل منها المستر بكوك، وتقدم الشرطي نحو الباب، وهو ينظر من فوق كتفه ليطمئن إلى أن الشخص الذي وكل إليه أمره في أثره، وعطف يسرة بعد اجتياز الباب، ومرأ من آخر يفضي إلى رواق، ومنه إلى باب ضخم مقابل للباب الأول الذي دخلا منه، وكان على حراسته بواب ضخم يحمل المفاتيح، فدخلا منه إلى الفناء، حيث وقفا ريثما يسلم الشرطي أوراقه، وعندئذ أبلغ المستر بكوك أنه سيبقى ريثما يتم الإجراء الذي يعرفه الحديثو العهد بدخول السجون، وهو «الجلوس لأخذ الصورة!».

وقال المستر بكوك مندهشًا: «لأخذ صورتي؟».

وقال الرجل الضخم حامل المفاتيح: «لمجرد تحقيق الشخصية يا سيدي، نحن هنا مهرة بارعون فيه، ننتهي منه سريعًا، وهو في جميع

الحالات مضبوط دقيق، تقدم يا سيدي واشعر بأنك في بيتك، وخذ راحتك».

ولبى المستر بكوك الدعوة، وجلس فوق مقعد، وهمس المستر ويلر وهو يتخذ موقفه خلفه، أن أخذ الصورة، هو مجرد اصطلاح لعملية فحص وتشبيه، يتولاهما الحراس، حتى يميزوا المساجين من الزائرين.

وقال المستر بكوك: «حسن يا سام، ليت هؤلاء الفنانين يأتون على عجل، فإن هذا الموضع يبدو لي أقرب شيء إلى محل عام».

وأجاب سام قائلًا: «لا أظنهم سيتأخرون كثيرًا، إن في السجن ساعة هولندية يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «هذا ما تنبهت إليه».

وقال سام: «قفص عصفور يا سيدي وجدران في جوف جدران، وسجن داخل سجن، أليس كذلك يا سيدي؟».

وبينما كان المستر ويلر يبدي هذه الملاحظة الفلسفية، إذ شعر المستر بكوك بأن العملية ابتدأت، فقد أعفى الحارس الضخم من حراسة الباب، وجاء فجلس وراح ينظر إليه بغير اكتراث من وقت إلى آخر، بينما تقدم رجل طويل نحيل فأخذ منه مكانه وألقى يديه تحت أذيال سترته، ووقف قبالة المستر بكوك وتفحصه مليًّا، وأقبل ثالث يلوح العبوس على سحنته ويبدو كأنه يتناول الشاي فأغضبه

أن يقوم عنه، ولا يستكمل تناوله؛ لأنه جاء يلوك آخر فضلة من خبز وزبد بقيت أمامه، فوقف على كثب من المستر بكوك ووضع يديه فوق حقويه، وأطال البصر فيه مدققًا متفحصًا، بينما اختلط بالجمع آخران فتفرسا في معارف وجهه، وقد بدا التدقيق والتفكير على وجهيهما، ولبث المستر بكوك يتململ في مجلسه من ضيقه بهذه العملية، وهو يجلس قلقًا في مقعده، وإن لم يبد أية ملاحظة لأحد، حتى ولا لسام نفسه، الذي استند إلى ظهر المقعد ساهمًا، يفكر حينًا في موقف سيده، وحينًا آخر في السرور الشديد الذي كان يشعر به لو أنه انقض على أولئك الحراس المجتمعين في ذلك الموضع، واحدًا بعد الآخر، لو أن القانون يجيز له ذلك، ولا خطر يعود عليه منه.

وبعد لأيٍ انتهى «التشبيه»، وقيل للمستر بكوك إنه قد آن له أن يدخل السجن.

وقال المستر بكوك: «وأين تراني سأبيت الليلة؟».

وأجاب الحارس الضخم: «لا أدري شيئًا في الواقع عن مبيتك الليلة، أما غدًا فسوف تنضم إلى أحد المساجين، فتستقر عندئذ وتستريح، إن الليلة الأولى هي دائمًا الليلة التي لا يتواتى فيها الاستقرار، ولكنك ستطمئن إلى المقام غدًا».

ولكن تبين بعد طول المناقشة والبحث أن عند أحد حملة المفاتيح فراشًا للإيجار، وفي وسع المستر بكوك أن يستأجره تلك

الليلة، فوافق بسرور على استئجاره.

وقال الرجل: «إذا أتيت معي أريتكه في الحال، إنه ليس موضعًا فسيحًا، ولكنه يصلح للنوم لا شك في ذلك. من هنا يا سيدي».

واجتاز الرجل به بابًا كبيرًا داخليًّا، ثم هبط بضعة مدارج، وأدار الحارس القفل على أثر اجتيازها، وإذا المستر بكوك يجد نفسه لأول مرة في حياته داخل جدران سجن المدينين.

* * *

الفصل الحادي والأربعون

يصف ما جرى للمستر بكوك حين دخل سجن فليت
والسجناء الذين رآهم فيه، وكيف قضى الليلة الأولى

وعطف المستر توم روكر- وهو السيد الذي رافق المستر بكوك إلى السجن- يمنة حين بلغ بداية ذلك السلم القصير، وتقدم من خلال باب حديدي مفتوح، فصعد سلمًا قصيرًا آخر، يفضي إلى ممر ضيق طويل، امتلأ بالأقذار، وانخفض سقفه، ورصفت بالحجارة أرضه، ولا يدخله النور إلا خافتًا ضعيفًا، من نافذة عند كل طرف من طرفيه المتباعدين.

وقال الرجل وهو يدس يديه في جيوبه، وينظر بقِلَّة مبالاة ومن فوق كتفه إلى المستر بكوك: «هذا هو السلم المؤدي إلى الردهة».

وقال المستر بكوك: «أوه، أهو حقًّا»، وراح يلقي نظرة على درج مظلم قذر، يفضي إلى صف من القباب الرطبة الكئيبة المنظر، القائمة تحت الأرض، وأنشأ يقول: «وأظن هذه هي الحجرات الصغيرة التي يحفظ السجناء فيها القليل مما لديهم من الفحم، هذه أماكن لا يسر أحدًا النزول إليها، ولكني أعتقد أنها مريحة للغاية».

وأجاب الرجل: «نعم، لست أعجب من أن تكون مريحة، بعد أن رأيت فريقًا قليلًا من الناس يعيشون فيه ويجدون الراحة والدفء، هذه هي السوق يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «أتقصد حقًّا يا صديقي أن تقول إن المخلوقات البشرية تعيش في هذه المحابس البشعة؟».

وأجاب المستر روكر بدهشة مزيجة بغضب: «ألم أقل ذلك، ولماذا لا أقوله؟».

وقال المستر بكوك مبهوتًا: «يعيشون! يعيشون فيها!».

وأجاب المستر روكر: «نعم، يعيشون فيها ويموت أيضًا في أغلب الأحيان، أي شيء في هذا؟ ومن الذي يعترض عليه؟ نعم والله يعيشون فيها! وإنها لمكان طيب يعاش فيه، أليس كذلك؟».

والتفت الرجل بانفعال شديد إلى المستر بكوك ومضى يتمتم في هياج ظاهر بعبارات مستهجنة في حق عينيه هو وأوصاله ودمه، فرأى الشيخ أنه من الخير ألا يواصل الحديث أكثر من ذلك الحد، وبدأ المستر روكر يصعد سلمًا آخر لا يقل قذارة عن سابقه الذي كان يدور الجدل حوله، وتبعه المستر بكوك وسام وراحا يصعدان في أثره.

ووقف المستر روكر ليسترد أنفاسه عند وصولهم إلى ممر آخر ضيق مستطيل كالذي اجتازوه من قبل وقال: «هذا هو موضع قاعة القهوة، والطابق الذي فوقه هو الثالث، والذي بعده هو الأخير، والغرفة التي ستنام الليلة فيها هي غرفة السجان وهي من هنا، تقدما».

ومضى المستر روكر بعد أن قال ذلك كله في نفس واحد، يصعد

درجًا أخرى، وهما يتبعانه، وكانت هذه الدرج تتلقى النور من عدة نوافذ قائمة على ارتفاع قليل من الأرض، وتطل على ساحة مفروشة بالحصباء يحدها جدار شاهق، تحمي قمته قضبان من الحديد مصبوبة في الخشب. وبدا من كلام المستر روكر أن تلك الساحة ميدان للكرة التي يتقاذفها اللاعبون بالمضارب، وتبين فيما بعد من أقوال هذا السيد ذاته أن هناك ساحة أخرى أصغر منها في ذلك الجزء من السجن، وهو أقرب أجزائه إلى شارع فرنجدن، وأنها تدعى الأرض المصورة؛ لأن جدرانها كانت يومًا مزدانة برسوم لعدة بوارج حربية ناشرة الأشرعة، وغيرها من الصور التي اعتاد رسام في السنين الخالية كان سجينًا في ذلك المحبس أن يرسمها على تلك الجدران في ساعات فراغه.

وبعد أن فرغ الدليل من سرد هذه المعلومات لينفس عن صدره بعض العلم الخطير الذي أوتيه، لا لتعليم المستر بكوك ما لم يعلم، انطلق بهما في ممر آخر، حتى انتهى أخيرًا إلى ردهة صغيرة في طرفه الأقصى، ثم فتح بابًا، وكشف عن غرفة لا يغري منظرها بالدخول، وهي تحوي ثمانية سرر حديدية أو تسعة.

وقال المستر روكر وهو يمسك بالباب بعد فتحه، وقد التفت نحو المستر بكوك التفاتة انتصار: «هاك غرفة طيبة».

ولكن وجه المستر بكوك، عندما بدا له مكان مبيته، لم يكن يوحي بشيء كثير من الارتياح، فالتفت المستر روكر إلى سام ويلر ليرى أثرًا من الشعور المتبادل، وكان هذا قد التزم إلى هذه اللحظة الصمت، وأخلد إلى الرزانة والوقار.

وقال المستر روكر: «هذه غرفة، ولا كل الغرف، أيها الشاب».

وأجاب سام بإيماءة هادئة من رأسه: «إني أراها».

ومضى المستر روكر يقول ببسمة رضى واغتباط: «لا يمكنك أن تحلم بأنك واجد مثلها ولا في فندق فرنجدن، هل يمكن؟».

ورد المستر ويلر على هذا الكلام بإغماض إحدى عينيه بسهولة، ودون تكلف، وهي إغماضة يحتمل أن يؤخذ معناها على أنه يمكنه أن يحلم، أو على أنه لا يمكنه، أو على أنه ما فكر ولا حلم بشيء كهذا إطلاقًا، أو حسبما يتصور خيال القائل. وبعد أن أدى المستر ويلر هذه الحركة، وفتح عينه، انثنى يسأل المستر روكر أي سرير من هذه الأسرة كان يعنيه بذلك المديح الذي وصفه به؟

وأجاب المستر روكر وهو يشير إلى سرير علاه الصدأ، في ركن من الحجرة: «هو هذا، إنه ليجعل الإنسان يستغرق في النوم حالًا، سواء أراده أو لم يرده».

ونظر سام مليًّا إلى ذلك السرير نظرة اشمئزاز متناهٍ وقال: «أحسب أبا النوم[1] لا يعد شيئًا مذكورًا إذا قورن به».

وقال المستر روكر: «لا يذكر مطلقًا إذا قورن بها».

وقال سام وهو يلقي نظرة جانبية إلى سيده، كأنما يريد أن يتبين هل بدت عليه أمارات تردد تثنيه عن عزمه: «وأظن أن الآخرين الذين ينامون هنا من السادات المهذبين؟».

في الأصل زهرة الأفيون.

وقال المستر روكر: «لا أحد سواهم، ومنهم واحد يتناول اثني عشر فنتًا من الجعة في اليوم، ولا يكف عن التدخين، حتى في أثناء تناول وجباته».

وقال سام: «لا بد أنه شخص من الطراز الأول».

وأجاب المستر روكر: «من الدرجة الأولى».

ولم يضطرب جأش المستر بكوك من شيء بعد كل هذا الذي سمعه، بل ابتسم وهو يعلن أنه معتزم أن يختبر مدى تأثير هذا السرير «المخدر» في تلك الليلة. وبعد أن أبلغه المستر روكر أنه حر في الإيواء إلى الراحة في أي ساعة يراها، دون إعلان سابق أو أي إجراء شكلي، انصرف تاركًا المستر بكوك وسام واقفين في الممر.

وكان الظلام قد بدأ، أو بعبارة أخرى، كان قد أضيء في ذلك المكان بضع ذبالات من الغاز، لا يمكن مطلقًا أن تسمى نورًا، إلا على سبيل المجاملة للمساء الذي حل في الخارج. وكان الجو أميل إلى الدفء، فعمد بعض النزلاء في الغرف الصغيرة المتعددة التي تفتح على جانبي ذلك الممر، إلى ترك أبوابها مفتوحة قليلًا فجعل المستر بكوك يلقي نظرات عجلى عليها وهو يجتازها، في دهشة بالغة، وفضول كبير، فأبصر بأربعة رجال ضخام الأبدان أو خمسة، لا يكادون يتراءون في وسط غمامة كثيفة من دخان التبغ، وهم مشتبكون في حديث صاخب شديد الجلبة، عاكفون على جرار من الجعة لم يبق فيها غير أنصافها، أو يلعبون الميسر بورق قذر. وفي الغرفة المجاورة قد تلم العين بنزيل

خلا إلى نفسه وراح على ضياء خافت منبعث من شمعة صغيرة يكب فوق رزمة من الأوراق الملطخة الممزقة، اصفرَّت من الغبار، وذبلت من البلى، وهو يكتب للمرة المائة، عرائض موجهة إلى عظيم لن تصل إليه، ولن تبلغ عينيه، أو لن يتأثر منها فؤاده. وفي غرفة ثالثة رجل وامرأته وطائفة من أولادهما، وهو يعد فراشًا صغيرًا فوق الأرض أو على بضعة مقاعد؛ ليبيت عليه الصغار من أولاده. وفي الرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، ترتفع الجلبة، وتعبق رائحة الجعة، وتتعالى ذوائب التبغ، وتترامى أوراق اللعب مرة أخرى وهي أقوى مما شاهده من قبل.

وفي الممرات والدهاليز ذاتها، وخاصة فوق مدارج السلم، يتسكع فريق كبير من الناس، جاء بعضهم إليها؛ لأن غرفهم خاوية خالية من الأنيس، وآخرون منهم جاءوا لأن غرفهم كانت ملأى برفقائهم، شديدة الحر عليهم، وأغلبهم أتوا من القلق والضيق والضجر؛ لأنهم لم يؤتوا سر العلم بالوسائل التي يصح أن يستعان بها لتوطين النفس على ما هم فيه، أو معرفة ماذا هم صانعون بأنفسهم، وقد اختلف النزلاء صنوفًا، وتباينوا طبقات، من العامل البادي في الجلباب الفضفاض، إلى المسرف المتلاف المحطم في قميص النوم الصوف، الذي يلوك المرفق خارجًا من كمه، وإن تشابهوا جميعًا في النظرة، وتماثلوا جملة في السمات، فقد كان كل منهم يبدو القلق المستخف المتعاظم، المتشرد الذي تلوح سمات الخوف على معارفه، ولا تستطيع الكلمات أن تصفه، وليس في إمكان اللغة التعبير عنه، ولكن في وسع أي إنسان أن يدرك حقيقته إذا شاء يومًا أن يدركها، بدخول أقرب سجن للمدينين منه، والنظر إلى أول

جمع من السجناء تقع عينه عليهم، بذلك الاهتمام الذي كان المستر بكوك ينظر به إليهم.

وقال المستر بكوك وهو يستند إلى السياج الحديدي القائم على رأس السلم: «يخيل إليَّ يا أم أن السجن للعجز عن أداء الدين ليس عقابًا قط؟».

وأجاب المستر ويلر: «ألا تظن أنه كذلك يا سيدي؟».

وقال المستر بكوك: «ألا ترى كيف يشرب هؤلاء الناس ويدخنون ويصخبون؟ يستحيل أن يكونوا مكترثين كثيرًا بالسجن».

وأجاب سام: «آه! هذه هي الحقيقة تمامًا يا سيدي، أي نعم، إنهم غير مكترثين بالسجين، فهو فسحة في نظرهم، وأيام عطلة وفراغ، كلها شراب وسكر، ولعب. ولكن هناك آخرين، وأعني بهم أولئك الذين حطمهم السجن، وملُّوا المقام فيه، أولئك الذين انكسرت قلوبهم، فلا يتعاطون جعة، ولا يشتركون في لعب، أولئك الذين يودون أن يدفعوا ما عليهم لو استطاعوا، وتنقبض نفوسهم من الحبس، سأقول لك القصة تمامًا يا سيدي. الواقع أن الذين يقضون كل أوقاتهم في الحانة، لا يصيبهم السجن بأي ضرر، ولكن الضرر الشديد يصيب الذين لا ينقطعون عن العمل إذا استطاعوا. إن هذا ليس مساواة، كما اعتاد والدي أن يقول كلما وجد أن الكأس لا تحوي النصف شرابًا والنصف الآخر ماء أي «بالتساوي»، وهذا هو العيب في الحياة يا سيدي».

وقال المستر بكوك بعد أن فكر قليلًا وسرح مع خاطره: «أظن أنك

على صواب يا سام، عين الصواب».

ومضى المستر ويلر يقول في لهجة المفكر المتأمل: «وقد تصادف من حين إلى آخر أناسًا أشرافًا يحبون السجن، ولكني ما سمعت في حياتي شيئًا يشبه قصة ذلك الرجل الصغير البدن القذر السحنة الذي يرتدي سترة رمادية، ولكن سر ذلك يرجع إلى تأثير العادة».

وسأل المستر بكوك: «ومن يكون ذلك الرجل؟».

وأجاب سام: «هذه هي النقطة بالذات التي لم يعرف أحد يومًا سرها».

- «ولكن ماذا فعل؟».

وأجاب سام: «فعل ما فعله خلق كثير أوفر علمًا ومعرفة في أيامهم يا سيدي، جرى في مباراة مع الشرطي وكان الفائز فيها».

وقال المستر بكوك: «وبعبارة أخرى أظنك تعني أنه استدان».

وأجاب سام: «تمامًا يا سيدي، هو هكذا، وعلى مر الزمن كانت النتيجة أنه جاء إلى هنا بسبب هذه الاستدانة، ولم يكن الدين كبيرًا، كله تسعة جنيهات، مضروبة في خمسة نظير الأتعاب والمصاريف، ولكنه بقي هنا سبع عشرة سنة، وإذا كانت الغضون قد ظهرت على وجهه من طول السنين، فقد تراكم عليها القذر فأوقفها، فإن ذلك الوجه القذر، والسترة الرمادية، بقيا إلى النهاية كما كانا من البداية، وكان الرجل مخلوقًا وديعًا مسالمًا لا يعرف العدوان على أحد، وكان لا ينقطع عن الحركة والتنقل بحثًا عن أي إنسان أو يلعب الكرة ولا يكسب أبدًا، حتى

أصبح الحراس والسجانون في النهاية يحبونه، فجعل يقضي كل ليلة في «عنبرهم»، يتحدث معهم، ويقص النوادر عليهم، وما أشبه ذلك. ففي ذات ليلة كان في العنبر كالعادة، مع صديق قديم له من بينهم، وإذا هو بغتة يقول له: لم أر السوق القريبة منا «يا بل»- وكانت سوق «فليت» في ذلك المكان وقتئذ- لم أرها من سبع عشرة سنة. وأجابه السجان وهو يدخن في قصبته: أعرف ذلك، فعاد يقول له: أود أن أرها ولو لحظة واحدة «يا بل». وقال السجان، وهو يدخن بشدة، ويأخذ أنفاسًا قوية منها، ليوهمه أنه لا يفهم مراده: مرجح جدًّا، ولكن الرجل قال في لهجة مباغتة أشد من قبل: لقد خطرت الفكرة في رأسي، دعني أشهد الشوارع العامة مرة قبل أن أموت، وسأعود بعد خمس دقائق بالضبط إذا لم يصبني صرع فيمنعني من المجيء في الموعد. وقال السجَّان: وماذا يكون مصيري إذا أصابك الصرع بالفعل؟ وأجاب ذلك المخلوق الصغير الجسم: سيعيدني إلى مكاني من يجدني؛ لأن بطاقتي في جيبي يا بل- رقم ٢٠ الدور المخصص لقاعة القهوة. وكان هذا هو الواقع فعلًا حتى لقد اعتاد كلما أراد التعرف بأي وافد جديد، أن يخرج بطاقة صغيرة بالية من جيبه كتبت عليها هذه العبارة ذاتها دون شيء آخر، ولهذا لقب الرجل بقولهم رقم ٢٠. ونظر السجان طويلًا إليه، ثم قال أخيرًا بلهجة جد شديد: اسمع يا عشرون! سأثق بكلمتك، فلا توقع صديقك القديم في مصيبة. وقال السجين: كلا يا بل، أعتقد أن لديَّ شيئًا أفضل خلف هذا. وراح يضرب رأسه الصغير بكفه ضربة شديدة، وعندئذ انحدرت دمعة من كل عين من عينيه، وكان ذلك شيئًا خارقًا للمألوف؛ لأن وجهه

لم يعرف الماء من زمن بعيد، وأمسك بيد السجَّان فهزَّها وانطلق».

وهنا قال المستر بكوك: «ولم يعد مطلقًا».

وأجاب المستر ويلر: «أخطأت لأول مرة يا سيدي، فقد عاد قبل الموعد بدقيقتين، وهو يكاد يتميز من الغيظ قائلًا إنه أوشك أن يسقط تحت عجلات مركبة أجرة؛ لأنه لم يعتد الزحام، وأنه سيكتب إلى محافظ المدينة. ولكنهم في النهاية هدأوا خاطره، حتى سكن غضبه، وظل خمس سنوات بعد ذلك لا يطل يومًا على الشارع من باب السجن».

وقال المستر بكوك: «وأحسبه قضى نحبه بعد ذلك».

وأجاب سام: «كلا، لم يمت يا سيدي، فقد اشتدت به اللهفة على الذهاب ليذوق طعم الجعة في حانة جديدة على الطريق، وكان محل الشراب لطيفًا فَرَاقَه، حتى لقد جعل يتلهف على الذهاب إليه في كل ليلة، وكان له ما أراد، ولبث على هذا النحو عهدًا طويلًا، وكان يعود في كل مرة قبل إغلاق الباب بربع ساعة، وقد استمتع بدفء طيب، ولذة هنية، وأخيرًا بدأ يأنس للحانة ويسكن إلى الجلوس فيها، حتى أخذ ينسى الوقت، ولا يبالي مر الساعات، ويعود متأخرًا شيئًا فشيئًا إلى أن كان صديقه الحارس يهم ليلة بإغلاق الباب، ويدير المفتاح في القفل، وإذا هو يصيح قائلًا: انتظر يا بل، لا تغلق الباب، وقال السجان: ماذا أرى؟ ألم تعد حتى الآن يا عشرون؟ لقد اعتقدت أنك عدت من وقت طويل. وأجاب الرجل الصغير الجسم مبتسمًا: كلا لم أعد. ففتح الحارس الباب بكل بطء وهو عابس غاضب وقال: إذن دعني أصارحك

يا صاحبي برأيي: ما دمت في الأيام الأخيرة قد أخذت تجالس قرناء السوء، وهو أمر لاحظته عليك مع الأسف الشديد، فلا أريد أن أتخذ معك إجراءً قاسيًا، ولكن إذا لم تلزم الجلوس مع الناس الطيبين، وتعد في الموعد تمامًا، وتتأكد أنك ستواظب عليه كما أنت متأكد الآن أنك واقف على رجليك، فلن أفتح لك الباب إطلاقًا. فلم يكد الرجل يسمع هذا القول من سجانه حتى انتابته رعشة بالغة، فلم يغادر السجن بعد ذلك أبدًا».

وما إن فرغ سام من هذه القصة، حتى أخذ المستر بكوك يعود أدراجه في رفق إلى الطابق الذي تحته. وبعد بضع جولات في «أرض الصور» وكانت مهجورة أو تكاد؛ لأن الظلام كان قد ساد، أشار للمستر ويلر أنه قد حان أن ينصرف ليقضي الليل في الخارج، وطلب إليه أن يلتمس له فراشًا في بعض الفنادق القريبة، ويعود في بكرة الصباح؛ ليتفقا على نقل ثياب سيده من فندق «جورج والرخم». وكان المستر صمويل ويلر على استعداد لتلبية هذا الطلب، بكل هدوء استطاع التظاهر به، ولكنه مع ذلك أبدى شيئًا كثيرًا من التمنع والتردد، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فراح يلمح عدة تلميحات بأنه سوف يرقد فوق الحصباء حتى ينقضي الليل، ولكنه وجد المستر بكوك مُصِرًّا على انصرافه، غير ملق أذنًا إلى اقتراحاته، فاضطر أخيرًا إلى الانصراف.

ولسنا نخفي عليك أن المستر بكوك أحس انقباضًا شديدًا، وانزعاجًا بالغًا، لا من الوحشة، فقد كان السجن يعج بالناس، وتكفي زجاجة واحدة من النبيذ للظفر بأطيب الأنس، وأحسن الجلسات، إلى

نخبة مختارة من السُّمار، دون حاجة إلى تكاليف التعارف، ومؤونة الرسميات، ولكن سبب انقباضه أنه كان وحيدًا في وسط هذا الزحام من السوقة، فأحس بضيق وألم موجع للقلب، وهو نتيجة طبيعية للتفكير في أنه بات سجينًا مقيدًا محتجزًا لا أمل له في الخلاص، ولكن فكرة إطلاق سبيله من ناحية الرضا بخبث أساليب ددسن وفج، والاستكانة إليها، لم تدُر في خلده لحظة واحدة.

وعاد إلى الممر الذي تقع فيه قاعة القهوة، وهو على هذه الحال من التفكير، وراح يمشي الهوينا ذهابًا وجيئة، وكان ذلك الموضع قذرًا إلى حد لا يطاق، وريح التبغ المتصاعدة خانقة، ولا تنقطع أصوات إغلاق الأبواب وفتحها بعنف، لكثرة الخارجين منها والداخلين، وكانت جلبة أصواتهم ومواقع أقدامهم مترددة الأصدية في ذلك الممر بغير انقطاع، ورأى شابة تحمل طفلًا بين ذراعيها، وهي لا تكاد تقدر على الدبيب من فرط النحول، وشدة البأساء، وهي رائحة غادية في الممر تتحدث إلى زوجها؛ لأنه لا يجد مكانًا آخر يتيسر له فيه الالتقاء بها، وفيما كانا يمران قبالته، سمع نحيب المرأة، وما كادت تستسلم على هذا النحو للأسى، حتى اضطرت إلى الاستناد إلى الجدار حتى لا تخر مغشيًّا عليها، بينما أخذ الرجل الطفل بين ذراعيه وحاول تسرية الهم عنها.

وإزاء هذا المشهد لم يطق المستر بكوك صبرًا من شدة تأثره، فصعد السلم إلى مرقده.

ولئن كانت غرفة السجان أخلى ما تكون من وسائل الراحة؛ لأنها شكلًا وموضوعًا أقل مئات المرات من أي سجن في الريف أو ملجأ

للعجزة، فقد كانت مزيتها في تلك الحال الراهنة أنها مهجورة لا تحوي أحدًا غير المستر بكوك نفسه، فلا تعجب إذن له إذا ما جلس عند قدم السرير الحديدي الصغير ومضى يسائل خاطره، كم ترى هذا السجَّان يجمع في العام الواحد من تأجير هذه الغرفة القذرة؟ وبعد أن أقنع نفسه، بعملية حسابية، بأن إيرادها السنوي يكاد يعادل أجر عقار في شارع صغير في إحدى ضواحي لندن، انتقل إلى العجب من ذبابة سوداء أخذت تدب فوق سراويله، وماذا الذي أغراها بالمجيء إلى سجن حقير كهذا، وأمامها الفضاء الطليق، والأفق الرحيب تطير فيه كيف تشاء، وهو سبيل من التفكير أدى به إلى استنتاج لا يمكن مقاومته، وهو أن هذه الذبابة لا بد مجنونة، وما إن استقر هذا الرأي لديه، حتى بدأ يحس أن النوم آخذ بمعاقد جفنيه، فأخرج غطاء الرأس من الجيب الذي لم ينسَ في الصباح أن يدسه فيه احتياطًا، وبدأ برفق وأناة يخلع عنه ثيابه، ويدخل الفراش، ويستسلم للنعاس.

ولم ينقضِ نحو ربع ساعة في نعاس عميق كذلك السبات الذي يخيل للنائم أنه استطال به ثلاثة أسابيع، أو سلخ فيه شهرًا كاملًا، حتى استيقظ على صيحات تقول: «مرحى، رأسًا على عقب! وأقسم! يا زفير! اللعنة عليَّ إذا لم تكن دار التمثيل هي نصف الكرة المناسب لك! ألق بالك منها! مرحى!»، وتلت هذه العبارات الصخابة عاصفة من الضحكات.

وما كاد هذا الصوت ينقطع حتى ارتجت الحجرة رجة عنيفة تركت نوافذها تتخبط في أطرها، والسرر ترجف في مواضعها، فاستوى المستر

بكوك جالسًا في فراشه، ولبث بضع دقائق مستغرقًا في عجب صامت من المشهد الماثل أمام عينيه.

فقد رأى على أديم الغرفة رجلًا في سترة خضراء عريضة الحاشية، وسراويل من المخمل إلى الركبة، وجورب أسود من القطن، يرقص على النغم رقصة شعبية شائعة، في صور وأشكال مضحكة، وحركات هزلية ماجنة، اقترنت بغرابة ذلك الزي المستنكر الذي بدا فيه، فجعل مشهده نابيًا إلى حد لا يوصف، وكان ثمة رجل آخر، يظهر أنه في سُكر بيِّن، ويغلب على الظن أن رفاقه هم الذين احتملوه بينهم، فألقوه فوق السرير، ولكنه ما لبث أن استوى جالسًا فوقه، بين الأغطية وراح يغني ما استطاعت ذاكرته أن تستعيده من أغنية هزلية، وهو منطلق في الغناء بكل وجدانه، كما شهد رجلًا ثالثًا قد جلس فوق السرر يصفق للراقصين والمغني تصفيق الخبير العريف، ويشجعهما بأمثال تلك الصيحات المدوية التي أيقظت المستر بكوك من نومه.

وكان ذلك الرجل الأخير نموذجًا بديعًا من طبقة مهذبة لا ترى أبدًا في أكمل أشكالها، وأتم مظاهرها، إلا في هذه الأماكن وأشباهها. ومن الجائز أن تشهدها العين، في صورة غير كاملة، بين حين وآخر حول مرابط الخيل والحانات العامة، ولكنها في هذه الأحوال لا يمكن أن تبلغ ذروة تفتُّحها وإيناعها، إلا في هذه الحياض الدافئة، والمنابت الحارة، التي يكاد يذهب بنا الظن إلى أن التشريعات والقوانين لم تكفلها إلا لغرض واحد، وهو تنمية تلك الأكمام فيها.

وكان الرجل مرهف العود، زيتوني اللون، ذا شعر فاحم أثيث،

وعارضين كثيفين مشجرين يتلاقى طرفاهما تحت ذقنه، ولبس حول عنقه ملفعة، فقد كان يلعب الكرة طيلة النهار، وكان قميصه مفتوحًا منحسرًا عن عنق ضخم ممتلئ، وفوق رأسه قبعة من النوع الفرنسي الشائع الذي لا يساوي أكثر من ثمانية عشر بنسًا، لها طرة أو ذيل متدلٍّ منها، وهي لحسن الحظ موائمة كل المواءمة لسترته المستطيلة إلى الركبتين. وكانت ساقاه طويلتين مصابتين من طولهما بوهن، يزينهما سروال «أكسفوردي» الطراز، صنع خصيصًا لكي يبرز تناسق هاتين الساقين كل الإبراز، وإن ترك ذلك السروال مرسلًا بغير حمائل، وبدا فوق ذلك ناقص التزرير، فتهدل وترامى مطاوي وثنيات قبيحة الصور على حذاء قصير، يكشف عن جورب أبيض قذر، وتلوح على الرجل في جملته أمارات رشاقة سوقية داعرة، وخبث مزدهٍ بذاته، معلن عن نفسه كل الإعلان، لا يتردد الإنسان في أن يؤدي أي ثمن لكي يراه.

وكان الرجل أول من فطن إلى المستر بكوك وهو ينظر إليهم، فراح يغمز بعينه «للزفير»، ويرجو إليه بجد ساخر ألا يوقظ السيد.

وقال «الزفير» وهو يتلفت ويتصنع الدهشة المتناهية: «يا ألله! هذا صحيح! إن السيد يقظان إيه يا شكسبير! كيف الحال يا سيدي؟ وكيف حال ميري وسارة يا سيدي؟ والسيدة العزيزة العجوز التي في البيت؟ هلا تكرمت فوضعت تحياتي وسلامي في أول طرد صغير ترسله إليهم، قل لهم يا سيدي إنه كان أولى بي أن أبعث بها إليهم قبل الآن، ولكني لم أفعل مخافة أن تنكسر في المركبة يا سيدي».

وقال ذو العارضين الغزيرين، بلهجة المجون: «لا تغمر السيد

بتحيات عادية وأنت تراه في لهفة على شيء يشربه. لماذا لا تسأل السيد ما الذي يتناوله؟».

وأجاب الآخر: «ويحي، لقد نسيت، ما الذي تحب أن تشربه يا سيدي؟ هل تريد نبيذ البورت يا سيدي، أو نبيذ الكريز، إنني أوصيك بالجعة يا سيدي أو لعلك تفضل البورتر عليها يا سيدي، اسمح لي بشرف تعليق قلنسوتك يا سيدي».

وراح ينتزع طاقية من فوق رأس المستر بكوك، ويضعها في لحظة خاطفة فوق رأس السكران الذي اعتقد يقينًا أنه يشنف بصوته أذان جمع جامع، فاسترسل في أغنيته الفكهة بنغمة تبلغ من الحزن أشد ما يمكن أن تتصوره من الأنغام.

ولا نزاع في أن خطف «طاقية» من فوق رأس إنسان بوسيلة عنيفة، ووضعها فوق رأس شخص مجهول بادي المقاذر، مهما يكن نكتة بارعة في ذاتها، لا يدخل مع ذلك في باب المزاح العملي، أو المزاح بالكد. ومن هذه الوجهة نظر المستر بكوك إليها تمامًا، وبلا أقل إشارة منه إلى قصده، وثب بقوة من فوق السرير، ولكز «الزفير» لكزة قوية سريعة في صدره تكفي لكي تحبس عنه جزءًا كبيرًا من ذلك الشيء الذي يحمل اسمه[1]، واسترد طاقيته ووقف في شجاعة وقفة الدفاع عن نفسه.

وقال المستر بكوك وهو متقطع الأنفاس من الغضب، والجهد الكبير الذي بذله في تلك الهجمة الفجائية: «والآن! هلما، أنتما الاثنان،

---

(١) أي يحبس عنه الهواء إذ إن زفير بالإنجليزية تعني النسيم.

هيا، أنتما معًا!». وبهذه الدعوة السمحة راح ذلك السيد الفاضل يوحي بالفكرة في حركة بمجمع قبضتيه؛ لإرهاب خصميه من طريق إظهار مدى علمه بالملاكمة.

ومن الجائز أن تكون هذه الجسارة التي لم تكن منتظرة إطلاقًا من المستر بكوك، أو أن تكون الصورة الغريبة التي وثب بها من فوق السرير، هي التي أحدثت أثرها في نفسي خصميه، فقد تأثرا فعلًا، وبدلًا من أن يحاولا اقتراف جريمة قتل، كما كان المستر بكوك، يعتقد جازمًا، أنهما سيقدمان عليها، وقفا ذاهلين لحظة، ومضى كل منهما ينظر إلى صاحبه، ثم انطلقا يضحكان ضحكات عالية.

وقال «الزفير»: «حسن والله ما أعظم مهارتك، وأنا لهذا معجب بك، والآن عد إلى السرير وإلا أصابك البرد. وأرجو ألا يكون في نفسك شيء؟». ومد إليه يدًا بدت أناملها الصفر الغلاظ أشبه بالأصابع التي تلوح أحيانًا على باب دكان صانع الكفوف[١].

وقال المستر بكوك من فوره وهو منشرح الصدر؛ لأنه بعد أن سكنت ثائرته، بدأ يشعر بالبرد في ساقيه: «ليس في نفسي شيء بلا شك».

وقال الرجل ذو الشاربين الغزيرين، وهو يمد إليه يده اليمنى: «اسمح لي بشرف مصافحتك أيها الرجل النبيل».

وأجاب المستر بكوك: «بكل سرور يا سيدي». وهز اليد المبسوطة إليه هزة طويلة مقترنة بجد بالغ وعاد إلى فراشه.

---

(١) أي القفازات، كانت صنعة صاحب الحانوت، في تلك الأيام، ترسم على لافتته.

وقال ذو العارضين الكثيفين: «إنني أدعى سمانجل يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «أنعم وأكرم».

وقال الآخر ذو الجورب الطويل: «وأنا اسمي ميفنز».

وأجاب المستر بكوك: «يسرني أن أسمع الاسم الكريم يا سيدي».

وسعل المستر سمانجل: «احم».

وقال المستر بكوك: «هل تكلمت يا سيدي؟».

وقال المستر سمانجل: «كلا، لم أتكلم يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «لقد ظننتك تكلمت يا سيدي».

وكان كل ذلك بأدب ولطف، وزيادة في تهدئة الموقف، وإقرار الوئام، مضى المستر سمانجل يؤكد مرارًا وتكرارًا أنه يكِنُّ احترامًا شديدًا لشعور كل رجل مهذب، وهو إحساس يُشكر كثيرًا عليه، ويُحمد في الواقع منه؛ لأنه أبعد من أن يظن أنه يفهم ذلك الشعور أو يدركه.

وسأل المستر سمانجل: «هل أنت مقدم إلى المحكمة يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «مقدم إلى ماذا؟».

وقال المستر سمانجل: «المحكمة في شارع برتيوجل، المحكمة التي تنظر في الإفراج عن- أنت عارف!».

وأجاب المستر بكوك: «آه، كلا، لست كذلك».

وانبرى المستر ميفنز يقول: «لعلك ستخرج، ربما».

وأجاب المستر بكوك: «أخشى ألا يكون الأمر كذلك، لقد رفضت

أداء بعض التعويضات، فجئت إلى هنا».

وقال المستر سمانجل: «آه، لقد كان «الورق» سبب خرابي».

وقال المستر بكوك بسلامة نية: «أحسبك يا سيدي تاجر أدوات كتابية، هل صدق ظني؟».

وأجاب المستر سمانجل: «تاجر أدوات كتابية؟ كلا، كلا، اللعنة والنقمة عليَّ، لم أصل إلى مثل هذه الوهدة، أنا لا أشتغل بالتجارة، وحين أقول «الورق» أقصد كشوف الحساب».

وقال المستر بكوك: «آه، أنت إذن تستخدم الكلمة في هذا المعنى؟ فهمت».

وقال سمانجل: «اللعنة، لا بد لكل سيد أن يتوقع المحن والشدائد، وماذا يهمني من هذا؟ هأنذا في سجن فليت حسن جدًّا. وماذا يهمني؟ إنني لست أسوأ مما كنت في شيء. هل أنا أسوأ حالًا؟».

وأجاب المستر ميفنز: «كلا». وكان الرجل على حق؛ لأن المستر سمانجل لم يكن فعلًا أسوأ مما كان، بل على أية حال أحسن، فقد أراد أن يوفر لنفسه «المؤهلات» التي تجعله جديرًا بالمكان الذي هو فيه، فاستحوذ بلا عمل ولا مقابل على شيء من الحلي والمجوهرات كان من عهد طويل قد وجد سبيله إلى حوانيت الراهنين[1].

وعاد المستر سمانجل يقول: «حسن جدًّا، دعنا من هذا، فهو أمر تجف له الحلوق، ولنرطب أفواهنا بقطرات من شراب الكريز المحروق،

---

(١) يريد أن يقول إنه سرقها من الحوانيت التي يرهن الناس فيها جواهرهم ومصوغاتهم.

على حساب القادم الأخير، وسيحضره ميفنز وأشربه أنا، هذا تقسيم عادل للعمل يجدر بالسادة المهذبين، على كل حال. اللعنة عليَّ!».

ولم يشأ المستر بكوك أن يتعرض لشجار آخر فوافق على الاقتراح بسرور، وسلم النقود إلى المستر ميفنز، وكانت الساعة تقرب من الحادية عشرة، فلم يضع هذا لحظة من الوقت، بل بادر في الحال إلى قاعة القهوة، لتأدية المهمة.

وما كاد يغادر الغرفة حتى همس سمانجل قائلًا: «ما الذي أعطيته؟».

وقال المستر بكوك»: «نصف جنيه».

وقال المستر سمانجل: «إنه لكلب لطيف رقيق شيطان، جهنمي لطيف، لا أعرف أحدًا يفوقه في ذلك كله، ولكن...» ووقف المستر سمانجل عن الكلام، وجعل يهز رأسه هزة المستريب.

وقال المستر بكوك: «هل تظن أنه سيأخذ النقود لنفسه؟».

وأجاب المستر سمانجل: «آه، كلا، افهم مني. إنني لا أقول ذلك لا سمح الله، وكل ما قصدت أن أقوله هو إنه إنسان لطيف ولكن شيطان. ومن رأيي أنه لو ذهب أحد وراءه، لا لشيء سوى أن يتأكد من أنه لم يغطس منقاره في الجرة، قضاء وقدرًا، لا عمدًا ولا قصدًا، أو لم يقع في خطأ ملعون يضيع النقود وهو صاعد السلم، لكان ذلك خيرًا. أنت يا هذا، اذهب فانزل السلم مسرعًا، وابحث عن ذلك

السيد، هلا فعلت يا سيدي؟».

وكان هذا الرجاء موجهًا إلى رجل صغير الجسم عصبي هياب، ينم مظهره عن فاقة شديدة، وكان قد لبث طيلة الوقت جالسًا فوق سريره جلسة انحناء وانكسار، تلوح عليه سمات الذهول والحيرة من غرابة هذا الموقف الجديد المحيط به، وجدة الموضع عليه.

وقال سمانجل: «أنت تعرف مكان قاعة القهوة، فاذهب مسرعًا، وقل لذلك السيد إنك جئت لمساعدته على حمل الجرة، ولكن قف. أقل لك، أقل لك عن طريقة نحاصره بها». وراح المستر سمانجل ينظر نظرة مكر وخبث.

وقال المستر بكوك: «كيف؟».

وأجاب المستر سمانجل: «نرسل إليه رسولًا يقول له بأن يصرف الباقي في شراء لفائف كبيرة، فكرة بديعة! أسرع وقل له هذا. هل أنت سامع؟». وانثنى يلتفت إلى المستر بكوك قائلًا: «وبهذه الطريقة لا تضيع علينا النقود، أما اللفائف فسأدخنها أنا».

وكانت هذه اللعبة بارعة كل البراعة، والطريقة التي أديت بها مقترنة بهدوء لا أثر فيه لأية حركة، وسكينة تامة لا ظل لأية خالجة عليها، فلم يشأ المستر بكوك الوقوف في سبيلها حتى لو أنه أوتي المقدرة على ذلك، وبعد لحظة عاد المستر ميفنز يحمل الشراب، فتناوله المستر سمانجل فصب منه ملء كأسين في قدحين صغيرين

مخدوشين، قائلًا فيما يتصل بشخصه: إن السيد المهذب لا ينبغي له أن يكون مدققًا في هذه الظروف من جهته الخاصة، وأنه لهذا لا يتكبر ولا يترفع عن الشرب من الجرة ذاتها؛ ولكي يظهر إخلاصه، وصدق طويته، راح في شرب نخب رفقائه يفرغ النصف في جوفه.

ولما صفا الجو بهذا التفاهم البديع، وحل الوئام محل الخصام، شرع المستر سمانجل يطرف أذان سامعيه برواية عدة وقائع في مغامراته الغرامية، التي جرت له بين الفينة والفينة، وهي جميعًا تنطوي على عدة نوادر طريفة، تدور حول حصان أصيل، ويهودية رائعة أوتي كلاهما قدرًا فائقًا من الجمال، يتطلع إلى مثله الأشراف والسادات الأعلام في هذه البلاد.

وقبل أن تنتهي تلك الفقرات المقتطفة من تاريخ حياة ذلك السيد وصفحات ماضيه، بوقت طويل، كان المستر ميفنز قد أوى إلى فراشه، وبدأ يغط في نومه الليل كله تاركًا ذلك الغريب الهياب والمستر بكوك يستأثران وحدهما بسماع تجاريب المستر سمانجل وأحداث حياته.

ولكن هذين السيدين الأخيرين لم يظفرا من الحوادث المؤثرة التي قصها عليهم راويها بالشيء الكثير الذي كان من الجائز أن يظفرا به، فإن المستر بكوك كان من لحظة طويلة قد عبث النوم بأجفانه وطاف بمآقيه، وإذا هو يشعر في شيء كالحلم أن ذلك السكران قد

عاود التغني بأغنيته الفكهة، ولكنه تلقى من المستر سمانجل تلميحًا لطيفًا، من طريق الجرة، أن السامعين لم يؤتيا استعدادًا لسماع الغناء. فعاد المستر بكوك يهبط في وادي الكرى، وهو يشعر بشيء عابر مختلط عليه وهو أن المستر سمانجل لا يزال منهمكًا في سرد قصة طويلة، يبدو أن أهم نقطة فيها هي أنه في ظرف خاص أسلف ذكره، وسبق شرحه، قد عرف كيف عثر على مبلغ من المال وعلى سيد في وقت واحد.

* * *

الفصل الثاني والأربعون

يصور كسابقه صدق المثل القديم القائل إن الشدائد تسوق المرء يومًا إلى معرفة أعجب الخلطاء، وأغرب الرفقاء، ويصف أيضًا النبأ الفجائي المزعج الذي أعلنه المستر بكوك للمستر صمويل ويلر

ولما فتح المستر بكوك عينيه في صباح اليوم التالي، كان أول شيء استقرتا عليه هو وجه صمويل ويلر، وقد جلس فوق حقيبة صغيرة سوداء اللون، وهو ينظر مليًّا، في شرود تام، إلى روعة شكل المستر سمانجل الجريء الجسور، وهو مرتدٍ بعض ثيابه ومستوٍ فوق سريره منشغل بلا أمل ولا رجاء بمحاولة التحديق في وجه المستر ويلر حتى يكف عن إطالة النظر إليه، ونقول بلا أمل ولا رجاء؛ لأن سام أبى إلا المضي في تلك النظرة الشاملة التي أحاطت بقلنسوة المستر سمانجل وقدميه ورأسه ووجهه وساقيه وعارضيه جميعًا في وقت واحد، وهو يبدو في ارتياح بالغ، ولكن بلا مبالاة مطلقًا لشعوره الشخصي، كأنه يتفحص تمثالًا من خشب أو دمية «لجاي فوكس» محشوة بالقش[١].

(١) جاي فوكس تآمر على نسف البرلمان الإنجليزي في عهد الملك جيمس الأول. وتحتفل بعض البلاد الإنجليزية إلى يومنا هذا بإحراق فوكس إحراقًا رمزيًّا، فيحشون دمية له بالقش ويشعلون النار فيها ويطلقون الصواريخ وإلى غير ذلك.

وأنشأ المستر سمانجل يقول بعبوس: «ما الخبر، أتريد أن تعرفني مرة أخرى؟».

وأجاب سام باغتباط: «أحلف أنني أعرفك في أي مكان أراك فيه».

وقال المستر سمانجل: «لا تتوقح على رجل مهذب يا سيدي».

وأجاب سام: «حاشا، لا أفعل، وإذا أنت قلت لي ذلك عندما يستيقظ، جعلت تصرفي أحسن ما يكون لطفًا، بل أكثر من اللطافة نفسها». وكانت هذه العبارة تنطوي من بعيد على معنى يوحي بأن المستر سمانجل ليس رجلًا مهذبًا، فاستشاط هذا غضبًا.

وصاح مستر سمانجل قائلًا بحدة وغضب: «يا ميفنز».

وأجاب هذا من فوق وسادته: «ماذا تطلب؟».

قال: «أي شيطان هذا؟».

وأجاب ميفنز وهو ينظر بكسل وفتور من تحت أغطية الفراش: «أولى بي أن أسألك أنت هذا السؤال، هل له عمل هنا؟».

وأجاب المستر سمانجل: «أبدًا».

وقال المستر ميفنز: «ألق به إذن من فوق السلم، وقل له لا ينهض حتى آتي إليه فأركله». وما كاد الرجل يسدي هذه النصيحة إلى رفيقه حتى استسلم إلى النوم.

ولما رأى المستر بكوك أن الحديث بدأت تظهر عليه أعراض الاقتراب من حدود الشتائم والسباب الشخصي، تبين أنه قد وصل إلى

نقطة تقتضي منه التدخل.

قال: «يا سام».

وأجاب هذا: «سيدي».

قال: «هل جد شيء منذ الليلة البارحة؟».

وأجاب سام وهو ينظر إلى عارضي المستر سمانجل: «لم يجد شيء ذو بال يا سيدي، سوى أن الأحوال الجوية الأخيرة ساعدت بدفئها وسكون ريحها على نمو أعشاب من نوع مزعج، وصنف دموي، وفيما عدا ذلك تسير الأمور في هدوء تام».

وقال المستر بكوك: «سأنهض من الفراش، أعطني ثيابًا نظيفة».

وإذا كانت قد خامرت نفس المستر سمانجل أية نيات عدائية في تلك اللحظة، فإن أفكاره لم تلبث أن انشغلت عنها بمشاهدة الحقيبة وهي تفتح وتخرج الثياب منها، فقد بدا للعين أن ما حوته منها أوحت إليه في الحال، أحسن الظن لا بالمستر بكوك فحسب، بل بسام كذلك. فانتهز أول فرصة سنحت له وأعلن بصوت مرتفع يسمعه ذلك الشخص الغريب الأطوار أنه شخصية حسنة النشأة فريدة في ذاتها، وأنه لهذا السبب يميل إليه بكل قلبه. وأما محبته للمستر بكوك فلا حد لها ولا نهاية.

وقال المستر سمانجل: «والآن هل من شيء أستطيع أن أؤديه لك يا سيدي العزيز؟».

وأجاب المستر بكوك: «لا أظن ثمة شيئًا. إنني شاكر لك».

قال: «أليس لديك ملابس داخلية تريد أن ترسلها إلى الغسالة؟ إنني أعرف غسالة لطيفة في الخارج تأتي لتأخذ غسيلي مرتين في الأسبوع، يمين الله! إنها لمصادفة حسنة، فإن اليوم هو موعد زيارتها، فهل أضع شيئًا من هذه الثياب الصغيرة مع ملابسي؟ لا تقل هذا تكليف أو تعب لي، لا شيء من هذا مطلقًا، وإذا لم يبادر سيد في شدة من الشدائد فيتقدم لمساعدة سيد آخر في مثل حاله، فقل لي ما هي الطبيعة البشرية إذن؟».

قال ذلك وراح يقترب شيئًا فشيئًا من الحقيبة ويرسل نظرات توحي بصداقة متحمسة كل التحمس خالية من كل غرض.

وعاد سمانجل يقول: «هل من شيء لديك تريد أن تسلمه إلى من ينظفه بالفرجون أيها المخلوق العزيز؟».

وقال سام وهو يتولى الرد بنفسه: «لا شيء مطلقًا أيها الصديق اللطيف، وإذا كان أحد منا سيتولى التنظيف بدلًا من تكليف إنسان آخر به، كان ذلك مريحًا لجميع الأطراف، كما قال ناظر المدرسة حين اعترض الطالب على أن يتولى الخادم ضربه».

وأشاح المستر سمانجل وجهه عن سام، والتفت إلى المستر بكوك، فقال بارتباك: «أليس ثمة شيء يمكن أن أرسله في صندوقي الصغير إلى الغسالة؟ هل من شيء؟».

وأجاب سام: «لا شيء بالمرة يا سيدي، إنني أخشى أن يكون صندوقك الصغير ممتلئًا إلى حافته بملابسك كلها كما يبدو».

وكانت هذه العبارة مقترنة بنظرة بليغة إلى ذلك الملبس القليل

الذي يبدو على المستر سمانجل، والذي يتبين من شكله مدى براعة الغسالات في تنظيف ملابس السادات المهذبين. ويقاس عامة به، فلم يكن من المستر سمانجل إلا أن دار على عقبيه، يائسًا في ذلك الوقت على الأقل، من محاولة ابتزاز نقود المستر بكوك أو السطو على ثيابه، ومضى محنقًا إلى ملعب الكرة، حيث تناول فطورًا خفيفًا صحيًّا على لفافتين كبيرتين من التبغ الذي اشترى في الليلة الماضية.

أما المستر ميفنز فلم يكن مدخنًا ولكن وصل حساب ما عليه من البقالة إلى آخر «اللوح»، و«رحل» إلى ما «بعده»- فلم يغادر فراشه، وقال- على حد تعبيره- إنه سيتناول الفطور في النوم.

وتناول المستر بكوك طعام الإفطار في غرفة صغيرة ملحقة بالمقهى، عرفت باسم رائع، وهو «الخلوة» وتمتاز لقاء أجر إضافي قليل بأن الذي يختارها لمجلسه ومأكله فترة من الوقت يتمكن وهو فيها من سماع الأحاديث التي تدور في ذلك المقهى. وبعد أن أوفد المستر ويلر لقضاء بعض الحاجات الضرورية، قصد إلى «المكتب» ليستشير المستر روكر بشأن المكان الذي سوف يخصص له.

وقال ذلك السيد، وهو ينظر في دفتر ضخم: «تسأل عن المحل، آه، المحال كثيرة يا مستر بكوك، إن تذكرة «زمالتك» ستكون رقم ٢٧ في الدور الثالث».

وقال المستر بكوك: «ماذا تقول؟ تذكرة ماذا؟».

وأجاب المستر روكر: «تذكرة زمالتك، هل فهمت المعنى المقصود؟».

وقال المستر بكوك مبتسمًا: «لم أفهم تمامًا».

وقال المستر روكر: «كيف، وهو واضح كقولك «سالسبوري»[1] إنني أقصد أنك ستعطى تذكرة تخول لك الحق في الإقامة بالغرفة رقم ٢٧ في الدور الثالث، وسيكون الذين يحتلونها معك «زملاءك» فيها».

وقال المستر بكوك مستريبًا: «هل هم كثير؟».

وأجاب المستر روكر: «ثلاثة».

وسعل المستر بكوك.

ومضى المستر روكر يقول، وهو يحفظ في الملف قصاصة صغيرة من الورق: «أحدهم قسيس، وآخر قصاب».

وصاح المستر بكوك مبهوتًا: «إيه؟».

وأجاب المستر روكر وهو يطرق سن قلمه فوق المكتب لعلاج امتناعه عن التأشير: «قصاب، لقد كان في زمانه بلا شك رجلًا مستقيمًا، هل تتذكر توم مارتن يا ندي».

وكان هذا النداء موجهًا إلى رجل آخر في المكتب كان منهمكًا بإزالة الوحل اللاصق بحذائه بمطواة جيب ذات خمسة وعشرين نصلًا.

وقال هذا وهو يضغط بقوة التوكيد على ضمير المتكلم: «أنا، أذكر هذا الاسم».

وقال المستر روكر، وهو يهز رأسه ببطء من جانب إلى آخر، ويطل بذهول من النافذة ذات القضبان القائمة أمامه كأنما يذكر في حنين مشهدًا

(١) أي كقولك أي شيء واضح مفهوم.

هادئًا من مشاهد شبابه: «مسكين، إني ليخيل لي أن ذلك كله جرى أمس فقط، ولم يجر من زمن طويل، حين غلب في الشجار حمَّال الفحم بقرب الميناء عند فوكس أندر ذي هل، إني لأتمثله اللحظة قادمًا من شارع ستراند، وقد أفاق قليًا من الرضوض التي أصابته، ووضع ضمادة من الخل والورق الأسمر فوق جفن عينه اليمنى، وذلك الكلب اللطيف الذي عقر الغلام الصغير فيما بعد، يتبعه كظله. يا للعجب من الزمان! إن تصاريفه لغريبة، أليس كذلك يا ندى؟».

وكان السيد الذي وُجهت إليه هذه الملاحظات يبدو صموتًا بطبعه مستغرقًا في التفكير، فلم يقل شيئًا غير ترديد هذا السؤال، وراح المستر روكر ينفض عنه هذا التأمل الشعري الحزين الذي انساق إليه، فيهبط من أفقه الحالم إلى الأرض والحياة والعمل فتناول قلمه ليواصل ما كان فيه.

وقال المستر بكوك: «هل تعرف من يكون السيد الثالث؟» ولم يكن قد شعر بارتياح كثير للوصف الذي سمعه من زملائه في الغرفة المعينة له.

والتفت المستر روكر إلى زميله فقال: «من يكون سمسون يا ندي؟».

وقال ندي: «أي سمسون؟».

وعاد المستر روكر يقول: «أي نعم نزيل الغرفة ٢٧ في الطابق الثالث الذي سينضم هذا السيد إليه».

وأجاب ندي قائلًا: «آه هو، إنه لا شيء في الحقيقة، لقد كان فيما مضى سمسار خيول، ولكنه الآن نصاب».

وقال المستر روكر: «آه، هذا هو ما كنت أعتقد». وطوى دفتره ووضع الورقة الصغيرة في يدي المستر بكوك وهو يقول: «هذه هي التذكرة يا سيدي».

وعاد المستر بكوك أدراجه إلى السجن، وهو جد مرتبك حائر، عقب هذا التصرف السريع في شخصه، يفكر فيما يحسن به أن يفعل، ولكنه اقتنع بأن من الحكمة قبل اتخاذ أية خطوات أخرى أن يجتمع أولًا ويتحدث شخصيًّا مع أولئك السادة الثلاثة الذين أشير عليهم بالمقام بينهم، فانطلق يريد الطابق الثالث.

وبعد أن تحسس طريقه في الممر فترة من الوقت محاولًا في الظلمة، أو على بصيص النور الضئيل فيه، قراءة الأرقام المكتوبة على الأبواب، اضطر أخيرًا إلى الالتجاء إلى غلام ممن يتولون غسل الأواني في المقهى كان بمحض المصادفة يطوف طوفة الصباح لجمعها.

وقال المستر بكوك: «أين الغرفة رقم ٢٧ أيها السيد الكريم؟».

وأجاب الغلام: «خامس باب أمامك، الباب الذي تجد عليه صورة رجل على المشنقة وهو يدخن في قصبته، وهذه الصورة مرسومة خارج الباب بالطباشير».

ومضى المستر بكوك على هدى هذا التوجيه يقطع الدهليز بخطى وئيدة حتى التقى بصورة «الرجل المهذب» التي أسلفنا وصفها، فدق الباب فوق وجه صاحب الصورة بإحدى عقد سبابته، دقة خفيفة في مبدأ الأمر، ثم بصوت مسموع، وبعد أن كرر ذلك عدة مرات، فلم يستجب

أحد إليه، تجرأ ففتح الباب وأطل منه.

ولم يكن في الغرفة سوى رجل واحد، كان متدليًا من النافذة قدر إمكانه، دون أن ينقلب أو يفقد توازنه، محاولًا في إلحاح شديد، ودأب بالغ، البصق فوق قمة قبعة صديق له في الاستعراض تحت النافذة، فلم يرع لكلام، ولا سعال، ولا دق، ولا أية وسيلة أخرى من الوسائل العادية لاجتذاب النظر، ولم ينبهه شيء منها إلى وجود زائر، فلم يسع المستر بكوك بعد تردد قليل إلا أن يخطو نحو النافذة ويجذب برفق ذيل سترته، وإذا الرجل يبعد رأسه وكتفيه عن النافذة في سرعة بالغة، ويتفحص المستر بكوك من فرعه إلى قدمه، ويسأله في غضب: «بحق ذلك الشيء الذي يبدأ بحرف «الجيم» ماذا تريد؟[1]».

وقال المستر بكوك وهو ينظر إلى تذكرته: «أعتقد أن هذه الغرفة هي رقم ٢٧ في الطابق الثالث».

وأجاب الرجل: «ثم ماذا؟».

وقال المستر بكوك: «لقد جئت إلى هنا لأني تلقيت هذه القصاصة».

وقال السيد: «سلمها».

ففعل المستر بكوك ذلك.

وقال المستر سمسون- لأنه كان هو النزيل الثالث أو «النصاب» الذي وصف له- بعد سكون مقترن بسخط شديد: «كان أولى بالمستر

---

(١) أي بحق الجحيم، وهذا نوع من أقسام العامة وفي الأصل الإنجليزي «بحق ذلك الشيء الذي يبدأ بحرف H» أي Hell.

روكر أن يختار لك زملاء في مكان آخر».

وكان هذا هو الرأي ذاته الذي خطر ببال المستر بكوك، بعد هذه المقدمات، ولكنه رأى من حسن السياسة في هذه الظروف أن يعتصم بالصمت.

وفكر المستر سمسون بضع لحظات، ثم أطل برأسه من النافذة فأطلق صفيرًا حادًّا ونطق بكلام ما، وعاد يردده عاليًا عدة مرات، ولم يستطع المستر بكوك أن يفهم ذلك الكلام، ولكنه استنتج أنه لقب عرف به المستر مارتن؛ لأن خلقًا كثيرًا ممن كانوا تحت الشرفة راحوا في الحال يصيحون «يا قصاب» في لهجة شديدة تشبه ما اعتاد أفراد هذه الفئة النافعة في المجتمع أن يعرفوا الناس بوجودهم في كل منطقة.

وجاءت الحوادث بعد ذلك مؤكدة صدق استنتاج المستر بكوك، فلم تمض بضع ثوان حتى دخل الغرفة سيد يلوح عريض الألواح قبل الأوان، بالنسبة لسنه. وهو مرتدٍ ثوبًا أزرق سابغًا من ثياب المهنة، وحذاء عاليًا مستدير المقدم، وكان لاهث الأنفاس عند دخوله، وفي أثره جاء سيد آخر في ثوب أسود قديم العهد وطاقية من جلد كلاب البحر، وقد زرر سترته إلى ذقنه بدبوس، فزر فدبوس، ثم زر، وهكذا دواليك، وهو أحمر الوجه بادي الخشونة، يلوح كأنه قسيس سكير، والواقع أنه كان كذلك.

وبعد أن قرأ كل من السيدين القصاصة أبدى الأول رأيه فيها قائلًا: إن هذا «خداع»، وعبر الآخر عن اعتقاده بقوله هذه «حيلة»، وعلى أثر

تسجيل شعورهما بهذين التعبيرين الواضحين، نظرا إلى المستر بكوك، ثم إلى بعضهما البعض، في صمت غريب.

وقال القسيس، وهو ينظر إلى ثلاث «حشيات» قذرة، لفت كل واحدة منها في غطاء، واحتلت الثلاث ركنًا من الغرفة طيلة النهار، وتألف منها على تلك الصورة «رف»، وضع فوقه حوض قديم مشقوق وإبريق، وطبق للصابون من الخزف الأصفر العادي رسمت عليه صورة زهرة زرقاء: «إن هذا لمؤلم جدًّا، بعد أن نظمنا فراشنا هكذا وجعلناه مستكنًّا دافئًا، مؤلم جدًّا».

وأبدى المستر مارتن رأيه بعبارة أقوى من ذلك وأشد لهجة، وبعد أن أطلق المستر سمسون طائفة منوعة من النعوت والصفات المشبعة الحشو في حق المجتمع، دون أن يقرنها بتعيين أحد بالذات، راح يشمر عن ساعديه، وأخذ يغسل الخضر استعدادًا للغداء.

وكان المستر بكوك، خلال ذلك كله، يجيل عينه في أرجاء الغرفة، فبدت له مفرطة في القذر، وخبث الريح، حتى لتخنق الأنفاس، ولم يكن ثمة أثر لبساط فيها، ولا ستار، ولا حجاب، بل ولا حاجز يصح أن تلقى خلفه المهملات، وكانت في الغرفة بضعة أشياء تدخل في هذا الباب، كان أولى بأن تلقى جانبًا، لو أن فيها مكانًا كهذا لحجبها عن الأنظار، ولكنها على قلة عددها، ومحدود أحجامها، بقيت متناثرة في نواحيها، بين كسرات من رغفان، وقطع من جبن، وبين مناشف رطبة، وصحاف مكسرة ومنافخ بغير فوهات، وشوك بغير سنان، فكان شكلها مزعجًا، وهي على هذا النحو منثورة على أرض غرفة صغيرة، تجمع بين غرفة

جلوس، وحجرة نوم، لثلاثة رجال مكاسيل متبطلين.

وأنشأ «الجزار» يقول بعد صمت طويل: «أظن أن هذا يمكن تداركه بأي وسيلة من الوسائل، ماذا ترضى أن تأخذ نظير ترك مكانك هنا؟».

وأجاب المستر بكوك عفوًا: «ماذا قلت، إنني لا أكاد أفهمك؟».

وقال الجزار: «ماذا تأخذ نظير «خلو الرجل»، إن الفئة المعتادة هنا هي شلنان وستة بنسات، هل تحب أن تأخذ ثلاثة شلنات؟».

واقترح السيد القس قائلًا: «وعشاء بسيطًا».

وقال المستر مارتن: «هذا لا يهمني، إن ثمن الواحدة بنسان، فلا مانع من أن يأخذ هذه أيضًا».

وقال صاحب الفكرة من البداية: «هيه! ما قولك؟ هل تقبل الاستغناء عن مكانك معنا نظير ثلاثة شلنات وستة بنسات في الأسبوع، ما رأيك؟».

وأردف المستر سمسون قائلًا: «وتناول جالون من البيرة في المقهى أيضًا، ما رأيك؟».

وقال القسيس: «وتشربه في المحل رأسًا. هيه، قل موافق».

وأجاب المستر بكوك: «إنني في الحقيقة جاهل كل الجهل بقواعد هذا المكان وأنظمته، فلا عجب إذا لم أفهم ما قلتم، هل من سبيل إلى الإقامة في مكان آخر؟ لقد كنت أظن أن هذا غير ميسور».

وعلى أثر هذا السؤال نظر المستر مارتن بدهشة متناهية إلى صاحبه،

ثم راح كل منهم يشير بإبهامه الأيمن من فوق كتفه اليسرى، وهي حركة يعبرون عنها كلامًا، وإن ظل التعبير ناقصًا غير وافٍ، بقولهم: «نحو اليسار» وهو اصطلاح ضعيف لا يفي بالمراد، وإن لجأ إليه كل من ألفوا العمل «ارتباطًا»، من النساء أو الرجال باعتباره اصطلاحًا متفقًا عليه فيما بينهم، بل هي حركة تجمع إلى اللطف قوة التأثير، وهي من حيث التعبير حركة «سخرية» خفيفة، وتهكم فكه.

وقال المستر مارتن، وهو يبتسم ابتسامة إشفاق ورثاء: «أتسألنا هل من سبيل؟».

وتبعه القسيس فقال: «لو كنت قليل العلم بالحياة إلى هذا الحد، لأكلت قبعتي، وابتلعت المشبك، فلا أترك منه شيئًا».

وأضاف السيد الرياضي بلهجة الجد: «ولفعلت أنا كذلك».

وانثنى الزملاء الثلاثة، بعد هذه المقدمة، يقولون للمستر بكوك، في نفَس واحد: إن سلطان المال داخل سجن فليت هو بذاته سلطانه في خارجه، وأنه بالمال يستطيع في الحال الظفر بكل ما يشتهيه تقريبًا، وأنه إذا فرض أن لديه مالًا، وأن لا مانع لديه من إنفاقه، فإنه لا يحتاج للحصول على غرفة خاصة لا يشاركه فيها أحد، وتأثيثها كاملة، إلا أن يبدي رغبته، فيكون له ما أراد، في نصف ساعة.

وتفرق الجمع، وذهب كلٌّ في سبيله، راضين مغتبطين، فعاد المستر بكوك أدراجه إلى «المكتب» وانطلق الزملاء الثلاثة إلى «المقهى»، لينفقوا الشلنات الخمسة التي استطاع السيد القسيس بقدر من الحكمة، وبعد البصر، حقيق بالإعجاب، أن يقترضها منه لهذا الغرض.

وقال المستر روكر وهو يضحك عقب أن شرح له المستر بكوك الغرض الذي عاد من أجله: «لقد كنت عارفًا أنك ستعود. ألم أقل ذلك يا ندي؟».

وهمهم ذلك الفيلسوف صاحب المبراة العامة همهمة إيجاب.

ومضى المستر روكر يقول: «لقد كنت عارفًا أنك ستطلب غرفة لك بمفردك، دعني أنظر في المسألة، ستحتاج طبعًا إلى شيء من الأثاث، أظنك ستستأجرها مني، فإن هذا هو الإجراء المتبع».

وأجاب المستر بكوك: «بكل سرور».

وقال المستر روكر: «إن هناك غرفة مفتخرة في الطابق الذي يقع فيه المقهى، كانت معدة لسجين من موظفي المحكمة المدنية، وهي ستكلفك جنيهًا في الأسبوع، أظنك لا تمانع في ذلك؟».

وأجاب المستر بكوك: «مطلقًا».

وقال المستر روكر وهو يتناول قبعته باغتباط شديد، وخفة بالغة: «تعال معي لنسوي المسألة في خمس دقائق، يا ألله! لماذا لم تقل من أول الأمر أنك تريد أن تتمتع بشيء من الراحة والمنزل اللطيف؟».

ولم يلبث أن تم تدبير الأمر كما توقع الحارس، وكان ذلك السجين قد طال عليه البقاء في المحبس، حتى فقد الصحاب، والمال، والموطن، والرغد والهناءة، فاستحق أن تكون له غرفة بمفرده، وكان كثيرًا ما تعز كسرة الخبز عليه، فلا غرو إذا هو استمع في لهفة إلى طلب المستر بكوك ورغبته في استئجار الغرفة، ورضي على الفور بنقل ملكيتها المطلقة إليه

نظير عشرين شلنًا في الأسبوع، بشرط أن يدفع منها «خلو رجل» لأي شخص أو أشخاص يحتمل أن يساكنوه وينزلوا عليه.

وفيما كانا يعقدان هذه الصفقة، أخذ المستر بكوك يتفحص الرجل باهتمام أليم، فبدا له طويلًا نحيلًا كالهيكل العظمي، في معطف قديم وخفين، غائر الخدين، خلاج العينين، ملهوف البصر، خلت شفتاه من الدم، وأمست عظامه حادة ناحلة بارزة. كان الله في عونه! إن أنياب المحبس الحداد، وأضراس الجوع والحرمان كانت تبرده بردًا بطيئًا منذ عشرين عامًا.

وقال المستر بكوك، وهو يضع أجرة الأسبوع الأول مقدمًا على المنضدة المتخاذلة السيقان: «وأين تقيم أنت في هذه الفترة يا سيدي؟».

وتناول الرجل المال بيد راجفة، وأجاب بأنه لا يعرف إلى الآن، وأنه سوف يذهب فيبحث عن مكان ينقل إليه سريره.

وقال المستر بكوك وهو يضع يده برفق وعطف على ذراعه: «أخشى يا سيدي أن تضطر إلى الإقامة في مكان شديد الجلبة مزدحم بالنازلين، فأرجو أن تعد هذه الغرفة تحت أمرك، إذا التمست شيئًا من الهدوء أو جاء أحد من أصحابك لرؤيتك».

وعاجله الرجل قائلًا بصوت يتحشرج في حنجرته: «أصحابي! لو أنني رقدت ميتًا في قاع أعمق منجم في العالم، مسجًّى مسمرًا عليَّ في تابوتي، أو متعفنًا في ذلك الأخدود المظلم المليء بالحمأ تحت قاعدة هذا السجن، لما نسيني الناس ولا استخفوا بي، قدر ما هم ناسون اليوم

شأني هنا ومستخفون بأمري. إنني في نظر المجتمع ميت، في عداد الأموات، يضن الناس علي بتلك الرحمات التي يضيفونها على الذين سبقوني إلى يوم الحساب. أتقول: أصحابي يجيئون لرؤيتي؟ رباه! لقد هويت من ريعان الحياة إلى الشيخوخة والوهن في هذا المكان، فلا أحد يرفع يده فوق فراشي حين أرقد فيه ميتًا ويقول حمدًا لله، لقد استراح!».

ولكن الانفعال الذي ألقى ضياء غريبًا على وجه الرجل، ضياء لم يألفه محياه، ولا خطف من قبل بمعارفه، وهو يتحدث على هذا النحو، لم يلبث أن هدأ وخَفَتَ عند انتهائه، وراح يشبك يديه الذابلتين معًا، في عجلة وارتباك، وانصرف من الغرفة.

وقال المستر روكر وهو يبتسم: «كلام طال عليه القدم، إن هؤلاء الناس كالفيلة، في طول صبرها، ولكنها حين تنفعل أحيانًا وتهيج، تبدو متوحشة ثائرة، وكذلك هم!».

ولم يكد المستر روكر يبدي هذه الملاحظة الشديدة العطف، حتى دخل في موضوع التنفيذ بسرعة فائقة فلم تنقضِ فترة قصيرة من الوقت حتى فرشت الغرفة ببساط، ووضعت في جوانبها ستة مقاعد، وجيء بمنضدة، ومتكأ للنوم، ومغلاة شاي، وعدة أشياء صغيرة أخرى بالإيجار، نظير فئة معقولة جدًّا، وهي سبعة وعشرون شلنًا وستة بنسات في الأسبوع.

وسأل المستر روكر، وهو يدير بصره في أرجاء الغرفة بارتياح شديد، ويحرك في سرور وفرح أجرة الأسبوع الأول في كفه المطبق

عليها: «والآن هل من شيء آخر تريد أن نصنعه لك؟».

وقال المستر بكوك، وهو مطيل التفكير منذ لحظة: «أي نعم، هل هنا أحد يمكن أن ينتفع به في تأدية قضاء الحاجات وما إليها؟».

وسأل المستر روكر: «في الخارج، تقصد؟».

قال: «نعم، أحد يستطيع الخروج، لا من بين السجناء أنفسهم؟».

وأجاب المستر روكر: «نعم، إن لدينا شيطانًا منكود الحظ له صاحب في قسم الفقراء يسره أن يؤدي أي شيء من هذا القبيل، وقد مضى عليه في هذا العمل ونحوه شهران، هل أرسله إليك؟».

وقال المستر بكوك: «إذا تكرمت، ولكن كلا، هل قلت قسم الفقراء؟ إنني أود أن أشاهده، سأذهب أنا بنفسي للقائه هناك».

وكان قسم الفقراء- كما يوحي اسمه- هو الجناح الذي يُعتقل فيه أشد المدينين بؤسًا، وأحطهم قدرًا، وأبشعهم فاقة، فإن السجين الذي يحال إليه لا يدفع أجرًا ولا رسوم «زمالة»، بل تخفض قيمة الرسوم التي يدفعها عند الدخول، والخروج من المحبس، إلى قدر ضئيل من المال، ويصبح مستحقًا لنصيب يسير من الطعام، اعتاد بعض المحسنين من وقت إلى آخر أن يتركوا في وصاياهم قبل مماتهم شيئًا تافهًا، لشرائه وتوزيعه على نزلاء هذا الجناح وسجنائه. ولعل أكثر قرائنا يذكرون، كيف كان إلى بضع سنوات ماضية يقوم قفص حديدي في جدار «سجن فليت»، يقف فيه رجل يبدو السغب على وجهه، ويهز بين لحظة وأخرى صندوقًا للنقود، وهو يصيح بصوت محزن: «لا تنسوا المدينين

الفقراء، لا تنسوا المدينين الفقراء، ناشدتكم المروءة». وكانت النقود التي يحتويها ذلك الصندوق، إذا احتوى شيئًا منها، تقسم بين أولئك المساجين البائسين، وهكذا كان نزلاء هذا الجناح من السجن يتعاونون على جمع هذه الصدقات بالتناوب بالوقوف في ذلك الموقف المذل للكرامة المليء بالهوان.

ولئن كانت هذه العادة قد أُبطلت، ولم يبقَ لذلك القفص اليوم أثر، فلا تزال أحوال أولئك القوم المنكودين باقية على بأسائها ونكرها، فلم نعد نرتضي وقوفهم بأبواب السجن ينشدون الرحمة والإحسان من السابلة، ولكنا لا نزال تاركين في سجلات شرائعنا وقوانيننا، لإعجاب الأجيال الخالفة بنا وإكبارها لشأننا، ذلك القانون العادل السديد الذي ينص على أن المجرم القوي ذا البأس يجد في السجن الغذاء والكساء، أما المدين المعدم فيُترك للموت سغبًا وعريًا، وليس هذا القول من نسج الخيال، ولا هو قصة من القصص، ولكنه الواقع، فما من أسبوع ينقضي، إلا عاجل الموت حتمًا، في كل سجن من السجون التي يحبس فيها المدينون، بعض أولئك المساجين، من أثر التلوي من الجوع، والعذاب البطيء المستطيل من الحاجة والحرمان، إذا لم يسعفهم زملاؤهم في تلك السجون.

وقد تناهبت هذه الحقائق خاطر المستر بكوك ودارت جميعًا في خلده، وهو يصعد السلم الضيق الذي تركه روكر عند أول مدارجه، واستولى التأثر على نفسه شيئًا فشيئًا حتى بلغ درجة الغليان، وكان من شدة ألمه واضطراب مشاعره أن أسرع إلى دخول الغرفة التي هدوه إليها،

قبل أن يتبين أو يتذكر شيئًا عن الموضع الذي جاء إليه، ولا عن الغرض من مجيئه.

ولكن مشهد الغرفة لم يلبث أن رده في الحال إلى نفسه، وما كاد يلقي نظرة على صورة رجل مكب على النار الخابية وهو ساهم مفكر، حتى سقطت قبعته من فوق رأسه، من شدة الدهشة، ووقف في مكانه جامدًا لا يستطيع حراكًا، من فرط الذهول.

إي والله، لقد رأى حياله رجلًا في أسمال ممزقة، بلا رداء عليه، وقد استحال قميصه القطني أصفر اللون، خلقًا، وتدلى شعره على وجهه، وغيرت الآلام من ملامحه، وطحنه الجوع بحداد أنيابه، وكان ذلك الرجل هو المستر ألفريد جنجل، وقد اعتمد رأسه بكفه، واستقرت عيناه على النار، ودلت هيئته عامة على بؤس شديد وانكسار مبين!

وبجانبه وقف رجل من أهل الريف الأقوياء الجسوم، مستندًا في قلق واضطراب إلى الجدار، ينفض بسوط بالٍ من سياط الصيد، فرد حذاء طويل تزدان به قدمه اليمنى، بينما كانت قدمه اليسرى في خف قديم، فقد كان «يلبس» متمهلًا على مراحل، لقد جاءت به إلى ذلك الموضع حلبات الخيل، وسباق الكلاب، وفرط الشراب، مجتمعات.

وكان لقدمه العزلاء من الحذاء مهماز صدئ جعل بين لحظة وأخرى يدفعه في الفضاء، ويوجه إلى الحذاء ذاته، في الوقت عينه، ضربة رشيقة، ويتمتم ببعض الأصوات التي اعتاد بها الراكب العريف بالخيل أن يحفز جواده، ويشجعه على العدو والخبب.. لقد كان في

تلك اللحظات «راكبًا»، ولكن في الخيال! مطلقًا مركبة خفيفة تعدو وتنهب الأرض نهبًا! يا للمسكين! ما نحسبه ركب في سباق يومًا صهوة أشد حصان سرعة، وهو في حلة الفارس العلاء الصهوات، بنصف تلك السرعة التي قطع بها الطريق إلى سجن فليت!

وكان في الجانب المقابل من الغرفة شيخ يجلس فوق صندوق خشبي صغير مطأطئ الرأس، لا تغادر عيناه النظر إلى الأرض، وعلى وجهه تلوح سمات يأس شديد، وقنوط بالغ لا تشع عليه خطفة من أمل، وقد حامت من حوله صبية صغيرة هي حفيدته، تحاول بعشرات الحيل المألوفة من الصغار والأطفال، أن تجتذب إليها نظره، والشيخ لا يرى ولا يسمع، ولا يحرك ساكنًا، فقد عاد ذلك الجرس الذي كان كالموسيقى في سمعه، والعينان اللتان كانتا كشعاع باهر الضياء في ناظريه، لا تتملك حواسه، ولا توقد مشاعره، وكانت أوصاله راعشة من المرض، وبات الفالج يقدح في خاطره. وكانت الغرفة تحوي رجلين آخرين أو ثلاثة رجال تألفت منهم عقدة صغيرة وهم يتحادثون في ضوضاء وصخب، وكانت هناك أيضًا امرأة نحيلة ذابلة المحيا، هي زوجة أحد السجناء، تسقي برفق شديد جذعًا ذابلًا من نبات جاف مصوح، يبدو عليه أنه لن يورق في يوم من الأيام، كأنه رمز بليغ للمهمة التي جاءت لتؤديها في ذلك المكان.

تلك هي الصور والشكول التي تراءت للمستر بكوك، وهو يدير العين فيما حوله من الذهول، وإذا هو ينتبه منه على صوت إنسان يدخل الغرفة في عجلة، فالتفت ناحية الباب، والتقت عيناه بالقادم الجديد، وإذا

هو يتبين فيه، من خلال أسماله وأقذاره، وجه المستر جب تروتر!

وصاح هذا بصوت عال: «المستر بكوك!».

وقال جنجل وهو ينهض من مقعده: «آه؟ المستر... هذا صحيح، مكان غريب، شيء عجيب، أستحقه، جدًّا».

ودس المستر جنجل يديه في المكان الذي اعتاد أن يكون جيبًا لسراويله، وأرخى ذقنه حتى تدلى على صدره وهبط في مقعده.

وتأثر المستر بكوك لهذا المشهد الأليم، فقد كان الرجلان في حال بشعة من البؤس، وكانت النظرة الحادة التي رمق بها جنجل بغير اختياره قطعة صغيرة من متن ضأن نيئ جاء جب بها معه، أبلغ تعبير عن مبلغ سوء حالهما من كل شرح أو بيان. ونظر المستر بكوك إلى جنجل برفق فقال: «أحب أن أتحدث إليك على انفراد، هلا خطوت إلى الخارج لحظة؟».

وقال جنجل وهو ينهض مسرعًا: «بلا شك. لا أستطيع أن أبتعد كثيرًا.. لا خطر من التريض والمشي كثيرًا هنا.. متنزه بديع، مثير للخيال، ولكنه غير فسيح الرحاب، مفتوح وللتفتيش العام.. الأسرة دائمًا في المدينة، والقائم على شؤون البيت حريص أشد الحرص جدًّا».

وقال المستر بكوك، وهما يخرجان إلى السلم، ويغلقان الباب وراءهما: «لقد نسيت سترتك».

وأجاب جنجل: «آه! سباوت، قريب عزيز... العم توم.. ما حيلتي؟ لا بد من الأكل، كما تعرف، حكم الطبيعة... وكل شيء من هذا القبيل».

وقال المستر بكوك: «ماذا تعني؟».

وأجاب جنجل: «ذهبت يا سيدي العزيز السترة الأخيرة... ما حيلتي؟ عشت بثمن الحذاء أسبوعين كاملين... مظلة حريرية ذات مقبض من العاج... أسبوع... الواقع... بالشرف... سل جب.. إنه يعرف».

وصاح المستر بكوك في دهشة؛ لأنه لم يسمع بشيء كهذا إلا في حوادث غرق السفن، أو قرأ عنها في كتاب «مذكرات شرطي»: «أتقول عشت ثلاثة أسابيع على حذاء ومظلة حريرية ذات مقبض من العاج؟».

وقال جنجل وهو يومئ برأسه: «فعلًا، مكان الرهون، عندي الإيصال هنا، مبالغ ضئيلة تافهة... كلهم نصابون».

وقال المستر بكوك وقد اطمأن كثيرًا لهذا التفسير: «آه! لقد فهمت مرادك، تقصد أن تقول إنك رهنت ثيابك».

وأجاب جنجل: «كل شيء وثياب جب كذلك، كل الأقمصة ذهبت... لا بأس توفير للغسيل... لن يلبث أن ينفد كل شيء لدينا... فلا يبقى أمامنا غير الرقاد والجوع والموت، ثم التحقيق في أسباب الوفاة... الدفن في حفرة صغيرة، سجن فقير، ضرورات عامة، اكتموا الأمر، اكتموا الحقيقة عن السادة المحلفين، والتجار في السجون، لا تدعوا أحدًا يعرف شيئًا، وفاة طبيعية، المحقق يأمر بالدفن، جنازة بسيطة، يستأهل، انتهت الرواية، أسدلوا الستار».

وكان جنجل يلقي هذه الخلاصة الغريبة لخاتمته المنتظرة بتلك

الذلاقة المألوفة منه، وهو يشفعها بمختلف الحركات والتقلصات التي يزيف بها الابتسامات على وجهه، ولم يجد المستر بكوك مشقة في إدراك ما بدا على ذلك الرجل من معاودة الاستخفاف بكل شيء، فراح بنظرة لا تخلو من العطف يتفرس في وجهه، وإذا هو يشهد عينيه نديتين بالعبرات.

وقال جنجل وهو يضغط يده ويشيح عنه بوجهه: «يا لك من كريم! وإني لكلب جاحد، من الصغار الاستسلام للبكاء، ولكن ما حيلتي؟ محموم، ضعيف، مريض، جائع، يستحق كل ما أصابه، ولكنه تعذب كثيرًا جدًّا». ولم يعد في وسعه بعد ذلك التظاهر بالجلد، ولعل الجهد الذي بذله رده أسوأ حالًا من قبل، فجلس فوق السلم، ودفن وجهه في راحتيه، وراح ينتحب نحيب الأطفال.

وقال المستر بكوك وهو في تأثر بالغ: «لا عليك، لا عليك، سنرى ماذا يمكن أن نفعله؟ إذا أنا عرفت الأمر كله، أين جب؟ أين هو؟».

وأجاب جب، وقد مثل عند السلم: «هنا يا سيدي».

وقد وصفناه لك فيما سلف، وقلنا عندئذ: إن له عينين غائرتين في صحن وجهه، حين كان بخير، ونقول الآن: إنه بدا من السغب والحاجة والإملاق كأن هاتين العينين قد غارتا من سحنته فلم يعد لهما أثر.

وقال المستر بكوك وهو يحاول أن يبدو عابسًا متجهمًا، وإن تسقطت أربع دمعات كبار على صداره: «تعال هنا يا سيدي، خذ هذا يا سيدي».

- «ماذا تراه يأخذ؟».

إن المعنى المتعارف بين الناس لهذا التعبير، هو أن يأخذ «لكمة» أو لطمة على وجهه، وكان أولى بعد الذي جرى أن يكون «صفعة» شديدة منبعثة من قلب واجد ملهوف، فقد طالما خدع المستر بكوك وغرر به، وأسيء إليه، من هذا الطريد المعدم الذي أصبح في قبضة يده بجملته. أفنقول الحقيقة؟ إن ذلك الشيء الذي أخذه كان منبعثًا من جيب صداره، وكانت له رنة ووسوسة فضة وهو في كف جب، فلم يلبث أن أرسل وميضًا في عين الراهب، وجيشانًا في أعماق جوانحه، وتأثرًا في قلب صديقنا القديم الممتاز وهو منطلق في عجلة لا يلوي على شيء.

وكان سام قد عاد حين وصل المستر بكوك إلى غرفته، وطفق يتفحص التدابير والوسائل التي تم اتخاذها لتوفير راحته، وهو بادي الارتياح، متهلل تغتبط النفس برؤية مشهده على تلك الصورة. وكان المستر ويلر من بداية الأمر معترضًا كل الاعتراض على وجود سيده في ذلك الموضع، ولكنه رأى عندئذ أن من واجبه الأكبر ألا يبدي سرورًا بالغًا بأي شيء فعل، أو قيل، أو اقترح، أو أشير به.

وقال المستر بكوك: «هيه يا سام؟».

وأجاب المستر ويلر: «هيه يا سيدي».

- «هل كل شيء مريح الآن يا سام؟».

وأجاب سام وهو يتلفت حوله منتقصًا لكل ما يرى، مستخفًا بكل ما يشهد: «جميل جدًا يا سيدي».

- «وهل رأيت المستر طبمن وأصدقاءنا الآخرين؟».

- «نعم، رأيتهم يا سيدي، وهم قادمون غدًا، وأدهشني كثيرًا أن أسمع أنهم لن يأتوا اليوم».

- «وهل أحضرت الأشياء التي طلبتها؟».

وعلى سبيل الجواب، أشار المستر ويلر إلى عدة لفائف كان قد نسقها كل تنسيق ممكن، في ركن من الغرفة.

وقال المستر بكوك بعد تردد قليل: «حسن جدًّا يا سام، والآن أصغ إلى ما أريد أن أقوله لك».

وأجاب المستر ويلر: «بكل تأكيد، هات ما عندك يا سيدي».

وقال المستر بكوك بلهجة جد بالغ: «لقد شعرت من بداية الأمر أن هذا المكان ليس بالموضع الذي يليق بأن يجلب إليه شاب في مقتبل العمر».

وقال المستر ويلر: «ولا شيخ أيضًا يا سيدي».

وعاد المستر بكوك يقول: «أنت على صواب يا سام، ولكن الشيوخ قد يأتون إلى هنا، من جراء إهمالهم، أو قلة اكتراثهم، أو سلامة نيتهم، كما يحتمل أن يأتي إليه الفتيان بسبب أثرة الذين يخدمونهم وأنانيتهم، فمن الخير لهؤلاء الفتيان من كل وجه ألا يبقوا هنا، هل فهمت مرادي يا سام؟».

وأجاب المستر ويلر: «كلا، يا سيدي لم أفهم».

وعاد المستر بكوك يقول: «حاول يا سام».

وأجاب سام بعد صمت قصير: «حسن يا سيدي، أظن أنني فاهم اتجاهك، وإذا كنت قد فهمت اتجاهك، فرأيي أنك أتيت إليه مسرعًا، وبقوة متناهية، كما قال سائق مركبة البريد للعاصفة الجليدية وهي ملاحقته».

وقال المستر بكوك: «أرى أنك فهمت قصدي يا سام، وبغض النظر عن رغبتي في ألا أراك متسكعًا حول مكان كهذا عدة سنين قوادم أشعر بأن إبقاء مدين معتقل في سجن فليت على خادمه سخف شديد وحماقة متناهية، أي سام! يجب أن تتركني إلى حين».

وقال المستر ويلر بلهجة تهكم: «آه! إلى حين... أكذا تقول يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «نعم، طيلة مقامي هنا، وسأظل أؤدي إليك أجرك، وسوف يسعد أي صديق من أصدقائي الثلاثة، ولو لم يكن ذلك إلا احترامًا منهم لي، أن يلحقك بخدمته». وعاد المستر بكوك يتخذ سيماء الابتهاج واسترسل يقول: «وإذا قيض لي يومًا ترك هذا المكان يا سام، فإني أعاهدك أن أستردك لنفسي في الحال».

وقال المستر ويلر بصوت رهيب، وجد شديد: «والآن، سأقول لك رأيي يا سيدي في هذا الأمر كله. إن هذا الكلام كله لا يجدي، فمن فضلك لا تسمعني بعد هذا شيئًا آخر عنه».

وقال المستر بكوك: «إني أجد فيما أقول ومعتزم تنفيذه يا سام».

وأجاب المستر ويلر بلهجة الإصرار: «هل أنت فعلًا يا سيدي؟ حسن جدًّا وأنا كذلك!».

وراح يضع قبعته فوق رأسه بكل دقة وغادر الغرفة غير معقب.

وصاح المستر بكوك في أثره مناديًا: «سام، سام، أقبل، تمهل!».

ولكن أرض الممر الطويل لم تعد تردد مواقع قدميه.

لقد انطلق سام ويلر غير متمهل، ولا متردد.

* * *

الفصل الثالث والأربعون

يصف كيف وقع المستر صمويل ويلر في متاعب

في غرفة عادية، ضئيلة النور، سيئة التهوية، في شارع «برتيوجل» بحي «لنكنز آن فيلدز» يجلس قرابة العام كله، سيد أو اثنان، أو ثلاثة أو أربعة، من أصحاب الضفائر المستعارة، تبعًا لمقتضيات الظروف، وزحمة القضايا، إزاء مناضد صغيرة، تشبه المنصات التي يجلس عليها القضاة في البلاد، وإن خلت من الطلاء الفرنسي، وعن يمينهم مقصورة للمحامين المترافعين، وعن يسارهم مكان محجوز للمدينين المفلسين وأمامهم صفوف من المقاعد لأقذر الوجوه على الإطلاق. أما أولئك السادة الجلوس فوق المنصة فهم قضاة محكمة «التفاليس» والمكان الذي يجلسون فيه هو محكمة التفاليس ذاتها.

وكان الفقراء المعدمون المفلسون من ذوي الحسب من أهل لندن مجمعين كافَّةً، منذ عهد بعيد لا تعرف بدايته، ولا يزالون متفقين عامة، على أن هذه المحكمة هي، على أية حال، الملاذ العام، والملجأ المشترك،

الذي يلوذون في كل يوم بساحته، فلا عجب إذا كان مزدحمًا بالناس في كل حين تتصاعد أبخرة الجعة والكحول إلى سقفه، ثم تتكثف، فتتساقط من الجدران كالمطر، وأنه ليحوي من الأردية القديمة، والثياب البالية، في وقت ما أكثر مما هو معروض منها للبيع في سوق «هاوندزديتش» في أشهر السنة كلها، بل إنه ليزدحم من البشرات التي لم تعرف الاستحمام، واللحى التي لم تمسسها الموسى، بما لا تستطيع جميع «الحمامات» والمضخات وحوانيت الحلاقين بين حي «طايبرن» وحي «هوايتشابل» أن ترده نظيفًا، وتزيل أدرانه، بين مطلع الشمس ومغيبها.

ولا يذهب بك الظن إلى أن لأحد من هؤلاء الخلق أقل عملًا، أو أدنى شأنًا، أو علاقة، ولو من بعيد بذلك الموضع الذي لا ينفكون يختلفون إليه غير مدركهم الملل، ولو كان لهم فيه عمل، لما كان الأمر مدعاة للدهشة ولما بقي للغرابة موضع، وإن فريقًا منهم ليأخذهم النوم أكثر الوقت في أثناء الجلسات، وآخرون يحملون غداءهم اليسير ملفوفًا في مناديلهم أو طالًّا من جيوبهم البالية، وهم يقضمونه ويصغون للحديث، بلذة متساوية، ولكن لم يعرف يومًا عن أحد منهم أقل اهتمام شخصي بأية قضية معروضة على المحكمة للنظر فيها، وإنما يجلسون سواء كان لهم عمل أو لا عمل لهم، من اللحظة الأولى إلى النهاية، فإذا كان الجو مطيرًا، دخلوا القاعة بجمعهم وهم مبللو الثياب والأجساد، وعندئذ تنقلب الأبخرة الخانقة في المحكمة أشبه برائحة حفرة مليئة بالنباتات الفطرية.

وقد يحسب الزائر العابر ذلك المكان معبدًا أقيم تخليدًا لعبقرية

«الرثاثة»، ونباغة الأسمال، فما من ساع أو رسول فيه، أو محضر ملحق به، تراه مرتديًا سترة أو ثوبًا مفصلًا عليه تفصيلًا، وليس في المكان كله رجل يتراءى صحيحًا إلى حد مقبول سليمًا نوعًا ما إلا شرطي قصير القامة علاه المشيب، وبدا وجهه كالتفاحة، وإن كان ذلك الشرطي ذاته قد راح أشبه بكرزة رديئة محفوظة في البراندي، فبدا مجففًا بطريقة صناعية، ذابلًا في حالة «تحلل» غير طبيعي، بل إن ضفائر المحامين ذاتها سيئة الطلاء، وثناياها تنقصها جودة التماوج والتثني.

ولكن المحامين غير المترافعين الذين يجلسون إلى منضدة كبيرة جرداء تحت منصة القضاة هم بعد هذا كله آية العجب، ونهاية الغرابة، كل ما يملكه أكثرهم يسارًا لا يتجاوز حقيبة زرقاء وغلامًا، وهذا الغلام في العادة شاب من اليهود، وليس لأولئك المحامين مكاتب ثابتة؛ لأنهم يؤدون الأشغال في غرف الحانات العامة أو أفنية السجون، حيث يتوافدون زرافات، ويتصيدون «الزبائن» تصيدًا، على نحو ما يفعل محصلو المركبات الحافلة. وهم يتراءون ملطخي الثياب بالدهن، تعبق رائحة العفن من أرديتهم القديمة، وإذا جاز لنا ذكر شيء عن مساويهم، فقد يكون السُّكر والنصب أوضحها سمات، وأكثرها ظهورًا، وهم يسكنون عادة في أرياض حي «الرولز» الواقع في الغالب داخل دائرة ميل مربع واحد من «المسلة» القائمة في ميدان سانت جورجز فيلدز، وليست على وجوههم مسحة من معارف تجتذب النظر، وفي مسالكهم وتصرفاتهم غرابة ظاهرة.

وكان المستر «سولومون بل» وهو أحد أفراد هذه الطائفة، رجلًا

بدينًا مترهلًا شاحب اللون في رداء سابغ يبدو أخضر اللون لحظة، ثم يستحيل في اللحظة التالية داكنًا، له طوق من القطيفة، من هذه الألوان «الحربائية» ذاتها، وهو ضيق الجبين، عريض الوجه، كبير الهامة، ينحرف أنفه إلى ناحية كأن الطبيعة من غضبها عند تكوينه قبل مولده، لطمت أنفه لطمة غيظ لم ينقه منها أبدًا. وكان قصير الرقبة، مصابًا بالربو، وكان لهذا السبب يتنفس غالبًا من ذلك المعطس الذي أعوزه التناسب والجمال، فاستعاض عنهما بهذا الاستعمال النافع.

وأنشأ المستر بل يقول: «إنني واثق من أنني سأخرجه من هذا المأزق».

وأجاب الشخص الذي كان قد تعهد له بهذه المعونة المؤكدة: «هل أنت متأكد حقًّا؟».

وقال بل: «كل التأكيد، ولو كان قد لجأ إلى محام آخر غير مستقيم، لما كنت مطمئنًا إلى النتائج، لا تنس هذا طبعًا».

وقال الآخر وهو فاغر فمه: «آه».

وقال المستر بل: «نعم، ما كنت عندئذ واثقًا من العاقبة ولا مطمئنًا» وزمّ شفتيه، وعبس، وهزّ رأسه هزًّا غامضًا غريبًا.

وكان هذا الحوار يدور في الحانة المقابلة لدار محكمة التفاليس. ولم يكن الشخص الذي يتحدث إلى المستر بل غير المستر ويلر الكبير، فقد جاء إلى ذلك المكان مع صديق له كان قد قدم التماسًا إلى المحكمة لإطلاق سراحه وفقًا للقانون، وكان ذلك اليوم موعد النظر فيه، وقد

صحب صديقه هذا لمواساته وتسرية الهم عنه، واجتمع بالمحامي في تلك اللحظة للمشاورة في الأمر.

وسأل المستر ويلر الكبير: «وأين جورج؟».

وأومأ المستر بل برأسه إلى الغرفة الخلفية، فبادر المستر ويلر إليها في الحال، فلم يكد يدخل الغرفة حتى استقبل بأبلغ الحفاوة وأشد الترحيب من نفر من زملائه في المهنة، تعبيرًا عن سرورهم بقدومه. وكان السيد المفلس الذي أولع بحب المضاربة والإقدام على تأجير الخيل للرحلات الطوال، وهي نزعة حمقاء أدت إلى هذه الظروف المحيطة به، يلوح في أحسن حال، وهو يحاول تخفيف حدة شعوره وتسكين ثائرته بالتهام براغيث البحر[1] والإلحاح على الجعة.

وكانت التحيات التي تبودلت بين المستر ويلر وأصحابه مقصورة على تحية «ماسونية» المهنة وحدها، وهي التطويح بالمعصم الأيمن، وهز الخنصر في الفضاء في آن واحد، وقد عرفنا في يوم من الأيام حوذيين مشهورين، ماتا من مدة، رحمة الله عليهما، كانا توأمين، وبينهما مودة وحب، وإخلاص لا تصَنُّع فيه، وكان كل منهما يمر بالآخر على طريق دوفر، في كل يوم، ولبثا على هذه الحالة أربعة وعشرين عامًا، لم يتبادلا فيها يومًا سلامًا غير هذا السلام الذي وصفناه، ولكن ما كاد أحدهما يقضي نحبه، حتى ذوى الآخر من الحزن عليه، ولم يلبث أن ذهب في أثره!

وقال المستر ويلر وهو يخلع رداءه الخارجي ويجلس جلسة الوقار

(١) الجمبري.

المعروف عنه: «كيف الحال يا جورج؟ هل خلف العربة على ما يرام وجوفها ممتلئ؟».

وقال السيد المرتبك: «كل شيء على ما يرام يا صاح».

وسأل المستر ويلر في لهفة وقلق: «وهل سلمت الفرس الشهباء إلى أحد؟».

وأومأ جورج إيماءة الإيجاب.

وقال المستر ويلر: «هذا جميل، وهل المركبة محل عناية أيضًا؟».

وقال جورج وهو ينزع رؤوس نحو ستة من براغيث البحر، ويلتهمها جميعًا مرة واحدة بكل هدوء: «وُضِعَت في مكان أمين».

وقال المستر ويلر: «جميل جدًّا! جميل جدًّا! لا تنس أبدًا السير ببطء وحذر وأنت هابط المنحدر. هل استوفيت قائمة المسافرين والبضاعة استيفاءً تامًّا؟».

وقال بل وقد حزر المعنى المراد: «القائمة يا سيدي؟ إنها واضحة مرضية بكل ما في وسع القلم والمداد أن يفعلا، لتبدو كذلك».

وأومأ المستر ويلر بشكل ينم عن ارتياحه لهذه التدابير، ثم التفت إلى المستر بل، وأشار إلى صديقه جورج قائلًا: «متى تجرده من ثيابه؟».

وأجاب المستر بل: «إن اسمه هو الثالث في الجدول، وأظن أن دوره سيأتي بعد نصف ساعة تقريبًا، وقد نبهت كاتبي أن يأتي ويقول لي إذا سنحت الفرصة».

وأجال المستر ويلر نظره في المحامي من فرعه إلى قدمه بإعجاب شديد، وقال بلهجة التوكيد: «وماذا تشرب يا سيدي؟».

وأجاب المستر بل: «في الحقيقة.. إنك لـ.... أقسم بشرفي أنني لم أعتد... إن الوقت في الصباح الباكر جدًّا... حتى إني في الحقيقة أكاد... ولكن لا بأس من أن تطلب لي قدرًا من الروم لا يتجاوز ثمنه ثلاثة بنسات يا عزيزي».

وكانت الصبية التي تتولى الخدمة في الحانة قد توقعت الطلب قبل تلقي الأمر به، فوضعت الشراب أمام المستر بل وانصرفت.

وقال هذا وهو يدير عينيه في الجمع الذين حوله: «أيها السادة... تمنوا لصديقكم التوفيق، إنني لا أحب التفاخر أيها السادة، إنه ليس من طبعي، ولكن لا يسعني إلا أن أقول: إنه لولا أن صديقكم قد أوتي الحظ فوقع في يد ... ولكن لا لزوم لما كنت أريد أن أقوله... أيها السادة... في خدمتكم» وبعد أن أفرغ الكأس في جوفه في ومضة البرق، مسح شفتيه بلسانه، وأدار بصره في وجوه السائقين من حوله، وكان هؤلاء ينظرون إليه كأنه نوع من الآلهة والأرباب.

وواصل «الحجة» في القانون يقول: «دعوني أتذكر، ماذا كنت أقول اللحظة أيها السادة؟».

وقال المستر ويلر بلهجة تجمع بين الهزل والجد: «أظن أنك كنت تقول إن لا مانع لديك من كأس أخرى من هذا الصنف يا سيدي».

وضحك المستر بل قائلًا: «ها، ها! لطيفة، لا بأس بها، ومحام

أيضًا، وفي هذا الوقت من الصباح إنها ستكون أوفق من... والله لست أدري يا عزيزي... يصح أن تكرر ذلك مرة أخرى إذا تفضلت، احم».

وكان هذا الصوت الأخير سعلة كرامة ووقار رأى المستر بل وجوب اصطناعها احترامًا لمركزه، حين تبين أعراض نزعة غير مستحبة إلى المجون عند بعض سامعيه.

ومضى المستر بل يقول: «إن قاضي القضاة السابق أيها السادة كان يحبني كثيرًا».

وقاطعه المستر ويلر بقوله: «وهذا يزيده فضلًا على فضله».

وقال «زبون» المستر بل: «لا عجب، لا عجب، ولِمَ لا؟».

وقد رجل أحمر الوجه إلى حد بعيد، وكان قد لبث صامتًا لا يقول شيئًا، ومن المرجح كثيرًا أنه لن يقول بعد هذا حرفًا آخر: «صحيح، فعلًا، ولِمَ لا؟».

وسرت غمغمة موافقة في صفوف الجمع.

ومضى المستر بل يقول: «أذكر أيها السادة أنني كنت أتغدى معه في ذات يوم، وكنا معًا بمفردنا، ولكن كان كل شيء فاخرًا كأن عشرين ضيفًا ينتظر قدومهم، وكان عن يمينه خاتمه الكبير موضوعًا فوق رف متحرك وحاجب في ضفيرة كبيرة ولأمة كاملة لحراسة الصولجان بالسيف مصلتًا في يمينه، والجورب الحريري في ساقيه، ليل نهار، وإذا هو فجأة يقول: «اسمع يا بل، إن رأيي فيك بغير كلفة كاذبة ولا اصطناع هو أنك رجل ذو مواهب، وفي إمكانك أن تخرج أي إنسان بريئًا من

محكمة التفاليس، وإن وطنك لفخور بك» هذه كانت كلماته بالذات. قلت: يا مولاي، إنك تجاملني، فكان جوابه: اسمع يا بل، لعنة الله عليَّ إذا كنت أجاملك».

وسأل المستر ويلر: «هل قال ذلك؟».

وأجاب بل: «نعم، قاله».

وقال المستر ويلر: «حسن جدًّا، وأنا أقول إنه كان من واجب البرلمان التحقيق في هذه المسألة، ولو كان الرجل فقيرًا لأُجْرِيَ فيه تحقيقٌ. ولكنه غني يا سيدي».

وبادر المستر بل إلى تصحيح الموقف فقال: «ولكن يا صديقي العزيز، لقد كان هذا سرًّا بيني وبينه».

وقال المستر ويلر: «كان ماذا؟».

وأجاب المستر بل: «سرًّا بينه وبيني دون سوانا».

وأجاب المستر ويلر بعد تفكير قصير: «آه، جميل جدًّا، إذا كان قد أساء إلى نفسه في السر، فهذه بالطبع مسألة أخرى».

وقال المستر بل: «بالطبع مسألة أخرى، والفرق واضح كما ترى».

وأجاب المستر ويلر: «ويغير الوضع كل التغيير. استمر يا سيدي».

وقال المستر بل وهو يغض من صوته ويتخذ سمات الجد: «كلا، لن أستمر يا سيدي، فقد نبهتني يا سيدي إلى أن ذلك الحديث كان خاصًّا، نعم خاصًّا وسريًّا أيها السادة، إنني محامٍ أيها السادة، ومن الجائز أنني

منظور إليَّ كثيرًا في وسط مهنتي، ومن الجائز ألا أكون كذلك، إن أكثر الناس يعرفون، ولهذا لا أقول شيئًا، لقد أبديت قبل الآن ملاحظات في هذه الغرفة تمس سمعة صديقي العظيم، أستميحكم معذرة أيها السادة، لم أكن حكيمًا فيما قلته، وأشعر بأن لا حق لي في ذكر هذه المسألة قبل الحصول على موافقة منه، شكرًا لك يا سيدي، شكرًا»، وما إن انتهى المستر بل من إنقاذ نفسه على هذا النحو حتى دس يديه في جيبيه، وعبس في وجوه من حوله عبسة شديدة، وراح يهز ثلاثة أنصاف بنسات في كفه بشدة ظاهرة.

ولم يكد يبدي هذه الحركة الجدية الرهيبة حتى اندفع إلى الحجرة بعنف غلام المحامي وحامل حقيبته الزرقاء، وهما متلازمان لا يكادان يفترقان، فقالا- أو قال الغلام على الأقل؛ لأن حامل الحقيبة لم يشترك في الإعلان: إن القضية ستنادى بعد لحظات، فلم يلبث القوم على سماع هذا النبأ أن خرجوا جميعًا مسرعين فعبروا الطريق إلى دار المحكمة وراحوا يشقون السبيل متدافعين، وهي عملية تمهيدية يقدر لها في الأحوال العادية أن تستغرق بين خمس وعشرين دقيقة وثلاثين.

وكان المستر ويلر ضخمًا، فانثنى يلقي بنفسه في الحال وسط الزحام، مستميتًا، لعله في النهاية واصل إلى موضع ملائم له، ولكن نجاحه لم يأت معادلًا لأمله، ولم يحدث ما كان يرجوه؛ لأنه نسي أن ينزع قبعته عن رأسه، وإذا شخص مجهول يرخيها فوق عينيه مغضبًا؛ لأن المستر ويلر وطئ إحدى قدميه بقوة، والظاهر أن ذلك الشخص شعر بندم عاجل على فعلته تلك؛ لأنه غمغم بعبارة مبهمة تدل على

دهشة فجائية، وجر الشيخ من وسط الزحام إلى البهو، وتمكن بعد جهد جهيد من إخراج رأسه ووجهه.

وصاح المستر ويلر بمجرد رؤية وجه منقذه: «صمويل!».

وأومأ سام برأسه.

وقال المستر ويلر: «إنك لولد بار ودود، إذ أتيت تلقي قبعة أبيك عن رأسه وهو شيخ كبير، أليس كذلك؟».

وأجاب ابنه: «من أين لي أن أعرف أنك أنت؟ هل تظن أنني كنت أعرف ذلك من وطأة قدمك وثقلها؟».

وقال المستر ويلر وقد هدأ غضبه في الحال: «هذا صحيح يا سامي، ولكن ماذا جاء بك إلى هنا؟ إن معلمك لا شأن له هنا ولا فائدة، إنهم لم يصدروا ذلك الحكم يا سامي، ولن يصدروه». وراح يهز رأسه هزة الواثق الخبير بالقانون.

وصاح سام قائلًا: «يا لك من شيخ معاند... لا تكف أبدًا عن الكلام في الأحكام، وأدلة النفي، وما شابه ذلك. من الذي تكلم عن القرار؟».

ولكن المستر ويلر لم يحر جوابًا، وإنما عاد يهز رأسه هزة الخبير الواسع العلم.

وقال سام وقد نفد صبره: «كفى تحريكًا لرأسك هكذا، إذا لم تكن تريد أن تخرجه عن دواليبه، وكن عاقلًا في تصرفاتك. لقد سرت طول الطريق ليلة أمس إلى المركيز جرانبي لمقابلتك».

وسأل المستر ويلر وهو يرسل زفرة من صدره: «وهل رأيت

المركيزة جرانبي يا سامي؟».

وأجاب سام: «نعم، رأيتها».

قال: «وكيف حال المخلوقة العزيزة؟».

وأجاب سام: «غريبة جدًّا. أعتقد أنها ستؤذي نفسها وتضر بصحتها تدريجًا من الإفراط في الروم المستخرج من الأناناس وغيره من الأدوية القوية المماثلة له».

وقال المستر ويلر الكبير بلهجة الجد: «هل تقصد أن تقول هذا حقيقة يا سامي؟».

وأجاب المستر ويلر الصغير: «أقصد ذلك حقيقة».

وتناول المستر ويلر يد ابنه وأمسك بها ثم تركها تسقط من كفه، وقد بدت على وجهه وهو يفعل ذلك أمارات لا توحي بحزن أو جزع أو خوف، بل هي أقرب إلى علامات الأمل الحلو اللطيف، بل لقد خطفت على وجهه كذلك ومضة من استسلام أو فرح، وهو يقول برفق: «لست متأكدًا يا سامي كل التأكد، ولا أميل إلى القول بأني على يقين تام، مخافة أن تنتهي المسألة بخيبة أمل، ولكني مع ذلك أظن يا بني أن الراعي مريض بالكبد».

وقال سام: «هل يبدو المرض عليه؟».

وأجاب أبوه: «إنه شاحب إلى حد غير مألوف، إلا الأنف فهو أشد احمرارًا مما كان من قبل، وشهوته إلى الطعام بين بين، ولكنه في الشرب عجب».

وبدا على المستر ويلر أن ذكر «الروم» أثار بعض الأفكار والتصورات في خاطره، فقد ظهرت عليه أعراض الاكتئاب والوجوم، ولكنه لم يلبث أن أفاق منها، بدليل كثرة الغمز بطرف عينه، وهي عادة لا يلجأ إليها إلا حين يستولي السرور عليه.

وقال سام: «والآن، لنتحدث في مسألتي، فأرجو أن تفتح أذنيك هاتين وتنصت ولا تنطق بشيء حتى أنتهي من قولي». وأنشأ سام، بعد هذه المقدمة المختصرة يقص على أبيه، بكل الإيجاز الذي تواتى له، فحوى ذلك الحديث المشهود الذي دار بينه وبين المستر بكوك.

وصاح المستر ويلر: «أيقيم في ذلك المكان بمفرده؟ يا له من مخلوق مسكين! أيبقى وحده لا أحد بجانبه يتولى خدمته؟ هذا لا يمكن يا صمويل، هذا لا يمكن».

وقال سام: «طبعًا لا يمكن، وأنا عارف ذلك قبل مجيئي إليك».

وعاد المستر ويلر يصيح قائلًا: «إنهم سيأكلونه حيًّا هناك يا سامي».

وأومأ سام موافقًا على هذا الرأي.

ومضى المستر ويلر يقول على سبيل التشبيه والمجاز إنه قد ذهب إلى السجن «نيئًا» يا سامي، ولكنه سيخرج منه محروقًا أسود أشد السواد، حتى ليصعب على أعز أصدقائه أن يعرفوه. إن الحمام المشوي لن يذكر عندئذ بجانبه يا سامي.

وأومأ سام ويلر مرة أخرى.

وقال المستر ويلر بجد بالغ: «وهذا لا ينبغي أن يحدث يا صمويل».

وأجاب سام: «لا يصح حتمًا».

وقال المستر ويلر: «لا ينبغي بلا شك».

وقال سام: «وما العمل الآن؟ بعد كل هذا التنبؤ الذي أكثرت منه، وصورته أحسن تصوير «كنيكسون» الأحمر الوجه الذي يرسم على الكتب التي تباع بستة بنسات وتحوي رسومًا وصورًا».

وسأل المستر ويلر قائلًا: «ومن يكون نيكسون هذا؟».

وأجاب سام: «دعك من السؤال عنه، لم يكن سائقًا، ويكفيك أن تعرف ذلك».

وقال المستر ويلر مفكرًا سارحًا: «لقد كنت أعرف سائحًا بهذا الاسم».

وقال سام: «لم يكن هو، إن هذا الذي ذكرته لك كان نبيًّا».

وقال المستر ويلر وهو ينظر بعبوس إلى ابنه: «ومن هو النبي؟».

وأجاب سام: «ألا تعرف من هو النبي؟ إنه رجل ينبئ بما سيحدث».

وقال المستر ويلر: «ليتني عرفته يا سام، فلعله كان يلقي ضوءًا على عاقبة مرض الكبد الذي كنا منذ لحظة نتحدث عنه» ثم واصل حديثه وهو يتحسر: «ومع ذلك فإذا كان هذا النبي قد مات، ولم يترك الصنعة لأحد، فقد ذهبت بذهابه. استمر يا سامي».

وأنشأ سام يقول: «لقد كنت اللحظة تتنبأ بما قد يحدث للمعلم إذا ترك في السجن وحده، فهل ترى وسيلة للعناية به؟».

وقال المستر ويلر وقد بدأ التفكير على محياه: «كلا، يا سامي، لا أرى».

وقال سام: «ألا من وسيلة أبدًا؟».

وأجاب المستر ويلر: «لا وسيلة إلا إذا...» وفي تلك اللحظة خطف على وجهه شعاع من الإلهام فغض من صوته، وقرب فمه من أذن ابنه وهمس قائلًا: «إلا إذا عملنا على إخراجه في سرير مقلوب لا يعرفه الحراس يا سامي، أو ألبسناه زي امرأة عجوز وأخفينا وجهه ببرقع أخضر».

وتلقى سام ويلر هذين الاقتراحين باستهزاء غير منتظر، وعاد يردد السؤال على سمع أبيه ويتوسع في شرحه.

وقال الشيخ لفتاه: «لا أرى سبيلًا إذا هو لم يسمح لك بالبقاء معه، الطريق مسدود يا سامي، الطريق مسدود».

وقال سام: «سأقول لك إذن ما هي الوسيلة، سأزعجك بطلب قرض مقداره خمسة وعشرون جنيهًا».

وسأله أبوه قائلًا: «وماذا يفيد هذا؟».

وأجاب سام: «لا شأن لك بهذا، فلعلك ستطلبه مني بعد خمس دقائق، فأقول لك مثلًا «لا أدفع» وأغلظ لك في القول، وأرفض السداد بتاتًا، ولن ترضى أنت أن تفكر في القبض على ابنك من أجل هذا المال، وترسله إلى سجن «فليت»، هل ترضى أيها الشريد المطبوع على التشرد؟».

وعندئذ تبادل الوالد والابن اصطلاحات برقية من الغمزات والإشارات، ثم جلس المستر ويلر فوق سلم حجري وظل يضحك حتى امتقع لونه.

وقال سام في غيظ من ضياع الوقت على هذا النحو: «يا لها من صورة غريبة! ما الذي يجعلك تجلس هكذا، قالبًا سحنتك أشبه بأكرة باب الشارع، وأمامنا عمل كثير يجب أن نفرغ سريعًا منه؟ أين النقود؟».

وأجاب المستر ويلر، وهو يسكن من ثائرة انفعالاته: «هنا في الحذاء يا سامي، أمسك القبعة يا سامي».

ولم يكد المستر ويلر يتخلص من القبعة المزعجة حتى نفض بدنه نفضة فجائية إلى أحد جانبيه، وبعوجة بارعة، تمكن من دس يده اليمنى في جيب رحيب، فأخرج منه محفظة كبيرة الحجم ملفوفة بحزام ضخم من الجلد، وأطلع منها زوجًا من حبل السياط وثلاثة مشابك أو أربعة وعينة من القمح في كيس، وأخيرًا حزمة صغيرة من أوراق النقد قذرة، اختار منها المبلغ المطلوب فأسلمه إلى ابنه.

وقال بعد أن رد الحبل والمشابك والقمح إلى مواضعها وأودع المحفظة جوف ذلك الجيب الرحيب: «والآن يا سامي اسمع، إنني أعرف هنا سيدًا يستطيع أن يؤدي لنا بقية المهمة في أقصر وقت ممكن، إنه رجل قانون أوتي عقلًا كعقول الضفادع موزع في جميع أجزاء جسمه، وواصل إلى أطراف أنامله، وصديق لقاضي القضاة، ما عليه إلا أن يقول له عن حاجته، فيعطيك في الحال «تأييده»، إذا كان هذا هو كل المطلوب».

وقال سام: «أقول لك إني لا أريد شيئًا من هذا».

وسأله المستر ويلر: «لا شيء من ماذا؟».

وأجاب سام: «من هذه الوسائل غير الدستورية التي تتكلم عليها في موضوعنا، إن قانون «الهافهز كاركاس»[1] هو بعد الدستور القائم، من أعظم النعم التي أنعم بها علينا، لقد قرأت كثيرًا عن هذا في الصحف».

وقال المستر ويلر: «ولكن ما علاقة هذا بما نحن فيه؟».

وأجاب سام: «العلاقة هي أنني سأتولى الأمر بنفسي وأدخل السجن من هذا الطريق دون حاجة إلى الكلام همسًا مع قاضي القضاة ولا سواه، أنا لا أقبل هذه الفكرة؛ لأن من الجائز ألا تكون العاقبة سليمة، من ناحية الخروج ثانية».

واحترامًا لهذا الشعور الذي أبداه ابنه، بادر إلى البحث عن العلامة «سلمون بل» وأبلغه رغبته في استصدار حكم في الحال لمصلحته بطلب أداء دين قدره خمسة وعشرون جنيهًا والمصاريف والأتعاب، والتنفيذ المعجل، على شخص يدعى صمويل ويلر، على أن تُدفع الأتعاب مقدمًا إلى «سلمون بل».

وفرح المحامي فرحًا شديدًا؛ لأن الحكم كان قد صدر بشطب اسم السائق الغريق في الديون إلى ذقنه من جدول «المفلسين» في الحال، فلم يكد يسمع قصة سام حتى امتدح موقفه من مخدومه، وأثنى ثناء مستطابًا على إخلاصه ووفائه، وقال إن ذلك يذكره بوفائه وولائه لصديقه

---

(١) يشير إلى قانون هبياس كوربيس الذي مر ذكره، وهو القانون الذي يقضي بألا يسجن أحد بغير حكم.

قاضي القضاة، وسار في الحال بالمستر ويلر الكبير إلى المحكمة المدنية لتحرير إقرار بالدين المطلوب، وكان الغلام قد فرغ من تحريره في التو واللحظة، مستعينًا بحامل الحقيبة الزرقاء.

وكان سام قد قدم في الوقت ذاته إلى السائق الذي برئ من التهمة، وإلى أصدقائه السائقين الآخرين، على أنه ابن المستر ويلر، فأقبلوا عليه محتفين به، ودعوه إلى الاشتراك معهم في الاحتفال بهذه المناسبة السعيدة، وهي دعوة لم يتردد في تلبيتها.

والمألوف بين هذه الفئة من الناس أن مرحها يتخذ عادة سمات الوقار والهدوء، ولكن هذه المناسبة كانت ذات طابع خاص، فلا عجب إذا هم تسامحوا فيها ومدوا البساط، وبعد أن شربوا وسط الضوضاء والصياح نخب القاضي الذي حكم في القضية، ثم نخب المستر سلمون بل، الذي أظهر في ذلك اليوم مقدرة عالية، انبرى سيد منهم «مرقط» الوجه في «شال» أزرق اللون، فاقترح أن يشنف أحدهم الآذان بأغنية. وكان الرأي الظاهر أن السيد الراغب في الغناء هو الذي يتولاه بنفسه، ولكن الرجل رفض هذا الرأي بعناد، بل في شيء من الغضب أيضًا، فدار عندئذ حوار بين القوم، وقامت مشادة كما هي العادة في أمثال هذه الأحوال.

وصاح السائق صاحب الاقتراح: «أيها السادة، بدلًا من إفساد مجلسنا اللطيف، والإخلال بانسجامه، أحسب أن المستر صمويل ويلر سيتفضل على المجلس بتشنيف آذانه».

وقال سام: «في الحقيقة أيها السادة إنني لم أعتد كثيرًا الغناء بغير

آلات، ولكن لا بد من التضحية بأي شيء في سبيل الحياة الهادئة، كما قال الرجل الذي تسلم نوبة الوقوف لحراسة المنارة».

وانثنى المستر صمويل ويلر، عقب هذه المقدمة يغني على الفور هذه الأقصوصة الجميلة الحماسية التالية التي نستبيح لأنفسنا اقتباسها، اعتقادًا منا أنها ليست معروفة للناس عامة، راجين توجيه الأنظار خاصة إلى المقطع الواحد في نهاية السطرين الثاني والرابع؛ لأنه لا يساعد المغني على استرداد أنفاسه عند هذين الموضعين فحسب، بل يعاون كثيرًا على مراعاة الوزن.

وإليكم الأغنية[١]:

- ١ -

«كان «تربن» الجسور يومًا على مروج هاونزلوهيث[٢]»

«منطلقًا بفرسه «بس» على الطريق... قن»

«وإذا هو يشهد مركبة الأسقف في سير حثيث»

«قادمة مسرعة على الطريق... قن»

«فأسرع خببًا حتى حاذى سيقان الحصان»

«وأدخل رأسه في المركبة حينئذ»

«فصاح الأسقف إذا كان البيض هو البيض[٣]»

(١) ترجمت بشيء من التصرف محافظة على القافية.

(٢) هاونزلوهيث تعني مروج هاونزلو.

(٣) اصطلاح في الإنجليزية معناه س = س، أو بكل تأكيد. أو اصطلاحنا في العربية واحد + واحد = ٢.

«فلا شك في أن هذا هو الجسور تربن»

المذهب

«فصاح الأسقف إذا كان البيض هو البيض»

«فلا شك في أن هذا هو الجسور تربن»

- ٢ -

«وقال تربن لأجعلنك تأكل كلامك أكلًا»

«مع دمعة[١] من رصاص يقتل فعلًا»

«وأدني المسدس من فيه»

«وأطلقه في حلقه لكي يرديه»

«ولم يرق هذا المشهد السائق»

«فأخذ المركبة في عجل وانطلق»

«ولكن دك أطلق على رأسه رصاصتين ليقف»

«واضطره إلى الوقوف فوقف»

المذهب «بنغمة تهكمية»

«ولكن «دك» أطلق على رأسه رصاصتين ليقف»

«واضطره إلى الوقوف فوقف»

---

(١) أي صلصة.

وما إن بلغ المغني هذا الحد من أغنيته حتى عاجله السيد ذو الوجه المرقط فقال: إنني أعتقد أن هذه الأغنية تعبر عن واقعة حال خاصة من أولها إلى آخرها وأطلب معرفة اسم ذلك السائق.

وأجاب سام: «لا يعرف أحد اسمه؛ لأنه لم تكن بطاقته في جيبه».

وعاد الرجل يقول: «إنني أعارض الدخول في السياسة، وأقرر أمام هذا الجمع أن هذه الأغنية سياسية، وأنها أيضًا غير صحيحة، وأقول إن ذلك السائق لم يهرب مطلقًا، ولكنه مات غيلة، مات اصطيادًا كما تصاد القطاة، ولا أقبل اعتراضًا على قولي هذا».

وكان السائق يتكلم بقوة بالغة وإصرار شديد، وبدت الآراء مختلفة، حتى كاد الموقف يثير مشادة جديدة، وإذا المستر ويلر والمستر بل قد وصلا في أنسب وقت.

وقال المستر ويلر: «كل شيء على ما يرام يا سامي».

وتبعه المستر بل قائلًا: «وسيكون الضابط هنا في الساعة الرابعة، ولا أظنك تهرب قبل هذا الموعد. ها! ها!».

وأجاب سام بابتسامة عريضة: «ربما ينم «بابا» القاسي القلب قبل حلول الموعد».

وقال المستر ويلر الكبير: «لا يمكن».

وقال سام: «أرجوك».

وأجاب الدائن العنيد: «لا يمكن بأي حال».

وقال سام: «سأعطيك سندات بالمبلغ على أن أدفع فائدة قدرها

ستة بنسات عن كل شهر».

وأجاب المستر ويلر: «لا أقبل أبدًا».

وقال المستر سولومون بل، وهو ماض في عمل حساب المصاريف: «ها، ها، جميل جدًّا، جميل جدًّا، تلك حادثة لطيفة فعلًا، يا بنجمن، انسخ هذا». وعاد المستر بل إلى الابتسام وهو يوجه نظر المستر ويلر إلى المبلغ المطلوب.

وقال رجل القانون وهو يتناول ورقة قذرة من الأوراق المالية التي أخرجها المستر ويلر من جوف محفظته: «أشكرك، أشكرك، ثلاث عشرات وعشرة تساوي خمسة، شاكر لك يا مستر ويلر. إن ابنك شاب جدير كل الجدارة، حقًّا إنه لكذلك. وهذه الأخلاق جميلة جدًّا من شاب مثله». وأردف يقول وهو يبتسم بلطف للجمع الذين حوله، ويزرر على المال الذي دسه في جيبه: «هذا جميل جدًّا».

وقال المستر ويلر وهو يبتسم: «ما ملح هذا! هل هو ابن فذ قَلّ أن يأتي الزمان بمثله».

وقال المستر بل متلطفًا ليصحح العبارة له: «قل فلتة من فلتات الطبيعة يا سيدي».

وأجاب المستر ويلر بكل هدوء: «لا بأس يا سيدي، إنني أعرف كم الساعة، وحين لا أعرف سأسألك يا سيدي».

وكان سام قد تملك إعجاب الجميع وظفر بمكانة كبيرة في نفوسهم، حين قدم الضابط، فقرر القوم أن يصحبوه لتوديعه حتى باب

السجن في حفل حافل، وكذلك انطلقوا فسار المدعي والمدعى عليه ذراعًا لذراع، والضابط في الطليعة وثمانية سائقين ضخام الأبدان في المؤخرة. ولما وصلوا إلى مقهى «سرجنتز إن» وقف الموكب؛ لتناول الشراب، ريثما تتم الإجراءات القانونية، ثم عاودوا المسير.

وحدثت ضجة يسيرة في شارع «فليت»، لهذا المشهد المضحك، فقد أصر السادة الثمانية الذي يؤلفون «المؤخرة» على أن يسيروا رباع في صف، ورباع في صف آخر، واضطروا أيضًا إلى ترك صاحبهم السائق المرقط الوجه متخلفًا وراءهم للاشتجار مع حمَّال، بعد أن اتفقوا على أن يوافوه عند رجوعهم، ولم يحدث في الطريق غير هذه الحوادث الصغيرة، حتى بلغوا باب السجن، وما إن أعطاهم «المدعي» الإشارة حتى هتفوا ثلاثًا بصوت مدوٍّ للمدعى عليه، وبعد أن صافحوه جميعًا تركوه وقفلوا عائدين.

ولما تم تسليم سام إلى السجَّان، وكان ذلك مثارًا لدهشة شديدة استولت على نفس روكر، وحركة انفعال ظاهرة حتى من جانب ذلك الرجل البارد المتراخي «ندى» انتقل سام في الحال إلى داخل السجن، وانطلق رأسًا إلى غرفة سيده، فدق الباب.

وقال المستر بكوك: «ادخل».

وظهر سام ونزع قبعته عن رأسه وابتسم.

وصاح المستر بكوك في اغتباط واضح برؤية خادمه الأمين مرة أخرى: «آه، سام. يا بني العزيز، لم أكن أقصد أمس جرح شعورك

يا صاح بما قلته لك، اخلع قبعتك يا سام ودعني أشرح لك المعنى الذي أردته في شيء من التوسع في البيان».

وقال سام: «ألا يمكن التأجيل لحظة يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «بكل تأكيد، ولكن لم لا يكون الآن؟».

وقال سام: «إنني أفضل ألا يكون ذلك الآن يا سيدي».

وسأله المستر بكوك: «ولماذا؟».

وقال سام مترددًا: «لأن...».

وعاد المستر بكوك يسأل بعد أن أقلقه كلام خادمه: «لأن ماذا؟ تكلم بصراحة يا سام».

وأجاب هذا قائلًا: «لأن، لأن عندي عملًا صغيرًا الآن أريد أن أنتهي منه».

وقال المستر بكوك وهو في دهشة من ارتباكه: «أي عمل تقصد؟».

وأجاب سام بابتسام: «لا شيء بالذات يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «آه! إذا لم يكن شيء بالذات، فلتكلمني أولًا».

وأجاب سام وهو لا يزال مترددًا: «أظن أنه يحسن أن أفكر في المسألة حالًا».

وبدت الدهشة الشديدة على وجه المستر بكوك، ولكنه لم يقل شيئًا.

وانثنى سام يقول: «الحقيقة هي أنني...» ولم يتم الكلام.

وعاد المستر بكوك يقول: «قل صراحة يا سام».

وأجاب سام وهو يحاول جاهدًا: «الحقيقة هي أنه من الأفضل أن أبحث عن سرير لي قبل أن أفعل أي شيء آخر».

وصاح المستر بكوك مدهوشًا: «سرير لك!».

وأجاب سام: «أي نعم، سرير لي يا سيدي، إنني سجين، وقد قبض عليَّ بعد ظهر اليوم، لدين عليَّ».

وقال المستر بكوك مبهوتًا وهو يتهالك على مقعد: «أنت مقبوض عليك لدين؟».

وأجاب سام: «نعم لدين يا سيدي، والرجل الذي زجّ بي في السجن لن يدعني أخرج منه حتى تخرج أنت».

وصاح المستر بكوك وهو في عجب بالغ: «يا سبحان الله! ماذا تعني؟».

وأجاب سام: «أعني ما أقوله يا سيدي، وإذا كان البقاء هنا أربعين سنة، فسأمكث هنا حتى تنتهي، وأنا الفرح المبتهج، ولو كان في سجن «نيوجيت» لما تغير الوضع أيضًا، والآن وقعت الواقعة، وانتهى الأمر».

وبهذه الكلمات التي راح يرددها بقوة توكيد، ألقى بقبعته إلى الأرض، في انفعال غير معهود منه، ثم شبك ذراعيه فوق صدره ووقف ينظر طويلًا على وجه سيده.

* * *

الفصل الرابع والأربعون

يتناول عدة شؤون صغيرة جرت في سجن فليت، والمسلك الغريب الذي بدا من المستر ونكل، وكيف استطاع الموظف السجين الحصول أخيرًا على أمر بالإفراج عنه

وتأثر المستر بكوك أشد التأثر بذلك الإخلاص الذي أبداه سام، فلم يواته إظهار شيء من الغضب أو الاستياء من هذه الخطة العجلى التي اتخذها، والتطوع لدخول سجن المدينين إلى أجل غير مسمى، ولكنه أصر على شيء واحد، وهو مطالبته بأن يعين اسم الدائن الذي اعتقله، ولكن المستر ويلر أصر من جانبه على ألا يصارحه به، قائلًا مرة بعد أخرى: «لا فائدة يا سيدي من إصرارك على معرفة اسمه.. إنه مخلوق مُؤْذٍ، سيئ النفس، دنيوي النزعة، حقود، لا يترك ثأره، قاسي القلب لا يعرف الرحمة، يصدق عليه ما قاله القسيس الورع عن الشيخ المصاب بالاستسقاء حين قال إنه يعتقد على العموم أنه يفضل أن يترك ما يملك لزوجته على أن يبني كنيسة به».

وقال المستر بكوك وهو يحاوره: «ولكن لا تنس يا سام أن المبلغ المطلوب من الضآلة بحيث لا يصعب الوفاء به، وإذا كنت قد نويت أن أبقيك معي، فاذكر مبلغ الفائدة الكبيرة التي سوف تعود عليَّ إذا أنت بقيت خارج هذه الجدران».

وأجاب المستر ويلر بجد بالغ: «أنا شاكر لك يا سيدي كل الشكر، ولكني أفضل ألا أفعل».

- «تفضل ألا تفعل ماذا يا سام؟».

- «أفضل ألا أهين نفسي بتقديم رجاء واستعطاف لخصمي الذي لا يعرف الندامة».

وقال المستر بكوك وهو مسترسل في محاجته: «ولكن ليس في طلبك إليه أخذ ماله يا سام رجاء ولا صنيع».

وأجاب سام: «عفوًا يا سيدي إذا قلت إن الوفاء بالمبلغ هو في ذاته صنيع كبير؛ لأنه لا يستحق شيئًا، هذه هي المسألة يا سيدي».

وهنا عرك المستر بكوك أنفه في شيء من الغيظ فرأى المستر ويلر أنه من الحكمة تغيير الموضوع فقال: «إنني عقدت العزم على ذلك بوصفه مبدأً يا سيدي، وإنك عاقد عزمك أيضًا على هذا الاعتبار ذاته، وهو أمر يذكرني بحكاية الرجل الذي قتل نفسه استمساكًا بالمبدأ، وقد سمعت بالطبع هذه الحكاية يا سيدي». ووقف المستر ويلر عن الكلام، وألقى نظرة مضحكة على سيده، من طرفي عينيه.

وأجاب المستر بكوك، وقد أخذ شيئًا فشيئًا يعاود الابتسام، على

الرغم من القلق الذي أحدثه عناد سام في نفسه: «ليس في المسألة بالطبع، إن صيت هذا السيد لم يصل يومًا إلى سمعي».

وصاح المستر ويلر: «هل صحيح يا سيدي؟ إنك تدهشني، لقد كان الرجل كاتبًا في مصلحة حكومية يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «أحقًّا؟».

وأجاب المستر ويلر: «نعم يا سيدي، وكان أيضًا سيدًا لطيفًا من النوع المدقق المرتب، الذي يضع قدميه في دلاء الماء الساخن الصغيرة المصنوعة من المطاط الهندي، كلما كان الجو مطيرًا باردًا، وليس له من صديق يحتضنه غير صدار من جلود الأرانب البرية يدفئ به صدره، وكان يقتصد في النفقة حرصًا على المبدأ، ويلبس في كل يوم قميصًا نظيفًا حرصًا على المبدأ، ولا يكلم أحدًا من أقاربه أبدًا، حرصًا على المبدأ، مخافة أن يستقرضوه شيئًا.

وكان في الجملة، والحقيقة، شخصية لطيفة إلى حد غير مألوف. فكان يقص شعره مرة في كل أسبوعين اتباعًا للمبدأ، ويتعاقد على ثيابه من قبيل المبدأ، من الناحية الاقتصادية، فلا يتعدى ثلاث حلل في السنة، ويرد القديمة إلى البائع، وقد بلغ من تمسكه بالنظام في حياته أن اعتاد أن يتغدى كل يوم في مطعم معين لا يتغير، حيث يدفع شلنًا وتسعة بنسات لقاء قطعة من لحم الفخذ، فيأخذ من هذا الجزء حقه كاملًا، متخيرًا منها أحسن القطع، كما كان صاحب المحل يقول في أغلب الأحيان والدموع متساقطة على وجهه، دع عنك الطريقة التي اعتاد أن يحرك

بها النار في الموقدة إذا حل الشتاء، والتي يضيع بسببها ما قيمته أربعة بنسات ونصف بنس في اليوم، فضلًا عن الألم الذي كان يحز في صدر رب المقهى وهو يراه محركًا جذواتها، فقد كان يفعل ذلك بعظمة غير مألوفة، وأبهة مستغربة، ويصيح في كل يوم وهو داخل: «الصحف بعد أن ينتهي السيد من قراءتها، احرص على «التايمز» يا تومس، ودعني أُلقي نظرة على المورننج هرالد، حين لا تكون في يد أحد، ولا تنس أن تحضر «الكرونكل»، وآتني الآن «بالأدفرتيزر»[1] من فضلك»، ثم يجلس وعيناه لا تغادران التطلع إلى ساعة الجدار، فيندفع نحو الباب قبل الموعد الذي اعتاد بائع الصحف الحضور فيه بالصحيفة المسائية، بربع دقيقة؛ لينتظره ويتناول النسخة منه، فيكب على قراءتها باهتمام شديد وتدقيق ظاهر، حتى يجعل رواد المحل الآخرين من التململ والانتظار يكادون ييأسون، أو ينتابهم الجنون من فرط القلق، وعلى الأخص شيخ ضيق الصدر سريع الغضب، حتى لقد اضطر إلى مراقبة حركاته وسكناته في تلك الفترة خشية أن يرتكب عملًا جنونيًّا بسكين القطع التي أمامه على المنضدة.

وهكذا كان يجلس يا سيدي في أحسن موضع من المحل ثلاث ساعات متوالية، لا يتناول شيئًا فيها بعد الغداء، سوى النوم، ثم ينصرف إلى مقهى يبعد بضعة شوارع فيطلب قدرًا قليلًا من القهوة وأربع فطائر، فإذا فرغ منها انكفأ إلى بيته في كنسنجتن وأوى إلى فراشه.

---

(١) نطقها سام التازر لجهله بنطقها الكامل.

وحدث في ذات ليلة أن مرض مرضًا شديدًا فبعث في طلب الطبيب، وجاء الطبيب في مركبة خضراء ذات سلم أشبه بما كان عند «روبنسون كروزو» ينزله حين يخرج من المركبة، ويرفعه حين يدخلها، تجنبًا لنزول سائقها ليرفعه عنه، فيكتشف الناس أن السائق يرتدي سترة «الحلة» فقط دون السروال المناسب لها، ويسأله الطبيب ماذا بك؟ فيقول مريض جدًّا، ويقول الطبيب: ما الذي أكلته؟ ويجيب قائلًا: لحم عجل مشويًّا، ويسأله الطبيب: ما هي آخر أكلة تناولتها؟ فيقول المريض: فطير، وعندئذ يقول الطبيب: هذا هو السبب، وسأرسل إليك في الحال علبة حبوب، فلا تعد إليها بعد الآن. ويقول المريض: لا أعود إلى ماذا، إلى الحبوب؟ ويجيب الطبيب: كلا، بل الفطير أقصد، ويسأل المريض وقد استوى جالسًا في فراشه: ولماذا؟ لقد قضيت خمسة عشر عامًا آكل أربع فطائر في كل ليلة عملًا بالمبدأ. ويجيب الطبيب: خير لك إذن أن تقلع عن أكلها عملًا بالمبدأ، ويعود المريض فيقول: إن الفطائر لا ضرر منها يا سيدي، ويرد الطبيب قائلًا بحدة: إن الفطير مضر يا سيدي. فيقول المريض وقد بدأ يستسلم شيئًا ما: ولكنه رخيص جدًّا، وأسعاره في هبوط مستمر، ويجيب الطبيب: ولكنه سيجعلك تدفع فيه ثمنًا غاليًا، مهما يكن سعره زهيدًا، حتى ولو دفعوا لك نقودًا لتأكله، إن أربع فطائر في كل ليلة ستنهي أجلك في ستة شهور. وهنا يطيل المريض النظر في وجه الطبيب، ويعمل حسابًا في ذهنه ثم يقول أخيرًا: هل أنت واثق من هذا يا سيدي؟ ويقول الطبيب: إنني أراهن على سمعتي الطبية بأنه صحيح. ويسأله المريض: كم فطيرة تعتقد أنها كفيلة بقتلي في الحال

إذا أنا أكلتها مرة واحدة؟ ويجيب الطبيب: لا أدري، فيعود يسأله: هل تعتقد أن فطيرًا من هذا النوع بنصف كراون يكفي؟ ويقول الطبيب: أظنه يكفي، ويقول المريض: هل تعتقد أن فطيرًا بثلاثة شلنات كفيل بذلك؟ ويجيب الطبيب: مؤكد. وهنا يقول المريض: حسن جدًّا، طاب ليلك. وفي صباح اليوم التالي ينهض من فراشه، ويطلب إيقاد نار في الموقدة، ويأمر بإحضار فطائر بثلاثة شلنات، فيحمصها جميعًا، ويأكلها كلها، ويضرب نفسه بالرصاص لينتهي من الحياة.

وقال المستر بكوك فجأة: «ولماذا فعل ذلك؟» فقد أفزعته كثيرًا هذه النهاية المحزنة التي ختمت بها القصة.

وقال سام: «تسألني يا سيدي لماذا فعل ذلك؟ فلعله تأييدًا لمبدئه الأكبر، وهو أن الفطير لا يضر، ولكي يدلل على أنه ليس بالرجل الذي لا يستطيع أحد أن يثنيه عن طريقه أبدًا».

وبهذا الانتقال المتكرر من موضوع إلى موضوع للابتعاد من الموضوع المهم، مضى المستر ويلر يواجه أسئلة سيده وتحقيقاته، في الليلة التي جاء ليتخذ في السجن منزله، ووجد المستر بكوك أن الاحتجاج لا يجدي، فلم يسعه أخيرًا إلا التسليم على كره منه والموافقة على أن يستأجر فتاه مسكنًا له بالأسبوع من إسكاف أصلع يعرض غرفة ضيقة في أحد الدهاليز العليا، فنقل المستر ويلر إليها حشية وأغطية استأجرها من المستر روكر، وما إن حل الوقت الذي أوى فيه إلى فراشه، في تلك الليلة، حتى شعر بأنه نزل سهلًا، ولقي أهلًا، وكأنه ولد في السجن ونشأ فيه ودرج، وأن أهله نبتوا وترعرعوا فيه منذ ثلاثة أجيال أو تزيد.

وقال المستر ويلر لصاحب الغرفة، حين أوى كلاهما إلى الفراش: «هل تدخن دائمًا بعد الدخول في الفراش أيها الديك العجوز؟».

وأجاب الإسكاف: «نعم أيها الفروج الصغير».

وقال سام: «هل تسمح لي أن أسألك لماذا تضع فراشك تحت هذه المنضدة الخشبية؟».

وأجاب الإسكاف: «لأنني تعودت أن أنام في سرير بأربعة أعمدة قبل مجيئي إلى هنا، ووجدت أرجل المنضدة الأربع مؤدية هذا الغرض تمامًا».

وقال سام: «أنت شخصية ممتعة يا سيدي».

وأجاب الإسكاف وهو يهز رأسه: «ليس عندي شيء من هذا النوع، وإذا كنت تريد أن تلتقي بصنف جيد منه، فإني أخشى أن تجد بعض الصعوبة في الحصول على هذا الطلب في مكتب التسجيل هنا».

وقد جرى هذا الحوار القصير والمستر ويلر ممدد فوق حشيته في طرف من الحجرة، والإسكاف راقد فوق فراشه في طرف آخر منها، وهي مضاءة بنور شمعة عادية، ووهج قصبة التبغ المشتعلة في فم الإسكاف، تحت المائدة، كأنه جذوة فحم متقد. ولم يلبث هذا الحديث على قصره أن أثار في نفس المستر ويلر ميلًا شديدًا إلى رب الحجرة، فاستند إلى مرفقه، وراح يطيل النظر إليه، ويتفحص شكله، ولم يكن قد وجد قبل ذلك متسعًا من الوقت أمامه لفحصه أو شعر بميل إلى تأمل معارفه.

وكان الرجل أصفر اللون- كشأن معاشر الأساكفة كلهم- ذا لحية

شائكة ككل الأساكفة ووجه غريب الصورة، هادئ الطبع، كأنه قطعة معوجة المعالم، من كف صانع، تزدان بعينين لا شك في أنهما كانتا في زمن ما بهيجتي التعبير؛ لأنهما لا تزالان ترسلان بريقًا ملتمعًا. وكان الرجل يلوح في الستين، ويعلم الله كم عمره في السجن، فلا غرو إذا كان ما يبدو عليه من نظرات تقترب من المرح، أو تدنو من حدود الرضى، غريبًا بعض الغرابة، وكان قصير القامة، ضئيل البدن يتراءى، وهو مكوم في فراشه في نحو ما يجب أن يكون عليه من الطول بغير ساقيه، وكانت القصبة التي في فمه حمراء كبيرة الحجم، وكان يدخن وينظر إلى ضوء الشمعة، وهو في قناعة وسكينة نفسية يحسد عليهما.

وقال سام بعد صمت قصير: «هل تقيم هنا من وقت طويل؟».

وأجاب الإسكاف، وهو يعض طرف قصبته خلال كلامه: «اثني عشر عامًا».

وقال سام: «لإهانة المحكمة؟».

وأومأ الإسكاف إيماءة الإيجاب.

ومضى سام في شيء من التجهم: «ولماذا تتشبث بهذا العناد وتبدد حياتك الغالية هنا في هذه الزريبة الواسعة؟ لماذا لا تسلم أمرك لله وتبلغ رياسة المحكمة أنك متأسف جدًّا على إهانتها وأنك لن تعود إليها بعد الآن؟».

ووضع الإسكاف القصبة في ركن فمه ريثما يبتسم، ثم ردها إلى مكانها الأول، ولكنه لم يحر جوابًا.

وعاد سام يقول ملحًا على سؤاله: «لماذا لا تفعل؟».

وأجاب الإسكاف: «آه، إنك لا تفهم هذه المسائل حق الفهم، ما الذي تظن أنه كان السبب في تدمير حياتي؟».

وقال سام وهو يصلح من ذبالة الضياء: «أظن أنها ترجع من البداية إلى وقوعك في الدين، أليس كذلك؟».

وأجاب الإسكاف: «لم أستدن درهمًا في حياتي. حاول مرة أخرى».

وقال سام: «إذن لعلك اشتريت بيوتًا، وهي نقطة تعد بصريح القول «جنونًا» أو أولعت ببناء العمارات وهو اصطلاح طبي يعادل قولك: مرض لا ينفع فيه دواء».

وهز الإسكاف رأسه وقال: «جرب ثانية».

وقال سام بلهجة المستريب: «أرجو ألا تكون قد لجأت إلى المحاكم؟».

وأجاب الإسكاف: «لم أفعل ذلك ولا مرة في العمر. ولكن الواقع أن حياتي دمرت بسبب مال تركه لي أصحابه».

وقال سام: «ما هذا الكلام؟ ما هذا الكلام؟ ليت خصمًا لي غنيًّا حاول «تدمير» حياتي بهذه الطريقة، إذن لتركت له أن يحاول».

وأجاب الإسكاف بهدوء وهو يدخن في قصبته: «أخشى ألا تصدق ما أقوله، ولك حق، ولو كنت في مكانك لما صدقته، ولكنه مع ذلك صحيح».

وقال سام، وهو يكاد يصدق ذلك فعلًا، من نظرة الإسكاف إليه: «وكيف كان ذلك؟».

وأجاب الإسكاف: «إليك القصة، حدث لشيخ كنت في خدمته في الريف، وتزوجت بقريبة له فقيرة ماتت رحمة الله عليها، وله مني الحمد والثناء على أن عجَّل بها، أصيب في ذات يوم بنوبة فذهب».

وقال سام وكان النعاس يدب إلى عينيه بعد كثرة أحداث اليوم ومتاعبه: «إلى أين؟».

وأجاب الإسكاف، وهو يتكلم من أنفه من شدة لذته بالتدخين: «وما يدريني إلى أين ذهب، لقد مات».

وقال سام: «آه، قل لي هذا. ثم ماذا؟».

وأجاب الإسكاف: «ثم ترك وراءه خمسة آلاف جنيه».

وقال سام: «كرم منه أن يفعل ذلك».

ومضى الإسكاف يقول: «ألفًا منها تركها لي؛ لأني تزوجت قريبته، أأنت فاهم؟».

وغمغم سام: «جميل جدًّا».

واستتلى الإسكاف قائلًا: «وكان له عدد كبير من أبناء الإخوة، وبنات الأخوات، ظلوا يشتجرون ويختلفون فيما بينهم طول الوقت على أمواله وأملاكه، فجعلني منفذًا لوصيته، وترك الباقي لي أمانة لتوزيعه عليهم طبقًا للوصية».

وقال سام: «وماذا تقصد بقولك أمانة؟ ما الفائدة إذا لم يكن المال نقدًا وعدًّا؟».

وأجاب الإسكاف: «هذا اصطلاح قانوني ليس إلا».

وقال سام وهو يهز رأسه: «لا أظن ذلك، فليس في هذا «الدكان» شيء يسمى «أمانة»، ولكن مع ذلك استمر».

ومضى الإسكاف يقول: «ولما هممت بتنفيذ نصوص الوصية، عمد أبناء الإخوة وبناتهم، لخيبة أملهم في الظفر بالمال كله، إلى إرسال «إنذار»[1] لي من اتخاذ هذا الإجراء».

وسأل سام: «وما هذا؟».

وأجاب الإسكاف: «إجراء قضائي، يراد به قولك: هذا لا يكون».

وقال سام: «فهمت، أي أنه «نسيب لقانون» الهافهز كاركاس الذي يتحدثون عنه. وماذا حدث بعد ذلك؟».

ومضى الإسكاف يقول: «ولكن لما وجدوا أنهم لن يتفقوا فيما بينهم، وأنهم لن يحصلوا على حكم ضد الوصية، ما دام هذا الخلاف مستحكمًا، سحبوا «الإنذار» وقمت بدفع جميع «الأنصبة»، ولكن ما كدت أفعل حتى رفع أحدهم قضية يطلب فيها إبطال الوصية، وعرضت القضية بعد أشهر من تاريخ رفعها، في قاعة خلفية في دار قريبة من «مقبرة بول»، وبعد أربع جلسات استغرقت كل منها يومًا كاملًا، أُجِّل النطق بالحكم أسبوعًا أو أسبوعين للبحث، ثم قرأت الحيثيات التي استغرقت

(١) إعلان قضائي caveat.

ست صفحات، ثم حكم بأن صاحب الوصية لم يكن سليم العقل، وإنني ملزم برد المال كله والمصاريف والأتعاب، فاستأنفت وعرضت القضية على ثلاثة سادات أو أربعة كسالى نائمين، كانوا قد سمعوها بجملتها في المحكمة الأولى حيث يعملون محامين بلا عمل، وكل ما هنالك من فارق أنهم في هذه يسمون «أطباء»، وفي تلك يسمون «مندوبين» إن كنت تفهم ذلك، فما كان منهم إلا أن أيدوا حكم القاضي الابتدائي، وبعد ذلك لجأنا إلى المحكمة العليا حيث نحن إلى الآن وسأبقى دائمًا، وكان المحامون الذين وكلتهم عني قد قبضوا كل الألف التي أخذتها من عهد طويل، ومن أجل التركة كما يسمونها، والمصاريف والأتعاب، وأنا هنا لأني مدين بعشرة آلاف، وسأبقى هنا حتى أموت، مرقعًا النعال، وقد رأيت بعض السادات يتحدثون عن عرض الأمر على البرلمان، وكان ممكنًا أن يفعلوا ذلك لولا أنهم لم يجدوا متسعًا من الوقت للمجيء إليَّ، ولولا أنني العاجز عن الذهاب إليهم، وقد سئموا كتبي الطويلة إليهم، وأعرضوا عن المسألة بتاتًا... هذه هي قصتي كما يشهد الله، لا تنقص كلمة عن الحقيقة ولا تزيد، كما يعرفها خمسون شخصًا في هذا السجن وخارجه حق المعرفة».

وسكت الإسكاف ليتحقق من أثر هذه القصة في نفس سام، ولكنه وجده قد استغرق في النوم فنفض الرماد من القصبة، وزفر وألقاها من يده وسحب الغطاء إلى ما فوق رأسه، واستسلم هو أيضًا للنوم.

وكان المستر بكوك جالسًا إلى طعام الفطور، في صباح اليوم التالي، بينما كان سام منهمكًا في غرفة الإسكاف يمسح حذاء سيده وتلميعه

وتنظيف غطاءي ساقيه الأسودين، وإذا هو يسمع دقًّا بالباب، وقبل أن يتمكن المستر بكوك من الإذن للطارق بالدخول، ظهر رأس من فوقه قلنسوة من القطيفة الخليطة بالقطن، وتبين له منهما أن القادم هو المستر سمانجل بعينه.

وقال ذلك السيد الفاضل شافعًا سؤاله بعشرين إيماءة من رأسه أو أربعين: «كيف الحال؟ أريد أن أقول هل تنتظر أحدًا في هذا الصباح؟ فقد رأيت ثلاثة أشخاص لطاف جدًّا يسألون عنك ويدقون كل باب في الردهة، مما جعل الزملاء الذين اضطروا إلى فتح الأبواب ينهرونهم ويشتبكون بهم أشد الاشتباك».

وقال المستر بكوك: «يا ألله! ما أحمق مسلكهم، نعم، لا شك في أنهم أصدقاء لي كنت أرتقب زيارتهم أمس».

وصاح سمانجل بحماسة بالغة وهو يمسك المستر بكوك من يده: «أصدقاؤك! لا تقل أكثر مما قلت، إنهم أصدقائي أنا كذلك من هذه اللحظة، وأصدقاء ميفنز أيضًا، ذلك الكلب الجهنمي اللطيف المهذب، أليس كذلك؟».

وقال المستر بكوك مترددًا: «لا أعرف عن السيد إلا النزر اليسير، بحيث لا ....».

وقاطعه سمانجل قائلًا وهو يمسك بكتفه: «أعرف ذلك، وستعرفه كثيرًا على الأيام، وسترتاح إليه وتسر به، إن هذا الرجل يا سيدي- وهنا اتخذ وجهه سمات الجد- قد أوتي ملكة فكاهة بارعة تشرف مسرح

دروري لين».

وقال المستر بكوك: «أحق ما تقول».

وأجاب سمانجل: «يمين الله إنه لكذلك، اسمعه وهو يموء كالقطط الأربع في عجلة اليد، إن له مواء خاصًّا لكل قطة منها، أقسم لك بشرفي أن هذه هي الحقيقة، وهذه كما تعلم براعة فائقة، ولا يسع المرء إلا أن يحب من أوتي هذه الملكات. ولكن له عيبًا واحدًا، وهذا العيب اليسير قد ذكرته لك كما تعلم».

وراح المستر سمانجل يهز رأسه هزًّا تقترن فيه الثقة بالعطف، وأحس المستر بكوك أنه يتوقع منه أن يقول شيئًا، فلم يجد مندوحة عن قول: «آه» وهو ينظر بعين قلقة إلى الباب.

وقال المستر سمانجل وهو يرسل زفرة مستطيلة: «آه! إنه رفيق أنيس يا سيدي، ولا أحسبني عرفت رفيقًا أكثر أنسًا منه وأرق حاشية في مكان ما، وإن كان فيه ذلك العيب الوحيد، ذلك أنه لو أن شبح جده نهض من قبره ووقف أمامه في هذه اللحظة يا سيدي لطالبه بقرض على ورقة دمغة من فئة ثمانية عشر بنسًا».

وصاح المستر بكوك: «يا عجبًا!».

وأضاف المستر سمانجل يقول: «نعم ولو أنه استطاع أن ينشره مرة أخرى من قبره، لعمد في شهرين وثلاثة أيام من هذا التاريخ إلى تجديد الدين».

وقال المستر بكوك: «هذه أخلاق عجيبة جدًّا، ولكني أخشى أن

يكون أصدقائي، ونحن نتحدث هنا اللحظة، في ارتباك شديد لعجزهم عن الاهتداء إلى مكاني».

وقال المستر سمانجل وهو يتقدم نحو الباب: «سأدلهم على الطريق، طاب يومك، وسوف لا أزعجك في فترة اجتماعهم بك هنا، أنت تعرف ذلك، إلى الملتقى»، ولكنه لم يكد يفوه بالكلمتين الأخيرتين حتى وقف فجأة وأغلق الباب بعد أن كان قد فتحه، ومشى في خطى رفيقة نحو المستر بكوك ودنا منه متسللًا على أطراف قدميه، وقال في همس خافت: «هل في إمكانك أن تتكرم عليَّ في قرضي نصف كراون حتى نهاية الأسبوع القادم؟».

ولم يتمالك المستر بكوك من الابتسام، ولكنه عرف كيف يحتفظ بجده ووقاره، فأخرج المبلغ المطلوب ووضعه في كف المستر سمانجل، فلم يلبث هذا مع عديد الإيماءات والغمزات الغامضة القصد، المستغلقة المراد، أن توارى للبحث عن الغرباء الثلاثة، ولم تمضِ لحظة حتى عاد بهم، فسعل ثلاث سعلات، وهز رأسه عدة مرات، توكيدًا للمستر بكوك أنه لن ينسى الوفاء، وصافح الجميع في شكل جذاب، وانطلق في النهاية منصرفًا.

وأنشأ المستر بكوك يقول وهو يصافح أصحابه واحدًا بعد الآخر، مبتدئًا بالمستر طبمن، فالمستر ونكل، ثم سنودجراس، وكانوا هم الزائرين الذين سلف ذكرهم: «إني لفرح بلقائكم».

وتأثر الصحاب الثلاثة كثيرًا، وهز المستر طبمن رأسه حزينًا آسفًا،

وأخرج المستر سنودجراس منديله، وهو في انفعال لا يقوى على إخفائه، وتراجع المستر ونكل إلى النافذة فعطس عطسًا شديدًا.

وقال سام وقد جاء في تلك اللحظة يحمل الحذاء وغطاء الساقين: «صباح الخير أيها السادة، وبعدًا للحزن والكآبة، كما قال الصبي الصغير عند وفاة معلمته في المدرسة، مرحبًا بكم في هذه «الكلية» أيها السادة!».

وقال المستر بكوك وهو يربت على رأس سام وقد جثا عند قدمي سيده ليلبسه الغطاء: «إن هذا الأحمق عمل على أن يعتقل لكي يكون قريبًا مني».

وصاح الثلاثة في دهشة: «ماذا؟».

وأجاب سام: «نعم أيها السادة، إنني.. ثبّت قدميك يا سيدي من فضلك... إنني هنا سجين، محجوز كما قالت السيدة».

وصاح المستر ونكل بحماسة لا يعرف باعثها: «سجين!».

وأجاب سام وهو يتطلع إليه: «نعم يا سيدي، ما الخبر يا سيدي؟».

وقال المستر ونكل بلهجة سريعة: «لقد كنت أرجو يا سام.... لا شيء.. لا شيء».

وكانت لهجة المستر ونكل وهيئته تنمان عن شيء من الاضطراب والتردد، فطن المستر بكوك إليهما، فنظر إلى صديقيه الآخرين نظرة مستفسرة.

وقال المستر طبمن جوابًا عن هذا السؤال الصامت بصوت مرتفع: «لسنا نعرف، فقد لبث في اضطراب شديد خلال اليومين الماضيين،

وأمسى على غير عادته، في كل حركاته وتصرفاته، حتى لقد خشينا أن يكون في الأمر شيء، ولكنه نفى لنا ذلك نفيًا قاطعًا».

وقال المستر ونكل، وقد تغير لونه من نظرة المستر بكوك المستطيلة إليه: «كلا، كلا، ليس ثمة شيء في الواقع، أؤكد لك أن ليس ثمة شيء يا سيدي العزيز، ولكني مضطر إلى مغادرة المدينة إلى أجل قصير في عمل خاص، وكنت أطمع في استئذانك لتسمح لسام بمرافقتي».

وبدا المستر بكوك أشد دهشة من قبل.

ومضى المستر ونكل يقول متلعثمًا: «وأعتقد أن سام لم يكن ليمانع في ذلك أو يعترض عليه، ولكن مقامه هنا سجينًا جعل الأمر بالطبع مستحيلًا، ولهذا أجدني مضطرًا إلى الذهاب وحدي».

وما كاد المستر ونكل ينتهي من هذا الكلام حتى شعر المستر بكوك في شيء من الدهشة أن أنامل سام أخذت ترتعش وهي تتناول غطاء ساقيه، كأنه قد دهش أو بوغت، وتطلع هذا إلى المستر ونكل أيضًا حين فرغ من قوله، وبدا عليهما أنهما تفاهما، وإن كانت النظرة التي تبادلاها قد جرت في لحظة واحدة.

وقال المستر بكوك بحدة: «هل تعرف شيئًا عن هذا يا سام؟».

وأجاب سام وقد بدأ يدخل الأزرار في العُرى بخفة غير معهودة: «كلا يا سيدي، لا أعرف».

وقال المستر بكوك: «هل أنت متأكد يا سام؟».

وأجاب المستر ويلر: «نعم يا سيدي، أنا متأكد إلى هذه اللحظة،

واثق أنني لم أسمع شيئًا في الموضوع قبل الآن». وهنا نظر إلى المستر ونكل ثم أردف قائلًا: «وإذا جاز لي التخمين، فليس لي أي حق في قول شيء؛ لأني أخشى أن يكون ظني خاطئًا».

وصمت المستر بكوك لحظة ثم مضى يقول: «لست أملك حق الإمعان في البحث عن أمور تتصل بشؤون صديق لي ومسائله الخاصة، مهما يكن هذا الصديق حميمًا، ولكني أجتزئ في الوقت الحاضر بقولي إنني لا أفهم هذا إطلاقًا، فلندع الحديث عنه، فإن فيما قلنا الكفاية».

وراح المستر بكوك يدخل بالحديث في موضوعات مختلفة، وأخذ المستر ونكل يهدأ شيئًا فشيئًا، وإن لم يكن هدوؤه تامًّا، وكان لديهم من الموضوعات الشيء الكثير، فلبثوا في الحديث بسبيلها حتى انقضى الصباح بسرعة، وعندما أحضر المستر ويلر في الساعة الثالثة بعد الظهر إلى مائدة الغداء الصغيرة فخذًا مشوية من الضأن، وفطيرة ضخمة من اللحم المفري، وصحافًا منوعة من الخضر، وقدورًا من الجعة أقامها فوق المقاعد أو على المتكأ الطويل أو حيثما وجد لها مكانًا صالحًا، كان كل منهم في لهفة على إعطاء هذه الوجبة حقها من الإنصاف، على الرغم من أن اللحم كان قد اشتري وأنضج، والفطير صنع وخبز في مطبخ السجن القريب منه.

وتلا الطعام زجاجة أو زجاجتان من النبيذ الجيد، كان المستر بكوك قد أوفد رسولًا لشرائهما من حانة هورن في حي الأطباء، وقد تكون الزجاجة أو الزجاجتان أحق بأن توصف بأنها زجاجة أو ست زجاجات لأنهم ما كادوا يفرغون منها وينتهون من شرب الشاي، حتى دق الناقوس

منبهًا الغرباء إلى وجوب الانصراف.

وإذا كان سلوك المستر ونكل في الصباح غامضًا لا يعرف أحد له سببًا، فقد أمسى رهيبًا غريبًا كل الرهبة والغرابة حين استعد لتوديع صديقه، وهو متأثر بما كان يعتمل من الأحاسيس في صدره، ومن النصيب الذي تناوله من الزجاجة أو الزجاجات الست، فقد تباطأ حتى انصرف صديقاه المستر طبمن والمستر سنودجراس. وعندئذ تناول كف المستر بكوك بحرارة وقد بدت على وجهه أمارات عزم قوي عميق مختلط إلى حد مخيف بأصدق آيات الحزن وأبلغ سماته.

وقال المستر ونكل بين فكيه المنقبضين: «طاب ليلك يا سيدي العزيز».

وأجاب المستر بكوك بحرارة وهو يضغط يد صديقه الشاب: «بوركت أيها الصديق العزيز».

وصاح المستر طبمن من جانب الدهليز: «والآن، هيا بنا».

وأجاب المستر ونكل: «نعم، نعم، حالًا، طاب ليلك!».

وقال المستر بكوك: «طاب ليلك».

وكثرت التحيات وتكررت مرارًا ولا يزال المستر ونكل ممسكًا بكف صديقه مجيلًا البصر في وجهه بتلك النظرة الغريبة ذاتها.

وقال المستر بكوك أخيرًا، حين كادت ذراعه تخدر من كثرة هزها: «هل من خطب؟».

وقال المستر ونكل: «لا شيء».

وأجاب المستر بكوك وهو يحاول انتزاع ذراعه: «إذن طاب ليلك».

وغمغم المستر ونكل وهو متشبث بمعصم صديقه: «يا صديقي، البار بي، أيها الخل الكريم المجيد، لا تقس في الحكم عليَّ، ناشدتك الله حين تعلم أنني لما رأيت الحوائل تدفعني إلى اليأس...».

وهنا عاد المستر طبمن فظهر لدى الباب وهو يقول: «والآن، هل أنت آت، أو تريد أن تغلق الأبواب فلا نستطيع خروجًا؟».

وأجاب المستر ونكل: «حاضر، حاضر، هأنذا»، وانتزع نفسه بجهد بالغ وانصرف.

وبينما كان المستر بكوك يرسل بصره في الدهليز على أثرهم في دهشة صامتة، إذ ظهر سام ويلر عند رأس السلم، ووقف لحظة يهمس في أذن المستر ونكل.

وقال هذا بصوت مرتفع: «اطمئن بلا شك واعتمد عليَّ».

وقال سام: «شكرًا لك يا سيدي، أرجو ألا تنسى يا سيدي».

وأجاب المستر ونكل: «كلا بالطبع».

ورفع سام يده إلى قبعته وقال: «أتمنى لك التوفيق يا سيدي، كان بودي أن أذهب معك، ولكن المعلم أحق بالتقديم».

وقال المستر ونكل: «إن بقاءك هنا يزيد كثيرًا من فضلك».

وراحوا يهبطون السلم.

وعاد المستر بكوك إلى غرفته وهو يقول: «هذا شيء عجاب».

وجلس إلى المنضدة واستغرق في التفكير وعاد يقول: «ماذا عسى أن يكون هذا الشاب فاعلًا؟».

ولبث في مجلسه هذا فترة من الوقت يفكر في الأمر ويتدبره، وإذا هو يسمع صوت روكر السجان يستأذن في الدخول، فقال: «تفضل».

وقال المستر روكر: «لقد أحضرت لك وسادة أطرى وأنعم يا سيدي، بدلًا من الوسادة الموقوتة التي جئتك بها في الليلة الماضية».

وقال المستر بكوك: «شكرًا لك، ألا تتناول كأسًا من النبيذ؟».

وأجاب المستر روكر وهو يتقبل الكأس المقدمة إليه: «إنك لكريم جدًّا يا سيدي، في صحتك».

وقال المستر بكوك: «أشكرك».

وقال المستر روكر وهو يضع القدح بعد تناوله ويتفحص بطانة قبعته قبل رفعها إلى رأسه: «يحزنني أن أنبئك أن مؤجر غرفتك في حالة سيئة الليلة يا سيدي».

وصاح المستر بكوك: «ماذا؟ السجين الموظف في المحكمة؟».

وقال المستر روكر، وهو يدير القبعة في يده ليأتي باسم الصانع إلى أعلى اليمين، وهو ينظر إليها: «إنه لن يبقى كذلك طويلًا يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «إنك تجعل الدم يجري في عروقي باردًا، ماذا تعني؟».

وأجاب المستر روكر: «لقد مضى عليه عهد طويل وهو يشكو ذات

الرئة، وقد ساء الليلة تنفسه، وكان الطبيب قد قال منذ ستة أشهر إن تبديل الهواء قد ينقذه».

وصاح المستر بكوك: «يا رب السموات، هل كان القانون يقتل هذا الرجل قتلة بطيئة خلال هذه الأشهر الستة؟».

وقال المستر روكر وهو يزن القبعة من حواشيها في كلتا يديه: «لا أعرف عن هذا شيئًا، وأحسبه كان سيصاب بالعلة ذاتها في أي موضع آخر، وقد قصد إلى المستشفى في هذا الصباح، فنصح الطبيب بوجوب محاولة الإبقاء على قواه ما أمكن، فأرسل السجَّان إليه نبيذًا وحساء وأشياء أخرى جاء بها من بيته، ليس الذنب ذنب السجَّان يا سيدي، كما تعلم».

وأجاب المستر بكوك بعجلة: «طبعًا، ليس الذنب ذنبه».

وقال المستر روكر وهو يهز رأسه: «ولكني مع ذلك أخشى أن تكون نهاية الرجل قد حلت، وكنت منذ لحظة أراهن «ندي» على هذا الرأي بشلن مقابل ستة بنسات، ولكنه لم يقبل الرهان، وهو على حق تمامًا، شكرًا لك يا سيدي طاب ليلك».

وقال المستر بكوك بلهجة الجد: «قف، وأين ذلك المستشفى؟».

وأجاب روكر: «فوق الغرفة التي كنت نائمًا فيها، سأريكها إذا أردت الذهاب». وتناول المستر بكوك قبعته بحركة سريعة، دون أن ينبس بكلمة، وتبع الرجل في الحال.

وتقدم حامل المفاتيح في صمت وراح في رفق يرفع مزلاج الباب،

ويشير إلى المستر بكوك بالدخول. وكانت الحجرة رحيبة الجوانب عارية من الأثاث، مقفرة، لا تحوي غير سرر عرجاء من الحديد، كان شبح رجل راقدًا على سرير منها، وانيًا شاحبًا حط السقام عليه فبدا كالأموات، وكان تنفسه أليمًا بطيئًا، وهو يئن من ألم شهيقه وزفيره، وقد جلس بجانب السرير رجل قصير القامة كبير السن يضع مبذلة إسكاف فوق ثوبه، ويستعين بمنظار مقوس على قراءة آيات من الكتاب المقدس بصوت مرتفع، وكان ذلك الرجل هو الإسكاف أو الوارث السعيد الحظ الذي مر بك نبؤه.

وألقى المريض يده على ذراع الشيخ الجالس بجانب سريره وأشار إليه أن يكف عن التلاوة، فطوى الرجل الكتاب ووضعه فوق الفراش.

وقال المريض: «افتح النافذة».

ففعل، ولم تلبث ضوضاء المركبات، ورجرجة العجلات، وصيحات الرجال والغلمان، وسائر أصوات الجماهير وجلبة الزحام، وحركة الأعمال، وهرج الحياة العامة، أن اندمجت فاستحالت باختلاطها إلى همهمة عميقة سابحة في فضاء الحجرة وأفقها، تعلو عليها من لحظة إلى أخرى ضحكة صخابة، أو نغمات من أغنية عالية، أطلقها أحدهم في وسط ذلك الزحام المصطخب، فتصدم الأذن لحظة، ثم تتبدد في غمرة الأصوات المترددة ومواقع الأقدام، واصطفاق أمواج بحر الحياة اللجي المتقاذف المتدفق لا انقطاع له، خارج الأسوار. وهي أصوات مزعجة أليمة لمن يصغي إليها في هدوء لحظة ما، فكيف بأثرها المؤلم المحزن في نفس الجالس بجانب فراش الموت!

وقال المريض بصوت خافت: «لا هواء هنا، إن المكان يفسده، وكان عهدي به نقيًّا متجددًا، حين كنت أمشي طليقًا منذ سنين، ولكنه حين يمر بهذه الجدران ينقلب حارًّا ثقيلًا كثيفًا لا أستطيع أن أتنفسه».

وقال الشيخ: «لقد تنفسناه من عهد طويل معًا، لا عليك، لا عليك».

وساد السكون لحظة، بينما اقترب القادمان الجديدان من السرير، وانثنى المريض فمد يده وتناول بها كف زميله الشيخ فقربها منه، ولبث يضغطها في رفق ومودة بين يديه ويطيل الإمساك بها غير تاركها من قبضته.

وأنشأ بعد هنيهة يقول بأنفاس متقطعة وصوت خافت أشد الخفوت، حتى لقد اضطر الوقوف من حوله إلى الانحناء وتقريب آذانهم من الفراش لالتقاط الأصوات المتقطعة التي تخرج من شفتيه المصفرتين: «أرجو أن يذكر القاضي الرحمن الرحيم العقاب الأليم الذي لقيته في الأرض عشرين عامًا يا صديقي، عشرين عامًا في هذا القبر المخيف! وقد انكسر قلبي حين مات ولدي الصغير، ولم أستطع أن أظفر ولو بقبلة منه وهو في نعشه الصغير، وظلت وحشتي من ذلك الحين في وسط هذه الضوضاء، وهذا الصخب، أليمة كل الألم، مروعة كل الترويع، ليغفر الله لي! فهو على مماتي البطيء الرخي في وحدتي ووحشتي، خير شهيد».

وشبك يديه، وغمغم بكلام آخر لم يستطيعوا أن يسمعوه، وهبط في نوم، نوم بادئ الأمر؛ لأنهم شهدوه مبتسمًا.

ولبثوا لحظة يتهامسون، وانحنى الحارس على الوسادة، ثم ارتد عنه مسرعًا، وهو يقول: «يمين الله، لقد أفرج عنه».

وكان ذلك حقًّا، ولكنه كان وهو حي أشبه الناس بالموتى، فلم يعرفوا متى فارق الحياة.

* * *

الفصل الخامس والأربعون

وصف لقاء ممتع بين صمويل ويلر وأفراد حفل «عائلي»
وطواف المستر بكوك بذلك العالم الصغير الذي يقيم فيه،
واعتزامه الإقلال ما أمكن من الاختلاط بأهله

وفي ذات صباح بعد انفراط بضعة أيام على دخول صمويل ويلر السجن، وقد فرغ من تنظيف حجرة سيده بكل عناية ممكنة، انتظر حتى رآه قد أكب في راحة وهدوء على كتبه وأوراقه، ثم انصرف لقضاء ساعة أو ساعتين فيما يطيب له أن يقضيهما، وكان الصباح صافيًا، فخطر له أن قدرًا يسيرًا من الجعة في الهواء الطلق، كفيل بقضاء ربع ساعة من وقته في متعة طيبة، إلى جانب أية متع صغيرة أخرى قد تتيسر له.

وصح منه العزم على تنفيذ هذه الفكرة فذهب إلى غرفة الشراب، وبعد أن اشترى حاجته منه وابتاع أيضًا عدد الصحيفة الصادرة قبل يوم أول من أمس، قصد إلى ميدان الكرة، فاقتعد متكأ، وأخذ في إمتاع نفسه في هدأة، وبطريقة منظمة.

فبدأ أولًا بجرعة منعشة من الجعة، ثم تطلع ببصره إلى إحدى النوافذ فأنعم بغمزة أفلاطونية من طرف عينه على شابة تقشر البطاطس، ثم نشر الصحيفة بين يديه، وعاد فطواها بحيث جعل القسم الخاص منها بأنباء الشرطة إلى الظهر، وهو عمل شاق ومتعب إذا هبت ريح، مهما تكن خفيفة؛ ولهذا تناول جرعة أخرى حين تم له طيها، ثم قرأ سطرين منها ووقف عن القراءة؛ لينظر إلى رجلين كانا يوشكان أن ينتهيا من لعب الكرة والمضرب، فلما انتهيا منه صاح قائلًا: «جميل جدًّا» استحسانًا منه وارتياحًا، ومضى يجيل البصر في وجوه النظارة؛ لكي يستوثق من أن شعورهم متفق وشعوره، واقتضى ذلك التطلع مرة أخرى إلى تلك النافذة، وكانت الشابة لا تزال واقفة عندها، فرأى من الأدب أن يعاود الغمز لها ويشرب في صحتها، في حركات صامتة، ومعرض أخرس بلا كلام، نهلة أخرى من الجعة، ففعل، ثم تجهم وعبس في وجه غلام صغير كان قد فطن إلى هذه الحركة الأخيرة منه ففتح عينيه مبهوتًا، وراح يلف ساقًا بساق ويمسك الصحيفة بكلتا يديه، وبدأ يقرأ باهتمام حقيقي.

وما إن أكب على القراءة وانقطع لها عن عداها، حتى خيل إليه أنه سمع صوتًا ينادي باسمه من دهليز بعيد، ولم يخطئ ظنه؛ لأن ذلك النداء ما لبث أن انتقل من فم إلى آخر، فلم تمض بضع ثوان حتى كان الفضاء مليئًا بصيحات منادية: «ويلر!».

وصاح سام بصوت عال: «نعم، أنا هنا، ما الخبر؟ من الذي يريدني؟ هل جاء رسول خاص ليقول إن منزله الريفي قد شب فيه حريق؟».

وقال رجل كان قريبًا منه: «إن أحد الناس يطلبك في البهو».

وقال سام: «احرص يا صاح على هذه الصحيفة، وهذه الجرة من فضلك، حتى أعود إليهما، ولو كانوا ينادونني إلى محل الشراب لما أحدثوا كل هذه الضجة التي أحدثوها».

وشفع هذه العبارة بربتة رفيقة فوق رأس الفتى الذي أسلفنا ذكره، وكان هذا لا يشعر بأنه جد قريب من الشخص المطلوب، فلبث يصرخ مناديًا: «ويلر» بكل ما فيه من قوة، وأسرع سام يشق الميدان ويصعد السلم إلى البهو، فكان أول شيء وقع عليه نظره هو والده المحبوب جالسًا فوق الدرجة السفلى من السلم، ممسكًا قبعته بيده، صائحًا: «يا ويلر» بأعلى صوته، مكررًا الصيحة كل نصف دقيقة.

وقال سام بعنف وغضب بعد أن انتهى الشيخ من إطلاق صيحة أخرى: «لماذا تزأر هكذا، حتى يمتقع لونك وتبدو كالصانع النافخ في الزجاج؟ ما الخبر؟».

وأجاب الشيخ: «ها! لقد كنت قد بدأت أخشى أن تكون قد ذهبت لتمشي قليلًا يا سامي حول متنزه «الريجنسي» (نائب الملك)».

وقال سام: «كفى تهكمًا على ضحية جشعك، وقم من السلم، ما الذي جعلك تجلس هكذا فوقه؟ هل هذا هو المكان الذي أسكنه؟».

وقال المستر ويلر الكبير وهو ينهض: «إن لديَّ شيئًا يسرك يا سامي».

وقال سام: «انتظر لحظة، إن ظهرك كله ملطخ بالجير».

وقال المستر ويلر وقد أخذ ابنه ينفض ظهره: «هذا جميل منك يا سامي، أزل الجير عنه، فقد يبدو الأمر هنا عجيبًا إذا مشى الإنسان

والبياض هكذا على ملابسه، أليس كذلك يا سام؟».

وأخذت أعراض نوبة ضحك تبدو عليه، بادر سام إلى وقفها بقوله: «هلا سكت وأقلعت عن الضحك! ما رأيت في حياتي شيخًا مثلك وُلِدَ لكي تكون صورته أنسب الصور المطبوعة على بطاقات، ما الذي يضحكك الآن؟».

وقال المستر ويلر وهو يمسح العرق عن جبينه: «إنني أخشى يا سام أن يأتي يوم أضحك فيه حتى أنفجر من الضحك، أو أصاب منه بصرع يا بني».

وقال سام: «إذن لماذا تفعل ذلك؟ والآن ماذا تريد أن تقوله لي؟».

وقال المستر ويلر وهو يتراجع خطوة أو خطوتين ويزم شفتيه ويمد حاجبيه: «من تظن الشخص الذي جاء معي يا صمويل؟».

وقال سام: «أهو بل؟».

وهز المستر ويلر راسه وامتد خده الأحمر وامتط من ضحكة تحاول أن تنبعث منه أو تجد من فمه طريقًا إلى الخارج.

وقال سام: «ربما كان الرجل ذا الوجه المرقط؟».

وعاد المستر ويلر يهز رأسه.

وسأل سام: «ومن إذن؟».

وقال المستر ويلر: «زوجة أبيك!».

وكان من حسن الحظ أن بادر إلى الإفصاح، ولولا ذلك لتصدع

خداه حتمًا من تمددهما المتناهي إلى حد غير طبيعي.

وقال المستر ويلر: «امرأة أبيك يا سامي والرجل الأحمر الأنف يا بني. هو، هو، هو!».

وما إن فاه بهذا الاسم حتى عاد إلى نوبة ضحك أخرى، بينما وقف سام يتأمله وقد بدأت ابتسامة عريضة تغمر سائر تقاطيع وجهه شيئًا فشيئًا.

وقال المستر ويلر وهو يمسح عينيه: «لقد جاءا لحديث جدي قصير معك يا صمويل، فلا تذكر شيئًا عن الدائن المزيف يا سامي».

وقال سام: «لماذا؟ ألا يعرفان من هو؟».

وأجاب الوالد: «لا يعرفان أي شيء عنه».

وقال سام، وهو يبادل الشيخ ضحكاته: «وأين هما؟».

وأجاب المستر ويلر: «في الخلوة، وإنك لتبدو ماهرًا حقًّا لو أمكنك أن تجد الرجل الأحمر الأنف إلا حيث يوجد الشراب، مستحيل يا صمويل، لا يمكن». وقال مستر ويلر حين أحس بأنه قادر على أن يتحدث بعبارات مفهومة: «وقد ركبنا ركبة لطيفة جدًّا على الطريق من حانة المركيز في هذا الصباح يا سامي، وقد أتيت بذلك الأصلع العجوز في هذه العربة الصغيرة التي كان يملكها زوج امرأة أبيك الأول، وقد وضعنا فيها كرسيًّا ذا مسند ليجلس الراعي فيه- وهنا بدت على وجه المستر ويلر نظرة سخرية بالغة- وأحضروا أيضًا سلمًا متنقلًا إلى الطريق أمام الباب ليصعد عليه».

وقال سام: «هل تقول جدًّا؟».

وأجاب الوالد: «صحيح يا سامي، وليتك كنت معنا لترى كيف راح يتعلق بالمجانين وهو صاعد كأنما كان يخشى أن يسقط من طوله مسافة ست أقدام فيتناثر جسمه مليون ذرة، واندلق أخيرًا في جوف المركبة، وانطلقنا، وأكاد أعتقد، أقول أكاد أعتقد يا صمويل أنه وجد نفسه يرتج ويهتز حين كنا ننعرج على النواصي».

وقال سام: «وأظن أنك اصطدمت أيضًا بعمود أو عمودين».

وأجاب الوالد وسط نوبة من الغمزات: «أخشى أن يكون هذا ما حصل يا سامي، وكان يقفز من فوق المقعد طول الطريق».

وهنا هز الشيخ رأسه يمنة ويسرة، واستولت عليه خضخضة باطنية مبحوحة، مشفوعة بانتفاخ شديد في وجهه، وامتداد فجائي في كل قسماته ومعارفه، فانزعج سام كثيرًا من هذه الأعراض التي بدت عليه.

وقال الشيخ بعد أن استعاد صوته بجهد جهيد وخبط تشنجي كثير بقدميه فوق الأرض: «لا تنزعج يا سامي، لا تنزعج! إنها نوع من الضحك الهادئ المكتوم أحاول أن أطلقه».

وقال سام: «إذا كان الأمر كذلك، فالأفضل ألا تحاول إطلاقه مرة أخرى، إني أخشى أن تجد في مرة ما أن هذا الاختراع خطر».

وسأل الشيخ فتاه: «ألا تحب ذلك يا سامي؟».

وأجاب سام: «أبدًا».

وقال المستر ويلر ولا تزال الدموع تجري على خديه: «والله لو

كنت أطلقتها لاسترحت كثيرًا، ولأغناني عن كثرة الكلام مع امرأة أبيك أحيانًا، ولكني أظنك على صواب يا سامي؛ لأنها أشبه ما تكون بالصرع كثيرًا جدًّا يا سامي».

وكانا قد بلغا بهذا الحديث باب الخلوة- قاعة الجلوس- فوقف سام لحظة ريثما يرسل بصره من فوق كتفه، ويلقي نظرة ساخرة إلى والده المحترم، وكان هذا لا يزال يضحك وهو سائر خلفه، ولم يلبث أن تقدم إلى الحجرة.

وقال سام وهو يحيي السيدة بأدب: «إنني لشاكر لك يا امرأة أبي هذه الزيارة، وأنت أيها الراعي، كيف حالك؟».

وقالت مسز ويلر: «آه يا صمويل! هذا شيء مروع».

وقال سام: «ليس الأمر كذلك أبدًا، أهو كذلك يا حضر الراعي؟».

ورفع المستر استجنز يديه، وقلب عينيه، حتى لم يعد يبدو منهما غير البياض- أو على الأصح الصفار- ولكنه لم يحر جوابًا.

وقال سام وهو يلتفت إلى امرأة أبيه مستفسرًا: «هل هذا السيد يشكو من مرض أليم؟».

وأجابت مسز ويلر: «إن هذا الرجل الطيب محزون لرؤيتك هنا يا صمويل».

وقال سام: «أكذا هو؟ لقد كنت أظن من شكله أنه يمكن أن يكون قد نسي أن يتناول الفلفل مع آخر خيارة أكلها. اجلس يا سيدي، إننا لا نطالب بأجر إضافي على الجلوس كما قال الملك حين هب في وجوه وزرائه».

وقال المستر استجنز بتعاظم: «أخشى أيها الفتى أن السجن لم يصلح منك».

وأجاب سام: «عفوًا يا سيدي، ما الذي تفضلت اللحظة فقلته؟».

وقال المستر استجنز بصوت مرتفع: «قلت إنني أخشى أيها الفتى أن هذه العقوبة لم تلن من طبعك».

وأجاب سام: «سيدي، إنه لكرم جدًّا منك أن تقول هذا، وأرجو ألا أصبح أبدًا رقيق الطبع يا سيدي، أنا شاكر لك حسن رأيك يا سيدي».

وعند هذا الحد من الحديث ارتفع صوت يكاد يشبه الضحك من جانب المقعد الذي كان المستر ويلر الكبير جالسًا فيه، فلم يكن من مسز ويلر بعد تفكير سريع في جميع الظروف المحيطة بالموقف، إلا أن رأت أنه من واجبها أن تأخذ في التشنج شيئًا فشيئًا.

قالت: «يا ويلر، أقبل علينا»، وكان الشيخ يجلس في ركن من الحجرة.

وأجابها المستر ويلر: «شكرًا لك يا عزيزتي، ولكني مرتاح جدًّا حيث أنا».

وهنا انفجرت مسز ويلر منتحبة.

وقال سام: «ما الذي جرى يا أم؟».

وأجابت مسز ويلر: «أواه يا صمويل! إن أباك ينغص عليَّ عيشي، ألا شيء يصلحه؟».

وقال سام: «ألا تسمع هذا الذي قيل الآن؟ إن السيدة تريد أن تعرف هل من شيء يصلحك».

وأجاب الشيخ: «إنني مدين كثيرًا لمسز ويلر لسؤالها اللطيف يا سامي، وأعتقد أن قصبة تبغ تفيدني كثيرًا، فهل أجد طلبي هنا يا سامي؟».

وعندئذ أطلقت مسز ويلر مزيدًا من الدموع وراح المستر استجنز يئن أنينًا.

وقال سام وهو يتلفت حوله: «ها هو ذا السيد السيئ الحظ يعاوده المرض، أين تشعر به الآن يا سيدي؟».

وأجاب المستر استجنز: «في الموضع ذاتها أيها الفتى.. في الموضع ذاته».

وقال سام بسذاجة كبيرة ظاهرة: «وأين يكون هذا يا سيدي».

وأجاب المستر استجنز، وهو يضع مظلته فوق صداره: «هنا في الصدر أيها الفتى».

ولم تستطع مسز ويلر عقب هذا الرد المؤثر أن تتمالك مشاعرها، فأجهشت بالبكاء، وأعلنت أنها مقتنعة بأن الرجل المحمر الأنف قديس، وهنا اجترأ المستر ويلر الكبير فقال بصوت خافت: إنه لا بد أن يكون مندوبًا عن اتحاد أبرشيات القديس سايمن في الخارج والقديس ووكر في الداخل.

وقال سام: «إنني أخشى يا أم أن يكون هذا السيد بهذا الالتواء البادي على سحنته يشعر بالعطش من هذا المنظر الكئيب الذي أمامه، هل هذه

هي الحقيقة يا أم؟».

فنظرت السيدة الفاضلة إلى المستر استجنز تلتمس عنده الجواب، فما كان منه إلا أن أدار عينه في محجرها عدة مرات، وقبض بيمينه على حنجرته، وقلد عملية البلع للإيحاء بأنه عطشان!

وقال المستر ويلر وهو بادي الحزن: «أخشى يا صمويل أن يكون شعوره هو الذي جعله هكذا فعلًا».

وأجاب سام: «وما هو نوع الصنبور الذي تعودت الشرب منه يا سيدي؟».

ورد المستر استجنز قائلًا: «آه! يا صديقي الفتى العزيز، كل الصنابير واحدة، وما اختلاف أنواعها إلا غرور».

وقالت مسز ويلر وهي ترسل أنة خافتة وتهز رأسها هزة المُؤَمِنة على قوله: «هذا صحيح، هذا صحيح جدًّا».

وقال سام: «والله قد يكون هذا صحيحًا، ولكن ما هو غرورك أنت الخاص؟ أي غرور تستلطف طعمه أكثر من سواه يا سيدي؟».

وأجاب المستر استجنز: «آه يا صديقي الفتى العزيز! إنني أحتقرها جميعًا، وإذا كان من بينها ما هو أقل في كراهية الطعم والرائحة من غيره فهو الشراب الذي يسمى الروم، على شرط أن يكون يا صديقي الفتى العزيز ساخنًا مع ثلاث قطع من السكر في كل كأس منه».

وقال سام: «آسف جدًّا يا سيدي إذ أقول إنهم لا يسمحون في هذا المحل ببيع هذا النوع المخصوص من الغرور».

وقال المستر استجنز: «يا لقسوة قلوب هؤلاء الغلاظ! ويا لغلظة نفوس هؤلاء الجبابرة العتاة!».

وما إن فاه المستر استجنز بهذه الكلمات حتى عاد يحرك عينيه ويضرب صدره بمظلته، ومن الإنصاف لهذا السيد المحترم أن نقول: إن غضبه بدا صادقًا حقيقيًّا لا تصنع فيه ولا افتعال.

وبعد أن عقبت مسز ويلر والسيد الأحمر الأنف على هذه المعاملة المنافية للإنسانية، بكل قوة وعنف، وبعد أن صبَّا مختلف أنواع اللعنات الدينية على رؤوس أولئك الذين كانوا السبب في ذلك، اقترح السيد زجاجة من نبيذ «البورت» مع قليل من الماء الدفيء والتوابل والسكر قائلًا إنه مصلح للمعدة، وأقل طعمًا من ناحية «الغرور» من أية أشربة أخرى، فأجيب إلى طلبه، وراح الرجل الأحمر الأنف ومسز ويلر ينظران إلى المستر ويلر الكبير ويئنان، ريثما يتم إعداد الشراب المطلوب.

وقال المستر ويلر: «اسمع يا سامي، إنني أرجو أن تكون نفسك قد انتعشت بهذه الزيارة اللطيفة، كما أن الحديث الذي يدور فيها مبهج جدًّا ومصلح لنفسيتك، أليس كذلك يا سامي؟».

وأجاب سام: «أنت رجل رذل، وأود ألا توجه إليَّ كلامًا آخر من هذا النوع القبيح».

ولم يهذب هذا الرد المناسب من نفس المستر ويلر الكبير، بل بالعكس عاود الضحك، حتى جعل عناده هذا، السيدة والمستر استجنز، يغمضان أعينهما، ويهزان نفسيهما فوق مقعديهما في اضطراب ظاهر،

وإذا هو يؤدي عدة حركات صامتة توحي برغبته في لكم أنف استجنز وكسره. وكان يبدو عليه الارتياح الشديد لتلك الحركات الصماء، وكاد يضبط وهو يؤدي إحداها، حين انتابت المستر استجنز هزة، عند وصول الشراب، جعلت رأسه يمس قبضة المستر ولر، وقد ظل بضع لحظات وهو يؤدي بها تلك الحركات والألعاب «النارية» في الهواء، على قيد بوصتين من أذنه.

وقال سام في عجلة شديدة: «لماذا تمد يدك إلى الشراب بهذه الصورة الوحشية، ألا ترى أنك صدمت السيد بقبضة يدك؟».

وقال المستر ويلر وقد شعر بشيء من الحياء لوقوع هذا الحادث غير المنتظر منه: «لم أكن أتعمد فعله يا سامي».

وقال سام حين رأى السيد يعرك رأسه وهو مغيظ: «حاول يا سيدي مداواتها من الباطن، ما رأيك في هذا الشراب أو هذا «الغرور» الساخن يا سيدي؟».

ولم يجب المستر استجنز بكلام ما، ولكن شكله كان أكثر من الكلام تعبيرًا، وراح يذوق الكأس التي وضعها سام في كفه، وألقى المظلة على الأرض، ثم عاد يذوقها، ثم شربها جملة في جرعة واحدة ومسح شفتيه بلسانه، ورفع الكأس يطلب أخرى.

ولم تتخلف مسز ويلر في تأدية ذلك الشراب حقه من الإنصاف، فقد بدأت بالاحتجاج بأنها لا تستطيع أن تذوق قطرة منه، ثم تناولت قطرة صغيرة، فقطرة أكبر. فقطرات كثرًا كبارًا، وكان شعورها أشبه ما

يكون بتلك المواد التي تتأثر كثيرًا بالمياه القوية، فجعلت تذرف دمعة مع كل قطرة ترشفها من ذلك الشراب، ومضت تفعل ذلك، مذيبة مشاعرها على هذا النحو، حتى وصلت أخيرًا إلى حالة سيئة من الشقاء تثير الإشفاق الشديد.

وفطن المستر ويلر الكبير إلى هذه الأعراض والأمارات، فأظهر امتعاضًا شديدًا منها، وحين جاءت القارورة الثانية من الشراب ذاته، وبدأ المستر استجنز يزفر زفرات أليمة، راح المستر ويلر يبدي استياءً واضحًا من كل هذه الحركات، بعدة كلمات متقطعة وعبارات غير مفهومة، لم تتبين الآذان منها غير تكرار لفظة «دجل».

وراح يهمس في أذن ابنه، بعد أن أطال النظر إلى السيدة والمستر استجنز: «سأقول لك ما في الأمر يا صمويل يا ابني، إنني أعتقد أنه لا بد من أن يكون هناك شيء خاطئ في بطن امرأة أبيك وفي جوف هذا الرجل الأحمر الأنف».

وقال سام: «ماذا تقصد؟».

وأجاب الشيخ: «أقصد أن هذا الذي يشربانه لا يغذيهما مطلقًا، ولا يفيدهما أبدًا، بل يتحول كله إلى ماء سخين، ثم ينزل دموعًا من أعينهما، تأكد يا سامي أنه اعتلال في البنية».

وأبدى المستر ويلر هذا الرأي «العلمي» مصحوبًا بعدة عبسات وإيماءات مؤكدة له، وفطنت مسز ويلر إليها، فاستخلصت منها أنها تنطوي على تلميحات وإشارات مزرية بها أو بالمستر استجنز، أو بهما

معًا، وإذا المستر استجنز نفسه ينهض مستويًا على ساقيه قدر إمكانه، ويأخذ في إلقاء محاضرة قيمة لخير السامعين وفائدتهم، ولا سيما المستر صمويل خاصة، الذي ناشده في عبارات مؤثرة أن يحرص على نفسه، ويحتاط لها، في هذه البؤرة السيئة التي ألقي فيها، وأن يمتنع عن كل نفاق، أو كبرياء، وأن يتخذه هو- أي: استجنز نفسه- الأسوة الحسنة في كل شيء، وأنه إذا فعل ذلك فسوف يتبين إن عاجلًا أو آجلًا أنه رجل ذو أخلاق فاضلة مثله، وصفات لا تشوبها شائبة، وأن جميع من عرف قبل اليوم من الصحاب والخلطاء أراذل وأوغاد وشهوانيون لا صلاح لهم، وأنه لا يسعه إلا أن يشعر من هذه الناحية بمنتهى الارتياح.

وأهاب به كذلك أن يجتنب السكر قبل أي شيء سواه، فهو منقصة لا يعرف لها شبيهًا غير ولوغ الخنازير بالأقذار وتمرغها في الحمأة، وغير تلك العقاقير السامة المهلكة التي تمضغ في الأفواه، والتي يقال: إنها تذيب الذاكرة وتبددها تبديدًا. وما كاد السيد المحترم ذو الأنف الأحمر يبلغ هذا الحد من محاضرته، حتى بدا كلامه غير مفهوم ولا متماسك العبارات إطلاقًا، وراح يتمايل في حماسة بالغة حتى كاد يسقط لولا أن أمسك بظهر مقعد ليصلب طوله.

ولم يشأ المستر استجنز أن ينصح لسامعيه بالحذر والحيطة من أولئك المتنبئين الكَذَبَة وأدعياء التدين الأئمة الدجالين، الذين تجردوا من كل نزوع إلى مناصرة تعاليم الدين وأصوله، وخلوا من كل شعور يدفعهم إلى التمسك بمبادئه وجوهر تعاليمه، فهم أشد خطرًا على المجتمع من المجرمين العاديين؛ لأنهم لا يرون بدًّا من أن يخدعوا،

ويغرروا بالجهال، ويعرضوا للسخرية والامتهان ما كان أولى به أن يكون موضع التقديس والتعظيم، ويسيئوا بمسلكهم هذا إلى سمعة هيئات كبيرة تضم خلقًا كثيرًا من أهل الفضل وذوي الأقدار، في أحسن الطوائف، وأجدر الجماعات بالإكبار. ولكنه استند إلى ظهر المقعد لحظة طويلة، وأغمض إحدى عينيه، وأطال الغمز بطرف الأخرى، فكان المفهوم من ذلك أنه فكر في هذا كله وتدبره، ولكنه احتفظ به لنفسه.

وظلت مسز ويلر خلال هذه المحاضرة تبكي وتنتحب عند نهاية كل فقرة من فقراتها، بينما جلس سام ملتف الساق بالساق على أحد المقاعد، مسندًا ذراعيه إلى السياج، ناظرًا إلى الخطيب نظرات اقتناع شديد بقوله، ولطف ظاهر على وجهه، وأن جعل بين لحظة وأخرى يلقي نظرة عرفان على الشيخ. وكان هذا قد بدا مغتبطًا في أول المحاضرة ثم ذهب في النوم عند وصولها إلى النصف أو قرابته.

وصاح سام حين رأى الرجل الأحمر الأنف عقب الفراغ من المحاضرة يلبس القفاز البالي، ويدخل أنامله في أطرافه المثقوبة، حتى بدت عقدها ظاهرة للأبصار: «مرحى! جميل جدًّا! بديع للغاية!».

وقالت مسز ويلر بجد شديد: «أرجو أن ينفعك هذا القول الحكيم يا صمويل».

وأجاب سام: «أعتقد ذلك يا أم».

وقالت مسز ويلر: «أتمنى أن ينفع والدك أيضًا».

وأجاب المستر ويلر الكبير: «شكرًا يا عزيزتي، وكيف تشعرين أنت

بعد هذا الكلام الذي سمعته يا حبيبتي؟».

وصاحت مسز ويلر: «يا ساخر».

وقال المستر استجنز المحترم: «يا من تعيش في ظلمات الجهل!».

وقال المستر ويلر: «إذا لم أجد نورًا أحسن من ضوئك هذا أيها المخلوق الفاضل، فأغلب ظني أنني سأستمر حوذيًّا «ليليًّا» حتى أتقاعد كلية من العمل على الطرق، والآن يا مسز ويلر، إذا أطال الأبلق الوقوف أكثر من هذا على ساقيه فلن يجد شيئًا يقف عليه حين نعود، ومن يدري، فقد ينقلب المقعد الكبير في ثغرة أو ما أشبه، هو والراعي معًا».

وما إن سمع المستر استجنز المحترم هذا الافتراض وهو في ذهول ظاهر، وفزع بالغ، حتى جمع قبعته ومظلته واقترح الانصراف في الحال، فوافقت مسز ويلر على اقتراحه، وسار سام معهم إلى الباب وودعهم وداعًا لائقًا.

وقال الشيخ: «وداعًا يا صمويل».

وسأل سام: «ماذا تعني وداعًا هذه؟».

وأجاب الشيخ: «إذن أقول نرى وجهك بخير».

وقال سام: «آه، أهذا ما تقصده؟ إلى الملتقى إذن».

وتلفت المستر ويلر محاذرًا وهمس قائلًا: «اسمع يا سامي، سلم على سيدك، وقل له أن يتصل بي إذا غير رأيه في هذه المسألة التي هنا، فقد فكرت أنا وصانع أثاث في طريقة لإخراجه من هذا المكان»، وراح يضرب ابنه على صدره بظاهر كفه ويتراجع خطوة أو خطوتين وهو

يقول: «صانع بيان يا صمويل، صانع بيان».

وقال سام: «ماذا تقصد بهذا؟».

وقال المستر ويلر بلهجة أشد غموضًا من قبل: «بيان أربعين يا صمويل يمكن أن يستأجره، بيان لا يعزف ولا يرسل أنغامًا يا سامي».

وقال: «وما الفائدة منه».

وأجاب المستر ويلر: «دعه يرسل إلى صديقي صانع الأثاث ليحضره إليه يا سامي، هل فهمت الآن؟».

قال: «كلا».

وأجاب الوالد مخافتًا بصوته: «يعني أنه لا يحتوي على شيء في جوفه، فهو بيان خالي العدد تمامًا، ومن السهل أن يدخل في جوفه هو وقبعته وحذاؤه، ويتنفس من طرفي رجليه، ويعد جواز سفر إلى أمريكا؛ لأن الحكومة الأمريكية لن تسلمه أبدًا، حين تعلم أن لديه مالًا ينفقه في بلادها يا سامي، ودع سيدك يبقى هناك حتى تموت مسز باردل، أو يشنق ددسن وفج، وإن كنت أعتقد أن شنقهما سيحدث غالبًا قبل وفاتها، وعندئذ يعود فيضع كتابًا عن الأمريكيين، فيربح ما يعوض عليه كل المصاريف وزيادة، إذا عرف كيف يستفيد منها».

ولبث المستر ويلر يلقي تفاصيل هذه «المؤامرة» بعجلة وهمس شديدين، وكأنما خشي أن يضعف تأثير هذه الفكرة الضخمة التي كاشف ولده بها، إذا هو أطال الكلام فيها، فحيا تحية السائقين، واختفى.

ولم يكد سام يسترد سكينته ويعيد إلى وجهه هدوءه المألوف بعد

أن أزعجه كثيرًا هذا السر الذي أفضى به إليه والده المحترم، حتى أقبل عليه المستر بكوك وقال له ذلك السيد: «يا سام».

وأجاب مستر ويلر: «نعم يا مولاي».

وقال المستر بكوك وهو يبتسم: «إنني ذاهب في جولة حول السجن، وأحب أن ترافقني، إني أرى سجينًا نعرفه قادمًا نحونا يا سام».

وسأل المستر ويلر: «أيهما يا سيدي؟ أهو السيد الذي كل رأسه شعر، أم السجين اللطيف ذو الجوربين؟».

وأجاب المستر بكوك: «لا هذا ولا ذاك، إنه صديق قديم لك يا سام».

وصاح سام مبهوتًا: «صديق لي يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «أؤكد لك أنك تذكره جيدًا يا سام، وإلا كنت أقل اكتراثًا بأصدقائك القدامى مما أظن، صه يا سام ولا كلمة، بل ولا حرف، ها هو ذا».

وما إن فرغ المستر بكوك من هذا الكلام حتى تقدم جنجل، وكان يبدو أقل سوءًا، وأخف بؤسًا، مما بدا أول مرة، فقد جاء مرتديًا حلة نصف بالية، كان المستر بكوك قد أعانه على استردادها من راهن الثياب، وكان عليه قميص نظيف أيضًا، وقص شعره كذلك، وإن ظل شاحب اللون نحيفًا، وما كاد يدنو بطيء الخطى معتمدًا على عصا، حتى تبين أنه يعاني ألمًا شديدًا من المرض والحاجة، وأنه لا يزال واهنًا خائر القوى. ورفع قبعته للمستر بكوك حين حياه، وبدا عليه الحياء البالغ، والذلة الشديدة، عندما ألمت عينه بسام ويلر.

وجاء في أذياله المستر جب تروتر الذي لا مكان في ثبت مساويه، على الحالات كلها، للغدر برفيقه أو عدم الإخلاص لصاحبه. وكان لا يزال يبدو في أسمال بالية قذرة لطول ما أُهملت، ولكن وجهه لم يكن غائرًا بالقدر الذي كان عليه عند أول لقاء بينه وبين المستر بكوك منذ بضعة أيام. وغمغم وهو يرفع إليه قبعته محييًا ببعض كلمات متقطعة يعبر بها عن عرفانه، ويتمتم بعبارات عن نجاته من الجوع.

وقال المستر بكوك وهو يقاطعه نافد الصبر: «حسن جدًّا، حسن جدًّا، اذهب مع سام، فإني أريد أن أتحدث مع المستر جنجل، هل في إمكانك أن تمشي دون الاستناد إلى ذراعه؟».

وأجاب جنجل عن هذا السؤال الأخير الموجه إليه قائلًا: «بلا شك يا سيدي... أنا على استعداد تام... وإن كنت لا أسرع كثيرًا... الساقان راعشتان... والرأس يدور دورانًا عجيبًا... ويلف... نوع «زلزالي» من الشعور... جدًّا».

وقال المستر بكوك: «هات ذراعك، هيا».

وأجاب جنجل: «كلا، كلا، لن أفعل، أفضل ألا أفعل».

وقال المستر بكوك: «كلام فارغ، استند إلى ذراعي، إنني أريد ذلك يا سيدي».

وشاهد المستر بكوك ارتباكه واضطرابه، وأنه حائر لا يدري ماذا هو صانع، فاختصر الكلام وسحب ذلك «المتجول» المريض من ذراعه وسار به، دون أن يفوه بكلمة أخرى.

وكان وجه المستر ويلر طيلة الوقت يبدو في أشد الذهول والدهشة التي يتسع للخيال أن يصورها، وبعد أن مضى ينقل عينه بين جب وجنجل، وبين جنجل وجب، في صمت عميق، انثنى يقول برفق: «والله إني لفي حيرة شديدة»، وطفق يكرر هذه العبارة عشرين مرة على الأقل، ثم ارتج في النهاية عليه، وعاد ينظر إلى أحدهما، ثم يتحول بعينه إلى الآخر، في حيرة صامتة ودهشة خرساء.

والتفت المستر بكوك خلفه وقال: «يا سام».

وأجاب المستر ويلر: «أنا آت يا سيدي»، وراح يتبع سيده مذهولًا شارد الخاطر، وهو لا يزال ينظر إلى المستر جب تروتر الذي كان يسير بجانبه صامتًا.

ولبث جب مطرقًا إلى الأرض لحظة، وسام لا يبرح ينظر إلى وجهه، حتى اصطدم بالذين كانوا يروحون ويغدون في ذلك المكان، وراح يدهم الأطفال الصغار، ويتعثر بالمدارج، ويتخبط في القضبان وهو لا يشعر، حتى رفع جب أخيرًا بصره خلسة إليه فقال: «كيف حالك يا مستر ويلر؟».

وصاح سام قائلًا إنه: «هو بعينه».

وما كاد يتحقق ذلك، ويزول كل شك كان يخامره، حتى ضرب ساقه بكفه ونفس عن شعوره بإطلاق صفير حاد مستطيل.

وقال جب: «لقد تنكرت الدنيا لي يا سيدي».

وأجاب ويلر وهو ينظر إلى أسماله في دهشة لا يستطيع إخفاءها:

«أعتقد ذلك، وهو تغير من سيئ إلى أسوأ يا مستر تروتر، كما قال أحدهم حين تناول شلنين وستة بنسات رديئة أو مشكوكًا فيها مقابل نصف كراون من العملة الطيبة».

وأجاب جب وهو يهز رأسه: «فعلًا. ولم يعد الخداع يجدي الآن شيئًا يا مستر ويلر»، وهنا نظر نظرة خبث عابر وعاد يقول: «إن الدموع ليست الأدلة الوحيدة على المحن والخطوب، ولا هي بأحسنها ولا أقواها حجة».

وأجاب سام وقد أدرك المراد: «نعم، ليست كذلك فعلًا».

وقال جب: «إن الدموع يمكن التظاهر بها يا مستر ويلر».

وأجاب سام: «أعرف ذلك، وأعرف أن بعضهم يعدها إعدادًا، ويجهزها مقدمًا، وفي وسعه أن ينتزع الغطاء متى شاء فتنهمر انهمارًا».

وأجاب جب: «نعم، ولكن هذه الأشياء لا يمكن تزييفها بسهولة يا مستر ويلر، إن استثارتها عملية مؤلمة»، وأشار عندئذ إلى خديه الشاحبين الغائرين في صحن وجهه وشمر عن ساعده، فكشف عن ذراع بدت كأن عظامها توشك أن تنكسر من مجرد لمسها، فقد كانت تلوح متناهية في الضمور والنحول من تحت غطائها الواهن من اللحم.

وقال سام متراجعًا من بشاعة هذا المشهد: «ما الذي كنت تصنعه بنفسك؟».

وأجاب جب: «لم أصنع بها شيئًا».

وقال سام مبهوتًا: «لم تصنع بها شيئًا!».

وأجاب جب: «لم أفعل شيئًا منذ عدة أسابيع، ولم أكن أؤدي عملًا، ولا أكاد أذوق شيئًا من الطعام والشراب».

وألقي سام نظرة شاملة على وجه المستر ترتر الضامر النحيل، وثيابه البالية، ثم تناوله من ذراعه وبدا يسحبه بعنف شديد.

وقال جب وهو يحاول عبثًا التخلص من قبضة عدوه القديم: «أين تذهب بي يا سام؟».

وقال سام: «هيا بنا، هيا بنا!».

ولم يحاول شرح مراده حتى وصلا إلى قاعة الشراب، فطلب جرة من الجعة، فجيء بها سريعًا، وانثنى يقول: «والآن، اشربها إلى آخر قطرة فيها، ثم اجعل عاليها سافلها، حتى أرى أنك قد شربت الدواء».

وقال جب متمنعًا: «ولكن يا عزيزي المستر ويلر!».

وقال سام بلهجة قاطعة: «هيا، اسكبها في جوفك!».

وامتثل المستر تروتر للنصيحة فرفع الجرة إلى شفتيه، وراح برفق، وعلى درجات لا تكاد تبين، يميلها في الفضاء، وقد تمهل مرة واحدة ليأخذ نفسًا طويلًا، وإن لم يرفع وجهه عن الوعاء، فلم تكد تمضي بضع لحظات، حتى أمسك بها على حبل ذراعه مقلوبة فارغة، لم يسقط منها غير ذرات قليلة من الرغوة، لبثت تنفصل شيئًا فشيئًا من الحافة وتتقاطر بطيئة متثاقلة.

وقال سام: «أحسنت، والآن كيف تشعر بعد شربها؟».

وأجاب جب: «أحسن حالًا يا سيدي، أعتقد أنني أحسن حالًا».

وقال سام بلهجة المجادل المحاج: «بالطبع، إن هذا أشبه بوضع غاز في منطاد، وأرى بالعين المجردة أن هذه العملية نجحت، وأنك أقوى الآن مما كنت، ما رأيك في واحدة أخرى من عين الحجم؟».

وأجاب جب: «أفضل ألا أفعل، إنني شاكر لك كثيرًا يا سيدي، وأفضل كثيرًا ألا أفعل».

وقال سام: «إذن ما قولك في تناول شيء من الطعام؟».

وأجاب المستر تروتر: «الفضل لمعلمك الفاضل يا سيدي، فقد تناولنا بمنه وكرمه نصف فخذ من الضأن أدخل الفرن قبل الثالثة بربع ساعة ومن تحته البطاطس؛ لنغني عن أنفسنا مؤونة سلقه».

وقال سام: «ماذا أسمع؟ هل كان «هو» الذي يمدكما بالطعام؟».

وأجاب جب: «نعم، بل بأكثر من ذلك يا مستر ويلر، فقد استأجر لنا غرفة حين رأى سيدي في مرض شديد، وكنا من قبل في وجار الكلاب، ودفع عنا الأجرة يا سيدي، وجاء ليتفقد أحوالنا ليلًا، حتى لا يعرف أحد شيئًا عما يفعله» وهنا اغرورقت عيناه لأول مرة بعبرات صادقة ومضى يقول: «إنني لا أتردد يا مستر ويلر في خدمة ذلك السيد حتى أسقط ميتًا عند قدميه».

وقال سام: «اسمع، أنا سأتعبك يا صاحبي، لا تقل مثل هذا الكلام أبدًا».

وبدت الدهشة على وجه المستر تروتر.

وعاد سام يكرر بقوة: «قلت لك لا تتكلم هكذا، فلا أحد يخدمه

سواي، والآن وقد أفهمتك هذا، أحب أن أكاشفك بسر آخر»- وهنا دفع حساب الجعة- ومضى قائلًا: «إنني لم أسمع، انتبه لكلامي- ولم أقرأ في الروايات، ولم أشاهد في الصور ملكًا مثله في أربطته وحذائه وغطاء ساقه، ولا في منظاريه كذلك، وإن كان من الجائز أن يحصل شيء كهذا وأنا لا أعرف، ولكن انتبه لكلامي يا جب تروتر وافهم جيدًا، إنه ملك نشأ نشأة طيبة، وتربى تربية عالية، ودعني أشهد أحدًا يجرؤ على أن يقول لي إنه عرف مَلَكًا[1] أحسن منه!»، وبهذا التحدي وضع المستر ويلر باقي النقود في أحد جيوبه الجانبية وزرره، وانطلق بعدة إيماءات وإشارات مؤكدة لقوله، في طريقه، يبحث عن السيد الذي كان موضوع حديثهما.

ووجدا المستر بكوك يتحدث إلى جنجل بجد ظاهر، غير ملق نظرة على الجماعات المحتشدة في ميدان الكرة، وهي جماعات مختلفة الأشكال والألوان تستحق المشاهدة، ولو من قبيل الفضول والعلم بالشيء لا أكثر ولا أقل.

وكان المستر بكوك يقول حين اقترب سام ورفيقه منهما: «سوف ترى كيف تصبح صحتك، وتفكر في الأمر خلال ذلك وتتدبره، وتعال أبلغني حين تشعر بأنك على هذه المهمة قدير، وسأبحث في الموضوع معك بعد أن أكون قد فكرت فيه ودرسته، والآن عد إلى غرفتك، فإنك متعب ولا تتحمل المكث خارج الغرفة طويلًا».

وانحنى المستر ألفرد جنجل في صمت، وقد فارقته حيويته القديمة

(١) ملاك، قديس.

فلم تبق منها ولا شرارة واحدة، وزال عنه أيضًا كل أثر لذلك المرح الحزين الذي اتخذ سماته حين عثر المستر بكوك عليه أول مرة في شدة بؤسه وفاقته. وأشار جنجل إلى جب ألا يتبعه، وتسلل في بطء منصرفًا.

وقال المستر بكوك، وهو يجيل العين فيما حوله متفكهًا: «هذا منظر غريب يا سام، أليس كذلك؟».

وأجاب سام: «جدًّا يا سيدي»، ثم أضاف إلى ذلك وهو يتحدث لنفسه: «لن تنقطع في هذه الدنيا العجائب، ولست أظنني مخطئًا كثيرًا إذا لم يكن جنجل هذا معتزمًا أن يفعل شيئًا من «فصوله» القديمة!».

وكانت المنطقة التي يحدها الجدار في هذا الجزء من السجن الذي وقف فيه المستر بكوك من الرحابة، بحيث تتسع لميدان فسيح من ميادين الكرة، ولكنها لا تزيد على ذلك، فإن جانبًا منها يتألف طبعًا من الجدار ذاته، ويتألف الجانب الآخر من ذلك الجزء من السجن الذي يطل- أو كان ممكنًا أن يطل لولا قيام ذلك الجدار- على كنيسة القديس بولس، وكان خلق كثير من المدينين رائحين فيه أو غادين، أو جلوسًا في مختلف نواحيه، وهم في فراغ ممل، وتبطل مسئم، بكل مظاهر الفراغ ومختلف أشكاله وصوره، وكان أغلبهم منتظرين اليوم الذي يقدمون فيه إلى محكمة «التفاليس»، وآخرون منهم قد أُمهلوا عدة مهلات للوفاء، أو أُعلنوا بالحضور أمامها في مواعيد مختلفة، فراحوا يقضون المهلات فارغين لاهين ما شاءوا، وكان فريق منهم في ثياب ضيقة، وآخرون في أردية رشيقة، وكثير منهم بادو المقاذر، وقليلهم النظاف، وهم جميعًا في ذلك المكان بين متكئ، ورائح، وغاد، بلا نشاط، ولا همة، ولا غرض،

كأنهم وحوش أوابد في حديقة الحيوان.

ومن النوافذ المطلة على ذلك الممشى الفسيح أشرف فريق آخر، بعضهم في حديث صاخب مع معارفهم في الأدوار السفلى من البناء، والبعض الآخر يلعب الكرة مع بعض رماتها والمطوحين بها وهم وقوف في الميدان، وآخرون قد وقفوا يشاهدون اللاعبين في رحابه، أو يرقبون الغلمان الذين يتصايحون في حماسة لهم، وبين لحظة وأخرى تمر نساء قذرات ينتعلن أخفافًا في طريقهن إلى المطبخ القائم في ركن من الفناء، بينما ترى الأطفال في صراخ أو شجار أو ملاعبة في ركن آخر منه، وقد اختلطت أصوات الكرة وهي تسقط فوق أديم الأرض بصيحات اللاعبين، وغيرها من عشرات الأصوات، حتى ليعج المكان جلبة وضوضاءً، إلا في سقيفة صغيرة حقيرة على قيد خطوات من الفناء، حيث يرقد في سكون رهيب، جثمان موظف المحكمة الذي فارق الحياة في الليلة الماضية، منتظرًا ما يسمى سخرية بالتحقيق في أسباب الوفاة. الجثمان! هذا هو الاصطلاح الذي تواضع عليه رجال القانون في وصف مجموعة الهموم واللهفات والحب والآمال والأحزان، تلك المجموعة القلقة الدوامة المتحركة، التي يتألف منها كيان الإنسان الحي. لقد ظفر القانون بجثمانه، وها هو ذا راقد ملفف في أكفان رهيبة، شاهدًا مروعًا على رحمة القانون وشفقته.

وسأل جب تروتر: «هل تحب يا سيدي أن تشهد دكان الصفير؟».

وسأله المستر بكوك: «ماذا تقصد؟».

وتدخل المستر ويلر فقال: «دكان صفير يا سيدي».

وسأل المستر بكوك: «وما ذاك يا سام، أهو دكان هاوي طيور؟».

وأجاب جب: «سبحان الله يا سيدي، ليس هو كذلك، إن دكان الصفير هو يا سيدي المكان الذي يبيعون فيه المشروبات الكحولية». ومضى المستر جب تروتر يشرح بإيجاز كيف أن لوائح السجن تمنع الاشخاص من نقل هذه المشروبات إلى سجون المدينين، وإلا تعرضوا لعقوبات شديدة، وأن المساجين فيها نساء ورجالًا يؤثرون هذه الأشربة على سواها، ويحبونها حبًّا جمًّا، وقد خطر لبعض السجانين المغامرين في سبيل الكسب الاتفاق سرًّا مع سجينين أو ثلاثة مساجين على بيع شراب «الچن» الأثير عند نزلاء السجن لطلابه سعيًا وراء الربح والانتفاع.

وختم بيانه بقوله: «ومن هذا ترى يا سيدي أن هذه الخطة أخذت تدخل جميع سجون المدينين شيئًا فشيئًا».

وقال سام في أثره: «ولهذه الطريقة مزية كبيرة جدًّا، وهي أن السجانين يحرصون أشد الحرص على القبض على أي إنسان يحاول الإتجار لحسابه، إلا الذين يؤدون إتاوات إليهم، فإذا وصلت الأنباء إلى الصحف راحت تنوه بيقظتهم، وتمتدح همتهم، وهم بذلك يضربون عصفورين بحجر، فيرهبون غير صنائعهم من عاقبة الإتجار بهذه الممنوعات، ويرفع من شأنهم».

وقال جب: «هو ذلك تمامًا يا مستر ويلر».

وقال المستر بكوك: «نعم، ولكن ألا تفتش هذه الحجرات يومًا للتثبت من أنها تحوي هذه الأشربة مخبأة فيها، أو لا تحوي شيئًا منها؟».

وأجاب سام: «تفتش بلا شك يا سيدي، ولكن السجانين يعرفون الموعد مقدمًا، وينبهون أولئك «الصافرين» ليأخذوا حذرهم، وأنت تستطيع أن تصفر لهم حين تذهب لتفتش عن الشراب».

وكان جب في هذه اللحظة قد طرق بابًا، فجاء رجل منفوش الشعر، ففتحه ثم أغلقه وراءهم عقب دخولهم وهو يبتسم، فابتسم جب كذلك، وفعل سام مثله، وعندئذ رأى المستر بكوك أنه قد ينتظر منه هو الآخر أن يبتسم، فلبث مبتسمًا إلى نهاية الاجتماع.

وبدا على السيد ذي الشعر المنفوش الارتياح التام لهذا الإعلان الصامت عن طلبهم، فأخرج زجاجة واسعة الجوف من الفخار قد تتسع لعشرة أكواب، من تحت سريره، فملأ منها ثلاثة أكواب من الچن، فشربها جب تروتر وسام بطريقة تليق بالعمال المهرة في الشراب.

وقال السيد «الصافر»: «هل تطلبون مزيدًا؟».

وأجاب جب تروتر: «كفى».

ودفع المستر بكوك الحساب، وفتح الباب، فخرجوا، بينما راح السيد المنفوش الشعر ينعم بإيماءة ودية على المستر روكر الذي اتفق مروره في تلك اللحظة.

وانطلق المستر بكوك من ذلك الموقع يطوف بكل الدهاليز والردهات، ويصعد ويهبط كل المدارج، ويعود فيُلم بالمنطقة كلها،

فبدا له أن سكان هذا المكان جميعًا، ونزلاءه على بكرة أبيهم، هم ميفنز وسمانجل، والقسيس، والجزار، والنصاب، مضروبين في عشرات من أمثالهم، وأن السجن متشابه الأدوات والطبقات والأرجاء، في القذارة ذاتها، والجلبة عينها، والضوضاء نفسها، وسائر الصفات العامة في كل ركن وزاوية، وبين خيارهم وأشرارهم على السواء، وخيل إليه أن المكان أخلى ما يكون من الهدوء، وأقفر ما يكون من السكينة، وأن أهله في زحام لا ينقطع، ورواح أو غدو مستمر، كأنهم أشباح في حلم ثقيل.

وقال المستر بكوك، وهو يتهالك على مقعد في غرفته الصغيرة: «لقد شهدت ما فيه الكفاية، إن رأسي لمصدع، وإن قلبي لموجع، من هذه المشاهد النكرة، ومن الآن سأظل سجينًا في غرفتي لا أبرحها».

وقد بر المستر بكوك بعهده، ونفذ عزيمته، فلبث ثلاثة أشهر سويًّا في غرفته لا يفارقها نهارًا، وإنما يتسلل منها ليلًا ليستنشق الهواء حين يأوي أغلب زملائه المساجين إلى المضاجع أو يسمرون ويقصفون في داخل حجراتهم، حتى بدأت صحته تعتل من هذا الاحتجاز الشديد، ولكن لم تستطع توسلات بركر المتكررة، ولا إلحاح أصدقائه المستمر، ولا نذر المستر صمويل ويلر ونصائحه المتوالية، أن تثنيه قيد أنملة عن عزمه الذي لا يلين.

* * *

الفصل السادس والأربعون

تصرف يوحي بشعور كريم، وإن لم يخل من فكاهة يعمد إليه المحاميان ددسن وفج

قبل انتهاء شهر يوليو بأسبوع أو قرابته، شوهدت مركبة أجرة ذات حصان واحد، ليس لها رقم، وهي مسرعة في شارع «جزول»، وقد انحشر في جوفها ثلاثة أشخاص غير السائق الذي كان يجلس فوق مقعده الجانبي الصغير، وقد عُلقت على «مشمع» المركبة لفاعتان لسيدتين قصيرتين يبدو عليهما النزوع إلى المشاكسة، والميل إلى الشجار، وبينهما انحشر في موضع ضيق رجل ضخم مستكين، كلما تجرأ فأبدى شيئًا من الملاحظات، عاجلته إحدى هاتين السيدتين الشكستين فأسكتته، وانتهى الأمر على هذا النحو إلى تضارب التوجيهات التي جعلت السيدتان الشرستان والسيد الهادئ يصدرونها إلى السائق، وكانت أوامرهما وأوامره ترمي إلى شيء واحد وهو الوقوف بالمركبة عند باب بيت مسز باردل، وراح الرجل المستكين يعارض السيدتين الشكستين ويتحداهما، ويصر على أن الباب أخضر اللون، لا أصفر الطلاء.

وقال السيد الضخم: «قف بالباب الأخضر أيها السائق».

وصاحت إحدى السيدتين الشكستين: «أيها المخلوق الفاسد، سق بنا إلى البيت الذي بابه أصفر أيها الحوذي».

ولكن السائق وهو يحاول فجأة شد اللجام للوقوف بالباب الأخضر، كان قد جذب الحصان جذبة قوية جعلته يقفز قفزة كادت تلقي به إلى الخلف في المركبة ذاتها، ولكنه تركه حتى هبط الأرض بساقيه الأماميتين، ووقف عن المسير، والتفت إليهم قائلًا: «والآن أمام أي الأبواب أقف، ابحثوا في هذه المسألة فيما بينكم، فإن كل ما أطلبه هو أين تريدون مني أن أقف؟».

وهنا تجدد النزاع واشتدت وطأته، وكانت ذبابة قد حامت حول منخر الحصان فضايقته وجعلته يتحفز ويتواثب، فعمد السائق إلى قضاء فترة فراغه، في عمل إنساني رحيم، وهو ضرب الحصان بالسوط فوق هامته عملًا بمبدأ «مقاومة الاضطراب بمثله».

وقالت إحدى السيدتين الشكستين أخيرًا: «الأغلبية هي التي قرارها ينفذ، البيت الذي يبدو بابه أصفر أيها السائق».

ولكن بعد أن اندفعت المركبة بشكل رائع إلى الباب الأصفر، «محدثة» كما قالت إحدى السيدتين الشكستين بلهجة المنتصرة، ضوضاء أكثر مما لو كان الإنسان قد جاء في مركبة خاصة يمتلكها هو، وبعد أن ترجل السائق لمعاونة السيدتين على النزول، أطل رأس الأستاذ توماس باردل الصغير من نافذة بيت ذي باب أحمر على قيد بضعة بيوت

من البيت الذي وقف السائق ببابه.

وصاحت السيدة الشكسة التي مر ذكرها وهي ترمق السيد الضخم بنظرة ذابلة: «شيء مثير للغضب».

وقال السيد: «ليس الذنب ذنبي يا عزيزتي».

وأجابته السيدة بحدة: «لا تكلمني أيها المخلوق، حذار، قف بالباب الأحمر أيها السائق، أوه! لو كانت في الدنيا امرأة منكوبة برجل يعتز ويلهو بفضح زوجته في كل مناسبة ممكنة أمام الغرباء، فأنا تلك المرأة!».

وقالت السيدة القصيرة الأخرى، ولم تكن سوى مسز كلبنز التي مر من قبل ذكرها: «أولى بك أن تخجل من نفسك يا رادل».

وقال المستر رادل: «ما الذي فعلته؟».

وقالت مسز رادل: «لا تتكلم معي أيها البهيم؛ حتى لا تستفزني إلى نسيان جنسي فأضربك».

وكان السائق خلال هذا الحوار قد أخذ بشكل مخجل كل الإخجال يقود الحصان من لجامه إلى الباب الأحمر، وكان المعلم باردل الصغير قد جاء ففتحه، وكان وصول المركبة إلى بيت صديقه على هذه الصورة غاضًّا من الكرامة، خاليًا من الأبهة التي كانت مسز رادل ترجوها، فلا اندفاع من الحصان نحو الباب، ولا حماسة ولا هياج ولا وثوب بمقدميه، ولا قفز من جانب السائق للمعاونة على النزول، ولا طرق عنيف بالباب، ولا فتح «للمشمع» بقوة في اللحظة الأخيرة، مخافة أن يهب الهواء على

السيدتين، ولا تقديم الملفعتين إليهما بأدب ظاهر كأنه سائق خاص، لقد خلا الأمر من كل طرافة وجاه ومظهر، فكان قدومهما في مركبة أسوأ من مجيئهما مشيًا على الأقدام».

وقالت مسز كلبنز: «كيف حال أمك العزيزة المسكينة يا تمي؟».

وأجاب باردل الصغير: «بخير، وهي جالسة في الغرفة الأمامية لابسة، ومستعدة، وأنا مستعد أيضًا» وهنا وضع يديه في جيبيه، وقفز فوق الدرجة الأولى من سلم الباب.

وقالت مسز كلبنز، وهي تنظم حرملتها: «وهل سيذهب أحد آخر يا تمي؟».

وأجاب تمي: «مسز ساندرز ذاهبة أيضًا، وأنا أيضًا ذاهب».

وقالت مسز كلبنز: «يا للطفل الملعون، إنه لا يفكر إلا في نفسه، اسمع يا تمي، قل لي، يا عزيزي».

وأجاب المعلم باردل: «نعم».

وقالت مسز كلبنز بلهجة الإيحاء: «من الذي سيذهب أيضًا يا حبيبي؟».

وأجاب باردل الصغير وهو يفتح عينيه على سعتهما، وهو يلقي هذا النبأ: «أوه، مسز روجرز أيضًا ستذهب».

وصاحت مسز كلبنز: «ماذا؟ السيدة التي استأجرت الشقة؟».

وراح الصبي يدس يديه في جيبيه أكثر من قبل ويومئ خمسًا وثلاثين

إيماءة بالضبط؛ ليؤكد أنها السيدة الساكنة عندهم، دون أحد سواها.

وصاحت مسز كلبنز: «بالله! إننا سنكون بهذا الشكل حفلًا حافلًا».

وأجاب باردل الصغير: «لو عرفت ماذا في الصوان لقلت هكذا».

وقالت مسز كلبنز مداعبة مغرية: «ماذا فيه، أنا عارفة يا تمي إنك ستقول لي».

وغمغمت مسز كلبنز: «ذلك ولد خبيث وصبي مستفز للشعور، هيا يا تمي، قل لخالتك العزيزة (كلبي)».

وأجاب المعلم باردل: «أمي أوصتني ألا أقول، إنني سآخذ قليلًا منه»، وسره هذا الأمل، فأقبل على القفز والطفر بقوة متزايدة.

وجرى هذا الاختبار للصبي في اللحظات التي كان فيها المستر رادل، ومسز رادل، والسائق، منهمكين في مشادة على الأجر، انتهت لمصلحة الأخير، وجاءت مسز رادل متهادية.

فبادرتها مسز كلبنز قائلة: «ما الذي جرى يا ميري آن؟».

وأجابت مسز رادل: «جرى ما جعلني أرعش من الغيظ والانفعال، إن رادل ليس رجلًا كالرجال، إنه يطرح كل شيء على كاهلي أنا».

ولم يكن هذا القول إنصافًا لحق المستر رادل السيئ الحظ، فإن السيدة الكريمة هي التي أزاحته جانبًا من بداية النزاع، وهي التي أمرته بلهجة قاطعة أن يمسك عليه لسانه، على أنه لم تسنح له فرصة للدفاع عن نفسه إزاء هذا الاتهام؛ لأن مسز رادل أبدت من الأعراض والأمارات الأكيدة ما يوحي بأنها موشكة على الإغماء، وكانت مسز رادل، ومسز

ساندرز، والساكنة الجديدة، وخادمتها قد لاحظن ذلك من النافذة، فاندفعن مهرولات إلى الخارج، وحملنها إلى البيت، وهن يتكلمن جميعًا في وقت واحد ويفهن بعبارات رثاء ومواساة مختلفة، كأنها من أشقى الأحياء على الأرض، وما إن بلغن بها غرفة الجلوس حتى أرقدنها فوق متكأ، وجرت السيدة التي نزلت من الطابق الأول إلى الطابق الأول وعادت بشيء من «النوشادر» فأمسكت برقبة مسز رادل، واستعانت بكل حنان النساء ورحمتهن، فقربت النوشادر من أنفها، حتى بادرت السيدة بعد عدة مقاومات واندفاعات إلى المصارحة بأنها قطعًا أحسن حالًا.

وقالت مسز روجرز: «واحر قلباه لها! إنني أعرف شعورها حق المعرفة».

وتبعتها مسز ساندرز قائلة: «واهًا لها، وأنا كذلك عارفة شعورها»، وتوجعت السيدات كلهن معًا، وقلن إنهن يعرفن ما هنالك، ويرثين لها من أعماق قلوبهن، حتى خادم الساكنة الجديدة، وهي صبية في الثالثة عشرة، ولا يتجاوز طولها ثلاثة أقدام، غمغمت مشفقة راثية».

وقالت مسز باردل: «ولكن ما الذي جرى؟».

وتبعتها مسز روجرز فقالت: «آه ما الذي أفقدك السيطرة على شعورك يا سيدتي؟».

وأجابت مسز رادل بلهجة لوم وتقريع: «لقد أزهقني كثيرًا وهيج شعوري»، وعندئذ ألقت السيدات على المستر رادل نظرات غاضبة.

وقال الرجل السيئ الحظ وهو يتقدم خطوات إلى الأمام: «الواقع

أننا حين نزلنا عند الباب، قام نزاع بيننا وبين سائق المركبة ذات الحصان الواحد..» وهنا أطلقت زوجته صيحة عالية، عند ذكر نوع المركبة التي جاؤوا فيها، فلم يستطع الرجل أن يجعل شرحه للحادث مسموعًا.

وقالت مسز كلبنز: «خير لك أن تتركنا نعيدها إلى سكينتها يا رادل، إنها لن تفيق وتهدأ ما دمت هنا».

ووافقت السيدات جميعًا على هذا الرأي، فدفعن الرجل خارج الغرفة، وطلبن إليه أن يشم الهواء في الفناء الخلفي، ففعل، ولم يمض ربع ساعة، حتى أعلنته مسز باردل وهي عابسة مقطبة أنه قد آن له أن يعود، وإنما يجب أن يكون حريصًا في سلوكه إزاء زوجته، وقالت إنها تعرف أنه لم يقصد أن يكون قاسيًا ولكن «ميري» ليست قوية موفورة الصحة والأعصاب، وإذا هو لم يحتط، فقد يفقدها، وهو لا يدري، ثم يندم بعد ذلك ولات حين ندامة. وسمع المستر رادل ذلك كله في استكانة بالغة، ولم يلبث أن عاد إلى الغرفة، كالحمل الوديع.

وقالت مسز باردل: «يا للعجب! لقد نسينا واجب التعريف، مسز روجرز يا سيدتي، المستر رادل، مسز كلبنز، مسز رادل».

وقالت مسز ساندرز: «وهي أخت مسز كلبنز».

وقالت مسز روجرز بلطف وأدب: «آه، هذا صحيح!» لأنها كانت الساكنة، وخادمتها الوصيفة، فلا عجب إذا هي بدت بحكم مركزها لطيفة ظريفة أكثر منها ولية حميمة وكررت قولها: «هذا حق!»، وابتسمت مسز رادل ابتسامة حلوة، وانحنى المستر رادل، وقالت مسز كلبنز إنها على

يقين من أنها سعيدة كل السعادة أن أتيحت لها فرصة للتعرف بسيدة كمسز روجرز كانت من قبل مثنية عليها أطيب الثناء، وهي تحية قابلتها تلك السيدة بتواضع جميل.

وقالت مسز باردل: «إنني واثقة يا مستر رادل من أنك ستشعر بتكريم وشرف كبير لأنك أنت وتمي السيدان الوحيدان اللذان سيتوليان حراسة عدة سيدات طول الطريق إلى «حديقة الأندلس» في هامستيد، ألا تعتقدين ذلك يا مسز روجرز؟».

وأجابت مسز روجرز: «آه، بالتأكيد يا سيدتي»، وتبعتها السيدات جميعًا قائلات: «آه! بالتأكيد».

وقال المستر رادل وهو يفرك يديه ويبدي ميلًا خفيفًا إلى التهلل قليلًا: «بلا شك يا سيدتي، بل في الحق لقد كنت أقول ونحن قادمون في المركبة ذات الحصان...».

وما كاد الرجل يعود إلى ذكر هذه الكلمة التي أثارت في نفس مسز رادل ذكريات أليمة، حتى عادت تضع منديلها على عينيها، وترسل صرخة مكتومة. فلم يسع مسز باردل إلا أن تعبس في وجه المستر رادل، إشارة إليه بأنه يحسن ألا يقول شيئًا بعد ذلك، وطلبت إلى خادم مسز روجرز بلهجة العظمة أن «تحضر المطلوب».

وكانت هذه هي الإشارة المتفق عليها لإظهار «الكنوز المخبوءة» في الخزانة، وكانت تلك الكنوز تشمل صحافًا مختلفة من البرتقال والبسكويت، وزجاجة من النبيذ المعتق تساوي شلنًا وتسعة بنسات،

وأخرى من شراب الكرز المشهور الوارد من الهند الشرقية، تساوي أربعة عشر بنسًا، وكانت هذه جميعًا قد أحضرت تكريمًا للساكنة الجديدة، وقوبلت من الجميع باغتباط لا حد له. وبعد أن استولى الارتباك الشديد على مسز كلبنز حين حاول الصبي تمي أن يحكي كيف سألته واستجوبته عما كان في الخزانة، ولكن هذه المحاولة لم تلبث أن قضي عليها في المهد؛ لأنه شرب نصف كأس من النبيذ المعتق، تسرب بعضها إلى القصبة الرئوية، فتعرضت بذلك حياته للخطر بضع ثوان. وانطلق الجمع للبحث عن مركبة تقلهم إلى هامستيد، وما لبثوا أن وجدوها فوصلوا بعد ساعتين سالمين إلى حديقة الأندلس وهي حديقة شاي، وكاد أول عمل أتاه المستر رادل المنحوس يفضي إلى إغماء زوجته الطيبة، فقد طلب شايًا لسبعة، على حين أنه كان من السهل كما قالت السيدات جميعًا أن يشرب تمي من فنجان أية سيدة، أو من كل فنجان، إذا كان هذا هو كل ما في الأمر، كلما كان الخادم غير ملتفت إليهم، وهذا من شأنه أن يوفر طلبًا، ويبقى الشاي شهيًّا، لا فرق بين سبعة فناجين أو غير سبعة.

ولم يكن ثمة حيلة، فقد أقبل الغلام «بصينية» الشاي وسبعة فناجين وأطباق وخبز وزبد يكفي عدد الشاربين! وأجمعت الأصوات على انتخاب مسز باردل لكرسي الرياسة، فتصدرت المائدة، وجلست مسز روجرز عن يمينها، ومسز رادل عن يسارها، وبدأت الحفلة في مرح شديد وتوفيق.

وقالت مسز روجرز وهي تتنهد: «حقًّا ما أجمل الريف! أكاد أتمنى

لو عشت فيه أبدًا».

وأجابت مسز رادل بعجلة، فقد شعرت بأنه لا يحسن مطلقًا فيما يتصل بمسألة السكن تشجيع أفكار من هذا القبيل: «لا أظنك تطيقين المقام فيه يا سيدتي ولا أحسبه يروقك».

وقالت مسز كلبنز الصغيرة: «أوه! إني لأعتقد أنك من كثرة النشاط، وإقبال الناس على مجالسك، والتماسهم شهي أحاديثك، بحيث لا تقنعين بالحياة في الريف يا سيدتي».

وأجابت الساكنة التي في الطابق الأول: «أظنني كذلك، أظنني كذلك».

وانبرى المستر رادل يقول، وهو يحاول استعادة شيء من المرح، ويتلفت حوله: «إن الريف جميل طيب المقام، للذين يعيشون وحدهم ولا يجدون أحدًا يعني بهم، أو يتولى رعاية شؤونهم، والذين أوذوا في إحساسهم، ونزلت المكاره بساحتهم، إن الريف كما يقولون ملائم للنفوس الجريحة، والقلوب القريحة».

وكان أي كلام غير هذا أفضل كثيرًا من هذا القول الذي قاله ذلك الرجل المنحوس، فلا عجب إذا انفجرت العبرات من عيني مسز باردل على أثره، وطلبت أن تنقل في الحال من موضعها بعيدًا عن المائدة، ورأى الصبي أمه باكية، فبدأ هو كذلك يبكي بحزن شديد.

وصاحت مسز رادل، وهي تلتفت بشدة إلى الساكنة في الدور الأول: «هل يصدق أحد يا سيدتي أنه من الجائز أن تتزوج امرأة بمخلوق

وحش كهذا يعبث بشعور امرأة هذا العبث، كل ساعة من ساعات اليوم يا سيدتي؟».

وقال المستر رادل محتجًا: «لم أقصد شيئًا يا عزيزتي».

وأجاب مسز رادل بسخرية واحتقار بالغين: «لم تقصد! ابعد عني، لا أطيق رؤيتك أيها الوحش!».

وتدخلت مسز كلبنز قائلة: «لا تهيجي نفسك يا ميري آن، وتنفعلي، يجب أن تراعي صحتك يا عزيزتي، فإنك لا تراعينها مطلقًا، وأنت يا رادل قم من هنا، من فضلك، وإلا زدتها انفعالًا وهياجًا».

وقالت مسز روجرز وقد عادت إلى «النوشادر» تعالج به إفاقتها: «يحسن أن تتناول شايك بمفردك يا سيدي».

وكانت مسز ساندرز كعادتها في شغل شاغل بالخبز والزبد، وأيدت هذا الرأي أيضًا، فلم يسع المستر رادل إلا أن يتنحى في سكون.

وتلا ذلك رفع باردل الصغير ليهبط في أحضان أمه، وكان من حيث الحجم كبيرًا على الاحتضان، فلم يلبث في أثناء عملية رفعه أن صدمت رجله صينية الشاي، فأحدثت اضطرابًا بين الفناجين والصحاف. ولكن هذا الذي اعتدنا أن نصفه بنوبات الإغماء، ونعرف أنه سريع العدوى بين النساء، قلما يطول. فلا غرو إذا رأينا مسز باردل بعد أن قبلت الصبي ما شاء الله أن تقبله، وتنوح من أجله النواح الذي يرضيها، أن ثابت إلى نفسها، وأنزلته من أحضانها، وأبدت عجبها من هذا التصرف الأحمق الذي بدر منها، وانثنت تسكب قليلًا من الشاي ثانية.

وفي تلك اللحظة ارتفعت إلى آذانهم حركة مركبة مقتربة، فتطلعت السيدات بأبصارهن، فإذا هن يشهدن مركبة أجرة تقف بباب الحديقة.

وقالت مسز ساندرز: «أناس آخرون؟».

وقالت مسز رادل: «إن القادم رجل».

وصاحت مسز باردل: «إذا كان القادم هو المستر جاكسن الشاب الذي يعمل في مكتب ددسن وفج، فإني أدرك من ذلك أن المستر بكوك لا يمكن أن يكون قد أدى التعويض، يا إلهي!».

وتلتها مسز كلبنز فقالت: «أو عرض الزواج».

وصاحت مسز روجرز: «يا للعجب! ما باله يبدو بطيئًا هكذا! لماذا لا يسرع؟».

ولم تكد تقول ذلك حتى تحول المستر جاكسن عن المركبة، وكان قبل ذلك يوجه بعض الملاحظات إلى رجل في ثياب قديمة، وطماق أسود خرج عندئذ من المركبة يحمل عصا من شجر الدردار، واتخذ سبيله إلى الموضع الذي كانت السيدات جالسات لديه، وأخذ يلف شعره حول حاشية قبعته ويتقدم نحوهن.

وابتدرته مسز باردل قائلة في لهفة: «هل حدث شيء؟ هل من شيء جديد يا مستر جاكسن؟».

وأجاب المستر جاكسن: «لا شيء مطلقًا يا سيدتي، كيف حالكن يا سيداتي؟ أستميحكن المعذرة عن التطفل عليكن، ولكن القانون يا سيداتي، القانون»، وابتسم المستر جاكسن بعد هذا الاعتذار، وانحنى

انحناءة شاملة للجميع، وعاد يلف شعره حول حاشية قبعته، وهمست مسز روجرز لمسز رادل قائلة إنه في الواقع رجل رشيق.

ومضى جاكسن يقول: «لقد ذهبت إلى شارع جزول، فعلمت أنكن هنا من الخادم، فاستقللت مركبة وجئت، إن جماعتنا يطلبونك في المدينة حالا يا مسز باردل».

وصاحت السيدة في دهشة من هذا النبأ الفجائي: «رباه!».

وقال جاكسن وهو يعض شفته: «نعم، إن المسألة مهمة جدًّا وعاجلة لا يمكن تأجيلها بأي حال من الأحوال، فقد قال لي ددسن ذلك صراحة، وكذلك قال فج لي، ولهذا أبقيت المركبة عمدًا لكي تعودي فيها».

وصاحت مسز باردل: «ما أغرب هذا!».

ووافقت السيدات على أن الأمر حقًّا جد غريب، ولكنهن أجمعن على رأي واحد، وهو أنه لا بد من أن يكون على جانب كبير من الأهمية، وإلا لما فكر ددسن ولا فج في إيفاد هذا الرسول، وأنه ما دام الأمر كذلك عاجلًا، فلا مفر من ذهابها إليهما بلا أدنى تأخير.

وكان في طلب المحاميين قدومها، على عجل شديد كهذا، شيء من الكبرياء والزهو والرفعة، فلم تستأ مسز باردل منه، ولا سيما إذا كان من الجائز أن يرفع شأنها في عيني الساكنة في الطابق الأول، ولكنها ابتسمت قليلًا بسمة تأفف، وتظاهرت بغيظ شديد، وادعت التردد، وأخيرًا انتهت إلى القول: بأنها تظن أن من واجبها أن تذهب.

وقالت مسز باردل بلهجة الحض والترغيب: «ولكن ألا تتناول شيئًا

من المرطبات، بعد أن قطعت هذه المسافة يا مستر جاكسن؟».

وأجاب جاكسن: «في الواقع ليس ثمة متسع من الوقت، هذا إلى أن معي صديقًا»، والتفت صوب الرجل الذي يحمل العصا المصنوعة من خشب الدردار.

وقالت مسز باردل: «أوه، ادع صديقك إلى هنا يا سيدي، أرجوك أن تدعوه إلى هنا».

وأجاب جاكسن في شيء من الارتباك: «شكرًا! إني أفضل ألا أدعوه؛ لأنه لم يعتد كثيرًا مجلس السيدات، فهو يخجل في حضرتهن، ولو طلبت إلى الخادم أن يأتيه بشيء يسير، فإنه لا يتناوله سريعًا، بل سوف يتمكث في شربه، ألا تحسبينه فاعلًا؟ ما عليك إلا أن تجربيه!» وراحت أنامل المستر جاكسن تعبث حول أنفه حين بلغ هذا الحد من أقواله؛ لكي ينبه سامعيه إلى أنه إنما يقول ذلك تهكمًا.

وأرسل الغلام في الحال إلى السيد الخجول، وتناول السيد الخجول شيئًا، كما تناول المستر جاكسن شيئًا، وتعاطت السيدات كذلك أشياء، احترامًا لمقتضيات الضيافة، وقال المستر جاكسن عندئذ: إنه يخشى أن يكون الوقت قد حان للذهاب، وهنا دخلت مسز ساندرز ومسز كلبنز وتمي الذي تم الاتفاق على أن يرافق أمه، في جوف المركبة، تاركتين للمستر رادل حماية الآخرين.

وقال جاكسن حين همت مسز باردل بدخول المركبة، وهو يتطلع إلى الرجل حامل العصا المصنوعة من خشب الدردار، وكان قد اتخذ

مجلسه فوق مقعدها وراح يدخن لفافة كبيرة: «إيزك».

وأجاب هذا قائلًا: «نعم!».

قال: «هذه هي مسز باردل!».

وأجاب الرجل: «أوه، إني أعرف ذلك منذ وقت طويل».

ودخلت مسز باردل المركبة، ودخل المستر جاكسن في أثرها، فانطلقت بهم، ولم تستطع مسز باردل أن تحاجز نفسها عن التفكير فيما قاله صديق المستر جاكسن، وقالت مناجية: «يا لأولئك المحامين من مخلوقات دهاة! يا عجبًا، إنهم ليهتدون إلى الناس أينما كانوا!».

وأنشأ جاكسن يقول حين تبين له أن مسز كلبنز ومسز ساندرز قد غلبهما النعاس: «إن مسألة أتعاب محامينا أمر محزن، أليس كذلك؟ أقصد الأتعاب التي يطلبانها منك».

وأجاب مسز باردل: «إنه ليحزنني أنهما لا يستطيعان الحصول عليها، ولكن إذا كان المحامون يقبلون قضايا كهذه على سبيل المغامرة، فأحرى عليهم أن يتوقعوا الخسارة بين حين وآخر، كما لا يخفى عليك».

وقال جاكسن: «ولكني أعلم أنك أعطيتهما إقرارًا بمبلغ الأتعاب المطلوبة منك، عقب الحكم في القضية».

قالت: «نعم، لمجرد الشكليات ليس إلا».

وأجاب جاكسن بفتور: «بلا شك، مسألة شكليات، شكليات محضة».

وانطلقت المركبة بهم، واستولى النعاس على مسز باردل، وأفاقت بعد فترة من الوقت، عندما وقفت المركبة بهم.

قالت: «يا للعجب! هل نحن في محكمة فريمن؟».

وأجاب جاكسن: «لسنا ذاهبين إلى هذا الحد، تفضلي بالنزول».

وامتثلت مسز باردل، وإن لم تفق تمامًا من النعاس، وكان الموضع غريبًا عنها، جدار شاهق، وباب في وسطه، وقنديل زيت يضيء في الداخل.

وصاح الرجل ذو العصا وهو ينظر إلى جوف المركبة ويهز مسز ساندرز لتفيق من النوم: «والآن أيتها السيدات، هيا». وراحت مسز ساندرز توقظ صديقتها وتنزل من المركبة، بينما استندت مسز باردل إلى ذراع جاكسن وتناولت تمي بيدها، ودخلت من الباب، والآخرون في أثرها.

وكانت الغرفة التي عرجوا عليها أعجب شكلًا من الباب ذاته، فقد رأوا خلقًا كثيرًا وقوفًا في أرجائها، وهم محملقو الأبصار من العجب!

ووقفت مسز باردل وأنشأت تسأل قائلة: «أي مكان هذا؟».

وأجاب جاكسن وهو يدفع بها في عجلة لتدخل من الباب، وينظر خلفه ليستوثق من أن النساء الأخريات يتبعنها: «إنه ليس إلا مكتبًا من المكاتب الحكومية، كن يقظًا يا إيزك!».

وأجاب الرجل ذو العصا المصنوعة من شجر الدردار: «اطمئن، فكل شيء على ما يرام».

ودار الباب بشدة في أثرهم ومضوا يهبطون بضع مدارج.

وقال جاكسن وهو يتلفت حوله في سرور بالغ: «ها نحن أولاء قد وصلنا أخيرًا بسلام وأمان يا مسز باردل».

وقالت مسز باردل بقلب خافق: «ماذا تعني؟».

وأجاب جاكسن، وهو ينتحي بها جانبًا: «أعني هذا، لا تخافي يا مسز باردل، فليس في العالم كله رجل أرق حاشية من ددسن يا سيدتي، ولا أكثر إنسانية من فج، ولكن كان من واجبهما، من الناحية العملية أن ينفذا عليك الحكم نظير أتعابهما، وقد عنيا عناية خاصة بمراعاة شعورك قدر إمكانهما، وأكبر ظني أنك مرتاحة إلى هذا الإجراء الذي تم اتخاذه إذا فكرت في الأمر مليًّا، هذا هو سجن فليت يا سيدتي، أتمنى لك ليلة طيبة يا مسز باردل، طاب ليلك يا تمي!».

وفيما كان جاكسن ينطلق مسرعًا مع الرجل ذي العصا المصنوعة من خشب الدردار إذ تقدم رجل آخر يحمل مفتاحًا في يده، وكان من قبل واقفًا يشاهد هذا المنظر، وتقدم إلى المرأة الذاهلة، فمشى بها إلى درج قصير آخر يفضي إلى باب، فلم تلبث مسز باردل أن أطلقت صراخًا شديدًا، وزأر تمي زئيرًا، وانزوت مسز كلبنز رعبًا، وانطلقت مسز ساندرز لا تلوي على شيء، فقد بدا المستر بكوك الذي لحقه الأذى واقفًا حيالهما، يتنسم الهواء كعادته كل ليلة، ووقف بجانبه صمويل ويلر، وما كاد هذا يبصر مسز باردل حتى رفع قبعته باحترام ساخر، بينما تولى سيده معرضًا في غضب ظاهر.

وقال السجان لويلر: «لا تضايق المرأة، إنها قدمت اللحظة فقط».

وقال سام وهو يعيد بسرعة قبعته إلى رأسه: «أسجينة هي؟ ومن الشاكي؟ ومِمَّ الشكوى؟ تكلم يا صاح».

وأجاب الرجل: «ددسن وفج، تنفيذ إقرار بالأتعاب».

وصاح سام وهو يندفع في الممر: «يا جب، يا جب! اذهب مسرعًا إلى المستر بركر يا جب، إنني بحاجة إليه حالًا، فإني أرى خيرًا في هذا ونفعًا، هذا فصل بديع، ولكن أين المعلم؟».

ولكنه لم يتلق جوابًا، فقد انطلق جب كمن به جنة، بمجرد تلقيه هذه المهمة، بينما انتابت مسز باردل إغماءة حقيقية صادقة في هذه المرة».

* * *

الفصل السابع والأربعون

أكثر ما يبحث فيه مسائل أعمال، والفائدة الموقوتة التي عادت على ددسن وفج، وعودة المستر ونكل إلى الظهور في ظروف غير مألوفة، وكيف تبين أن بر المستر بكوك أقوى من عناده

ولبث جب تروتر يعدو غير مخفف من سرعته صوب «هولبورن»، سائرًا في عرض الطريق أحيانًا، وفوق الإفريز أحيانًا أخرى، وفوق البالوعات والمجاري تارة، تبعًا لتباين وطأة زحام السابلة من الرجال والنساء والأطفال والمركبات في كل مشروع من مشارع الطريق العام، غير عابئ بالحوائل، ولا متمهل لحظة في مسيره، حتى وصل إلى باب جريز إن. ولكنه رغم كل هذه السرعة التي قطع الطريق بها، وجد الباب مغلقًا منذ نصف ساعة قبل وصوله، وما كاد يهتدي إلى الغسالة التي تتولى خدمة المستر بركر، والتي تقيم مع ابنة لها متزوجة رضيت أن تهب يدها لغلام غير مقيم في أحد الفنادق، ويشغل غرفة في مسكن ما بشارع قريب من مصنع للجعة قائم خلف «جريز إن»، حتى لم يكن قد بقي على موعد إغلاق أبواب السجن دليلًا غير خمس عشرة دقيقة.

ولا يزال الأمر مقتضيًا إخراج المستر لوتن من الغرفة الخلفية في حانة «الماجباي واسطمب»، وما إن حقق جب هذا الغرض وأبلغه رسالة سام ويلر، حتى دقت الساعة عشرًا.

وقال لوتن: «الوقت الآن متأخر جدًّا، ولن تستطيع العودة إلى السجن، إلا إذا كان معك المفتاح الخارجي يا صديقي».

وأجاب جب: «لا ينشغل بالك بأمري، ففي إمكاني أن أنام في أي مكان، ولكن ألا ترى أنه يحسن أن نقابل المستر بركر الليلة حتى يتسنى لنا أن نكون هناك عند طلوع النهار؟».

وأجاب لوتن بعد أن فكر قليلًا: «لو كان الأمر يتعلق بإنسان آخر لما ارتاح المستر بركر أبدًا لذهابي إلى منزله في هذه الساعة، ولكن ما دام الأمر متعلقًا بالمستر بكوك، فإني أعتقد أنه لا بأس من الإقدام على أخذ مركبة ومحاسبة المكتب على الأجر».

وما إن قرر المستر لوتن الأخذ بهذه الفكرة حتى تناول قبعته، وطلب إلى الزملاء المجتمعين تعيين نائب رئيس في غيبته إلى حين، وسار مع جب إلى أقرب موقف للمركبات، ونادى سائق أحسن مركبة شكلًا، وطلب إليه أن يسوق إلى شارع مونتاجيو في ميدان رسل.

وكان المستر بركر قد أقام حفلة عشاء في ذلك اليوم، كما يبدو من الأنوار الساطعة في نوافذ قاعة الطعام، وصوت معزف كبير أدخل عليه شيء من التحسين، وأنغام منبعثة منه قابلة للتحسين، ورائحة عباقة من اللحوم منتشرة في أفق السلم والمدخل. والواقع أنه اتفق قدوم مندوبين

عن بعض الوكالات الكبيرة في الريف إلى المدينة في وقت واحد، فتألفت حفلة صغيرة للائتناس بهم، من المستر اسنكس أمين مكتب التأمين على الحياة، والمستر بروزي المستشار الكبير، وثلاثة محامين، وقاضٍ من محكمة التفاليس، ومحامٍ مترافع من التمبل، وتلميذ له في ريعان العمر صغير العينين وضع كتابًا قيمًا عن «قانون التركات»، ملأه بتعليقات وهوامش ونصوص ومراجع، وغيرهم من كبار ذوي المكانة ورفيعي الأقدار. واستأذن المستر بركر من هؤلاء السادة حين جاء الخادم فهمس له أن كاتبه قد حضر، فذهب إلى قاعة الطعام فوجد المستر لوتن وجب تروتر وهما يبدوان قاتمين كالأشباح على ضوء شمعة من شموع المطبخ جاء فوضعها فوق المائدة السيد الذي تنازل فبدا في سراويل قصيرة وملابس داخلية من القطن، لقاء أجر يتقاضاه كل أربعة أشهر، وهو ينظر باحتقار إلى الكاتب وكل ما يتعلق بالمكتب.

وقال المستر بركر وهو يغلق الباب: «والآن يا لوتن ما الخبر؟ ألم يأت خطاب هام في طرد؟».

وأجاب لوتن: «كلا يا سيدي، هذا رسول من قبل المستر بكوك يا سيدي».

وقال المستر بركر وهو يلتفت بسرعة إلى جب: «من المستر بكوك، آه؟ حسن... ماذا وراءك؟».

وأجاب جب: «إن ددسن وفج استصدرا حكمًا بالسجن على مسز باردل وفاء لأتعابهما يا سيدي».

وصاح بركر هو يضع يديه في جيبيه، ويستند إلى المنضدة الجانبية: «لا تقل هذا!».

وأجاب جب: «بل هو الواقع، والظاهر أنهما استخلصا منها إقرارًا بها عقب المحاكمة مباشرة».

وصاح بركر وهو يخرج يديه من جيبيه ويضرب بعقد يمناه راحة يسراه مؤكدًا: «يمين الله! إنهما لأبرع نصابين عرفتهما في حياتي!».

وقال لوتن: «وأحذق من عرفت ياسيدي من بين المشتغلين بالمهنة».

وردد بركر هذه العبارة قائلًا: «حاذقين! لا يعرف أحد كيف يمسك بهما».

وأجاب لوتن: «هذا صحيح جدًّا ياسيدي. لا يعرف أحد كيف يمسك بهما»، ولبث المحامي وكاتبه يفكران بضع ثوان وعلى وجهيهما أمارات الحماسة والجد كأنهما يفكران في اكتشاف من أجمل وأروع الاكتشافات التي يمكن أن يتوصل إليها يومًا العقل البشري، وما كادا يفيقان نوعًا ما من غيبوبة هذا الإعجاب، حتى أنشأ جب تروتر يشرح بقية الرسالة التي حملها، وأطرق بركر مفكرًا وأخرج ساعته من جيبه.

وقال الرجل الصغير الجسم: «الساعة العاشرة تمامًا سأكون هناك، إن سام على حق، قل له هذا، ألا نتناول كأسًا من النبيذ يا لوتن؟».

وأجاب هذا: «شكرًا لك يا سيدي».

وقال بركر وهو يلتفت إلى المنضدة الجانبية ليتناول زجاجة وقدحين: «أظنك تعني نعم».

وكان لوتن يعني «نعم» فعلًا، فلم يسترسل في الموضوع، بل انثنى إلى جب فسأله بهمس مسموع عن رأيه في صورة بركر المعلقة قبالة الموقدة: «هل تشبهه إلى حد يثير العجب أو لا؟» فأجاب جب: بطبيعة الحال إنها لكذلك. وكان النبيذ عندئذ قد سكب في كأسيهما، فشرب لوتن في صحة مستر بركر والأولاد، وشرب جب في صحة بركر، ورأى السيد البادي في السراويل القصار، أنه ليس ملزَمًا أن يتقدم أشخاصًا من خدم المكتب إلى الباب، بينما عاد المحامي إلى قاعة الطعام، وذهب الكاتب إلى مجلسه المعتاد في حانة «الماجباي» وقصد جب إلى سوق «كوفنت جاردن» لقضاء الليلة في سلة خضر!

وفي تمام الموعد المضروب في صباح اليوم التالي كان المستر بركر يدق باب غرفة المستر بكوك وهو منتعش صافي المزاج.

وخف سام ويلر إلى فتحه، وأعلن المستر بكوك بقدوم الزائر قائلًا: «المستر بركر يا سيدي»، وكان المستر بكوك في تلك اللحظة جالسًا عند النافذة مستغرقًا في التفكير، وانثنى سام إلى المحامي فقال: «يسرني كل السرور أنك جئت مصادفة يا سيدي، فإني أعتقد أن المعلم يريد أن يقول لك كلمة ونصف كلمة».

وألقى المستر بركر نظرة ذكية إلى سام توحي بأنه قد فهم المراد، وأدرك أنه لا ينبغي أن يقول إنه قد طلب إليه المجيء، وأشار إليه أن يقترب وهمس في أذنه كلامًا موجزًا.

وقال سام متراجعًا من فرط الدهشة: «أتعني هذا حقًّا يا سيدي؟».

وأومأ بركر وابتسم.

ونظر المستر صمويل ويلر إلى المحامي، ثم إلى المستر بكوك، وعاد ينظر إلى بركر، وابتسم ثم أرسل ضحكة عالية، وأخيرًا التقط قبعته من فوق البساط واختفى بغير شرح آخر أو بيان.

وسأل المستر بكوك وهو ينظر إلى بركر بدهشة: «ما معنى هذا؟ وما الذي جعل سام يبدو على هذه الصورة غير المألوفة؟».

وأجاب بركر: «أوه، لا شيء لا شيء، والآن أقبل يا سيدي العزيز وقرّب كرسيك من المنضدة، فإن عندي أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك».

وقال المستر بكوك حين رأى المحامي يضع فوق النضد رزمة صغيرة من الوثائق مربوطة بشريط أحمر: «ما هذه الأوراق؟».

وأجاب بركر وهو يفك العقدة بأسنانه: «أوراق قضية باردل وبكوك».

وأراح المستر بكوك أرجل مقعده حتى حكت الأرض، وألقى بنفسه عليه، وشبك يديه، ونظر نظرة صارمة، إن صح أن المستر بكوك على هذه النظرة يومًا قادر، وانتظر ماذا يقول رجل القانون صديقه.

وقال هذا وهو لا يزال منشغلًا بفك العقدة: «ألا تحب سماع اسم القضية؟».

وأجاب المستر بكوك: «لا أحب سماعه فعلًا».

واستتلى بركر قائلًا: «آسف لذلك؛ لأنه سيكون موضوع حديثنا».

وقاطعه المستر بكوك في عجلة قائلًا: «إنني لأوثر ألا يرد لهذا الموضوع ذكر بيننا مطلقًا يا سيدي».

وقال المحامي الصغير الجسم، وقد فك الرزمة ونظر بلهفة إلى وجه المستر بكوك من زاويتي عينيه: «يوه، يوه، يا سيدي العزيز، ولكن ليس من ذكره بد، لقد أتيت إلى هنا لهذا الغرض خاصة، والآن هل أنت على استعداد لسماع ما سأقوله يا سيدي العزيز؟ لا عجلة، فإذا لم تكن مستعدًا ففي وسعي أن أنتظر، وقد جئت معي بجريدة الصباح لمطالعتها، ووقتي تحت تصرفك، هأنذا بادئ القراءة»، وراح الرجل يضع ساقًا فوق أخرى، متظاهرًا بأنه سيبدأ القراءة بكل هدوء وجد.

وقال المستر بكوك وهو يرسل زفرة، ثم يتلطف فيبتسم في الوقت ذاته: «حسن، حسن، قل ما بدا لك، لعلها القصة القديمة؟».

وأجاب بركر وهو يطوي الجريدة بتؤدة ويردها إلى جيبه: «مع فارق واحد يا سيدي العزيز، فارق واحد، وهو أن مسز باردل المدعية في هذه القضية هي الآن حبيسة بين هذه الجدران يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك: «أعرف ذلك».

وواصل بركر حديثه قائلًا: «جميل جدًّا، وتعرف أيضًا كيف جاءت إلى هنا، أقصد أن أقول ما هي الأسباب، وبناء على طلب مَنْ؟».

وقال المستر بكوك متظاهرًا بالاستخفاف: «نعم، أو على الأقل لقد سمعت رواية سام عنها».

وأجاب بركر: «إن روايته صحيحة تمامًا إذا أردت الحق، والآن إن

أول سؤال أجدني مضطرًا إلى توجيهه إليك هو: هل المراد أن تبقى هذه المرأة هنا؟».

وردد المستر بكوك العبارة ذاتها: «تبقى هنا!».

ومضى بركر قائلًا وهو يسند ظهره إلى المقعد ويتفرس في وجه موكله: «نعم، هل تبقى هنا يا سيدي العزيز؟».

وقال المستر بكوك: «وكيف يمكن أن تسألني هذا السؤال، إن الأمر يتعلق بددسن وفج، وأنت تعلم ذلك حق العلم».

وأجاب بركر بلهجة قوية: «لا أعلم شيئًا كهذا، بل أعرف أنه ليس رهنًا بإرادة ددسن وفج، وأنت تعرفهما يا سيدي العزيز كما أعرفهما تمامًا، ولكن الأمر كله وبجملته رهن بمشيئتك أنت وحدك».

وصاح المستر بكوك وهو ينهض بانفعال من مقعده ثم يعاود الجلوس في الحال: «بمشيئتي أنا!».

وطرق المحامي غطاء حق السعوط طرقتين اثنتين، وفتحه، وتناول قدرًا كبيرًا منه ثم أغلقه وكرر قائلًا: «نعم، بمشيئتك أنت».

وكأنما استمد المستر بركر قوة وطمأنينة من السعوط فمضى يقول: «اسمع ما أقوله إلى آخره يا سيدي العزيز.. إن سرعة إطلاق سراحها، أو بقاءها في السجن إلى ما شاء الله، رهن بمشيئتك، ومشيئتك وحدك، اسمعني إلى النهاية يا سيدي العزيز من فضلك، ولا تكن هكذا متحفزًا هائجًا؛ لأن ذلك سيجعلك تتصبب عرقًا، وليس في ذلك خير أو فائدة لك مطلقًا».

ومضى بركر يقول، وهو يعد على أصابعه كل نقطة من نقاط كلامه بمجرد الفراغ منها: «أولًا ليس في إمكان أحد أن ينقذها من هذه البؤرة الفاسدة سواك، وثانيًا ألا سبيل أمامك إلى إنقاذها منها غير أداء نفقات هذه القضية وأتعابها المطلوبة من المدعية والمدعى عليه بالسواء إلى يدي هذين الحوتين المفترسين. والآن أرجوك أن تهدأ يا سيدي العزيز».

وكان وجه المستر بكوك خلال هذا الحديث يبدو متغيرًا إلى حد يثير الدهشة المتناهية، وكان الرجل على وشك الانفجار من سورة الغضب، ولكنه لم يلبث أن هدأ من ثائرته قدر إمكانه. وعاد بركر يعزز قوى حججه بقدر آخر من السعوط، ومضى يقول:

«وقد رأيت هذه المرأة في هذا الصباح، وأنت بأدائك الأتعاب تستطيع أن تحصل على إبراء تام من التعويض وإفراج في الحال، وهناك أمر آخر أعتقد أنه أحق لديك بالاعتبار يا سيدي العزيز، وذلك أن هناك إقرارًا اختياريًّا بخط يدها، في صورة كتاب موجه إليَّ بالذات، تعترف فيه بأن المسألة التي كانت موضوع النزاع أمام القضاء كانت من أولها إلى آخرها بإيعاز وتحريض من ددسن وفج، وأنها آسفة أصدق الأسف على أنها كانت أداة مسخرة لإيذائك وإزعاجك، وأنها لهذا ترجوني أن أتوسط لديك، وأطلب العفو عنها وأستميحك الغفران».

وقال المستر بكوك بغضب: «إذا أنا طبعًا توليت عنها أداء الأتعاب إنها لوثيقة قيمة حقًّا!».

وأجاب بركر بلهجة الانتصار: «ليس في الموضوع «إذا» يا سيدي

العزيز، بل هناك هذا الكتاب بالذات الذي أتحدث عنه، جاءت به إلى مكتبي امرأة أخرى في التاسعة من هذا الصباح، قبل أن تطأ قدمي هذا المكان أو أتصل بمسز باردل نفسها، أقسم لك بشرفي أن هذا هو ما حدث تمامًا». وانتزع الخطاب من الرزمة وألقاه عند مرفق المستر بكوك ولبث دقيقتين يتناول سعوطًا وهو لا يطرف بعينيه».

وقال المستر بكوك برفق: «أهذا هو كل ما أردت أن تقوله لي؟».

وأجاب بركر: «ليس هذا هو كل ما أريد أن أقول تمامًا، وليس في إمكاني في اللحظة الراهنة أن أقول هل ستكون صيغة «الإقرار» الذي كتبته المرأة بإيعاز من محامييها، ومدى الاعتبارات الظاهرة أمامنا، والدليل الذي نستطيع معًا أن نقيمه من واقع تطورات القضية ومراحل سيرها، كافية لتبرير اتهامهما «بالتواطؤ»، أخشى ألا تكون كافية يا سيدي العزيز؛ لأنهما أبرع وأذكى من أن يستهدفا لمثل هذا الاتهام، بل أشك في نجاحه، ولكني أريد مع ذلك أن أقول إن الوقائع إذا أخذت مجتمعة فسوف تكون مبررًا كافيًا لتبرئتك في أعين جميع العقلاء مما اتهمت ظلمًا به، والآن يا سيدي العزيز ألخص لك الموقف فيما يلي: إن هذه المائة والخمسين جنيهًا أو المبلغ أيًّا ما يكون، إذا قربناه إلى عشرات الجنيهات ليس شيئًا يذكر بالنسبة إليك، وقد حكم المحلفون ضدك، لقد كان حكمهم ظالمًا خاطئًا، فليكن ذلك ولكنهم إنما قرروا ما قرروه اعتقادًا منهم أنه الحق، وهذا القرار ضدك، وأمامك الآن فرصة هنية مواتية لتضع نفسك في مكانة أعلى كثيرًا مما هي، تستطيع بلوغها ببقائك هنا؛ لأن الذين لم يعرفوك لن يعللوه إلا بأنه مجرد اختلال عقلي، وعناد

سخيف، ولا شيء غير ذلك يا سيدي العزيز، فهل تتردد في تحامي هذا التعليل، هل تأبى إلا البقاء، ولا تريد أن تعود إلى أصدقائك، وجهودك القديمة، ومساعيك الغر، وصحتك، وألوان لهوك البريء؟ بل هل تأبى إلا أن يبقى خادمك الوفي الأمين في السجن معك طيلة حياتك؟ ولا تنس قبل كل شيء أن استجابتك ستمكنك من الأخذ بثأر كريم أعرف يا سيدي العزيز أنه ثأر يسكن إليه فؤادك، ويرتاح إليه خاطرك، وهو إعفاء هذه المرأة من مشاهد الشقاء والدعارة والفساد التي ما كنت لأرضى أن يتعرض رجل لمثلها إذا كان الأمر في يدي، فما بالك بتعريض سيدة لها، إن ذلك لأشنع وأرهب وأشد وحشية. والآن أسألك يا سيدي العزيز، لا بوصفي مستشارك القضائي فحسب، بل بوصفي صديقًا صدوقًا لك، هل أنت تارك الفرصة تفلت دون تحقيق هذه الأهداف كلها وإيتاء هذا الخير بجملته، لمجرد اعتبار تافه، وهو تسرب بضعة جنيهات إلى جيوب شقيين أثيمين لا فارق عندهما ولا حساب لشيء ما داما سيغتنمان من ورائه، وكلما أصابا غنمًا التمسا مزيدًا منه، وطمعًا في احتيال جديد سيؤدي حتمًا بهما إلى خاتمة سوأى، ونهاية أليمة، لقد بسطت هذه الاعتبارات أمامك يا سيدي العزيز ضعيفة مبتورة غير مستكملة، ولكني أرجو إليك أن تتدبرها، وتقلبها في خاطرك على مهل، وإني منتظر هنا بصبر لا ينفد لأتلقى الجواب».

وقبل أن يتمكن المستر بكوك من الرد، وقبل أن يتسنى للمستر بركر أن يتناول جزءًا من عشرين من السعوط الذي يقتضيه حتمًا هذا الخطاب الطويل الذي لم يعتده، سمعت أصوات مغمغمة في الخارج، ثم دقة

مترددة بالباب.

وصاح المستر بكوك وكان يبدو عليه أن توسلات صديقه قد أحدثت أثرها في نفُسه: «يا للعجب! يا للعجب! أكثر ما يضايقني هذا الباب! من الطارق؟».

وقال سام وهو يطل برأسه: «أنا يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك: «لا أستطيع الكلام معك في هذه اللحظة يا سام، إنني مشغول الآن يا سام».

وأجاب المستر ويلر: «أستميحك عفوًا يا سيدي، ولكن هنا سيدة تقول إن لديها شيئًا خاصًّا تريد أن تفضي به إليك يا سيدي».

وقال المستر بكوك وكان خاطره مزدحمًا بأخيلة مسز باردل وصورها: «لا أستطيع أن أقابل أية سيدة».

وقال المستر ويلر ملحًّا وهو يهز رأسه: «لست واثقًا من هذا كثيرًا يا سيدي، بل أعتقد أنك ستغير هذه النغمة إذا أنت عرفت من تكون، كما قال الصقر لنفسه وهو يضحك مسرورًا حين سمع شدو الطائر الأحمر الصدر من مكان قريب».

وقال المستر بكوك: «ومن تكون؟».

وأجاب المستر ويلر وهو ممسك بالباب بيده كأن لديه حيوانًا غريبًا خلفه: «هل تريد أن تقابلها يا سيدي؟».

وقال المستر بكوك وهو ينظر إلى بركر: «أظن أنه لا بد».

وصاح سام: «حسن جدًّا، هلموا، إن الرواية ستبدأ، دقوا الجرس، ارفعوا الستار، ليدخل المتآمران».

ودفع سام الباب فانفتح، وإذا المستر نثنايل ونكل يندفع في ضجة إلى وسط الحجرة، وهو يقود بيده تلك الفتاة ذاتها التي كانت في ضيعة «ونجلي ديل» تنتعل الحذاء الذي يعلو الفرو وجهه، والتي بدت في هذه اللحظة مجموعة بديعة من الحياء، والخفر، والارتباك، والثوب الحريري في مثل لون السوسن، وقد زانت رأسها قبعة رشيقة، واختمرت بقناع شفاف، وبدت أملح من قبل وأبهر حسنًا.

وصاح المستر بكوك وهو ينهض من مجلسه: «الآنسة أرابلا ألن!».

وأجاب المستر ونكل وهو يهبط على ركبتيه جاثيًا: «كلا، بل مسز ونكل! عفوًا يا صديقي العزيز وغفرانًا!».

وكان المستر بكوك لا يصدق حواسه، وما نحسبه كان مصدقًا إياها، لولا اجتماع الشواهد على صحتها، بين الابتسام البادي على وجه بركر، ووقوف سام في المؤخرة مع الخادمة المليحة، وقد وقفا يراقبان ما يدور بأبلغ الرضا والارتياح.

وقالت أرابلا وهي غاضَّة من صوتها، كأنما روعها ذلك السكون: «أوه، يا مستر بكوك، هلا عفوت عن جرأتي؟».

ولم يجب المستر بكوك برد شفوي على ذلك الرجاء، بل أسرع في رفع المنظار عن عينيه، وتناول يدي الحسناء في يديه، وقبلها عدة مرات، قد تكون أكثر عددًا مما يقتضيه الموقف، وانثنى يقول للمستر ونكل،

وهو لا يزال ممسكًا بإحدى يديها: إنه لكلب جريء وآمره أن ينهض من جثوته، وكان هذا قد لبث بضع ثوان يحك أنفه بحاشية قبعته فعل النادم المكفر عن ذنبه، فنهض ممتثلًا للأمر، فبادر المستر بكوك إليه، فضربه عدة لطمات على ظهره، ثم صافح بركر بحرارة، ولم يتخلف هذا عن الاشتراك في التحيات والمجاملات التي يدعو إليها الموقف، فحيا العروس، والخادمة المليحة، أصدق تحية، وشد يد المستر ونكل شدة ودية كريمة، وختم مظاهرة سروره وابتهاجه بتناول قدر من السعوط يكفي لجعل ستة رجال سليمي الأنوف يعطسون مدى الحياة.

وأنشأ المستر بكوك يقول: «كيف جرى ذلك كله يا ابنتي العزيزة، تعالي إلينا أقبلي فاجلسي ودعيني أسمع كل شيء، ما أجمل صورتها، ألا تبدو باهرة الشكل يا بركر؟»، وراح يتأمل وجه أرابلا بنظرات فخار بالغ واغتباط شديد، كأنها ابنته.

وأجاب الرجل القصير: «بديعة يا سيدي العزيز، ولو لم أكن متزوجًا لما انثنيت عن حسدك أيها الكلب!» وأتبع كلماته هذه بلكزة في صدر المستر ونكل، فلم يسع هذا إلا أن يبادله لكزة بلكزة، وقهقه الرجلان ضاحكين، ولكن ضحكاتهما لم تكن عالية مثل ضحكات المستر صمويل ويلر، الذي كان عندئذ قد نفس عن صدره بتقبيل الخادمة المليحة خلف باب الخزانة.

وقالت أرابلا بأعذب ابتسامة يمكن تخيلها: «إني لعاجزة يا سام عن إيفائك حقك من الشكر، ولست ناسية الجهد الذي بذلته في الحديقة ونحن في كلفتن».

وأجاب سام: «لا تقولي شيئًا ما عنه يا سيدتي، فإني لم أفعل غير مساعدة الطبيعة على تنفيذ ما أرادته يا سيدتي، كما قال الطبيب لأم الغلام بعد أن حجمه فأفضى به إلى الموت».

وقال المستر بكوك وهو يريد اختصار هذه التحيات والمجاملات: «يا عزيزتي ماري، اجلسي، والآن كم مضى عليكما وأنتما زوجان؟».

ونظرت أرابلا إلى زوجها وسيدها مستحيية، فأجاب هو: «منذ ثلاثة أيام فقط».

وقال المستر بكوك: «منذ ثلاثة أيام فقط؟ يا عجبًا! وماذا كنتما تصنعان كل هذه الأشهر الثلاثة؟».

وتدخل المستر بركر قائلًا: «فعلًا. هيا اقصصي علينا أسباب هذا الكسل والفتور؟ وأنت تري دهشة المستر بكوك؛ لأن الأمر لم يتم منذ شهور مضت».

وأجاب المستر ونكل وهو ينظر إلى زوجته الخجلى المتوردة المحيا: «الواقع إنني لم أستطع إقناع «بللا» بالفرار من وقت طويل، فلما تيسر لي أن أقنعها انقضت فترة أطول من الأولى قبل أن تسنح لنا فرصة، وكان المفروض أيضًا أن تعطي ماري مخدوميها مهلة شهر قبل أن تتمكن من ترك خدمتهم في الدار الملاصقة، ولم نكن نستطيع أن نفعل شيئًا دون عونها ومساعدتها».

وقال المستر بكوك وكان قد أعاد المنظار إلى عينيه وأخذ ينقل البصر بين أرابلا وونكل، بذلك السرور البالغ الذي تضفيه حرارة القلب

ورقة الشعور على وجوه البشر: «أقسم بشرفي أنكما في كل إجراءاتكما كنتما تسيران على طريقة منظمة، ولكن هل عرف أخوك القصة كلها يا عزيزتي؟».

وأجابت أرابلا وقد تغير لونها: «كلا، كلا، كلا، أنت وحدك يا عزيزي المستر بكوك الذي يجب أن يعرفها منه، من شفتيك أنت دون سواك، إنه عنيف شديد متحيز، ظل كل هذا الزمن متلهفًا كل التلهف على تزويجي بصديقه المستر سوير» وهنا غضت من طرفها وأردفت تقول: «وإني لأخشى العواقب أشد الخشية».

وقال بركر بلهجة جد ظاهرة: «آه، طبعًا، فلا بد من أن تتناول هذه المسألة بنفسك يا سيدي العزيز، فإن هذين الشابين سيحترمانك، ويستمعان إليك، دون أحد سواك إذا فاتحتهما في هذا الأمر. يجب عليك منع الضرر يا سيدي العزيز، حرارة الدم، حرارة الدم»، وهنا تناول كمية من السعوط منذرة وراح يهز رأسه هزة المتشكك.

وقال المستر بكوك برفق: «لقد نسيت يا حبيبتي، لقد نسيت أنني سجين!».

وأجابت أرابلا: «كلا، لم أنس يا سيدي العزيز، وما نسيت ذلك لحظة واحدة، ولم أنقطع عن التفكير في مدى آلامك وعذاب نفسك في هذا المكان البشع، ولكني كنت أعلل النفس بأن ما تعجز مختلف الاعتبارات عن حملك على فعله، قد يحفزك إليه حرصك على سعادتنا، وإذا أمكن أن يسمع أخي هذا أولًا منك، فإني على يقين أن الأمر سينتهي

بيننا وبينه بالتراضي والتوفيق، إنه قريبي الأوحد في هذا العالم يا مستر بكوك، وأخشى أن أفقده هو أيضًا إذا لم تتشفع لي عنده وتدافع عني، وإني أعلم أنني أتيت أمرًا نكرًا، ولم أحسن صنعًا»، وراحت أرابلا المسكينة تخفي وجهها في منديلها وتذرف الدمع السخين.

وأحدثت تلك العبرات أثرها في نفس المستر بكوك الكريمة، وطبيعته النقية البريئة، ولكن عندما جففت مسز ونكل دمعها، ومسحت عينيها، وأقبلت عليه متلطفة إليه ضارعة في أرق الأنغام من أعذب الأصوات لم يلبث أن اضطرب اضطرابًا شديدًا، وبدا عليه التردد، فلم يعد يدري ماذا هو صانع، فقد مضى يحك بعصبية ظاهرة زجاجة منظاره، وأنفه، وساقيه ورأسه وطماقيه.

وانتهز المستر بركر أعراض هذا التردد الواضح- والظاهر أن العروسين كانا قد ذهبا بالمركبة رأسًا إليه في ذلك الصباح- فأنشأ يقيم الحجة القانونية، ويتذرع بالفطنة البالغة، قائلًا: «إن المستر ونكل الكبير، والد الشاب لا يزال يجهل نبأ الخطوات التي اتخذها ابنه في الحياة، وأن آمال الفتى في المستقبل معقودة على استمرار أبيه في بره به وعطفه عليه، وبقاء شعوره نحوه كما هو بغير نقصان، وهو ما يغلب على الظن أنه لن يكون إذا بقي هذا الحدث الكبير سرًّا مكتومًا عنه، وإن سفر المستر بكوك إلى برستل للقاء المستر «ألن»، يصح أن يقترن للعوامل ذاتها بالسفر إلى برمنجهام للقاء المستر ونكل الكبير، وأخيرًا إن لهذا الرجل الحق تمامًا في أن يعد المستر بكوك إلى حد ما المرشد لابنه والناصح الأمين، وأنه لهذه الأسباب يجدر بالمستر بكوك لما تحتله شخصيته من

المكانة في النفوس أن يتولى بنفسه شرح ظروف المسألة كلها شفويًّا للمستر ونكل الكبير، والنصيب الذي كان له فيها، والعمل الذي قام به خلال مراحلها المختلفة».

ووصل المستر طبمن والمستر سنودجراس، وكان قدومهما في أنسب الظروف، عند بلوغ المناقشة هذه المرحلة، واقتضى الأمر شرح كل ما جرى لهما فاستوجب ذلك ترديد جميع الحجج مرة أخرى وتكرارها، وانبرى كل امرئ منهم بعد ذلك يبسط حجته الخاصة، على طريقته، ومدى مقدرته على الإيجاز أو الإسهاب. وأخيرًا، بعد أن أحرج المستر بكوك وحوصر وأخرج عن نياته واعتزاماته، وكاد يتعرض لخطر إخراجه من عقله كذلك، تناول أرابلا بين ذراعيه، وأعلن أنها مخلوقة محببة، وأنه لا يدري السر في محبته لها من البداية، وقال: إن قلبه لا يطاوعه يومًا فيقف في سبيل سعادة أحد من الشباب، فليصنعوا به إذن ما يشاءون.

وكان أول شيء فعله المستر ويلر حين سمع هذا الحديث أن أوفد جب تروتر في الحال إلى المستر «بل» الذائع الصيت برسالة يطلب إليه فيها أن يسلم الرسول «المخالصة» الرسمية التي كان والده الحكيم قد تركها ببعد نظره وأصالة رأيه تحت يد ذلك العلّامة الكبير؛ للتصرف فيها إذا دعت الطوارئ، وكان ما فعله سام بعد ذلك أن أنفق كل ما يملك من النقود في شراء خمسة وعشرين جالونًا من الجعة الخفيفة، وتوزيعها بنفسه في ميدان الكرة على كل من يريدون تعاطيها، ولبث يطلق صيحات الفرح في مختلف أرجاء المبنى حتى بح صوته ثم عاد

في هدوء إلى حالته العادية وتصرفاته الفلسفية المألوفة.

وفي الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم ألقى المستر بكوك آخر نظرة على غرفته الصغيرة، وراح يشق طريقه ما استطاع في غمار زحمة المدينين الذين تدافعوا في لهفة إليه لمصافحته حتى وصل إلى سلم المبنى، وهنا ألقى نظرة إلى الخلف، وأدار عينه فيما حوله، وفي الحال برقت عيناه، فقد شهد على جميع الوجوه الناحلة الذاوية أمارات الرضى عنه لعطفه وبره وإحسانه.

وقال المستر بكوك وهو يشير لفتى فيهم أن يقترب منه: «إن هذا الفتى يا بركر هو المستر جنجل الذي كنت أحدثك عنه».

وأجاب بركر وهو يطيل النظر إلى جنجل: «حسن جدًّا يا سيدي العزيز، ستراني مرة أخرى أيها الشاب غدًا، وأرجو أن تعيش لكي تذكر وتقدر حق التقدير ما أنا مكاشفك غدًا به يا سيدي».

وانحنى جنجل باحترام، وتولته رجفة شديدة حين تناول يد المستر بكوك، وارتد منصرفًا.

وقال المستر بكوك وهو يقدم السيد الآخر: «وهذا جب الذي أظنك تعرفه».

وأجاب بركر ممازحًا: «أعرف الوغد، انتبه إلى صاحبك، وكن حاضرًا غدًا في الواحدة، أسامع أنت؟ والآن هل من شيء آخر؟».

وقال المستر بكوك: «لا شيء، وهل سلمت الرزمة الصغيرة التي أعطيتها يا سام لمؤجر غرفتك السابقة».

وأجاب سام: «نعم يا سيدي، وقد انفجر باكيًا، وقال إنك لكريم

عطوف، وأنه لم يكن يتمنى إلا أن تتمكن من تلقيحه بسل مستعجل؛ لأن صديقه القديم الذي عاش هنا أمدًا طويلًا قد مات، وهو لا يدري أين يجد صديقًا سواه».

وقال المستر بكوك: «يا للمسكين! يا للمسكين! بارك الله فيكم يا صحابي!».

وما إن فاه المستر بكوك بكلمة الوداع هذه، حتى أطلق القوم صيحة مدوية، واندفع خلق كثير منهم نحوه لمصافحته باليد مرة أخرى، بعد أن وضع ذراعه خلال ذراع بركر، وأسرع منصرفًا من السجن، وهو في تلك اللحظة أشد أسى واكتئابًا منه حين دخله، وا أسفاه! كم من محزونين وتعساء قد تركهم من خلفه!

وكان المساء سعيدًا هنيًا، لجمع معين بالذات، على الأقل، في فندق «جورج والرخم»، وما كان أسعد قلبين، وأملأهما سرورًا ومرحًا، حين غادرا باب ذلك الفندق المضياف في صبيحة اليوم التالي، وهذا هما قلب المستر بكوك، وفؤاد سام ويلر، وكان أولهما قد أسرع إلى جوف مركبة بريد مريحة ذات مقعد صغير في المؤخرة، صعد إليه الآخر في خفة بالغة.

ونادى المستر ويلر سيده قائلًا: «سيدي!».

وأجاب المستر بكوك وهو يخرج رأسه من النافذة: «ماذا يا سام؟».

قال: «أتمنى لو كانت هذه الخيل قد أقامت ثلاثة أشهر أو أكثر في سجن فليت يا سيدي».

وسأل المستر بكوك: «ولماذا يا سام؟».

قال وهو يفرك يديه: «أتسأل لماذا يا سيدي؟ لكي نرى كيف تسرع في المسير لو أنها أقامت في السجن هذه المدة؟».

* * *

الفصل الثامن والأربعون

كيف حاول المستر بكوك بمعاونة المستر صمويل ويلر التخفيف من ثائرة المستر بنجمن ألن وتسكين غضب المستر روبرت سوير

وكان المستر بن ألن والمستر بب سوير جالسين في العيادة الصغيرة القائمة خلف «الصيدلية» يختبران طعم لحم العجول الصغيرة المفروم، وينظران فيما عسى أن تأتي به الأيام، وإذا الحديث ينتقل بطبيعة الحال إلى المرانة التي ظفر بها بب من العمل، والفرص التي ينتظر أن تسنح له حتى يطمئن إلى العيش والاكتفاء بما يأتي من مزاولة المهنة الشريفة التي توفر عليها.

وقال المستر بب سوير متابعًا خيط الموضوع: «وهو فيما أعتقد يا بن أمر مشكوك فيه».

وسأل المستر بن ألن، وهو يرهف ذهنه بجرعة من الجعة حتى يفهم ما يقوله صاحبه: «ما هي هذا المشكوك فيه؟ أي أمر مشكوك فيه؟».

وقال المستر بب سوير: «الفرص التي ينتظر سنوحها».

وقال المستر بن ألن: «آه، لقد أنستني الجعة أني نسيت يا بب، نعم، إن ذلك أمر مشكوك فيه».

وقال المستر بب سوير وهو ساهم مفكر: «والعجيب أن الفقراء هم الذين يرعونني ويطرقون بابي في كل ساعة من ساعات الليل، ويتناولون مقادير من الأدوية كنت أتصورها مستحيلة، ويدأبون على استعمال «اللزقات» والدود العلق دأبًا كان أولى به أن يتجه إلى شيء أفضل مما هم ملحون عليه، وهم يزيدون من عدد أفراد أسرهم، وقد وصلتني ستة صكوك صغيرة من هذه الطائفة الأخيرة في يوم واحد يا بن، وكلها باسمي خاصة».

وقال المستر بن ألن وهو يمسك بالصحفة طالبًا مزيدًا من اللحم المفروم: «وإن هذا ليسرك كثيرًا، أليس كذلك؟».

وأجاب بب: «كل السرور، ولكن ليس بالقدر الذي أشعر به من ثقة المرضى الذين يدفعون شلنًا أو شلنين، وقد وصفت حركة العمل وصفًا بديعًا في الإعلانات يا بن، إنها لمهنة واسعة المدى، وهذا هو كل شيء».

وقال المستر بن ألن وهو يضع سكينه وشوكته ويحدج وجه صديقه بنظرة طويلة: «اسمع يا بب، إنني سأقول لك ماذا ينبغي أن تفعل؟».

وقال المستر بب سوير: «وما هو؟».

وأجاب صديقه: «يجب أن تبادر ما أمكن إلى وضع يدك على الألف الجنيه التي تملكها أرابلا».

وأردف بب سوير يقول في أسلوب قانوني: «ثلاثة في المائة أرباح مجمدة من المصرف، مودعة الآن باسمها في دفاتر محافظ مصرف إنجلترا».

وقال بن: «بالضبط، ولها حق أخذها عند بلوغها سن الرشد، أو عند الزواج، وقد بقيت سنة واحدة على بلوغها السن، فإذا أنت تشجعت وأقدمت، فلن ينقضي شهر واحد حتى تكون زوجتك».

وأجاب المستر بب سوير: «إنها لإنسانة فاتنة بديعة جدًّا، وليس فيها غير عيب واحد أعرفه يا بن، وهذا العيب الوحيد هو لسوء الحظ افتقارها إلى الذوق، إنها لا تشعر بميل نحوي».

وقال المستر بن ألن باستهزاء: «أعتقد أنها لا تعرف ما الذي تكره وما الذي تحب».

وقال المستر بب سوير: «ربما، ولكن رأيي أنها تعرف حق المعرفة ما الذي لا تميل إليه، وهو المهم».

وقال المستر بن ألن، وهو يعض على نواجذه، ويتحدث كهمجي محارب يتغذى من لحم ذئب نيئ يقطعه بأنامله، أكثر منه سيدًا متحضرًا أنيسًا يطعم اللحم المفروم الطري بالسكين والشوكة: «أود لو أعرف هل هناك حقًّا وغد يعبث بمشاعرها ويحاول كسب عاطفتها، وأعتقد أنني قاتله لو عرفته يا بب».

وقال المستر سوير وقد وقف عن أخذ رشفة طويلة من الجعة، وراح ينظر نظرة شريرة من فوق حافة الجرة: «ولو اهتديت إليه لأطلقت

الرصاص عليه، فإذا لم تقتله أخرجت الرصاصة منه، ليكون في إخراجها منه مصرعه».

ولبث المستر بنجمن ألن ينظر وهو شارد الخاطر إلى صديقه لحظات في صمت، ثم انثنى يقول: «ولكنك لم تفاتحها ولو مرة بصراحة يا بب».

وأجاب المستر بب سوير: «كلا؛ لأني رأيت ألا فائدة من ذلك».

وأجاب بن بهدوء متناهٍ: «ولكن عليك أن تفعل قبل أن تنقضي من عمرك أربع وعشرون ساعة أخرى، وستكون لها حتمًا وإلا عرفت السبب، وسأستخدم سلطتي».

وقال المستر بب سوير: «ليكن، وسنرى».

وأجاب المستر بن ألن بقوة: «سنرى يا صديقي!».

وتمهل بضع ثوان، واستتلى يقول بصوت متهدج من شدة الانفعال، لقد أحببتها يا صديقي من عهد الطفولة، أحببتها حين كنا غلامين صغيرين في المدرسة، وكانت يومئذ عاصية عنيدة، فاستخفت بشعورك الفتي، هل تتذكر كيف ألححت عليها بكل اللهفة التي يتقد بها الحب في الطفولة، أن تتقبل منك بسكويتتين صغيرتين مخلوطتين ببذور «الكراوية» وتفاحة صغيرة، قدمتها إليها مغلفة بشكل أنيق في لفافة مستديرة فوق صفحة منزوعة من كراستك؟».

وأجاب بب سوير: «أذكر ذلك ولم أنسه».

وقال بن ألن: «وأعتقد أنها استخفت بها، أليس كذلك؟».

وأجاب بب: «بلى، فقد قالت إنني حفظت اللفافة وقتًا طويلًا في جيب سراويلي، حتى أصبحت التفاحة ساخنة لا تستطاب».

وقال المستر ألن بوجوم: «أذكر ذلك، وأكلناها نحن تناوبًا، عضة بعد عضة».

وأشار بب سوير إلى تذكره هذه الواقعة الأخيرة بعبسة مكتئبة، ولبث الصديقان لحظة واجمين وكلاهما مستغرق في أفكاره وسرحاته.

وبينما كانت هذه الأحاديث دائرة بين المستر بب سوير والمستر بنجمن ألن، وبينما كان الغلام البادي في الحلة القاتمة يتساءل ما الذي أطال في فترة الغداء إلى هذا الحد غير المألوف، وجعل من لحظة إلى أخرى ينظر نظرة القلق صوب الباب الزجاجي، وهو يشعر في نفسه بتشاؤم وانزعاج من مقدار اللحم المفروم الذي سوف يبقى في النهاية لغدائه... بينما كان ذلك كله يجري في صيدلية بب سوير كانت مركبة خاصة ذات طلاء أخضر قاتم، يجرها حصان ضخم أسود ويسوقها رجل عبوس يغطي ساقيه على نحو ما يغطيهما السائس وإن كان مرتديًا سترة حوذي، وهي تخترق شوارع برستل وتبدو مألوفة الشكل كواحدة من عدة مركبات تملكها عادة السيدات العجائز اللاتي اعتدن القصد في الإنفاق، وكانت تجلس فيها سيدة عجوز، هي ربتها ومالكتها.

ونادت السيدة الرجل العبوس من النافذة الأمامية: «يا مارتن».

وقال الرجل العبوس وهو يرفع يده إلى قبعته: «نعم؟».

قالت السيدة العجوز: «سق بنا إلى مسكن سوير».

وقال الرجل العبوس: «لقد كنت أسوق إليه».

وأومأت العجوز إيماءة الارتياح لهذا الدليل الواضح على بعد نظر الرجل العبوس إلى رغباتها قبل إبدائها، وراح هذا يضرب الحصان البدين سوطًا سريعًا، وانطلق الجميع على هذا النحو إلى محل المستر بب سوير.

وقالت السيدة العجوز حين وقفت المركبة الصغيرة بباب محل المستر بب سوير- نوكمورف سابقًا: «مارتن».

وأجاب هذا: «نعم؟».

قالت: «اطلب إلى الصبي أن يخرج ليحرس الحصان».

وأجاب مارتن وهو يضع سوطه فوق سطح المركبة: «أنا الذي سأحرسه بنفسي».

وقالت السيدة: «لا أستطيع أن أسمح بذلك مطلقًا، فإن شهادتك ستكون ذات أهمية كبيرة، ولا بد أن أصطحبك إلى داخل البيت، فلا ينبغي أن تتحرك خطوة واحدة من جنبي طيلة الحديث، هل أنت سامع؟».

وأجاب مارتن: «سامع».

قالت: «إذن لماذا أنت واقف لا تتحرك؟».

قال: «لا شيء».

وهبط بكل تؤدة من فوق المركبة، وكان من قبل قد وقف متوازنًا على أطراف قدمه اليمنى، ونادى الغلام البادي في الحلة السوداء، وفتح باب المركبة، وألقى السلم، ومد يده المغطاة بقفاز أسود من الجلد القابل

للغسيل، وجر السيدة العجوز بغير اهتمام كأنما يجر علبة من الورق المقوى.

وقالت السيدة العجوز: «ويحي! ما بالي مضطربة هكذا بعد أن وصلت، حتى لأشعر برعدة في كل مفاصلي!».

وسعل المستر مارتن خلف قفازه الأسود ولكنه لم يبد مشاركة في الشعور، وتمالكت السيدة نفسها ومضت تصعد سلم المستر بب سوير، وهو في أثرها.

وكان المستر بنجمن ألن والمستر بب سوير قد أسرعا على أثر دخول العجوز الدكان في إخفاء الخمر والماء عن الأبصار، وقلب زجاجات تحوي عقاقير كريهة الروائح لتبدد ريح التبغ، وانطلقا مهرولين وهما في حال ظاهرة من الفرح والتهليل الترحيب.

وصاح المستر بن ألن: «ما أكرمك يا عمتي العزيزة وأحناك إذ جئت تزوريننا، هذا هو المستر سوير يا عمتي، صديقي المستر بب سوير، الذي كلمتك عنه بشأن... ما أنت عليمة به يا عمتي»، وهنا أضاف بن ألن الذي لم يكن في تلك اللحظة مفيقًا من السُّكر إفاقة تامة، كلمة «أرابلا» وهو يقصد أن يضيفها همسًا، ولكنها كانت مسموعة وواضحة لا يستطيع أي إنسان أن يتجنب سماعها ولو أراد.

وقالت السيدة العجوز وهي تغالب أنفاسها القصيرة المتقطعة، وترعش من فرعها إلى قدمها: «لا تنزعج يا عزيزي بنجمن، ولكني أرى أنه يحسن أن أكلم المستر سوير لحظة على انفراد، لحظة واحدة لا أكثر».

وقالت المستر بن ألن: «هلا أخذت يا بب عمتي إلى العيادة الداخلية؟».

وأجاب بب بلهجة مهنية بالغة: «بلا شك، تقدمي يا سيدتي العزيزة من هنا، ولا تخافي يا سيدتي ستتمكن من شفائك في وقت قصير جدًّا، لا شك عندي في ذلك يا سيدتي، من هنا، والآن!» وبعد أن أجلس المستر بب سوير السيدة العجوز في مقعد وأغلق الباب وسحب مقعدًا آخر فقربه منها، وانتظر ليسمع بالتفصيل أعراض علة من العلل، وهو يترقب سلسلة متواصلة من المكاسب والفوائد.

وكان أول شيء فعلته السيدة العجوز أن راحت تهز رأسها عدة مرات، وتستسلم للبكاء.

وقال بب سوير بكل لطف: «مرض عصبي، كافور مع شراب «الجلاب» والماء ثلاث مرات يوميًّا وجرعة من مسكن قبل النوم».

وقالت السيدة العجوز: «لست أدري كيف أبدأ الكلام فإن الخطب أليم فادح».

وأجاب المستر بب سوير: «لا حاجة بك إلى بدء الكلام يا سيدتي، فإني مستطيع أن أتوقع ما تريدين قوله: الرأس متعب».

وقالت السيدة العجوز وهي تئن أنينًا خافتًا: «يحزنني أن أعتقد أن ذلك يرجع إلى القلب».

وأجاب بب سوير: «ليس ثمة أقل خطر يا سيدتي من هذه الناحية، إن المعدة بيت الداء».

وصاحت السيدة العجوز غاضبة: «يا مستر سوير!».

وقال بب، وهو يبدو حكيمًا كل الحكمة: «ليس لديَّ أقل شك يا سيدتي، لقد كان الدواء في وقته المناسب يا سيدتي العزيزة كفيلًا بمنع هذا كله».

وعادت السيدة العجوز تقول وهي أشد غضبًا: «يا مستر سوير، إن تصرفك هذا إما أن يكون قحة بالغة في حق سيدة في مركزي يا سيدي، أو إنك لست فاهمًا الغرض من زيارتي، ولو كان في إمكان الطب والدواء، أو بعد النظر أن يمنع ما حدث، لاستخدمت ذلك بلا شك واستعنت به»، وهنا أصلحت من شبكتها في غضب، ونهضت وهي تقول: «يحسن أن أرى ابن أخي في الحال».

وقال بب سوير: «انتظري لحظة يا سيدتي، أخشى أن أكون قد أخطأت الفهم، ما الخطب يا سيدتي؟».

وقالت السيدة العجوز: «ابنة أخي يا مستر سوير شقيقة صديقك».

وقال بب، وهو في أشد القلق؛ لأن السيدة العجوز رغم شدة اضطرابها كانت تتكلم بأشد ما تكون التؤدة والمضايقة إيلامًا، كما هو شأن العجائز في أغلب الأحيان: «نعم يا سيدتي، نعم يا سيدتي».

وقالت السيدة العجوز: «لقد غادرت البيت يا مستر سوير منذ ثلاثة أيام مدعية أنها ستزور أختي، وهي عمة أخرى لها، تدير المدرسة الداخلية التي لا تبعد من دارنا أكثر من ثلاثة أميال، حيث تقوم شجرة من شجر «الوزال» وباب من خشب البلوط» ووقفت السيدة العجوز لحظة لترقأ دموعها.

وقال بب وقد نسي كرامة مهنته من شدة اللهفة على سماع بقية القصة: «لتذهب شجرة الوزال إلى الشيطان يا سيدتي، أسرعي قليلًا في الكلام، ضعي مزيدًا يسيرًا من البخار يا سيدتي، أرجوك».

وأجاب السيدة العجوز ببطء: «وفي هذا الصباح، في هذا الصباح بالذات...».

وعاجلها بب قائلًا: «عادت يا سيدتي... هل تراها قد عادت؟».

وأجابت السيدة العجوز: «كلا، لم تعد، ولكنها كتبت».

وسأل بب في لهفة: «وماذا قالت في كتابها؟».

وأجابت السيدة العجوز: «يا مستر سوير، قالت ما أريد منك أن تهيئ ذهن بنجمن له برفق وأناة، قالت، لقد نسيت كتابها في جيبي يا مستر سوير، ولكن «منظاري» قد تركته في المركبة، ولو حاولت أن أشرح لك ما في الكتاب دون منظاري لأضعت عليك وقتك، لقد قالت يا مستر سوير باختصار إنها قد تزوجت».

وقالت المستر بب سوير- أو صاح قائلًا- على الأصح: «إيه؟».

ورددت السيدة العجوز الكلمة: «تزوجت».

فلم يقف المستر بب سوير ليسمع مزيدًا بل اندفع إلى الدكان وصرخ قائلًا: «بب يا بني، لقد هربت».

وكان المستر بن ألن نائمًا خلف المنضدة، ورأسه تحت ركبتيه بنصف قدم أو نحوه، فلم يكد يسمع تلك الصيحة المروعة حتى أسرع صوب المستر مارتن، فعقد حول يده ربطة عنق ذلك الخادم الصموت،

مبديًا عزمه على خنقه وهو في مكانه، وشرع فعلًا في تنفيذ هذا العزم بتهور أكثر ما ينبعث غالبًا عن اليأس، وبادر إلى تحقيقه بقوة شديدة، وبراعة جراحية.

وكان المستر مارتن رجلًا قليل الكلام، لم يؤت ملكة البلاغة، ولا قوة البيان، فاستسلم لهذه العملية في هدوء ورضا ظاهرين بضع ثوان. ولكنه حين وجد أنها لن تلبث أن تهدده بخطر عاجل، وتؤدي به إلى نتيجة تعجزه عن طلب أجره، وغذائه، وغيرهما بعد الآن، أطلق كلامًا غير مبين، وأرسل صرخة غير واضحة، وألقى بالمستر بنجمن على الأرض. وكان هذا لا يزال متعلقًا بربطة عنقه بكلتا يديه، فلم ير سبيلًا غير السقوط معه، ولبثا على هذه الحال يتصارعان، وإذا باب الدكان يفتح، إيذانًا بقدوم زائرين لم يكن قدومهما متوقعًا إطلاقًا، ونعني بهما المستر بكوك والمستر صمويل ويلر.

وكان أول خاطر استولى على المستر ويلر حين رأى هذا المشهد، هو أن محل سوير- نوكمورف سابقًا- استأجر المستر مارتن، لتجريعه أدوية قوية المفعول، أو إحداث نوبات تشنجية له، على سبيل التجربة فيه، أو إذاقته شيئًا من السم بين حين وآخر لاختبار مدى تأثير بعض الأدوية الجديدة للعلاج منه، أو القيام بعمل ما في سبيل النهوض بعلم الطب، وإشباع اللهفة المتقدة في جوانح هذين الشابين اللذين ينتميان إلى المهنة، والرغبة المتحمسة في البحث والتطبيق والاختبار؛ ولهذا لم يشأ أن يتدخل، ووقف جامدًا في مكانه هادئًا كل الهدوء، يتأمل هذا المشهد، كأنه مشوق كل الشوق إلى معرفة النتيجة التي ستسفر عنها هذه

التجربة العلمية. ولكن المستر بكوك لم ير في المشهد هذا الرأي، فبادر في الحال إلى الارتماء فوق المتصارعين المبهوتين بخفته المعهودة، ونشاطه المعروف، ونادى الواقفين بصوت مرتفع إلى التدخل.

وما لبث هذا الاستنجاد أن نبه المستر بب سوير من ذهوله، وكان إلى تلك اللحظة قد جمد في مكانه من هذه الجنة التي استولت على رفيقه، وتمكن المستر بكوك بمساعدته من إنهاض بن ألن حتى استوى على قدميه، ووجد المستر مارتن نفسه وحده على الأرض فنهض وراح يتلفت حوله.

وقال المستر بكوك: «يا مستر ألن! ما الخطب يا سيدي؟».

وأجاب المستر ألن بلهجة تحد خليط بكبرياء: «لا بأس يا سيدي!».

وقال المستر بكوك وهو ينظر إلى بب سوير: «ما الخبر، أهو مريض؟».

وقبل أن يتمكن بب من الجواب، تناول المستر ألن يد المستر بكوك وغمغم بصوت مفعم حزنًا: «أختي، يا سيدي العزيز، أختي».

وقال المستر بكوك: «أوه، أهذا هو كل ما في الأمر؟ أرجو أن نتمكن بسهولة من تدبير هذه المسألة، إن أختك في أمان وعافية، وأنا هنا يا سيدي العزيز لكي...».

وهنا قاطعه المستر ويلر، وكان إلى هذه اللحظة ينظر من خلال الباب الزجاجي، فقال: «آسف لمقاطعتي لهذه التدابير السارة، كما قال الملك عندما حل البرلمان، ولكن هنا سيدة عجوزًا محترمة طريحة فوق

البساط منتظرة عملية تشريح أو كهرباء، أو أي اختراع علمي آخر يعيد الحياة».

وصاح المستر بن ألن: «لقد نسيت! هذه عمتي».

وقال المستر بكوك: «ويحي! يا للسيدة المسكينة! برفق يا سام، برفق».

وقال سام ويلر وهو يرفع السيدة إلى المقعد: «موقف غريب لعضو في الأسرة، هيا يا وكيل نشار العظام[1].. أحضر الفولايتلي[2]!».

وكانت هذه العبارة الأخيرة موجهة إلى صبي المحل ذي الحلة الرمادية، وكان هذا قد ترك المركبة لعناية الجندي الحارس في الشارع، وأقبل ليعرف ما سبب هذه الجلبة.

واستطاع الصبي ذو الحلة الرمادية، وبب سوير، والمستر بنجمن ألن الذي أخاف عمته حتى أغمي عليها، وعاد في تلك اللحظة مشفقًا عليها، متلهفًا على إفاقتها، استطاعا أخيرًا ردها إلى صوابها، وعندئذ التفت المستر بن ألن بارتباك ظاهر إلى المستر بكوك، فسأله ما الذي كان يهم بأن يقوله، حين قوطع بنبأ هذا الحادث الأليم.

وتنحنح المستر بكوك وأدار عينه نحو الرجل الصموت العبوس سائق المركبة التي يجرها الحصان البدين وقال: «أظن أننا هنا أصدقاء لا غريب بيننا؟».

---

(١) أي الجراح.

(٢) يريد الفولاتايل Sal volatile أي أملاح النوشادر لتفويق السيدة، وقد نطقها ويلر محرفة كعادته.

وتذكر المستر بب سوير عندئذ أن الغلام واقف مُفتّح العينين مرهف الأذنين، فبادر إلى ذلك الصيدلي الناشئ فرفعه من طوق ردائه وألقاه خارج الباب، وعاد يؤكد للمستر بكوك أنه يصح له الآن أن يتكلم بغير حذر أو احتياط.

وقال المستر بكوك وهو يلتفت إلى بنجمن ألن: «إن أختك يا سيدي العزيز في لندن، وهي في خير وسعادة».

وأجاب المستر بنجمن ألن، وهو يطوح بذراعه: «إن سعادتها ليست هدفي يا سيدي».

وقال بب سوير في أثره: «ولكن زوجها هو هدفي أنا يا سيدي، نعم سيكون هدفي يا سيدي على قيد اثنتي عشرة خطوة مني، وسأجعل منه هدفًا بديعًا، هذا الشقي الحقير السافل!».

وكان هذا الموقف في ذاته وعيدًا يستحق الاحترام ويدل على العظمة والجلال، ولكن المستر بب سوير أضعف تأثيره باستطراده إلى كلام عام آخر عن كسر الرؤوس، وفقأ الأعين، وهو قول مألوف متبذل، إذا قورن بذلك الوعيد الرفيع.

وقال المستر بكوك: «قف يا سيدي، وقبل أن توجه هذه النعوت إلى ذلك السيد، فكر وأنت مجرد من الهوى في مدى خطئه، وفوق ذلك تذكر أنه صديقي».

وقال المستر بب سوير: «ماذا؟».

وصاح بن ألن: «علينا باسمه! اسمه!».

وأجاب المستر بكوك: «المستر نثنايل ونكل».

وما كاد المستر بنجمن ألن يسمع ذلك الاسم حتى ألقى بمنظاره تحت كعب حذائه وحطمه، ثم التقط أجزاءه فوضعها في ثلاثة جيوب منفصلة، وشبك ذراعيه، وعض شفتيه، ونظر نظرة تهديد إلى معارف المستر بكوك الهادئة، ووجهه الساكن لا يبدو عليه أي انفعال.

وأخيرًا تكلم المستر بنجمن ألن، فقال: «أنت إذن يا سيدي الذي شجعت على هذا الزواج وعملت على تحقيقه».

وقاطعته السيدة العجوز قائلة: «وأظن أن هذا هو خادم السيد الذي ظل يحوم حول بيتي ويحاول إيقاع خدمي في الفخ للتآمر على سيدتهم، يا مارتن».

وقال الرجل العبوس وهو يتقدم نحوها: «نعم».

قالت: «أهذا هو الفتى الذي رأيته في الزقاق وتحدثت إليَّ عنه في هذا الصباح؟».

فلم يكن من المستر مارتن المقل من الكلام كما قلنا إلا أن نظر إلى سام ويلر وأومأ برأسه وزمجر قائلًا: «هو الرجل»، وإذا المستر ويلر الذي لم يكن يومًا بالمزهو ولا بالمتفاخر يبتسم ابتسامة معرفة ومودة، حين التقت عيناه بذلك السائق العبوس، وقال بأدب إنه «قد عرفه من قبل».

وصاح المستر بن ألن قائلًا: «وهذا هو الإنسان الأمين الذي كدت أخنقه! وكيف اجترأت يا مستر بكوك فسمحت لهذا المخلوق بأن

يستخدم في خطف أختي؟ إنني أطالبك يا سيدي ببيان في هذا الشأن».

وصاح بب سوير بخشونة وهياج: «اشرح لنا هذه المسألة يا سيدي».

وقال بن ألن: «هذه مؤامرة!».

وأضاف المستر بب سوير: «ومكيدة مدبرة».

وقالت السيدة العجوز: «وخداع معيب».

وقال مارتن: «وليست إلا متاعب».

وقال المستر بكوك وقد رأى المستر بن ألن يتهالك على المقعد الذي يحجم فيه المرضى، ويستسلم للبكاء، ويخرج منديله: «أرجوك أن تستمع لي، إنني لم أقدم أية معونة في هذه المسألة أكثر من حضوري اجتماعًا واحدًا جرى بينهما، ولم أستطع منه، وخطر لي أن حضوري من شأنه أن يزيل أية تعليلات سيئة لهذا الاجتماع، لو لم أحضره بنفسي، هذا هو كل نصيبي مِن هذه المسألة، ولم أكن أظن مطلقًا أن هناك تفكيرًا في زواج عاجل»، وهنا أضاف قائلًا، وهو يبادر إلى ضبط نفسه: «ولكن تذكر مع هذا أنني لا أقول إنني كنت أمنعه لو أني عرفت أن النية متجهة إليه».

وصاح المستر بن ألن قائلًا: «أتسمعون هذا جميعًا؟ أتسمعون هذا؟».

وقال المستر بكوك بهدوء وهو يتلفت حوله: «أرجو أن يسمعوه»، وهنا أخذ الدم يتصاعد إلى وجهه فأردف يقول: «وأرجو أن يسمعوا هذا الذي سأقوله أيضًا يا سيدي، وهو أنني بعد الذي قيل لي عنك أعلن أنك

لم تكن على حق في محاولة إكراه أختك والتأثير في ميولها قهرًا وعنوة، بل لقد كان أولى بك أن تحاول بعطفك وسماحتك أن تنزل منها منزلة أقرب أقربائها الذين فقدتهم منذ طفولتها، أما عن صديقي الشاب فأرجو أن أضيف أنه من كل وجهة من وجوه المزايا الدنيوية، ند لك على الأقل وكفؤك إن لم يكن أرفع شأنًا، وإذا لم أسمع البحث في هذه المسألة يدور بما هو خليق به من الهدوء والاعتدال، فإني أرفض سماع أي كلام آخر حول هذا الموضوع».

وهنا تقدم المستر ويلر فقال: «أحب أن أبدي بضع ملاحظات إلى جانب ما عرضه اللحظة السيد الكريم وشرحه، وهي أن فردًا في هذا الجمع دعاني في ثنايا كلامه مخلوقًا».

وتدخل المستر بكوك قائلًا: «ليس لهذا علاقة ما بالمسألة يا سام، أرجوك أن تمسك لسانك».

وأجاب سام: «لن أقول شيئًا في هذه النقطة يا سيدي، وإنما أريد أن أقول هذا: ربما يظن هذا السيد أنه كانت هناك علاقة سابقة، ولكن الواقع أنه لم يكن هناك شيء من هذا القبيل؛ لأن السيدة الشابة صرحت في بداية التعارف أنها لا تطيقه، فلم يحاول أحد إذن أن يفسد المسألة عليه، بل كان الأمر كما هو بالنسبة له، حتى ولو لم تلتق الشابة بالمستر ونكل، هذا ما أحببت أن أقوله يا سيدي، وأرجو أن يكون بال هذا السيد قد استراح من هذه الناحية».

وساد السكون لحظة عقب هذه الملاحظات المواسية التي أبداها

المستر ولر، ونهض المستر بن ألن أخيرًا، بينما انبري المستر بب سوير رغم توكيدات سام وملاحظاته، يقسم مغلظ الأقسام بأنه سينتقم من ذلك العريس السعيد.

ولكن عندما تعقدت الأمور أشد التعقيد، وأنذر الموقف بأنه لن ينفرج، لم يلبث المستر بكوك أن وجد من السيدة العجوز نصيرًا قويًّا، فقد تبين أنها تأثرت كثيرًا بالطريقة التي ناضل بها عن ابنة أخيها، فأقدمت على تذكير المستر بنجمن ألن ببضع خواطر مرفهة مواسية، لتهدئة ثائرته، وكان أهمها أنه بعد كل ما جرى لا يزال الأمر حسنًا، ما دام لم يزدد سوءًا، وأنه كلما قل الكلام، سهل الإصلاح وهان، وراحت تقسم أنها لا تدري أن الأمر سيئ بأية حال، وأن ما انتهى لا سبيل إلى بدئه من جديد، وإن ما لا يمكن علاجه، يتيسر احتماله، وما إلى هذه التوكيدات وأمثالها من الحجج الجديدة والأمثلة المعززة لها، فكان رد المستر بنجمن ألن عليها جميعًا أنه لا يقصد أي انتقاص من مكانة عمته، أو امتهان لأحد من الحاضرين، ولكن ما دام الأمر كذلك، وما داموا تاركيه يمضي في طريقه، فإنه ليسره أن يكره أخته إلى الموت وبعد الموت كذلك.

وأخيرًا، بعد أن كرر الفتى الناقم هذه العبارة خمسين مرة، عمدت السيدة العجوز فجأة إلى التحفز، وراحت تبدو رائعة جليلة، وهي تقول: إنها تريد أن تعرف ماذا جنت حتى لا تحترم سنها، ولا يوقر مقامها، وأنها ترجو وتلح على ابن أخيها الذي كانت تذكره قبل أن يولد بخمسة وعشرين عامًا أو قرابتها، والذي عرفته حين لم تنبت سن واحدة في فمه،

فضلًا عن حضورها أول مرة يقص له الحلاق فيها شعره، واشتراكها في عديد المناسبات والحفلات في عهد الطفولة، وهي مناسبات تكفي في ذاتها، ومدى أهميتها، لإعطائها حقًّا في مودته لها، وطاعته لأمرها، وعطفه عليها إلى الأبد.

وبينما كانت السيدة العجوز مسترسلة في هذا العتب على ابن أخيها، كان بب سوير والمستر بكوك قد انصرفا إلى الغرفة الداخلية لحديث خاص بينهما، شوهد المستر سوير خلاله يلجأ مرارًا إلى رفع زجاجة سوداء إلى شفتيه، فلم تلبث تقاطيع وجهه من أثرها أن اتخذت شيئًا فشيئًا سمات الفرح، بل التهلل والمرح، وأخيرًا خرج من الغرفة والزجاجة في يده فقال: إنه يأسف جد الأسف؛ لأنه كان أحمق متهورًا في تصرفه، وأنه يقترح شرب نخب المستر ونكل ومسز ونكل، وأنه أبعد ما يكون من الشعور بالحسد، وسيكون أول من يهنئهما بذلك الزواج الهني السعيد. وما كاد المستر بن ألن يسمع هذا القول حتى نهض فجأة من مجلسه، وتناول الزجاجة السوداء فشرب النخب بكل حماسة، وكان الشراب قويًّا باطشًا فكاد لون وجهه يرتد مسودًّا كالزجاجة ذاتها. وأخيرًا طافت الزجاجة حول الجمع حتى فرغت مما فيها، واشتدت حركة المصافحة وتبادل التهنئات، حتى لقد تنازل المستر مارتن ذو الوجه النحاسي فابتسم.

وقال بب سوير وهو يفرك يديه: «والآن سنستمتع بليلة فرح ومرح».

وقال المستر بكوك: «آسف لأني مضطر إلى العودة إلى الفندق، فلم أعتد احتمال التعب في هذه الأيام، وقد نهكتني الرحلة وأتعبتني إلى

أقصى حدود التعب».

وقالت السيدة العجوز بلطف لا يقاوم: «هل لك في قدح من الشاي يا مستر بكوك؟».

وأجاب قائلًا: «شكرًا لك يا سيدتي، أوثر ألا أتناول شيئًا».

والواقع أن إعجاب السيدة العجوز كان السبب الأكبر الذي حمل المستر بكوك على الانصراف، فقد تذكر مسز باردل، وكانت كل نظرة من عيني السيدة العجوز ترسل العرق البارد يتصبب من سائر أوصاله.

ولما لم تجد أية وسيلة في إقناع المستر بكوك بوجوب البقاء، تم الاتفاق في الحال، بناء على اقتراحه، على أن يصحبه المستر بنجمن ألن في سفره لمقابلة والد المستر ونكل، وأن تكون المركبة بالباب في التاسعة من صباح اليوم التالي. واستأذن المستر بكوك في الانصراف، وتبعه صمويل ويلر، وعاد إلى فندق «بش»، ومما يجدر ذكره هنا أن وجه المستر مارتن راح يتقلص بشكل شنيع وهو يصافح سام عند توديعه، وأنه أرسل ابتسامة، ويمينًا في وقت واحد، عللهما الذين يعرفون غرائب أطواره، بأنه أراد بهما التعبير عن سروره البالغ بمحضر المستر ويلر، وطلب التشرف بزيادة معرفته.

وقال سام حين وصلا إلى الفندق: «هل آمر بغرفة خاصة يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «كلا يا سام، لا ضرورة، فكما أني تناولت العشاء في قاعة القهوة وسأبادر إلى الفراش، فلا يستحق الأمر إعداد غرفة خاصة، انظر يا سام هل في قاعة المسافرين أحد؟».

فانطلق المستر ويلر ليرى، وعاد في الحال، فقال: «إنه ليس فيها سوى سيد أعور، وأنه هو ورب الفندق يتعاطيان «دنًّا» من شراب «البيشوب»[(١)]».

وقال المستر بكوك: «سأنضم إليهما».

وقال المستر ويلر وهو يتقدم سيده: «إن هذا الأعور يا سيدي «عميل» غريب، وهو «يدجل» على صاحب المحل يا سيدي حتى لم يعد يعرف هل هو واقف على حذائه أو على قبعته».

وكان الشخص الذي عناه المستر ويلر بهذا الوصف جالسًا في أقصى القاعة حين دخل المستر بكوك. وكان يدخن في قصبة كبيرة من النوع الهولندي، وعينه الواحدة لا تفارق النظر إلى وجه رب الفندق، وهو شيخ لطيف المعشر مستدير الوجه، يبدو كأن الرجل الأعور كان يقص عليه منذ لحظة قصة عجيبة، بدليل صيحات الشيخ المتوالية بين هنيهة وأخرى، وقوله: «يا للعجب! ما كنت لأصدق شيئًا كهذا! هذه أغرب قصة سمعتها في حياتي! ولا أحسبها ممكنة ولا جائزة الوقوع!» وما إليها من صيحات التعجب التي كانت تنبعث مرة واحدة من بين شفتيه، وهو يرد على نظرة الأعور وحدجته.

وقال الرجل الأعور للمستر بكوك: «خادمك يا سيدي، ليلة رائعة يا سيدي».

---

(١) شراب يشبه «الكوكتيل» وهو مزيج من خمر وبيض وسكر وتوابل.

وأجاب المستر بكوك: «هي كذلك فعلًا»،وكان الخادم قد جاء في تلك اللحظة فوضع أمامه زجاجة صغيرة من البراندي وقليلًا من الماء الساخن.

وبينما كان المستر بكوك يمزج البراندي بالماء، التفت الرجل الأعور نحوه باهتمام ظاهر، وظل يتطلع إليه بين لحظة وأخرى، ثم سأله أخيرًا: «أعتقد أنني رأيتك قبل الآن».

وأجاب المستر بكوك: «لا أذكر».

وقال الرجل ذو العين الواحدة: «حقيقة؛ لأنك لم تعرفني، وإنما عرفت أنا صديقين من أصدقائك كانا نازلين في فندق «البيكوك» (الطاووس)، في إيتنزول أيام الانتخابات».

وصاح المستر بكوك: «آه! فعلًا!».

ومضى الرجل يقول: «نعم، وكنت أحدثهما عن واقعة حال جرت لصديق لي يدعى «توم اسمارت» ولعلك سمعتهما يتحدثان عنها».

وقال المستر بكوك مبتسمًا: «كثيرًا من المرار، وأظن أنه كان عمك؟».

وأجاب ذو العين الواحدة: «كلا، كلا، بل كان صديقًا لعمي لا أكثر».

وقال رب الفندق وهو يهز رأسه: «ولكن عمك كان بلا شك رجلًا عجيبًا».

وأجاب ذو العين الواحدة: «أعتقد أنه كان كذلك، أو يصح أن أقول إنه كذلك، وفي وسعي أن أقص عليكما أيها السيدان قصة عن هذا العم

أعتقد أنها ستدهشكما».

وقال المستر بكوك: «هل يمكن؟ دعنا نسمعها بكل سرور».

وهنا سكب التاجر المتجول ذو العين الواحدة «شرابًا» في كأسه فشربه، وجذب نفسًا طويلًا من القصبة الهولندية، ثم نادى سام ويلر، وكان هذا واقفًا بقرب الباب، فقال له إنه لا حاجة به إلى الانصراف إلا إذا أراد هو نفسه؛ لأن القصة ليست سرًّا، ثم أرسل نظره مليًّا إلى رب الفندق، وبدأ يقص القصة التالية:

* * *

الفصل التاسع والأربعون

قصة عم «التاجر المتجول»

قال التاجر المتجول: «كان عمي أيها السادة من أكثر خلق الله مرحًا، وأبرعهم دعابة، وأشدهم فطانة وذكاء، وليتكم عرفتموه أيها السادة، لكني بعد التروي والتفكير، لا أتمنى لكم معرفته؛ لأنكم لو كنتم عرفتموه، لأصبحتم اليوم جميعًا، في خطة الطبيعة، ومجرى الزمان، أقرب ما تكونون من الموت، إن لم تكونوا قد متم فعلًا، فاضطررتم إلى أن تخلدوا إلى المقام في بيوتكم، وإيثاركم العزلة عن الناس، وهو ما كان يحرمني من متعة التحدث إليكم الآن. أيها السادة لوددت لو أن آباءكم وأمهاتكم عرفوا عمي، إذن لأولعوا حقًّا به ولا سيما أمهاتكم، وإني لواثق أنهن كن سيرحن عنه راضيات معجبات، وإذا كانت ثم صفتان فيه غالبتان على ما عداهما من الصفات وأنها لكثيرة متعددة، فهما الإقبال على شرب «البنتش» المشعشع، والغناء بعد العشاء، وأستميحكم معذرة عن الوقوف طويلًا عند هذه الذكريات المحزنة للأقدار الراحلة،

فإنكم لن تشهدوا رجلًا كعمي في كل يوم من أيام الأسبوع التي تمر بنا في هذه الحياة.

ولقد كنت أبدًا أعد من محامد عمي الكبرى أيها السادة، تلك الصداقة الوثيقة التي كانت بينه وبين صديقه الحميم توم اسمارت، ومن بين بيلسن واصلم التجاري بشارع كتنتن بحي «المدنية»، وكان عمي محصلًا في شركة «تيجن وولبس» ولكن رحلاته وأسفاره ظلت عهدًا طويلًا قريبة من رحلات توم اسمارت وسفراته أو تكاد تكون واحدة، وأحس عمي ميلًا إليه لأول عهده بلقائه في ذات مساء، وشعر توم بميل نحو عمي كذلك، وكانا قد تراهنا على قبعة جديدة قبل تعارفهما بنصف ساعة، وكان الرهان على أيهما أحسن إعدادًا لفنتين من «البنتش» وأسرع من صاحبه في اجترائه، وقد حكم لعمي بأنه أبرعهما في إعداده، ولكن توم غلبه في سرعة شربه بما يملأ نحو نصف ملعقة ملح، وعادا فتناول كل منهما على حدة فنتين آخرين في صحة صاحبه، ومن ذلك العهد أصبحا صديقين حميمين على الدهر، إن في هذه الأشياء أيها السادة قدرًا مقدورًا هيهات لنا أن نجد منه المفر.

وكان عمي من ناحية الشكل أقصر قليلًا من الحجم المتوسط، وأسمن كذلك بقليل من سائر الناس، ولعل وجهه كان أشد احمرارًا هونًا ما، وقد أوتي ألطف وجه رأيتموه أيها السادة وأكثر المعارف مرحًا، كأنما هو أقرب ما يكون شبهًا بصورة «البتش»[1] وكان مليح الأنف والذقن، وكانت عيناه لا تكفان عن الاختلاج والبريق والاتقاد من المرح،

---

(١) Punch وهو شخصية تمثيلية مرحة يشبه «القرجوز» عندنا ولكن وجهه جميل وردي.

وله ابتسامة ليست كابتساماتكم «الخشبية» الخلية من المعاني، ولكنها ابتسامة صادقة، مرحة، صادرة من سويداء القلب، وصفاء المزاج، لا يفتر وجهه لحظة عنها، وقد حدث يومًا أن هوى من فوق مركبته، رأسًا على عقب، فاصطدم بحجر من معالم الطريق، فلبث طريحًا في مكانه، مضعضع الحواس مصابًا بجرح في وجهه من بعض الأحجار الصغيرة التي كانت متراكمة بجانبه، حتى لو أن أمه، على حد تعبير عمي القوي ذاته، عادت إلى الأرض لما عرفته. والواقع أيها السادة أنني أشعر كلما فكرت في الأمر بأنها حقًّا ما كانت لتعرفه؛ لأنها ماتت حين كان عمي يبلغ من العمر عامين وسبعة أشهر، وأكبر ظني أن حذاءه الطويل، بغض النظر عن الحجارة التي جرحت وجهه، كان سيذهلها كثيرًا، إذا نحن أغضينا عن وجهه الأحمر الوضاح اللطيف، ولكنه على كل حال لبث راقدًا في ذلك الموضع، وقد سمعت عمي مرارًا يقول: إن الرجل الذي التقطه روى كيف شهده مبتسمًا متهللًا كأنما هوى من المركبة تسلية ولهوًا، وأنه بعد أن حجموه، كان أول بوادر صحوه وأمارات مثابه إلى شعوره، قفزه فوق السرير وإرساله ضحكة مدوية في الفضاء، وهجومه على الفتاة التي كانت ممسكة بطست الحجامة لثمًا وطلبه شريحة من لحم الضأن وجوزة مخللة، وكان مولعًا أيها السادة بالجوز المحفوظ، ويقول: إنه قد وجد أن الجوز إذا أخذ من غير خل جعل للجعة مذاقًا طيبًا شهيًّا.

وكانت أهم أسفار عمي في الخريف على سقوط أوراق الشجر، لتحصيل الديون، وتصدر إليه الأوامر بالسفر إلى الشمال، من لندن إلى

أدنبرة، ومنها إلى جلاسجو، ثم الأوبة إلى لندن، في مركب ذي شراع وأرجو أن تذكروا أن زورته الثانية لأدنبرة كانت لمزاجه ومتعته الخاصة، فقد اعتاد الذهاب إليها لقضاء أسبوع أو نحوه، ورؤية أصدقائه القدامى وتناول الفطور مع هذا، والغداء مع ذاك، والعشاء مع ثالث، وطعمة الليل مع رابع، فكان الأسبوع كله حافلًا بمتع ومآدب ومجالس سمر وشراب، ولست أدري هل أسهم أحدكم يومًا أيها السادة في الاستمتاع بفطور اسكتلندي شهي كريم، ثم الاشتراك في غداء خفيف لا يحوي أكثر من نصف «أردب» من محار البحر، وست زجاجات أو نحوها من الجعة، وزجاجة أو زجاجتين من الويسكي «لتختموا» بها الطعام، فإن كنتم قد استمتعتم بشيء من هذا أو نحوه، فسوف توافقون على قولي إن الذهاب بعد ذلك إلى تناول العشاء يحتاج إلى «رأس قوي» هوفاما.

ولكن بارك الله لكم في قلوبكم وحواجب أعينكم، أيها السادة، لقد كان ذلك كله شيئًا تافهًا لا يذكر بالنسبة إلى عمي، فقد كان قوي «الشهية» حتى ليبدو ذلك لديه «لعب أطفال»، ولقد سمعته يقول إن في إمكانه أن يتفوق على أهل مدينة «ضندي» كلهم في أي يوم في كثرة الشراب، وينصرف إلى البيت غير مهتز ولا متعثر، ، ولا مترنح، مع أن أهل ضندي أيها السادة قد أوتوا رؤوسًا صلبة، ومعدًا قوية، لا أحسبكم تلتقون بأمثالهم في أي بلد من البلاد الواقعة بين القطبين، فقد سمعت عن رجل من أهل جلاسجو، كان يشارب آخر من سكان «ضندي»، خمس عشر ساعة في جلسة واحدة، وقيل لي إنهما اختنقا معًا في وقت واحد- وهو المنتظر أو قريب منه- ولكن مع فارق لا يذكر أيها السادة،

وهو أن ذلك الشرب الرهيب لم يحدث أي أثر سيئ فيهما، أو تبدو عليهما أمارات السكر الشديد.

وحدث في ذات ليلة خلال أربع وعشرين ساعة من الموعد الذي قرر فيه عمي العودة بالمركب إلى لندن، أن كان يتناول العشاء في دار صديق قديم يدعى «بيلي ماك» أو شيئًا من هذا القبيل مع لقب آخر من أربعة مقاطع ويقيم في مدينة «أدنبرة» القديمة، وقد اشتركت في العشاء زوجته وبناته الثلاث وولده الكبير، وثلاثة أو أربعة من الاسكتلنديين الأشداء الغزار الحواجب دعتهم الأسرة تكريمًا لعمي وزيادة في البهجة والإيناس، وكان العشاء فخمًا، يحوي «سلمون» مقددًا، وسمكًا آخر من نوع «الرنكة»[1] ورأس خروف، وطبقًا اسكتلنديًا مشهورًا عندهم يدعى «الهاجيس»، كان عمي أبدًا يقول عنه إنه يتلفت إليه، ويبحث عنه، كلما جاء هذا الصنف إلى المائدة، أشبه شيء بمعدة كيوبيد[2]، كما حوى العشاء أصنافًا كثيرة جدًّا نسيت أسماءها، وإن كانت مع ذلك طيبة شهية، وكانت نساء الأسرة مليحات لطيفات، وكانت الزوجة من ألطف المخلوقات، وكان عمي صافي المزاج تمامًا، وكانت النتيجة أن البنات جعلن يقهقهن ويضحكن، والأم ترسل ضحكًا صاخبًا والرجل ومدعويه يزأرون زئيرًا حتى احمرت منهم الوجوه طيلة الوقت، ولا أذكر تمامًا كم عدد «بواطي» الويسكي التي شربها كل منهم بعد العشاء، ولكني أعرف أن الولد الكبير، حوالي الواحدة بعد منتصف الليل كان قد اشتد به السُّكر

(١) Finnan had dock.

(٢) إشارة إلى شدة الشهية.

فغاب عن حواسه وهو يحاول التغني بأول مقطع من أغنية معروفة، وكان عمي قبل ذلك بنصف ساعة الرجل الوحيد الذي ظل ظاهرًا فوق المائدة، فخطر له أنه قد حان أن يفكر في الانصراف، ولا سيما أن الشرب كان قد بدأ من السابعة، حتى يتمكن من الوصول إلى الفراش في ساعة مناسبة، ولكنه اعتقد أن ليس من الأدب أن ينصرف على هذا النحو فانتخب نفسه للرياسة، بصوت واحد، وهو صوته، وتصدر المائدة، فصب شرابًا في كأسه ونهض ليقترح الشرب في صحته، ونهض فألقى على نفسه خطبة بارعة حافلة بالثناء المستطاب والتحيات الصادقات، وشرب النخب بحماسة بالغة، ولكن لم يفق من النوم أحد، فتناول عمي قطرات قليلة أخرى، صرفًا غير مشعشعة في هذه المرة، حتى يمنع الشراب الممزوج بالماء من الطغيان على معدته، وإحداث غثيان له، وألقى يدين عنيفتين على قبعته، وانطلق منصرفًا.

وكانت الليلة شديدة الريح، حين أغلق عمي باب منزل الأسرة وأنزل قبعته على رأسه حتى لا تطيرها الريح ودس يديه في جيبيه، وتطلع ببصره ليتفقد أحوال الجو، وكانت السحب مندفعة صوب القمر بأقصى سرعتها، حتى حجبته تمامًا في لحظة ما، ثم تركته في لحظة أخرى ينبعث من خلالها متجليًا بكل روعته، مرسلًا ضياءه يعم كل ما حوله، ولا يلبث أن يعود فيغطيه بسرعة متزايدة غامرًا الكون كله في ظلام، وقال عمي مخاطبًا الجو: «هذا عمل غير نافع فعلًا»، كأنما أحس أن ما فعله الجو والسحاب إهانة شخصية له، ومضى يقول بقوة: «ليس هذا بالجو المناسب لي في الذهاب إلى البيت، هذا لا ينفع بأي حال» وظل يردد

هذه العبارة، حتى أصبح من المشقة عليه استرداد توازنه، لما أصابه من الدوار لإطالة التطلع ببصره إلى السماء، وانطلق مرحًا مسرورًا في سبيله.

وكانت دار «آل بيلي» في حي «كننجيت»، وكان عمي يريد الذهاب إلى الطرف الآخر من طريق «ليث» وهي مسافة تتجاوز ميلًا بقليل، وكانت الدور على كلا جانبيه قوائم ذاهبات برؤوسها في الفضاء المظلم كالعمالقة، ذوات وجهات لفح الزمان منها الألوان والطلاء، وشرفات ونوافذ تبدو كأنها تحاكي أبصار الأحياء، وتماثل أعين الناس، قوائم غائرات في المحاجر من طول العمر، وامتداد السنين، ولاحت له البيوت مؤلفة من ستة أدوار أو سبعة أو ثمانية، بعضها فوق بعض طبقات، كما يبني الولدان بيوتًا من الأوراق وهي تلقي ظلالها السود على الطريق الوعر الصلب الأديم، وتحيل الليل المظلم أشد ظلامًا، وكانت بضعة مصابيح مضاءة بالزيت متناثرة إلى مكان بعيد، ولكنها لم تكن تكشف إلا عن مدخل قذر إلى درب ضيق، وإلا عن سلم مشترك كثير المنعرجات، يربط بين مختلف الطباق، وراح عمي يرمق بنظره هذه الأشياء كلها رمقة الخبير الذي طالما ألم على أمثالها من قبل، فلم تعد تستحق الاهتمام، وهو يمشي في وسط الطريق واضعًا كل إبهام من إبهاميه في جيب صداره، متسليًا بين لحظة وأخرى بنتف من أغنية، يرفع بها عقيرته في سرور وحماسة ولذة، حتى أيقظ النوام في ذلك الحي الهادئ من أحلى نومة وجعلهم يستوون جلوسًا راعشين في سررهم، حتى يتلاشى الصوت مبتعدًا في الفضاء، مقنعي أنفسهم أنه لا بد من أن يكون ذلك الصوت صوت سكران لا يعي وهو راجع إلى بيته، فلا يلبثون

أن يتغطوا ليدفئوا أنفسهم ويعودوا إلى النوم.

وإذا رأيتم أيها السادة أنني مدقق في وصف عمي وهو يسير في وسط الطريق واضعًا إبهاميه في جيبي صداره؛ فما ذلك إلا لأن هذه القصة- كما اعتاد في أغلب الأحيان أن يقول، وهو على حق تمامًا- تبدو عادية لا غرابة مطلقًا فيها، إذا أنتم لم تفهموا بوضوح من البداية أنه لم يكن مطلقًا بالرجل الخيالي، النازع إلى التصورات الغريبة والأوهام.

وكذلك ظل عمي أيها السادة منطلقًا وإبهاماه في جيبي صداره، متخذًا مشرع الطريق لنفسه خاصة، ومترنمًا تارة بأبيات من أغنية غرام، وأخرى بأغنية سُكر وخمر، وإذا مَلَّهُمَا معًا، انبعث يطلق صفيرًا منغمًا، حتى وصل إلى الجسر الشمالي «نورث بريدج» الذي يصل في ذلك الموضع بالذات بين مدينة أدنبرة القديمة وبين المدينة الجديدة، فوقف لحظة لينظر إلى تلك العناقيد الغريبة من المصابيح والأنوار المتراكمة المتلألئة كأنها الكواكب، المنبعثة من جدران الحصن القائم في ناحية، وتل كولتن من ناحية أخرى، كأنما تضيء حصونًا، وقصورًا في الفضاء، بينما كانت المدينة القديمة البديعة الشكل نائمة تغط في سباق عميق، وظلمة غامرة، وقصرها وكنيسة «هوليرود» وقد قام على حراستهما ليلًا ونهارًا، كما اعتاد صديق لعمي أن يقول «قصر آرثر» الشامخ مطلًّا في نظرة عابسة قاتمة كبعض الجان على المدينة القديمة التي حرسها من قديم الزمان. أقول أيها السادة: إن عمي وقف في ذلك المكان لحظة ليتلفت حوله، ثم انثنى يحيي الجو ويشكر له أن رآه قد راق قليلًا وصفا، وإن لبث القمر هابطًا منحدرًا، ثم عاد يسير في روعة وجلال كما كان من

قبل متخذًا مشرع الطريق لنفسه في أبهة بادية، وكأنه يود لو يلتقي بأحد يريد أن ينازعه ملكية ذلك الطريق، ولم يكن ثمة إنسان في ذلك الوقت حتى ينازعه، فانطلق كالحمل الهادئ، ولا يزال إبهاماه في جيبي صداره.

ولما وصل عمي إلى نهاية طريق «ليث» وجد نفسه مضطرًا إلى اختراق قطعة كبيرة من الأرض الفضاء تفصله عن شارع قصير، ، ينعطف عنده ويذهب رأسًا إلى مسكنه، وكان في تلك الأرض الفضاء، في ذلك العهد، فناء مسور يملكه مقاول مركبات، متعاقد مع مصلحة البريد على شراء مركباتها البالية، وكان عمي مولعًا كل الولوع بالمركبات، الجديد منها والقديم، والتي منها بين بين، فلم يلبث أن خطر بباله أن ينحرف عن جادَّة الطريق لا لشيء سوى إلقاء نظرة على تلك المركبات من خلال السياج، وكانت نحو اثنتي عشرة منها كما يذكر متقاربات في داخل الفناء، مفككة الأوصال في حالة حزن ووحشة بالغة وكان عمي أيها السادة رجلًا سريع الحماسة، شديد التدقيق، فلما وجد أنه لم يستطع الظفر بنظرة شاملة من خلال قضبان السور، انثنى يتخطاه، ويهبط بهدوء فوق محور دواليب قديم، وبدأ يتأمل المركبات باهتمام شديد.

ومن المحتمل أن يكون الفناء قد حوى اثنتي عشرة منها أو من الجائز أن يكون العدد أكثر، فإن عمي لم يكن متأكدًا كل التأكيد، فقد كان رجلًا كثير التشكك في مسألة الأعداد، وحساب الأرقام؛ ولهذا لم يقطع برأي في عددها بالضبط، ولكنها كانت في ذلك الفناء متحاضنة متلاصقة في أشد ما تكون الوحشة، وأكأب ما يكون الانفراد، وكانت الأبواب منزوعة من مفاصلها وملقاة طرائح في كل مكان، والبطانات

منحسرة ممزقة لم يبق منها إلا مزق متدلية هنا وهناك من مسمار صدئ، وذهبت المصابيح عنها، وتوارت العمد، وصدأ منها الحديد، وانمحى الطلاء، وجعلت الريح تصفر من خلال الثقوب البادية في الأخشاب الجرداء، والمطر المتجمع فوق السطوح يتساقط قطرات إلى أجوافها محدثًا أصواتًا حزينة جوفاء، فقد كانت تلك البقايا هياكل بالية لمركبات راحلة، تبدو في ذلك المكان القفر، وفي تلك الساعة من الليل، بشعة الصور نكراء.

وأغمد عمي رأسه بكفيه وأنشأ يصور في خاطره زحام الخلق الذين كانوا منذ سنين يسافرون في تلك المركبات، فأمسوا اليوم في الأجداث هامدين، أو تغيرت الدنيا لهم، وتقلبت بهم السنون، وتمثل في ذهنه عديد الركب الذين كانت تقلهم مركبة منها ليلة بعد ليلة، على مطال الأعوام، وفي مختلف الجواء، وما كانوا يتلهفون عليه من أنباء، ويتطلعون إليه من آمال، وما يؤكد الأساة لهم من صحة وأمان، وما يفاجأون به من سقام ومنايا، ومنهم التاجر، والزوجة، والعاشق والأرملة والأم والطالب، بل الطفل الصغير ذاته الذي يعدو إلى الباب، على دقة ساعي البريد... وكم كان أولئك جميعًا يتطلعون إلى وصول المركبة لاهفين واليوم أين هم، وماذا صنع الدهر بهم؟

وكان من عادة عمي أيها السادة أن يقول إنه كان يفكر في ذلك كله في وقت واحد، ولكني أحسبه قد عرفه من بعض الكتب بعد ذلك؛ لأنه اعترف بصريح القول إنه أغفى وهو جالس فوق ذلك المحور القديم، ينظر إلى حطام تلك المركبات التالفة، وأنه أفاق من إغفاءته فجأة على

ناقوس كنيسة يدق اثنتين، ولم يكن عمي مفكرًا سريع التفكير، وإذا كان قد فكر في ذلك كله فلا ريب عندي في أن التفكير فيها لبث إلى الساعة الثانية والنصف على أقل تقدير، فلا عجب أيها السادة إذا اعتقدت جازمًا أن عمي قد أغفى دون أن يفكر في شيء إطلاقًا.

ومهما يكن من هذا الأمر، فإن ناقوس الكنيسة كان قد دق اثنتين، فصحا عمي من إغفائه وفرك عينيه، ووثب من فوق المحور القديم مدهوشًا.

ولم يكد الناقوس يؤذن الثانية حتى استحالت هذه البقعة القفر الهادئة إلى مشهد حياة ونشاط غير مألوف، وحركة نهاية في الغرابة، فإذا أبواب المركبات قد ردت إلى مفاصلها، والبطائن أعيدت إلى أماكنها، والمصابيح أضيئت، والوسائد والمعاطف قد وضعت على الرفوف، والحمالون يدفون بالرزم والحقائب في كل مستودع، والحراس يقطرون زكائب البريد، وساسة الخيل يلقون بدلاء مليئة بالماء على العجلات، وخلق كثير من الناس رائحون غداة، يركبون أعمدة في كل مركبة، والمسافرون قد وصلوا إلى الموضع، فسلموا ما لديهم من الحقائب، والخيل قد أسرجت، وبدا كل شيء باختصار يوحي بأن جميع مركبات البريد على أتم الأهبة للمسير. وفتح عمي عينيه أيها السادة على سعتهما إزاء هذا المشهد العجيب، حتى لقد ظل إلى آخر لحظة من حياته يعجب كيف تواتى له أن يغمضهما بعد ذلك.

وسمع صوتًا، وشعر بيد على كتفه، وقال الصوت: «والآن، إنك محتجز لنفسك مقعدًا في الداخل، فيحسن بك أن تدخل».

وتلفت عمي حوله قائلًا: «أنا محتجز مقعدًا!».

- «نعم، بلا شك».

ولم يستطع عمي أن يقول شيئًا، فقد كان رهن دهشة متناهية، وكان أغرب ما في الأمر أن الزحام كان شديدًا، ، وأن سيلًا آخر من الوجوه كان يتدفق في كل لحظة ولا يدري عمي من أين أتوا حشودًا وجموعًا على تلك الصورة، كأنما قد انشقت الأرض عنهم، أو هبطوا من أقطار السموات، وراحوا يتوارون بذلك الشكل الغريب الذي أقبلوا به، فقد رأى عمي حمَّالًا قد وضع عنه أحماله فألقاها في جوف المركبة وتلقى أجره، ثم دار بعينيه، وتلاشى كأن لم يغن منذ لحظات، وقبل أن يتمكن من التساؤل عجبًا أين تراه ذهب، لاحت منه نظرة فإذا هو يبصر آخرين قد تراءوا أمامه وهم يرزحون تحت الحقائب والأمتعة الثقال التي كانوا ينوءون بها وتكاد تحطم ظهورهم حطمًا، وكان المسافرون أيضًا في أزياء غرائب، بين سترات وأردية فضفاضة عريضة الحواشي ذوات أكمام طوال، ودون أطواق، وبين ضفائر وجدائل ذوات «عدائب» وأناشيط في أذيالها وأطرافها، حتى لقد وقف عمي حائرًا مترددًا لا يدرك من كل ذلك شيئًا.

وقال الذي تحدث إلى عمي من قبل: «والآن، ألا تنوي أن تدخل؟».

وكان يرتدي زي حراس المركبات، ويضع ضفيرة صغيرة فوق رأسه، وله ردنان رحيبان، وهو يحمل مصباحًا بإحدى يديه، وبندقية قصيرة ضخمة بالأخرى، كان يهم بإلقائها في صندوق سلاحه.

وعاد ذلك الحارس يقول وقد رفع المصباح إلى وجه عمي:

«ألست تريد أن تدخل يا جاك مارتن؟».

وأجاب عمي وهو يتراجع خطوة أو خطوتين: «ها، أهكذا من غير كلفة؟».

وقال الحارس: «هذا هو الاسم المكتوب في قائمة المسافرين».

وقال عمي: «أليس فيها السيد فلان؟».

فقد شعر عمي، أيها السادة، بأن مناداة حارس لا يعرفه باسمه هكذا مجردًا من أي احترام، تصرف جريء لن ترضى عنه مصلحة البريد إذا علمت به.

وأجاب الحارس: «كلا، ليس في القائمة شيء كهذا».

وقال عمي: «وهل الأجر مدفوع؟».

وأجاب الحارس: «بالطبع، مدفوع».

وقال عمي: «إذن هيا، في أي مركبة أدخل؟».

وقال الحارس وهو يشير إلى مركبة قديمة الطراز مخصصة للسفر بالبريد بين أدنبرة ولندن، وقد أنزل سلمها لكي يصعد عليه الركاب: «هذه، قف، ها هم أولاء المسافرون الآخرون، ليدخلوا هم أولًا».

وما إن قال الحارس هذا، حتى بدا القوم في الحال أمام عمي، ومن بينهم سيد في مقتبل العمر يضع ضفيرة مزدانة بالمساحيق، ويرتدي سترة زرقاء صافية كأديم السماء، مزخرفة الأطراف بالفضة، عريضة

الحواشي، مبطنة بقماش خشن من البكرام، وقد ظهر اسم «تيجن وولبس» على البفتة المطبوعة، والصدار، فعرف عمي أيها السادة، كل الأقمشة والمواد المصنوعة منها في الحال، وكان ذلك الشاب يلبس سراويل قصيرة إلى الركبتين ويغطي جوربيه الحريريين بنوع من اللفائف، وينتعل حذاء بمشبك، ويزين ردنيه عند المعصمين بكشكشة مزركشة، ويضع قبعة مثلثة الزوايا فوق رأسه، وسيفًا مستدق الطرف إلى جانبه. وكانت أطراف صداره متدلية إلى فخذيه، وأذيال ربطة عنقه تبلغ الخاصرة، وقد تقدم بجلال واتزان إلى باب المركبة، فحسر عن رأسه، وأمسك بالقبعة فوقه على طول ذراعه، هازًّا خنصره في الهواء كما يفعل بعض الناس حين يتناولون قدحًا من الشاي، ثم لصق قدميه إحداهما بالأخرى، وانحنى انحناءة وقورًا مهيبة، ثم مد يده اليسرى، وكان عمي يهم بالتقدم ليتناولها في كفه مصافحًا، ولكنه أدرك أن هذه اللفتات لم تكن موجهة إليه، بل إلى شابة تراءت في تلك اللحظة عند أسفل السلم مرتدية ثوبًا من القطيفة الخضراء قديم الطراز ذا خصر طويل، وصدرية، ولم تكن على رأسها قبعة، بل كانت حاجبته بغطاء من الحرير الأسود، وقد وقفت لحظة متلفتة حولها قبل دخول المركبة، فكشفت في استدارتها عن وجه جميل، لم ير عمي أيها السادة وجهًا في مثل جماله، ولا في الصور والرسوم، وصعدت المركبة وهي ممسكة طرف ثوبها بإحدى يديها، حاسرة عن ساقين وقدمين لم يكن عمي كما اعتاد أن يقول ويشفع القول بأغلظ الأيمان، كلما قص القصة، يصدق أن تكون السيقان والأقدام يومًا بذلك الجمال والكمال ما لم يرها رأي العين.

ولكن عمي بنظرة واحدة إلى ذلك الوجه الجميل رأى الحسناء تلقي عليه نظرة توسل ورجاء، وأدرك أنها تبدو مروعة واقعة في خطب شديد، ولاحظ أيضًا أن ذلك الشاب ذا الجديلة المجملة بالطلاء كان رغم ترائيه بالأدب الجم، والشهامة الرائعة، في معاملة النساء، واحترام الغيد، قد أمسكها بشدة من معصمها، حين دخلت المركبة، وتبعها هو في الدخول، على الأثر، وكان بين الركب رجل قبيح الصورة إلى حد غير مألوف، وضع على رأسه ضفيرة كثيفة سوداء وارتدى حلة خوخية اللون، وتمنطق بسيف ضخم، وانتعل حذاءً طويلًا يرتفع إلى حقويه، وقد جاء فجلس بجانب الحسناء، فانزوت على مقربة منه في ركن، فلم يلبث عمي أن تأكد أن الخاطر الأول الذي بدا له في محله، وهو أن هناك كيدًا يُكاد، وأن ثمة أمرًا غامضًا يوشك أن يقع، أو كما اعتاد أبدًا أن يقول: إن هناك مسمارًا رخوًا فالتًا في مكان ما، ومن العجيب كل العجب أن تصح في الحال نية عمي على نجدة الحسناء ولو استهدف لأي خطر، إذا كانت حقًّا بحاجة إلى المنجد والنصير.

وصاح الشاب وهو يضع يده على سيفه حين دخل عمي المركبة: «الموت والبرق!».

وزأر السيد الآخر: «الدم والرعد»، وانثنى يخرج سيفه، ويوجه به طعنة إلى عمي دون مقدمات ولا تمهيد، ولم يكن عمي يحمل سلاحًا، ولكنه ببراعة بالغة راح يختطف من فوق رأس الرجل الدميم الجهم قبعته المثلثة الأركان فتلقى بها سنان سيفه في جوفها وطبق جانبيها وأمسك بها بقوة وبأس شديد.

وصاح الرجل القبيح الصورة مخاطبًا رفيقه، وهو يحاول جاهدًا استرداد سيفه: «انخسه من الخلف!».

وصرخ عمي وهو ينزع أحد حذاءيه ويلوح بكعبه مهددًا: «أحسن به ألا يفعل، وإلا أخرجت مخه، إن كان له مخ، أو فدغت جمجمته إن لم يكن له»، وأقبل عمي يستجمع كل ما أوتي من قوة، وينتزع السيف من قبضة ذلك الرجل الدميم، ويطوح به من النافذة، وعندئذ صرخ الشاب: «الموت والبرق» مرة أخرى، ووضع يده على مقبض سيفه بوحشية ظاهرة وهياج شديد، ولكنه لم يخرجه من قرابه، ولعله أيها السادة كما اعتاد عمي أن يقول، خشي أن يروع السيدة الحسناء.

وقال عمي، وهو يتخذ في تؤدة وأناة مجلسه: «والآن أيها السيدان، لست أريد موتًا ببرق أو غير برق، في حضرة السيدة، وحسبنا ما كان من دم ورعد في رحلة واحدة، فلنجلس إذا تكرمتم في أماكننا كما يجلس الركاب الهادئون في داخل مركبة. أيها الحارس، التقط سكين القطع التي يملكها هذا السيد».

«ولم يكد عمي يفوه بهذه الكلمات حتى ظهر الحارس عند نافذة المركبة، وسيف الفتى في يده، ورفع مصباحه ونظر بجد إلى وجه عمي، وهو يسلم السيف، ولشد ما كانت دهشة عمي، إذ رأى على ضوء المصباح جمعًا جامعًا من حراس المركبات مزدحمين حول النافذة، وكل منهم يتفرس مليًا في وجهه، إذ لم يكن قد رأى في حياته بحرًا زاخرًا كهذا من الوجوه البيضاء، والأجسام الحمر، والأعين المتفرسة المحدقة فيه، فذهب يقول لنفسه: هذا أغرب شيء رأيته في حياتي،

اسمح لي يا سيدي أن أرد إليك قبعتك».

وتلقى الرجل الدميم قبعته المثلثة الأركان في صمت ونظر إلى الثقب الذي بدا في وسطها نظرة المتفحص، وأخيرًا لصقها فوق ضفيرته بجد بالغ، ووقار شديد، أفسده إلى حد ما بعطس خفيف انتابه في تلك اللحظة فأزاح القبعة مرة أخرى عن مكانها فوق هامته.

وصاح الحارس حامل المصباح وهو يصعد إلى مقعد صغير في المؤخرة: «كل شيء كامل»، وانطلقت المركبة، وانثنى عمي يطل من النافذة، وهي خارجة من الفناء، فتبين له أن المركبات الأخرى بسائقيها وحراسها وخيلها وركابها جميعًا، راحت تدور وتلف معًا في دوائر بحركة وئيدة، وسرعة لا تتجاوز خمسة أميال في الساعة، فكاد عمي يتميز من الغيظ أيها السادة، فقد كان رجلًا ذا صلة بالتجارة، ويشعر بأن حقائب البريد لا يصح العبث بها، وأسر في نفسه أن يقدم مذكرة في هذا الشأن إلى مصلحة البريد، بمجرد وصوله إلى لندن.

ولكنه في اللحظة الراهنة ترك خواطره وأفكاره منشغلة بالحسناء الجالسة في أقصى ركن من المركبة، حاجبة وجهها بغطاء رأسها، بينما جلس قبالتها السيد ذو السترة الزرقاء، وبجانبها السيد الآخر في الثوب الخوخي اللون، وهما يراقبانها باهتمام شديد، فإن هي حركت أطواء خمارها، ألقى الرجل الدميم السحنة يده فوق سيفه بحركة واضحة يسمعها عمي، كما تيسر له أن يسمع أنفاس الآخر؛ لأن الظلام كان شديدًا فلم يستطع رؤية وجهه. ويخيل إليه أنه قد انتفخ وهمَّ بأن يأكلها في لقمة واحدة، فازداد عمي انتباهًا وغضبًا فانتوى أن يرقب هذا المشهد

إلى نهايته، مهما تكن النتيجة، فقد كان عمي أخا صبابة، تعجبه الأعين النجل، وتفتنه الوجوه الملاح، وتستبيه السيقان والأقدام الجميلة. وجملة القول لقد كان عمي مولعًا بالجنس اللطيف كله، وهو ولع يجري في دم الأسرة أيها السادة، وأنا كذلك.

وحاول عمي مختلف الحيل ليجتذب إليه أنظار الحسناء، أو على كل حال جر السيدين الغريبين إلى الحديث، ولكن محاولاته ذهبت سدى، فإن السيدين أبيا أن يتحدثا، والحسناء لم تجسر على النظر إليه، فجعل يخرج رأسه على فترات من نافذة المركبة، ويصيح مسائلًا لماذا لا تسرع المركبة في سيرها، وظل يصيح حتى بح صوته، دون أن يعير أحد صيحاته تلك أقل اهتمام، فأسند ظهره إلى مقعده، وراح يفكر في الوجه الجميل والساقين والقدمين الفاتنتين، فكان ذلك خيرًا وأجدى، إذ روح عنه الملالة من طول الوقت، وأنساه التعجب من أمره، والتفكير في وجهته، وكيف وجد نفسه في ذلك الموقف الغريب، وإن لم يكن ذلك مزعجًا لخاطره كثيرًا، ولا هو على كل حال مثار قلق في نفسه، فقد كان عمي أيها السادة رجلًا حرًّا سهلًا حوامًا رحالة لا يأبه بشيء، ولا يحمل للدنيا همًّا.

ووقفت المركبة فجأة، وقال عمي: «ها! ما الذي أتت به الريح الآن؟».

وقال الحارس وهو ينزل السلم: «انزل هنا!».

وصاح عمي: «هنا؟».

وأجاب الحارس: «نعم، هنا».

وقال عمي: «لن أفعل شيئًا كهذا».

وقال الحارس: «حسن جدًّا، فلتبق إذن في مكانك».

وقال عمي: «سأفعل».

وأجاب الحارس: «ليكن».

وأعار الركب الآخرون هذا الحوار اهتمامًا كبيرًا، ولما رأوا أن عمي مصمم على البقاء في مقعده، انفلت الشاب من أمامه منكمشًا ليعاون الحسناء على النزول، بينما كان الرجل الآخر الدميم الخلقة يتفحص الثقب الذي في قمة قبعته المثلثة الأركان، وفيما كانت الحسناء تمر بعمي وثوبها يحف به، ألقت أحد قفازيها في يده وهمست له وشفتاها لصق وجهه حتى لقد أحس حرارة أنفاسها تهب على أنفه، كلمة واحدة، وهي «النجدة!» وإذا عمي أيها السادة يقفز في الحال من المركبة بشدة متناهية جعلتها تهتز فوق «لوالبها» اهتزازًا.

وقال الحارس حين رآه قد هبط الأرض: «آه، هل غيرت رأيك إذن؟».

ولبث عمي ينظر إليه بضع ثوان، متشككًا، مترددًا، هل ينتزع بندقيته منه فيطلقها في وجه الرجل ذي السيف الطويل، ويضرب الآخر بمؤخرها على أم ناصيته، ويختطف الحسناء منصرفًا بها في غمرة الدخان وذوائبه المتصاعدة؟

ولكنه بعد إعمال الفكر عدّل عن هذه الخطة، إذ بدت له أقرب ما تكون إلى حركة «مسرحية» عند التنفيذ، فلم يلبث أن قنع باقتفاء

الرجلين الغريبين، وكانا قد انطلقا، وهما محيطان بها من كلا الجانبين، فدخلا بيتًا قديمًا كانت المركبة قد وقفت قبالته، وعرجا على الردهة، فتبعهما إليه.

وكان ذلك البيت دون سائر الدور العتيقة المهدمة، والمساكن الخربة المهجورة التي شهدها عمي في حياته، أكثرها تداعيًا، وأهجرها أفقًا، فقد بدت كأنها كانت في سالف الدهر ملهى كبيرًا، وإن تهدمت سقوفه في عدة مواضع منه، وتداعت مدارجه وتحطم سلمه العالي، وكانت في الحجرة التي دخلاها موقدة كبيرة، وبدت المدخنة مسودة من كثرة السخام الذي علا أديمها، ولكن لم تكن النار في الموقدة مشتعلة، ولا مرسلة وهجًا ولا ضياء، ولا تزال ذرات الرماد الناعم الأبيض متناثرة حولها، وإن أمست باردة، والظلام حالكًا غامرًا مرهوبًا.

وقال عمي، وهو يدير العين فيما حوله: «يخيل إليَّ أن مركبة بريد تسير بسرعة ستة أميال ونصف ميل في الساعة، ثم تقف فترة غير محدودة بباب جحر كهذا، هو أمر غريب لا عهد لأحد به، وسأعرف الناس به، وأكتب إلى الصحف عنه».

وكان عمي قد فاه بهذه الكلمات بصوت جهير، وصراحة لا تحفظ فيها ولا احتياط؛ لكي يجر الرجلين الغريبين إلى الحديث إذا أمكن، ولكن أحدًا منهما لم يعره التفاتًا، بل ظلا يتهامسان وهما يهمهمان ناحيته، ويزمجران له، وكانت الحسناء في أقصى الحجرة، وقد تجاسرت مرة فلوحت بيدها، كأنما تتلمس منه المعونة.

وأخيرًا تقدم الغريبان قليلًا وبدأ الحديث بجد.

وقال الفتى ذو السترة الزرقاء: «أحسبك يا صاح لا تعرف أن هذه حجرة خاصة؟».

وأجاب عمي: «كلا، لا أعرف هذا، ولكن إذا كانت خاصة، وقد أعدت لهذه المناسبة بالذات، فإني أعتقد أن الحجرة العامة يجب أن تكون مريحة جدًّا».

وانثنى يجلس في مقعد ذي مسند مرتفع، وينظر إلى الرجل نظرة متفحصة، ليقيسهما قياسًا صحيحًا بعينيه، حتى ليتيسر لمصانع «تجن ولبس» للغزل والنسيج أن تزوده بقدر من قماش القطن يكفي لحلة كاملة، فلا تزيد ولا تنقص بوصة واخدة، عن هذا القياس الذي قدره.

وصاح الرجلان به في نفس واحد وهما يمسكان بسيفهما: «اخرج من هذه الحجرة».

وقال عمي وهو لا يبدي أية علامة على أنه فهم مرادهما: «إيه؟».

وعاد الرجل المنكر الطلعة يقول، وهو يسحب سيفه الكبير ويشهره في الفضاء: «اخرج من الحجرة، وإلا فأنت في الهالكين».

وصاح الآخر ذو الرداء الأزرق بلون السماء، وهو يشهر سيفه كذلك ويتراجع خطوتين أو ثلاثة خطوات: «ليسقط إذن! ليسقط!».

وأرسلت المرأة صرخة عالية.

وكان عمي معروفًا في كل حين بالشجاعة البالغة، وحضور البديهة، ورباطة الجأش، وكان في الوقت الذي تراءى فيه غير مكترث بما يجري

على عينيه، قد راح يجيل بصره فيما حوله بخبث ومكر، ملتمسًا مقذوفًا أو سلاحًا للدفاع عن نفسه، فإذا هو في تلك اللحظة التي امتشق الغريبان فيها سيفيهما، يبصر في ركن المدخنة خنجرًا قديمًا ذا مقبض في جراب صدئ، فهجم عليه بقفزة واحدة فتناوله في كفه واستله، ورفعه بجرأة فوق رأسه، وصاح بالمرأة أن تقف بمعزل، وقذف الرجل ذا الرداء الأزرق بالمقعد، والآخر ذو الرداء الخوخي، بالجراب، وانتهز الاضطراب الذي حدث عقب هاتين الحركتين، فانقض عليهما انقضاضة واحدة.

وهناك أيها السادة قصة قديمة، لا يزيدها سوءًا أنها حقيقة لا زيف فيها، عن سيد «أيرلندي» بديع في مقتبل الشباب، سئل يومًا هل يستطيع العزف على الرباب، فأجاب بأنه لا يشك في أنه مستطيع ذلك، ولكنه ليس واثقًا تمامًا؛ لأنه لم يجرب ذلك من قبل إطلاقًا، وهو مثل ينطبق على عمي في مناجزته الغريبين بذلك الخنجر المصلت في يمينه، فلم يحمل يومًا في كفه سيفًا، اللهم إلا مرة حين كان يمثل «ريتشارد الثالث» على مسرح خاص، وكان الاتفاق يومئذ قد تم على أن يطعن رتشموند من الخلف، دون إبداء أي حركة، أو إظهار نزوع إلى قتال، ولكنه كان في ذلك الموطن الذي نحن بسبيله يجول ويصول حيال رجلين بارعين في اللعب بالسيف حاذقين لفنون الكر والفر، وهو المهاجم المتوقي، والطاعن المتوثب، والضارب المجيد المتصرف تصرف المناجز الجسور، وإن كان إلى تلك اللحظة لا يدري شيئًا من مطالب هذا الفن ومستوجباته، ولم يؤت أقل فكرة عنه، وهو ما يدل على صدق المثل القديم، القائل أيها السادة إن المرء لا يعرف يومًا ما في إمكانه أن يفعل،

حتى يبلو ويجرب، وإن المعرفة ثمرة الاختبار.

وكانت جلبة القتال مروعة، فقد انطلق المناجزون الثلاثة يرسلون مغلظ الأيمان كالجنود، وأسيافهم تحدث صليلًا مترددًا مدويًّا، كأن كل السكاكين والمدي وأدوات القطع التي في سوق «نيو بورت» مقعقعة من تشابكها واصطدامها معًا، ولم تكد المعركة تبلغ الذروة، حتى حسرت الحسناء القناع عن محياها- وأكبر الظن أنها لم تفعل ذلك إلا لتشجيع عمي وإلهاب حميته- وكشفت عن وجه يخطف حسنه بالأبصار، حتى ليقدم على مقاتلة خمسين رجلًا لمجرد الظفر بابتسامة منه، ويسلم نفسه إلى الموت راضيًا، ولقد أتى بالعجائب قبل أن ينحسر القناع عن تلك الطلعة الباهرة، ولكنه بعد أن شهدها وبهره جمالها، ارتد جِنًّا مصورًا، وعفريتًا مريدًا، مذهوب اللب هاذيًا.

وفي تلك اللحظة حانت من الشاب ذي الردأة الزرقاء نظرة إلى الخلف فرأى الشابة حاسرة عن وجهها، فأطلق صرخة غضب وغيرة، ووجه سيفه إلى صدرها الجميل، وسدد ذبابته إلى قلبها، وإذا بعمي يرسل صيحة هلع ارتجع البيت منها ارتجاجًا، ولكن الحسناء تنحت قليلًا واختطفت السيف من كف الشاب قبل أن يسترد توازنه، ودفعت به إلى الجدار، وأنفذت النصل فيه إلى المقبض، وحجزته في مكانه، وتركته لا يريم، ولا يستطيع حراكًا، وكان ذلك مثلًا رائعًا يحتذى، فهجم عمي، وهو يرسل صرخة انتصار مدوية، ويحشد قوة غلابة لا سبيل إلى مقاومتها، فأرغم مناجزه على التراجع، في الاتجاه ذاته، وأطلق الخنجر القديم في قلب زهرة حمراء كبيرة كانت في صداره، فجعله

يتسمر ويجمد في مكانه بجانب صاحبه، حيث وقفا أيها السادة يهزان أذرعهما وسوقهما حولها، من شدة الألم، كتلك الدمى التي نراها في دكان اللعب، والتي تحركها الخيوط والحبال، وما برح عمي بعد ذلك الحادث يقول: إن هذه الوسيلة هي أضمن الوسائل التي عرفها للغلبة على العدو والتخلص منه، وإن كان ثمة اعتراض واحد عليها، وهو من ناحية الأكلاف؛ لأنها تقتضي فقدان سيف لقاء كل رجل يقهر فيعجز عن أية مقاومة أو نضال.

وصاحت الحسناء وهي تعدو نحو عمي فتطوق عنقه بذراعيها الجميلتين: «إلى المركبة، إلى المركبة، فلعلنا ناجيان».

وصاح عمي قائلًا: «لعلنا! ولم تقولين لعلنا يا عزيزتي هل من أحد آخر يراد قتله؟».

وكان عمي أيها السادة قد شعر عندئذ بشيء من الاستياء؛ لأنه كان يعتقد أن قليلًا من المغازلة في هدوء مستحب مستطاب عقب هذا التقتيل، ولو على سبيل التنويع، أو تغيير الموضوع.

وقالت الحسناء: «ليست أمامنا لحظة واحدة نضيعها هنا، فإن هذا (مشيرة إلى الفتى الأزرق الرداء) هو الابن الوحيد لمركيز فيلتوفيل الكبير النفوذ والجاه».

وقال عمي وهو ينظر ببرود إلى الشاب وهو مسمر جامد في مكانه لصق الجدار شبه الدمية التي وصفناها: «ولكني أخشى يا عزيزتي ألا يرث يومًا هذا اللقب؛ لأنك قطعت ذنبه يا حبيبتي».

وقالت الحسناء وقد أضاءت تقاطيع وجهها من شدة الغضب: «لقد انتزعني هذان الشقيان من أهلي وأصحابي، وكان هذا المنكود سيتزوجني بالإكراه قبل أن تنقضي ساعة واحدة».

وقال عمي وهو يلقي نظرة احتقار على وريث فيلتوفيل المحتضر: «لعنة الله عليه وعلى جرأته».

وقالت الحسناء: «ولعلك حزرت مما رأيته بعينيك أن الرجلين كانا على استعداد لقتلي إذا توسلت إلى أحد أن يمد إليَّ يد النجدة، ونحن هالكان لا محالة إذا اهتدى شركاؤهما إلينا هنا، وقد يكون تأخرنا في هذا المكان دقيقتين عائقًا لا رجاء لنا في التغلب عليه، فإلى المركبة، إلى المركبة». وارتمت في أحضان عمي، وقد طغت عليها مشاعرها، والجهد البالغ الذي بذلته في التغلب على مركيز فيلتوفيل الشاب حتى سمرته في مكانه، فتناولها عمي واحتملها إلى باب البيت، فإذا المركبة واقفة بخيلها الأربعة الدهم الطوال الأذيال المتموجة المعارف، وهي مسرجة مهيأة للمسير، ولكن بلا سائق، ولا حارس، ولا سائس عند رؤوسها.

وأرجو أيها السادة ألا أكون ظالمًا لذاكرة عمي حين أعلن رأيي فيه، فأقول إنه سبق أن تناول نساء في أحضانه، وإن كان أعزب لم يبن بواحدة منهن، وأعتقد حقًّا أنه كان من عادته تقبيل الساقيات في الحانات، وأعرف أنه في حادثة أو حادثتين شوهد، كما ثبت من أقوال أشهاد يعتد بأقوالهم، ولا يعرف الكذب عنهم، وهو يحتضن ربة حانة بشكل ظاهر واضح، وأنا في إيراد هذه الواقعة إنما أريد أن أبين إلى

أي حد غير مألوف كانت تلك الحسناء قد أثرت فيه، حتى استولت على لبه بلا شك واستبته استباء، وقد اعتاد أن يقول: إنه شعر حين ترامى شعرها الأسود الأثيث على ذراعه، واستقرت عيناها الجميلتان السوداوان على وجهه، عندما أفاقت من غشيتها، باضطراب شديد، وهياج عصبي غريب، جعلا ساقيه ترجفان من تحته، ولكن لعمري من ذا الذي يستطيع أن ينظر إلى عينين ناعمتين فاحمتين، ولا يحس إحساسًا غريبًا كهذا، أنا أيها السادة لا أستطيع، بل في الحق إني لأخاف أن أنظر إلى بعض هذه العيون...

وغمغمت الحسناء قائلة: «إنك لن تتركني أبدًا».

وقال عمي: «أبدًا»، وكان يعني ما قال حقًّا.

وقالت الحسناء: «يا منقذي العزيز، أيها المنقذ الرحيم الشجاع الكريم».

وقال عمي مقاطعًا: «حسبك».

قالت: «ولماذا؟».

وقال: «لأن ثغرك يبدو وأنت تتكلمين من فرط الحسن بحيث أخشى أن أتهور فأقبله».

ومدت الحسناء يدها كأنما تحذره من أن يفعل وقالت: «أستغفر الله» لم تقل شيئًا بل ابتسمت، وأنت حين تنظر إلى شفتين من أعذب الشفاه في العالم وتشهدهما تفتران برفق عن ابتسامة فاتنة ماكرة، وأنت منهما قريب، ولا أحد حاضر أمركما، لن تجد وسيلة أفضل لتوكيد

إعجاب بشكلهما الجميل ولونهما البديع من البدار إلى تقبيلهما، وهذا ما فعله عمي، وإني أجل ذلك منه وأكبره من أجله.

وصاحت الحسناء مجفلة: «صه، صوت عجلات وسنابك خيل».

وأصغى عمي ثم قال: «هي كذلك».

وكانت لعمي أذن سماعة لصوت العجلات ومواقع الحوافر، ولكن بدا له أن تلك الأصوات توحي بأن عدة خيول ومركبات قادمات نحوهما من مكان سحيق، وإن استحال عليه تقدير عددها، فقد كان الصوت أشبه بحركات خمسين ضابطة في كل مركبة ستة خيول مسرجة.

وصاحت الحسناء وهي تشبك يديها: «إنهم مقتفون أثرنا، مطاردونا لا رجاء لي سواك».

وكان وجهها الجميل ينم عن رعب شديد جعل عمي يعتزم في الحال عزمته، ويقرر في نفسه نيته، فراح يرفعها إلى جوف المركبة، ويسري عن نفسها، ويرسل الطمأنينة إلى جوانحها، ويضم شفتيه مرة أخرى إلى شفتيها، ويشير إليها بأن تغلق النافذة اتقاء البرد، ويصعد هو إلى مكان السائق.

وصاحت الحسناء: «قف يا حبيبي!».

وقال عمي من مكانه: «ماذا جرى؟».

قالت: «أريد أن أتحدث إليك، أريد أن أقول كلمة واحدة، كلمة واحدة فقط يا أعز إنسان لديَّ».

قال: «هل أهبط من موضعي؟».

ولكنها لم تحر جوابًا، وإنما ابتسمت مرة أخرى، وكانت هذه الابتسامة أيها السادة تفوق الأخرى بلا شك فتحيلها كلا شيء، فهبط عمي من فوق المقعد في خطف البرق.

قال وهو ينظر من النافذة: «وما هي هذه الكلمة يا عزيزتي؟».

وكانت الحسناء قد انحنت إلى الأمام مصادفة في تلك اللحظة ذاتها، فبدت لعمي أجمل وأفتن مما كانت من قبل، وكان منها قريبًا جدًّا أيها السادة، فهو في الواقع أولى بأن يعرف، وأحرى به خبيرًا.

قال: «وما هي يا عزيزتي؟».

قالت: «أتعدني أنك لن تحب على الدهر أحدًا سواي، وأنك لن تتزوج يومًا غيري؟».

وأقسم عمي جهد إيمانه أنه لن يتزوج امرأة سواها آخر الحياة، فردت رأسها عن النافذة وأغلقتها، ووثب هو إلى مكان السائق، واعتدل في مجلسه، وتناول السوط من فوق سطح المركبة، وضرب به الحصان الأول عن يساره فانطلقت الخيول الأربعة الطوال الأذناب المتدفقة المعارف بسرعة خمسة عشر ميلًا في الساعة، وهي تجر مركبة البريد القديمة وراءها، كالعاديات ضبحًا، والموريات قدحًا، لا تلوي على شيء.

واشتدت الجلبة خلفهما، وكلما أسرعت مركبة البريد المسير، ازدادت الأصوات صخبًا، وزادت المسافة قربًا بينها وبين المطاردين لها، رجالًا وخيلًا وكلابًا حاشدين.

وكانت الضوضاء مرعبة، ولكن صوت الحسناء كان أعلى جرسًا منها، وهي تستحث عمي صارخة: «أسرع، أسرع!».

وانطلقت المركبة بهما مارقة تجتاز أشباح الشجر، فتحيلها أشبه شيء بالريش في مهاب ريح صرصر، وما فتئت الحسناء تصيح به: «أسرع، أسرع!».

وفي حماسة اللحظة، وحرج الموقف، ركل عمي بقدمه مؤخر المركبة... فوجد الصبح قد تنفس، وتبين له أنه جالس في الفناء الذي يملكه تاجر المركبات فوق مقعد السائق في مركبة بريد قديمة، وهو يرعش من البرد والبلل ويضرب بقدميه لتدفئتهما.

وترجل وراح يتطلع بلهفة في جوف المركبة إلى الغادة الحسناء، ولكن وا أسفاه! لم يجد للمركبة بابًا ولا مقعدًا ولا متكأ، لقد كانت خاوية مجرد «محارة» فارغة.

ولا ريب في أن عمي أدرك حق الإدراك أن في الأمر سرًّا يجهله، وأن كل شيء جرى تمامًا كما اعتاد أن يروي، ولبث بارًّا بقسمه العظيم الذي أقسمه لتلك الغادة الحسناء، فرفض عدة ربات حانات صالحات للزواج، وقضى أخيرًا نحبه أعزب لم يبن منهن بواحدة.

وكان أبدًا يقول إنه من الغريب أن يكتشف من مجرد تخطيه السور، بمحض المصادفة، أن أشباح مركبات البريد، والخيل، والحراس، والسائقين والركاب، اعتادت القيام بهذه الرحلات المنظمة في كل ليلة، وكان من عادته أن يضيف قائلًا: إنه مؤمن بأنه الشخص الوحيد على قيد

الحياة الذي أخذ مسافرًا في إحدى تلك الرحلات، وأنا أعتقد أنه كان على حق أيها السادة؛ لأنني على الأقل لم أسمع بشيء كهذا عن أحد سواه.

وقال رب الفندق وكان قد أصغى إلى القصة كلها باهتمام شديد: «إني لأعجب ماذا تحمل أشباح مركبات البريد في حقائبها وزكائبها؟».

وأجاب التاجر المتجول: «الخطابات الميتة[1] طبعًا».

وقال رب الفندق: «آه! آه! مؤكد! ولكن هذا لم يخطر لي ببال أبدًا».

* * *

(١) يعبر الإنجليز عن الخطابات المهملة التي لا يهتدى إلى أصحابها بأنها ميتة. وقد أثبتناها هنا بعد الكلام على الأشباح والعفاريت مراعاة للنظير.

الفصل الخمسون

كيف بادر المستر بكوك إلى تادية مهمته، وكيف عززه من البداية مساعد لم يكن في الحسبان مطلقًا

وأعدت الخيل في الموعد المضروب، وهو الساعة التاسعة إلا ربعًا من صباح اليوم التالي، واتخذ كل من المستر بكوك وسام ويلر مقعده من المركبة، فجلس أولهما في جوفها، والآخر في خارجها، وأمر السائق بالذهاب أولًا إلى مسكن المستر بب سوير، لاصطحاب المستر بنجمين ألن.

ولم تكن دهشة المستر بكوك قليلة حين وقفت المركبة بالباب ذي المصباح الأحمر المنقوش عليه بأحرف واضحة «سوير- نوكمورف سابقًا» فشهد، وهو يطل برأسه من النافذة، ذلك الغلام ذا الحلة السوداء منهمكًا في إيصاد الباب، على غير المألوف في تلك الساعة من الصباح، فلم يلبث أن استخلص من هذا المشهد أمرًا من اثنين، فإما أن صديقًا مريضًا من أصدقاء المستر بب سوير قضى نحبه، وإما أن المستر بب سوير نفسه قد أفلس.

وقال المستر بكوك للغلام: «ما الذي جرى؟».

وأجاب الغلام وقد مط فمه حتى امتد بعرض وجهه: «لا شيء يا سيدي».

وانثنى المستر بب سوير يقول وقد ظهر فجأة لدى الباب يحمل حقيبة صغيرة من الجلد قذرة بالية بإحدى يديه، ويضع فوق ذراعه معطفًا خشنًا وملفعة: «لا بأس! إنني ذاهب يا صاح!».

وصاح المستر بكوك: «أنت!».

وأجاب بب سوير: «نعم، وسنجعل منها تجريدة منظمة، وأنت يا سام! ترقب وانتظر!» وبعد أن استرعى أنظار المستر ويلر على هذا النحو المختصر، دفع بالحقيبة الجلد في العربة وتولى سام في الحال تحريكها حتى استقرت تحته، وهو ينظر إلى ما يجري بإعجاب شديد، وحاول المستر بب سوير بعد ذلك الدخول بمساعدة الغلام في معطفه الخشن، وحشر نفسه فيه حشرًا؛ لأنه كان ضيقًا عليه نوعًا ما، ثم تقدم إلى نافذة المركبة، وأدخل رأسه من خلالها، وانثنى يرسل ضحكات صاخبة.

وقال وهو يمسح دموعه بأحد كميه: «يا لها من بداية! أليس كذلك؟».

وقال المستر بكوك بشيء من الارتباك: «يا سيدي العزيز، لم تكن لديَّ أية فكرة عن مرافقتك لنا».

وأجاب بب وهو يمسك المستر بكوك من عروة ردائه: «نعم، وهذا هو الشيء الطريف فيها، هذه هي النكتة!».

وقال المستر بكوك: «آه! النكتة؟».

ومضى بب سوير يقول: «نعم، بطبيعة الحال، هذا هو لب الموضوع، وصميمه كما ترى- لأترك العمل يعني بنفسه ما دام قد صمم على ألا يعني بي». وبهذا الشرح لسر إغلاق المحل، راح المستر بب سوير يشير إليه، ويعاود نوبة الضحك المصطخب.

وقال المستر بكوك بلهجة جد شديدة: «يا عجبًا! ما أحسبك بلا شك من الجنون بحيث تترك مرضاك بلا أحد يعني بهم».

وأجاب بب: «ولِمَ لا؟ ما دمت سأوفر بهذه الوسيلة، فليس من بينهم أحد يدفع أبدًا، وفضلًا عن هذا- وهنا غض من صوته حتى جعله مخافتة بسر- لن يضاروا بهذا الغياب في شيء؛ لأن الأدوية كادت تنفد، ولست قادرًا على زيادة حسابي في الحالة الراهنة، وكنت سأضطر إلى إعطائهم «كلوميل»[1] على طول الخط، وكان من المؤكد أنه سوف لا يناسب فريقًا منهم، المسألة إذن سليمة من كل وجه».

وكانت هذه فلسفة، وقوة منطق في ذلك الرد، لم يكن المستر بكوك يتوقعهما، فسكت لحظة ثم أردف يقول بلهجة أقل جدًّا من قبل: «ولكن هذه المركبة يا صديقي العزيز لا تتسع إلا لاثنين، وأنا مرتبط مع المستر ألن».

وأجاب بب: «لا تحمل همي مطلقًا، فقد رتبت كل شيء، فسأقاسم سام المقعد بيننا، انظر إن هذا الإعلان الصغير سيلصق على باب المحل

(١) calomel نوع من الدواء، مركب من الزئبق وغاز الكلور.

وقد كتب فيه: سوير- نوكمورف سابقًا! الاستعلامات تطلب من مسز كربس الساكنة على الناصية، وهذه السيدة هي أم غلامي، وقد أوصيتها أن تقول إذا سُئِلت عني: إن المستر سوير متأسف كل الأسف، فقد اضطر في الصباح الباكر إلى الذهاب للاشتراك في استشارة مع أكبر الجراحين في البلاد؛ لأنهم لم يستطيعوا الاستغناء عنه، وأصروا على دعوته مهما كلفتهم؛ لأن الحالة تستوجب إجراء جراحة ضخمة»، ومضى بب يختم شرحه قائلًا: «والحقيقة إذن أن غيبتي ستنفعني أكثر مما تضرني، وإذا وصلت إلى الصحف، كانت سببًا في ثرائي وعلو شأني، ها هو ذا بن! هيا اقفز إلى المركبة!».

وبهذه الكلمات السريعة راح المستر بب سوير يدفع السائق جانبًا، ويعاون صديقه على الدخول، ويغلق الباب، ويرفع السلم، ويلصق الإعلان بباب الحانوت، ثم يغلقه ويضع المفتاح في جيبه، ويثب فوق المقعد، ويصدر الأمر بالمسير، وكل ذلك في سرعة بالغة غير مألوفة، فلم يتسع الوقت أمام المستر بكوك لأن يفكر هل ينبغي للمستر بب سوير الذهاب معهما أو لا؛ لأن المركبة انطلقت، وقد أصبح المستر بب سوير فعلًا شريكًا في الرحلة، بل جزءًا منها لا يتجزأ.

ولبث بب الماجن واضعًا منظاره الأخضر الذي يلازمه في المهنة، على عينيه، حريصًا على الهدوء والجد والوقار، لا ينطق إلا بنكات «شفوية» لإضحاك المستر صمويل ويلر وحده وتسليته، عندما انطلقت المركبة تخترق شوارع برستل ودروبها، ولكن ما كادت تجاوز بهم المدينة إلا الخلاء حتى خلع عنه منظاره، ووقاره كذلك، وانثنى يؤدي أنواعًا منوعة من الدعابات والأمازيح العملية، يرمي بها إلى اجتذاب

أنظار السابلة، ويجعل المركبة ومن حوت باعث عجب بالغ، ومدعاة دهشة غير عادية، وكان من بين هذه الحركات التي جعل يؤديها، أو قل أقلها ظهورًا، تقليده صوت «بوق» شديد الدوي، مستطيل النفير واصطناع راية خفاقة من منديل حريري أحمر ربطه بعصا، وجعلها ترفرف في الفضاء بين حين وآخر، مشفوعة منه بحركات وإشارات تنم عن الجرأة المتناهية والتحدي التام.

وقال المستر بكوك، وقد وقف عن الكلام في وسط حديث هادئ رزين مع «بن ألن» جعل يشير فيه إلى عديد سجايا المستر ونكل ومواهب شقيقته: «يا للعجب، ما الذي يجعل كل الذين نمر بهم يحملقون فينا أبصارهم على هذه الصورة؟».

وأجاب بن ألن بشيء من الاعتزاز والفخار: «حسن منظرنا؛ لأنهم لم يألفوا رؤية هذا المظهر الرائع في كل يوم».

وقال المستر بكوك: «جائز، قد يكون الأمر كذلك».

وأكبر الظن أن المستر بكوك كان سيمضي في محاولة إقناع نفسه بأن الأمر حقًا كذلك، لو لم تحن منه في تلك اللحظة نظرة من النافذة، فيتبين له منها أن نظرات المارة إنما تنم عن شيء أبعد ما يكون عن الدهشة الهادئة، وأن هناك إشارات برقية كثيرة تتبادل بينهم وبين أشخاص خارج المركبة، وخطر له عندئذ أن تلك الإشارات قد تكون إلى حد ما ذات صلة بشكل المستر بب سوير المضحك.

وقال المستر بكوك: «أرجو ألا يكون صاحبنا الممراح ممعنًا في

عبثه ونزقه فوق المقعد الخلفي».

وأجاب بن ألن: «كلا، يا عزيزي كلا، إن بب أهدأ إنسان على وجه الأرض، إلا حين تستثار حماسته».

وهنا طرق سمعهما صوت بوق مستطيل أو شبيهه، تلته هتافات وصيحات، بدت كأنها منبعثة من حلق أهدأ إنسان على وجه الأرض ومن رئتيه، أو بصريح القول، من المستر بب سوير نفسه.

وتبادل المستر بكوك والمستر بن ألن نظرات بليغة الدلالة، وخلع أولهما قبعته وأطل من النافذة حتى كاد يخرج منها إلى خاصرته، وتمكن أخيرًا من إلقاء نظرة على صديقه العابث الماجن.

وكان المستر بب سوير جالسًا، لا فوق المقعد الخلفي، بل فوق سطح المركبة، منفرج الساقين على آخر انفراجهما، واضعًا قبعة المستر صمويل ويلر على جانب من رأسه، وحاملًا بإحدى يديه قطعة ضخمة من الشطائر وفي الأخرى زجاجة متوسطة الحجم، وهو مقبل على الطعام والشراب بشهوة شديدة، وكان يُدخل أحيانًا على هذا المنظر شيئًا من التنويع لنفي الملالة بإطلاق زمجرة بين الفينة والفينة، أو تبادل مداعبات لطيفة مع أي غريب مار من الطريق، وكان العلم القرمزي مربوطًا بإحكام بقضيب المقعد الخلفي، بينما راح المستر صمويل ويلر وهو متجمل بقبعة بب سوير، جالس في الوسط، «يفحص»[1] شطيرة مثلها، بإقبال ونشاط، وتدل سحنته على رضى تام عن هذه الحركات والتصرفات.

---

(١) أي يأكل.

وكان هذا كافيًا لإثارة غضب رجل يحرص على آداب اللياقة والكرامة كالمستر بكوك، ولكن ذلك لم يكن وحده العامل المثير للاستياء، فقد مرت بهم في تلك اللحظة مركبة ملأى بالمسافرين في الداخل والخارج، وكانت دهشتهم لهذا المشهد جلية واضحة، كما كانت تهاني أسرة أيرلندية ظلت محاذية المركبة وهتافات أصحابها المستمرة، صاخبة مدوية، ولا سيما عميدها، فقد بدا كأنما اعتقد أن هذه الحركات جزء من موكب سياسي في فرح أو اغتباط بنصر مبين.

وصاح المستر بكوك وهو في هياج شديد: «يا مستر سوير، يا مستر سوير».

وأجاب ذلك السيد وهو يطل من جانب المركبة بكل ما في العالم من هدوء: «نعم!».

وقال المستر بكوك: «هل جننت يا سيدي؟».

وأجاب بب: «كلا، ليس لديَّ ذرة من الجنون، ولكني فرح مسرور».

وصاح المستر بكوك بعجب: «فرح مسرور! يا سيدي أنزل هذا المنديل الأحمر المعيب من فضلك، إنني مُصرّ يا سيدي، أنزله قلت لك».

وقبل أن يتدخل سام، أسرع المستر بب سوير فأنزل بكل رشاقة ذلك العلم فوضعه في جيبه وأومأ بأدب إلى المستر بكوك، ومسح فم الزجاجة ثم رفعها إلى شفتيه، ليقول بغير حاجة إلى الكلام إنه خصص هذه الرشفة من الشراب ليتمنى له غاية السعادة والرفاهية، ثم أعاد السداد

بكل عناية إلى فم الزجاجة وأطل برفق على المستر بكوك وأخذ قضمة من الشطيرة وهو يبتسم.

وقال المستر بكوك، ولم يكن غضبه العارض مانعًا له من التأثر بهدوء بب وامتلاكه سكينة نفسه: «أرجوك أن تكف عن هذا العبث».

وقال بب وهو يعود إلى تبادل القبعتين مع المستر ويلر: «لا، لا، لم أكن أقصد أن أفعل ذلك، ولكني شعرت بابتهاج شديد من هذه المركبة فلم أتمالك إرادتي».

وقال المستر بكوك: «فكر في منظرنا هذا، واحرص ولو قليلًا على المظاهر».

وأجاب بب: «آه، بلا شك، هذا أمر لا يليق فعلًا، انتهى يا سيدي».

واطمأن المستر بكوك لهذا التوكيد، فأدخل رأسه ورفع زجاج النافذة، وما كاد يستأنف الحديث الذي قطعه عليه المستر بب سوير، حتى أجفل قليلًا من ظهور شيء صغير أسود اللون مستطيل الشكل خارج زجاج المركبة، جعل يدق عليه دقات متوالية، كأنما هو في لهفة على الدخول.

وصاح المستر بكوك: «ما هذا؟».

وقال المستر بن ألن وهو ينظر إلى ذلك الشيء من خلال منظاره باهتمام: «إنه يبدو كزجاجة وأحسبها لبب».

وكان هذا الظن صادقًا، فقد عمد بب إلى الزجاجة فربطها في طرف العصا وراح يدق زجاج النافذة بها مبديًا بهذه الحركة رغبته في إشراك

صديقيه الجالسين في جوف المركبة في الشرب منها، رعاية للرفقة، وحرصًا على الانسجام العام.

وقال المستر بكوك وهو ينظر إلى الزجاجة: «ما العمل؟ إن هذه الفعلة أكثر عبثًا ونزقًا من الأخرى».

وأجاب المستر بن ألن: «أظن أن أحسن شيء هو أن نأخذها، انتقامًا منه وتشفيًا فيه، أليس كذلك؟».

وقال المستر بكوك: «هو كذلك، هل أجذبها؟».

وأجاب بب: «أعتقد أن هذا هو أنسب إجراء يمكن أن نتخذه».

وكان هذا الرأي متفقًا ورأي المستر بكوك تمامًا، فأنزل زجاج النافذة برفق، ونزع الزجاجة من العصا، وسحبت هذه إلى أعلى، وسمع صوت المستر بب سوير وهو يرسل ضحكة مجلجلة من أعماق قلبه.

وقال المستر بكوك وهو يلتفت إلى رفيقه والزجاجة في يده: «ما أشد مجون هذا الكلب!».

وأجاب المستر ألن: «هو كذلك فعلًا».

وقال المستر بكوك: «ولا يستطيع الإنسان أن يغضب منه».

وأجاب بنجمن ألن: «هذا مستحيل».

وكان المستر بكوك خلال تبادل العواطف على هذا النحو، قد نزع السداد وهو شارد الخاطر وفتح الزجاجة.

وسأل بن ألن بغير اكتراث: «ما نوع الشراب الذي تحويه؟».

وأجاب المستر بكوك بغير اكتراث مماثل: «لا أدري»، إنه شراب

تشتم منه على ما أظن رائحة بنتش باللبن».

وقال بن: «أحقًّا؟».

وأجاب المستر بكوك دون أن يجزم برأي ثابت تحفظًا وحرصًا مخافة أن يكون مخطئًا: «أظن أنه كذلك، ولكن لا تنس أنني لا أستطيع أن أقول جازمًا قبل أن أذوقه».

وقال بن: «يحسن أن تفعل، فلا بأس من أن نعرف نحن أيضًا ما هو».

وأجاب المستر بكوك: «هل تظن ذلك؟ فليكن، وما دمت تريد أن تعرف، فلا مانع عندي طبعًا».

وبادر المستر بكوك وهو الذي يرغب على الدوام في التضحية بشعوره تحقيقًا لرغبة صاحبه، كشيمته أبدًا وديدنه، إلى أخذ رشفة طيبة منه ليتذوق ما في الزجاجة.

وقال بن ألن وهو يعاجله في شيء من القلق ونفاد الصبر: «ما هو؟».

وأجاب المستر بكوك وهو يلعق شفتيه: «غريب، لا أكاد أعرف من رشفة واحدة»، وهنا تمهل لحظة ثم عاد بعد رشفة أخرى يقول: «أي نعم إنه بنتش فعلًا».

وتبادلا النظرات، وابتسم المستر بن ألن، ولكن المستر بكوك لم يبتسم.

وقال هذا بشيء من القسوة: «إذا نحن لم ندع فيها قطرة واحدة، فإنه يستحق منا هذا الجزاء».

وأجاب بن ألن: «هذا هو عين ما خطر لي».

وقال المستر بكوك: «أحقًّا؟ إذن هأنذا أشرب في صحته»، وأقبل هذا السيد البديع على الزجاجة فجذب منها جذبة طيبة، وناولها لبن ألن، فلم يتردد هذا في احتذاء حذوه، وهنا أصبحت الابتسامات متبادلة، وأخذ البنتش الممزوج باللبن يجترع شيئًا فشيئًا حتى الثمالة.

وقال المستر بكوك وهو يصفي آخر قطرة: «إن نكاته ودعاباته في الحقيقة مسلية جدًّا، وهي على كل حال لطيفة للغاية».

وأجاب المستر بن ألن: «إنك محق»، وشرع يدلل على أن المستر بب سوير من أظرف الناس في العالم وأبرعهم دعابة بتشنيف سمع المستر بكوك ببيان مسهب معزز بالأمثلة، يقص فيه كيف شرب حتى وردته الحمى من فرط السُّكر، فحلق شعر رأسه وكاد يمضي في سرد ماضيه اللطيف الحافل بالمجانة، لولا أن وقفت بهم المركبة بباب فندق «بل» في باركلي هيث لتغيير الخيل.

وقال بب وهو يطل عليهما من النافذة: «أريد أن أقول، هل سنتغدى هنا؟».

وقال المستر بكوك: «نتغدى! كيف هذا ونحن لم نقطع سوى تسعة عشر ميلًا، وأمامنا سبعة وثمانون ونصف أخرى».

وقال المستر بب سوير: «وهذا سبب يقتضي تناول شيء يعيننا على احتمال التعب».

وأجاب المستر بكوك وهو ينظر إلى ساعته: «آه، مستحيل أن نتغدى

في منتصف الساعة الثانية عشرة صباحًا».

وقال بوب: «ليكن شيئًا نصطبر به، فهو الشيء المطلوب تمامًا، يا هذا! طعام خفيف لثلاثة أشخاص في الحال، واحجز الخيل ربع ساعة، قل لهم أن يضعوا كل ما لديهم من اللحوم الباردة، على المائدة، وزجاجة من الجعة، ودعنا نذق أحسن ما عندكم من نبيذ الماديرا»، وبعد أن أصدر المستر بب سوير هذه الأوامر بكل عظمة وضجة ونشاط، أسرع إلى داخل الفندق ليشرف على التدابير، ولم تنقض بضع دقائق حتى عاد وأعلن أن كل شيء على غاية ما يرام.

وكان الطعام في الواقع أقوى مبرر لذلك الثناء المستطاب الذي أبداه بب فأقبلوا عليه يؤدون له حقه من الإنصاف، ولم يقتصر ذلك على بب سوير بل شمل المستر بن ألن والمستر بكوك على السواء، وراحوا جميعًا يأتون بسرعة على زجاجة الجعة والنبيذ، ثم عادوا بعد أن أسرجت الخيل إلى مقاعدهم، وقد ملأوا الزجاجة القديمة بخير بديل من البنتش باللبن الذي كان فيها، على قصر الوقت الذي أعدت فيه، وأطلق بب سوير «البوق»، ورفع العلم الأحمر، دون أن يجد من المستر بكوك في هذه المرة أقل اعتراض.

وأمام فندق «هب بول» في «توكسبوري» وقفت المركبة بهم ونزلوا لتناول الغداء، فجيء إليهم بمزيد من الجعة المعبأة في الزجاج وقدر أوفر من «الماديرا» إلى جانب شيء من البورت، وهنا ملئت الزجاجة السوداء للمرة الرابعة، ولبث المستر بكوك والمستر بن ألن في سبات عميق من أثر تلك الأشربة مجتمعة، مسافة ثلاثين ميلًا، بينما راح بب

والمستر ويلر فوق المقعد الخلفي يغنيان.

وكان الظلام قد غمر الأفق حين غالب المستر بكوك النوم، وتمكن من الإطلال من النافذة، فإذا الأكواخ القائمة على جانب الطريق، والسواد الذي يغمر كل شيء تستطاع رؤيته على عتمة الغسق وفحمة الأفق، والدروب المليئة بالرماد والفحم الرجيع وتراب الطوب، ووهج الأفران من مكان بعيد، وذوائب الدخان الكثيفة، المنبعثة من شواهق المداخن، الحاجبة كل ما حولها من الأشياء، ووميض الأنوار النائية، والمركبات الموسوقة وهي تسير وئيدة، رازحة تحت أحمالها الثقال من أسياخ الحديد وهي تهتز وتتلاقى فتحدث صليلًا ظاهرًا، وأعبائها المكدسة من السلع والبضائع الضخمة، كل هذه تنم عن سرعة المقترب من المصانع الكبرى التي تملأ جنبات مدينة برمنجهام المشهورة.

وفيما كانت المركبة تجلجل بهم خلال الدروب الضيقة المؤدية إلى قلب تلك المدينة العاجة الشديدة الضوضاء، بدت مشاهد العمل وأصواته ومناظره أشد وطأة على الحواس، وأكثر طغيانًا على المشاعر، وتراءت الشوارع مزدحمة بالصناع والعمال، وترددت أصدية الكد والكدح في كل مكان، وسطعت الأضواء من النوافذ الطوال في الطباق العالية، وراحت أصوات الآلات والعجلات تهز الجدران هزًّا، وبدت النيران، التي كان لهيبها الممتقع الباهت يلوح للعين من أميال بعيدة، متوهجة مضطرمة في مصانع المدينة ومعاملها المترامية المدى، وكانت أصوات المطارق والأبخرة المتصاعدة، وجلجلة الآلات الثقال والمحركات الضخمة هي الموسيقى المنبعثة من كل ناحية ذاهبة أنغامها

المصطخبة في أجواز الفضاء.

وكان السائق يمرق بالمركبة من خلال الشوارع المفتوحة، وقبالة الحوانيت الجميلة الساطعة الأضواء، القائمة بين أرباض المدينة وبين فندق «أولد رويال»، قبل أن يبدأ المستر بكوك يفكر في المهمة الدقيقة الشاقة التي حملته إلى ذلك المكان.

ولم يكن مجيء المستر بب سوير من تلقاء نفسه مخففًا من مشقة المهمة ودقتها في شيء، والحق يقال: إن المستر بكوك أحس أن صحبته لهما في هذه الرحلة، على ما فيها من لطف ومسرة لم تكن شرفًا يسره التماسه، بل الواقع أنه كان مرتضيًا أن يدفع بسرور قدرًا كبيرًا من المال في سبيل إبعاد المستر بب سوير بغير إبطاء إلى أي مكان لا تقل المسافة بينه وبين هذه المدينة عن خمسين ميلًا.

ولم يكن قد سبق للمستر بكوك الاتصال شخصيًّا بالمستر ونكل الكبير، وإن كان قد راسله مرة أو مرتين بالبريد، وكانت ردوده هو مرضية على أسئلته بشأن أخلاق ابنه وسلوكه، فلا عجب إذا هو شعر باضطراب؛ لأن لقاءه لأول مرة مصطحبًا بب سوير وبن ألن، وهما سكرانان إلى حد ما لم يكن أصلح ولا أرجح وسيلة يصح أن يتوسل بها لكي يظفر بتقديره واستمالته إليه.

وقال المستر بكوك وهو يحاول إعادة الطمأنينة إلى خاطره: «ولكن من المحتم أن أبذل أقصى جهدي، ولا بد لي من لقائه الليلة لأني وعدته بذلك، وإني لبار بموعدي، فإذا أصرا على مصاحبتي، فلأجعلن

الحديث موجزًا ما استطعت، ولأقنعن بالأمل في تحاميهما تعريض نفسيهما للفضيحة والمعاب لمصلحتهما هما نفسهما».

وفيما كان يناجي النفس بهذه الأفكار وأمثالها، وقفت المركبة بباب فندق «أولد رويال»، وبعد أن استيقظ بن ألن قليلًا من نوم مذهل عميق، وتولى المستر صمويل ويلر سحبه من طوقه، نزل المستر بكوك من المركبة، وتقدم غلام في الفندق بهم إلى حجرات مريحة، وبادر المستر بكوك إلى سؤال الغلام عن مقر المستر ونكل.

وأجاب الغلام قائلًا: «قريب منا يا سيدي، لا يبعد أكثر من خمسمائة ياردة، إن المستر ونكل «ناظر الرصيف» يا سيدي، رصيف القناة يا سيدي، وداره لا تبعد.. نعم لا سيدي لا تبعد، أكثر من خمسمائة ياردة يا سيدي» وهنا أطفأ الغلام شمعة وتظاهر بإضاءتها مرة أخرى؛ لكي يهيئ للمستر بكوك الفرصة لتوجيه أية أسئلة أخرى إذا شاء.

وقال الغلام وهو يشعل الشمعة حين يئس من صمت المستر بكوك: «هل تأمرون بشيء الآن يا سيدي؟ قهوة أو شاي يا سيدي، غداء يا سيدي؟».

- «لا شيء الآن».

- «جميل جدًّا يا سيدي، هل تحب أن تأمر بإعداد عشاء يا سيدي؟».

- «لا شيء في هذه اللحظة».

- «جميل جدًّا يا سيدي».

ومشى الغلام برفق إلى الباب، ولكنه وقف ثم استدار وقال بلطف

بالغ: «هل أرسل الوصيفة المكلفة بحجرات النوم أيها السادة؟».

وأجاب المستر بكوك: «افعل إذا أحببت».

وقال الغلام: «بل إذا أحببت أنت يا سيدي».

وقال بب سوير: «وأحضر قليلًا من ماء الصودا».

وقال الغلام: «ماء الصودا يا سيدي؟ سمعًا وطاعة يا سيدي»، وما لبث الخادم أن توارى منصرفًا، كأنه قد أزيح عنه عبء ثقيل كان يشغله، حين تلقى أخيرًا أمرًا بإحضار شيء ما، وإذا قلنا توارى فلا عجب؛ لأن المعروف عن غلمان الفنادق أنهم لا يمشون، ولا يجرون، بل إن لهم مقدرة خاصة، لم يؤتها أحد من الناس، وهي الاختفاء عن العين، والتسلل قبل أن يشعر بهم مخلوق.

وظهر شيء من أعراض النشاط والإفاقة من النوم على المستر بن ألن عقب تناول الصودا وقبل إلحاح صاحبيه عليه في وجوب غسل وجهه ويديه، وقيام سام بتنفيض ثوبه، وبعد أن فرغ المستر بكوك وبب سوير أيضًا من إصلاح ما أفسدته الرحلة من هندامهما، انطلق الثلاثة ذراعًا لذراع إلى دار المستر ونكل، وقد مضى بب سوير يعبق الجو بدخان التبغ وهو ذاهب في سبيله.

وكانت دار المستر ونكل على مسيرة ربع ميل من الفندق، في شارع كبير، وهي دار مشيدة بالطوب الأحمر ذات ثلاث مدارج بالقرميد، وعلى الباب لوح نحاسي تشع منه بأحرف كبار كلمتان، وهما «المستر ونكل»، ويبدو رخام السلم ناصع البياض، والطوب الأحمر القاني

الحمرة ويلوح البيت نظيفًا آية في النظافة، وهنا وقف المستر بكوك، والمستر بنجمن ألن، والمستر بب سوير، على دقة العاشرة.

وجاءت خادم رشيقة على طرق الباب تفتحه، فأجفلت حين أبصرت أولئك الثلاثة الغرباء.

وسألها المستر بكوك: «هل المستر ونكل هنا يا عزيزتي؟».

وأجابت الفتاة: «إنه اللحظة يهم بتناول العشاء يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «خذي من فضلك هذه البطاقة إليه، ونبئيه أنني آسف لإزعاجه في هذه الساعة المتأخرة، ولكني متلهف على لقائه الليلة، ولم أصل إلى المدينة إلا منذ لحظة».

ونظرت الفتاة إلى بب سوير مستحيية متهيبة؛ لأنه راح يبدي إعجابه بمفاتنها بعدة حركات وإشارات عجيبة، ويلقي نظرة على القبعات والمعاطف المعلقة في الردهة، ونادت خادمًا أخرى لتحرس الباب، ريثما تصعد هي إلى الطبقة العليا من البيت، ولم تلبث الحارسة أن أعفيت من الحراسة؛ لأن الفتاة عادت على الأثر، واستسمحت السادة لتركهم وقوفًا في الطريق، وتقدمتهم إلى غرفة خلفية مفروشة الأديم تبدو وسطًا بين غرفة مكتب وبين غرفة ثياب، كان أنفع ما فيها وأجمل رياشًا منضدة، ومغسلًا، ومرآة للحلاقة، ورفًّا للأحذية، ومقلعًا لها، وكرسيًّا عاليًا، وأربعة مقاعد، ومنضدة، وساعة جدار قديمة تملأ كل ثمانية أيام، وفوق رف المصطلى أبواب خزانة حديدية غائرة، وتزدان الجدران برفين للكتب، والتقويم، وعدة ملفات من أوراق علاها الغبار.

وقالت الخادم وهي تشعل مصباحًا وتبتسم ابتسامة جذابة للمستر بكوك: «آسفة أشد الأسف لترككم وقوفًا بالباب يا سيدي، ولكني لم أكن أعرفكم، وفي المدينة خلق كثير من الشرد الهيم لا يجيئون إلا ليروا ما في إمكانهم أن يضعوا أيديهم عليه حتى لقد...».

وعاجلها المستر بكوك قائلًا بلطف: «لا داعي مطلقًا لأي اعتذار يا عزيزتي».

وقال بب سوير مداعبًا وهو يبسط ذراعيه ويطفر من جانب إلى آخر، كأنما يريد أن يمنع الفتاة من الخروج: «لا موجب لأقل اعتذار يا عزيزتي».

ولكن هذا التلطف الشديد لم يلن مطلقًا من جد الفتاة؛ لأنها أبدت في الحال رأيها في المستر بب سوير، قائلة إنه «مخلوق شنيع»، وحين أمعن في المغازلة وألح، راحت تطبع أناملها الحسان في وجهه خدشًا، وقفزت من الغرفة قفزًا، وانصرفت وهي تشبعه مقتًا واحتقارًا.

وما إن حُرم المستر بب سوير من محضر الفتاة، حتى انثنى يتلهى بفتح الدرج ورؤية ما فيه، والبحث في قماطر المائدة، والتظاهر بأنه يحاول فتح الخزانة، ويعبث بالتقويم فيجعل وجهه إلى الجدار، ويجرب أحذية المستر ونكل الكبير فينتعلها فوق حذائه، وغير ذلك من مختلف صنوف العبث بكل ما في الغرفة من الأثاث، فكان ذلك كله يبعث في نفس المستر بكوك أشد الاستنكار والألم، ويثير في نفس المستر بب سوير ما يعدلهما من المرح والسرور.

وأخيرًا فتح الباب، ودخل الحجرة رجل نحيل كبير السن في حلة بنية اللون، وله رأس ووجه يبدوان مماثلين لرأس ونكل الصغير ووجهه إلا أنه كان أصلع الهامة، وكان يحمل بطاقة المستر بكوك بإحدى يديه، وماثلة من الفضة بالأخرى.

وقال المستر ونكل الكبير وهو يضع الماثلة ويبسط يده: «المستر بكوك، كيف حالك يا سيدي؟ أرجو أن تكون موفور العافية، يسرني لقاؤك، تفضل بالجلوس يا مستر بكوك، وهذا السيد هو...».

وعاجله المستر بكوك قائلًا: «صديقي المستر سوير، وصديق ابنك».

وأجاب المستر ونكل الكبير، وهو ينظر إلى بب سوير نظرة عابسة: «أرجو أن تكون أنت بخير يا سيدي».

وأجاب بب سوير: «سالم يا سيدي كركيزة الحلة المثلثة الأرجل».

وقال المستر بكوك: «وهذا السيد الآخر كما سترى بنفسك حين تقرأ الكتاب الذي وكلت في حمله إليك ذو صلة وثيقة، أو أولى بي أن أقول إنه صديق حميم لولدك ويدعى ألن».

وسأل المستر ونكل وهو يشير بالبطاقة إلى بن ألن، وكان النوم قد استولى عليه، فلم يعد يبدو منه غير ظهره وطوق ردائه: «أتعني ذلك السيد؟».

وهم المستر بكوك بالرد على هذا السؤال وذكر اسم المستر بنجمن ألن كاملًا والتوسع في سرد مزاياه، لولا أن عمد المستر بب سوير

الماجن إلى تنبيه صاحبه من نومه إلى حرج الموقف، بعرك الجزء اللحمي من ذراعه عركًا شديدًا جعله يقفز صارخًا، ولم يكد يدرك فجأة أنه في حضرة غريب، حتى تقدم وراح يهز يد المستر ونكل هزة مودة شديدة بكلتا يديه نحو خمس دقائق، وهو يغمغم بكلمات متقطعة غير مفهومة، للتعبير عن سروره العظيم برؤيته، والسؤال بكرم وحفاوة هل يحب أن يتناول شيئًا بعد رياضته الطويلة أم يفضل الانتظار إلى أوان العشاء. وما كاد ينتهي من هذه الغمغمة حتى جلس وانثنى يتلفت حوله محملقًا ذاهلًا كأن ليس لديه أية فكرة عن المكان الذي هو فيه، والحق أن ذلك كان هو الواقع.

وكان ذلك كله مثارًا لارتباك المستر بكوك الشديد، ولا سيما بعد أن فطن إلى الدهشة الواضحة المعالم على وجه المستر ونكل الكبير، من هذا السلوك الشاذ- ولا نقول العجيب- الذي بدا من رفيقيه، ولكي ينهي الموقف في الحال، أخرج كتابًا من جيبه، وقدمه إلى المستر ونكل وهو يقول: «إن هذا الكتاب يا سيدي مرسل إليك من ولدك، وسترى من فحواه أن سعادته ورغده مرتهنان بعطفك الأبوي ورعايتك وحنانك، فهلا تفضلت عليَّ فقرأته بكل هدوء وسكينة، وبحثت فيه بعدئذ معي بالروح والشعور اللذين يستحق الكتاب البحث فيه بهما، وإنك لتحكم بنفسك في مدى خطورة قرارك بالنسبة إلى ابنك، وشدة لهفته على معرفته، بقدومي عليك، بلا سابق إعلان، في هذه الساعة المتأخرة»، وهنا راح ينظر إلى رفيقيه نظرة عابرة، ثم أضاف قائلًا: «وفي هذه الظروف غير الملائمة».

وبهذه المقدمة وضع المستر بكوك في يدي المستر ونكل الكبير الذي استولت عليه الدهشة إلى أقصى حد، أربع صفحات مكتوبة على ظاهرها وباطنها، ومستفيضة بأرق ما يكون التكفير، والتماس الصفح، والاستعطاف، ثم عاد إلى مجلسه، وطفق يرقب بلهفة حركة وجه الرجل واختلاجاته، وهو في لهفة حائرة في الواقع، ولكن براحة ضمير وطمأنينة سريرة، شأن الرجل الذي يشعر بأنه لم يفعل شيئًا يقتضي شفاعة أو يحتاج إلى اعتذار.

وقلب الشيخ ناظر الرصيف، الكتاب بين يديه وتطلع إلى ظاهره، وباطنه، وجانبيه، وتناول صورة الغلام البدين المرسوم على «الخاتم» بفحص دقيق، ورفع بصره إلى وجه المستر بكوك، ثم جلس فوق الكرسي الطويل، وقرب المصباح منه، وفض الغلاف، ونشر الكتاب، ورفعه إلى النور، وتهيأ للقراءة.

وفي تلك اللحظة بالذات، انثنى المستر بب سوير- وكان مجونه قد هدأ بضع دقائق- يضع يديه فوق ركبتيه ويؤدي حركات بوجهه، على نحو ما يفعل الماجنون والمهاذير، وصادف أن حانت نظرة من المستر ونكل من فوق حافة الخطاب، إلى المستر بب سوير نفسه، فكف عن القراءة، وذهب به الظن- وله العذر- أن تلك الحركات إنما أريد بها السخرية منه والهزؤ به، فحدج بب بنظرة عابسة متجهمة جعلت وجه ذلك العابث الماجن يعود شيئًا فشيئًا إلى اتخاذ سمات المذلة والاضطراب.

وقال المستر ونكل بعد صمت رهيب: «هل تكلمت يا سيدي؟».

وأجاب بب، ولم يعد على وجهه لذلك العبث أثر، سوى اشتداد احمرار خديه: «كلا يا سيدي».

وعاد المستر ونكل يقول: «هل أنت متأكد يا سيدي أنك لم تتكلم؟».

وأجاب بب: «أي نعم يا سيدي كل التأكد».

وقال الشيخ في لهجة توكيد وغضب: «لقد ظننتك قد تكلمت، ألعلك نظرت إليَّ يا سيدي؟».

وأجاب بب بأدب متناهٍ: «كلا يا سيدي، إطلاقًا».

وقال المستر ونكل: «يسرني أن أسمع ذلك يا سيدي».

وعاد الشيخ بعد أن تجهم لبب الذي انزوى خجلان مستحييًا، تجهمًا مقترنًا بترفع شديد، عاد إلى الكتاب فأدناه من النور، وبدأ يقرأه باهتمام.

ولبث المستر بكوك يحدق فيه مليًّا بعينه، حين انتهى من قراءة آخر سطر في ذيل الصفحة الأولى، وبدأ يطالع السطر الأول من الصفحة الثانية، ومنها آخر سطر في هذه الصفحة إلى أول سطر في الصفحة الثالثة، ومن آخر سطر في الصفحة الثالثة إلى أول سطر في الرابعة، فلم يدرك على وجهه أي تغير يمكن أن ينم عن خافية شعوره عند علمه بنبأ زواج ابنه، وكان المستر بكوك يعرف أن هذا النبأ وارد في بضعة الأسطر الأولى من ذلك الكتاب.

وقرأ الشيخ الكتاب إلى السطر الأخير، ثم طواه كما كان بكل ما

يتصف به رجل الأعمال من حرص ودقة، وفي اللحظة التي كان المستر بكوك يتوقع فيها أن يشهد فورة شعور شديدة من الشيخ، انثنى هذا يغمس قلمًا في الدواة ويقول بكل هدوء كأنه يتحدث عن مسألة عادية محض:

- «ما عنوان نثنايل يا مستر بكوك؟».

وقال هذا: «فندق جورج والرخم في الوقت الحاضر».

وأجاب الشيخ: «جورج والرخم! وأين ذاك؟».

- «جورج يارد شارع لومبارد».

- «أفي المدينة هو؟».

- «نعم».

ومضى الشيخ في رفق وسكون يكتب العنوان على ظهر الكتاب، ثم وضعه في الدرج وأغلقه، وقال وهو يهبط من الكرسي العالي ويدس مجموعة المفاتيح في جيبه: «أظن أن ليس ثمة شيء آخر يقتضي احتجازنا يا مستر بكوك؟».

وأجاب هذا السيد الودود العطوف في دهشة غاضبة: «لا شيء آخر يا سيدي العزيز. لا شيء آخر! ألا من رأي تبديه في هذا الحدث العظيم المتصل بحياة صديقنا الشاب؟ ألا من توكيد أحمله إليه، لاستمرار حبك له، ورعايتك لشأنه؟ ألا من شيء يقال له ليفرحه ويطمئنه، ويدخل السرور على فؤاد الفتاة المتلهفة التي تلتمس عنده الهناءة وتنشد العون؟ يا سيدي العزيز، فكر في الأمر وتدبر».

وأجاب الشيخ: «سأفكر، ولكن ليس لدي الآن شيء أقوله، إنني رجل أعمال يا مستر بكوك، فليس من شأني مطلقًا التسرع في الالتزام بشيء في أي أمر من الأمور، ومما رأيته من هذا كله لا تروقني الظواهر، إن ألف جنيه ليست بالشيء الكثير يا مستر بكوك».

وهنا تدخل بن ألن، وكان قد استيقظ في تلك اللحظة وعرف أنه قد أضاع الألف الجنيه التي كانت له بلا أقل جهد: «أنت على حق يا سيدي، أنت رجل ذكي فطن، يا بب إنه لرجل عليم خبير هذا!».

وقال المستر ونكل الكبير وهو ينظر بسخرية وازدراء إلى بن ألن، وكان هذا يهز رأسه هزًّا عنيفًا: «يسرني يا سيدي أنك تنصفني بهذا الإقرار»، وهنا التفت إلى المستر بكوك ومضى يقول: «والواقع يا مستر بكوك إنني حين أذنت لابني بالتجوال في المدائن لقضاء عام أو نحوه في التنقل بين الناس، ورؤية أخلاقهم، واختبار طبائعهم- وهو ما فعله بإشرافك- حتى لا يدخل معترك الحياة غلامًا ساذجًا ليس له من التجارب أكثر من تلميذ في مدرسة داخلية ولا فطانة فيه لخدع الناس وأحابيلهم، لم أساومه في ذلك ولم أشارطه، وهو يعرف ذلك حق المعرفة، فإذا أنا تنكرت له من أجله، فلا حق له في الدهشة مني والعجب، وسيسمع مني رأيي يا مستر بكوك، طاب ليلك يا سيدي! يا ماجريت افتحي الباب».

وكان بب سوير طيلة الوقت يكرز بكوعه المستر بن ألن ليقول قولًا كريمًا، فلم يكن منه عندئذ إلا أن اندفع بلا أدنى نذير، أو تمهيد، في بيان موجز، وإن كان بليغًا مليئًا بالحماسة والانفعال، فقال وهو ينظر إلى الشيخ بعينين قاتمتين فاترتين، ويهز ذراعه اليمنى بشدة، رافعًا خافضًا:

«سيدي، أحرى بك أن تخجل من نفسك».

وأجاب المستر ونكل الكبير: «أنت بالطبع خير من يحكم في الموضوع؛ لأنك شقيق السيدة، والآن حسبنا، وأرجو أن تكتفي بهذا يا مستر بكوك، طاب ليلكم أيها السادة».

وتناول الشيخ المائلة وفتح باب الغرفة وأشار بأدب إلى الدهليز.

وقال المستر بكوك وهو يزم شفتيه ويطبق أسنانه ليقمع غضبه؛ لأنه شعر بمدى الأثر البالغ الذي سوف يحسه صديقه الشاب: «ستندم على هذا الذي كان منك يا سيدي».

وأجاب المستر ونكل الكبير بهدوء: «إن رأيي في الوقت الحاضر يختلف عن رأيك، مرة أخرى أيها السادة أتمنى لكم ليلة طيبة».

ومشى المستر بكوك بخطى غضاب إلى الطريق، وكذلك فعل المستر بب سوير الذي بهت لقرار الشيخ وتصرفه، وتدحرجت قبعة المستر بن ألن فوق مدارج السلم على الأثر، وتبعها هو مباشرة، وانصرف الثلاثة صامتين بلا عشاء إلى مراقدهم، ومضى المستر بكوك قبل أن يهبط وادي الكرى يقول لنفسه: إنه لو كان يعرف من قبل أن المستر ونكل الكبير رجل أعمال من هذا النوع المفرط في الجمود، لكان من المرجح كل الترجيح ألا يتولى هذه المهمة التي أوفد من أجلها إليه.

* * *

الفصل الحادي والخمسون

كيف كان لقاء المستر بكوك برجل يعرفه من قديم، وكيف يشعر القارئ بأنه مدين بالشيء الكثير مما سيجده من الاهتمام البالغ بشأن رجلين مشتغلين بالحياة العامة، وشديد البأس والسلطان، لتلك الظروف الموفقة التي جمعت بين المستر بكوك وبينهما

ولم يكن النهار الذي طلع على المستر بكوك، حين نهض من فراشه، في الثامنة، منتظرًا أن يسري عن نفسه، أو يرفع من روحه ونشاطه، أو يخفف من ضيق الصدر الذي أحدثته نتيجة سفارته، والاكتئاب الذي استولى عليه. فقد كانت السماء قاتمة، والجو مكفهرًّا، والهواء رطبًا باردًا، والشوارع مبللة موحلة، والدخان متجمعًا متكاثفًا فوق رؤوس المداخن، كأنما أعوزته الشجاعة وفقد الجرأة، على التصاعد في أطباق الفضاء،والمطر يتساقط بطيئًا متراخيًا، كأنما لا يجد روحًا إلى التدفق والانسكاب، وقد بدا «ديك» من الديكة المدربة على الشجار، في فناء الإسطبل، فاترًا لا ينزع كعادته إلى الحركة، ولا يستروح إلى النشاط، متوازنًا في كآبة على إحدى ساقيه في ركن، كما ظهر حمار

تحت السقيفة مطأطئ الرأس، تنم سحنته الساهمة الكالحة عن التفكير في الانتحار، ولم تكن العين تقع في الشوارع على شيء غير المظلات، ولا تسمع الأذن غير أصوات الأحذية الخشبية ورشاش المطر.

ولم يتخلل طعام الفطور غير حديث قصير، وحتى المستر بب سوير نفسه شعر بتأثير الجو وما جرى في الليلة الماضية من اهتياج، ووصف ما به في لغته الخاصة بقوله: «إنه سطيحة»، تعبيرًا عن الفتور والخمود، وكذلك كان المستر بن ألن، والمستر بكوك.

وعكف الجماعة في انتظار عودة الجو إلى الصفاء على قراءة الصحيفة المسائية الواردة من لندن، وإعادة قراءتها باهتمام شديد، لا يلجأ الناس إليه إلا في حالات الفراغ التام من كل عمل، أو لهو، ولم يبق بوصة واحدة من البساط المفروش في الحجرة إلا ديست بالأقدام من كثرة الجيئة والذهاب في أرجائها، كما كثر الإطلال من النوافذ إلى حد يشعر بأنه أضحى واجبًا إضافيًّا فرض عليهم فرضًا، وابتدأوا الحديث في مختلف الشؤون ثم انقطعوا عن متابعتها سآمة وضجرًا حتى حانت الظهيرة، ولما يتحسن الجو، فلم يسع المستر بكوك إلا أن يدق الجرس بعزم ويأمر بإعداد المركبة.

وكانت الطرق كثيرة الأوحال، وتساقط الرذاذ أشد مما كان من قبل، والوحل والماء يرتفعان فيصدمان نوافذ المركبة إلى حد مزعج للراكبين في جوفها، والجالسين خارجها، ولكن الشعور الغالب على هذا الإزعاج، بأن الحركة والمسير والتنقل أهون وطأة على النفس من الاحتجاز في غرفة قاتمة، والإطلال على المطر البليد في الطريق القفر،

جعلهم متفقي الرأي حين انطلقت بهم المركبة على أن هذه النقلة كانت خيرًا وأجدى، يتساءلون من العجب كيف تراخوا في الإقدام عليها كل ذلك الوقت الطويل، ولم يعمدوا من البداية إليها.

وعندما وقفوا لتغيير الخيل في «كفنتري» كانت الأبخرة المتصاعدة من الجياد متكاثفة إلى حد حجب شبح السائس عن أبصارهم، وإن بلغ آذانهم صوته وهو يعلن من خلال الغمام أنه ينتظر الظفر «بالمدلاة الذهبية» من الجمعية الخيرية في اجتماعها القادم لتوزيع الجوائز؛ جزاء له على مبادرته إلى نزع القبعة عن رأس السائق؛ لأن الماء المتساقط من حاشيتها كان حتمًا مغرقه لولا سرعة بديهته، وبداره إلى انتزاعها من فوق هامته، وتجفيف وجهه وهو يلهث متقطع الأنفاس، بحزمة من القش.

وقال المستر بب سوير، وهو يرفع طوق سترته، ويسحب طرف الملفعة على فمه لكي يحصر البخار المتصاعد من كأس من البراندي فرغ في تلك اللحظة من ابتلاعها: «هذا شيء لطيف».

وأجاب سام بهدوء: «جدًّا».

وقال بب: «ولكن لا يبدو عليك اهتمام به».

وقال سام: «لا أرى فائدة ما في اهتمامي به».

وقال بب: «هذا سبب مسكت على أية حال».

وأجاب المستر ويلر: «نعم يا سيدي، إن الواقع هو الحق، كما قال الشاب الوجيه بلطف حين وضعوا اسمه في كشف أرباب المعاشات؛ لأن جد زوجة خال أمه أشعل في ذات مرة قصبة تبغ الملك من علبة

ثقاب صغيرة».

وقال المستر بب سوير باستحسان: «هذه فكرة ليست رديئة يا سام».

وأجاب سام: «هذا هو ما كان يردده الشاب الوجيه من يوم قبض المعاش إلى بقية العمر».

وراح سام يسأله، وهو ينظر إلى السائق، بعد صمت قصير، مخافتًا بصوته كأنه يهمس بسر: «ألم تدع مرة وأنت تتمرن على «نشر العظام» للكشف على أحد السائقين؟».

وأجاب بب: «لا أذكر أني دعيت في يوم من الأيام».

قال: «ألم تكشف مرة على سائق في المستشفى وأنت مار على المرضى، كما يقال عن الأشباح والعفاريت، ألم تفعل؟».

وأجاب بب: «كلا، لا أظنني فعلت».

قال سام وهو يواصل استجوابه: «ألم تعرف مقبرة حوت قبر سائق أبدًا، أو رأيت سائقًا ميتًا في يوم من الأيام؟».

وأجاب بب: «كلا، لم يحدث».

وقال سام فرحًا طروبًا بانتصاره: «كلا! لم يحدث، ولن يحدث، وهناك شيء آخر يستحيل على الإنسان أن يراه، وهو الحمار الميت، فما رأى إنسان حمارًا ميتًا في يوم من الأيام، اللهم إلا ذلك السيد الذي كان مرتديًا سراويل قصارًا من الحرير الأسود ويعرف أن المرأة الشابة كانت تربي «جديًا» ولكنه كان حمارًا فرنسيًّا، وأغلب الظن أنه لم يكن حمارًا من الحمير الأصيلة».

وقال بب سوير: «وما علاقة هذا كله بالسائقين؟».

وأجاب سام: «انتظر، لست أريد أن أجزم كما يفعل العقلاء بأن السائقين والحمير مخلدون لا يموتون أبدًا، أقنع أنا بالقول إنهم عندما يشعرون بأنهم تيبسوا وعجزوا عن تأدية العمل، يركبون معًا وينطلقون، كل سائق مع اثنين من الحمير كما جرت بذلك العادة، ولا يعرف أحد من الناس ماذا صار إليه أمرهم، ولكن من المرجح جدًّا أنهم يذهبون ليتمتعوا في دنيا أخرى، ما دام الناس لا يرون في حياتهم حمارًا ولا سائقًا متمتعًا ولا واجدًا راحة في دنيانا هذه!».

وأفاض سام في شرح هذه النظرية العلمية الرائعة وأورد عدة إحصاءات غريبة، واستشهد بكثير من الوقائع على صحتها، وبذلك صرف الوقت في الكلام والدعابة حتى وصلوا إلى «ضنتشرتش» حيث ظفروا بسائق آخر لم يبلله المطر، وجياد مستريحة لم تجهد بعد، وكانت الوقفة التالية في دفتري والتالية في «تاوسستر»، وكان المطر في نهاية كل مرحلة منها أشد مما كان في بدايتها.

وقال بب سوير محتجًا وهو ينظر من النافذة حين وقفت بهم المركبة أمام فندق «سرسنزهد» (رأس العربي) في «تاوسستر»: «اسمعا، إن هذه الحالة لا يمكن أن تستمر».

وقال المستر بكوك، وهو يصحو من إغفاءة قصيرة: «يا للعجب! إني أراك مبتلًا».

وأجاب بب: «آه! وأنت ألست كذلك؟ إنني فعلًا مبتل قليلًا، بل

ربما أكون في رطوبة تسبب لي بعض التعب».

وكان بب في الواقع مبللًا تتساقط قطرات المطر من رقبته، ومرفقيه وردنيه، وثيابه، وركبتيه، كما كانت ملابسه تلمع من البلل، حتى ليخطئ الناظر فيحسبها حلة مفصلة كاملة من المشمع.

وقال بب، وهو يهز جسده ويرسل رشاشًا من الماء حوله كأنه كلب من كلاب «نيوفاوند لاند» خرج لتوه وساعته من تحت الماء: «أحسبني فعلًا مبللًا».

وقال بن: «أظن أنه من المتعذر متابعة السفر الليلة».

وقال سام ويلر وقد جاء ليشترك في الحديث: «بلا نزاع يا سيدي، إنها لقسوة على الحيوانات أن يطلب ذلك إليها، إن في هذا الفندق مراقد يا سيدي» والتفت إلى سيده ومضى يقول: «كل شيء هنا نظيف ومريح، والعشاء طيب يا سيدي، وفي الإمكان تهيئته في نصف ساعة. فرختان وضلع من لحم العجول، وفاصوليا، وحلوى.. ونظافة وترتيب، ولهذا يحسن يا سيدي أن تبقى حيث أنت، إذا جاز لي أن أشير بشيء، طاوعني يا سيدي، كما يقول الطبيب».

ومن محاسن المصادفات أن يظهر رب الفندق في تلك اللحظة؛ ليؤكد أقوال المستر ويلر عن استعداد الفندق وتوافر مطالب الراحة فيه، ويؤيد توسلاته بعدة حركات وإشارات كئيبة عن رداءة الطرق، والخوف من تعذر الظفر بخيل أخرى في المرحلة التالية، واليقين التام بأن المطر سيستمر طول الليل، والاطمئنان إلى إقلاع السماء عن المطر

في الصباح، وعودة الجو إلى الصفاء، وغير ذلك من الكلام المغري الذي اعتاد الناس سماعه من أرباب الفنادق ومديريها.

وقال المستر بكوك: «ليكن، ولكني مضطر إلى إرسال كتاب إلى لندن بأية وسيلة من الوسائل، حتى يسلم في الصباح الباكر، وإلا فلا مندوحة لي عن السفر على ما فيه من مغامرة ومكاره».

وابتسم رب الفندق جذلًا، وقال إنه ليس ثمة شيء أسهل ولا أيسر من أن يضع السيد الكتاب في غلاف سميك أسمر ويرسله بالبريد، أو في المركبة الحافلة التي ستقوم الليلة من برمنجهام. وإذا كان السيد شديد الرغبة في إرساله بكل سرعة ممكنة فما عليه إلا أن يكتب على غلافه «يسلم فورًا»، فإن ذلك كفيل بإعطاء الكتاب الاهتمام المطلوب، أو أن يدفع لحامله نصف كراون زيادة لتسليمه على الفور، وهذا أكثر من الطريقة السابقة ضمانًا.

وقال المستر بكوك: «جميل جدًّا، إذن فلننزل هنا».

وصاح رب الفندق لغلامه: «أضئْ الأنوار في قاعة الشمس يا جون، وأوقد النار، إن السادات مبتلون، من هنا أيها السادة، ولا تشغلوا بالكم بأمر السائق الآن، فسأرسله إليكم حين تدقون الجرس طالبيه. والآن يا جون، الشموع!».

وأحضرت الشموع، وحركت الجذوات في الموقدة، وألقيت الأخشاب فيها من جديد، ولم تنقض عشر دقائق أخرى حتى كان الغلام يفرش الغطاء فوق الخوان استعدادًا للعشاء، وأسدلت الأستار، وبدأت

النار تتوهج، وبدا كل شيء على نحو ما يبدو أبدًا في جميع الفنادق الإنجليزية الحسنة، كأن المسافرين كانوا مرتقبين قبل مقدمهم، ووسائل الراحة معدة لهم قبل وصولهم ببضعة أيام.

وجلس المستر بكوك إلى منضدة جانبية فكتب في عجلة رقعة إلى المستر ونكل، ينبئه فيها أن الأحوال الجوية هي التي عاقته عن السفر، ولكنه سيكون بلا شك في لندن في اليوم التالي؛ ولهذا يؤجل الحديث عما جرى حتى يلتقيا، ولم يزد في كتابه عن هذا النبأ العابر، ووضع الرقعة في غلاف سميك وأرسله إلى مكان الشراب على يد المستر صمويل ويلر.

وترك سام الكتاب لربة الفندق، وانكفأ لتنظيف حذاء سيده، بعد أن جفف ثيابه على نار المطبخ، وحانت منه نظرة في فرجة باب مفتوح نصف فتحة، فلمحت عينه مشهد رجل ذي رأس أصفر كلون الرمل، وأمامه على المنضدة رزمة كبيرة من الصحف وهو مكب على مطالعة مقال افتتاحي في عدد منها، وقد بدت على أنفه غضبة ساخرة، وغمرت معارف وجهه أمارات واضحة تنم عن الترفع والاحتقار.

وقال سام: «ها! إنني أعرف هذا الرأي وهذه التقاطيع، وهذا المنظار أيضًا، وهذه القبعة العريضة الحاشية كذلك، هذه ريح «إيتنزول» وإلا كنت رومانيًّا».

وانتابت سام سعلة مزعجة في الحال، افتعلها لاجتذاب نظر الرجل، فانتبه هذا على صوتها ورفع رأسه ومنظاره، وكشف عن معارف وجه

المستر بت محرر «الغازيت إيتنزول».

وقام سام وهو يتقدم وينحني بالتحية: «معذرة يا سيدي! إن سيدي هنا يا مستر بت».

وصاح بت وهو يجر سام إلى الحجرة ويغلق الباب، وقد بدت على وجهه سمات رعب غريب وإشفاق ظاهر: «صه! صه!».

وقال سام وهو يتلفت حوله مذهولًا: «ما الخبر يا سيدي؟».

وأجاب بت: «لا تهمس همسة واحدة باسمي، فنحن في ناحية تابعة لحزب الصُّفر، ولو عرف أهلها المتحمسون السريعة الهياج أنني هنا لمزقوني إربًا».

وسأل سام: «لا تقل هذا، هل تمزق إربًا حقًّا يا سيدي؟».

وأجاب بت: «سوف أكون فريسة حنقهم. والآن يا فتى، ما أنباء سيدك؟».

وقال سام: «إنه نازل الليلة هنا في طريقه إلى المدينة مع صاحبين له».

وسأل بت بعبسة قليلة: «وهل المستر ونكل أحدهما؟».

وأجاب سام: «كلا يا سيدي، إن المستر ونكل مقيم في بيته الآن، لقد تزوج».

وصاح بت بحدة مروعة: «تزوج!» ووقف عن الكلام، وابتسم ابتسامة مكفهرة، وأضاف قائلًا في صوت منخفض مفعم بالتشفي: «هذا جزاء حق!».

وبعد أن نفس عن صدره ذلك الحقد الدفين، وكشف عن انتصاره في حرب باردة على عدوه الذي سقط في المعركة، بتلك النفثات القاسية، راح يسأل سام عن صديقي المستر بكوك، هل هما من «الزُّرق؟» وما كاد يتلقى منه ردًّا شافيًا بالإيجاب، وكان سام لا يقل معرفة بهذه المسائل ونحوها عن بت نفسه، حتى وافق على الذهاب معه إلى غرفة المستر بكوك، حيث لقي ترحابًا صادقًا به، وتم الاتفاق معه على حفلة عشاء، وإصدار الأمر في الحال بإعدادها.

وقال المستر بكوك بعد أن جلس بت بقرب الموقدة وخلع القوم أحذيتهم المبللة، ولبسوا نعالًا جافة: «والآن هل الأمور سائرة على ما يرام في إيتنزول؟ ألا تزال صحيفة «الإنديبندنت» تصدر؟».

وأجاب بت: «إن الصحيفة يا سيدي لا تزال تطلع في مشيتها، وهي ماضية في طريقها الأنكد وئيدة عارجة، ممقوتة محتقرة حتى من القليلين الذين يشعرون بوجودها المعيب المشين، مختنقة من كثرة المقاذر التي تفيض بها، عمياء صماء من استنشاقها وأوساخها، وقد أخذت هذه الجريدة الخاملة القذرة، وهي تجهل لحسن حظها حالها المهينة السوأى، تغرق سريعًا في أوحالها الناعمة التي تسوخ فيها الأقدام وهي أوحال تجعلها تبدو راسخة المكانة عند السفلة والأراذل من أفراد المجتمع، ولكنها مع ذلك تعلو فوق رأسها، ولن تلبث حتى تبتلعها».

وتمهل المحرر لحظة ليتمالك أنفاسه عقب إلقاء هذا «البيان» الذي كان جزءًا من مقاله الافتتاحي في عدد الأسبوع الماضي، وانثنى ينظر بهيبة وجلال إلى بب سوير.

قال: «أنت شاب يا سيدي».

وأومأ المستر بب سوير إيماءة إيجاب.

وانثنى إلى المستر بن ألن فقال: «وأنت كذلك يا سيدي».

وأقر بن هذا الاتهام الرقيق.

وقال بت: «وكلاكما قد أشربت نفسه حب المبادئ «الزرقاء»[1] التي عاهدت الشعب على تأييدها والنضال في سبيلها ما حييت».

وأجاب بب سوير: «والله لست أدري بالدقة شيئًا عن هذا ونحوه، إنني...».

وقاطعه بت وهو يسحب كرسيه إلى الخلف: «ليس من الصُّفر يا مستر بكوك، إن صاحبك ليس من الصُّفر يا سيدي؟».

وأجاب بب: «كلا، كلا، أنا في الوقت الحاضر مزيج من كل الألوان».

وقال بت بلهجة رهيبة: «متردد، مذبذب، أحب أن أريك سلسلة من ثمان مقالات يا سيدي ظهرت في أعداد «الغازت إيتنزول»، وأظن أن في إمكاني أن أقول إنك لن تلبث بعد قراءتها أن تقيم آراءك على أساس ثابت من المبادئ «الزرقاء» يا سيدي».

وأجاب بب: «وأجرؤ أن أقول إنني سأرتد «أزرق» كل الزرقة قبل أن آتي على نهايتها بوقت طويل».

(١) يقصد مبادئ حزب «الزُّرق» وقد مر بنا في الفصل الثالث عشر أن إيتنزول يتنازعها حزبان: «الصُّفر» و«الزُّرق».

ولبث المستر بت ينظر إلى بب سوير مستريبًا بضع ثوان، ثم انثنى إلى المستر بكوك فقال: «هل اطلعت على الفصول الأدبية التي ظهرت على فترات من الوقت في «الغازت إيتنزول» خلال الثلاثة الأشهر الماضية، والتي أثارت الاهتمام الشديد والإعجاب البالغ، إن لم أقل الإعجاب العام؟».

وأجاب المستر بكوك وقد شعر بشيء من الارتباك لهذا السؤال: «الواقع أنني كنت مشغولًا إلى حد كبير بمسائل أخرى، فلم تواتني في الحقيقة فرصة لمطالعتها».

وقال بت عابسًا: «لا بد لك من مطالعتها يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك: «سأفعل».

ومضى بت يقول: «لقد ظهرت في صورة عرض شامل لكتاب عن «علم ما وراء الطبيعة عند الصينيين» يا سيدي».

وصاح المستر بكوك: «عجبًا! بقلمك؟ أرجو أن يكون الأمر كذلك».

وقال بت باعتزاز: «من قلم ناقدي يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «يخيل إليَّ أنه موضوع عريض».

وأجاب بت وهو يتظاهر بأشد مظاهر الحكمة: «جدًّا يا سيدي، وقد أضطر إلى تناوله بالبحث والاطلاع بناء عن رغبتي في دائرة المعارف البريطانية إلى حد «التخمة» كما هو الاصطلاح الشائع، وإن كان يعبر بالضبط عن المعنى المقصود».

وقال المستر بكوك: «فعلًا! لم أكن أعرف أن هذا المؤلف القيم يحوي أية معلومات عن علم ما وراء الطبيعة عند الصينيين».

ومضى بت يقول وهو يلقي كفه على ركبة المستر بكوك، ويتلفت حوله مبتسمًا ابتسامة التفوق العقلي: «لقد قرأ عن مادة ما وراء الطبيعة في باب «الميم» وعن الصين في باب «الصاد» وجمع المعلومات التي تواتت له من هذين البابين يا سيدي».

ولم تلبث معارف المستر بت أن اتخذت مزيدًا من «التعاظم» عقب ذكر البحث المستطيل، والدراسة الوافية، التي اقتضاها ذلك الموضوع العويص، حتى لقد اضطر المستر بكوك إلى الانتظار بضع دقائق قبل أن يجرؤ على معاودة الحديث، حين رأى وجه الصحفي قد بدأ، يهدأ شيئًا فشيئًا ويعود إلى اتخاذ سمت الرفعة المألوفة منه، فتشجع وانثنى يسأله قائلًا: «هل من بأس في سؤالي ما هو الهدف العظيم الذي جاء بك كل هذه الشقة البعيدة من موطنك؟».

وأجاب بت بابتسامة هادئة: «هو الهدف ذاته الذي يحفزني دائمًا إلى بذل جهودي الجبارة يا سيدي، وأعني به مصلحة بلادي».

وقال المستر بكوك: «لقد ظننت أنها مهمة عامة».

وأجاب بت: «نعم، هي كذلك يا سيدي»، وهنا أقبل على المستر بكوك وهمس له بصوت أجوف أجش: «إن حفلة رقص سيقيمها «الصُّفر» يا سيدي في برمنجهام مساء غد».

وصاح المستر بكوك: «يا عجبًا!».

وأردف بت: «أي نعم، ومأدبة عشاء أيضًا».

وعاد المستر بكوك يقول مندهشًا: «لا تقل كلامًا كهذا».

ولكن بت أومأ إيماءة تَطَيُّر وإشفاق.

ولم يكن المستر بكوك يعرف الشيء الكثير عن السياسة المحلية، وإن كان قد تراءى في دهشة بالغة من هذا النبأ الذي أسرَّه بت إليه، فلم يستطع إدراك مدى خطورة المؤامرة المنكرة التي يشير إليها حق الإدراك، ولاحظ المستر بت ذلك عليه فأخرج العدد الأخير من «الغازت» وتولى بنفسه قراءة الفقرة التالية:

مؤامرة «الصُّفر» من وراء ستار

وقد رأينا في الأيام الأخيرة حية معاصرة تنفث سمها الزعاف، محاولة عبثًا وبلا أمل تلويث سمعة نائبنا المحترم، وممثل دائرتنا العظيم، النائب المستر سلمكي الذي تنبأنا قبل ظفره بمركزه الحالي ومكانته السامية بوقت طويل أن يصبح في يوم من الأيام- كما هو الآن- أشرف عنوان لبلاده، وأكبر موضع فخارها وأن يمسي أيضًا بطلها الهمام، ومحمدتها المشرفة. نقول: إن هذه الحية المعاصرة أحبت أن تلهو على حساب تكريم رفيع أراد ناخبوه المعتزون به إقامته لذلك الرجل المجيد، وهو تكريم زعمت تلك المنكودة التي نترفع عن ذكر اسمها أن النائب المحترم المستر سلمكي نفسه تبرع بأكثر من ثلاثة أرباع المال الذي جمع لهذه المأدبة، من طريق صديق من أصدقاء الخادم الموكل بشرابه، فهلا رأت هذه الحية الزاحفة أن ذلك، حتى مع افتراض صحته،

لا يزيد النائب المحترم المستر سلمكي إلا محبة بين الناس، وسناءً باهرًا إن صح أن لهذه المحبة، وذلك السناء، مكانًا لمزيد؟ وهلا خطر لهذه العمياء الضالة أن هذه الرغبة الجميلة المؤثرة في تلبية رغبات الناخبين، تكسبه إلى الأبد معزة مكينة في قلب كل مواطن من مواطنيه الآخرين الذين ليسوا شرًّا من الخنازير، أو بعبارة أخرى، الذين لا يحاكون في المهانة والحقارة زميلتنا ذاتها؟ ولكن لا عجب، فتلك هي ضلالة صحيفة «الصُّفر»، وأباطيلها المهينة، وأخاديعها السافلة التي تلوذ بالجحور، والمكامن. ولم تكتف بهذه الأضاليل وحدها، بل مضت تعلن عنها في الخارج، وتكشفها للناس كافة في البلاد، وفي إمكاننا الآن أن نقرر وقد هالنا ما عرفنا، وحفزنا ما اكتشفنا إلى مناشدة البلاد وشرطتها الحماية. نقول: إن في إمكاننا الآن أن نقرر أن هناك استعدادات تتخذ في هذه اللحظة لإقامة حفلة راقصة من الصفر في بلدة من لونهم وسط إقليم من الصفر، يشرف عليه منظم منهم، ويحضره أربعة من غلاوة الصُّفر في البرلمان، وسيكون الدخول برقاع من عند الصفر. فهل ترى الزميلة الأثيمة تفزع وتجفل من كشف الستار عن هذا الجرم؟ فلتفزع ولتجفل من الحقد العاجز، ونحن نكتب العبارة التالية: سنكون هناك.

وطوى بت الصحيفة وقد أحس جهدًا بالغًا وانثنى يقول: «هاك يا سيدي، هذه هي حقيقة الأمر وواقعه».

ودخل رب الفندق والخادم في تلك اللحظة يحملان العشاء، فبادر المستر بت إلى وضع إصبعه فوق شفته، إشارة إلى أنه يعد حياته في يد المستر بكوك ويعتمد على كتمان السر. وكان بب سوير وبنجمن ألن قد

استولى النعاس عليهما خلال قراءة تلك النبذة من «الغازت» والمناقشة التي تلتها، ولكنهما استيقظا على مجرد الهمس بتلك الكلمة الساحرة، واللفظة الطلسمية «العشاء!» في أذنيهما، فأقبلا عليه بشهية متحرقة يتبعها بالطبع هضم سريع، وصحة جيدة، وخادم واحد في خدمة هذه الثلاث مجتمعة.

وهبط المستر بت خلال العشاء وفي المجلس الذي أعقبه، إلى الحديث فترة قصيرة عن شؤونه الخاصة، فنبأ المستر بكوك أن هواء إيتنزول لم يوافق زوجته فسافرت في رحلة لزيارة عدة مدن مشهورة بمياهها المعدنية، طلبًا للاستجمام والشفاء من السقام. وكانت تلك الكلمات تعبيرًا لطيفًا في كشف حقيقة الأمر، وهي أن مسز بت نفذت ما كانت قد أكثرت من التهديد به، وهو الانفصال، فتركت المنزل، طبقًا للاتفاق الذي تولى شقيقها «الملازم» المفاوضة فيه وأقره المستر بت، وهجرت الحياة معه هجرة بغير رجعة، وأخذت معها حارستها «الأمينة»، راضية بنصف الإيراد السنوي والأرباح التي تجتمع له من تحرير الجريدة وبيعها.

وبينما كان المستر بت العظيم يواصل الحديث في هذا الموضوع وغيره من الموضوعات، وينعشه من وقت إلى آخر بشذرات مختلفة من كتاباته الخاصة العظيمة، وقفت في رحبة الفندق مركبة عامة لإنزال الطرود، قبل مواصلة المسير إلى البلاد المجاورة، وأطل من نافذتها رجل غريب عبوس الوجه، وطلب أن يعرف هل يتيسر له إذا لم يواصل السفر إلى بغيته، وأراد المبيت في الفندق إلى الصباح، أن يجد فراشًا وسريرًا.

وأجاب رب الفندق: «بلا شك يا سيدي».

وقال الغريب، وكان يبدو عليه أنه المستريب المتشكك عادة: «أستطيع؟ هل أستطيع حقًّا؟».

وأجاب رب الفندق: «بلا شك يا سيدي».

قال: «جميل. أيها السائق أنا نازل هنا، أيها الحارس، عليَّ بحقيبتي القماش!».

وبعد أن حيًّا الركب الآخرين تحية خاطفة، نزل من المركبة، فإذا هو سيد يميل إلى القصر، خشن الشعر فاحمه، مقصوص بشكل قنفذي جعله واقفًا قائمًا فوق رأسه كله، وتلوح عليه سمات العجرفة، وحدة العينين وكثرة اختلاجهما، وينم مظهره في الجملة عن شدة اعتداده بنفسه وشعوره بالسمو المتناهي على الناس جميعًا.

وأُعطي ذلك الغريب الغرفة التي كانت قد خصصت في الأصل للمستر بت الوطني الغيور، ولاحظ الخادم في دهشة صامتة، غرابة الاتفاق بين الرجلين، فلم يكد هذا النزيل الجديد يرى الشموع قد أضيئت، حتى دس يده في جوف قبعته، فأخرج إحدى الصحف، وبدأ يقرأها بتلك السخرية المزيجة بالغضب التي بدت على وجه بت وتقاطيعه الجليلة منذ ساعة فقط، وكادت تشل حركة الخادم وتقضي على نشاطه، كما لاحظ أن سخرية المستر بت أثارتها صحيفة كتب اسمها في رأسها وهو «إيتنزول إنديبندنت» وأن سخرية هذا السيد أيضًا أثارتها صحيفة تدعى «غازيت إيتنزول».

وقال الغريب: «أرسل رب الفندق».

وأجاب الغلام: «سمعًا وطاعة يا سيدي».

ودعي رب الفندق فجاء.

وسأل السيد: «هل أنت رب الفندق؟».

وأجاب هذا: «نعم يا سيدي».

قال: «هل تعرفني؟».

وأجاب صاحب الفندق: «لم يتح لي هذا الشرف يا سيدي».

قال: «إن اسمي سلرك».

وأمال رب الفندق رأسه قليلًا.

وعاد الرجل يردد القول بكبرياء وزهو: «اسمي سلرك، هل عرفتني الآن يا رجل؟».

وهرش رب الفندق رأسه ونظر إلى السقف ثم إلى الغريب وابتسم ابتسامة واهنة.

وعاد الغريب يسأله بغضب: «هل تعرفني يا رجل؟».

وأبدى رب الفندق جهدًا شديدًا، وأجاب أخيرًا: «والله يا سيدي لست أعرفك».

وقال الغريب وهو يضرب المنضدة بجمع كفه: «يا إله السموات! ثم يقولون إن هذه هي الشهرة!».

وخطا رب الفندق خطوة أو اثنتين نحو الباب، وجعل الغريب يتبعه

ببصره، ومضى يقول: «هذا هو ما يجزى به جهد السنين ودرس الأعوام في سبيل مصلحة الجماهير، أنزل من المركبة مبللًا متعبًا، فلا تتدافع الحشود المتحمسة لتحية بطلها العظيم، ولا تقرع النواقيس لاستقباله، ولا يجد ذكر اسمه استجابة من الصدور الجياشة، والنفوس المتقدة». وهنا مضى المستر «سلرك» في هياج وحنق يروح ويغدو في الحجرة قائلًا: «إن هذا ليكفي لأن يجف المداد، في الأقلام، ويحمل المرء على اعتزال الجهاد، والتنحي عن النضال آخر الحياة».

وقال رب الفندق، على سبيل التلميح: «هل قلت يا سيدي براندي بالماء؟».

وأجاب المستر سلرك وهو ينقض عليه بغضب شديد: «قلت روم! أليست لديك نار مشبوبة في مكان ما؟».

قال: «يمكننا أن نوقد نارًا في الحال يا سيدي».

ولكن المستر سلرك قاطعه قائلًا: «وهي نار لن ترسل أوارًا ولا تبعث دفئًا قبل موعد النوم، هل هناك أحد في المطبخ؟».

ولم يكن فيه أحد، فقد انصرف الجميع، وأوصدت أبواب الفندق بقية الليل، ولا تزال في المطهى نار متقدة متلظية.

وقال المستر سلرك: «سأشرب رومي الممزوج بالماء بجانب نار المطبخ»، وانثنى فتناول قبعته وجريدته، وتسلل في أثر رب الفندق إلى ذلك المكان الوضيع، وألقى بنفسه على متكأ قريب من الموقدة، وعاد إلى اتخاذ سيمياء السخرية، وبدأ يقرأ ويشرب في وقار وصمت.

وفي تلك اللحظة كان شيطان مريد من شياطين الشر والسوء، يحلق فوق الفندق، فحانت منه التفاتة من الفضول وحب الاستطلاع لا أكثر ولا أقل، فأبصر «سلرك»، وهو جالس جلسة المستريح المطمئن بجوار نار المطبخ، وألمت عيناه ببت وهو نشوان من الشراب في غرفة أخرى، فلم يلبث أن هبط عليها بسرعة لا يتصورها العقل، ودخل في رأس المستر بب سوير في الحال، فوسوس له في سبيل تحقيق غرضه الخبيث أن يقول «لقد تركنا النار تخبو فاشتد القر على غير العادة عقب المطر، أليس كذلك؟».

وأجاب المستر بكوك وهو يرعش: «هو كذلك فعلًا».

وقال بب سوير والشيطان الخبيث لا يزال يدفعه ويحفزه: «لا أحسب ثمة بأسًا من تدخين لفافة كبيرة بجانب موقدة المطبخ، هل من بأس؟».

وأجاب المستر بكوك: «بالعكس، أعتقد أنا أن ذلك سيريحنا كثيرًا، ما قولك يا مستر بت؟».

وأبدى المستر بت استعدادًا لإقرار تلك الفكرة، فنهض المسافرون الأربعة في الحال، وقد حمل كل منهم كأسه بيده، وانطلقوا إلى المطبخ، يتقدم موكبهم سام ويلر ليهديهم إلى الطريق.

وكان الغريب لا يزال يقرأ، فتطلع ببصره، وأجفل، بينما تولى الذعر المستر بت، فأجفل كذلك.

وهمس المستر بكوك: «ما الخطب؟».

وأجاب بت: «هذا الحيوان الزاحف».

وقال المستر بكوك وهو يتلفت حوله مخافة أن يطأ بقدميه خنفساء سوداء كبيرة أو عنكبوتًا ضخمًا: «أي حيوان زاحف تعني؟».

وهمس بت وهو يمسك المستر بكوك من ذراعه ويشير إلى الغريب: «هذا الحيوان الزاحف «سلرك» رئيس تحرير الإنديبندنت».

وقال المستر بكوك مخافتًا بصوته: «لعل من الصواب أن نرجع».

وأجاب بت، وقد تملكته جرأة الخمر، أو شجاعة «القدر» على سبيل التورية[1]: «مستحيل، لا يمكن أبدًا».

ومضى يتخذ مجلسه فوق المتكأ المقابل، واختار عددًا من الأعداد التي تحويها الرزمة، وبدأ «يباري» خصمه ويجاريه في القراءة.

وقد راح المستر بت طبعًا يقرأ «الإنديبندنت» وكان المستر سلرك يقرأ بالطبع «الغازت»، فلم يلبث كلاهما أن ذهب يعبر بصوت مسموع عن احتقاره لمقال الآخر، بضحكات مريرة وحركات اشمئزاز سافر بأنفه، ثم ما لبثا أن تدرجا إلى الكلام الصريح، والتشاتم العلني، كقولهما: سخيف، منكود، بشع، مهاتر، وغد، قذر، وسخ، ماء المجاري، وغيرها من السباب المماثل.

وشاهد المستر بب سوير والمستر بن ألن أعراض هذه الكراهية المتبادلة، والخصومة الواضحة، بشيء من السرور أضاف لذة جديدة إلى متعة التدخين، فجعلا يشدان من اللفافتين أنفاسًا قوية، وما كادا

(١) معنى «بت» القدر أو الجرة التي توضع فيها الخمر - «وشجاعة القدر» **pot-vailiant** هي الجرأة التي يحدثها الشراب عند الشمل، فالتعبير هنا «تورية».

يسترخيان، حتى انثنى المستر بب سوير يقول موجهًا هل تسمح لي بإلقاء نظرة على جريدتك يا سيدي حين » : الخطاب بأدب إلى المستر سلرك: «هل تسمح لي بإلقاء نظرة على جريدتك يا سيدي حين تفرغ منها؟».

وأجاب سلرك، وهو ينظر إلى بت نظرة شيطانية: «لن تجد ما يعوضك يا سيدي عن تعب القراءة في هذا الشيء المحتقر المهين».

وقال بت وهو يتطلع ببصره في حنق شديد، ويرعش في كلامه من فرط الغضب: «ستتناول هذه بعد لحظة ها! ها! وستطرب لقحة هذا، المخلوق».

وكان كل من الرجلين قد شدد في النطق بكلمة «شيء»، ولفظة «مخلوق»، وأخذ وجهاهما يتقدان تحديًا واستخفافًا.

وقال بت، وهو يتظاهر بأنه يخاطب بب سوير: «إن فحش هذا الرجل التعس يبعث في النفس اشمئزازًا لا يوصف».

وهنا قهقه المستر سلرك ضاحكًا من أعماقه وطوى الصحيفة؛ لكي يتمكن من قراءة نهر آخر براحة، وقال: إن هذا الأحمق يسليه فعلًا.

وقال بت، وهو متغير اللون من القرنفلي إلى الأرجواني: «ما أشد حماقة هذا المخلوق وضلالته!».

وقال سلرك متسائلًا بب سوير: «هل قرأت يومًا شيئًا من سخافة هذا الرجل يا سيدي؟».

وأجاب بب: «أبدًا، هل هو رديء إلى هذا الحد؟».

وقال سلرك: «بشع! بشع!».

وصاح بت عندئذ، وإن لبث يتراءى منشغلًا بالقراءة: «أحقًّا؟ يا للعجب، هذا فظيع، وأي فظاعة».

وقال سلرك وهو يقدم الجريدة إلى بب: «لو استطعت الخوض في هذا المستنقع من الشر والخبث بضع خطوات، ورأيت كيف تكون المهانة، واللغو، والزور، والبهتان، والرياء، فلعلك واجد بعض الجزاء عن العناء في ضحكة من أسلوب هذا الثرثار الجاهل بالنحو والصرف».

وقال المستر بت وهو يرفع بصره عن الصحيفة ويرعش من فرط الغضب: «ما هذا الذي قلته اللحظة يا سيدي؟».

وأجاب سلرك: «وما شأنك أنت وما قلت يا سيدي؟».

وقال بت: «هل قلت ثرثار جاهل بالنحو والصرف؟ أقلت هذا يا سيدي؟».

وأجاب سلرك: «نعم قلته، وأزيد أيضًا عليه، فدم «أزرق» إن كنت تستحسن هذا الوصف ها! ها!».

ولم يجب المستر بت بكلمة عن هذه الإهانة المقترنة بالضحك، بل طوى في تؤدة نسخة «الإنديبندنت» وبسطها بكل هدوء، وألقاها تحت حذائه فوطئها بقدمه وبصق فوقها، بكل احتفال وسكون، ثم ألقى بها إلى النار، وهو يقول منثنيًا عن الموقدة: «هذا مكانها يا سيدي، وهذا هو سبيلي في معاملة الثعبان الذي يصدر، لولا أنني لحسن حظه ممنوع من هذا بسلطان القوانين القائمة في بلادي».

وصاح سلرك، وهو ينهض من مجلسه: «أتعامله هكذا يا سيدي؟

إنه لن يلجأ مطلقًا إلى هذه القوانين في حالة كهذه. تعامله بهذه الوسيلة يا سيدي!».

وقال بب سوير: «مرحى! مرحى!».

وتبعه المستر بن ألن فقال: «لا شيء أعدل من هذا».

وعاد سلرك يردد بصوت مرتفع قوله: «أتعامله بهذه الطريقة يا سيدي!».

وحدجه المستر بت بنظرة احتقار، لو وقعت على مرسى سفينة لفلقته.

ومضى الآخر يردد كلمته ذاتها بصوت أشد ارتفاعًا: «أتعامله بهذه الوسيلة يا سيدي!».

وأجاب بت: «لن أفعل يا سيدي».

وقال سلرك بلهجة تقريع: «آه! لن تفعل يا سيدي، أتسمعون هذا أيها السادة؟ ولا يريد أن يقول إنه «خائف»، كلا بل إنه لن يفعل، ها! ها!».

وأجاب المستر بت وقد هاجته هذه السخرية: «إنني أعدك يا سيدي ثعبانًا، وأنظر إليك يا سيدي نظري إلى رجل وضع نفسه خارج سياج المجتمع، بتصرفه المتناهي في القحة، وسلوكه المعيب للغاية، وسيرته المقيتة بين الناس، ولا أراك شخصيًّا ولا سياسيًّا يا سيدي إلا أنك ثعبان لا أقل».

ولم ينتظر محرر «الإنديبندنت» الهائج الغاضب ليستمع إلى

نهاية هذا التشنيع الشخصي؛ لأنه أمسك بحقيبة القماش المحشوة بالمنقولات، فلوح بها في الهواء، في اللحظة التي تولى فيها بت بظهره، وتركها تسقط في حركة دائرة فوق رأسه، من ركنها الذي يحوي فرشاة شعر صلبة، فأحدثت صوتًا حادًّا في أرجاء المطبخ وجعلته يخر في الحال على الأرض.

وصاح المستر بكوك حين رأى بت ينهض ويمسك بمجراف النار: «أيها السيدان، فكرا في العاقبة بحق السماء! النجدة.. يا سام.. الغوث.. ليتدخل بعض الناس في الأمر».

وهرع المستر بكوك وهو يطلق هذه الصيحات المتعطفة فوقف بين المتشاجرين الهائجين في اللحظة التي تلقي فيها حقيبة القماش في جنبه، والمجراف في الجنب الآخر، وسواء كانت الخصومة بين ممثلي الرأي العام في ايتنزول قد أعمت بصيرتيهما، أو أدركا بالفطانة- لأن كلًّا منهما المفكر المنطيق- مدى الفائدة التي تعود من قيام شخص ثالث بينهما؛ ليتحمل الضربات المتبادلة كلها، فلا نزاع في أنهما لم يكترثا أقل اكتراث بالمستر بكوك، بل راح كل منهما يتحدى مناجزه، ويتراشقان بالحقيبة والمجراف بمنتهى الاستهتار وأشد الاستخفاف. وكان المستر بكوك بلا شك سيصاب بآلام شديدة لقاء تدخله الكريم، وتوسطه بدافع الإنسانية، لو لم يبادر المستر ويلر على صيحات سيده في تلك اللحظة، فيتناول زنبيلًا مليئًا بالمواد الغذائية، فيوقف الشجار بإلقائه فوق هامة بت العظيم، ويمسك بكتفيه بقوة شديدة ليمنعه من الحركة.

وصاح سام ببب سوير وبن ألن قائلًا: «انزعا هذه الحقيبة من ذلك

المجنون الآخر»، وكان الشابان قد وقفا لا يفعلان شيئًا غير اللف حولهما والدوران، وقد حمل كل منهما في يده مشرطًا من صدفة سلحفاة، وهو على استعداد لحجم أول رجل منهما يسقط مجندلًا.

وعاد سام يصيح قائلًا: «كُفَّ أيها المخلوق القصير التعس عن التلويح بهذه الحقيبة وإلا خنقتك في جوفها».

وريع محرر «الاستقلال» من هذا الوعيد واستخذى، ولهثت أنفاسه من الجهد، فترك السلاح ينزع منه، وعمد المستر ويلر إلى انتزاع المجراف من بت، وأطلق سراحه منذرًا متوعدًا.

وقال سام في نذيره: «اذهبا إلى فراشكما بكل هدوء، وإلا حملتكما إليه بنفسي، وجعلتكما تعاودان القتال مكممين، كما لو كان أمامي عشرة أو أكثر من أمثالكما في شجار كهذا أو شبهه. وأنت يا سيدي تكرم بالابتعاد من هنا».

وكان الخطاب الأخير موجهًا إلى المستر بكوك، وتناول سام ذراعه، ومشى به، بينما سيق الصحفيان المتنافسان إلى سريريهما، وتولى رب الفندق نقل كل منهما على حدة، تحت إشراف المستر بب سوير، والمستر بنجمن ألن، وهما لا يكفان عن تبادل كلمات الوعيد الدموي وتحديد مواعيد غامضة للقتال المميت في غداة اليوم التالي. ولكنهما حين سكنا بعد الغضب، وترويا بعد التهور، بدا لهما أن في إمكانهما أن يتقاتلا ويتبارزا فوق القرطاس، ويسنا القلم، أفضل وأبرع من التقاتل بحد الحسام، وشرعا في غير توان يتبادلان خصومة مميتة من الغداة،

ودوت أرجاء إيتنزول كلها بأنباء بسالتهما التي ظهرت على صفحات الجريدتين.

وسافر كل منهما في مركبة مستقلة في الصباح الباكر قبل أن يتحرك أحد من النزلاء من سريره، وكان الجو قد صحا، فعاد الرفاق في عجلتهم مولين وجوههم شطر لندن.

* * *

الفصل الثاني والخمسون

حدث خطير في أسرة ويلر، وسقوط المستر استيجنز الرجل الأحمر الأنف.. وأفول نجمه قبل الأوان

ورأى المستر بكوك أنه من الخير أن يرجئ اللقاء بين بب سوير وبن ألن، وبين العروسين، حتى يتأهب هذان كل الأهبة للاجتماع بهما، وأحب أن يغني عن «أرابلا» حرج هذا اللقاء ما استطاع، فاقترح أن ينزل هو وسام من المركبة في موضع قريب من فندق «جورج والرخم»، وأن يتخذ الشابان لهما مقرًّا في مكان ما إلى حين، فوافقا على هذا الاقتراح بكل ارتياح، وبدأ إخراجه إلى حيز التنفيذ، فذهب المستر بن ألن، والمستر بب سوير إلى حانة منعزلة من حانات الجعة في أقصى ناحية من الضاحية، كان اسماهما في الأيام الخالية كثيرًا ما يظهران خلف باب محل الشراب مكتوبين بالطباشير على رأس خط مستطيل من الأرقام والحسابات لبيان ما عليهما من ثمن للشراب.

واستقبلت الخادم الحسناء سام لدى الباب وهي تقول: «ويحي يا مستر ويلر».

وأجاب سام، وقد تنحى لكي يتقدم سيده، فيبتعد حتى لا يسمعه: «لقد كنت أتمنى أن تكون «ويحي» هذه كلمة أخرى، كقولك: عزيزي، مثلًا ما أعذبك وأجملك من مخلوقة يا ميري».

وقالت ميري: «لك الله يا مستر ويلر، أي كلام فارغ هذا الذي تقوله؟ امتنع يا مستر ويلر».

وقال سام: «أمتنع عن ماذا يا عزيزتي؟».

وأجابت الخادم الحسناء: «عن هذا، هيا، امض في سبيلك» وراحت بعد هذه النصيحة تدفعه نحو الجدار، قائلة إنه قد أفسد نظام قبعتها وأتلف تسريحة شعرها.

واستتلت قائلة: «ومنعتني أيضًا عما كنت أريد أن أقوله، إن هنا خطابًا ظلَّ ينتظر قدومك منذ أربعة أيام، وقد وصل بعد سفرك بنصف ساعة، وفوق ذلك، قد كتب على غلافه عاجل».

وقال سام: «وأين هو يا حبيبتي؟».

وأجابت ميري: «عندي، أنا محتفظة به حتى تعود، ولولا ذلك لفقد من وقت طويل، هاك هو ذا، إنه أكثر مما تستحق».

وبهذه العبارات، عقب عدة شكوك ومخاوف أبدتها الفتاة في حركات حلوة مغرية جميلة، والدعوات إلى الله أن يهديها إلى مكان الخطاب، راحت تخرجه من خلف صدار بديع من الحرير، وأسلمته إلى سام فتناوله فقبله في جرأة بالغة وإخلاص.

وقالت ميري وهي تسوي أطراف ثوبها الجميل، وتتظاهر بأنها لم

تدرك القصد: «يا إلهي، أراك قد أحببته في الحال إذ تناولته».

فلم يرد المستر ويلر على قولها بأكثر من غمزة من طرف عينه، لا يفي أي وصف مهما كان بليغًا بتصوير معانيها، أو التعبير عن أدنى فكرة عنها، ومضى يجلس بجانبها فوق مقعد النافذة، وفض الكتاب وألقى نظرة على ما فيه.

وصاح سام: «ها! ما هذا كله؟».

وقالت ماري وهي تطل من فوق كتفه: «أرجو ألا يكون فيه ما يسوء».

وقال سام وهو يتطلع إليها: «بارك الله في عينيك هاتين!».

وقالت المليحة: «دعك من عيني، خير لك أن تقرأ الكتاب».

وما إن قالت ذلك حتى تركت عينيها تبرقان بريق مكر وفتنة وجمال لا سبيل إلى مقاومتها.

وأنعش سام نفسه بقبلة، ومضى يقرأ الكتاب التالي:

المركيس جران، في دوركن

الأربعاء

عزيزي صمويل[1]...

إنني آسف جدًّا لسروري بحمل أنباء سيئة فإن امرأة أبيك أصيبت ببرد بسبب تهورها في الجلوس مدة طويلة فوق الحشيش الرطب تحت

(١) هذا الخطاب من المستر ويلر الكبير، وهو مكتوب على قدر علمه الضئيل بالهجاء؛ ولهذا جاء مليئًا بالأغلاط وقد راعى المؤلف ذلك، ورأينا أن نراعيه نحن في النقل كذلك ما استطعنا.

وابل المطر؛ لتسمع عظة «راع» لم يتمكن من إنهاء كلامه إلا في ساعة متأخرة من الليل؛ لأنه كان قد أكثر من البراندي الممزوج بالماء، فلم يتيسر له الانقطاع عن الكلام إلا بعد أن أفاق قليلًا من السُّكر، وهو ما استغرق عدة ساعات وقال الطبيب إنها لو كانت بلعت البراندي والماء بعد هذه الجلسة الطويلة لا قبلها، لكانت شحمت عجلاتها، وأمكن شفاؤها بأي طريقة، وكان والدك يؤمل أن تعود إلى حالتها الطبيعية كالعادة، ولكنها عندما وصلت إلى حيث يدور الطريق غلطت ومشت في طريق غير الطريق الصحيح، فنزلت منحدر بسرعة لا مثيل لها، ورغم مبادرة الطبيب إلى إعطائها الدواء، لم تنفع فيها أية حيلة، فدفعت «عوايد المرور» في المكان الأخير قبل الساعة السادس مساء أمس بعشرين دقيقة، بعد أن قطعت السفر في الوقت المناسب مع «بابا» الذي يعتقد أن ذلك كان راجعًا بعض الشيء إلى أنها لم تكن تحمل متاعًا كبيرًا في تلك الرحلة الطويلة، وبابا يقول لك إذا أمكنك الحضور لمقابلته يا سامي فسوف يكون ممتنًا لك كثيرًا؛ لأنني أشعر بوحشة وحدي يا «صموفيل»- ملحوظة: إنه يصر على تهجيتها بهذا الشكل لأنه هو الصح- ولديه مسائل كثيرة تحتاج إلى تسوية وأنا متأكد أن سيدك الذي أنت عنده سوف لا يمانع بالطبع، إنه لا يمانع يا سامي لأنه أعرفه جيدًا، ووالدك يرسل إليه السلام، وأنا منضم إليه، ودمتم لوالدكم إلى الأبد يا صموفيل والسلام ختام.

نوني فلر...

وقال سام: «هذا خطاب غير مفهوم، فمن يعرف ماذا يقصد بكل ما تكرر فيه من «هو» و«أنا» لا يمكن أن تكون هذه كتابة والدي بنفسه، اللهم إلا الإمضاء بهذه الحروف الكبيرة، فهي وحدها خطه».

وقالت الخادم المليحة: «لعله وجد أحدًا يكتبه له، ثم أمضاه بعد ذلك».

وقال سام وهو يعيد قراءة الكتاب، ويقف بين فقراته ليفكر: «تمهلي لحظة، لقد قلت عين الجد، فقد كتب الرجل كلامًا معقولًا عن الحادثة بطريقة مناسبة، ولكن الوالد وقف على كتفه فأفسد الكلام كله وزاده تعقيدًا، بما أدخله عليه من كلامه، هذا هو ما يفعله بعينه، وأنت على حق يا عزيزتي ميري».

وبعد أن أقنع سام نفسه على هذا النحو، عاد فقرأ الكتاب من أوله إلى آخره مرة أخرى، وبدا عليه أنه استطاع تكوين فكرة واضحة عما فيه لأول مرة، وأنشأ وهو يطوي الكتاب يقول ساهمًا واجمًا: «وهكذا ماتت المخلوقة المسكينة، إنني لحزين عليها، فقد كانت طيبة لولا أولئك الرعاة الذين أحاطوا بها، إنني حزين جدًّا عليها».

وقد فاه المستر ويلر بهذه الكلمات وهو كاسف البال متأثر، حتى لم يسع الفتاة المليحة إلا أن تغض من عينيها وتبدو واجمة مكفهرة.

وعاد سام يقول وهو يضع الكتاب في جيبه بزفرة رفيقة: «وعلى كل حال لقد كان ذلك مقدرًا، والمقدر كائن، كما قالت السيدة العجوز بعد أن تزوجت بخادمها، لم تكن ثمة حيلة، أليس كذلك يا ميري؟».

وهزت ميري رأسها وزفرت هي الأخرى.

وقال سام: «لا بد لي من استئذان «الإمبراطور» في الغياب».

وزفرت ميري مرة أخرى، فقد كان الكتاب مؤثرًا جدًّا.

وقال سام: «إلى اللقاء!».

وأجابت المليحة وهي تشيح بوجهها: «إلى اللقاء».

قال سام: «ألا تسلمين باليد؟».

ومدت المليحة يدها، وكانت- رغم أنها خادمة- كفًّا صغيرة رقيقة ونهضت لتنصرف.

وقال سام: «لن يطول غيابي».

وقالت ميري، وهي تطوح برأسها في الفضاء أرق تطويحة ممكنة: «إنك أبدًا غائب، فلا تكاد تعود يا مستر ويلر حتى تذهب ثانية».

وأدنى المستر ويلر المليحة من صدره، وأقبل على حديث هامس، لم يكد يمضي فيه شوطًا، حتى تولت بوجهها إليه وسمحت بأن تنظر صوبه، وحين افترقا، وجدت أن لا مندوحة لها على أية حال أن تذهب إلى غرفتها لإصلاح قبعتها الصغيرة وجدائل شعرها، قبل أن تفكر في المثول بين يدي سيدتها، فانطلقت وهي تنعم على سام بوفرة من هزات الرأس والبسمات من فوق سياج السلم وهي صاعدته.

وقال سام للمستر بكوك حين أبلغه فحوى كتاب أبيه وقصة مصابه: «ولن أغيب أكثر من يوم أو يومين يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك: «غب ما اقتضت الضرورة الغياب، ولك مني الإذن كاملًا».

وانحنى سام شاكرًا.

ومضى المستر بكوك يقول: «ونبئ أباك يا سام أنني على أتم الاستعداد والرغبة في تقديم أية معونة في إمكاني إذا تسنى لي أن أعاونه في مصابه».

وأجاب سام: «شكرًا يا سيدي، سأنبئه يا سيدي».

وافترق السيد والخادم بعد تبادل عبارات المودة والتعاطف.

وفي تمام الساعة السابعة نزل صمويل ويلر من مقعده بجانب السائق في مركبة حافل تمر من حي «دوركنج» حين وقفت عن المسير على مبعدة بضع مئات من الأمتار من حانة «المركيز جرانبي»، وكان المساء قرًّا، والشارع الصغير يلوح مقفرًا قاتمًا كئيبًا، ووجه المركيز في الرسم المعلق فوق الباب تبدو عليه من سمات الحزن والكآبة ما لم يكن من قبل باديًا عليه، وهو يتحرك ذهابًا وجيئة مع الريح، ويرسل أنينًا محزنًا كأنين الحداد على الراحلين، وكانت الأستار مسدلة، والشرفات مغلق بعضها، ولم يكن في المحل أحد من أولئك الزبائن المطيلي الجلوس الذين يجتمعون عادة بقرب الباب، والمكان ساكن مهجور.

ولم يجد سام أحدًا يستطيع أن يلقي عليه أسئلة تمهيدية، فدخل برفق، ودار بعينه فيما حوله فأبصر في الحال أباه على قيد خطوات منه.

وكان ذلك «الأرمل» جالسًا إلى منضدة مستديرة صغيرة الحجم

في الغرفة الضيقة القائمة خلف مكان الشراب، يدخن في قصبته، مطرق الرأس يتطلع بعينيه إلى النار، وبدا لسام أن الجنازة شيعت في ذلك اليوم بالذات، فقد رأى على قبعته التي كانت باقية فوق رأسه شريطًا يبلغ طوله ياردة ونصف ياردة، متدليًا منها فوق مسند المقعد، مهملًا لا يجد من يرفعه من تراخيه. وكان المستر ويلر شاردًا سارح الخاطر ساهمًا، حتى لقد ناداه سام باسمه عدة مران، ولكنه لبث يدخن، هادئًا ذاهلًا، فلم ينتبه أخيرًا من شروده إلا حين وضع سام راحة كفه فوق كتفه.

وقال المستر ويلر: «سامي، مرحبًا».

وقال سامي وهو يعلق قبعته فوق المشجب: «لقد ناديتك عدة مرات ولكنك لم تسمعني».

وأجاب المستر ويلر وهو لا يزال ينظر إلى النار مفكرًا: «لم أسمعك فعلًا يا سامي، كنت سارحًا».

وقال سامي وهو يقرب مقعده من النار: «في أي شيء تسرح؟».

وأجاب الوالد: «كنت سارحًا فيها يا صموفيل».

وهنا هز المستر ويلر رأسه ناحية مقبرة «دوركنج» تفسيرًا صامتًا لقوله، وإشارة إلى المرحومة المسز «ويلر».

وواصل المستر ويلر حديثه قائلًا، وهو ينظر إلى ابنه بجد بالغ من فوق قصبته، كأنما يريد أن يؤكد له أنه مهما تبدو أقواله غريبة شاذة لا يمكن أن تصدق، فقد فاه بها في هدوء وبعد تفكير وروية: «لقد كنت أفكر يا سامي في أنني أولى بأن أحزن وآسف على فراقها على كل حال».

وأجاب سام: «وهذا هو ما يجب عليك».

وأومأ المستر ويلر إيماءة الموافقة على هذا الشعور، ثم عاد يطيل النظر إلى النار، ويتوارى في وسط دخان كثيف، ويفكر تفكيرًا عميقًا.

وعاد يقول وهو يطرد الدخان بيده بعد صمت طويل: «لقد كانت كلماتها معقولة يا سامي ووجيهة جدًّا».

وقال سام: «أي كلمات؟».

وأجاب الشيخ: «الملاحظات التي أبدتها قبل مرضها».

وسأل سام: «وما هي؟».

فقال الشيخ، كلام في هذا المعنى: «قالت يا ويلر، إنني أخشى ألا أكون قد فعلت لك ما كان أولى بي أن أفعله، فأنت رجل حنون كريم القلب، وكان في وسعي أن أجعل بيتك أكثر سعادة ورغدًا، ولكني بدأت أدرك الآن– بعد فوات الأوان– أنه إذا أرادت المرأة المتزوجة أن تكون متدينة، فلتبدأ أولًا بتأدية واجباتها نحو بيتها، فتجعل كل من حولها سعيدًا هنيًّا، وإذا أرادت أن تذهب إلى الكنيسة، أو المعبد، أو ما أشبه بهما، في المواقيت المقررة للعبادة، فلتحرص على ألا تجعل من هذا التدين عذرًا تبرر به فراغها وإهمالها وإمعانها في رغباتها، وقد فعلت أنا ذلك، فأضعت الوقت والمادة فيهما أكثر من أي امرأة سواي، ولكني أرجو يا ويلر حين أرتحل من هذه الدنيا أن تفكر ذلك التفكير الذي كنت تفكره قبل أن أعرف هؤلاء الناس، وكما رأيتني يومئذ على سجيتي وطبعي، فقلت لها وقد فاجأتني يا صمويل بهذا القول الأليم: نعم، لا

أنكر يا بني أنها أخذتني به على غرة. قلت: سوزان، لقد كنت زوجة طيبة كريمة عليَّ كل الطيبة، ونهاية الكرم، فلا تقولي مثل هذا القول، وتشجعي يا عزيزتي ولا تحزني، وعيشي حتى تشهديني أكسر دماغ استيجنز. فابتسمت لهذا القول يا صموفيل- وهنا كبت الشيخ بقصبة تبغه زفرة شاهقة، وانثنى يقول: ولكنها مع كل هذا ماتت».

وقال سام على سبيل تقديم مواساة يسيرة للتخفيف عن أبيه، بعد فترة صمت استغرقت ثلاث دقائق أو أربع، قضاها الشيخ في هز رأسه يمنة ويسرة، ومواصلة التدخين في أسف ووجوم: «نعم، يا معلم، نحن كلنا لها، يومًا».

وقال المستر ويلر الكبير: «هذا محتم يا سامي، هذا أمر لا بد منه».

وقال سام: «إن يد الله وتقديره من وراء هذا كله».

وأجاب الوالد، وهو يومئ إيماءة موافقة حزينة: «بالطبع، وإلا ماذا كان ناقلو الموتى يفعلون، لولا هذا يا سامي؟».

وسرح المستر ويلر الكبير في ذلك الوادي الفسيح من الخواطر والأفكار الذي فتحت هذه الفكرة بابه، فوضع القصبة فوق المنضدة وراح يحرك جذوات النار بوجه كاسف غارق في التفكير.

وبينما كان الشيخ في سرحته تلك، جاءت طاهية بضة في ثياب الحداد، كانت من قبل تروح وتغدو حول مكان الشراب، فألقت حين تسللت إلى الغرفة عدة نظرات على سام تدل على أنها تعرفه، ووقفت خلف كرسي أبيه، معلنة قدومها بسعلة خفيفة، لم تكد تتبين أنه لم يفطن

إليها، حتى أتبعتها سعلة أخرى أعلى من الأولى صوتًا.

وقال المستر ويلر الكبير وقد ألقى المحراك من يده وهو يتلفت حوله، ويبادر إلى سحب مقعده بعيدًا من الموقدة: «نعم! ماذا جرى الآن؟».

وقالت المرأة البضة ملاطفة: «هيا تناول فنجانًا من الشاي أيها الرجل الصالح».

وأجاب المستر ويلر في شيء من الانفعال: «كلا، لا أريد، سأراك». وهنا أسرع في ضبط نفسه، فقال بصوت منخفض: «فيما بعد».

وقالت المرأة، وهي ترفع بصرها: «ويحي! ويحي! لكم تغير الشدائد نفوس البشر!».

وتمتم المستر ويلر قائلًا: «لن يغير ما بي بعد اليوم غير هذا الذى جرى، والطبيب».

وقالت المرأة البضة: «ما رأيت في حياتي حقًّا رجلًا غضوبًا حادًّا بهذا الشكل».

وأجاب الشيخ: «لا بأس، كل هذا في مصلحتي، وهي الفكرة ذاتها التي خطرت للتلميذ النادم عندما مدوه وضربوه ليهدئوا بالضرب خاطره».

وهزت المرأة البضة رأسها هزة رثاء وعطف، وانثنت إلى سام تسأله ألا ينبغي لأبيه حقًّا أن يحاول التسرية عن نفسه، وألا يستسلم لهذا الحزن الذي استولى عليه قائلة: «لا يخفى عليك يا مستر صمويل أنه سيشعر

بوحشة، كما قلت له أمس، فلا يمكن أن يتوقع إلا ما هو كائن، ولكن يجب أن يتشجع ويتأسى، وأنا واثقة أننا جميعًا راثون لحاله، شاعرون بمصابه، ومستعدون لعمل أي شيء من أجله، وما من أمر في هذه الدنيا يا مستر صمويل إلا وله علاجه، وهذا هو عين ما قاله لي رجل فاضل كبير عند وفاة المرحوم زوجي»، وهنا وضعت المرأة البضة يدها فوق فمها، وسعلت مرة أخرى، ونظرت بحنان إلى الشيخ.

وقال هذا بجد وهدوء: «لست بحاجة اللحظة إلى سماع شيء من كلامك، فهلا تكرمت بالانصراف؟».

وأجابت المرأة البضة: «أنا متأكدة يا مستر ويلر أنني ما تكلمت إلا من قبيل الشفقة».

وقال المستر ويلر: «لا يبعد يا سيدتي! يا صموفيل خذ السيدة إلى الباب وأغلقه في أثرها».

ولم يفت هذا التلميح المرأة البضة فغادرت الغرفة في الحال وأغلقت الباب بعنف خلفها، وأسند المستر ويلر ظهره إلى المقعد وهو يتصبب عرقًا.

وقال لفتاه: «اسمع يا سامي، إذا أنا بقيت هنا وحدي أسبوعًا آخر، أسبوعًا آخر يا بني، فسوف تتزوجني هذه المرأة بالقوة والإكراه قبل انقضائه».

وقال سام: «يا للعجب! أهي مولعة بك إلى هذا الحد؟».

وأجاب والده: «مولعة! لقد عجزت عن إبعادها عني، ولو كنت

مغلقًا عليَّ في خزانة واقية من النار، وعليها علامة «البراهمة» لما عز عليها أن تهتدي إلى وسيلة للوصول إليَّ يا سامي».

وقال سام وهو يبتسم: «ما أحسن حظك، إذا كانت النساء هكذا متهافتات عليك».

وأجاب المستر ويلر وهو يحرك النار بقوة: «أنا لست في مقام التباهي بذلك، ولكن الموقف شنيع، حتى ليضطرني فعلًا إلى ترك البيت والفرار من هذا البلد، فما كادت امرأة أبيك المسكينة تلفظ أنفاسها الأخيرة حتى أرسلت إليَّ امرأة عجوز «علبة مربى»، وأخرى علبة «فالوذج» وثالثة جرة كبيرة من نقيع اصطنعته من الشاي المخلوط بالبابونج، وجاءت به تحمله بنفسها» وتمهل المستر ويلر ليبدي منتهى الاشمئزاز، ثم تلفت حوله وأردف قائلًا: «وكلهن أرامل يا سامي عدا صاحبة الشاي والبابونج، فهي شابة في الثالثة والخمسين».

فكان جواب سام نظرة ماجنة. وراح الشيخ يكسر قطعة من الفحم متأبية على الكاسر، وهو يلوح من شدة الانفعال والحقد كأنه إنما يكسر رأس واحدة من تلك الأرامل.

وأنشأ يقول: «وباختصار يا سامي أشعر بأنني لست آمنًا في أي مكان غير مقعد السائق في المركبة».

وقال سام: «وكيف تكون أكثر أمانًا فيه من أي موضع سواه؟».

وأجاب المستر ويلر، وهو يطيل النظر في وجه ابنه: «لأن السائق إنسان ممتاز؛ لأنه يستطيع أن يفعل دون ريبة ما لا يجوز للآخرين أن

يفعلوه؛ ولأنه أيضًا قد يكون على أحسن حال من المودة مع المسافرات ولو ثمانين ميلًا، ولا يخطر ببال أحد أنه يقصد الزواج بأي واحدة منهن، فهل في وسع أي إنسان آخر يا سامي أن يقول هذا القول؟».

وقال سام: «صحيح، إن هناك شيئًا في هذا الكلام».

ومضى المستر ويلر في تأييد قوله بالحجة فقال: «لو كان سيدك سائقًا، فهل تظن أن المحلفين كانوا يدينونه إذا فرضنا أن المسألة وصلت فعلًا إلى هذا الحد البعيد؟ أنا واثق أنهم ما كانوا يحكمون هذا الحكم».

وقال سام بلهجة أقرب إلى الانتقاص من هذه الحجة: «وما الذي كان سيمنعهم؟».

وأجاب المستر ويلر: «تسألني لماذا! لأن ذلك كان يتعارض مع ضمائرهم، فإن السائق المحترف المنظم هو نوع من الحلقة الواصلة بين «العزوبة» والزوجية، وهذا هو ما يعرف كل رجل عملي».

وقال سام: «ما هذا الذي تقوله! هل تقصد أنهم محظوون عند الناس جميعًا فلا أحد يمكن أن يستغلهم».

وأومأ والده مؤمِّنًا على قوله، ومضى يقول: «ولست أدري كيف يحدث هذا، ولكني أعتقد أن للسائقين الذين يسافرون بالمركبات العامة في رحلات طويلة فتنة، وجاذبية، تجعلهم دائمًا منظورًا إليهم، بل يصح لي أن أقول: إنهم معبودو كل امرأة شابة، في كل بلدة يمرون بها، ولا أعرف السبب، وكل ما أعرفه هو أن هذا هو الذي يحدث فعلًا، هو تدبير وضعته الطبيعة أو صرف لها كما كانت المرحومة امرأة أبيك المسكينة تقول عادة».

وقال سام وهو يصحح كلام أبيه: «تقصد أن تقول «تصرفات» الطبيعة».

وأجاب المستر ويلر: «جميل جدًّا يا صموفيل، تصرفات الطبيعة، إذا كنت ترى أن هذه الكلمة أحسن وأفضل، ولكني اعتدت أن أسميه «صرفها»، كما رأيته مكتوبًا على المحال التي يعطونك فيها أدوية بالمجان، إذا أنت أحضرت الزجاجة الفارغة من عندك، هذا هو كل ما في المسألة».

وانثنى المستر ويلر بعد هذه الكلمات يملأ قصبته مرة أخرى ويشعلها، ويتخذ سمات التفكير فيمضي قائلًا: «ولهذا يا بني لا أرى من المستحسن أن أبقى هنا لأتزوج سواء رضيت أو لم أرض، وبما أني لا أحب أن أبتعد كلية عن أفراد هذا الجنس اللطيف في المجتمع، فقد عزمت على أن أسوق المركبة القديمة التي ندعوها «الأمان» وأعود إلى السكنى في فندق «بل سوفاج»؛ لأنه مسقط رأسي يا سامي».

وقال سام: «والعمل هنا. ما العمل فيه».

وأجاب الشيخ: «العمل هنا يا صموفيل، واسم المحل، والشهرة، والبضاعة، والأثاثات كلها سأبيعها «بالممارسة»، ومن هذا المال، سوف أضع مائتين من الجنيهات باسمك تنفيذًا لوصية المرحومة امرأة أبيك قبل وفاتها بقليل، في ذلك الشيء الذي يسمونه ماذا يا سام؟».

وقال سام: «أي شيء تعني؟».

وأجاب الوالد: «ذلك الشيء الذي يرتفع ويهبط في حي العمل والتجارة».

وقال سام: «هل تقصد العربات الحافلة؟».

وأجاب المستر ويلر: «هراء! ليس هذا، إنما أقصد تلك الأشياء التي تتقلب أسعارها من وقت إلى آخر، وتتصل نوعًا ما بالدين العام وأذونات الخزانة، وما أشبه بها».

وقال سام: «آه! تقصد الأوراق المالية».

وأجاب المستر ويلر: «آه، الأوراق المالية! سأضع مائتي جنيه باسمك لاستثمارها يا صموفيل بسعر «الفائدة» أربعة ونصف في المائة».

وقال سام: «كان كريمًا من المرأة العجوز أن تفكر في أمري على هذه الصورة، إنني مدين لها كثيرًا لهذا الجميل».

ومضى المستر ويلر يقول: «وأما الباقي فسأودعه باسمي أنا، وحين أرحل من الطريق سيؤول إليك، فاحرص على ألا تنفقه كله مرة واحدة يا بني، واحذر أن تدع أرملة تظفر منه بشيء وإلا ضعت».

وعاد المستر ويلر بعد هذا التحذير إلى قصبته وقد هدأ وجهه وسكن خاطره كثيرًا، عقب مكاشفة ابنه بهذه المسائل.

وقال سام: «أسمع دقًّا بالباب».

وأجاب أبوه بكل سكينة وكبرياء: «ليدقوا ما شاءوا».

وامتثل سام لأمر والده، فلم يذهب ليرى من الطارق، ولكن الدق تكرر مرارًا، وكانت الدقة الأخيرة طويلة المدى، فسأل سام أباه لماذا يريد منع الطارق من الدخول.

وهمس المستر ويلر وهو بادي الخوف: «صه! لا تهتم يا سامي، إنها إحدى أولئك الأرامل، ربما».

وإذ كان أحد لم يحفل بذلك الدق المتوالي، فإن الزائر المجهول عقب فترة قصيرة تجرأ ففتح الباب وأطل منه، ولم يكن الرأس الذي ظهر من الفتحة اليسيرة رأس أنثى، ولكنه كان رأس المستر استيجنز بفروعه السود الطوال ووجهه الأحمر، فما كاد المستر ويلر يلمحه حتى سقطت القصبة من يديه.

وانثنى السيد المحترم ففتح الباب شيئًا فشيئًا بشكل غير محسوس إطلاقًا، حتى جعل الفتحة من السعة بحيث تسمح لبدنه النحيل بالدخول، وتسلل إلى الغرفة وأغلق بابها في أثره بكل عناية ورفق، وتقدم نحو سام، فرفع يديه وعينيه، وتعبيرًا صامتًا عن حزنه الذي لا يوصف من جراء هذا المصاب الجلل الذي منيت به الأسرة، وحمل المقعد العالي المظهر إلى الركن الذي اعتاد الجلوس فيه بجوار الموقدة، فاقتعد حافته، وأخرج منديلًا أسود فوضعه على عينيه.

وكان المستر ويلر خلال ذلك كله قد أسند ظهره إلى مقعده فاتحًا عينيه على سعتهما، وواضعًا يديه فوق ركبتيه، وقد بدت على وجهه سمات الدهشة الغامرة المذهلة، بينما جلس سام قبالته في صمت تام، مترقبًا في لهفة بالغة، ختام هذا المشهد.

وظل المستر استيجنز واضعًا منديله الأسود على عينيه بضع دقائق، وهو يبكي ويئن طويلًا، ثم ما عتم أن تغلب على شعوره بجهد جهيد، فأعاد المنديل إلى جيبه وزرره، ثم حرك النار، ثم فرك يديه، ونظر إلى سام.

قال وهو يبدد ذلك السكون الطويل بصوت خافت: «آه، يا صديقي الشاب، إنه لمصاب أليم».

وأومأ سام إيماءة خفيفة.

وأردف المستر استيجنز: «وإذا حل بالرجل الغضوب أيضًا، فإن القلب ليدمي!».

وسمع سام أباه يغمغم ببعض القول، بسبيل جعل «الأنف» يدمي، ولكن المستر استيجنز لم يسمع شيئًا.

وقرب المستر استيجنز مقعده من سام وهمس قائلًا: «أتعرف أيها الفتى هل تركت لعمانويل شيئًا؟».

وقال سام: «ومن هو عمانويل هذا؟».

وأجاب المستر استيجنز: «الكنيسة، كنيستنا، جمعيتنا يا مستر صمويل».

وقال سام بلهجة قاطعة: «لم تترك للجمعية شيئًا، ولا للراعي شيئًا، ولا «للبهائم» شيئًا، ولا للكلاب أيضًا».

وعاد المستر استيجنز يقرب مقعده مرة أخرى فقال: «ولا شيء لي أنا يا مستر صمويل؟».

وهز سام رأسه.

وقال المستر استيجنز وقد ارتد وجهه شاحبًا: «أعتقد أن هناك شيئًا لي، فكر يا مستر صمويل، ألا من تذكار صغير؟».

وأجاب سام: «ولا ما يعادل ثمن مظلتك القديمة هذه».

وقال المستر استيجنز مترددًا بعد تفكير عميق: «ألا يجوز أن تكون قد أوصت الرجل الغضوب بي خيرًا يا مستر صمويل».

وأجاب سام: «أعتقد مما قاله أن هذا جائز جدًّا لقد كان يتكلم عنك منذ هنيهة».

وقال المستر استيجنز وقد عاد وجهه يتهلل: «أحقًّا؟ آه. أراه قد تغير، وأحسبنا سنعيش الآن معًا في وئام، أليس كذلك يا مستر صمويل؟ وفي إمكاني أن أعني بممتلكاته في غيابك عناية تامة، أليس كذلك؟».

وسكت المستر استيجنز يرتقب الجواب، بعد أن أرسل زفرة مستطيلة، وأومأ سام برأسه، وأطلق المستر ويلر الكبير صوتًا غير مألوف، لا هو بأنين، ولا شهيق، ولا زفير، ولا تنهد، ولا زمجرة، بل صوتًا يجمع بين تلك الأربعة كلها في نبرات واحدة.

وفهم المستر استيجنز أن هذا الصوت ينم عن ندامة فتشجع، وتلفت حوله، وفرك يديه، وبكى، وابتسم، وعاد يبكي، ثم مشى برفق فاجتاز الغرفة إلى رف في ركن كان يذكره حق الذكرى، فتناول من فوقه قدحًا كبيرًا ووضع فيه بكل تؤدة أربع قطع من السكر، وعندئذ وقف يتلفت حوله، وتنهد بحزن شديد، وتقدم بخطى رفيقة إلى محل الشراب، ولم يلبث أن عاد بالقدح ممتلئًا إلى نصفه «رومًا» من نقيع الأناناس، وتقدم نحو الوعاء الذي كان يئز في مرح فوق النار فمزج الشراب، وحركه،

وارتشفه، وجلس، ثم أخذ جذبة طويلة من الروم المشعشع، وأمسك ليسترد أنفاسه.

وكان المستر ويلر الكبير لا يزال يبدي محاولات غريبة شاذة ليتراءى نائمًا، فلم ينبس بأية كلمة طيلة هذه الفترة، ولكنه ما كاد يرى استيجنز يقف عن الشراب ليسترد أنفاسه، حتى انقض عليه فاختطف القدح من يده، وألقى ببقية الروم والماء فوق وجهه، ورمى القدح ذاته في الموقدة، وتناول السيد المحترم من طوق ردائه بقوة، ومضى يركله فجأة بقدميه ركلًا شديدًا، شافعًا كل ضربة من حذائه الطويل بلكمات ولطمات عنيفة فوق أوصاله وعينيه وسائر أجزاء بدنه.

وصاح قائلًا: «يا سامي، اكبس قبعتي فوق رأسي جيدًا».

وامتثل سام البار أمر أبيه فكبس رأس الوالد في القبعة بشريطها المستطيل، فعاد هذا الركل والضرب بخفة متزايدة، وسقط هو والمستر استيجنز من خلال مكان الشراب، ثم من الممر، حتى الباب الخارجي، ثم إلى الشارع، والركل مستمر متزايد عنيفًا، كلما ارتفع الحذاء المستطيل ثم هوى.

وكان المنظر جميلًا مثيرًا لأشد الضحك، فقد ظل الرجل الأحمر الأنف يتلوى في قبضة المستر ويلر ويرعش جسمه كله من شدة الألم كلما توالت الركلات سراعًا، بل كان المشهد أشد إثارة، حين راح المستر ويلر بعد نضال شديد، يدخل رأس المستر استيجنز في مسقى ممتلئ ماء لشرب الخيل، ويمسك به كذلك حتى كاد الرجل يختنق.

وصاح المستر ويلر: «هاك!» وقد ألقى بكل ما فيه من قوة في ركلة أصابت موضعًا حرجًا أشد الحرج، عندما تركه أخيرًا يسترد رأسه من جوف الحوض، ومضى الشيخ يقول: «هيا، أوفد أي أحد من أولئك الرعاة الكسالى؛ لكي أدقه أولًا، فأعمل منه هلامًا ثم أغرقه بعد ذلك، يا سامي! كفك لتساعدني على الدخول، واملأ لي كأسًا صغيرة من البراندي، فإني ألهث يا بني».

* * *

الفصل الثالث والخمسون

يصف خاتمة المستر جنجل وجب تروتر، إلى جانب عمل كبير في ذات صباح في ميدان «جريز إن»، وينتهي بدق متكرر بباب المستر بركر

ولما أقدم المستر بكوك أخيرًا على أنباء أرابلا بتلك النتيجة غير المرضية التي أسفرت عنها زيارته لبرمنجهام، بعد أن مهد لهذا النبأ بعض التمهيدات اللطيفة، وأكد لها مرارًا أنه ليس ثمة أقل سبب يدعو إلى الاكتئاب، لم تلبث أن ذرفت الدمع وأجهشت بالعبرات، وأبدت أسفها البالغ أن تكون هي السبب لهذه القطيعة بين أب وابنه.

وقال المستر بكوك بحنان: «إن الذنب ليس ذنبك يا ابنتي العزيزة، لقد كان من المستحيل التنبؤ بأن ذلك الشيخ سيعارض معارضة شديدة في زواج ابنه، كما لا يخفى». ونظر إلى وجهها المليح وأردف يقول: «إنني متأكد أنه خالي الذهن من السرور الذي أبى إلا أن يحرم نفسه منه».

وقالت أرابلا: «أوه، يا عزيزي المستر بكوك، ماذا نحن صانعون إذا هو أصر على غضبه علينا؟».

وأجاب المستر بكوك وهو منشرح: «صبرًا يا عزيزتي حتى يفكر ويتدبر، ويعدل عن رأيه الأول».

وعادت أرابلا تقول: «ولكن يا عزيزي المستر بكوك ماذا تكون حال نثانيل إذا امتنع أبوه عن معونته؟».

وأجاب المستر بكوك: «في هذه الحال يا حبيبتي سأجرؤ على التنبؤ بأنه سوف يجد عندئذ صديقًا آخر لن يتردد في معاونته على تنظيم أحواله والبدء في العمل لمستقبله».

ولم يحسن المستر بكوك كثيرًا في إخفاء دلالة هذا القول، ففطنت أرابلا إلى المراد منه، فطوقت عنقه بذراعيها، وقبلته قبلات بر وشكر، ومضت تنتحب أشد من قبل.

وقال المستر بكوك وهو يتناول يديها: «لا عليك، لا عليك، كفكفي الدمع، سنطيل المقام هنا بضعة أيام أُخر؛ لنرى هل يكتب أو يعني بالرد على كتاب زوجك، فإن لم يفعل فإن في خاطري عدة خطط تكفي أية واحدة منها لإسعادكما في الحال، فلا عليك يا بنية، لا عليك!».

وبهذه الكلمات ضغط المستر بكوك يدها برفق وطلب إليها أن ترقأ دموعها، ولا تزعج خاطر زوجها، فلم تلبث أرابلا، العاقلة الأريبة، التي تعد في مصاف خير النساء في هذا العالم وفضلياتهن، أن وضعت منديلها في حقيبتها الصغيرة. ولم يكد المستر ونكل يوافيهما حتى انثنت تبدي بريق تلك البسمات المشرقة وتينك العينين الباهرتين اللتين فتنتاه من قبل وأسرتا فؤاده.

وفي صباح اليوم التالي مضى المستر بكوك يناجي خاطره بقوله: «إن هذه لحال مزعجة لهذين الزوجين الشابين، فلأذهب إلى مكتب بركر ولأستشره في الأمر».

وكان ثمة حافز آخر يقتضي المستر بكوك الذهاب إلى ذلك المكتب في ميدان «جرايز إن»، وهو رغبته الشديدة في إجراء تسوية مالي مع ذلك المحامي الطيب الحدب، بلا تأخير طويل، فتناول فطورًا سريعًا، وبادر إلى تنفيذ عزمته، فلم تكن الساعة قد دقت بعد العاشرة، حين وصل إلى «جرايز إن».

وكانت قد بقيت عشر دقائق أخرى على تمام العاشرة، في اللحظة التي كان فيها يصعد السلم إلى مكتب وكيله، فلم يكن الكتبة قد وصلوا بعد فوقف لقضاء الوقت بالتطلع من نافذة السلم.

وكان الضياء المشرق في ذلك الصباح الصافي، في أحد أيام شهر أكتوبر، قد جعل الدور القديمة القاتمة نفسها تسطع قليلًا، وبعض النوافذ المغبرة تلوح فرحة بهيجة المشهد في أشعة الشمس الساطعة عليها، فرأى كاتبًا بعد كاتب قد أقبل مسرعًا إلى الساحة، من بعض المداخل المتفرقة إليها، وهو ينظر إلى ساعة الجدار المعلقة في البهو العام، فيزيد في سرعته، أو ينقص منها، تبعًا لموعد ابتداء العمل في المكتب الذي يعمل فيه، ولم يلبث الذين كان موعد وصولهم النصف بعد التاسعة أن نشطوا فجأة في مسيرهم، بينما خفف القادمون عادة في العاشرة من خطاهم، فمشوا بطاء كأنهم أهل الوجاهة والمحتد. ودقت الساعة العاشرة، فازداد تدفق الكتبة على المبنى وهم سراع مبادرون،

وكل منهم أشد تصببًا بالعرق من سابقه، وكانت أصوات المفاتيح في الأقفال وفتح الأبواب المغلقة تتردد في كل ناحية، وبدت الرؤوس من النوافذ كأنها جاءت إليها بسحر ساحر، واتخذ حراس الأبواب أماكنهم لنوبة النهار، وجاءت الغسالات في أخفافهن مسرعات، وراح ساعي البريد يعدو من بيت إلى بيت، واشتدت الحركة والعجيج في تلك «الخلية» الكبيرة المليئة بمكاتب المحامين.

وقال صوت من الخلف: «لقد أتيت مبكرًا يا مستر بكوك».

وأجاب هذا السيد وهو يلتفت وراءه، ويتبين صديقه القديم: «آه، يا مستر لوتن».

وقال لوتن وهو يخرج مفتاحًا من نوع «البراما» من جيبه، له غطاء مستدير صغير لمنع الغبار: «المشي السريع مدفئ للجسم، أليس كذلك؟».

وأجاب المستر بكوك، وهو يبتسم للكاتب الذي بدا أحمر الوجه من حرارة المشي السريع: «الظاهر أنك تشعر بأنه كذلك».

وأجاب لوتن: «الحقيقة أنني قطعت المسافة مسرعًا، فقد كانت الساعة التاسعة والنصف وأنا أخترق «البوليجن»، ولكنني قد وصلت قبل قدومه، فلا يهم إذن شيء بعد ذلك».

وبهذا الخاطر الذي أزال المستر لوتن به انزعاجه، وأرسل الطمأنينة إلى نفسه، انتزع المفتاح من القفل، وفتح الباب، ودس المفتاح في جيبه والتقط الخطابات التي ألقاها ساعي البريد من خلال فتحة الصندوق،

وأشار إلى المستر بكوك بالدخول، وفي لمح البصر خلع رداءه ولبس رداءً خشنًا أطلعه من الدرج، وعلق قبعته وأخرج بضع صفحات من الورق المقوى «الكرتون» وورق النشاف، واحتجز القلم خلف أذنه ومضى يفرك يديه في ارتباك شديد.

وأنشأ يقول: «هكذا ترى يا مستر بكوك أنني الآن مستعد تمامًا، فقد لبست سترة المكتب، وأخرجت المسند والنشاف، فليأت وقت ما يعجبه. أليست معك ولا كمية صغيرة من السعوط؟».

وأجاب المستر بكوك: «كلا، ليس معي».

وقال لوتن: «متأسف، ولكن لا بأس، سأذهب في الحال وأحضر زجاجة من الصودا، قل لي يا مستر بكوك، هل أبدو غريبًا حول العينين؟».

ووقف المستر بكوك يتطلع إلى عيني لوتن من مسافة قريبة، ثم قال إنه لا يرى شيئًا غريبًا حول العينين.

وقال لوتن: «الحمد لله! لقد أطلنا السهر في حانة «الاستامب» الليلة البارحة، وأنا في هذا الصباح منحرف المزاج قليلًا، وبهذه المناسبة أقول إن بركر بحث في مسألتك خلال اليومين الماضيين».

وسأل المستر بكوك: «أي مسألة؟ هل تعني مسألة الأتعاب المطلوبة من مسز باردل؟».

وأجاب المستر لوتن: «كلا، ليس هذا ما أقصد، بل أعني مسألة ذلك العميل الذي دفعنا باسمه عشرة شلنات من كل جنيه كان به مدينًا

بعد الخصم، وأضفنا المبلغ المدفوع في حسابك، وأخرجناه من سجن «فليت» كما تعلم، وبدأنا نبحث في تدبير اللازم لإرساله إلى دمرارا»[1].

وقال المستر بكوك في عجلة: «آه، المستر جنجل، وماذا تم في أمره؟».

وعاد لوتن يقول وهو يصلح من قلمه: «لقد تم تدبير الأمر، ويقول وكيل الشركة في ليفربول إن لك عليه عدة مآثر حين كنت في العمل، وأنه يسره أن يقبله إذا أوصيت به».

وقال مستر بكوك: «هذا حسن، ويسرني سماعه».

وقال لوتن وهو يمسح ظهر القلم استعدادًا لثقبه من جديد: «ولكني أقول إن الشخص الآخر رخو».

- «أي شخص آخر؟».

- «ذلك الخادم، أو الصديق، أو كائنًا من يكون، وأنت عارفه، أقصد تروتر».

وقال المستر بكوك وهو يبتسم: «آه، لقد كنت دائمًا أعتقد أنه عكس ما وصفته به».

وأجاب لوتن: «لقد كان هذا هو رأيي بالذات من القليل الذي رأيته منه، وهذا يدل على أن المرء كثيرًا ما ينخدع، ولكن ما رأيك في ذهابه «هو» أيضًا إلى دمرارا؟».

---

(١) مكان في أستراليا في مستعمرات إصلاح المجرمين والمشبوهين.

وصاح المستر بكوك من فرط الدهشة: «ماذا! ويرفض ما عرض عليه هنا!».

وأجاب لوتن: «لقد قابل ما عرضه عليه بركر وهو ثمانية عشر شلنًا في الأسبوع، وترقيته إذا هو أحسن السلوك، قابل هذا العرض بالرفض، وقال إنه لا بد له من الذهاب مع الآخر، وما زالا ببركر حتى كتب مرة أخرى، فأعطوه شيئًا في المكان عينه، وإن قال بركر إن الذي عرض عليه ليس حسنًا إلى الحد الذي يعطى للسجين المرسل إلى مستعمرة «نيو ساوث ويلز» إذا هو بدا عند الكشف عليه في حلة جديدة».

وقال المستر بكوك وعيناه تبرقان: «يا له من أحمق، يا له من أحمق».

وأجاب لوتن وهو يجدد سنان القلم، وقد بد أمارات الاحتقار والازدراء على وجهه: «بل إنه لشر من ذلك وأسوأ، إنها خسة متناهية كما ترى، وهو في تبرير موقفه يقول إنه الصديق الوحيد الذي أتيح له في هذا العالم، وأنه متعلق به، وما إلى هذه الشفائع وأمثالها، والصداقة شيء جميل جدًّا في ذاته، ونحن جميعًا على مودة وصداقة وعلاقة طيبة في حانة «الاستامب» مثلًا، وإذا اجتمعنا على الشراب، ودفع كل منا حسابه، ولكن الإضرار بالنفس لأجل خاطر الغير، شيء سخيف، وعمل لا مبرر له، وليس لأي امرئ في هذه الحياة غير شيئين يستحقان التعلق بهما، أولًا أو رقم ١ هو نفسه، ورقم ٢ النساء، هذا هو رأيي، ها! ها!» وختم المستر لوتن قوله هذا بضحكة صاخبة، كانت مزيجًا من ممازحة وسخرية، ولكنها لم تطل، إذ ارتفع صوت مواقع قدمي المستر بركر فوق السلم، فبادر الكاتب إلى كرسيه العالي بخفة عجيبة كل العجب،

وأكب على الورق وراح يكتب منهمكًا في كتابته».

وكان السلام المتبادل بين المستر بكوك ومستشاره القضائي حارًّا وديًّا، ولكن ما كاد العميل يستقر في المقعد الرحيب في غرفة محاميه، حتى سمعا دقًّا بالباب وصوتًا يسأل: «هل بركر هنا؟».

وقال بركر: «صه! هذا أحد صاحبيك المتشردين، جنجل نفسه يا سيدي العزيز، هل تحب أن نقابله؟».

وسأل المستر بكوك بتردد: «ما رأيك أنت؟».

وأجاب بركر: «أرى أنه يحسن بك أن تراه، أنت يا هذا، ما اسمك؟ تعال، ادخل».

وامتثالًا لهذه الدعوة الجافة الخلية من كل احتفال أو سلام، تقدم جنجل، وفي أثره جب، ولكن لم يكد الأول يلمح المستر بكوك حتى وقف في شيء من الارتباك».

وقال بركر: «حسن، ألا تعرف هذا السيد؟».

وأجاب جنجل وهو يتقدم خطوات: «لدي أسباب قوية تعرفني به، المستر بكوك، مدين له بأكبر الصنائع والأفضال، منقذ الحياة، جعل مني رجلًا، لن تندم يومًا يا سيدي على ما صنعت».

وقال المستر بكوك: «يسعدني أن أسمعك تقول ذلك، إنك لتلوح أحسن كثيرًا مما كنت».

وأجاب جنجل وهو يهز رأسه: «والفضل لك يا سيدي- تغيير شديد- سجن فليت الملكي- مكان غير صحي- سفر- إلى أقصى

حد»، وكان جنجل في زي حسن، وهندام نظيف وكذلك بدا جب الذي وقف خلفه يحملق ببصره في وجه المستر بكوك، بسحنة كالحديد.

وسأل المستر بكوك بصوت خافت محاميه: «ومتى سيسافران إلى ليفربول؟».

وقال جب، وهو يتقدم خطوة: «في السابعة من مساء اليوم يا سيدي، في المركبة الحافلة التي تغادر المدينة يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «وهل حجز لكما مكان؟».

وأجاب جب: «نعم يا سيدي».

قال: «وهل عزمت عزمًا أكيدًا على الذهاب؟».

وأجاب جب: «نعم يا سيدي».

وانثنى المستر بركر يقول متجهًا إلى المستر بكوك بصوت مرتفع: «أما مسألة الأمتعة التي لا غنى لجنجل عن أخذها معه، فقد أخذت على عاتقي شخصيًّا اتخاذ التدابير لاقتطاع مبلغ صغير من مرتبه كل ثلاثة شهور، لمدة سنة واحدة، وهو كاف لأداء نفقات تجهيزه بما هو بحاجة إليه، إنني لا أوافق مطلقًا على أن تتولى أنت عمل أي شيء له، يا سيدي العزيز، بل تتركه لمجهوده وحسن سلوكه».

وقال جنجل بلهجة قاطعة: «بلا شك، تفكير سليم- رجل عمل- هذا حق- تمامًا».

ومضى بركر يقول دون اكتراث بملاحظات جنجل: «وقد اتصلت بدائنه، للإفراج عن ملابسه المرهونة حين كان في السجن، ودفعت عنه

أجر السفر، فكان مجموع المال الذي خسرته في سبيله أكثر من خمسين جنيهًا».

وقال جنجل في عجلة: «لم يخسره- سأدفعه كله، مسألة عمل، وحساب، سأسدده إلى آخر درهم- الحمى الصفراء جائز- ليس لي فيها حيلة- أما إذا لم...» وهنا تمهل المستر جنجل، فضرب قمة قبعته بعنف شديد، ومر بكفه على عينيه، ثم جلس.

وتقدم جب بضع خطى فقال: «إنه يقصد أن يقول إنه إذا لم تمته الحمى فسوف يرد المال كله، وثق أنه فاعل يا مستر بكوك إذا ظل حيًّا، وسأتولى الرقابة على السداد، فإني على يقين أنه مسدده، وفي وسعي أن أقسم اليمين على ذلك».

وقال المستر بكوك، وكان قد رمق بركر بعشرات من النظرات العابسة والتجهمات، ليمنعه من الاسترسال في تعداد الصنائع والجمائل، والمحامي لا يعبأ بعبوسه ويأبى إلا المضي في التعداد: «حسن، حسن، ولكن لتحرص بعد اليوم فلا تلعب في مباريات «كريكت» خطرة يا مستر جنجل، ولا تجدد معرفتك بالسير توماس بليزو، ولا أكاد أشك في أنك ستحافظ على صحتك».

وابتسم المستر جنجل لهذه «المغامز» وإن بدا رغم ابتسامه مرتبكًا لا يدري كيف يكون الجواب، فلم يسع المستر بكوك إلا أن يغير الموضوع، فانثنى يقول: «ألا تعرف ماذا صنع الله بصديق آخر لك، صديق أكثر ذلة وضعة، كنت قد رأيته في روشستر؟».

وسأل جنجل: «هل تقصد جيمي الكئيب؟».

- «نعم».

وهز جنجل رأسه فقال: مجرم بارع.. شخص غريب الأطوار، عبقري ألعبان.. إنه شقيق جب».

وصاح المستر بكوك: «عجبًا، شقيق جب! إنني حين أنظر الآن إليه من قرب، أفطن إلى الشبه بينهما».

وقال جب بنظرة مكر مختبئة في ركني عينيه: «لقد كان الناس دائمًا يعدوننا شبيهين قريبي الشبه يا سيدي، وإن كنت أنا في الحقيقة أكثر جدًّا بطبيعتي، أما هو فلم يعرف الجد في حياته، وقد هاجر إلى أمريكا يا سيدي لكثرة مطاردة الناس له في حياته، وبحثهم المستطيل عنه، مما لا يريح المرء ولا يهنأ له عيش من جرائه، ومن ذلك الحين لم يسمع أحد عنه شيئًا».

وقال المستر بكوك مبتسمًا: «ومن أجل هذا لم أتلق منه «قصة من صميم الحياة» وعد أن يرسلها إليَّ في ذات صباح، حين بدا كأنما يفكر في الانتحار بإلقاء نفسه من فوق جسر روشستر، ولا أحسبني بحاجة إلى السؤال: هل كان في ذلك حزينًا حقًّا أو متصنعًا؟».

وأجاب جب: «إنه يستطيع أن يتصنع أي شيء يا سيدي، فلتعد نفسك سعيدًا جدًّا إذ نجوت منه بسهولة، فهو حتى في المودة، وتوثق الصلات، ليروح أشد خطرًا من...» وهنا نظر جب إلى جنجل، وتردد، ثم أردف أخيرًا يقول: «من.. مني أنا نفسي!».

وقال بركر وهو يختم كتابًا كان قد فرغ من كتابته: «أسرة فيها خير... أسرتك يا مستر تروتر».

وأجاب جب: «نعم يا سيدي، كثيرًا جدًّا».

وقال المحامي ضاحكًا: «أرجو أن تخيب رجاءها، خذ هذا الكتاب وسلمه إلى الوكيل عند وصولك إلى ليفربول، وإني لأنصح لكما أيها السيدان ألا تستخدما ذكاءكما المفرط، وعلمكما الواسع، في جزائر الهند الغربية، فإن تركتما هذه الفرصة تفلت منكما، فأنتما أحق بالشنق، وإني لعلى يقين أنكما ستشنقان، والآن يحسن بكما أن تتركانا أنا والمستر بكوك وحدنا؛ لأن لدينا موضوعات أخرى سنتحدث فيها، والوقت ثمين» ونظر بركر صوب الباب، برغبة ظاهرة في جعل فترة الوداع قصيرة بقدر الإمكان.

وكان الوداع في الواقع قصيرًا مختصرًا من جانب جنجل، فقد شكر المحامي في بضع كلمات سريعة على الحدب والاستعداد العاجل اللذين أبداهما في مساعدتهما، ثم التفت إلى المحسن إليه فوقف بضع ثوان مترددًا لا يدري ماذا عسى أن يقول، أو يفعل. وبادر جب تروتر إليه ليغني عنه هذا الارتباك، فانحنى للمستر بكوك انحناءة شاكرة، وتناول صاحبه برفق من ذراعه، ومشى به منصرفًا.

وما إن أغلق الباب عقب خروجهما، حتى أنشأ المستر بركر يقول: «صاحبان فاضلان!».

وأجاب المستر بكوك: «أرجو الله أن يصبحا كذلك. ما رأيك

فيهما؟ هل تحسبهما سينصلحان أبدًا ويستقيمان؟».

وهز بركر كتفيه هزة المتشكك، ولكنه حين فطن إلى نظرة المستر بكوك النامة عن القلق وخيبة الأمل، مضى يقول: «إن أمامهما فرصة بلا شك، واستقامتهما جائزة، وأرجو أن تكون هذه الفرصة طيبة، وليس من شك في أنهما الآن نادمان تائبان، ولكنك تعلم أيضًا أنهما لا يزالان يذكران المتاعب والمحن التي ألمت بهما من وقت قريب، فهي قائمة إلى الساعة في خاطرهما، ماثلة في ذاكرتهما، وليس في إمكاني ولا إمكانك أن نقطع برأي فيما سيكون من أمرهما إذا أصبحت هذه الذكريات قديمة، وذهبت من خاطرهما نسيًا منسيًّا، إن هذه مشكلة لا نستطيع لها حلًّا».

وهنا وضع المستر بركر يده على كتف المستر بكوك وأردف قائلًا: «ومع ذلك يا سيدي العزيز إن هدفك لمشرف، ومرادك كريم جدير بالإكبار، مهما تكن العاقبة، وإني لتارك لمن هم أحجى مني وأكبر عقولًا أن يقدروا هل ذلك النوع من البر الذي يحاط بأشد الحذر، ويقترن بأبلغ بعد النظر، حتى لا يكاد يتم، لئلا يقع صاحبه في ضلال، هو إحسان حقًّا، أو زهو باطل في هذا العالم، وتظاهر بالبر، وهو ليس منه في شيء، ولكن إذا عمد هذان المخلوقان إلى ارتكاب جريمة سطو غدًا، فإن رأيي في عملك سيظل كما هو، رفيعًا عظيمًا».

وعقب هذه العبارات التي ألقاها المستر بركر بحرارة وجد أشد مما عرف عادة بين رجال القانون، راح يدني مقعده من مكتبه، ويستمع إلى قصة عناد المستر ونكل الكبير كما مضى المستر بكوك يرويها له.

وهز المستر بركر رأسه هزة النبوءة، وقال: «أمهلوه أسبوعًا».

وقال المستر بكوك: «هل تعتقد أنه سيرجع عنه؟».

وأجاب بركر: «أظن ذلك، فإذا لم يرجع، فلنجرب ماذا سيكون من العروس نفسها وتأثيرها في نفسه، لقد كان هذا هو أول عمل يلجأ إليه أي إنسان سواك».

وكان المستر بركر يتناول قدرًا من السعوط مصحوبًا باختلاجات وتقلصات غريبة في عضلات وجهه، للتعبير بها عن قوة تأثير الغيد وسلطانهن، حين سمعت أصوات في المكتب الآخر بين أسئلة وأجوبة، وخطوات لوتن وهو يمشي إلى الباب فيطرقه طرقًا خفيفًا.

وصاح المحامي الصغير الجسم: «ادخل».

ودخل الكاتب، وأغلق الباب وراءه بحركة غريبة كل الغرابة.

وقال بركر: «ما الخبر؟».

وأجاب لوتن: «أنت مطلوب يا سيدي».

وقال بركر: «ومن الذي يطلبني؟».

ونظر لوتن إلى المستر بكوك وسعل.

وعاد المستر بركر يسأل: «من الذي يطلبني، ألا تستطيع الكلام يا مستر لوتن؟».

وأجاب هذا قائلًا: «إنه يا سيدي ددسن ومعه فج».

وقال المحامي وهو ينظر في ساعته: «يا للعجب العجاب، لقد

عينت لهما الساعة الحادية عشرة والنصف للقدوم إلى هنا لتسوية مسألتك يا مستر بكوك، فقد أعطيتهما تعهدًا بالدفع، وقاما من جانبهما بتبرئة ذمتك فأفرج عنك. إن الموقف حرج يا سيدي العزيز كما ترى، فماذا أنت فاعل؟ فهل تحب أن تدخل الحجرة الملاصقة؟».

وكانت الحجرة الملاصقة هي نفس الحجرة التي دخلها ددسن وفج، فكان جواب المستر بكوك أنه سيبقى حيث هو؛ وخاصة لأن من واجب الرجلين أن يستحيا من لقائه وجهًا لوجه، ولا يستحي هو من مواجهتهما. وهنا طلب إلى المستر بركر أن يلاحظ هذه النقطة بالذات، وقد احمر وجهه وبدت عليه بوادر الغضب والانفعال.

وأجاب المستر بركر: «حسن جدًّا، حسن جدًّا يا سيدي العزيز، ولكني أحب أن أقول شيئًا واحدًا، وهو أنك إذا كنت تنتظر من ددسن أو فج أن ينظر إليك، أو إلى أحد سواك، وجهًا لوجه، ويشعر بحياء أو يبدي أعراض خجل أو اضطراب فأنت مخدوع، بل أنت أسلم رجل رأيته في حياتي نية وأشدهم طيبة، أدخلهما يا مستر لوتن».

وانصرف لوتن وهو يبتسم، وعاد على الأثر يعلن الشريكين بحكم الأسبقين، ددسن أولًا، وفج وراءه.

وقال بركر لددسن وهو يشير بقلمه إلى المكان الذي كان المستر بكوك جالسًا فيه: «أعتقد أنك رأيت المستر بكوك».

وقال ددسن بصوت مرتفع: «كيف أنت يا مستر بكوك؟».

وصاح فج: «يا للعجب! كيف حالك يا مستر بكوك؟ أرجو أن

تكون بخير يا سيدي، أعتقد أنني رأيت هذا الوجه» وراح فج يسحب كرسيًّا ويتلفت حوله مبتسمًا.

وأحنى المستر بكوك رأسه قليلًا ردًّا على هذه التحيات، ورأى فج يخرج حزمة من الأوراق من جيب ردائه، فنهض من مقعده ومشى إلى النافذة.

وقال فج وهو يفك الرباط الأحمر الذي يحيط بالرزمة الصغيرة، ويبتسم مرة أخرى ابتسامة أرق من الأولى: «لا حاجة بالمستر بكوك إلى القيام من مكانه يا مستر بركر، فهو عليم حق العلم بهذه الإجراءات، ولا أظن أن هناك أسرارًا بيننا! ها! ها! ها! ها!».

وقال ددسن: «لا أظن أن هناك أسرارًا كثيرة ها! ها! ها!»، وضحك الشريكان معًا، بمرح وسرور، كدأب الذين يتوقعون أن يتسلموا نقودًا في أغلب الأحايين.

وقال فج بذلك المجون المعروف عن معاشر أمثاله، حين نشر أوراقه بين يديه: «سنطالب المستر بكوك بأن يدفع ثمن وقوفه من بعيد لينظر إلينا، إن جملة الأتعاب هي مائة وثلاثون جنيهًا وستة شلنات وأربعة بنسات يا مستر بركر».

وأقبل فج وبركر على مقارنة الأوراق، ومراجعة الصفحات وتقليبها، عقب هذا البيان الذي ألقاه فج عن قيمة الأرباح والخسائر، بينما راح ددسن يقول بلطف للمستر بكوك: «لا أظنك تبدو بتلك البدانة ذاتها التي كنت تبدو بها حين حصل لي السرور بلقائك آخر مرة يا مستر بكوك».

وقال المستر بكوك، وكانت عيناه ترسلان نظرات غضب محتدم، فلا تحدث تلك النظرات أقل أثر في نفس هذين النصابين الماكرين: «ربما لا يا سيدي، أعتقد أنني لا أبدو كما كنت، فقد أرهقني وآلمني «المجرمون» من عهد قريب يا سيدي».

وهنا سعل بركر سعلة شديدة، وسأل المستر بكوك ألا يحب أن يقرأ جريدة الصباح؟ فرد هذا على السؤال برفض قاطع.

وقال ددسن: «هذا صحيح، أعتقد أنك تألمت في سجن «فليت»، فهو يحوي شذاذًا وقومًا منكرين، وأين كنت فيه نازلًا يا مستر بكوك؟».

وأجاب السيد الذي قاسى كثيرًا: «كانت لي حجرة في الدور الذي يقع فيه المقهى».

وقال ددسن: «آه، حقًّا، أعتقد أن هذا جناح لطيف جدًّا».

وأجاب المستر بكوك بجفوة: «جدًّا».

وكان ذلك كله يجري بهدوء يجعل أي امرئ أوتي مزاجًا سريع التأثر في ظروف كهذه، أجنح إلى الغضب، وأنزع ما يكون إلى الهياج. ولكن المستر بكوك كبت غيظه بجهد جهيد، ولكن حين انثنى بركر يكتب صكًّا بالمبلغ المطلوب، وأخذه فج فوضعه في محفظة صغيرة، مبتسمًا ابتسامة فوز وانتصار تغمر تقاطيع وجهه المليء بالبثور، وتنتقل في الوقت ذاته إلى وجه ددسن العبوس، لم يلبث المستر بكوك أن أحس الدم يتصاعد إلى خديه من شدة الغضب.

وقال فج وهو يرد المحفظة إلى موضعها ويضع قفازه في كفيه:

«والآن يا مستر ددسن، أنا تحت أمرك».

وأجاب ددسن وهو ينهض: «جميل جدًّا.. أنا على أتم الاستعداد».

وقال فج وقد هدأ «الصك» من خاطره: «إنني جد سعيد بمعرفة المستر بكوك، وأرجو ألا يكون رأيك فينا سيئًا يا مستر بكوك، كما كان عندما حظينا أول مرة بلقائك».

وقال ددسن بلهجة ذي الفضل الذي أوذي في فضله، وأسيء من قبل إليه: «أرجو ألا يكون كذلك، ويقيني أن المستر بكوك قد عرفنا الآن أحسن مما كان يعرفنا، ومهما يكن رأيك في أهل مهنتنا، فإني أؤكد لك يا سيدي أنني لا أضمر لك سوءًا في نفسي أو تشفيًا، من أثر ذلك الشعور الذي رأيت من المناسب أن تبديه في مكتبنا في فريمتر كورت بحي كورنهل، في ذلك الحادث الذي أشار إليه زميلي منذ لحظة».

وقال فج بلهجة صفح متناه: «كلا! كلا! ولا أنا أيضًا».

وعاد ددسن يقول: «إن تصرفنا غني بنفسه عن كل بيان، وأرجو أن يجد في ذاته ما يبرره في كل موقف، لقد قضينا في هذه المهنة أعوامًا، يا مستر بكوك تشرفنا فيها بثقة عدة عملاء من أحسن طراز، طاب صباحك يا سيدي».

وقال فج في أثره: «صباحًا طيبًا يا مستر بكوك» وراح يتأبط مظلته، وينزع قفاز يده اليمنى، ومد يد التراضي لذلك السيد الثائر المحنق، ولكن هذا انثنى يلقي يديه تحت ذيل ردائه، وينظر إليه نظرات دهشة وسخرية.

وعندئذ صاح بركر: «يا لوتن، افتح الباب».

وقال المستر بكوك: «انتظر لحظة، سأتكلم يا مستر بركر».

وقال هذا وهو في حالة عصبية من الإشفاق طيلة ذلك الحديث من أوله: «أرجوك يا سيدي العزيز أن تدع المسألة تستقر حيث استقرت، أرجوك يا مستر بكوك!».

وأجاب المستر بكوك في عجلة: «لن يمنعني شيء يا سيدي من الكلام... يا مستر ددسن، لقد وجهت لي بعض الملاحظات».

والتفت ددسن حوله، وأحنى رأسه بهدوء وابتسم.

ومضى المستر بكوك يقول وهو يكاد يكون متقطع الأنفاس: «لقد وجهت إليَّ بعض الملاحظات، وبسط شريكك لي يده، واتخذتما لهجة الصفح والرفعة، وهو إمعان آخر منكما في القحة والجرأة لم أكن أتوقعهما من أحد حتى ولا منكما».

وصاح ددسن: «ما هذا يا سيدي؟».

وردد فج قوله: «ما هذا يا سيدي؟».

وواصل المستر بكوك قوله: «ألا تعرفان أنني كنت ضحية كيدكما وفريسة مؤامراتكما، وهل تعرفان أنني أنا الرجل الذي ظللتما تسجنانه وتسرقانه، وهل تعرفان أنكما كنتما الوكيلين عن المدعية في قضية باردل وبكوك؟».

وأجاب ددسن: «نعم يا سيدي، نعرف ذلك».

وتبعه فج وهو يضرب بيده على جبيه، ولعلها جاءت قضاء وقدرًا: «بالطبع نعرف ذلك يا سيدي».

وقال المستر بكوك، وهو يحاول لأول مرة في حياته إبداء حركة اشمئزاز واحتقار بشفتيه وأنفه، فلم يوفق مطلقًا في محاولته: «أراكما تتذكران ذلك برضى وارتياح، وقد كنت منذ وقت طويل في لهفة على أن أقول لكما بصريح العبارة عن رأيي فيكما، وكان أولى بي أن أترك هذه الفرصة تمر، احترامًا لرغبات صديقي بركر، ولكن هذه اللهجة التي عمدتما فجأة إليها، ورفع الكلفة في الحديث معي بشكل متبجح، أقول إن هذه الألفة الوقحة التي أبديتماها يا سيدي»، وهنا التفت إلى فج بحركة موحشة جعلته يتراجع صوب الباب مسرعًا.

وقال ددسن، وكان أضخم القوم كلهم بدنًا، ولكنه وقف خلف فج محتميًا، وانثنى يتكلم من فوق رأسه وهو شاحب اللون مصفره: «خذ حذرك يا سيدي، دعه يهاجمك يا مستر فج، ولا تقابل هجومه بهجوم مثله مهما يكن من الأمر».

وقال فج وهو يتراجع أكثر من قبل، حتى اطمأن شريكه إلى أن تراجعه جعله يقترب من المكتب الخارجي شيئًا فشيئًا: «كلا! كلا! لن أقابل هجومه بمثله».

واستتلى المستر بكوك، مستعيدًا خيط الكلام الذي كان قد بدأه: «إنكما شريكان متعادلان كل التعادل، في اللصوصية والإجرام والتلاعب بالقضايا والعبث بالقانون».

وهنا تدخل بركر قائلًا: «كفى! ألا يكفي هذا؟».

وأجاب المستر بكوك: «إن الأمر كله يتلخص في كلمات، وهي أنهما لصان سافلان مجرمان متلاعبان بالذمم».

وقال بركر بلهجة إرضاء بالغ: «كفى، لقد قال يا سيديّ العزيزان كل ما كان في نفسه أن يقوله. فالآن تفضلا. يا لوتن هل ذلك الباب مفتوح؟».

وأجاب لوتن وهو يضحك من بعيد: «إنه كذلك».

ومضى الرجل القصير النحيل يقول وهو يدفع ددسن وفج على كره منهما، نحو الباب: «طاب صباحكما، طاب صباحكما.. أرجوك يا سيدي العزيز، وأنت يا سيدي العزيز، يا مستر لوتن، الباب، لماذا لا تسمع؟».

وقال ددسن وهو ينظر صوب المستر بكوك ويضع القبعة فوق رأسه: «إذا كان في إنجلترا قانون يا سيدي، فسوف تنال عقابك على هذا الذي قلته».

وصاح المستر بكوك: «إنكما لسافلان..».

وقال فج: «تذكر يا سيدي أنك ستحاسب على هذا حسابًا عسيرًا».

وواصل المستر بكوك قوله، دون أقل مبالاة بهذا الوعيد الموجه إليه: «إنكما لصان مجرمان متلاعبان».

وجرى إلى رأس السلم، وهما يهبطانه، صائحًا: «أيها اللصوص!» وتخلص من لوتن وبركر وأطل برأسه من نافذة السلم وهو يصيح: «لصوص!».

ولما رد رأسه عنها كان وجهه باسمًا هادئًا، وعاد إلى المكتب في رفق وسكون قائلًا: إنه قد شعر عندئذ بأنه قد أزاح عبئًا ثقيلًا كان جاثمًا فوق صدره، ولكنه الساعة مستريح تمامًا ومسرور السرور كله.

ولم يقل بركر شيئًا حتى أفرغ كل ما في حق السعوط وأرسل لوتن ليملأه، وإذا نوبة ضحك تستولي عليه، وتستمر خمس دقائق، وعندئذ راح يقول: إنه كان يظن أنه أولى به أن يغضب، ولكنه لم يستطع أن يفكر في هذه المسألة جديًا إلى الآن، ولكنه سيفعل حين يتمكن.

وقال المستر بكوك: «حسن، والآن دعنا نسوي ما بيننا».

وأجاب بركر بضحكة أخرى: «من النوع الأخير ذاته؟».

وقال المستر بكوك، وهو يخرج محفظة جيبه ويهز وكيله بيده هزة المودة والوفاء: «ليس منه تمامًا، إنما أقصد مجرد «تسوية مالية» إنك قد أسديت إليّ عدة صنائع ليس في إمكاني الوفاء بها في يوم من الأيام، ولست أريد أن أفي بها، لأني أوثر أن أظل لك مدينًا».

وبعد هذه المقدمة أكب الصديقان على حسابات ومستندات مختلفة، تولى فحصها بركر بنفسه، وبادر المستر بكوك إلى أدائها مشفوعة بكثير من آيات الاحترام والود.

وما كادا يصلان إلى هذه النقطة حتى سمعا دقًا عنيفًا بالباب مزعجًا أشد الإزعاج، ولم يكن دقة مزدوجة عادية بل كان دقات مفردة مستمرة غير منقطعة، فتوالى الطرق واحدًا في أثر واحد، كأن المطرقة ذاتها مصابة بحركة دائمة أو كأن الطارق قد نسي أن يدعها قليلًا، ثم يعاودها

على فترات.

وقال بركر منزعجًا: «يا عجبًا! ما عسى أن يكون هذا؟».

وقال المستر بكوك: «هذا دق بالباب» كأن الأمر يحتاج إلى أقل شك.

ولكن جواب المطرقة كان أسرع وأبلغ من كل كلام؛ لأنه استمر بقوة مدهشة وجلبة صاخبة دون أن يكف لحظة واحدة.

وقال المستر بركر وهو يدق جرسه: «يا ألله! إننا سنزعج بيت القضاء كله، يا مستر لوتن ألا تسمع هذا الدق؟».

وأجاب الكاتب: «سأرد عليه في الحال يا سيدي».

وبدا كأن الطارق قد سمع ذلك الجواب، ولكي يعلن أنه من المستحيل أن ينتظر أكثر مما انتظر، أرسل زئيرًا مرعبًا مدويًا.

وقال المستر بكوك، وهو يضع يديه على أذنيه لكيلا يسمع: «هذا شيء مرعب».

وصاح بركر: «أسرع يا لوتن، إني أخشى أن يتحطم الزجاج».

وكان لوتن عندئذ يغسل يديه في غرفة مظلمة فخف إلى الباب، وأدار الأكرة، فأبصر شبحًا سنصفه لك في الفصل التالي.

* * *

الفصل الرابع والخمسون

يصف من هو الطارق، ويحوي شؤونًا أخرى من بينها
أمور شيقة عن المستر سنودجراس وسيدة في مقتبل العمر،
وهي أمور ليست بأي حال غير ذات صلة بهذه القصة..

وكان الشيء الذي تراءى لعيني الكاتب المندهش غلامًا- غلامًا بدينًا إلى حد عجيب- يرتدي حلة الخدم، وقد وقف مستويًا فوق ممسحة الأرجل مغمض العينين كأنه نائم، ولم يكن الكاتب قد شهد في حياته غلامًا بدينًا إلى هذا الحد، في قافلة مسافرة أو في غير قافلة، وزاده عجبًا لبدانته ذلك الهدوء الذي كان يبدو على هيئته، ولا يتناسب عقلًا مع ما كان يرتقب من ذلك الطارق العنيف الذي كان ملحًّا في دقاته.

وقال الكاتب: «ما خطبك؟».

ولكن الغلام الشاذ لم يحر جوابًا، وإنما أومأ مرة وخيل إلى الكاتب أنه كان يرسل «شخيرًا» خافتًا.

وسأله الكاتب: «من أين جئت؟».

ووقف الغلام لا يأتي بحركة ولا إشارة، بل كان يتنفس بمشقة بالغة.

وأعاد الكاتب السؤال ثلاث مرات، ولكنه لم يتلق جوابًا، فهم بإغلاق الباب، وإذا الغلام يفتح عينيه فجأة، ويغمز بهما عدة مرات، ثم يعطس، ويرفع يده كأنه يهم بتكرار الدق، ولكنه إذ وجد الباب مفتوحًا، أرسل بصره حوله مندهشًا، وأخيرًا جعله يستقر على وجه المستر لوتن.

وسأل الكاتب بغضب: «أي شيطان جعلك تدق الباب بهذه الطريقة؟».

وقال الغلام بصوت خافت مهوم: «أي طريقة؟».

وأجاب الكاتب: «كأربعين سائقًا من سائقي عربات الركوب».

وقال الغلام: «لأن سيدي قال لي ألا أسكت عن الدق حتى يفتح لي الباب، خوفًا من أن يغلبني النوم».

وقال الكاتب: «حسن، أية رسالة جئت بها؟».

وأجاب الغلام: «إنه تحت».

وقال لوتن: «من هو؟».

قال: «سيدي، إنه يريد أن يعرف هل أنت هنا؟».

وخطر للمستر لوتن في هذه اللحظة أن يطل من النافذة، فأبصر مركبة مكشوفة تقل رجلًا ضخمًا متقدمًا في العمر، يتطلع في لهفة بالغة، فتجرأ وأشار إليه، فإذا الشيخ يقفز منها في الحال.

وقال لوتن للغلام: «أهذا الذي في المركبة سيدك؟».

فأومأ الغلام إيماءة الإيجاب.

ولم تعد حاجة إلى مواصلة الأسئلة، فقد ظهر عندئذ الشيخ «واردل»، وكان قد أخذ السلم جريًا، وحيا لوتن مسرعًا، ودخل مهرولًا غرفة المستر بركر.

وصاح الشيخ: «منذا أرى؟ المستر بكوك! يدك يا بني! لماذا لم أسمع إلا أمس الأول بقصة تعذيبك لنفسك بدخول السجن؟ ولماذا تركته يفعل ذلك يا بركر؟».

وأجاب هذا بابتسامة وشم السعوط: «لم تكن لي فيه حيلة يا سيدي العزيز، أنت تعرف مبلغ عناده».

وقال الشيخ: «بالطبع أعرف، بالطبع أعرف، ولكني مع ذلك أشعر بسرور صادق لرؤيته، ولن أتركه يغيب عن ناظري بعد الآن، في عجلة».

وبهذه العبارات عاد واردل يهز يد المستر بكوك، وفعل قبل ذلك مع بركر، وتهالك على مقعد رحيب، ووجهه الأحمر المشرق يشع بسمات، وسمات صحة وعافية.

وأنشأ واردل يقول: «لقد وقعت أحداث جسام، هات سعوطك يا بركر، يا بني، إنها لأحداث لم يجر مثلها في أيامنا الخالية، لقد تغيرت الدنيا، إيه؟».

وسأل المستر بكوك: «ماذا تعني؟».

وأجاب واردل: «أعني؟! أعتقد أن الفتيات أصبحت جميعًا مجنونات، وقد تقول إن هذا نبأ ليس جديدًا، وربما كان كذلك، ولكنه

مع ذلك صحيح».

وسأله المستر بركر: «ما أحسبك جئت إلى لندن بالذات، دون مدائن العالم كلها، لتقول لنا هذا يا سيدي العزيز».

وأجاب واردل: «كلا، ما جئت لكي أقول هذا فقط، وإن كان السبب الأول في قدومي، كيف حال أرابلا؟».

وأجاب المستر بكوك: «في خير حال، وإني لواثق أنها ستسر بلقائك».

وقال واردل: «يا لها من فتاة صغيرة معرضة عن حبيبها ذات عينين كحلاوين! لقد كنت أفكر في الزواج بها أنا نفسي في يوم من الأيام، ولكني فرح مغتبط بزواجها».

وقال المستر بكوك: «وكيف وصل إليك النبأ؟».

وأجاب واردل: «جاء إلى ابنتي بالطبع، فقد كتبت أرابلا أمس الأول تقول إنها تزوجت خلسة دون موافقة والد زوجها، فذهبت أنت لتأتي منه بالموافقة، وإن كان رفضه لم يمنع القران، كما قصت عليها بقية الرواية ودقائقها، فرأيت أنه قد حان أن أقول شيئًا جديًا لابنتي، فقلت إن من أفظع الفظائع أن يتزوج الأولاد دون رضى آبائهم، وكلامًا من هذا القبيل، ولكني والله لم أستطع أن أحدث أي تأثير في نفسيهما، فقد قالتا إنه لأفظع منه كثيرًا أن يكون زفاف بلا «شبينات»، وكأني في محاولة إقناعهن كنت أعظ جو نفسه».

وكف الشيخ عن الكلام هنا لكي يضحك، ولما ضحك كفايته

واصل الحديث قائلًا: «ولكن يبدو أن ليس هذا هو أحسن ما في القصة، إنه ليس إلا نفس الغزل والكيد والتآمر الذي كان يحدث في كل يوم، لقد كنا نمشي فوق «ألغام» خلال الأشهر الستة الأخيرة، وإذا «الألغام» تنفجر أخيرًا».

وقال المستر بكوك وقد ارتد وجهه شاحبًا: «ماذا تعني؟ أرجو ألا يكون قد وقع زواج سري آخر؟».

وأجاب المستر واردل: «كلا! كلا! ليس الأمر سيئًا إلى هذا الحد».

وسأل المستر بكوك: «ماذا إذن؟ أليس لي في الأمر شأن؟».

وقال واردل: «هل أرد على هذا السؤال يا بركر؟».

وأجاب المحامي: «إذا لم تورط نفسك بالرد عليه».

وقال واردل: «بل لك فيه شأن».

وسأل المستر بكوك في لهفة: «وكيف؟ ومن أية ناحية؟».

وأجاب واردل: «في الحقيقة إنك «لشاب» متحمس ملتهب المشاعر حتى أكاد أخاف من الكلام معك، ولكن إذا جاء بركر فجلس بيننا ليحميني من الأذى، اجترأت فتكلمت».

وقام الشيخ فأغلق الباب، وتحصن بقدر آخر من سعوط بركر، وشرع السيد الكبير يفضي إليه بالنبأ العظيم فيقول: «الواقع أن ابنتي بللا التي تزوجت الفتى ترندل كما تعرف..».

وعاجله المستر بكوك نافد الصبر: «نعم، نعم، نعرف ذلك».

ومضى الشيخ يقول: «لا ترعبني هكذا من البداية، إن ابنتي بللا بعد أن رأت أختها إميلي قد أوت إلى فراشها شاكية من «صداع» ألم بها عقب أن قرأت على سمعي كتاب أرابلا، جاءت فجلست بجانبي مساء ذلك اليوم، وبدأت تتحدث عن مسألة زواج أرابلا وأنشأت تقول: «والآن يا أبتِ، ما رأيك في هذه المسألة؟» قلت أحسبها يا عزيزتي شيئًا جميلًا، وأرجو أن تنتهي بخير. وقد رددت على سؤالها بهذا الشكل؛ لأني كنت في تلك اللحظة جالسًا قبالة النار أتناول شرابي مفكرًا ساهمًا، وقد أدركت أن التفوه بكلمة لم أحسب حسابها من وقت إلى آخر، سيحملها على مواصلة الحديث. إن ابنتيّ صورتان طبق الأصل من أمهما العزيزة، وكلما تقدمت بي السنون زدت ميلًا إلى الجلوس وحدي معهما؛ لأن صوتيهما وملامحهما تعود بي إلى أسعد فترة في حياتي، وتردني عندئذ شابًّا كما كنت في تلك الأيام، وإن لم أبلغ ما كنت بالغه يومئذ من الخفة والمراح، وقالت بللا بعد صمت قصير: إنه زواج حب يا أبتي. قلت: نعم يا عزيزتي، ولكن أمثال هذا الزواج لا تبدو دائمًا أوفره سعادة».

وقاطعه المستر بكوك بحماسة قائلًا: «أنا أشك في هذا، أنبهك إلى ذلك!».

وأجاب واردل: «جميل جدًّا، فلتشك في أي شيء تشاء حين يأتي دورك للكلام، ولكن لا تقاطعني».

وقال المستر بكوك: «أرجوك المغفرة».

وأجاب واردل: «هي لك، وقالت بللا وقد احمر وجهها قليلًا:

إنني ليؤسفني يا أبتي أن أراك تعارض في الزواج الذي يأتي ثمرة الحب، قلت وأنا ألاعب وجنتها في رفق، كما يفعل رجل خشن كبير مثلي أو في إمكانه أن يفعل، لقد كنت مخطئًا، وكان أولى بي ألا أقول ما قلت يا عزيزتي؛ لأن زواج أمك كان كذلك، وزواجك كان أيضًا من هذا النوع. وقالت بللا: ليس هذا ما أعنيه يا أبتِ، الواقع أنني أردت أن أتحدث إليك عن إميلي».

وهنا أجفل المستر بكوك.

وقال واردل وقد كف عن الحديث: «ما الأمر الآن؟».

وأجاب المستر بكوك: «لا شيء، امض في حديثك».

ومضى واردل يقول فجأة: «إنني لا أحسن سرد القصص، فلأنته منها سريعًا، توفيرًا للوقت، ولهذا أقول بإيجاز، واختصار، إن بللا تشجعت أخيرًا فنبأتني أن إميلي في هم شديد، وأشجان بالغة، وأنها هي وصديقك الشاب سنودجراس يتكاتبان ويتراسلان باستمرار منذ عيد الميلاد الماضي، وأنها كانت تنتوي بحكم الواجب الفرار معه، تقليدًا حسنًا لصديقتها القديمة ورفيقتها في المدرسة، لولا شعورها بشيء من تبكيت الضمير، لفرط عطفي المستمر على كليهما، فأدركا أنه يحسن بهما أولًا مجاملتي بسؤالي هل لي اعتراض ما على زواجهما بالطريقة المألوفة، هذه هي الحكاية يا مستر بكوك. والآن هلا تكرمت فرددت عينيك إلى حجمهما الطبيعي وأسمعتني رأيك فيما ينبغي عمله فأكون لك من الشاكرين!».

وكان للطريقة الحادة التي اتخذها ذلك الشيخ المرح في النطق بهذه الجملة الأخيرة ما يبررها ويقتضيها، فقد كان وجه المستر بكوك يبدو متغيرًا، شاعت أمارات الذهول فيه، وظهر عليه الارتباك، فكان غريب المنظر غير مألوفه، وجعل يردد في عبارات متقطعة ذاهلة: «سنودجراس! منذ عيد الميلاد الماضي!» وكانت هذه أول ما انفرجت عنه شفتا هذا الرجل الذاهل.

وقال واردل: «منذ عيد الميلاد الماضي، آه. هذا كلام واضح جدًّا، ولا بد من أننا كنا نضع على أعيننا منظارًا رديئًا، وإلا فكيف لم نكتشف ذلك من قبل؟».

وقال المستر بكوك وهو شارد اللب مفكر: «لا أفهم ذلك، في الحق لست مستطيعًا أن أفهمه».

وأجاب الشيخ بحدة: «ولكنه كلام واضح لا يصعب فهمه، ولو كنت أصغر سنًّا مما أنت؛ لعرفت السر من عهد بعيد». وعاد واردل بعد تردد قصير يقول: «وفوق هذا فإن الحقيقة التي لا شك فيها أنني منذ أربعة أشهر أو خمسة جعلت ألح على إميلي أن تجتهد ما استطاعت- لجهلي التام بهذه المسألة، ولأني لا أحب مطلقًا أن أرغم شعور الفتيات على أي ميل إلى شيء لا يرتضيه، في الاستجابة لتودد شاب مهذب من جيراننا، واستقباله برضى وحظوة، ولست أشك في أنها كما تفعل الفتيات، أرادت أن ترفع من قيمتها وتزيد من حماسة المستر سنودجراس وحرارة لهفته، فراحت تصور المسألة في أزهى الألوان، وتجلوها في ألمع الظلال وأفتن الصور، حتى وصلا معًا إلى الاعتقاد بأنهما حبيبان

مضطهدان معذبان تعسان، فلا خلاص لهما ولا منجاة إلا الزواج سرًّا، أو الانتحار بالفحم، والسؤال الآن هو ماذا ينبغي أن تفعله؟».

وقال المستر بكوك: «وما الذي فعلته أنت؟».

قال: «أنا؟».

وأجاب المستر بكوك: «أعني ماذا كان منك حين نبأتك ابنتك المتزوجة بهذه القصة؟».

قال: «آه، كنت أبله بالطبع وتهوست».

وهنا تدخل بركر، وكان قد أصغى إلى هذا الحوار وهو يلوي سلسلة ساعته لياتٍ مختلفة، ويعرك أنفه عركات شديدة، كأنما يريد الثأر منه والتشفي فيه، ويبدي أعراضًا أخرى للقلق ونفاد الصبر فقال: «هذا صحيح، وطبيعي جدًّا، ولكن كيف؟».

وأجاب واردل: «استسلمت لغضب شديد حتى أرعبت أمي فاستولت عليها نوبة إغماء».

وقال بركر: «هذا تصرف حكيم، ثم ماذا؟».

وأجاب الشيخ: «وظللت طيلة اليوم التالي متململًا ثائرًا، محدثًا إزعاجًا شديدًا، حتى تعبت أخيرًا من تكدير نفسي وجلب الشقاء على جميع الذين حولي فاستأجرت مركبة من «ماجلتن» وشددت إليها خيلي، وجئت إلى المدينة، بحجة اصطحاب إميلي للقاء أرابلا».

وقال المستر بكوك: «مس واردل إذن معك هنا؟».

وأجاب واردل: «بلا شك يا سيدي، وقد نزلنا في فندق أوزبورن في «الأدلفي» حيث هي في اللحظة الراهنة، ما لم يكن صاحبك المقدام قد فر بها عقب خروجي في هذا الصباح».

وقال بركر: «إذن لقد رضيت؟».

وأجاب واردل: «أبدًا، لقد ظلت تبكي وتنتحب من ذلك الحين، حتى كانت الليلة الماضية بين الشاي وموعد العشاء، إذ مضت تتراءى بأنها تكتب خطابًا، فتظاهرت من جانبي أنني لا أعرف شيئًا».

وقال بركر، وهو ينقل عينه بين وجه المستر بكوك المفكر الساهم وبين وجه المستر واردل القلق المتلهف، ويتناول عدة قبضات متوالية من ذلك «المنبه» الأثير لديه: «أحسبك تطلب نصيحتي في هذا الأمر، أليس كذلك؟».

وأجاب واردل، وهو ينظر إلى المستر بكوك: «أظن ذلك».

وقال هذا: «بلا شك».

وأنشأ بركر يقول وهو ينهض ويدفع بالمقعد إلى الخلف: «إذن استمعا، إن نصيحتي أن تنصرفا معًا، مشيًا على القدم، أو راكبين، أو منطلقين بأية وسيلة من وسائل الانتقال؛ لأنني تعبت منكما، واذهبا فتحادثا معًا في هذا الأمر، فإذا جاء الغد، ولم تستقرا فيه على شيء، فتعاليا أنبئكما بما ينبغي لكما أن تفعلاه».

وقال واردل وهو لا يدري هل يبتسم أم يستاء من هذه اللهجة: «هذا رأي مريح».

وعاد بركر يقول: «بوه! بوه! يا سيدي العزيز، إنني أعرفكما أكثر مما تعرفان نفسيكما، وأعلم أنكما قد سويتما المسألة فعلًا، وفصلتما فيها اللحظة».

وأخذ بركر بعد هذا القول يدفع بحُق السعوط صدر المستر بكوك أولًا، ثم صدر المستر واردل، وراحوا جميعًا يضحكون، وكان السيدان الأخيران أشدهم ضحكًا، فعادا يتصافحان باليد دون سبب ظاهر أو داع معين.

وقال واردل لبركر، وهو يمشي معهما إلى الباب: «ستتعشى الليلة معي».

وأجاب بركر: «ليس في إمكاني أن أعد يا سيدي العزيز، ليس في إمكاني أن أعد، ولكني سأطل في المساء على كل حال».

وقال واردل: «سأنتظرك في الخامسة، والآن يا جو!». وبعد جهد أمكن إيقاظ «جو» من سباته، فانصرف الصديقان في مركبة المستر بركر، وكان لها مقعد في الخلف لمجلس الغلام البدين إشفاقًا عليه، ولو أنه كان يجلس على سلم العربة، لتدحرج من فوق مقعده، وقتل نفسه في أول غفوة تستولي عليه.

ودرجت بهما المركبة إلى فندق «جورج والرخم» فوجدا أن أرابلا ووصيفتها قد بعثتا في طلب مركبة أجرة، عقب تلقي رقعة صغيرة من إميلي تعلن فيها قدومها إلى المدينة، واستقلتاها في الحال إلى حي «الأدلفي»، وكان لدى واردل عمل في العاصمة، فأرسلا المركبة

والغلام البدين إلى الفندق؛ لإبلاغ القوم أن المستر واردل والمستر بكوك سيعودان معًا في الخامسة لتناول العشاء.

وعاد الغلام بهذه الرسالة، فنام نومة هادئة في مجلسه من المركبة، وهي تدرج به فوق أديم الطريق المرصوف بالأحجار، كأنه نائم فوق فراش وثير يهتز من تحته اهتزازًا على زنبرك ساعة، وبمعجزة أو أعجوبة استيقظ من تلقاء ذاته حين وقفت المركبة، فنفض نفسه نفضة قوية لتنبيه حواسه، وصعد لتأدية رسالته.

ولست أدري أكانت تلك الهزة قد أربكت حواسه، أم نبهتها ونظمتها، أم أيقظت في نفسه قدرًا كبيرًا من الأفكار الجديدة، حتى أنسته الآداب المألوفة والعرف العام، أم أنها قد عجزت عن أن تمنعه من النوم وهو يصعد مدارج السلم- وهو أمر جائز أيضًا- فالذي لا شك فيه أنه اندفع نحو قاعة الجلوس دون أن يدق الباب مستأذنًا، فإذا هو يبصر سيدًا يطوق خصر سيدته الصغيرة، وهو جالس جلسة المحب الوامق بجانبها فوق الأريكة، بينما تظاهرت أرابلا ووصيفتها بأنهما منشغلتان بالإطلال من نافذة في أقصى ركن من القاعة، فما كاد الغلام يشهد هذا المنظر الغريب، حتى أطلق صيحة دهشة، وأرسلت النساء في أثره صرخة، وانفرجت شفتا السيد عن سباب ولعنة، وجرى ذلك كله معًا في لحظة واحدة.

وقال السيد- ولا حاجة بنا إلى القول إنه المستر سنودجراس: «أيها المخلوق المنكود، ماذا تريد هنا؟».

وأجاب الغلام البدين وهو مروع بكلمة واحدة وهي: «سيدتي».

وسألته إميلي، وهي تدير رأسها نحوه: «ماذا تريد مني أيها المخلوق الأبله؟».

وأجاب الغلام البدين: «سيدي والمستر بكوك قادمان إلى هنا للعشاء في الخامسة».

وقال المستر سنودجراس وهو يحملق البصر في الفتى الذاهل المروع: «انصرف من الحجرة!».

وأردفت إميلي في عجلة: «كلا، كلا، كلا، عزيزتي بللا، دبريني، ما العمل؟».

واجتمعت إميلي والمستر سنودجراس وأرابلا وميري معًا في ركن من القاعة، فتشاوروا في الأمر وتهامسوا بضع لحظات، بينما كان الغلام البدين يداعب النعاس عينيه.

وقالت أرابلا أخيرًا، وهي تنظر إليه ابتسامة ساحرة: «يا جو! كيف حالك؟».

وتبعتها إميلي قائلة: «إنك ولد طيب يا جو، لن أنساك يا جو».

وقال المستر سنودجراس في أثرها وهو يتقدم نحو الغلام المبهوت، ويتناول يديه: «لم أكن أعرفك قبل الآن يا جو، هذه خمسة شلنات لك يا جو!».

وقالت أرابلا: «وأنا مدينة لك يا جو بخمسة أخرى للمعرفة القديمة». وراحت تنعم بابتسامة ثانية أشد فتنة وسحرًا، على هذا

«المتهجم» البدين.

وكان الغلام بطيء الإدراك فبدا في أول الأمر مرتبكًا لا يدري سببًا لهذا التحول الفجائي إلى الرضى عنه والعطف عليه، ولبث محملقًا متلفتًا في فزع غريب، وأخيرًا بدأت تلوح على وجهه العريض أعراض ابتسامة متناسبة مع حجم سحنته، ثم راح يدس كل نصف كراون في كل جيب من جيبيه، ويدخل كفه إلى المعصم فيه، ثم انفجر ضاحكًا ضحكة جشاء كانت هي الأولى والأخيرة في حياته.

وقالت أرابلا: «أحسبه قد فهمنا».

وقالت إميلي: «يحسن أن نقدم إليه شيئًا يأكله في الحال».

وكاد الغلام يضحك مرة أخرى حين سمع هذا الاقتراح، ولم تلبث ماري بعد تهامس قصير أن تركت الجماعة وقالت: «إنني عازمة على مؤاكلتك اليوم يا سيدي، إذا لم يكن لديك مانع».

وقال الغلام بلهفة: «تعالي من هنا، إن هناك فطيرًا بديعًا باللحم!».

ومشى الغلام في المقدمة يهبط السلم وهي في أثره، تفتن قلوب الخدم والغلمان، وتثير غضب الخادمات، حتى وصلا إلى قاعة الطعام، فإذا الفطير الذي تحدث الغلام عنه بلهفة وحماسة، وإذا بجانبه كذلك شريحة لحم وصحفة من البطاطس وجرة من الجعة الخفيفة.

وقال الغلام: «اجلسي، آه يا عيني، ما أبدع وما أبهج! إنني جائع أشد الجوع».

وبعد أن ملى العين بلذة لا توصف، خمس مرات أو ستًّا، من وجه

الفتاة، جلس عند رأس المائدة الصغيرة، واتخذت ميري مجلسها قبالته.

وقال الغلام وهو يغمس السكين والشوكة إلى المقبضين: «هلا تناولت شيئًا من هذا؟».

وأجابت ميري: «قليلًا إذا تفضلت».

وقدم لها الغلام قطعة صغيرة واستأثر هو بقطعة كبيرة، وهمّ بأن يقبل على الطعام، وإذا هو فجأة ينثني عنه، ويدع يديه وهما ممسكتان بالسكين والشوكة تتراخيان فوق ركبتيه، ويغمغم بصوت بطيء: «أقول، ما ألطفك!».

وكان هذا القول منه بلهجة إعجاب تسر الخاطر، وإن بقيت في عيني الغلام نظرة المنهوم المفترس، وهي نظرة تكفي لجعل هذه التحية مزدوجة.

وقالت ميري متظاهرة بالخجل: «عجبًا يا جوزف! ماذا تعني؟».

وعاد الغلام يسترد شيئًا فشيئًا مكانه فوق المقعد، ويجيب بزفرة عميقة ولبث بضع لحظات مفكرًا، ونهل نهلة طويلة من الجعة، ثم عاد يتنهد، وأهوى بعد ذلك على الفطير بنهم شديد.

وقالت ماري بعد صمت طويل: «ما ألطف مس إميلي!».

وكان الغلام قد أجهز على الفطير، فحدق في وجه ميري بصره وأجاب قائلًا: «أعرف واحدة ألطف منها».

وقالت ميري: «أحقًّا؟».

وأجاب الغلام بحماسة غير مألوفة منه: «نعم حقًّا!».

قالت: «وما اسمها؟».

قال: «وما اسمك؟».

قالت: «ميري».

وأجاب الغلام: «هذا هو اسمها، وأنت هي» ومضى يبتسم ليزيد التحية قوة، وجعل عينيه وسطًا بين الغمز والحول، وهو ما يدفعنا إلى الاعتقاد أنه أراد أن يغازلها.

وقالت ماري: «لا ينبغي لك أن تكلمني بهذا الشكل، أظنك لا تقصد».

قال: «ألا أقصد حقًّا... اسمعي».

قالت: «نعم».

قال: «هل ستأتين إلى هنا بانتظام؟».

قالت وهي تهز رأسها: «كلا، إنني منصرفة الليلة، ولكن لماذا؟».

وأجاب الغلام البدين بحرارة: «آه، لو أتيت لاستمتعنا وحدنا على الوجبات معًا!».

وقالت ميري وهي تطوي غطاء المائدة مصطنعة الحياء: «لعلي سآتي أحيانًا لكي أراك، إذا أنت تفضلت عليَّ بهذا».

وراح الغلام البدين ينقل عينه من صحفة الفطير إلى طبق اللحم، كأنما اعتقد أن الفضل المطلوب لا بد أن يكون متصلًا بشيء مما يؤكل،

ثم أطلع نصف كراون من أحد جيبيه وأطال النظر إليه في عصبية ظاهرة.

وقالت ميري وهي تنظر بمكر إلى وجه السمين: «ألا تفهم مرادي؟».

وعاد ينظر إلى نصف الكراون، وقال بصوت خافت: «كلا».

وقالت ميري: «إن السيدتين تريدان منك ألا تقول شيئًا للشيخ عن ذلك الشاب ووجوده في الحجرة، وأنا أيضًا أريد ذلك منك».

وقال الغلام البدين، وكأنما قد هدأ باله كثيرًا، فأعاد نصف الكراون إلى جيبه: «أهذا هو كل ما في الأمر؟ بالطبع لن أقول شيئًا».

وقالت ميري: «المسألة هي أن المستر سنودجراس مولع بمس إميلي، ومس إميلي مولعة به، فإن أنت قلت شيئًا للشيخ، فسوف ينقلكم جميعًا إلى الريف البعيد، فلا تعود ترى أحدًا».

وقال الغلام البدين بقوة: «كلا، كلا، لن أقول شيئًا».

وقالت ميري: «هذا جميل منك، والآن قد حان لي أن أصعد لأساعد مولاتي على الاستعداد للعشاء».

وقال الغلام البدين ملحًا متوسلًا: «لا تذهبي الآن».

وأجاب ميري: «لا بد، إلى الملتقى حتى حين».

وإذا الغلام البدين، في حركة عبث ومجون كما تفعل الفيلة يبسط ذراعيه لينتهب قبلة، وإذ لم يكن الانفلات منه يقتضي خفة كثيرة، فقد استطاعت فاتنته الحسناء أن تتوارى قبل أن يرد ذراعيه إلى جنبيه، وأقبل من فرط استيائه يلتهم رطلًا أو نحوه من الشواء وهو شارد الخاطر، هائج

العاطفة، وما لبث أن هبط في سبات عميق.

وكان هناك شيء كثير يقال في قاعة الجلوس، وخطط مختلفة تناقش أو ترسم خطوطها للفرار والزواج إذا ظل الشيخ واردل مقيمًا على قسوته، حتى لم يبق إلا نصف ساعة على موعد العشاء، حين نهض المستر سنودجراس مودعًا، وذهبت السيدتان إلى مخدع إميلي لترتديا ثيابهما استعدادًا للجلوس إلى المائدة، وتناول العاشق قبعته، وانصرف من الحجرة، ولكنه لم يكد يخرج من الباب حتى سمع صوت واردل وهو يتحدث بجرس مرتفع، فأطل من فوق السلم فرآه، وشهد بعض الناس في أثره، وهم يصعدون. ولم يكن المستر سنودجراس يعرف شيئًا عن الفندق، فلم يلبث من الارتباك أن عاد مسرعًا إلى الحجرة التي خرج منها، واجتازها إلى غرفة أخرى كانت قد أعدت غرفة نوم للمستر واردل نفسه، وأغلق برفق الباب، في اللحظة ذاتها التي دخل فيها الأشخاص الذين لمحهم على السلم حجرة الجلوس. فإذا هم المستر واردل، والمستر بكوك، والمستر نثنايل ونكل، والمستر بنجمن ألن، ولم يجد مشقة في تمييزهم من أصواتهم.

وقال المستر سنودجراس لنفسه وهو يتسم: «الحمد لله على أني عرفت بحضور البديهة كيف أتحاماهم»، ومشى على أطراف قدميه إلى باب آخر بقرب السرير، وهو يقول إن هذا الباب يفضي إلى الردهة أيضًا، وفي إمكاني أن أتسلل بهدوء وأمان وأنصرف».

ولم يكن هناك إلا عائق واحد يحول دون هذا التسلل الذي كان يرجوه، وهذا العائق هو أن الباب كان مغلقًا، والمفتاح منزوعًا من قفله.

وقال المستر واردل وهو يفرك يديه: «دعنا نذق اليوم أحسن ما لديكم من النبيذ يا غلام».

وأجاب غلام الفندق: «سأحضر أحسن ما لدينا منه يا سيدي».

قال: «وأبلغ السيدتين أننا وصلنا».

«سمعًا وطاعة يا سيدي».

وقد تمنى المستر سنودجراس أحر التمني وأصدقه لو أن السيدتين عرفتا أنه هو الذي وصل إلى هذا المأزق، وخطر له مرة أن يجترئ فيهمس من ثقب القفل مناديًا «يا غلام»، ولكن بدا له أن من المرجح أن يأتي غلام آخر إلى نجدته، فتكون الطامة، كما تذكر حادثًا مماثلًا لهذا الموقف الذي وجد نفسه فيه، وهو اكتشاف رجل منذ أيام مختبئًا في إحدى الحجرات بفندق مجاور، وظهر نبأ الحادث في النهر المخصص لحوادث «الشرطة» في تلك الصحيفة الصباحية، فتهالك فوق حقيبة سفر كبيرة وقد تولته رعشة شديدة.

وقال واردل وهو ينظر في ساعته: «لن ننتظر بركر دقيقة واحدة، إنه على مواعيده لحفيظ، وسيأتي إذا قصد المجيء فعلًا، أما إذا لم يقصد فلا فائدة من الانتظار ها! أرابلا!».

وصاح المستر بنجمن ألن: «أختي!»، وطواها في عناقة «غرامية» متناهية.

وقالت أرابلا، وقد غلب عليها هذا المظهر من الحب: «آه، يا بن، أيها العزيز، ما أشد رائحة التبغ التي تعبق منك».

وقال المستر بنجمن ألن: «أحقًّا، يا بلا؟ لعلي كذلك».

ولعله كذلك فعلًا، فقد جاء لتوه من مجلس جمع من طلبة الطب، قضوا فترة في تدخين ومرح في غرفة صغيرة حول نار كبيرة.

قال: «ولكني في ابتهاج بلقائك، بارك الله فيك يا بللا».

وقالت أرابلا، وقد انحنت إلى الأمام لتقبل شقيقها: «حسبك، لا تمسك بي مرة أخرى يا عزيزي بن؛ لأنك تطبق على صدري إطباقًا».

وعند هذا الحد من الصلح والتراضي انثنى المستر بن ألن يترك لعواطفه وتأثير لفافات التبغ الطوال وحميا الشراب سبيل الغلبة عليه، فأدار عينيه في وجوه الحاضرين وقد بلل الدمع منظاره.

وصاح واردل وهو باسط ذراعيه: «ألا شيء يقال لي أنا؟».

وهمست أرابلا: «بل الشيء الكثير» وهي تتلقى عناق الشيخ وتهانيه، وتردف قائلة: «إنك لغليظ القلب جامد الشعور قاس مخيف!».

وأجاب الشيخ باللهجة ذاتها: «وإنك لصغيرة متمردة، وأخشى أن أضطر إلى منعك من دخول بيتنا، إن أمثالك ممن يتزوجن رغم أنف كل إنسان لا ينبغي أن يتركن طليقات في المجتمع». وهنا أضاف الشيخ بصوت مرتفع: «ولكن تعالي، اجلسي بجانبي إلى العشاء، يا جو! يا عجبًا له، إنه يقظان!».

وكانت دهشة الشيخ بالغة حين تبين فعلًا أن الغلام في صحو ظاهر، كما يبدو من عينيه المفتوحتين على سعتهما، تبدوان كأنهما ستظلان كذلك، كما كان في منظره خفة ورشاقة لا يفهم السر فيهما، فقد جعل

يضحك ويبتسم كلما التقت عيناه بعيني إميلي أو أرابلا، بل لقد قال واردل: إنه في وسعه أن يقسم أنه قد رآه مرة يغمز بطرف ناظريه.

وكان هذا التغير الذي طرأ على حركات الغلام البدين وسكناته، راجعًا إلى ازدياد شعوره بأهميته، والمركز الذي أحرزه من إشراك السيدتين له في أسرارهما وائتمانه عليها، فكانت تلك الضحكات والابتسامات والغمزات الكثيرة منه بمثابة توكيدات أبداها في تواضع ليشعرهما بالاعتماد على إخلاصه، والركون إلى أمانته. ولكن هذه الرموز والإشارات جاءت منه أدنى إلى إثارة الشبهة من إخمادها، وكانت مربكة لهما إلى حد ما أيضًا، فكانت أرابلا تجيب عنها من لحظة إلى أخرى بعبسة من وجهها، أو هزة من رأسها، ولكن الغلام البدين لم يفهم منها إلا أنها «تلميح» له بوجوب الانتباه والحيطة، فراح يعبر عن فهمه لها على هذا النحو بمضاعفة الضحك والابتسام والغمز بعينيه.

وقال المستر واردل بعد أن بحث عبثًا في جيوبه: «يا جو، هل تراني وضعت حق السعوط فوق المتكأ؟».

وأجاب الغلام البدين: «كلا يا سيدي».

قال: «آه! تذكرت، لقد تركته على منضدة الزينة في هذا الصباح، اجر إلى الحجرة الملاصقة فأحضره».

وذهب الغلام البدين إلى الحجرة الأخرى، وما إن غاب نحو دقيقة حتى عاد بحق السعوط، وبوجه أشد شحوبًا مما يكون وجه غلام بدين يومًا ما.

وصاح المستر واردل: «ما شأن هذا الغلام!».

وأجاب جو بعصبية: «لا شيء يا سيدي».

وقال الشيخ: «هل رأيت أرواحًا؟».

وأردف بن ألن: «أو تناولت أشربة روحية؟».

وهمس واردل من فوق المائدة: «أظنك أصبت كبد الحقيقة، إن الغلام ثمل، وأنا متأكد من هذا».

وأجاب بن ألن أنه يعتقد ذلك، وكان مثله الخبير بهذا المرض، فلا غرو إذا شعر واردل بصواب ما لبث نصف ساعة يراود خاطره، وهو أن الغلام سكران.

وغمغم واردل: «ألق بالك إليه بضع دقائق، فلا نلبث أن نعرف هل هو كذلك فعلًا أو لا».

وكان الغلام السيئ الحظ قد تبادل بضع كلمات مع المستر سنودجراس، فقد توسل هذا إليه أن يستعين سرًّا بصديق على إنقاذه من هذا المأزق الذي هو فيه، ثم دفع به هو وحق السعوط، مخافة أن يكون طول غيابه مدعاة إلى اكتشافه. وفكر الغلام قليلًا وقد بدا الاضطراب الشديد على وجهه وذهب يبحث عن ميري.

ولكن ميري كانت قد انصرفت عقب معاونة سيدتها على ارتداء ثيابها، فعاد الغلام إلى الحجرة وهو أشد اضطرابًا مما كان قبل.

وتبادل واردل والمستر بن ألن النظرات.

وقال واردل: «يا جو!».

- «نعم، يا سيدي».

- «لماذا خرجت اللحظة؟».

ووقف الغلام ينظر يائسًا في وجوه الجميع، وقال متلعثمًا إنه لا يعرف.

وقال واردل: «آه، لا تعرف؟ خذ هذا الجبن إلى المستر بكوك».

وكان المستر بكوك في أحسن حال من الصحة والمرح والابتهاج على العشاء، وكان في تلك اللحظة مسترسلًا في حديث مع إميلي والمستر ونكل، وهو يهز رأسه ويحنيه بكل أدب، توكيدًا لأقواله، ويلوح في رفق بيسراه تعزيزًا لآرائه وملاحظاته، ووجهه طافح بالبشر والبسمات، فتناول قطعة جبن من الصحفة، وهم بالالتفات لمعاودة الحديث، وإذا الغلام البدين ينحني حتى جعل رأسه محاذيًا رأس المستر بكوك، وراح يضغط بإبهامه فوق كتفه، ويحرك تقاسيم وجهه أقبح ما شوهد من الحركات في حفلة تمثيل صامت في عيد الميلاد.

وقال المستر بكوك مجفلًا: ما أغرب... ولكنه لم يتم كلماته، إذ رفع الغلام صلبه، وقد هبط في سبات عميق، أو تظاهر به.

وسأل واردل: «ماذا جرى؟».

وأجاب المستر بكوك وهو ينظر بقلق إلى الغلام: «إن هذا الغلام لشاذ غريب كل الغرابة، وقد يكون عجيبًا أن أقول إنه يبدو أحيانًا مذهولًا إلى حد ما أو مجنونًا، ولكني أقسم أن الأمر كذلك».

وصاحت إميلي وأرابلا معًا في وقت واحد: «أوه، يا مستر بكوك لا تقل ذلك».

وقال المستر بكوك وسط صمت عميق ونظرات وجوم عام: «لست متأكدًا بالطبع، ولكن تصرفه في هذه اللحظة معي في الواقع مزعج جدًّا»، وهنا صاح المستر بكوك: «آه!» وقفز فجأة مطلقًا صرخة قصيرة، واستتلى يقول: «أرجوكما معذرة أيتها السيدتان، ولكنه في هذه اللحظة بالذات وخز ساقي بآلة حادة، الواقع أنه لا يؤمن جانبه».

وزأر المستر واردل بغضب: «إنه سكران، دق الجرس، نادوا الخدم، إنه سكران».

وقال الغلام وهو يجثو عند قدميه حين أمسك سيده برقبته: «أنا لست سكران! أنا لست سكران!».

وقال الشيخ: «إذن أنت مجنون، وهو شر وأدهى، نادوا الخدم».

وأجاب الغلام البدين وقد بدأ ينتحب: «أنا لست مجنونًا، أنا عاقل».

وسال المستر واردل غاضبًا: «إذن لماذا تخز ساق المستر بكوك بآلة حادة ما دمت عاقلًا؟».

وأجاب الغلام: «لم يشأ أن ينظر إليَّ، وكنت أريد أن أن أكلمه».

وقالت أصوات كثيرة في نفس واحد: «وماذا كنت تريد أن تقول له؟».

ووقف الغلام يزفر وينظر إلى غرفة النوم، ثم عاد يزفر ويمسح دمعتين بعقدتي خنصريه.

وقال واردل وهو يهزه: «ماذا كنت تريد أن تقول له؟».

وصاح المستر بكوك: «قف واسمح لي أن أسأله بنفسي، ماذا كنت تريد أن تقوله لي يا بني المسكين؟».

وأجاب الغلام: «أريد أن أهمس لك».

وقال واردل: «أحسبك تريد أن تقطع أذنه بأسنانك! لا تقترب منه، إنه شرير، دق الجرس، ودعوهم يأخذوه من هنا إلى الطابق الأسفل».

وفي اللحظة التي أمسك فيها المستر ونكل حبل الجرس ليدقه، وقف عن دقه، حين رأى علامات الدهشة البالغة على الوجوه، فقد بهت القوم أن رأوا العاشق الأسير يخرج من غرفة النوم، بادي الاضطراب، وينحني انحناءة عامة لهم.

وصاح واردل وهو يرفع كفه عن رقبة الغلام، ويتراجع إلى الوراء مبهوتًا: «ها! ما هذا!».

وقال المستر سنودجراس معللًا: «لقد كنت مختبئًا في الغرفة المجاورة يا سيدي منذ عودتكم».

وقال واردل بلهجة عتاب وتأنيب: «يا ابنتي إميلي، إنني أمقت الحقارة والغش، إن هذا أمر نكر لا مبرر له إطلاقًا، ومحرج أشد الإحراج، وما كنت مستحقًا هذا من جانبك يا إميلي. ما هذا حقًّا بجزائي لديك!».

وقالت إميلي: «يا أبت العزيز، إن أرابلا تعرف، وكل واحد هنا يعرف، وجو يعرف أن لا ضلع لي في هذا الاختباء، أي أوجست بحق السماء أناشدك أن تشرح جلية الأمر».

وكان المستر سنودجراس منتظرًا حتى يسمع له قول، فلم تكد إميلي

تناشده الكلام، حتى أنشأ يقص كيف وقع في ذلك الحرج، وكيف كان الخوف من أن يثير خلافًا عائليًّا شديدًا قد دفعه إلى تجنب لقاء المستر واردل عند دخوله، وكيف لم يكن مراده أكثر من الانصراف من باب آخر، ولكنه وجده مقفلًا فاضطر إلى البقاء رغم أنفه. وقال: إنه لموقف أليم ذلك الذي أحيط به، ولكنه الساعة أقل أسفًا له؛ لأنه أتاح له الفرصة للاعتراف أمام أصدقاء الطرفين بأنه يحب ابنة المستر واردل حبًّا شديدًا مخلصًا صادقًا، وأنه فخور بأن يعترف على رؤوس الأشهاد بأن ذلك الحب متبادل، وأنه لن ينسى، وإن بعدت الشقة بينه وبينها آلاف الأميال، أو فرقت بينهما المحيطات المترامية، تلك الأيام الهنية التي مضت منذ أول عهده، وما إلى ذلك ونحوه.

وانحنى المستر سنودجراس بعد إلقاء كلام في هذا المعنى، ونظر إلى قمة قبعته وتقدم نحو الباب لينصرف.

وهنا صرخ واردل قائلًا: «قف، وقل لي باسم كل ما هو....».

وعاجله المستر بكوك برفق، وكان يعتقد أن ما سيأتي أدهى وأمر: «بكل ما هو سريع الاشتعال».

وقال واردل، متقبلًا هذا النعت بديلًا مما كان يهم بأن يفوه به: «باسم كل ما هو سريع الاشتعال، لماذا لم تنبئني بهذا كله من أول الأمر؟».

وتبعه المستر بكوك فقال: «أو تسره لي مثلًا؟».

وهنا انبرت أرابلا للدفاع: «عجبًا، عجبًا، ما جدوى هذا السؤال كله الآن، وبخاصة بعد أن كنت واضعًا عينك وقلبك الطموح على خطيب

أكثر منه مالًا وأعز نسبًا، وأنت إلى جانب ذلك الهائج المتنمر كما تبدو الساعة، حتى ليفرق الجميع منك رعبًا، عداي أنا، ألا تقدم وصافحه واطلب له عشاء كرمًا منك وفضلًا؛ لأنه يلوح جائعًا، وهلم اسع علينا بالنبيذ ولا تبطئ؛ لأنك لن تطاق حتى تشرب زجاجتين منه على أقل تقدير».

وجذب الشيخ الكريم أرابلا من أذنها، وقبلها بغير تردد، ثم قبل ابنته كذلك بحب شديد، وهز يد المستر سنودجراس بحرارة.

وأنشأ الشيخ يقول بسرور: «إنها على حق في نقطة واحدة على كل حال، وهي طلب الشراب، دقوا الجرس ليأتوا لنا بالنبيذ!».

وجاء النبيذ وجاء معه بركر في الوقت ذاته، وتناول المستر سنودجراس الطعام على مائدة جانبية، ولم يكد يأتي عليه حتى قرب مقعده من إميلي دون أدنى معارضة من الشيخ الكبير.

وكان المساء بديعًا، وبدا المستر بركر النحيل القصير صافي المزاج إلى حد عجيب، وأقبل يقص نوادر هزلية مختلفة ويغني أغنية جدية، لا تقل إثارة للضحك من أقاصيصه ونوادره، ولاحت أرابلا فاتنة، وظل المستر واردل ممازحًا مداعبًا، وكان المستر بكوك في أشد حالات الانسجام، بينما راح المستر بن ألن صخابًا يرسل الزئير إثر الزئير، كما لبث العاشقان صامتين، وانطلق المستر ونكل يكثر من الكلام، وظل السرور مرفرفًا بجناحيه فوق الجميع.

الفصل الخامس والخمسون

كيف تولى المستر سلمون بل بمعاونة لجنة منتخبة من سائقي المركبات يدبر شؤون المستر ويلر الكبير

وقال المستر ويلر مخاطبًا ابنه في صباح اليوم التالي لتشييع الجنازة: «اسمع يا صموفيل، لقد وجدتها، لقد كنت أعتقد أنها هناك».

وسأل سام: «ما هي التي اعتقدت أنها هناك؟».

وأجاب المستر ويلر: «وصية امرأة أبيك يا سامي التي بمقتضاها سوف تتخذ التدابير التي قلت لك عنها في الليلة الماضية بشأن المال».

وسأل سام: «ألم تكن قالت لك أين وضعتها؟».

وأجاب المستر ويلر: «أبدًا لم تخبرني قط بشيء عنها. فقد كنا نصفي خلافاتنا الصغيرة، وكنت أشجعها وأواسيها وأقوي روحها، فنسيت أن أسألها عنها، ولست أدري هل كنت أسألها عنها حتى لو تذكرتها؛ لأنه ليس لطيفًا مطلقًا يا سامي أن تنطلق في الكلام عن أملاك أحد وأنت ترعاه في مرضه، إن ذلك لأشبه بمساعدة راكب في خارج المركبة سقط منها فجأة، بينما أنت تدس يدك في جيبيه، وتسأله في مسرة كيف حاله».

وبهذه الاستعارة التي صور بها مراده، راح المستر ويلر ينزع محفظة جيبه فيفتحها ويخرج منها ورقة قذرة من أوراق الخطابات، نقشت عليها حروف مختلفة متزاحمة متلاصقة في اضطراب عجيب.

وقال المستر ويلر: «هذه هي «الوثيقة» يا سامي، وجدتها في علبة شاي سوداء صغيرة على الرف العلوي في غرفة الشراب، وكانت قد اعتادت أن تحفظ أوراق النقد فيها قبل زواجها يا صموفيل، فقد رأيتها وهي ترفع الغطاء لتدفع حسابًا كان عليها، عدة مرات، يا لها من مسكينة! لقد كان ممكنًا أن تملأ كل علب الشاي التي في المحل بالأوراق المالية، ولا تجد في ذلك تعبًا؛ لأنها لم تكن تخرج منها شيئًا كثيرًا في الأيام الأخيرة، إلا في الليالي التي تجتمع فيها جمعية «منع المسكرات» التي جعلت شرب «الشاي» أساسًا، تضع فوقه المشروبات الروحية».

وسأل سام: «وماذا تقول الوصية؟».

وأجاب الوالد: «ما قلته لك يا بني تمامًا، فيها مائتا جنيه أسهمًا وسندات بسعر منخفض باسم ابن زوجي صموفيل، وكل ما بقي من تركتي بجملته وأنواعه وأوصافه لزوجي المستر توني ويلر الذي عينته المنفذ الوحيد لوصيتي».

وقال سام: «أهذا كل شيء؟».

وأجاب المستر ويلر: «هذا هو كل ما فيها، وأظن أنه حق ومريح لي ولك بصفتنا الطرفين الوحيدين، فلا بأس إذن من إلقاء هذه الورقة في النار».

وصاح سام: «ماذا تريد أن تفعل يا مختل؟» وراح ينتزع الورقة منه، وكان أبوه بسلامة نية قد أخذ يحرك جذوات النار استعدادًا لتأييد القول بالفعل. وأردف سام قائلًا: «يا لك من منفذ وصية بديع! أهكذا؟».

وقال المستر ويلر وهو يتلفت حوله عابسًا ولا يزال المحراك في يده: «وما المانع؟».

وأجاب سام: «المانع! لأنه لا بد من إثبات الوراثة، وتأدية اليمين، وشهادة الشهود، وكل الإجراءات الرسمية المتعلقة بالتركات».

وألقى المستر ويلر المحراك من يده مبهوتًا وقال: «هل تقول جدًّا؟».

ووضع سام الوصية في أحد جيبيه بكل حرص وأفهم أباه بإشارة من عينيه أنه يقصد ما يقول وأنه جاد فيه كل الجد.

وأجاب المستر ويلر بعد أن فكر لحظة: «إذن استمع إليَّ، هذه مسألة لا ينفع فيها سوى صاحبنا صديق كبير القضاة، يجب أن يتولى المسألة صاحبنا «بل» يا سامي؛ لأنه الرجل الحلَّال لكل عقدة في القانون، فلنقدم القضية في الحال يا سامي أمام محكمة التفاليس».

وصاح سام منفعلًا: «لم أر في حياتي عجوزًا مخرفًا كهذا، كل مخه ممتلئ بمحاكم الجنايات، ومحاكم التفاليس، وعدم الوجود في مكان الحادث، وكل ما هو هزر وكلام فارغ. الأفضل أن تذهب فترتدي ثياب الخروج؛ لنذهب إلى المدينة ونقضي هذه المسألة، بدلًا من الوقوف للوعظ والإرشاد فيما لا نفهم منه شيئًا».

وأجاب المستر ويلر: «جميل جدًّا يا سامي، إنني مستعد لأي عمل

ينهي هذه المسألة بسرعة يا سامي، ولكن افهم مني يا بني شيئًا واحدًا، وهو أن لا نستشير فيها غير «بل»، «بل» وحده، لا أحد سواه».

وأجاب سام: «أنا لا أريد أحدًا آخر، والآن هل أنت آت أو لا؟».

وأجاب المستر ويلر: «انتظر دقيقة يا سامي» وأقبل الشيخ يتلفع بملفعته أمام المرآة المعلقة في النافذة، وبدأ بمجهود عجيب متناه في العجب، يحاول ارتداء ثيابه الخارجية، ثم أردف قائلًا: «يا سامي صبرًا لحظة واحدة يا سامي، فإنك عندما تكبر وتبلغ عمر أبيك سوف لا تدخل في ثياب بالسهولة التي تدخل بها الآن يا بني».

وأجاب الفتى: «إذا لم يتيسر لي ذلك أسهل من هذا، فلا لبستها إذن ولا وضعتها فوق جسدي».

وقال المستر ويلر بكل وقار السن ورزانته: «أنت تتصور هذا الآن، ولكنك ستجد كلما أصبحت أعرض أنك أمسيت أعقل، فإن العرض والحكمة يا سامي ينموان معًا على الدوام».

وفيما كان المستر ويلر يلقي بهذه الحكمة الصادقة التي لا تخطئ، والتي أتت ثمرة خبرة السنين الطوال، ومشاهداتها، راح يحاول بحركة التواء بارعة، إدخال الزر الأخير في سترته إلى عروته، وبعد أن تمهل بضع ثوان ليسترد أنفاسه، نفض قبعته بمرفقه، وأعلن أنه على استعداد للمسير.

وأنشأ يقول وهما راكبان في طرق لندن إلى وجهتهما: «إن أربعة أدمغة خير من اثنين يا سامي، ولما كانت هذه التركة إغراء شديدًا لرجل القانون، فالأفضل أن نأخذ معنا صديقين من أصدقائي، ينقضان عليه في

الحال إذا أتى عملًا غير سليم، وهما بعض الذين أوصلوك إلى سجن «فليت» قبل الآن». وهنا غض صوته قليلًا وأضاف يقول: «إنهم أحسن خبراء بالخيل يمكن أن تلتقي بهم في الحياة».

وسأل سام: «وهل هما خبيران بالمحامين أيضًا؟».

وأجاب الوالد: «إن الرجل الذي يستطيع أن يكوِّن رأيًا صحيحًا في الحيوان، يستطيع تكوين رأي صحيح في أي شيء» وكان هذا التقرير القاطع من القوة الجزم بحيث لم يحاول سام قلب النظرية أو إدحاضها.

وعملًا بهذا الرأي الحصيف استعان الأب والابن بخدمات الرجل «المرقط» الوجه واثنين آخرين من السائقين مفرطين في البدانة- وأكبر الظن أن المستر ويلر هو الذي اختارهما، أخذًا بحكمته القائلة إن العرض والحكمة مقترنتان. وانطلق الجمع إلى الحانة الواقعة في شارع «برتيوجل» حيث أوفدوا رسولًا إلى محكمة التفاليس المجاورة للبحث عن المستر سلمون بل، ودعوته إلى الحضور في الحال.

ووجد الرسول المستر سلمون بل، لحسن الحظ، في المحكمة، يلهو لقلة الأعمال، وينعش نفسه بطعام يسير من اللحم البارد والبقسماط والقديد.

وما إن همس الرسول له في أذنه بالرسالة، حتى دس الطعام في جيبه مع مختلف الأوراق والمذكرات المتعلقة بالمهنة، وسارع بقطع الطريق بفرح شديد حتى لقد وصل إلى الغرفة قبل أن يتمكن الرسول من مغادرة المحكمة.

ورفع المستر بل يده إلى قبعته وقال: «أيها السادة، أنا في خدمتكم جميعًا، ولست أقول ذلك لأتملقكم أيها السادة، ولكن ليس في العالم كله خمسة أناس آخرين، كان يمكنني أن أترك المحكمة من أجلهم اليوم».

وقال سام: «إيه؟ أمشغول جدًّا؟».

وأجاب بل: «مشغول! بل قل «مثقل» بالعمل إلى أقصى حد، كما كان صديقي كبير القضاة يقول لي مرارًا أيها السادة، كلما فض الجلسة عقب سماع العرائض المرفوعة إلى مجلس اللوردات، يا له من مسكين! لقد كان أشد الناس حساسية بالتعب، وكان يحس بثقل تلك القضايا المستأنفة إحساسًا غير عادي، حتى لقد ذهبت بي الظنون أكثر من مرة إلى القول بأنه كان موشكًا أن يرزح تحتها وينوء بحملها. إي والله، هذا كان شعوري فعلًا».

وهز المستر بل رأسه وتمهل، وعندئذ لكز المستر ويلر الكبير جاره، كأنما يطلب إليه أن يلاحظ صلات المحامي بالكبراء، وانثنى يسأله هل عادت واجبات كبير القضاة على صحته بآثار سيئة، أو أصابت صديقه الكبير بمرض.

وأجاب بل: «لا أظن أنه شفي منها تمامًا، أو الواقع أنني متأكد أنه لم يشف أبدًا منها، وكانت عادته أن يقول لي: عجبي لك يا بل! كيف يتواتى لك احتمال هذا العمل الشاق الذي تقوم به؟ هذا لغز لا أفهمه، فكنت أجيب قائلًا: وأنا أيضًا، لا أكاد والله أدرك كيف أقوم به، فكان يقول

وهو يتنهد وينظر نحوي بشيء من الحسد- الحسد الودي كما لا يخفى عليكم أيها السادة، مجرد حسد الأصدقاء؛ ولهذا لم أكن أجد منه بأسًا- إنك لأعجوبة يا بل، أعجوبة. آه لو كنتم عرفتموه أيها السادة لأحببتموه كثيرًا، أحضري قليلًا من الروم لي يا عزيزتي لا يزيد على ثلاثة بنسات».

وكان الخطاب الأخير موجهًا إلى الخادمة بلهجة حزن كظيم، وانثنى يتنهد وينظر إلى حذائه، ثم إلى السقف، وكان الروم قد حضر في تلك اللحظة فاجترعه اجتراعًا.

وعاد يقول، وهو يقرب كرسيًّا من المائدة: «ولكن رجل القانون لا يملك حق التفكير في علاقاته الخاصة حين تطلب إليه المساعدة القانونية، وبهذه المناسبة، أيها السادة لقد حدث منذ آخر لقاء لنا هنا حادث أليم أسفنا له وذرفنا العبرات».

وأخرج المستر بل منديلًا من جيبه، حين وصل إلى كلمة «العبرات»، ولكنه لم يستخدمه إلا في مسح قطرة صغيرة من الروم كانت معلقة فوق شفته العليا.

ومضى يقول: «لقد قرأت النعي يا مستر ويلر في «الأدفرتيزر» واحر قلباه! لم تكن تجاوزت الثانية والخمسين، وا أسفاه! تصور يا سيدي».

وكانت هذه الكلمات الأخيرة التي تنم عن روح طبعت على التأمل والتفكير موجهة إلى الرجل المرقط الوجه، التقت عينا مستر بل مصادفة به بعينيه، وكان إدراك ذلك الرجل للأمور بوجه عام مضطربًا غير واضح، فلا عجب إذا راح يتحفز ويتململ في مجلسه، ولم يزد على القول بأن

المرء لا يدري كيف تأتي الأمور، وتقع الأحداث، وهو قول ينطوي على أفكار وآراء غامضة يصعب الاعتراض عليها في مجال المناقشة، فلم يعترض أحد لها بتعقيب.

وقال المستر بل بلهجة العطف: «لقد سمعت أنها كانت امرأة طيبة كل الطيبة يا مستر ويلر».

وأجاب المستر ويلر الكبير بلهجة توحي بأنه لا يستعذب هذه الطريقة في تناول الموضوع، وإن كان يعتقد أن المحامي من طول عهده بصداقة اللورد العظيم كبير القضاة، لا بد أن يكون أعرف الناس بكل ما يتعلق بالأدب وحسن الذوق: «نعم يا سيدي، لقد كانت كذلك، لقد كانت امرأة طيبة يا سيدي حين عرفتها أول الأمر، لقد كانت أرملة في ذلك العهد يا سيدي».

وقال بل وهو يتلفت حوله بابتسامة حزينة: «هذا غريب، لقد كانت مسز بل أيضًا أرملة».

وقال الرجل ذو الوجه «المرقط»: «هذا شيء عجاب!».

وقال بل: «إنه اتفاق غريب».

وأجاب المستر ويلر بخشونة: «لا غرابة فيه مطلقًا، فإن عدد الأرامل اللاتي يتزوجن أكثر من عدد العزاب».

وقال بل: «جميل جدًّا، جميل جدًّا، أنت على حق يا مستر ويلر، لقد كانت مسز بل أنيقة كل الأناقة وامرأة مستكملة راقية، وكانت آدابها حديث الناس في حينا وموضع إعجابهم، وكنت فخورًا بأن أرى تلك

المرأة وهي ترقص، فقد كان في رقصها شيء من الثبات، والوقار، وإن كانت مع ذلك طبيعية في حركاتها، أما ثيابها أيها السادة فالبساطة مجسمة، آه، اسمح لي أن أسألك يا مستر صمويل، هل كانت امرأة أبيك طويلة القد؟» وألقى هذا السؤال الأخير بصوت خفيض.

وأجاب سام: «ليس كثيرًا».

وقال بل: «ولكن مسز بل كانت ذات قد طويلة القامة، كانت امرأة باهرة، ذات قوام بديع، وأنف أيها السادة خلق ليأمر وينهي، ويحكم ويسيطر، وكانت متعلقة بي إلى حد بالغ- أيها السادة- ولها علاقات أيضًا بالعلية والذوات، وكان خالها أيها السادة صاحب مكتبة لبيع الكتب القانونية وخسر ثمانمائة جنيه».

وهنا قال المستر ويلر، وكان قد ضجر وتبرم بهذا الحديث: «والآن، فيما يتعلق بالعمل..».

وكانت هذه الكلمة عذبة كالموسيقى في أذن «بل»، فقد كان خاطره يسائل هل هناك عمل يراد منه أن يؤديه أو تراه دعي لمجرد المشاركة في كأس من البراندي والماء، أو قدر من البنتش، أو أية تحية مماثلة لمن كان في مثل مهنته، ولكنه الآن قد اطمأن وزال شكه، من غير إبداء أية لهفة أو قلق في الاهتداء إلى الجواب، وبرقت عيناه وهو يضع قبعته فوق المائدة.

قال: «ما هو العمل الذي من أجله، يريد أحد هذين السيدين اتخاذ إجراء بشأنه في المحكمة؟ هل يحتاج الأمر إلى القبض على أحد؟ إن

الحجز بالطرق الودية يغني كما تعلمون. أظننا هنا أصدقاء كلنا؟».

وقال المستر ويلر لابنه: «أعطني الوثيقة يا سامي».

وأخذ الوصية من ابنه، وكان هذا يبدو مسرورًا بالحديث إلى حد مدهش، وقال للمحامي: «إن ما نطلبه يا سيدي هو إثبات صحة هذه الورقة».

وقال بل مصححًا: «تقصد ثبوت الوراثة يا سيدي، ثبوت الوراثة».

وأجاب المستر ويلر بحدة: «إثبات، ثبوت، كلاها سيان، وإذا كنت لا تفهم يا سيدي ما أقصد، فاسمح لي أن أقول إنني سأجد من يفهمني».

وقال بل بحكم واستكانة: «لا أقصد إساءة يا سيدي، لا إساءة»، وألقى نظرة على الورقة، وأضاف قائلًا: «يبدو لي أنك المنفذ».

وأجاب المستر ويلر: «نعم أنا يا سيدي».

وسأل بل وهو يبتسم ابتسامة التهنئة: «وأظن أن هؤلاء السادة الآخرين هم الورثة؟ أليس كذلك؟».

وأجاب المستر ويلر: «سامي وارث، أما هؤلاء السادة الآخرون، فهم أصدقائي جاءوا ليتأكدوا أن كل شيء يسير في الطريق الصحيح شبه محكمين».

وقال بل: «آه، جميل جدًّا، لا مانع عندي طبعًا، ولكني محتاج قبل ابتداء العمل إلى شيء كخمسة جنيهات مثلًا، ها! ها! ها!».

وبعد البحث قررت اللجنة أن لا مانع من دفع الجنيهات الخمسة

مقدمًا، فأخرج المستر ويلر المبلغ المطلوب، وتلت ذلك مشاورات طويلة في غير شيء معين، جعل المستر بل خلالها يثبت للسادة المحكمين ويبين لهم بصورة أرضتهم جميعًا وأقنعتهم كل الإقناع، أن المسألة كانت ستتعرض لتصرفات غير صحيحة، وتتخذ طريقًا غير مستقيم، لو لم يسند أمرها إليه، لأسباب لم يوضحها، ولكنها بلا شك أسباب كافية. وبعد أن انتهى المستر بل من هذه النقطة الخطيرة الشأن، انثنى ينعش نفسه، ويجدد نشاطه بثلاث شرائح من اللحم، وأشربة من نقيع الشعير- الجعة- وأخرى من الكحول، على حساب «التركة»، ثم انصرف الجميع إلى المحكمة.

وفي اليوم التالي عادوا إلى المحكمة أيضًا حيث حدث نزاع طويل مع سائس جيء به شاهدًا، وكان ثملًا فرفض أن يؤدي اليمين المصطلح عليها في هذه الحالات، وأبى إلا أن يقسم أقسامًا نابية، مما كان فضيحة أمام الوكيل ونائبه، وتعددت الزيارات للمحكمة في الأسبوع التالي، كما قصدوا مرة إلى إدارة ضريبة التركات، واقتضى ذلك تحرير أوراق وإقرارات للإذن بالتصرف والمصادقة عليه، وعمل «جردًا» لما في المحل من أمتعة ومنقولات واحتاج الأمر إلى غدوات تؤكل، ووجبات عشاء تقدم، وعدة أشياء نافعة تهيأ، وأكداس من الورق تجمع، حتى بلغ من ذلك كله أن أصبح المستر بل وصبيه والحقيبة الزرقاء من التضخم والسمن بحيث لم يعد أحد تقريبًا يعرف الرجل ولا الصبي ولا الحقيبة، ولطالما ترددا بها على شارع برتيوجل، منذ بضعة أيام.

وأخيرًا، وبعد إنجاز كل هذه المسائل الجسيمة تحدد يوم لبيع

الأسهم والسندات ونقل ملكيتها، ومقابلة السيد ويكلنز فلاشر السمسار في سوق الأوراق المالية، حيث يقيم في مكان مجاور للمصرف، وكان المستر سلمون بل هو الذي زكاه لهذا الغرض.

وكانت هذه المقابلة بمثابة عيد أو مهرجان، فتجمل القوم بأحسن ثيابهم، ومسح المستر ويلر حذاءه الطويل ونظفه، ونظم هندامه بعناية خاصة، ووضع الرجل المرقط في عروة ردائه زهرة كبيرة من نوع «الداليا» ذات عدة أوراق، كما زان السائقان الآخران ردائيهما بزهرات من الغار وغيره من أزاهر النباتات الدائمة الاخضرار، وقد بدا ثلاثتهم في ثياب الأعياد، أي أنهم اشتملوا بثياب ترتفع إلى الأذقان، ولبسوا أكبر قدر ممكن من الملابس، وهي الفكرة السائدة بين معاشر السائقين، عن قولنا «الزي الكامل» منذ اخترعت المركبات إلى يومنا هذا.

وكان المستر بل منتظرًا في المكان المعهود، والموعد المضروب، وكان هو كذلك قد لبس قفازًا وقميصًا نظيفًا بدا طوقه ونهاية كمه عند المعصم ناصلتين من كثرة الغسيل.

وقال بل وهو يتطلع إلى الساعة المعلقة فوق الجدار: «الساعة الآن الثانية إلا ربعًا، فإذا أمكننا أن نقابل المستر فلاشر في الساعة الثانية والربع، كان هذا أحسن الأوقات لمقابلته».

واقترح الرجل ذو الوجه المرقط: «ما قولكم أيها السادة في نهلة من الجعة؟».

وقال السائق الثاني: «وقطعة صغيرة من اللحم البارد».

وأضاف الثالث: «أو قليل من المحار» وكان هذا سيدًا خشن الصوت، ينهض على ساقين مفرطتين في الاستدارة.

وقال بل: «مرحى، مرحى! على سبيل الاحتفال بتهنئة المستر ويلر بمناسبة انتقال الملكية إليه. آه؟ ها! ها!».

وأجاب المستر ويلر: «أنا موافق جدًّا يا سادة، اضرب الجرس يا سامي».

وفعل سام ذلك، ولم تلبث أن جاءت الجعة واللحوم والمحار وأقبل القوم عليها فأدوا لها حقها من الإنصاف. ونحسب من الأمور المثيرة للاستياء أن يحدث شيء من التمييز، حين يكون كل مشترك في الطعام ناشطًا له مقبلًا عليه، ولكن إذا كان منهم أحد قد أظهر قوة أكبر من الآخرين، فقد كان ذلك الشخص هو السائق الخشن الصوت، فقد أخذ قدرًا بالغًا من الخل مع المحار دون أن ينم عن أقل تأثر أو انفعال.

وقال المستر ويلر وهو يحرك كأسًا من البراندي بالماء بعد أن وضع كأسًا منه أمام كل واحد منهم عقب إزالة محار الفارغ: «يا مستر بل سيدي، لقد كنت أعتزم أن أقترح نخب المال في هذه المناسبة، ولكن صموفيل همس لي قائلًا...».

وهنا صاح المستر صمويل ويلر، وكان قد أتى على نصيبه من المحار في صمت، قائلًا بابتسامات هادئة، وصوت مرتفع: «مرحى!».

وواصل والده حديثه قائلًا: «لقد همس لي قائلًا إنه من الخير أن نخصص الشراب لنخبك مع دعواتنا لك بالنجاح والتوفيق، ولشكرك

على الطريقة التي اتبعتها في إنهاء هذه المسألة على خير، فلنشرب في صحتك إذن يا سيدي».

وتدخل السيد ذو الوجه المرقط بغتة فقال بحماسة: «قف هنالك! وانظروا جميعًا نحوي أيها السادة!».

ونهض السيد ذو الوجه المرقط بعد أن فاه بتلك العبارة ونهض الجميع كذلك، واستعرض الوجوه، ورفع ببطء يده، وأخذ كل منهم حتى السيد المرقط الوجه، نفسًا طويلًا، ورفع كأسه إلى شفتيه. وفي الحال أنزل السيد ذو الوجه المرقط يده، وهبطت الأقداح في أثره على المائدة فارغة. ومن المستحيل وصف الأثر المدهش البالغ الذي أحدثه هذا الاحتفال العجيب، فقد جمع كل عناصر العظمة على ما حوى من روعة وجلال ووقار.

وأنشأ المستر بل يقول: «جميل جدًّا أيها السادة، وكل ما في وسعي أن أقوله إن هذه الأمارات الدالة على الثقة تسر بلا شك نفس رجل القانون وتثلج صدره، ولست أحب أن أقول شيئًا تشتم منه رائحة الأنانية أيها السادة، ولكني في غاية السرور من أجلكم لمجيئكم لي، هذا هو كل ما أريد أن أقول. واعتقادي الجازم أنكم لو كنتم ذهبتم إلى عضو من أصاغر رجال المهنة؛ لوجدتم أنفسكم حيارى في ضلال مبين، ولما وصلتم إلى هذا الاحتفال الذي نقيمه الآن، إنني أؤكد لكم ذلك بوصفه حقيقة وواقعًا، ولكم وددت لو أن صديقي اللورد كبير القضاة كان اليوم حيًّا فشاهد مبلغ إدارتي وحسن تصرفي في هذه القضية، ولست أقول ذلك عن تفاخر، ولكني أعتقد مع ذلك أيها السادة أنه لا يصح لي أن

أضايقكم بشيء من هذا القبيل، إنني هنا أيها السادة عادة إذا طلبتموني وجدتموني، فإذا لم أ كن هنا، ولا في الناحية الأخرى من الطريق، فهذا هو عنواني، وسترون أن أتعابي زهيدة ومعقولة، وأن ليس في وسط المحامين أحد أكثر رعاية لعملائه مني، وأرجو أن أكون على شيء من العلم بمهنتي أيضًا، فإن سنحت لكم فرصة لتزكيتي عند أحد من أصحابكم، كنت لكم من أصدق الشاكرين، وهم أيضًا حين يعرفونني، في صحتكم أيها السادة».

وبعد أن عبر بهذه الطريقة عن عواطفه وضع ثلاث بطاقات مكتوبة أمام أصحاب المستر ويلر، وعاد ينظر إلى ساعته، وقال إنه قد حان لهم أن ينصرفوا، وعلى أثر هذا التلميح دفع المستر ويلر الحساب، وانطلق الجميع- منفذًا ووريثًا ومحاميًا وشهودًا- صوب حي الأعمال في المدينة.

وكان مكتب السيد ولكنز فلاشر السمسار في سوق الأوراق المالية في الطبقة الأولى من عمارة خلف مصرف إنجلترا، بينما كانت داره في بركستون، وإسطبل حصانه ومركبته في موضع مجاور، وكان سائس المستر ولكنز فلاشر في طريقه إلى حي «وست إند» لتسليم بعض القنائص التي جمعت من الصيد، وكان كاتب المستر ولكنز فلاشر قد ذهب لتناول الغداء، فلم يكن ثمة أحد غير المستر ولكنز فلاشر في المكتب حين دق المستر بل وصحبه الباب، فصاح بنفسه قائلًا: «ادخل».

وقال بل: وهو ينحني انحناء ظاهرًا: «طاب صباحك يا سيدي، نريد أن ننفذ شيئًا من التحويل إذا تفضلت».

وقال المستر فلاشر: «آه! تفضلوا ادخلوا، اجلسوا لحظة، سأتفرغ لكم حالًا».

وقال بل: «شكرًا لك يا سيدي، لا مدعاة للعجلة، خذ لك كرسيًّا يا مستر ويلر».

واتخذ هذا كرسيًّا، واختار سام صندوقًا، وتناول المحكمان ما استطاعا أن يجداه وراحوا جميعًا يتطلعون إلى التقويم المعلق فوق الجدار وجريدة أو جريدتين كانتا معلقتين فوقه كذلك، وهم جاحظو الأعين من الإكبار كأن الجريدتين من أروع رسوم العباقرة الخالدين.

وقال المستر ولكنز فلاشر، مواصلًا الحديث الذي كان المستر بل قد قطعه بدخوله إلى حين: «إني لمستعد أن أراهنك عليه بست من زجاجات النبيذ الأحمر-الكلاريت- إذا شئت المراهنة».

وكان هذا القول موجهًا إلى شاب رشيق يضع قبعته على اليمين من رأسه، وهو منحن فوق المكتب يقتل الذباب بالمسطرة، بينما كان السيد ولكنز فلاشر يوازن نفسه فوق ساقي مقعد طويل، ويطعن بسن المبراة علبة ورق اللصق، فينفذ السن بين لحظة وأخرى ببراعة بالغة في وسط ورقة صغيرة حمراء لاصقة خارج العلبة، وكان كل من السيدين يرتدي صدارًا مفتوحًا وطوقًا مستديرًا وحذاء صغيرًا، ويلبس خواتم كبيرة، وساعة دقيقة الحجم وسلسلة ضخمة، وكل هندامه آية في التناسق، ومناديله عباقة برائحة زكية.

وقال الآخر: «أنا لا أراهن أبدًا بست زجاجات، ولكني أقبل

المراهنة باثنتي عشرة».

وأجاب السيد ولكنز فلاشر: «وأنا قابل يا سمري، اتفقنا!».

وقال الآخر: «من النوع الأصيل».

وأجاب ولكنز فلاشر: «طبعًا»، ودوّن الرهان في دفتر صغير له ممسك قلم ذهبي، كما دوّنه الآخر في دفتر مماثل ذي ممسك قلم ذهبي كذلك.

وقال المستر سمري: «لقد رأيت في هذا الصباح إعلانًا عن «بفر»، يا للشيطان المسكين! لقد فصلوه من المحل».

وقال المستر ولكنز فلاشر: «أراهنك بعشرة جنيهات لخمسة على أنه سيقطع رقبته».

وأجاب المستر سمري: «وأنا قبلت الرهان».

وقال المستر ولكنز فلاشر، وقد لاحت عليه علائم التفكير: «قف! أنا مستدرك، فمن الجائز أن يشنق نفسه».

وأجاب المستر سمري وهو يخرج ممسك القلم الذهبي مرة أخرى: «حسن جدًّا، لا مانع عندي من مجاراتك في هذا السبيل، لنقل مثلًا إن الرهان على أنه «سيتخلص» من نفسه».

وقال المستر ولكنز فلاشر: «سيقتل نفسه في الحقيقة».

وأجاب المستر سمري: «وهو كذلك، ولنقيد الرهان على هذا الشرط- وأخذ يكتب: فلاشر عشرة جنيهات لخمسة، الرهان: بوفر

سيقتل نفسه، والآن لنتفق على المدة التي سيقتل فيها نفسه».

واقترح المستر ولكنز فلاشر: «أسبوعين».

وقال المستر سمري، وقد وقف عن الكتابة لحظة ليقتل ذبابة بالمسطرة: «لعنة الله، كلا لنقل أسبوعًا».

وقال المستر ولكنز فلاشر: «لنقسم الفرق قسمين فنقول عشرة أيام».

وأجاب المستر سمري: «لتكن عشرة أيام».

ودوَّن الرجلان في دفتريهما الصغيرين القول: بأن بفر سيقتل نفسه في غضون عشرة أيام، أو يدفع المستر ولكنز فلاشر إلى المستر فرانك سمري مبلغ عشرة جنيهات، وإذا قتل بوفر نفسه في هذه المدة فيدفع المستر فرنك سمري خمسة جنيهات إلى المستر ولكنز فلاشر بدلًا من العشرة.

وقال المستر ولكنز فلاشر: «إنني متأسف جدًّا لإفلاسه، لقد كان يقيم مآدب فاخرة».

وقال المستر سمري: «ونبيذ معتق أيضًا، وسنرسل ساقينا غدًا إلى المزاد؛ ليلتقط لنا بعض الزجاجات التي تسمى ٦٤».

وقال المستر ولكنز فلاشر: «يا لك من شيطان، إن الساقي الذي في خدمتي ذاهب كذلك، أراهنك بخمسة جنيهات على أن خادمي سيزايد على خادمك».

وقال الآخر: «وأنا قبلت الرهان».

ودوَّن الرهان الجديد في الدفترين الصغيرين بالقلمين ذوي الممسكين الذهبيين، وكان المستر سمري عندئذ قد «قتل» كل الذباب، ودوَّن كل الرهان، فانطلق إلى المصفق ليرى سير المضاربات.

وهنا تواضع المستر ولكنز فلاشر فاستمع لطلبات المستر سلمون بل، وبعد أن ملأ بعض الأوراق المطبوعة، طلب إلى الجمع أن يتبعوه إلى المصرف، ففعلوا، وكان المستر ويلر وأصحابه الثلاثة محملقي الأبصار في كل ما يمر بهم في دهشة لا حد لها، بينما كان سام يقابل كل شيء بهدوء لا يزعجه مزعج.

واجتازوا فناء يعج جلبة وصخبًا وحركة، ومروا باثنين من البوابين يناسب زيهما آلة إطفاء الحريق الحمراء التي كانا يدفعانها على عجلاتها إلى ركن فيه، حتى دخلوا إلى المكتب الذي سينجز فيه عملهم، حيث تركهم بل والمستر فلاشر وقوفًا بضع لحظات، ريثما صعدا إلى إدارة الوصايا.

وهمس ذو الوجه المرقط للمستر ويلر الكبير: «ما هذا المكان؟».

وأجاب منفذ الوصية مخافتًا بصوته: «مكتب المستشار».

وسأل السائق الأجش الصوت: «ومن هؤلاء السادة الجلوس خلف المنصات؟».

وأجاب المستر ويلر: «هؤلاء فيما أظن هم الذين يقال عنهم صغار المستشارين، أليس كذلك يا صموفيل؟».

وسأله سام باحتقار: «هل تظن أن صغار المستشارين أناس أحياء

يأكلون ويشربون؟».

وأجاب المستر ويلر: «ومن أين لي أن أعرف، لقد حسبت أنهم يشبهون هؤلاء، ومن هم إذن؟».

وأجاب سام: «هؤلاء هم الكتبة».

وسأل الوالد: «ولماذا تراهم جميعًا يأكلون الشطائر؟».

وأجاب سام: «لأن ذلك واجبهم، وجزء من النظام ذاته، وهم يفعلونه هنا على الدوام، طول النهار!».

وما كاد المستر ويلر وأصحابه يقضون لحظة في التفكير في هذا النظام الفريد الذي يتصل بالحركة المالية في البلاد، حتى وافاهم بل والمستر فلاشر، فاقتاداهم إلى ناحية من المنصة كتب فوقها على لوح أسود مستدير الحرف «و» بشكل ظاهر.

وهنا قال المستر ويلر وهو يلفت نظر بل إلى ذلك اللوح: «لماذا يضعون هذا الحرف فوق ذلك اللوح؟».

وأجاب بل: «هذا هو الحرف الأول من اسم المتوفاة».

والتفت المستر ويل إلى المحكمين فقال: «اسمعوا هنا شيء خطأ، إن «الواو» هي اسمنا نحن، هذا لا ينفع».

وقرر الحكام من فورهم أن الإجراءات لا يمكن أن تتخذ تحت حرف «الواو»، وكان أكبر الظن أن المسألة كانت ستتأخر وتتعطل يومًا آخر على الأقل، لولا تلك المبادرة، التي قد تبدو لأول وهلة سلوكًا جافيًا من جانب ولد في حق والده، فقد بادر سام فأمسك والده من ذيل سترته

وجذبه إلى المنصة واحتجزه أمامها حتى انتهى من إثبات توقيعه على وثيقتين، وكانت عملية التوقيع بالنسبة لما اعتاده المستر ويلر من كتابة الحروف غليظة كالمطبعة، مسألة شاقة وتستغرق وقتًا وجهدًا، حتى لقد استطاع الكاتب المختص تقشير ثلاث تفاحات وأكلها في الفترة التي قضاها المستر ويلر في الإمضاء.

وأصر المستر ويلر الكبير على بيع نصيبه في الحال، فانتقلوا من المصرف إلى سوق الأوراق المالية فوقفوا بالباب الخارجي، وهنا غاب المستر ولكنز فلاشر لحظة ثم عاد يحمل صكًّا على مصرف سميث- بين سميث بمبلغ خمسمائة وثلاثين جنيهًا، وهو القدر الذي يستحقه المستر ويلر بسعر السوق من رصيد المال الذي ادخرته زوجته الثانية، بينما تم تحويل المائتي جنيه نصيب سام إلى اسمه، ولم يكد المستر ولكنز فلاشر يتناول عمولته، ويلقي بالمال في جيبه بغير اكتراث، حتى عاد أدراجه إلى مكتبه.

وكان المستر ويلر في مبدأ الأمر مصرًّا على صرف الصك جنيهات ذهبية، رافضًا قبول شيء سواها، ولكن الحكمين أفهماه أن هذا سيقتضي دفع نفقات «زكيبة» صغيرة لحملها فيها إلى البيت، فرضي أخيرًا قبول المبلغ أوراقًا من فئة الخمسة الجنيهات.

وقال المستر ويلر وهم منصرفون من المصرف بعد قبض المال: «إن لدينا أنا وابني موعدًا خاصًّا في عصر اليوم، وأحب أن أنهي هذه المسألة وأغسل يدي منها، فلنذهب إلى مكان ما حيث نستطيع تصفية الحساب».

ولم يلبثوا أن اهتدوا إلى غرفة هادئة، وتم البحث في الحسابات ومراجعتها، وتولى سام دفع حساب «بل»، وقام الحكمان «بشطب» بعض المفردات، وعلى الرغم من أن المستر بل قد صرح عقب توكيدات وأيمان أنهم كانوا في المراجعة قساة في الواقع عليه، فإن هذه «العملية» كانت أحسن عملية قانونية أتيحت يومًا له، وقد عاش بعدها ستة أشهر ينفق منها على مسكنه وطعامه وغسيل ملابسه.

وتناول الحكمان كأسًا، وتصافحا ثم انصرفا فقد كان لا بد لهما أن يخرجا بعرباتهما من المدينة في تلك الليلة، ورأى المستر سلمون بل، أنه لم تبق ضرورة له، وليس ثمة أكل ينتظر ولا شرب، فاستأذن بكل أدب في الانصراف، وترك سام ووالده وحدهما.

وهنا قال المستر ويلر وهو يدس محفظته في الجيب الخلفي: «والآن! إذا أضفنا هذا المبلغ إلى المبلغ الذي اجتمع من المحل كانت الجملة ألفًا ومائة وثمانين جنيهًا، فهيا بنا يا صموفيل يا بني، فلنول وجهينا شطر فندق جورج والرخم!».

* * *

الفصل السادس والخمسون

اجتماع خطير بين المستر بكوك وبين صمويل ويلر بحضور والده..
ووصول سيد عجوز في ثوب بني اللون فجأة

وكان المستر بكوك جالسًا بمفرده يفكر في أشياء كثيرة، ومن بينها كيف يتسنى له أن يكفل أحسن الوسائل لضمان مستقبل العروسين، فقد ظل موقفهما المضطرب موضع أسف بالغ في نفسه وقلق دائم، وإذا ميري تدخل الغرفة بخفة ورفق، وتتقدم إلى المنضدة، فتقول في شيء من العجلة أن صمويل يا سيدي في الطابق الأسفل، وهو يسأل هل تتفضل فتأذن في مقابلة أبيه؟

وأجاب المستر بكوك: «بكل تأكيد».

وقالت ميري وهي تمشي إلى الباب: «شكرًا لك يا سيدي».

وسأل المستر بكوك: «وهل عاد سام من وقت طويل؟».

وأجابت ماري بلهفة: «كلا يا سيدي، لقد وصل منذ لحظة وهو يقول إنه لا ينوي أن يطلب إجازة أخرى بعد الآن».

ولعل ميري قد أدركت أنها فاهت بهذه العبارة الأخيرة في حماسة

أكثر مما يجب فعلًا، أو لعلها قد فطنت إلى الابتسامة اللطيفة التي كان المستر بكوك ينظر بها إليها، حين فرغت من قولها، ولكن المؤكد أنها أطرقت وجعلت تفحص ركن مبذلتها الرشيقة الصغيرة فحصًا أدق مما يبدو أن الحاجة تدعو إليه.

وقال المستر بكوك: «نبئيهما أن في إمكانهما المجيء إلى هنا في الحال».

وبدا على الفتاة الارتياح للخلاص من هذا الموقف، فأسرعت منصرفة لإبلاغ رسالتها.

وانثنى المستر بكوك يروح في الحجرة ويغدو مرتين أو ثلاثًا، وعرك ذقنه بيسراه، وهو يبدو مستغرقًا في التفكير.

وراح يقول لنفسه بعد لحظة بصوت رفيق، وإن كان حزينًا إلى حد ما: «جميل، جميل، هذه هي أحسن وسيلة لمجازاته على إخلاصه لي ووفائه، فليكن ذلك إذن على بركة الله، فذلك هو مصير كل شيخ وحيد، كل الذين من حوله ينشئون علاقات جديدة، وصلات مختلفة، ويتركونه في النهاية وحده، ولا يحق لي أن أتوقع شيئًا غير ذلك»، وهنا أردف يقول وهو أكثر تهللًا وابتسامًا: «كلا، كلا، إن توقع أكثر من هذا أثرة، وجحود، وكفر بالصنيع، أولى بي أن أغتبط وأهنأ أن تواتت لي الفرصة لكي أطمئن على مصيره هو كذلك، إني بلا ريب لمغتبط سعيد».

وفيما كان المستر بكوك مستغرقًا في هذه الخواطر ونحوها، دق الباب ثلاثًا أو رباعًا قبل أن ينتبه إلى دقاته، وما كاد يجلس ويستعيد

إشراقه وتهلل أساريره كعادته، حتى أذن للقادمين في الدخول، فدخل سام يتبعه والده.

وبادره المستر بكوك قائلًا: «يسرني أن أراك قد عدت يا سام، كيف حالك يا مستر ويلر؟».

وأجاب الشيخ الأرمل: «بخير، وشكرًا يا سيدي، أرجو أن تكون بعافية يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك: «كل العافية، أشكرك».

وقال المستر ويلر: «لقد أردت أن أتحدث إليك قليلًا يا سيدي، إذ كان في الإمكان أن تستغنى عن خمس دقائق أو نحوها لسماع قولي يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «بكل تأكيد. يا سام، قدم إلى والدك كرسيًّا».

وقال المستر ويلر: «شكرًا يا صموفيل، ها هو الكرسي هنا، وراح يحمل مقعدًا بنفسه، ويقول وهو يضع قبعته على أرض الغرفة، حين اتخذ مجلسه: «إن اليوم لصاف بشكل غير مألوف يا سيدي».

وأجاب المستر بكوك: «إنه لكذلك إلى حد بديع، يوم لطيف حقًّا مناسب لهذا الفصل من السنة».

وقال المستر ويلر: «أنسب جو رأيته في حياتي يا سيدي».

وهنا انتابت الشيخ نوبة سعال شديد، لم تكد تفارقه، حتى مضى يهز رأسه ويغمز بعينيه ويبدي عدة إشارات توسل وحركات تهديد ووعيد لابنه، ظل سام ويلر ممتنعًا عن رؤيتها في عناد وإصرار.

وأدرك المستر بكوك أن الشيخ مرتبك، فتظاهر بأنه منشغل بقطع حواف صفحات كتاب كان موضوعًا بجانبه، وانتظر مليًّا حتى يصل المستر ويلر إلى الإفصاح عن غرضه من زيارته.

وقال المستر ويلر وهو ينظر بغضب إلى ابنه: «ما رأيت في حياتي ولدًا قاسيًا مثلك يا صموفيل، ولا ابنًا شنيعًا بهذا الشكل».

وسأل المستر بكوك: «ماذا فعل يا مستر ويلر؟».

وأجاب الوالد: «إنه لا يريد أن يبدأ الكلام يا سيدي، وهو يعرف أنني عاجز عن التعبير عما أريد، عندما تكون هناك مسألة تحتاج إلى العمل، بل يقف وينظر إليَّ وأنا جالس هنا، مضيع شيئًا من وقتك الثمين، ويجعلني هدفًا للمشاهدة، بدلًا من أن يسعفني ولو بحرف واحد، هذا عقوق يا صموفيل» وهنا انثنى يمسح عرقه ويسترسل: «ليس هذا برًّا من الأبناء بآبائهم مطلقًا!».

وأجاب سام: «لقد قلت إنك ستتكلم، فمن أين لي أن أعرف أنك انتهيت قبل أن تبتدئ؟».

وأجاب الوالد: «كان في إمكانك أن ترى أنني قد عجزت عن الابتداء، إنني سائق على الجانب الخاطئ وداخل على الحواجز، ومرتبك، ومع ذلك كله لا تمد يدك لمساعدتي، أنا خجلان منك يا صموفيل».

وقال سام وهو ينحني انحناءة خفيفة: «الحقيقة يا سيدي أن المعلم سحب ماله».

وقال المستر ويلر وهو يهز رأسه مرتاحًا راضيًا: «حسن جدًّا يا صموفيل، حسن جدًّا، لم أكن أقصد الكلام بشدة معك يا سامي، حسن جدًّا، هذا هو المطلع الحسن الذي يصح الابتداء به، هيا إذن ادخل في الجد حالًا، جميلٌ جدًّا يا صموفيل».

وانثنى المستر ويلر يكرر هز رأسه عددًا غير مألوف من المرات، للتعبير عن فرط ارتياحه وسروره، وانتظر مرهفًا سمعه لابنه حتى يواصل الكلام.

وقال المستر بكوك مشفقًا من أن يطول الحديث أكثر مما كان ينتظر: «اجلس يا سام!».

وعاد سام ينحني ثم جلس، وبينما راح أبوه يتلفت حوله، مضى هو يقول: «إن المعلم سحب يا سيدي خمسمائة وثلاثين جنيهًا».

وهمس المستر ويلر الكبير قائلًا: «بفئات مخفضة».

وقال سام: «لا يهم كثيرًا أنها بفئات مخفضة أو غيرها، المبلغ هو خمسمائة وثلاثون جنيهًا، أليس كذلك؟».

وأجاب المستر ويلر: «هو كذلك يا صموفيل».

ومضى سام يقول: «كما أضاف إلى هذا المبلغ ثمن المحل ونفقات العمل».

وأردف أبوه في أثره: «والإيجار، وخلو الرجل، والبضاعة، والأخشاب، والمنقولات».

وأكمل سام الحساب بقوله: «يعني في الجملة ألفًا ومائة وثمانين جنيهًا».

وقال المستر بكوك: «أحقًّا؟ يسرني أن أسمع هذا، وأهنئك يا مستر ويلر بهذا التوفيق».

وقال المستر ويلر وهو يرفع يده دلالة على الاستنكار: «انتظر لحظة يا سيدي، استمر يا صموفيل!».

وقال سام في شيء من التردد: «وهو يريد أن يضع هذا المبلغ في حرز حريز، أو مكان أمين، وهذه هي رغبتي أنا أيضًا؛ لأنه إذا تركه لديه فسوف يذهب يقرض الناس، أو يستثمره في اقتناء الخيول، أو يضيع أغلبه فيما لا يفيد أو يتحول إلى مومياء فرعونية بأي شكل كان».

وقال المستر ويلر مسرورًا كأن سام يشيد بحكمته، ويمتدح بعد نظره أكبر المديح: «جميل جدًّا يا صموفيل، جميل جدًّا».

واستتلى سام، وهو يشد بعصبية حافة قبعته: «ولهذه الأسباب قبض المبلغ اليوم، وجاء إلى هنا معي ليقول، أو على الأقل ليعرض، أو بعبارة أخرى لكي.....».

وهنا عاجله المستر ويلر الكبير وقد نفد صبره فقال: «لكي أقول هذا: وهو أن المبلغ لا نفع لي منه؛ لأنني عازم على الرجوع إلى سوق المركبات العامة بانتظام، ولا أجد مكانًا أحفظه فيه إلا إذا دفعت لحارس المركبة أجرًا على حراسته، أو وضعته في أحد جيوب المركبة، فيكون ذلك إغراء للركاب الجالسين في جوفها، فإذا تكرمت يا سيدي فحفظته لي عندك، كنت لك من الشاكرين». وهنا تقدم إلى المستر بكوك وهمس له في أذنه: «ربما يساعد قليلًا على مصاريف ذلك الخكم، وكل ما أريد أن أقول هو أن تحفظه لديك إلى أن أطلبه». وراح المستر ويلر يضع

محفظة جيبه في يدي المستر بكوك، وتناول قبعته، وجرى منصرفًا من الغرفة بخفة قلما تنتظر من شيخ بدين مثله.

وصاح المستر بكوك بجد قائلًا: «أمسكه يا سام، ألحق به. أعده في الحال! يا مستر ويلر، تعال، ارجع!».

وتبين سام أن لا سبيل إلى مخالفة الأمر، فأمسك أباه من ذراعه، وهو يهبط السلم وسحبه بالقوة والإكراه.

وقال المستر بكوك وهو يتناول الشيخ من يده: «يا صديقي الكريم، إن ثقتك الصادقة بي لتتملك نفسي وتطغى على مشاعري».

وأجاب المستر ويلر بعناد: «لا أرى داعيًا إلى شيء كهذا يا سيدي».

وقال المستر بكوك: «أؤكد لك يا صديقي الكريم أن لدي من المال ما لا حاجة لي يومًا به، بل أكثر مما يجوز لشيخ في مثل سني أن يعيش حتى ينفقه».

وقال المستر ويلر: «لا يعرف أحد كم في إمكانه أن ينفق حتى يجرب».

وأجاب المستر بكوك: «ربما، ولكني لست أنوي تجربة شيء كهذا، وأكبر ظني أنني لهذا السبب لن أحتاج، ولهذا أرجوك أن تسترد مالك يا مستر ويلر».

وقال المستر ويلر بنظرة استياء: «حسن جدًّا، اسمع مني يا سامي، إنني سأفعل بهذا المال فعل المتهور البائس، إي والله مثل المتهور البائس».

وأجاب سام: «خير لك ألا تفعل».

وفكر المستر ويلر لحظة قصيرة، ثم زر رداءه بعزم بالغ، واستتلى يقول: «سأفتح موقف مرور».

وصاح سام مندهشًا: «تفتح ماذا؟».

وأجاب المستر ويلر وهو مطبق أسنانه: «موقف مرور! سأقف بجوار مكان العوائد، فودع يا صموفيل أباك، فإني سأكرس بقية أيامي في مكان العوائد».

وكان هذا النذير مروعًا كل الترويع، كما بدا المستر ويلر صادق العزيمة على تنفيذه، بعد أن تأثر أشد التأثر من رفض المستر بكوك إجابته إلى سؤاله، حتى اضطر الشيخ بعد التفكير في الأمر لحظة، إلى مراجعة قراره، فقال: «حسن، حسن يا مستر ويلر، سأحفظ المبلغ لديَّ، وفي وسعي أن أفعل به خيرًا مما قد يكون في وسعك أنت».

وتهلل وجه المستر ويلر وقال: «هذا هو الكلام البديع، في إمكانك طبعًا يا سيدي».

وقال المستر بكوك، وهو يضع المحفظة في الدرج ويقفله: «انتهينا، فلنتحدث في شيء آخر، إنني شاكر لك من كل قلبي يا صديقي الكريم، والآن اجلس، فإني أريد أن أسألك نصيحة».

ولم يلبث الضحك الذي انبعث في صدره من نجاته وانتصاره في هذه الزيارة، ذلك الضحك الذي لم يقتصر أثره العصبي على وجهه، بل جاوزه إلى ذراعيه وساقيه، وجميع أجزاء بدنه، وهو يشهد المستر بكوك

يضع المحفظة في الدرج ويقفله، أن تحول فجأة إلى وقار شديد، حين سمع تلك العبارة الأخيرة.

وقال المستر بكوك: «انتظر في الخارج لحظة يا سام من فضلك».

وانسحب سام في الحال.

وبدا المستر ويلر حكيمًا متزنًا على غير عادته، ولاحت أمارات الدهشة الشديدة عليه، حين بدأ المستر بكوك الحديث بقوله: «لا أظنك يا مستر ويلر نصيرًا لفكرة الزواج. أليس كذلك؟».

وهز المستر ويلر رأسه، وعجز عن الكلام عجزًا تامًا، وتمثلت له أخيلة وأفكار غامضة عن أرملة شريرة عرفت كيف تغرر بالمستر بكوك، وتنجح في خداعه فكاد يختنق، ولا يحير قولًا.

وقال المستر بكوك: «ألم تصادف في طريقك إلى هنا مع ولدك فتاة صغيرة».

وأجاب المستر ويلر باقتضاب: «نعم رأيت فتاة صغيرة».

قال: «وما رأيك فيها الآن؟ أجب بصراحة يا مستر ويلر، ما رأيك فيها؟».

قال بلهجة الناقد: «أعتقد أنها بضة جدًّا، وحسنة الصورة».

وأجاب المستر بكوك: «هي كذلك، وما رأيها في أدبها وسلوكها، كما يدل عليها ما رأيته منها؟».

وأجاب المستر ويلر: «لطيفة جدًّا ومريحة».

ولم يظهر المعنى الذي أراده المستر ويلر بهذه الصفة الأخيرة التي ذكرها، ولكن كان الواضح من اللهجة التي قيلت بها أنها تعبير عن رضى، فاكتفى المستر بكوك بذلك واستنار من حيث الموضوع.

وقال: «إنها تهمني كثيرًا يا مستر ويلر».

وسعل المستر ويلر.

ومضى المستر بكوك يقول: «أقصد أنني مهتم بمستقبلها، وأود أن تتوافر لها الراحة والرفاهية والرغد، هل فهمت مرادي؟».

وأجاب المستر ويلر: «بكل وضوح» وإن لم يفهم بعد شيئًا.

وعاد المستر بكوك يقول: «إن هذه الفتاة متعلقة بابنك».

وصاح الوالد: «بصموفيل ويلر؟».

وأجاب المستر بكوك: «نعم».

وقال المستر ويلر بعد تفكير قصير: «طبيعي، طبيعي وإن كان مزعجًا، لا بد لسامي من الحرص والاحتياط».

وسأل المستر بكوك: «وماذا تقصد بهذا؟».

وأجاب الشيخ: «يجب أن يكون حريصًا فلا يقول لها شيئًا، ومحاذرًا فلا ينساق معها في لحظة بريئة فيقول ما قد يؤدي به إلى الاتهام بخلف الوعد. إن الرجل منا لا يأمن يومًا على نفسه منهن يا مستر بكوك إذا هن قصدن الكيد له، وأنت لا تدري كيف تملكهن، وبينما أنت تفكر كيف يتم لك امتلاكهن، يكن هن قد امتلكنك، وأنا نفسي يا سيدي قد تزوجت

بهذا الشكل أولًا، وجاء سامي ابني ثمرة تلك الحركات».

وقال المستر بكوك: «إنك لا تشجعني كثيرًا على الانتهاء مما أردت أن أقوله، ولكن يحسن بي أن أتمه في الحال، إن هذه الفتاة ليست فقط متعلقة بابنك يا مستر ويلر، ولكن ابنك أيضًا متعلق بها».

وقال المستر ويلر: «والله إن هذا لخبر عجيب يطرق أذن والد، حقًّا إنه لكذلك».

وأجاب المستر بكوك دون تعليق على عبارة المستر ويلر الأخيرة: «لقد لاحظتهما في عدة مناسبات، ولا يخامرني أي شك في حقيقة أمرهما، فافرض أنني راغب في ربطهما برباط الزوج والزوجة، ومساعدتهما على الاستقرار في عمل ما، أو وضع، يرجى أن يعيشا منه عيشة راضية، فما قولك في هذا يا مستر ويلر؟».

وتلقى المستر ويلر في أول الأمر فكرة زواجٍ من يهتم بأمره، ويحرص على مصيره، بتصعير الوجه وتقليب السحنة اشمئزازًا واستنكارًا، ولكن المستر بكوك مضى يحاجه في هذه النقطة، ويردد القول بأن ميري ليست أرملة، وما زال به حتى أخذ شيئًا فشيئًا يلين ويسلس قياده، ذلك أن المستر بكوك له كثير من السيطرة على مشاعره، وكان المستر ويلر نفسه قد تأثر من قبل بجمال ميري وحسن منظرها، بل كان في الواقع قد غمز لها بعينيه غمزات أنفى ما تكون للأبوة، فلم يسعه أخيرًا إلا أن يقول إنه لا يستطيع معارضة أمر يرتضيه المستر بكوك ويميل إليه، وأنه يسعده كل الإسعاد أن ينزل على نصيحته، فما إن سمع المستر بكوك ذلك منه حتى بادر في فرح

شديد إلى أخذه بكلامه، ودعوة سام إلى المثول في حضرته.

وقال المستر بكوك وهو يستعد للكلام: «اسمع يا سام، لقد كنت أنا ووالدك نتحدث عنك».

وقال المستر ويلر بلهجة الرعاية والعطف والتوكيد: «نعم، عنك يا صموفيل».

واستتلى المستر بكوك: «لست أعمى يا سام إلى الحد الذي يمكن أن يقال إنني لم أشهدك منذ عهد بعيد تطوي الجوانح على شيء أكثر من مجرد الشعور الودي نحو وصيفة مسز ونكل».

وقال المستر ويلر بعين اللهجة الأولى، كأنه قاض يحكم في قضية: «هل سمعت هذا يا صموفيل؟».

وأجاب سام موجهًا القول إلى سيده: «أرجو يا سيدي ألا يكون ثمة بأس في اهتمام شاب بفتاة لا ينكر أحد عليها أنها حسنة الشكل والسير والسلوك».

وقال المستر بكوك: «لا بأس طبعًا».

وقال المستر ويلر بلطف ولكن بعظمة وجلال: «لا بأس مطلقًا».

واستتلى المستر بكوك: «حاشا أن أفكر في استنكار سلوك طبيعي كهذا، ولكني أريد أن أساعد في تحقيق رغباتك في هذا الشأن، ولهذا تحدثت قليلًا مع أبيك ووجدت أنه يرى رأيي..».

وقاطعه المستر ويلر قائلًا على سبيل التفسير: «ما دامت السيدة غير أرملة».

وتبعه المستر بكوك قائلًا وهو يبتسم: «ما دامت السيدة غير أرملة، فإني أريد أن أطلقك من القيد الذي يفرضه عليك مركزك الحالي، وأبين لك حقيقة شعوري وتقديري لإخلاصك وسجاياك الكثيرة، بتمكينك من الزواج بهذه الفتاة في الحال، وكسب رزقك ورزق أسرتك في حرية واستقلال»، وهنا اضطرب صوت المستر بكوك وتلعثم منطقه قليلًا، ولكنه أردف يقول بصوته المألوف: «وسأعتز وأهنأ يا سام بأن أجعل مستقبلك وآمالك في الحياة موضع عنايتي الخاصة ومظهر شعوري بالعرفان».

وساد سكون، وما لبث سام أن قال بصوت خافت متهدج، ولكنه قوي ثابت: «إنني شاكر لك يا سيدي أجزل الشكر كرمك الخليق بمثلك، ولا شبيه له بين الناس، ولكن هذا لا يمكن».

وصاح المستر بكوك في دهشة: «لا يمكن!».

وصاح مستر ويلر في مهابة: «يا صموفيل!».

وكرر سام قوله بصوت أكثر ارتفاعًا من ذي قبل: «نعم، يا سيدي أقول إن هذا غير ممكن، ماذا سيكون مصيرك أنت يا سيدي؟».

وأجاب المستر بكوك: «إن التغيرات التي حدثت أخيرًا يا صديقي العزيز بين أصحابي ستغير أسلوبي في الحياة كل التغيير، ثم إنني بدأت أشيخ، وأحتاج إلى الراحة والهدوء، لقد انتهت يا سام جولاتي في العالم ومطافي».

وقال سام في لغة المنطق، ولهجة الحوار: «من أين أعرف هذا

يا سيدي، إن هذا هو تفكيرك الآن، ولكن افرض أنك غيرت رأيك، وهو شيء غير بعيد؛ لأنك لا تزال تحيا بروح الخامسة والعشرين وشبابها، فما عسى أن يكون مصيرك من غيري؟ إن هذا غير ممكن يا سيدي، غير ممكن».

وقال المستر ويلر مشجعًا: «جميل جدًّا يا صموفيل، إن في هذا لحكمة بالغة».

وقال المستر بكوك وهو يهز رأسه: «لقد تكلمت بعد طول التروي والتفكير يا سام، وبالثقة الأكيدة أني سأبر بعهدي، وأحرص على كلمتي، لقد أطبقت على مشاهد جديدة ووصلت جولاتي إلى آخرها».

وأجاب سام: «جميل جدًّا، ولكن هذا هو أقوى داع يقتضي أن يكون بجانبك أحد يفهمك ويواسيك ويوفر لك أسباب الراحة، أما إذا كنت تريد شخصًا أكثر صقلًا وألمع بريقًا، فلا مانع لدي، اتخذ من ترى، واختر من تشاء، ولكن بصرف النظر عن الأجر أو دونه، والمهلة أو بغيرها، والغداء أو لا غداء، والسكن أو غير السكن، سيبقى سام ويلر الذي استأجرته من الفندق القديم في الضاحية، بجانبك وفي جوارك، مهما يكن من شيء، فدع كل شيء، وكل إنسان، يفعل ما هو فاعل، ويقض ما هو قاض، ولتأت الأحداث بأسوأ السوء، فلن يثنيني شيء عن عزمي!».

وما كاد سام ينتهي من هذا البيان الذي ألقاه وهو في أشد حالات التأثر والانفعال، حتى نهض المستر ويلر من مقعده، ناسيًا كل اعتبارات

الزمان والمكان واللياقة وراح يلوح بقبعته فوق رأسه، ويهتف ثلاثة هتافات مدوية.

وقال المستر بكوك حين عاد المستر ويلر إلى مجلسه خجلان مستحييًا من حماسته: «ولكنك يا صديقي العزيز مضطر حتمًا إلى التفكير في هذه الشابة أيضًا».

وأجاب سام: «لقد فكرت فعلًا فيها يا سيدي، وتكلمت معها، وشرحت لها موقفي، وهي مستعدة أن تنتظر حتى أستعد أنا الآخر، وأعتقد أنها ستنتظر، فإن لم تفعل فليست بالمرأة التي أتطلع إليها، ولن أتردد في التخلي عنها، لقد عرفتني من قبل يا سيدي، ولقد عقدت عزمي، فلن يثنيني عنه مُثْنٍ».

ومنذا الذي يستطيع أن يغالب ذلك العزم؟ ليس في مقدور المستر بكوك أن يفعل، فقد أحس في تلك اللحظة من الاعتزاز وسمو الأحاسيس والاعتداد بهذه العلاقة المجردة من الغرض، هذا التفاني البريء من جانب صديقيه الصغيري الشأن ما لا تستطيع أن تثيره في أعماق فؤاده عشرة آلاف اعتراض من أكبر العظماء في هذه الحياة.

وبينما كان هذا الحديث يدور في غرفة المستر بكوك، وصل إلى الفندق شيخ قصير القامة نحيف في ثياب بنية اللون، يتبعه حمال يحمل حقيبة سفر صغيرة، فاحتجز غرفة للمبيت، وسأل غلام الفندق هل تنزل به سيدة تدعى مسز ونكل، فكان رد الغلام طبعًا بالإيجاب.

وسأل الشيخ الصغير الجسم: «وهل هي وحدها؟».

وأجاب الغلام: «أعتقد ذلك يا سيدي، وفي إمكاني أن أدعو إليك وصيفتها إذا...».

ولكن الشيخ أجاب في عجلة: «كلا، لا أريدها، بل خذني إلى غرفتها دون ذكر اسمي».

وقال الغلام: «ماذا يا سيدي؟».

وسأل الشيخ: «هل أنت أصم؟».

وأجاب الغلام: «كلا يا سيدي».

قال: «اسمع إذن من فضلك، هل أنت سامع الآن؟».

- «نعم يا سيدي».

- «حسن، خذني إلى غرفة مسز ونكل دون ذكر اسمي».

وانثنى الشيخ بعد أن أصدر هذا الأمر يدس خمسة شلنات في كف الغلام ويتفرس في وجهه.

وقال الغلام: «في الحقيقة يا سيدي، لا أدري يا سيدي هل...».

وعاجله الشيخ قائلًا: «آه، أرى أنك ستفعل ذلك، فمن الخير أن تعجل، هيا، اقتصادًا في الوقت».

وكان يبدو على الشيخ من الهدوء والثبات ما جعل الغلام يدس الشلنات الخمسة في جيبه، ويمضي به، فيصعد السلم بغير كلمة أخرى.

وقال الشيخ: «أهذه هي الغرفة؟ لك أن تذهب من حيث أتيت».

وامتثل الغلام للأمر وهو في عجب بالغ، من عسى أن يكون ذلك

الرجل وماذا يريده، وانتظر الشيخ حتى توارى الغلام فدق الباب.

وقالت أرابلا: «ادخل!».

وغمغم الشيخ لنفسه قائلًا: «صوت رخيم على كل حال، ولكن رخامة الصوت ليست شيئًا» قال هذا وهو يفتح الباب ويدخل الغرفة، وكانت أرابلا جالسة تطرز، فنهضت عند رؤية رجل غريب مرتبكة قليلًا، ولكن ارتباكها كان جميلًا لا شائبة فيه.

وقال الغريب وهو يدخل ويغلق الباب في أثره: «أرجو يا سيدتي ألا تنهضي من مجلسك، مسز ونكل فيما أعتقد؟».

وأومأت أرابلا إيجابًا.

وقال الشيخ وهو ينظر إليها بفضول ظاهر: «مسز نثنايل ونكل التي تزوجت بابن الشيخ الذي يقيم في برمنجهام؟».

وأومأت أرابلا مرة أخرى، وتلفتت حولها بقلق كأنها لا تدري، هل تطلب غوثًا أو لا حاجة بها إليه.

وقال الشيخ: «أراني قد فاجأتك يا سيدتي».

وأجابت أرابلا وهي في دهشة متزايدة: «لا يسعني إلا أن أعترف بأنني قد فوجئت شيئًا ما».

وقال الغريب: «سأتخذ مقعدًا إذا سمحت يا سيدتي».

واتخذ مجلسًا، وأخرج علبة منظاره من جيبه، فأخرج المنظار بكل هدوء منها وأقامه فوق أنفه.

وانثنى يقول وهو يطيل النظر إلى أرابلا حتى بدأت تنزعج: «ألا تعرفينني يا سيدتي؟».

وأجابت أرابلا متهيبة: «كلا يا سيدي».

وقال الشيخ وهو يربت ساقه اليسرى: «طبعًا لا... وأنى لك معرفتي... ولكنك مع ذلك تعرفين اسمي يا سيدتي».

وقالت أرابلا وهي راجفة وإن لم تدر السبب: «أحقًّا؟ هل لي أن أسألك عنه؟».

وأجاب الشيخ، وهو لا يزال مطيلًا النظر إلى وجهها: «ستعرفينه حالًا يا سيدتي، هل كان زواجكما من عهد قريب يا سيدتي؟».

وقالت أرابلا بصوت لا يكاد يكون مسموعًا، وقد ألقت تطريزها جانبًا، وبدا الاضطراب يستولي على خاطرها، من فكرة قامت في ذهنها من قبل، ثم لم تلبث أن تملكتها: «نعم يا سيدي».

قال: «ودون أن تشيري على زوجك بوجوب استشارة أبيه أولًا، وهو كما أظن يعتمد على معونته؟».

وهنا رفعت أرابلا منديلها إلى عينيها.

واستتلى الغريب يقول: «ودون محاولة التأكد بأي وسيلة غير مباشرة ما عسى أن يكون شعور ذلك الشيخ من ناحية أمر سوف يشعر بطبيعة الحال باهتمام شديد به؟».

وقالت أرابلا: «لا أستطيع أن أنكر ذلك يا سيدي».

ومضى الشيخ يقول: «ودون أن يكون لك ما يكفي لأن يكفل لزوجك معونة ثابتة لقاء المنافع الدنيوية التي تعرفين أنها كانت تعود عليه إذا هو تزوج استجابة لرغبات أبيه، إن هذا هو ما يدعوه الأولاد والبنات حبًّا منزهًا من الغرض، حتى يرزقوا هم أولادًا وبناتًا وعندئذ يختلف رأيهم فيه وتتباين نظرتهم إليه!».

وتقاطرت العبرات واكفة من عيني أرابلا، وأنشأت تعتذر وتلتمس الشفاعة بأنها صغيرة غفل لم تجرب الحياة، وأن حبها هو وحده الذي حملها على أن تخطو هذه الخطوة التي فزعا إليها، وأنها حرمت من نصيحة أبويها وإرشادهما منذ نعومة أظفارها تقريبًا.

وقال الشيخ مخففًا من حدة لهجته: «لقد كان هذا خطأ، خطأ كبيرًا، كان حمقًا وخيالًا وتصرفًا غير عملي».

وأجابت أرابلا المسكينة وهي تنتحب: «لقد كان الخطأ خطئي يا سيدي، وأنا المذنبة».

وقال الشيخ: «هراء! لم يكن ذنبك على ما أظن ولا خطأك أنه وقع في حبك؟». وهنا نظر إليها بمكر وأردف قائلًا: «وإن كان خطأك فعلًا؛ لأنه لم يكن له في الأمر حيلة ولا منه بد».

وكانت هذه اللفتة الصغيرة، أو الطريقة الشاذة التي استعان الشيخ بها على إظهارها، أو تغير أسلوبه ولهجته، إلى الرفق واللطف، أو كل هذه العوامل مجتمعة، هي التي انتزعت من أرابلا ابتسامة بدت على ثغرها، وسط عبراتها المنهمرة.

وانثنى الشيخ يسأل فجأة وهو يغالب ابتسامة بدت آتية حثيثًا إلى وجهه: «وأين زوجك؟».

وأجابت أرابلا: «إنني منتظرة قدومه من لحظة إلى أخرى يا سيدي، فقد ألححت عليه في الخروج إلى الرياضة في هذا الصباح، حين بدا مغتمًا مهمومًا؛ لأنه لم يتلق كتابًا من أبيه».

وقال الشيخ: «أتقولين إنه المغتم المهموم؟ إنه بذلك لخليق!».

وقالت أرابلا: «أعتقد أن شعوره بالهم هو من أجلي، وإني لمحزونة له يا سيدي أبلغ الحزن، إن كنت السبب الوحيد في هذا الموقف الأليم الذي أحاط به».

وقال الشيخ: «لا تحزني له ولا تبتئسي يا عزيزتي من أجله، فهو الذي صنع بنفسه ما صنع، وإني لفرح، أي نعم إني لمسرور فعلًا فيما يتعلق به».

وما كادت هذه الكلمات تخرج من شفتي الشيخ حتى سمعت مواقع أقدام فوق السلم، وفطنت إليها أرابلا والشيخ معًا، فارتد الصغير الجسم وجهه شاحبًا، وحاول جاهدًا أن يبدو هادئًا رابط الجأش، فنهض من مجلسه، في اللحظة التي دخل فيها المستر ونكل.

وصاح هذا متراجعًا من فرط الدهشة: «أبي!».

وأجاب الشيخ الصغير الجسم: «نعم، يا سيدي. والآن ماذا تريد أن تقول لي يا سيدي؟».

ولبث المستر ونكل صامتًا.

وقال الشيخ: «أرجو يا سيدي أن تكون قد استحيت من نفسك؟».

ولكن المستر ونكل ظل على صمته.

وسأل الشيخ: «هل أنت مستح من نفسك أم لا يا سيدي؟».

وأجاب المستر ونكل وهو يدخل ذراع أرابلا في ذراعه: «كلا يا سيدي لست مستحييًا من نفسي ولا من زوجتي أيضًا».

وصاح الشيخ متهكمًا ساخرًا: «ما شاء الله!».

وقال المستر ونكل: «إنه ليحزنني أنني فعلت ما أوهن من محبتك لي يا سيدي، ولكني في الوقت ذاته أقول إنه ليس ثمة ما يدعوني إلى الاستحياء من اتخاذ هذه السيدة لي زوجة، ولا في اتخاذك لها ابنة».

وقال الشيخ بصوت مختلف: «هات يدك يا نات وقبليني يا حبيبتي، إنك رغم كل شيء لابنة ابن[1] صغيرة فاتنة كل الفتنة!».

ولم تنقض بضع دقائق حتى ذهب المستر ونكل للبحث عن المستر بكوك، وجاء به، وقدمه إلى أبيه، فتصافح الشيخان خمس دقائق متصلة».

وأنشأ المستر ونكل الكبير يقول في صراحة خالية من المجاملة: «أشكرك يا مستر بكوك من أعماق قلبي على عطفك على ابني وجملة صنائعك له، إني رجل متسرع، وقد كنت في لقائنا الأخير مغيظًا ومأخوذًا على غرة، والآن قد ذهب عني الغيظ ورضيت وزيادة بعد أن حكمت بنفسي ورأيت بعيني، فهل أزيدك معاذير يا مستر بكوك؟».

---

(١) يقصد: «كنة».

وأجاب هذا قائلًا: «ولا معذرة واحدة، لقد فعلت الشيء الوحيد الذي كنت بحاجة إليه لتتم سعادتي».

وتلت ذلك مصافحات أخرى لبثت خمس دقائق، واقترنت بجملة من الخطب والتحيات والمدائح، كانت على ما حوت من مجاملة وثناء مقترنة بروح الصدق والإخلاص.

وكان سام قد صحب والده رعاية لحق الأبوة إلى حانة «بل سفج» وعند عودته لقي الغلام البدين في فناء الفندق، وكان قد جاء يحمل رسالة من إميلي واردل.

وقال جو وقد بدا كثير الكلام على غير عادته: «أقول، ما أجمل ميري! أليست جميلة؟ إنني أحبها كثيرًا، أحبها!».

ولكن المستر ويلر لم يرد عليه ردًّا شفويًّا، بل أطال النظر إليه، وهو مأخوذ من كلامه هذا، ثم سحبه من رقبته إلى الركن، وأطلقه بركلة لا أذى منها، بل ركلة لطيفة تكريمية.

وانطلق سام بعدها في سبيله صافرًا.

* * *

الفصل السابع والخمسون

حل نادي بكوك، وخاتمة سعيدة للجميع

ولبث المستر بكوك وسام ويلر أسبوعًا كاملًا عقب قدوم المستر ونكل السعيد يقضيان النهار كله خارج الفندق ولا يعودان إليه إلا أوان العشاء، وقد بدت عليهما أمارات غموض وخطورة غريبة لا تتفق مع طبيعتهما. وكان واضحًا أن هناك أعمالًا ذات شأن كبير كانت في دور التنفيذ، وإن كثرت التخمينات وتضاربت الأقوال في حقيقة نوعها، وخافية مرادها، فذهب فريق- ومن بينهم المستر طبمن- إلى القول بأن المستر بكوك يعتزم الزواج، ولكن هذه الفكرة لقيت اعتراضًا شديدًا عليها من السيدات، بينما كان فريق آخر يميل إلى الاعتقاد بأنه يفكر في رحلة بعيدة، فهو في الوقت الحاضر منشغل بإعداد العدة لذلك السفر، ولكن هذا الرأي أيضًا وجد من ينفيه قطعًا ويكذبه، فقد راح سام يقول لماري بلهجة جازمة حين مضت تسأله وتمعن في استجوابه، إنه

ليس ثمة نية في القيام برحلات جديدة. وأخيرًا، وبعد أن لبثت الأذهان حيرى متسائلة ستة أيام طوال، وظلت العقول هائمة في أودية الحدس والتخمين، أجمع القوم على وجوب مطالبة المستر بكوك بشرح سر مسلكه، ومصارحتهم بدواعي غيابه كل هذا الوقت الطويل عن مجالس أصحابه المعجبين به.

ولهذا الغرض وجه المستر واردل الدعوة إلى أفراد هذه الندوة جميعًا لتناول الطعام على مائدته في «الأدلفي» وبعد أن أديرت الكؤوس مرتين بدأ دور الكلام، فانبرى ذلك السيد الكبير في السن يقول: «إننا جميعًا في قلق شديد، ونريد أن نعرف ما الذي فعلناه من سوء أدى بك إلى هجران مجامعنا والإخلاد إلى رياضتك في معزل منا».

وقال المستر بكوك: «أحقًّا أنتم في قلق؟ إنه لمن غرائب الاتفاق أنني كنت منتويًا اليوم بالذات الإدلاء ببيان تام في هذا الشأن، فإذا تكرمتم عليَّ بكأس أخرى من النبيذ رويت فضولكم».

وتناقلت الأكف الكؤوس في حماسة بالغة، وانثنى المستر بكوك يقول، وهو يدير عينيه في وجوه أصحابه ويبتسم ابتسامة وضاحة متهللة: «إن كل هذه التغيرات التي جرت بيننا، وأعني بها الزواج الذي تم، والزواج الآخر الذي سيتم، وما سيؤديان إليه من تغيرات، اقتضت مني أن أبادر من فوري إلى التفكير الجدي في خططي ومصيري، فقر رأيي على الإيواء إلى مكان هادئ جميل في بعض أرياض لندن، وهداني التوفيق إلى مسكن يتفق مع خيالي كل الاتفاق، فاتخذته وأثثته، وهو الآن على أتم الاستعداد لانتقالي إليه، وفي نيتي أن أنتقل

في الحال داعيًا الله أن يمد في فسحة الأجل حتى أقضي في أكنافه عدة سنين في ظلال السكينة والعزلة الهادئة، يروح عني خلال الحياة محضر أصحابي، ويتبعني في الممات، تذكرهم للأيام الخاليات التي عشتها معهم على محض المودة والوفاء».

وهنا تمهل المستر بكوك، فسرت حول المائدة موجة خافتة من الغمغمة والهمس.

وواصل المستر بكوك حديثه قائلًا: «ولهذا البيت الذي اخترته في «ضلوتش» بستان فسيح الجنبات، ويقع في حي من ألطف الأحياء القريبة من المدينة، وقد جهزته بكل ما يكفل الرفاهية، والراحة التامة، وقد أكون جمعت إلى ذلك بعض الرواء، ولكني تارك ذلك لحكمكم، وسيصحبني سام إليه، وقد استأجرت بفضل تزكية بركر مديرة للبيت- وهي عجوز جدًّا- وعددًا من الخدم الذين تعتقد أنها سوف نحتاج إليهم، وفي نيتي أن «أدشن» هذه العزلة الصغيرة بحفلة يهمني كثيرًا أن تقام في المسكن الجديد، وأود- إذا لم يكن لدى المستر واردل مانع- أن يكون قران ابنته في مسكني الجديد، في اليوم الذي تبدأ ملكيتي فيه»، وهنا بدا التأثر عليه، فأردف يقول: «ذلك أن سعادة الشباب كانت ولا تزال أكبر متعة في حياتي، وإن قلبي ليمتلئ دفئًا وحرارة حين أشهد سعادة أعز أصحابي تتجلى تحت سقف بيتي».

وعاد المستر بكوك يتمهل، بينما انثنت إميلي وأرابلا تجهشان بالعبرات.

واستتلى مستر بكوك قائلًا: «وقد اتصلت بالنادي شخصيًّا ومن طريق المراسلة، وأبلغتهم ما أنا مقدم عليه، وكان النادي في فترة غيبتنا الطويلة قد عانى كثيرًا من جراء المنازعات الداخلية فيه، وجاء سحب اسمي منه مع ظروف مختلفة فأدى إلى إغلاقه، واليوم لم يعد لنادي بكوك وجود».

وغض المستر بكوك من صوته ومضى يقول: «ولن آسف يومًا على أن قضيت الشطر الأكبر من العامين الماضيين في الاختلاط بصنوف متباينة، وأنماط مختلفة، من الطبائع البشرية وصور عدة من أخلاق الناس، وإن كان هذا البحث من جانبي عن كل طريف وجديد قد بدا لكثير من الخلق تافهًا لا يؤبه به، وكنت قد قضيت حياتي الماضية كلها أو جلها متوفرًا على الأعمال والبحث عن الغنى والتماس اليسار، ولكني في هذين العامين الأخيرين قد ألممت بعدة مشاهد وألوان من الصور لم تخطر يومًا ببالي، وانبثقت لخاطري انبثاق الفجر في مطالع الضياء، وهي مشاهد وصور أرجو أن يتسع بها نطاق تفكيري، وينصقل بها وجداني، وتتهذب بها مداركي، وإن كنت قد فعلت خيرًا قليلًا، فحسبي عزاء أنني لم أفعل أذى كثيرًا، وأن أكثر مغامراتي وجولاتي لن تكون سوى مورد ذكريات طيبة لي، ومجال تفكير في أعوامي الباقية. وليبارككم الله جميعًا!».

وعلى أثر هذه الكلمات ملأ المستر بكوك الكأس واشتفها جملة واحدة بيد راعشة، وقد نديت عيناه، حين نهض أصحابه نهضة رجل واحد وشربوا نخبه من أعماق أفئدتهم.

ولم يحتج الأمر إلى استعدادات كثيرة لإقامة حفل قران المستر سنودجراس، فقد كان الفتى يتيمًا من أبويه، وكان المستر بكوك وصيًّا عليه وهو قاصر حتى شب عن الطوق، فكان هذا السيد عليمًا بما يملكه الشاب، وما ينتظره من مستقبل، وحين عرف المستر واردل مقدار ما يملكه، وحساب ما قد يرتقبه، أبدى ارتياحه، وكان أي بيان آخر لذلك الشيخ الكريم مرضيًا، لما كان تفيض به نفسه من مرح، وتمتلئ به جوانحه من حدب وعطف، فراح يضفي على إميلي جزءًا طيبًا من ماله، وتقرر أن يكون الزواج بعد أربعة أيام من ذلك التاريخ، وهي مهلة قصيرة للاستعداد جعلت ثلاث حائكات وحائكًا يبلغون من السرعة في العمل حدود الجنون.

واستأجر الشيخ واردل خيلًا للمركبة وانطلق من الغداة لإحضار أمه إلى المدينة، فما كادت العجوز تعرف النبأ منه، بطريقته المتهورة، حتى أغمي عليها، ولكن لم تلبث أن أفاقت من غشيتها، فأمرت بإعداد الثوب الحريري المزركش ووضعه في الحقيبة بغير توان، وأنشأت تقص قصصًا مماثلة عن زواج كبرى بنات المرحومة السيدة توليمجلوار واستغرقت ثلاث ساعات في روايتها، ولم تكن قد جاوزت بعد نصفها.

وكان من المتعين إبلاغ مسز ترندل أنباء الاستعدادات التي تجري في المدينة، ولكنها كانت معتلة الصحة، فتولى المستر ترندل الأمر بنفسه، مخافة أن يكون الخبر أقوى من أن تحتمله، ولكن تبين أن الأمر ليس كذلك؛ لأنها ما كادت تعلم به من زوجها حتى كتبت إلى بلدة

«ماجلتون» تطلب إرسال قبعة جديدة وثوب حريري أسود، وأعلنت عزمها على حضور القران، فلم ير المستر تراندل بدًّا من دعوة الطبيب، فكان رأيه أنها أعرف منه بما تحس، فكان ردها أنها تحس ألا ضير عليها من الذهاب، وأنها قد انتوته، وعندئذ لم يسع الطبيب، وكان حكيمًا بعيد النظر يعرف مصلحته كما يعرف مصلحة غيره من الناس، إلا أن يقول إن احتجازها في البيت قد يؤذيها بالملالة والانفعال أكثر مما يؤذيها الذهاب، فيحسن أن تذهب إذن، وفعلًا ذهبت وعني الطبيب بأمرها، فأرسل ستة أصناف من الأدوية لتتناولها في الطريق.

وكان واردل إلى جانب هذه المشاغل ونحوها قد عهد إليه بكتابين صغيرين إلى فتاتين صغيرتين كان مطلوبًا منهما أن تكونا للعروس وصيفتين، ولكنهما حين تلقتا الدعوتين هاجتا وحنقتا لأنهما لم تعدا شيئًا لهذا الحدث الخطير، وليس أمامهما متسع من الوقت لإعداده، وهو ظرف جعل أبويهما يحمدان الله عليه ويغتبطان في سرهما به، ولكن لم يمنع ذلك تناول بعض الأثواب القديمة بشيء من الإصلاح والتهذيب، وتفصيل قبعات جديدة، حتى بدت الفتاتان كما كان ينتظر منهما أن تبدوا، وفيما كانتا تبكيان في أثناء الاحتفال بالإكليل عند كل موضع يحسن فيه البكاء، وترعشان حيث يستحب الرعش، كان منظرهما وسلوكهما موضع إعجاب المشاهدين.

ولا يعرف أحد على وجه اليقين كيف وصل القريبان الفقيران إلى لندن.. هل جاءا سعيًا على الأقدام وخلف المركبات متعلقين، أو التقطتهما مركبة نقل، أو حمل كل منهما الآخر تناوبًا؟ ولكن

الواقع أنهما جاءا قبل أن يدق واردل والذين استبقوا معه باب مسكن المستر بكوك في صباح يوم الزفاف وهما مفعما الوجهين ابتسامات وإيماضات، وعليهما قميصان نظيفان.

ولكنهما وجدا ترحابًا صادقًا؛ لأن الغنى والفقر لا أثر لهما في نفس المستر بكوك، وبدا الخدم جميعًا خفافًا متلببين، وكان سام في حال لا مثيل لها من المرح والحماسة والهياج، بينما كانت «ميري» تسطع جمالًا، وأشرطة أنيقة.

وخرج «العريس» وكان قد جاء فأقام في البيت يومين أو ثلاثة أيام قبل موعد القران، فقصد في جلال واتزان إلى كنيسة «ضلوتش» لاستقبال العروس، وقد صحبه المستر بكوك، وبن ألن، وبب سوير، والمستر طبمن، ووقف سام ويلر في خارج الكنيسة وقد وضع في عروة ردائه وردة بيضاء، حبته بها مالكة فؤاده، واشتمل بحلة جديدة فاخرة أعدت لهذه المناسبة، وكان في استقبالهم آل واردل، وأهل ونكل، والعروس والوصيفتان وآل ترندل، ولم تكد حفلة الإكليل تتم، حتى استقل الجميع المركبات لتناول الفطور في دار المستر بكوك، حيث كان المستر بركر في انتظارهم.

وكانت الغمائم الخفاف التي تغمر الجزء الديني من حفل القران قد انقشعت، فتطلقت الوجوه فرحًا، وساد البشر الطلعات، فلم يعد أحد يسمع غير التهاني والمديح وكلمات الإعجاب، وكان كل شيء جميلًا بهيًا، العشب الناضر في مدخل الدار والبستان المنسق خلفها، والحوض الصغير لحفظ النباتات، وقاعة الطعام، وحجرة الجلوس

والمخادع وحجرة التدخين، وفوق تلك كلها المكتبة بألواحها الزيتية ومقاعدها المريحة وخزائن الكتب العجيبة، ومناضدها الغريبة، والكتب التي لا عد لها، والشرفة الفسيحة المطلة على العشب النضير، والمشهد الذي يفتن الألباب، حيث تبدو الدور الصغيرة متناثرة في مختلف أرجائه، تكاد الأشجار تحجبها عن العيان ثم السدول والأستار والبسط والمقاعد والأرائك وكل ما هو جميل وضاء مرتب، يدل على نهاية في حسن الذوق، وجودة الاختيار، حتى لقد مضى كل إنسان في الجمع يقول إنه لحائر لا يدري أيها أحق بأشد الإعجاب.

وفي وسط ذلك كله وقف المستر بكوك وضاح المحيا بالبسمات، في مشهد لا يقوى قلب رجل، ولا مهجة امرأة، ولا فؤاد وليد، على الامتناع عن الإسهام في هذه السعادة البادية من حوله، والفرح العام المحيط به، وكان هو أسعد الجمع وهو يصافح الأيدي مرارًا، ويكرر هز الأكف تكرارًا، ويحيي الناس عودًا على بدء، ومرة بعد أخرى، فإن لم يستعن بيديه على تحياته، ومصافحاته، انثنى يقلبهما بلذة، ويفركهما بفرح، ويدور في كل ناحية، ويتلفت في كل جهة، وعند كل بادرة، من سرور أو فضول، أو لهفة، ويوحي إلى كل نفس بنظرات الإحساس بالغبطة والابتهاج.

وأعلن الفطور، وتقدم المستر بكوك إلى السيدة العجوز، وكان قد أكثرت من القول عن السيدة تولينجلوار، فمشى بها إلى رأس مائدة مستطيلة، بينما اتخذ واردل مجلسه عند طرفها الآخر، ووزع الباقون أنفسهم على جانبيها، ووقف سام خلف مقعد سيده، وما إن انقطع

الضحك، وكف الحديث، حتى حمد المستر بكوك ربه، ثم تمهل لحظة، ودار بعينيه حوله، وكانت الدموع تتقاطر فوق خديه من فرط السرور.

فلندع صديقنا الشيخ يستمتع بلحظة من لحظات السعادة الصرف النقية التي إذا نحن ذهبنا نلتمسها، فلا بد من أن نجد شيئًا منها، يرفع من نفوسنا، في هذه الحياة الفانية، إن في هذه الأرض ظلالًا قاتمة، ولكن أنوارها أقوى من ظلمتها، وضياءها أشد من حلكتها، وقد نرى في دنيانا أناسًا كالخفافيش والبوم، أوتوا أعينًا أحدّ بصرًا في الظلام الدامس، منها في الأنوار الباهرة، فلنقنع نحن الذين لم نؤت هذه القوى البصرية، بمتعة تملية العين بآخر نظرة وداعية من أصدقائنا في الخيال الذين قضينا معهم ساعات وحدتنا، وخلونا إليهم في فترات عزلتنا، وأضواء الدنيا ساطعة بكل بهائها حولهم، وأنوار الرغد تشع عليهم من كل مكان.

لقد قدر على أكثر الذين يختلطون بالعالم، ويبلغون عنفوان الحياة، أن يكسبوا عديدًا من الأصحاب الصادقين، ثم يفقدوهم على مر الأيام وتبعًا لسنن الطبيعة، كما قدر على معاشر الكتاب ومؤرخي الأحداث، أن يخلقوا لهم صحابًا في عالم الخيال ثم يفقدونهم طوعًا لخطط الفن ومطالبه، وليس هذا وحده نهاية شقوتهم، وآخر مدى ألمهم؛ لأنهم مطالبون أيضًا بتقديم بيان عما انتهى إليه أمر أولئك الصحاب الوهميين.

ونحن امتثالًا لمقتضيات هذا العرف، وأنه بلا نزاع عرف سيئ،

وتقليد قبيح- لا يسعنا إلا أن نضيف هنا بيانًا ختاميًّا موجزًا عن كل فرد من أفراد الجمع الذين أحاطوا بالمستر بكوك في ذلك اليوم المشهود.

فأما المستر ونكل وعروسه فقد عمدا بعد أن رضي الشيخ عنهما ووطأ من أكنافه لهما، إلى الانتقال فترة قصيرة إلى المقام في بيت جديد لا يبعد أكثر من نصف ميل من دار المستر بكوك، بينما اشتغل المستر ونكل في حي الأعمال وكيلًا أو مراسلًا لأبيه واستبدل ثوبه القديم لباسًا مألوفًا في المدينة، وراح يبدو بعد ذلك على الدوام في زي المسيحيين المتحضرين.

وأقام المستر سنودجراس وزوجته في ضيعة «دنجلي دل» حيث ابتاعا مزرعة صغيرة وعكفا على الزرع والضرع، للعمل والمتعة، أكثر منه للربح، ولا يزال المستر سنودجراس، بسبب شرود خاطره أحيانًا وخلوه إلى تفكيره، مشهورًا إلى يومنا هذا بأنه الشاعر الكبير في زمرة أصحابه ومعارفه، وإن لم نجده قد نظم شيئًا يشجع على هذا الاعتقاد، ولا يزال هناك فريق كبير من ذوي المكانة البارزة في ميادين الأدب، والفلسفة، ونحوهما يحتلون مكانًا رفيعًا، ويستمتعون بشهرة عالية، وإن لم يجد الناس لهم كتبًا، ولا تواليف، أو يظفروا منهم بثمرات القريحة.

وأما المستر طبمن، فلم يكد أصحابه يتزوجون ويرى المستر بكوك قد أخلد إلى العزلة، حتى اتخذ مسكنًا له في «رتشمند» حيث هو إلى اليوم مقيم لا يكف عن الرواح والغدو خلال أشهر الصيف في الشرفة ممتلئًا شبابًا ومرحًا أكسباه إعجاب كثيرات من الغيد العوانس

اللاتي يسكن في الحي، ولكنه لم يعاود يومًا أن يحوم حول الحي، مخافة الوقوع فيه، ولم يتقدم إلى واحدة منهن.

وأما المستر بب سوير، فقد ظهر اسمه في «الغازيت» الرسمية، طبيبًا مسموحًا له بمزاولة المهنة، فسافر إلى «البنغال» مصطحبًا لمستر بنجمن ألن، بعد أن عينا طبيبين جراحين في شركة الهند الشرقية، وقد أصيب كل منهما بالحمى الصفراء أربع عشرة مرة، ففكرا في تجربة الامتناع عن الشراب قليلًا، وقد صلح أمرهما، وتحسنت صحتهما، من ذلك التاريخ.

وطفقت مسز باردل تؤجر الغرف لعدة عزاب كثيري الكلام، والاستطراد في الحديث وتظفر منهم بربح كبير، ولكنها لم ترفع إلى الآن أية قضايا للنكث بوعود القران، ولا يزال وكيلاها ددسن وفج منصرفين إلى أعمالهما، كاسبين منها موردًا كبيرًا، ولا يزال الناس عامة يعدونهما أشد المحتالين في دنيا الاحتيال.

وبر سام ويلر بعهده، فقضى عامين أعزب، وقضت المرأة التي تتولى إدارة شؤون البيت نحبها في ذلك الحين، فرفع المستر بكوك ميري إلى مكانها الشاغر مشترطًا الزواج بالمستر ويلر في الحال، فرضيت دون اعتراض أو امتناع، وإن وجود وليدين ممتلئين صحة وعافية يلعبان ويرتعان في البستان، ليحمل على الظن بأن سام أصبح رب أسرة.

ولبث المستر ويلر الكبير اثني عشر شهرًا في قيادة إحدى

المركبات العامة، غير أنه اضطر إلى الاعتزال حين أصيب بالنقرس، ولكن المال الذي كان مودعًا جوف المحفظة الصغيرة كان قد وظف واستثمر لأجله بفضل رعاية المستر بكوك وحكمته، فأصبح يدر عليه قدرًا من الإيراد يكفيه في معتزله، ولا يزال يقيم عليه ويحيا في حانة بديعة بقرب «شوترز هل» حيث أصاب احترام الشرب والجلاس لصدق نبوءاته، وهو لا يكف عن الإشادة بفضل المستر بكوك، ولا يفتأ يحس مقتًا للأرامل لا يستطيع مغالبته أو الانثناء عنه.

وظل المستر بكوك نفسه مقيمًا في داره الجديدة، يقضي ساعات فراغه في إعداد المذكرات التي قدمها بعد ذلك أمين النادي الذي كان في سالف الدهر ذائع الصيت، أو في الاستماع إلى سام ويلر وهو يقرأ عليه بصوت جهير، ويشفع ما يقرأ بما يعن لقريحته من الملاحظات، وهي أفاكيه لم تفتر عن إمتاع المستر بكوك بلذة بالغة، وكان المستر بكوك قد تعب كثيرًا في بداية الأمر من كثرة إقبال المستر سنودجراس، والمستر ونكل، والمستر تراندل عليه في الفينة بعد الفينة، يلتمسون منه أن يكون «أبًا» في العماد لولدانهم، ولكنه اعتاد الآن ذلك وألفه وأصبح يؤديه على أنه عمل مألوف، وعادة جارية، ولم يشعر يومًا بسبب يدعوه إلى الندامة على ما أفاء به على المستر جنجل؛ لأنه هو وجب تروتر أصبحا على مر الأيام عضوين فاضلين في المجتمع، وإن ظلا ممتنعين أبدًا عن العودة إلى مسرح حياتهما القديم ومغرياته الماضية، وقد أمسى المستر بكوك اليوم شيخًا هرمًا كبيرًا، وإن حرص على شباب روحه، ولا يزال يشاهد وهو يتطلع إلى الألواح والرسوم في معرض «ضلوتش»

أو مستمتعًا بالرياضة والمشي في تلك الضاحية البهيجة في يوم صاف، ونسيم عليل. وقد أضحى معروفًا من جميع أهل الفاقة حوله، وكلما مر على ملأ منهم بادروا إلى رفع قبضاتهم له في احترام شديد، وبات الولدان عابديه، كما أحبه الناس جميعًا في ذلك الموضع، وجعل في كل عام يذهب ليشترك في حفلات سرور عند الشيخ واردل ويحضر مآدبه الشيقة، يصحبه سام الأمين الذي لا يفارقه والذي ربطته به علاقة ثابتة مقيمة متبادلة لا شيء يستطيع فصم عراها غير الموت.

* * *

بيان بالأعلام والأماكن الواردة بجزئي الكتاب

Blotton	بلوتن
Budger	مستر بادجر
Barnwell	بارنول
Belle Savage	بل سافج
Bill Stumps	بيل سطمبس
Black Boy	بلاك بوي
Brixton	بريكستون
Brompton	برومتن
Bury St. Edmonds	بري سانت إدموندز
Bamber, Jack	جاك بمبر
Boots	بوتس
Boldwig	بولدوج
Bolaro Fizzgig, Don	دون بولارو فزجج
Mrs. Budger	مسز بادجر
Mr. Blotton of Aldgate	مستر بلوتن من أولدجيت
Bardell, Martha	مارثا باردل

Clubber, Sir Thomas	سير تومس كلابر
Cmberwell	كمبرول
Chatam	تشاتم
heapside	تشيبسايد
Chelmsford	تشلمزفورد
Clare Market	كلير ماركت
Cobham	كوبهم
Christina, Donna	دونا كريستينا
ruickshank, George	إدوارد تشبمن
Cruichshank, George	جورج كرؤكشنك
Cummins, Tom	توم كمينز
Dantzig	دانزج
Devonshire Cyder	ديفونشير سايدر
Daph	داف
Diogenes	ديوجينيس
Dodson & Fogg	ددسن وفج
Dumkins	دمكنز
Ebenezer	ابنزر
Emily	املي- إميلي
Epicurus	أبيقور
Edwrd Chapman	إدوارد تشبمن

Fleet Street	شارع «فليت ستريت»
Fort Pitt	حصن بت
Furnival's Inn	فندق فرنيفال
Fizkin	فيزكن
Fireworks	فيروركس
Fizzgig, Don Bolaro	دون بولارو فزجج
Grandee	جراندي
Goswell Street	شارع جوزول
Green	جرين
Gwynn	جوين
Grundy	جرندي
Gravesend	جريفسند
Hampstead	هامستد
Hornsey	هورنزي
Highgate	هايجيت
Hunt	هنط
Hunter, Leo	ليو هنتر
Heyling	هيلنج
Hutley	هطلي
Isabella	إيزابللا
Ipswich	ايسويتش

Joseph Smiggers	جوزيف اسمجرز
Jinkins	جنكنز
Joe	جو
Juno	جونو
Jack Bamber	جاك بمبر
Job Trotter	جب تروتر
Jackson	جكسن
Leatherbottle	لذر بوتل
Lowton	لوتن
Lobbs, Maria	مرايا لويز
Liffey	لفي
Lucas, Solomon	سلمون لوكاس
Manour Farm	ضيعة مانور
Maria Lobbs	مرايا لويز
Mullin's Meadows	مراعي مولين
Miller	ملر
MarthaBardell	مارثا باردل
Martin	مارتن
Marshalsea	مرشالسي
Minns	مينز
Medway	مدواي

Manning, Sir Geoffrey	سير جفري مانج
Magpie & Stump	ماجباي والسطمب
Nimrod Club	نادي نمرود
Norwich	نوروك
Nathaniel Winkle	نثايل ونكل
Nathaniel Pipkin	نثايل بيبكن
Piekwick	بكوك
Podder	بودر
Pentonwil	بنتنويل
Plato	أفلاطون
Pythagoras	فيثاغورس
Punch	بنتش
Payne	بين
Perker	بركر
Price	برايس
Pimkin	بمكن
Pott	بت
Rochester	روشستر
Ramsey	رمزي
Snodgrass, Augustus	أوجستس سنودجراس
Swift	سويفت

Stroud	استراود
Seidlitz	سيدليتز
Samkin	سمكن
Smithers	سميذرز
Smart, Tom	توم سمارت
Surrey	صري
Somers Town	سومرزتاون
Snipe, Wilmot	ويلموت سنايب
Seymour	سيمور
Smithie	اسميثي
Smithers	سميرز
Smorltork, COunt	كونت سمورلتورك
Savage, Belle	بل سافج
Dr. Slammer (Slam)	دكتور سلامر (سلام)
Struggles	استرجلز
Staple	ستيبل
Stumps, Magpie	اصطمب وماجباي
Stumps, ill	بيل سطمبس
Tupman, Tracy	تراسي طبمن
Ryburn	طايبرن
Tony Weller	توني ولر

Trotter, Job	جب تروتر
Tappleton, Lieutenant	الملازم تابلتون
Tomkins	تومكنز
Tomlinson	توملينسون
Tuppy	طبي
Thomas	تومس
Winkle	وينكل
Whiteehapel	هوايتشابل
Whitehall	هوايتهول
William	وليم
Westgate House	وست جيت هاوس
Wicks	وكس
Weller, Sam (Sami)	ولر، سام (سامي)
Walker	ووكر
Zeno	زينون

Arabella Allen	أرابلا
Angelo Cyrus Bantam	أنجلو سايرس بنتم
Antony Humm	أنتوني هم
Allen, Bejamin	بنجمن ألن
Bartholmew	برثولميو
Blunderbore	بلندربور
Bantam	بنتم
Benjamin Allen	بنجمن ألن
Bob Sawayer	بوب سوير
Prince Bladud	الأمير بلادود
Brown	براون
Mrs, Bunkin	مسز بنكن
Bantam, Angelo Cyrus	أنجلو سايرس بنتم
Miss Bolo	مس بولو
Besty Martin	بتسي مارتن
Beller, Henry	هنري بلر
Burton, Thomas	تومس برتن
Brick Lane	بريك لين
Blazes	بلينرس
Bristol	برستل
The Bush	فندق بش (الدغل)

Buzfuz Searjeant	بزفز
Bilson	بيلسن
Brick Lan	بريك لين
Camden	كامدن
Chelsea	تشلزي
Mr. & Mrs. Cluppins	مستر ومسز كلبنز
Clapham Green	كلابم جرين
Mr. Crawley	مستر كرولي
Crushton	كرشتن
Mrs. Colonel	مسز كرنل
Camberwell	كامبرول
Mrs. Craddock	مسز كرادوك
King Kong	الملك كول
Clifton	كليفتن
Dumpling	ضمبلنج
Dubbley	ضبلي
Dowler	داولر
Dibdin	دبدن
Dorking, Granby Markis	الماركيز جرانبي دوركنج
Elizabeth Tuppins	إليزابث طبنز
Elizabeth Jupkins	إليزابث جبكنز

Elizabeth Muffins	إليزابث مبنز
Ebenezer	ابنزر
Mr. Funky	مستر فنكي
Fawkes, Guy	جاي فوكس
Grummer	جرمر
Griggs	جربجز
Gabriel Grub	جبرائيل جرب
Gower Street	شارع جوار
Groffin, Thomas	توماس جروفن
Garaways	جرويز
Green, Clapham	كلابم جرين
Guildhall	جلد هول
Markis Granby Dorking	الماركيز جرانبي دوركنج
Gunter	جنتر
Guy Fawkes	جاي فوكس
Henry Beller	هنري بلر
Humm, Anthony	انتوني هم
Hudibras, Lud	لد هوديبراس
Holborn Court	هولبورن كورت
Harris Hopkins	هاريس هبكنز
Jinks	جنكس

Jupkins, Elizzabeth	إليزابث جبكنز
Jonas Mudge	جوناس مج
Mr. John Smauker	مستر جون سموكر
Kensigton	كنزنجتن
Leaden'all Marrket	سوق لدنهول
Lant Street	لانت ستريت
Langham Place	ميدان لانجام
Lud Hudibras	لد هوديبراس
Magnus	ماجنس
Mile End	مايل اند
Marlborough	مارلبره
Muzzle	مزل
Miss Matinter	مس متينتر
Muffins, Elizabeth	إليزابث مفنز
Mrs. Mudberry	مسز مضبري
Lord Mutanhed	لورد مطنهد
Martin, Betsy	بتسي مارتن
Mallard	مالارد
Mordlin	موردلن
Mudge, Jonas	جوناس مج
Mr. Muzzle	مستر مزل

Noakes	نوكس
Nupkins	نبكنز
Nockemorf	نوكمورف
Noddy	ندي
Pancras	بانكراس
Percival	برسيفال
Mrs. Porkenham	مسز بركنهام
Phunky	فنكي
Pliny	بليني
Pruffle	برفل
Richard Upwich	ريتشارد أبويتش
Mr. & Mrs. Raddle	مستر ومسز رادل
Lady Snuphanuph	الليدي اسنفنف
Slummintowkens	سلميتنوكنز
Mr. Slasher	مستر سلاشر
Mrs.Sanders	مسز ساندرز
Mr. Stiggins	مستر ستيجنز
Sawyer, Bob	بوب سوير
Mr. Sanders	مسز ساندرز
Southwark	ساوثورك
Stokes	ستوكس

Stiles	ستايلز
Mr. Snubbin	اسنبن
Searjeant Buzfuz	بزفز
Skimpin	اسكمبن
Stareleigh	ستيرليه
Smart, Tom	سمارت (توم)
Smauker, John	جون سموكر
Miss Sawbones	سوبونز
Lady Tollimglower	ليدي تولنجلوار
Thomas Groffin	توماس جروفن
Thompson	طمسن
Tuppins, Elizabeth	إليزابث طبنز
Thomas Burton	توماس برتن
Tom Smart	توم سمارت
Tavistock Square	ميدان تافستوك
Tadger	تادجر
Tom Wildspark	توم وايلد سبارك
Mr. Tuckle	مستر طكل
Tom	توم
Upwich, Richard	ريتشارد ابويتش
Witherfield	ويذر فيلد

White Horse Cellar	هوايت هورس سلر
Mrs. Wugsby	مسز وجزبي
Walker	ووكر
Wildspark, Tom	توم وايلد سبارك
Mr. Whiffers	مستر وفرز
Whiffin	ويفن
Mrs. Watty	مسز وطي
Arthur	آرثر
Alfred Jingle	ألفرد جنجل
Ayresleigh	أيرسليه
Adelphi	الأدلفي
Advertiser, the	الأدفرتيزر
Ann	آن
Bell Savage	فندق بل سفج
Bramah	براما
Botany Bay	خليج بتني
Bell Alley	زقاق بل
Bill	بل
Birmingham	برمنجهام
Bejamin	بنجمن
Bess	بس

Bush, the	فندق بش (الدغل)
Bilson & Slum	بيلسن واصلم
Bailie Mac	بيلي ماك
Bell, the	فندق بل
Berkeley Heath	باركلي هيث (مروج باركلي)
Boffer	بفر
Bengal	البنغال
Blazo, Thomas	تومس بليزو
Coleman Street	شارع كولمن
Crooky	كروكي
Chancery Lane	تشانسري لين
Cornhill	كورنهل
Coventry	كفنتري
Calton Hill	تل كولتن
Mrs.Cripps	مسز كربس
Covent Garden	كفنت جاردن (سوق الخضر في لندن)
Clifton	كلفتن
Cluppy	كلبي
Chronicle, the	الكرونيكل (الأخبار)
Catenton Street	شارع كتنتن

Cannongate	كننجيت
Dulwich	ضلوتش
Dingley Dell	دنجلي دل
Deacon	ديكن
Demerara	دمرارا
Dorking	دوركنج
Dunchurch	ضنتشرتش
Daventry	دفنتري
Dover	دوفر
Dundee	ضندي
Drury Lane Theatre	مسرح دروري لين
Dick	دك
Eatanswill	ايتنزول
Edinburgh	أدنبرة
Emmanuel	عمانويل
Freeman's Court	محكمة فريمن
Farrigdon Street	شارع فرنجدن
Fleet, the	سجن فليت
Fox-under-the- hill	فوكس أندرذهل
Filletoville, Marquess	مركيز فيلتوفيل
George Yard	جورج يارد

St. George's Fields	سانت جورجز فيلدز
O'Granby, Marchioness	المركيزة جرانبي
Glasgow	جلاسجو
Goswell Street	شارع جزول
Gray's Inn	جريز إن
Holyrood	هوليرود
Hampstead	هامستد
Holborn	هولبورن
Hounslow Heath	هاونزلو هيث
Hop Pole, the	فندق هب بول
Hourdsditch	هاوندزديتش
Isaac	أيزك (إسحق)
Jemmy	جمي
Jackson	جكسن
Joe	جو
Job Trotter	جب تروتر
Kensington	كنزنجتن
Leith Walk	طريق ليث
Lowton	لوتن
Liverpool	لفربول
Lombard St.	شارع لومبارد

Lincoln's Inn Fields	لنكنز إن فيلدز
Muggleton	مجلتن
Marquis of Granby	مركيز جرنبي
Margaret	مرجريت
Morning Herald, the	المورننج هرالد (اسم صحيفة)
Martin, Tom	توم مارتن
Madeira	ماديرا
Magpie & Stump	حانة ماجباي واسطمب
Montague Place	مونتاجيو
Mary	ميري
Mivins	ميفنز
Newfoundland	نيوفاوندلاند
Newgate	(سجن) نيوجيت
North Bridge	نورث بردج (الجسر الشمالي)
Newport	نيو بورت
Nat	نات
Neddy	ندي
New South Wales	نيو ساوث ويلز
Namby Mr.	مستر نامبي
Osborne's Hotel	فندق أوزبورن
Old Royal	أولد رويال

Mr. Pott	مستر بت
Peacock Inn	فندق بيكوك
Payne	بين
St. Paul's Cathedral	كنيسة القديس بول
Mr. Prosee	مستر بروزي
Portugal St.	شارع برتيوجل (البرتغال)
Porkin	بوركن
Pell, Solomon	بل (سلمون)
Polygon	البوليجن (اسم مكان)
Price, Mr.	مستر برايس
Rochester	روتشستر
Roker, Mr. Tom	المستر توم روكر
Richmond	ريتسمند
Richard	ريتشارد
Regency Park	منتزه ريجنس
Mrs. Rogers	مسز روجرز
Russel Square	ميدان رسل
Robinson Crusoe	روبنسون كروزو
Rules, the	حي الرولز
Smart, Tom	توم سمارت
Simmery	سمري

Shooter's ill	شوترزهل
Smith	سميث
Saint Simon	القديس سايمن
Mr. Stiggins	مستر استنجز
Mrs. Sanders	مسزساندرز
Mr. Snicks	مستر سنكس
Sergeant's Inn	سرجنتز إن
Mr. Solomon Pell	مستر سلمون بل
Stumpy	استمبي
Simpson	سمسن
The Stump	حانة الاسطمب
Susan	سوزان
Slurk	سلرك
Slumkey	سلمكي
Saracen's Head	سرسنزهد (رأس العربي)
Smouch	سماوتش
Sarah	سارة
Shakespeare	شكسبير
Smangle	سمانجل
Tewkesbury	تيوكسبري
Tollinglower, Lady	ليدي تو لنجلوار

Toweester	تاوسستر
Tizer	صحيفة الأدفرتيزر
Tommy	تمي
Turpin	تربن
The Times	التايمز (صحيفة)
Trotter, Job	جب تروتر
Tyburn	طايبرن
Mr. Trundle	مستر ترندل
Wilkins Flasher	ولكنز فلاشر
Saint Walker	القديس ووكر
Whitechapel	هوايتشابل
Whitecross Street	هوايت كروس ستريت
Zephyr	زفير

مذكـرات بكـوك

يأخذنا تشارلز دِيكنز في (مذكِّرات بكوك) عبر رحلاتٍ طويلةٍ لا تنتهي في الأسفار والمغامرات الشيِّقة والحكايات العجيبة والقصص الغريبة، حتى لا نعرف —حين ننتهي من قراءة فصلٍ– ما الذي سيأخذُنا إليه الفصل القادم؟

يتشكَّل الكِتَاب من متتالياتٍ قصصيَّةٍ، أو هو عبارةٌ عن روايةٍ متشظِّيَّة الأماكن والأزمنة، حتى ليتسنَّى للقارئ أن يقول بمنتهى الارتياح: «(مذكِّرات بكوك) كِتَابٌ لتدوين أحوال المجتمع الإنجليزي أيَّام كان دِيكنز حيًّا».

سيرى القارئ في هذا الكِتَاب كل الشخصيَّات التي قد تطرأ على باله، كما يتناول جميع الموضوعات التي تتداولها المجتمعات... هو كِتَابٌ يجمع الهزل بالجد، والضحك بالبكاء. يصلح لأن يكون جليسًا صالحًا، وخليلًا مؤنسًا.

ISBN 978-977-765-093-9

9 789777 650939

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS